المكتبة التاريخية

موسوعة الحضارات القديمة

(الميسرة)

رئيس التحرير

أ.د. محمد سهيل طقوش

جماعة من المختصين

دار النفائس

موسوعة الحضارات القديمة

(الميسرة)

تأليف

جماعة من المختصين

رئيس التحرير

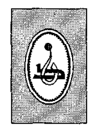
أ. د. محمد سهيل طقوش

دار النفائس

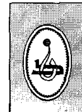
موسوعة الحضارات القديمة
المنسق العام للموسوعة: أحمد راتب عرموش

الطبعة الأولى: ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م
ISBN 978-9953-18-484-5

publisher **نشر**



DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194
Beirut - Lebanon



دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان - بناية الصباح
وصفي الدين - ص.ب 5152 - 14
الرمز البريدي: 2020 - 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 - 009611810194
بيروت - لبنان

Email: alnafaes@yahoo.com
Web Site: www.alnafaes.com

اللجنة المشرفة

المشاركون في التحرير[1]

- **أحمد راتب عرموش:**
ماجستير دراسات إسلامية ـ مدير دار النفائس ـ عضو اتحاد الكتّاب اللبنانيين.

- **أ. د. أسعد السحمراني:**
أستاذ العقائد والأديان في جامعة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية.

- **أ. د. جمال البدري:**
أستاذ جامعي، باحث في اتحاد المؤرخين العرب ببغداد.

- **أ. د. جمعة شيخة:**
أستاذ التعليم العالي للأدب والحضارة في كلية الآداب بجامعة تونس.

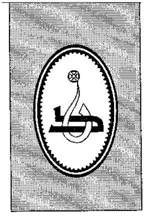
- **أ. د. حنان قرقوتي:**
أستاذة الحضارة بجامعة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية.

- **د. عدنان مامو:**
دكتوراه، في تاريخ مصر القديم ـ جامعة عين شمس ـ مدرس تاريخ مصر القديم في جامعة حلب ـ قسم التاريخ.

- **أ. د. محمد سهيل طقوش:**
مؤرخ، وأستاذ في جامعة الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية.

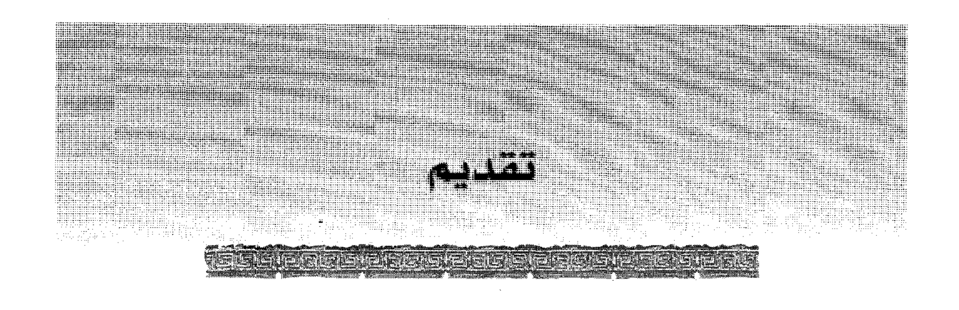
---

(١) رتبت أسماء المشاركين في التحرير ألفبائياً.



موسوعة
الحضارات القديمة
(الميسرة)

بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

يختــزن كوكب الأرض من الأسرار ما لا يعلمــه إلا خالقه، ومرَّت عليه، وعاشت فيه أقــوام ودول، وســادت حضــارات كثيرة، ثم انقرضــت لأسباب كثيــرة ومختلفة، جعلت المعري يقول شعراً:

صاحِ هـذي قبورُنا تمـلأ الرحبَ   فـأيـن الـقـبـور مـن عـهـد عـادِ

وربمــا كان يَظنُّ أن قوم عاد هم أقــدم الحضارات على هذا الكوكب الجميل، ولكن الأبحاث العلمية تكشف كل يــوم عن جديد من الحضارات، وفي الحضارات التي بادت وتركت آثارهــا العمرانية، وغير العمرانيــة أحياناً، للأجيال التي تلتهــا. ولستُ بحاجة لتأكيــد المؤكد من أن الإنسان يبني على ما سبقه ويضيــف إليه في كل العلوم ولا يبدأ من جديــد. من هنا نبــع الاهتمام بالحضــارات القديمــة لإشباع النهــم الإنساني إلى المعرفــة، وللاطلاع على ما حققته الأمم السابقة من تقدُّم علمي وإنساني، والاستفادة منه، وبخاصة أن الإنسان يقف مبهوراً أمام بعض ما أنجزه القدماء، ويعجز عن تفسير الطرائق التي اعتمدها بناة قلعــة، كقلعة مدينة بعلبك، وكيف كانوا ينقلون حجراً وزنه ألــف طن من مقلعــه إلى حائط القلعة، بينمــا تجد المعدات الحديثــة صعوبة في نقله ورفعــه لوضعه في مكانــه من الحائط، علماً بأنه يوجد حجر بهــذا الوزن تقريباً يدعى «حجر الحبلى» في مقلع بالقرب من المدينة منحوت وجاهز للنقل، ولا أحد يعلم سبب عدم نقله، بينما يوجد حجر مماثل له في حائط القلعة.

إذاً، ما لا شك فيه أن البشر الذين قاموا بذلك العمل كان لديهم تقدم كبير مذهل في علوم الهندسة استفاد منه العلم الحديث.

وما ينطبــق على قلعة بعلبــك ينطبق على العمــارة الجنائزية (الأهرامــات) في مصر، ومقابرها القديمة (الفرعونية) التي لا تــزال تكشف يوميّاً عن أسرار دفينة، ومن المعروف أن علم التحنيط الذي اعتمده الفراعنة في حفظ جثث موتاهم يذهل علماء العصر الحديث.

وقــد كُتب الكثير عن الحضارات القديمة، بعضها مختصر لا يروي الغليل، وبعضها

مفصَّل يهم المختصين من دون غيرهم، وقد ارتأت دار النفائس في بيروت أن تصدر موسوعة ميسَّرة لهذه الحضارات، تروي شغف القراء المهتمين بمعرفة ما حققته الأمم السابقة من تقدُّم علمي وفني واجتماعي، وتصلح لاعتمادها في التدريس في المرحلتين الثانوية والجامعية بحسب المقررات المعتمدة فيها.

وقد اختارت الدار نخبة من أساتذة الجامعات المختصين بالتاريخ وبالحضارات، ليكتب كل منهم بحسب اختصاصه وعن الحضارة التي اختارها هو بنفسه، وسيحمل كل موضوع اسم كاتبه، ويُذَيَّل بالمصادر والمراجع التي يمكن لكل راغب بالاستزادة في المعرفة الرجوع إليها.

أما المنهج الذي طُلب من الكتّاب اعتماده فهو الآتي:

١ - إعطاء لمحة جغرافية عن مكان نشأة الحضارة، موضوع البحث، ونطاقها الجغرافي.
٢ - ذكر موجز تاريخي عن تلك الحضارة وزمانها ومراحل تألقها.
٣ - تواصلها مع الحضارات الأخرى المعاصرة لها وتأثرها بها، وبالحضارات السابقة لها، وأثرها في الحضارات اللاحقة لها وبالحضارة الإنسانية عموماً.
٤ - أبرز سمات تلك الحضارة، وأهم إنجازاتها في مختلف الشؤون، من دين وعقائد وتنظيم وتشريع وآداب وعلوم وفنون.. وغيرها.

وقد تقيَّد معظم الكتّاب مشكورين بالمنهج المعتمد وقدَّم كل منهم أفضل ما استطاع لكي تأتي الموسوعة وفق منهج واحد. فمما هو معلوم أن لكل مؤلف طريقة ومنهجاً وأسلوباً يختلف عن الآخر، ومع ذلك فسلبيات العمل الجماعي تبقى أقل من إيجابياته، ولا بد من تخطي صعوباته لكي يستفاد من ميِّزاته.

وقد تضمنت الموسوعة جميع الحضارات التي سبقت الإسلام، لأن الحضارة الإسلامية لا تدخل ضمن الحضارات القديمة، وهي مستمرة ما استمر وجود كوكب الأرض بإذن الله خالق السماء والأرض.

وختاماً فإننا نأمل أن تسدَّ هذه الموسوعة الميسَّرة ثغرة في المكتبة العربية وأن يستفيد منها القراء جميعاً،

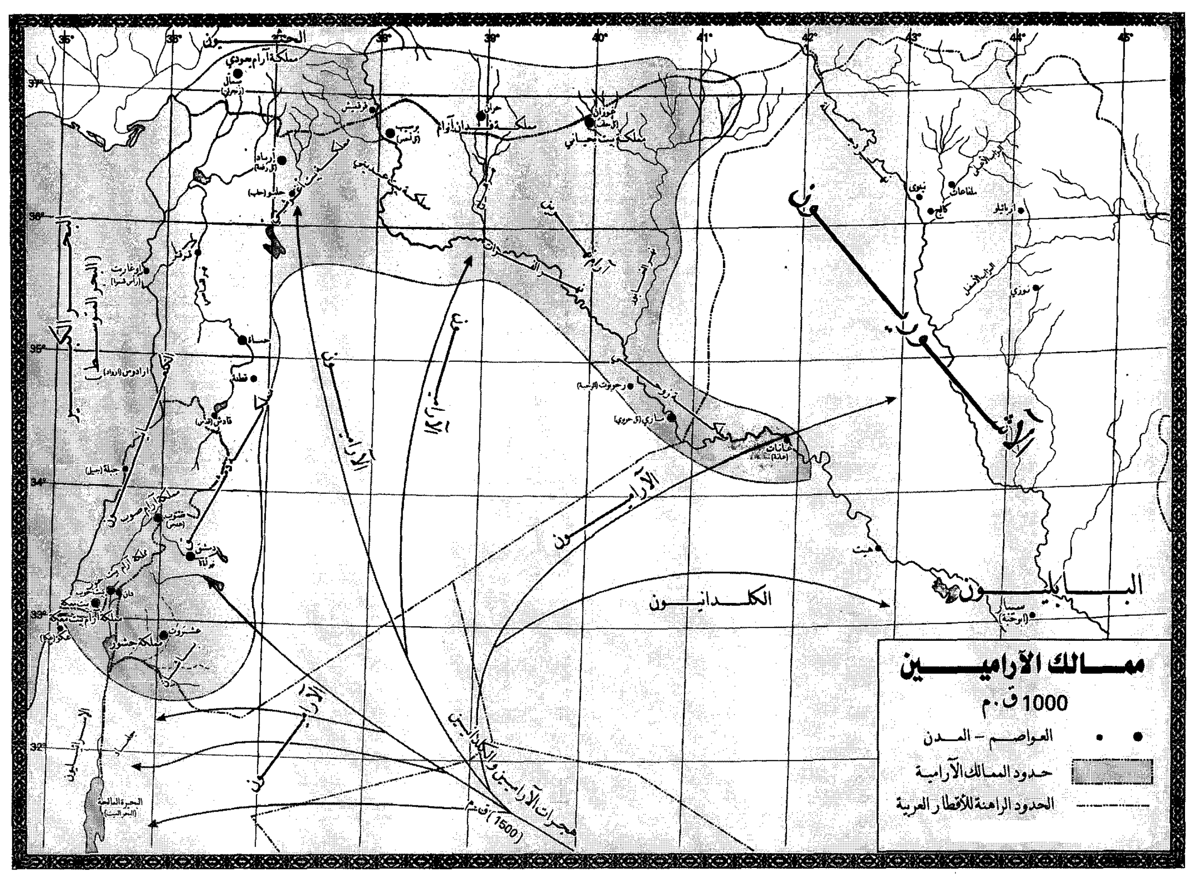
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أحمد راتب عرموش

الناشر المنسق العام للموسوعة

الحضارة الآرامية

أ. د. محمد سهيل طقوش



عن أطلس تاريخ الحضارات: أطلس التاريخ القديم، إشراف حلمي الغوري وآخرين

الموقع والجغرافيا

تمتد أراضي آرام، التي سكنها الآراميون، من جبال لبنان في الغرب إلى ما وراء نهر الفرات في الشرق، ومن جبال طوروس في الشمال إلى ما بعد دمشق في الجنوب. وقد أُطلق على هذه المنطقة اسم سوريا وتُعدُّ جزءاً من إقليم الهلال الخصيب الذي يقع بين منطقة الجبال الشمالية، هضبة الأناضول، وبين المنطقة الجنوبية الصحراوية، وهو عبارة عن أراضٍ خصبة على شكل هلال، تُشكله الأنهار التي تنبع من الجبال الشمالية وجبال القسم الغربي منه، ويروي نهرا دجلة والفرات الجزء الشرقي من هذا الهلال، أي السهل الواقع شمالي الخليج العربي وهو سهل شنعار، ويُطلق على الأراضي الواقعة بينهما اسم بلاد الرافدين أو بلاد ما بين النهرين.

يتألف القسم الغربي من الهلال الخصيب من أراضي سوريا ولبنان وفلسطين، ويمتد من جبال طوروس شمالاً حتى صحراء سيناء والبحر الأحمر والجزيرة العربية جنوباً، ويحده من الغرب البحر الأبيض المتوسط ومن الشرق بلاد الرافدين.

تنقسم سوريا من حيث التكوينات الطبيعية إلى أربعة أقسام هي:

- سهول ساحلية في الغرب تمتد من خليج إسكندرون حتى شبه جزيرة سيناء، وهي طبقة تنحصر بين البحر وسلاسل الجبال الغربية، ترويها أنهار صغيرة سريعة الجريان يجف قسم منها في فصل الصيف.

- سلاسل جبال تمتد من الأمانوس حتى سيناء، وكانت قديماً مغطاة بالغابات وبخاصة شجر الأرز في جبال أمانوس ولبنان.

- حفرة انهدامية تقع بين سلاسل الجبال الغربية والداخل، تمتد من سهل العمق في الشمال حتى خليج العقبة في الجنوب، وتضم سهولاً خصبة أهمها سهل البقاع الواقع بين سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية.

- المنطقة الداخلية حيث يجري نهرا بردى والعاصي، قامت فيها مدن كبيرة ما يَزالُ بعضها قائماً حتى الآن، أشهرها دمشق وحمص وحماة، ومدن أصغر منها مثل يبرود وقادش وربلة قرب بحيرة حمص، وقطنا شرقي حمص وقرقر شمالي حماة.

أدَّت التكوينات الطبيعية إلى:

- تعدد الوحدات السياسية وصعوبة قيام وحدة بينها، لكنها تشترك بحضارة واحدة.

- انفصال منطقة الحفر الانهدامية عن الساحل والداخل معاً، إلا أنها تتصل بالساحل عبر وديان بحذاء نهر الليطاني وصولاً إلى صور وسهل الجليل ووادي الغور في فلسطين.

- قيام ممالك مدن في السهول الداخلية كانت تتحد أحياناً لصد خطر.

- قيام محاولات متعددة للسيطرة على منطقة النهارينا، بين العاصي والفرات وروافده، لأنها تشكل نقطة اتصال وتقاطع أهم طرق العالم القديم، ولهذا نشب فيها كثير من المعارك مثل قادش وقرقر وقرقميش.

الآراميون عبر تاريخهم

أصل الآرامين

أعقبت هجرة الكنعانيين والعموريين من الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب، تدفق موجة الجماعات الآرامية على شكل قبائل بدوية إلى الهلال الخصيب. والآراميون نسبة

إلى آرام بن سام بن نوح، والراجح أن كلمة إرم، الواردة في القرآن الكريم، اشْتُقَّت من اسمهم. ووردت كلمة إرم في العهد القديم مضافة إلى أماكن عدة يراد بها قبيلة أو سكان الأرض العالية مثل: آرام صوبة وآرام النهرين وآرام دمشق وفدان آرام. وذُكرت آرام لأول مرة في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، اسماً لمنطقة أو دولة، في نقش مسماري للملك الأكدي نرام سين، وتقع في القسم الأعلى لبلاد ما بين النهرين، كما ذُكرت في حوالي عام (٢٠٠٠ ق.م.) في إحدى لوحات الوثائق التجارية في مدينة درهم السومرية، وتشير إلى مدينة أو دولة بالقرب من أشننا في أدنى نهر دجلة (تل أسمر)، وثمة لوحة أخرى ترجع إلى تاريخ لاحق تتضمن كلمة آرم، علماً على شخص، ونجد هذا الاسم مرة أخرى في نصوص ماري العمورية حوالي عام (١٧٠٠ ق.م.) وفي الألواح التي عُثر عليها في أوغاريت.

الواضح أن هذه الإشارات لا تساعدنا على الوقوف على تاريخ الآراميين القديم، ولكنها تكفي لتعديل الرأي الذي كان سائداً في وقت ما من أن ذلك التاريخ يبدأ في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

والواقع أن معلوماتنا عن الآراميين تكون أدق بدءاً من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد عندما أخذ الآراميون يستقرون في منطقة الفرات الأوسط (الخابور ـ البليخ ـ الفرات) وفي المنطقة الوسطى والشمالية الشرقية من سوريا في أواخر الألف الثالثة قبل الميلاد، بعد أن توغلوا في شمال الجزيرة العربية، فجاوروا حضارة بلاد الرافدين وحضارة الحثيين فاقتبسوا منهما، كما اقتبسوا من حضارة الكنعانيين والعموريين ما أتاح لهم تنمية لغتهم وثقافتهم.

يتكوَّن الآراميون من قبائل وعشائر عدة وفروع، منهم باسم أخلامو أو أحلامو، وهي تسمية شاملة وردت في الكتابات القديمة لجماعة من القبائل البدوية في شمالي الجزيرة العربية، ويبدو أن الآموريين أطلقوا هذه التسمية عليهم وهي تعني الأصدقاء. وأضحى الأخلامو مرتبطين كلياً بالآراميين. فقد ذكرت إحدى رسائل تل العمارنة أن قبيلة أخلامو الآرامية قد استوطنت شواطئ الفرات في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وورد في نص للملك الأشوري حدد نيراري الأول، حوالي عام (١٣٠٠ ق.م)، أن أباه استولى على أراضي قبيلة أخلامو الآرامية الواقعة في شمالي بلاد ما بين النهرين. ويستفاد من نص وثيقة تاريخية، وهي رسالة بعث بها ملك الحثيين حاتوسيل إلى ملك بابل حوالي عام (١٢٧٥ ق.م)، أن قبيلة أخلامو الآرامية كانت تقطع الطريق بين المملكتين. وأدى زوال دولة الميتانيين في حوالي عام (١٢٥٠ ق.م)، إلى نشوب نزاع ثلاثي على اقتسام أراضيها بين الآراميين والحثيين والأشوريين، كذلك أدى سقوط دولة الحثيين، في حوالي عام (١١٨٠ ق.م)، إلى نشوب نزاع بين الآراميين والأشوريين للغاية نفسها.

واصطدم الملك الأشوري تغلث فلاسر الأول (١١١٢ ـ ١٠٧٤ ق.م) بالأخلامو الآراميين على مدى سنوات، فاجتاز الفرات ثماني وعشرين مرة لمحاربتهم، وكان يجتازه مرتين أحياناً في السنة الواحدة، فيصل إلى تدمر،

لإخضاعهم والسيطرة على بلادهم، ما يؤكد قوة هؤلاء وشدة مراسهم.

وقد ورد ذكر جماعات أخرى مع الأخلامو سميت بـ الخبيرو أو الهبيرو أو العبيرو، وهي كلمة كانت تُطلق على القبائل العربية الرحل التي كانت تجوب القسم الشمالي من الجزيرة العربية، وقد انضمت إلى القبائل الآرامية، وصُحِّفت هذه الكلمة إلى عبري وعبراني.

وعليه فإن الصورة الواضحة عن الآراميين تبيِّن أنهم، كغيرهم من الشعوب السامية، يظهرون على مسرح التاريخ أولاً بدواً تتفق تحركاتهم مع انتقال البدو في مواسم معينة من أطراف الصحراء إلى مناطق الاستقرار والحضارة، ويتبيَّن من خلال تحركاتهم أنهم سلكوا الطرق التقليدية للشعوب السامية باتجاه الشمال وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين وأرض كنعان، أي منطقة الهلال الخصيب.

وفي الوقت الذي كان فيه الآراميون يغيرون على الأراضي الواقعة في شمالي شرق سوريا حتى بلاد ما بين النهرين، كانت إحدى القبائل الآرامية، وتدعى كلدة أو كلدو، تغير على جنوبي بلاد الرافدين، وأُطلق اسمها على المنطقة، أي بلاد كلدو أو بلاد الكلدانيين، وقد أَسَّست إمارة صغيرة في القرن التاسع قبل الميلاد.

انقطع سيل الهجرات الآرامية في القرن العاشر قبل الميلاد، وكانت قد تأسَّست ممالك وإمارات آرامية في مناطق مختلفة من سوريا وما بين النهرين انصرفت إلى العمل الزراعي والتجاري، فاستقرت وتحضَّرت، لكنها بقيت مستقلة بعضها عن بعض وإن كانت تتحالف عند وقوع خطر وتتنازع فيما بينها في أوقات السلم، وقد تسبَّب ذلك في ضعفها وتأخرها.

قيام الممالك الآرامية

بلغ الآراميون ذروة قوتهم السياسية وتوسعهم على الأرض في القرنين الحادي عشر والعاشر قبل الميلاد، وساعدتهم الظروف المواتية آنذاك على تحقيق ذلك. فقد بدا ضعف الأشوريين واضحاً في أعقاب حكم تغلث فلاسر الأول، وبدأ تراجع النفوذ المصري في سوريا في عهد رعمسيس الثالث (١١٩٨ ـ ١١٦٧ق. م)، وتبدَّدت سيطرة الحثيين والميتانيين في شمال سوريا، وزال حكم الميديين في الغرب؛ فأسسوا سلسلة من الممالك الصغيرة في سوريا والعراق، علماً بأنهم حاولوا التمدُّد نحو الغرب للوصول إلى البحر الأبيض المتوسط والاستيلاء على المدن الفينيقية الساحلية، لكن اعترضتهم سلسلة جبال لبنان الغربية، وظلَّت سلطتهم محصورة في القسم الداخلي من سوريا.

نذكر من بين أهم الممالك التي أسسوها في سوريا:

ـ آرام النهرين، أو مملكة بيت بخياني، وعاصمتها مدينة غوزانا (تل حلف)، قرب مدينة رأس العين.

ـ فدان آرام، ومركزها مدينة حران، وتقع على الطريق التجاري الذي يربط العراق بسوريا، وأضحت فيما بعد من أهم مراكز الحضارة الآرامية.

ـ آرام دمشق، وتمتد حدودها من مملكة حماة الآرامية شمالاً إلى مملكة حوبة غرباً

وجاورت المملكة التي أسسها سليمان في الجنوب، وهي أهم الممالك التي أسسها الآراميون.

آرام صوبة، وهي مملكة صغيرة أسسها الآراميون في سهل البقاع بين زحلة ووادي الليطاني عاصمتها صوبة (عنجر).

- آرام بيت أغوشي في شمالي سوريا وعاصمتها أرفاد (تل رفعت)، وامتدت حدودها من قرقميش إلى حلب، وجاورت حدودها الشرقية حدود مملكة بيت عديني، وجاورت في الغرب مملكة أنقى في سهل العمق.

- آرام سمأل في منطقة قيليقيا في سفح جبال الأمانوس غربي عينتاب، وعاصمتها مدينة زنجرلي وسمَّاها الآراميون يعودي، وهي أكبر الممالك الآرامية الشمالية.

- آرام حماة في أواسط سوريا.

وغزا الآراميون العراق وانتشروا في ربوعه وأسسوا فيه ممالك عدة، منها:

- بيت عديني في المنخفض الكبير لنهر الفرات وعلى ضفتيه وعاصمتها مدينة تل برسيب (تل أحمر) في منطقة بابل وامتدت شرقاً إلى نهر البليخ، وبلغت في الشمال الغربي منابع نهر الساجور، وضفتي الفرات الأوسط غرباً، وشملت منطقة منبج وقسماً من الرقة ودير الزور.

- زدمى على نهر الفرات بين عانة ومصب نهر البليخ، وضمَّت هذه المملكة مدناً عدة وأهمها: عانات (عانة) وخاريدي ورحوبوت (الرحبة).

- فقودو، امتدت في السهل شرقي دجلة قريباً من مصبه بجوار مملكة كمبولو.

- أتيوع، استقرت هذه القبيلة في منطقة وادي ديالى الأسفل، وانتشر أفرادها حتى سواحل الزاب الصغير.

علاقات الآراميين الخارجية

العلاقة مع الأشوريين: جاورت الممالك الآرامية بعامة دولتان كانتا على شيء من القوة والبأس هما الدولة الأشورية ومملكة السامرة في فلسطين، وبحكم هذا التجاور وبفعل الطموح السياسي للأطراف كافة اتسمت علاقات هذه الممالك مع جيرانها بالعدائية غالباً.

كانت قبيلة بيت عديني قد وصلت إلى منطقتها، المشار إليها، في عهد الملك الأشوري تغلث فلاسر الأول، فاستقرت فيها ونظمت أوضاعها وتوسعت على حساب الأشوريين، فطردت الحاميات الأشورية من بعض المدن، مثل مدينة بيترا الواقعة عند مصب نهر الساجور إلى الجنوب من قرقميش، ومدينة موتكينو الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الفرات، وكان الملك الأشوري المذكور قد أسَّسها هناك.

بقيت هذه المملكة بعيدة عن السيطرة الأشورية حتى كان عهد الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م)، الذي سار على خطى والده آشور ناصر بعل الثاني القائمة على القوة والتوسع والتدمير الوحشي، فهاجمها أربع مرات حتى سقطت في يده في عام (٨٥٥ ق.م)، فقبض على ملكها أخولي بن عديني ونفاه مع أفراد عائلته وقواته وتماثيل آلهته إلى آشور، وضمَّها إلى مملكته، وبدَّل اسم عاصمتها تل برسيب إلى اسم كور

شلمنصر، أي حصن شلمنصر، وأضحت هذه المدينة مركزاً لانطلاق الحملات الآشورية إلى منطقة أوراراتو أرمينيا الواقعة حول بحيرة وان.



نقش على الحجر البازلتي، يمثل جنّيين مجنحين يركضان وصورة الشمس والقمر في الأعلى

ووقفت مملكة حماة، في عهد ملكها زاكر، على الحياد في الصراع الآشوري - الآرامي، وعندما خلفه الملك يوبيدي نجح، في بداية حياته السياسة، في المحافظة على عرشه كأمير تابع للآشوريين إلا أنه لم يلبث أن انتفض عليهم وتحالف مع بقية الممالك الآرامية، ما دفع الملك الأشوري سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥ق.م) إلى القيام بحملة كبيرة اصطدم خلالها بقوى التحالف عند قرقر في عام (٧٢٠ق.م)، وحقّق انتصاراً واضحاً عليها، فأحرق المدن، وقتل المتمردين وفرض عليهم الجزية، وأسر ملك حماة وقتله، وحمل معه إلى بلاده غنائم وفيرة، ونفى الأسرى وأحلَّ محلهم رعايا آشوريين، وأقام حاكماً آشوريّاً على المدينة، وبذلك تحوَّلت حماة إلى ولاية آشورية.

وكانت مملكة دمشق تمارس سيادة كاملة على جميع الممالك الآرامية في سوريا في عهد ملكها رصين، الذي أُطلق عليه ملك آرام (٧٤٥-٧٢٧ق.م). ووصل الآراميون في عهده إلى ذروة قوتهم بفضل اتحادهم، فأوقفوا المد الآشوري على بلادهم. وامتدت سيادة مملكة دمشق إلى شمالي سوريا، وشملت أيضاً الآراميين في بلاد ما بين النهرين، لكن الخطر الآشوري ظل على أي حال قائماً، ونشط في النصف الثاني من القرن العاشر قبل الميلاد عندما حاول الآشوريون استعادة مداهم الحيوي، فسقطت غوزانا، عاصمة مملكة بخياني، في أيديهم بفعل الهجمات المتكررة التي شنَّها عليهم الملك آشوردان (٩٣٢-٩١٠ق.م) وابنه حدد نيراري الثاني (٩٠٩-٨٨٩ق.م)، استعاد الآشوريون بنتيجتها جميع الأراضي الواقعة على نهر دجلة والتي كانت تابعة للآراميين.

وفي الوقت الذي كانت فيه الممالك الآرامية الشمالية تتعرض لضغط الآشوريين، كانت مملكة دمشق بعيدة نسبيّاً عن هذا الضغط، ولم تكن مُهدَّدة بصورة مباشرة من قبلهم، غير أنه بعد اعتلاء الملك شلمنصر الثالث العرش الآشوري نهض لحرب الآراميين، فاجتاز نهر الفرات في عام

(٨٥٣ق.م) وأجبر جميع المدن السورية الشمالية، قرقميش وأرفاد وملطية وشمالي حلب وغيرها على دفع الجزية من الذهب والفضة والرصاص، ودخل مدينة حلب وقدَّم تضحية إلى إله المدينة حدد. ولمواجهة هذا الخطر تحالف اثنا عشر ملكاً من ملوك الآراميين، بقيادة برحدد الأول ملك دمشق، ونهضوا لمساعدة ملك حماة أرخوليني الذي كان يتعرض لضغط الآشوريين، وانضمت إليهم بعض المدن الفينيقية التي كانت تخشى خطر التوسع الآشوري باتجاه منطقة الساحل، وقد بلغ عديد القوى المتحالفة ستين ألفاً، وجرت المعركة بين الطرفين عند قرقر شمالي حماة انتهت من دون نتيجة حاسمة، بدليل أن الملك الآشوري لم يستطع الاستيلاء على حماة كما أنه لم يتمكن من الوصول إلى دمشق، وعاد أدراجه إلى بلاده، وبقيت أوضاع سوريا على ما كانت عليه.

ولم يكد يبتعد الخطر الآشوري حتى اشتعلت نار الحرب بين دمشق وبين مملكة السامرة وحليفتها يهوذا، فاستغل شلمنصر الثالث هذه الفرصة وهاجم سوريا مرات عدة لكنه ارتد عنها بفعل تحالف القوى الآرامية، وظلَّ يراقب تطور أوضاع هذه المملكة علَّه يصادف فرصة يُجدِّد من خلالها هجماته عليها.

وحدث بعد وفاة الملك بن حدد الأول في حوالي عام (٨٤٤ق.م) في ظروف غامضة، أن اغتصب الملك رجل يُدعى حزائيل (٨٤٤ـ ٨٠٠ق.م) فانحلَّ في عهده التحالف الآرامي، غير أنه استطاع أن يُوحِّد الممالك السورية الآرامية ضد الآشوريين ما دفع الملك شلمنصر الثالث إلى العودة إلى المنطقة عام (٨٤١ق.م)، وهو ينوي مهاجمة دمشق، فاستعد حزائيل لملاقاته، فحصَّن عاصمته ثم خرج منها للاصطدام به، وعسكر عند أسفل جبل حرمون لقطع الطريق الذي يوصل إلى المناطق الجنوبية الغربية من أراضيه ومنعه من عزل منطقة دمشق. وجرت المعركة بينهما عند سفح الجبل، ويبدو أن ملك دمشق تعرَّض للخسارة وفرَّ من أرض المعركة ناجياً بحياته، فتعقبه الملك الأشوري وحاصره في عاصمته، لكن المدينة استعصت عليه ما دعاه إلى الانتقام بقطع أشجار غوطة دمشق وتهديم القرى والمدن في حوران، ثم عاد إلى بلاده بعد أن فرض الجزية على الممالك الفينيقية.

وما جرى بعد ذلك من قيام هدنة بين الآراميين والأشوريين استمرت ثلاث سنوات، استأنف بعدها الملك الأشوري حملاته ضد دمشق إلا أنها لم تحقق سوى إخضاع بعض المدن وفرض الجزية عليها، ثم تعرَّضت آشور للقلاقل إثر وفاة الملك شلمنصر الثالث بفعل ما نشب من النزاع على العرش بين ورثته، كما شُغلت بالحروب ضد المناطق الشرقية الخاضعة لحكمها، ما أتاح لملك دمشق متنفساً استغله في ترتيب شؤون مملكته وإعداد حملة ضد السامرة لأنها ساندت الآشوريين ضده، إلا أنه توفي قبل أن ينفذ مشروعه، وخلفه ابنه برحدد الثاني (٨٠٠ـ ٧٧٠ق.م)، وكان معاصراً لملك آشور حدد نيراري الثالث بن شمشي حدد الخامس (٨١٠ـ ٧٨٢ق.م) الذي سار على خطى والده وأخذ يستعد لمهاجمة مملكة دمشق وبعض

الممالك الآرامية الأخرى في سوريا. ونهض برحدد الثاني للدفاع عن أراضيه، وحتى يقوي موقفه شكَّل تحالفاً ضم سبعة ملوك آراميين معروفين بعدائهم الشديد للآشوريين منهم ملوك: أغوش وغوروم وسمأل وقيليقيا والعمق، وتحرَّك بقواته صوب حماة الموالية آنذاك للآشوريين وحاصر ملكها زاكر، فالتمس هذا المساعدة من الآشوريين ما اضطر برحدد إلى فك الحصار عنها وعاد إلى دمشق. وهاجم الملك الآشوري سوريا الآرامية في عام (٧٩٨ ق.م). فأخضع حاتي وكل أراضي أمورو وصور وصيدون وآدون، ثم هاجم مملكة دمشق وحاصرها حتى أخذ الجزية.

وخفَّ الضغط الآشوري عن الممالك الآرامية بعد وفاة حدد نيراري الثالث، إذ لم تتجاوز الحملات التي قام بها خلفاؤه المناطق التابعة لمملكة حماة، ونعمت مملكة سمأل بهدوء كامل في ظل حكم ملكها بناموه الأول الذي أقام تمثالاً كبيراً للإله حدد في زنجرلي في حوالي عام (٧٥٠ ق.م) منحوتاً من الحجر البركاني نقشت عليه كتابة آرامية تتحدث عن رفاه المملكة وعظمتها في عهده، ولم يعكر هذا الهدوء سوى حملة قام بها الملك الآشوري نيراري الخامس (قتُل سنة ٧٤٦ق.م) ضد مملكة أرفاد، وأجبر ملكها ماني إيل على توقيع معاهدة تحالف.

وفي عام (٧٤٥ ق.م) اعتلى العرش الآشوري تغلث فلاسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) وهو أحد كبار الملوك الآشوريين الأشداء، ولم يكد يتولى الحكم حتى هاجم الممالك الآرامية، فتقدم نحو أرفاد التي كانت تتزعم المقاومة ضده في سوريا الشمالية، حاصرها مدة ثلاث سنوات حتى سقطت في يده في عام (٧٤٠ ق.م) وضمها إلى مملكته وجعلها ولاية آشورية، كما أجبر ملوك الآراميين ومنهم ملك دمشق أن يُقدِّموا إليه الطاعة والولاء، لكن هذا الخضوع أثار ملوك الآراميين فتنادوا إلى عقد حلف جديد لمواجهة الخطر الآشوري بزعامة مملكة سمأل في عهد ملكها عزريو. وعندما علم تغلث فلاسر الثالث بذلك، سار على رأس جيش كبير في عام (٧٣٨ ق.م) إلى سوريا، فهاجم مملكة سمأل وقضى على ملكها وعلى الممالك المتحالفة معها ونصَّب بناموه الثاني أحد أبناء بارصور ملك سمأل، وقد ظل مخلصاً لتبعيته للآشوريين، ووسَّع مملكته بما أقطعه له الملك الآشوري من بعض الأراضي المجاورة.

وظلت مملكة دمشق عصية على تغلث فلاسر الثالث، فزحف إليها في عام (٧٣٤ ق.م) على رأس جيش كبير، وأخضع في طريقه ممالك آرامية وفينيقية عدة ووصل في زحفه إلى غزة فاستولى عليها وعلى السامرة، ثم هاجم دمشق وحاصرها، وصدَّ ملكها رصين هجماته المتكرر عليها. وحتى يضيق الخناق على المدينة نهب القرى المجاورة وقطع أشجار الغوطة وخرَّب كل شيء. وأخيراً سقطت دمشق في يده عام (٧٣٢ ق.م) فقتل ملكها رصين ونفى سكانها وقسَّمها إلى ولايات، وضمَّها إلى مملكته.

واستمر الآراميون في بابل مدة ثلاث وسبعين سنة أخرى حيث أسَّست القبائل الكلدانية ـ الآرامية دولة بابلية جديدة برئاسة نبو بلاصر حاكم بابل، بعد أن قضت على

الدولة الآشورية في عام (٦١٢ ق.م). وأدَّت هذه الدولة دوراً مهمّاً في تاريخ الشرق الأدنى، فقد استولت على جميع الدويلات في سوريا وفلسطين، وبلغت أوج ازدهارها في عهد ملكها نبوخذ نصر (بختنصر) (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م)، وهو ابن نبو بلاصر، ويُعدُّ أعظم ملوك الكلدان، وقد قضى على مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل عام (٥٨٦ ق.م) وسقطت الدولة البابلية تحت ضربات كورش الفارسي، وهو من الأسرة الأخمينية، في عام (٥٣٩ ق.م).

العلاقة مع مملكة داود: دخل داوود القدس وفيها البيوسيون حيث تعايش معهم وأقام حكمه وسلطته فيها وكان ذلك عام ١٠٣٠ق.م. واستمر الحكم بعده في ابنه سليمان حتى العام ٩٦٠ق.م. وقد قضى معظم أيام حكمه يحارب الشعوب المجاورة لكي يضمن أمن مملكته ويحرص على أن لا تتسرَّب إليها عدوى الوثنية من الأمم المجاورة، وينتقم لهجمات نفذها أعداؤه ضده، ويسيطر على الطرق التجارية بين الجنوب والشمال.

ومن بين الذين كان على عداء معهم، بعض ممالك الآراميين منها صوبة وحماة ودمشق. فأخضع حدد آزر ملك صوبة وفرض عليه الجزية، وغنم من مدينتيه، طابح وبيروثاي، نحاساً كثيراً جدّاً. وتزعَّم ملك صوبة تحالفاً آراميّاً ـ عمونيّاً موجهاً ضده، فنهض لضرب قوى التحالف وردِّ غاراتهم، كما ضرب آرام دمشق وعيَّن عليها محافظين، وقدَّم له توغي ملك حماة فروض الولاء والطاعة، والهدايا الثمينة من الذهب والفضة.

وخلف داوود ابنُه سليمان (٩٦٠ ـ ٩٣٠ ق.م) على عرش المملكة، وقد واجه خلال حياته السياسية حلفاً آراميّاً بزعامة رصين ملك دمشق الذي بلغت عداوته لهذه المملكة أشدها، ما حال بينه وبين التوسع على حساب الآراميين والسيطرة على دمشق وسوريا حتى الفرات.

وزال الخطر عن الممالك الآرامية بعد وفاة سليمان بفعل النزاع الداخلي على السلطة، والذي أدى إلى انقسام المملكة إلى قسمين هما: مملكة يهوذا في الجنوب في منطقة القدس وكانت تحت حكم رحبعام بن سليمان، ومملكة السامرة في الشمال وعاصمتها السامرة وهي تحت حكم يربعام بن ناباط من سبط أفرايم.

استغل بن حدد الأول ملك دمشق انهماك خلفاء سليمان بالنزاعات الداخلية ونهض ليوسع رقعة أراضيه على حسابهم في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد، وراح يتدخل في شؤون المملكتين يهوذا والسامرة وفرض عليهما الجزية.

وحدث أن التمس آسا ملك يهوذا المساعدة من بن حدد الأول، للتصدي لمحاولات بعشا ملك السامرة بفرض حصار على مملكته من خلال بناء حصونٍ في موقع الرامة قرب القدس، علماً بأن النزاع بين المملكتين اليهوديتين كان على الأراضي الواقعة في منطقة الجليل وجلعاد في شرقي الأردن، فأغار الملك الآرامي على شمالي مملكة إسرائيل، وفرض الجزية على ملكها.

واستمر ضغط مملكة دمشق على تلك المملكة في عهد عمري الإسرائيلي بين عامي (٨٨٦ و ٨٧٥ ق.م)، فاستولى بن حدد الثاني

(٨٠٠ ـ ٧٧٠ ق.م) على بعض مدنها، وحصل على حق إقامة أسواق في عاصمتها السامرة. وازداد الضغط شدة في عهد أخاب بن عمري، فتوغل بن حدد في أراضي فلسطين مع حلفائه ملوك الآراميين، وحاصر السامرة ولكنه تراجع عنها ثم كرر حصاره في السنة التالية، فنشبت معركة بين الطرفين في آفيق لم تُسفر عن نتيجة حاسمة، وبفعل بروز الخطر الآشوري آنذاك اضطر الخصمان إلى عقد هدنة بينهما.

ولم يكد يبتعد الخطر الأشوري بعد معركة قرقر، حتى اشتعلت نار الحرب من جديد بين مملكة دمشق وبين المملكتين السامرة ويهوذا، ذلك أن أخاب ملك السامرة أراد أن يسترد مدينة راموث جلعاد التي كان بن حدد قد سيطر عليها من قبل، وحتى يُقوي موقفه التمس المساعدة من يهو شافاط، ملك يهوذا، ونشبت بين الطرفين رحى معركة ضارية، أصيب خلالها أخاب بسهم أودى بحياته وتفرَّق جيشه.

وتجدَّدَت الحرب في عهد ملك دمشق حزائيل، فقد أراد هذا أن يُوسع رقعة أراضيه على حساب مملكة السامرة، فهاجم شرقي الأردن ووصل إلى نهر أرنون (نهر الموجب) الذي يصب في البحر الميت.

واشتد الضغط الآرامي في عهد ملك السامرة يهورام بن أخاب، وحاصر حزائيل السامرة التي تعرضت للمجاعة، ولكن الجيش الآرامي فك الحصار عنها وعاد إلى بلاده، ربما بسبب تجدُّد الخطر الآشوري على مملكة دمشق. وأقام يهورام حلفاً مع أخزيا بن يهورام ملك يهوذا وتعاونا معاً لقتال حزائيل في راموت جلعاد، فجرح يهورام في المعركة وتعرَّض جيشه للخسارة، وانسحب الملكان من أرض المعركة.

وخضع ياهو بن يهو شافاط ملك السامرة لحزائيل ودفع له الجزية، كما خضع له خليفته يهو أخاز الذي جرَّده حزائيل من قوته المادية، ولم يترك له سوى خمسين فارساً وعشر مركبات وعشرة آلاف جندي.

وتوسع حزائيل حتى سهل فلسطين الساحلي بهدف الاستيلاء على طريق التجارة مع مصر والجزيرة العربية، ثم تحول إلى القدس ليستولي عليها، فاضطر ملكا السامرة ويهوذا إلى شراء السلم منه بدفع الجزية، وقدَّما إليه الذهب والكنوز التي كانت في المعبد، واستولى حزائيل على قسم كبير من أراضي السامرة وألحقها بمملكته.

الآراميون عبر حضارتهم

اللغة الآرامية

سهَّلت صعوبات الكتابة باللغتين السومرية والأكادية، الانتشار الهائل التي صادفته اللغة الآرامية منذ الألف الأول قبل الميلاد، وقد نجد أسباباً أخرى لتعليل هذا الانتشار والفوز، فالقبائل التي تكلمت بهذه اللغة، وهي قبائل سامية، انتشرت في مختلف مناطق الشرق الأدنى القديم. وأدى الآراميون دوراً مهمّاً في التجارة العالمية ما ساعد على انتشار لغتهم التي عُدَّت والحالة هذه لغة عمومية أخضعت لسلطانها تدريجاً مختلف اللغات التي استعملت في المنطقة، والتي فشلت في فرض نفسها خارج نطاق الشعب الذي استعملها وأتخذها لغة وطنية. ورافق انتشار الكتابة

الآرامية توسع اللغة الآرامية، واتخذت من لغة الفينيقيين أبجدية أبسط من الأبجدية المسمارية وكُتبت بالحبر على مواد أخف وزناً وأسهل تداولاً من الخزف، كالرق والبردي.

إن أقدم كتابة آرامية معروفة عُثر عليها في غوزانا بشمالي سوريا، وهي ترجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد، يليها في القِدم الكتابة التي وُجدت في منطقة دمشق وتحمل اسم الملك بن حدد الأول، وترجع إلى حوالي عام (٨٥٠ ق.م). واكتُشفت في حماة كتابة على مسلة زاكر ملك حماة يرجع تاريخها إلى عام (٧٧٥ ق.م)، كما عُثر في دمشق وسمأل والمدن الفينيقية على كتابات آرامية ترجع إلى المدة بين القرنين الثامن والخامس قبل الميلاد، وهناك كتابة مدونة على ورق البردي وُجدت في مصر ترجع إلى عام (٥٠٥ ق.م).

تأثَّر الآراميون في بداية حياتهم السياسية بالكتابة الكنعانية، وحاولوا استعمال اللغة الكنعانية في كتابتهم، ولكنهم سرعان ما تخلوا عنها واستعملوا لغتهم الخاصة التي تكاملت في شمالي سوريا بين القرنين الحادي عشر والثامن قبل الميلاد، وهي المدة التي ازدهرت فيها الممالك الآرامية. ولم يقضِ التدهور السياسي على اللغة الآرامية، فاستعملها الآشوريون المنتصرون وتبنَّتها أقوام كثيرة نظراً لسهولة أبجديتها المؤلفة من اثنين وعشرين حرفاً، فاحتلت نتيجة ذلك المكانة الأولى بين سائر اللغات في العلاقات الدولية وحلَّت محل اللغة الأكادية، وامتد انتشارها من فارس إلى البحر الأبيض المتوسط، وأضحت اللغة الرسمية في كثير من البلدان بين الفرات والحدود المصرية



تمثال من الحجر البازلتي يمثل إله الحثيين تيشوب واقفاً على ثور

قبل أن تمتد إلى آسيا الصغرى وشمالي الجزيرة العربية والهند والصين، بفعل توغل جاليات آرامية وراء حدود أرض الرافدين وسوريا وفلسطين. فقد وُجدت نقوش آرامية في أماكن مختلفة من آسيا الصغرى، مثل قيليقيا وليديا وليكيا، وكذلك في فارس وبلاد العرب، وتركت الجالية اليهودية في جزيرة الفانتين، تجاه أسوان بمصر، سلسلة من كسار الخزف وأوراق البردي الآرامية تعود إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

وانعكس طابع الانقسام في تاريخ الآراميين على اللغة الآرامية فظهرت مجموعتان رئيستان من اللهجات الآرامية انبثقتا من اللغة الآرامية القديمة هما المجموعة الغربية والمجموعة الشرقية.

استقرت المجموعة الأولى في سوريا وفلسطين، وشملت النَّبْطِيَّة والتدمرية والآرامية اليهودية ـ الفلسطينية والآرامية المسيحية، وتتميز بأربع لهجات هي:

ـ اللهجة الآرامية اليهودية الفلسطينية التي كُتب بها تلمود بيت القدس وبعض أسفار العهد القديم، مثل عزرا ودانيال وإرميا وبعض إصحاحات سفر التكوين، وهي لهجة أهالي الجليل التي تكلم بها السيد المسيح وأصحابه.

ـ اللهجة الآرامية السامرية وهي قريبة جداً من لهجة أهالي الجليل، وكُتبت بها بعض القطع الطقسية وأناشيد وقصائد، وقد حلَّت محلها اللغة العربية إثر الفتح الإسلامي.

ـ اللهجة الآرامية الفلسطينية المسيحية، وهي لهجة المسيحيين الأوائل في فلسطين، وكتبت بها الأناجيل.

ـ اللهجة الآرامية الحديثة التي تُعرف بـ «السورت»، وهي وليدة الاحتكاك بين اللهجتين الغربية والشرقية وتُعدُّ بقية حيَّة للآرامية، وما يزال سكان بعض المناطق السورية يستعملونها وبخاصة في القرى الواقعة شمال شرقي دمشق مثل معلولا وبخعة وجبعدين وصيدنايا، وقد اختلطت باللغة العامية الدارجة وتأثرت في ألفاظها باللغات السائدة في تلك المنطقة.

واستقرت المجموعة الثانية في منطقة دجلة والفرات، إذ كوَّن الآراميون الذين نزحوا إلى هذه المنطقة واستقروا فيها لهجاتهم الخاصة، وامتدت حتى بلغت أرمينيا وكردستان، وتتميز هذه المجموعة بأربع لهجات أيضاً هي:

ـ الآرامية اليهودية ـ البابلية، ظهرت في المدة بين القرنين الثاني والسابع للميلاد، وكُتب بها التلمود البابلي والوثائق الأخرى التي تعود إلى هذه المدة، ومن خصائصها اختلاف صيغها.

ـ اللهجة الماندية، ظهرت عند المانديين في العراق في الأدب والدين، وقد تطورت من الآرامية القديمة وتأثرت باللغة العربية فيما بعد.

ـ اللهجة السريانية التي أضحت لهجة الآرامية المسيحية الشرقية بعد أن اتخذتها المسيحية لغة الدين والأدب، وازدهرت في منطقة الرها الآرامية التي أصبحت مركزاً للمسيحية في القرن الثالث الميلادي.

ـ اللهجة السريانية الحديثة وتتكلم بها حالياً الجماعات المسيحية في جبال كردستان والقرى الواقعة في شمالي العراق وعلى ضفاف بحيرة أورمية الشرقية وجبال طور عابدين. وقد طرأ عليها تغيير كبير في اللفظ وتأثرت بلغات البلدان المجاورة، كالعربية والتركية والفارسية والكردية.

وتبنَّت الدوائر الفارسية، بعد سيطرة الفرس على بلاد الرافدين وسوريا وفلسطين بين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد، اللغة الآرامية كلغة رسمية، ونشأت عن امتداد الحكم الفارسي على سواحل سوريا وفلسطين، وحدة حضارية سامية مؤقتة في شمالي الجزيرة العربية، وأضحت اللغة الآرامية اللغة الرسمية لذلك الجزء من الامبراطورية الفارسية الذي يقع بين الفرات والنيل، وأخذت تحل شيئاً فشيئاً محل العبرية والفينيقية وسائر اللغات السامية الأخرى في المنطقة.

وتقهقرت اللغة الآرامية مع مجيء الهيلينية إلى الشرق الأدنى في القرن الرابع قبل الميلاد، لكن ترافق ذلك مع تقدمها في منطقة أخرى في شمالي الجزيرة العربية حيث اتخذت دولتا البتراء وتدمر الصغيرتان السابقتان للإسلام، اللغة والحضارة الآرامية معاً.

وأدَّى توحيد الشرق الأدنى تحت السيطرة الرومانية في القرن الأول قبل الميلاد ثم انتشار المسيحية بعد ذلك إلى انتعاش اللغة الآرامية، فمن ناحية استخدمتها دول صغيرة جديدة يسكنها أقوام من العرب، مثل دولة الحضر التي قامت في أرض الرافدين إلى الشمال الغربي من مدينة آشور القديمة، ومن جهة أخرى، وبفعل أنها كانت لغة السيد المسيح، فقد صارت اللغة الرسمية للكنيسة السريانية، وبهذه الصفة عاشت قروناً بعد ذلك وأنتجت أدباً دينياً ضخماً.

التجارة والصناعة

استثمرت الممالك الآرامية وبخاصة مملكة دمشق موقعها الجغرافي لممارسة العمل التجاري كوسطاء في حياة اقتصادية فتحت الباب واسعاً للتبادل بين الأقطار والدول، فكانت قوافلهم تجوب الشرق الأدنى كله حاملة الأرجوان من فينيقيا، والأبنوس والعاج من أفريقيا، واللؤلؤ من الخليج العربي، كما تاجروا بالألبسة والنحاس.

واشتهرت دمشق بوقوعها على طريقين تجاريين دوليين ذَوَي أهمية حيوية، الأول هو الطريق الساحلي المعروف تاريخيّاً بطريق البحر، والثاني هو الطريق الصحراوي الذي يصل جنوبي جزيرة العرب بالهلال الخصيب، وهناك طريق ثالث يصل منطقة النقب بدمشق عبر حبرون والقدس، ويتفرع عنه طريقان يتجه الأول إلى وادي الرافدين عبر تدمر والبادية السورية، ويتجه الثاني إلى الأناضول عبر حماة وحلب.

وعملت دمشق على بسط نفوذها على الممالك الآرامية الأخرى التي تمر خطوط التجارة في أراضيها، لكنها لم تمارس عليها سياسة الحكم المباشر، واكتفت بعلاقات تعاون وحسن جوار وأحلاف عسكرية، لضمان مرور قوافلها التجارية عبر أراضيها.

انتشرت التجارة الآرامية انتشاراً واسعاً، ونقل الآراميون معهم لغتهم وثقافتهم ونشروها خارج نطاق بلادهم حتى غدت لغة الثقافة والتجارة والسياسة.

واشتهر الآراميون بصناعة التحف والحلي الذهبية والفضية والنحاسية، وصناعة الأسلحة والمركبات العسكرية، وصناعة الأقمشة المزركشة ونسجها.

الدين

اتصف الآراميون بأنهم أداة نقل واستيعاب، ويتجلَّى هذا الطابع البارز في مظاهر حضارتهم لا سيما في دينهم، فهو نتاج الأثر الذي اقتبسه تراثهم من الحضارات المحيطة بهم، وفي الوقت نفسه كان لا بد، بفعل انقسامهم السياسي، من أن يكون لكل مدينة تطورها الديني الخاص بها ومع ذلك كانت هناك آلهة عدة مشتركة، ويجري ذلك على الإله الأكبر هدد أو حدد، وهو الإله أدد عند البابليين والآشوريين، ويماثل في وظائفه إله العاصفة تشوب عند الحثيين والحوريين.

تقوم عبادة الآراميين على ثالوث مقدس يتكوَّن من:

١ ـ الإله حدد، إله العاصفة، يتجلّى في البرق والرعد والريح والمطر الغزير. عُبد هذا الإله في قرقميش وسمأل وحلب ودمشق التي اتخذ فيها ثلاثة ملوك اسماً مشتقاً من اسمه، بر حدد أي ابن حدد. ولأنه إله السماء، عُدَّ فيما بعد نظيراً لإله الشمس، وكان يُصوَّر ممسكاً بالبرق في إحدى يديه وبفأس في الأُخرى وواقفاً على ظهر حيوانه المقدس الثور، وقد دخل في عبادات اليونان والرومان على أنه زيوس وجوبيتر، وله هيكل في مدينة هيرابوليس (منبج الحالية) جنوبي قرقميش، كانت تُمارس فيه طقوس ترجع إلى عصر متقدم.

٢ ـ الإلهة أترغاتس، نسبة إلى المدينة التي وُجدت فيها، وهي إلهة الخصب العظيمة عند الساميين، وقد عرفها اليونان والرومان بهذا الاسم.

٣ ـ ويُكمِّل هذه الأسرة السماوية ابنهما سيميوس، العنصر الثالث في ثالوث الطبيعة.

وللآلهة الكنعانية مكان بارز بين آلهة الآراميين، إذ إن ما تحدَّر إلينا من الأدب الآرامي لم يكن يختلف عن أدب جيرانهم الفينيقيين، ففي سمأل نجد الإله «ال»، ويرد اسمه في نقش حدد ونقش بتمو، كما نجده في النقشين المذكورين باسمه المركب ركب ـ ال، وورد في سوجين إلى جانب الاسم غليون، وتسمَّى كثير من الملوك باسمه. وورد اسم الإله بعل في سمأل في نقش كلمو باسم بعل ـ صمد وبعل حمان، وورد في حماة باسم بعل ـ شمين، أي إله السماء، وورد في نقش زاكر بتدمر الذي يرجع إلى النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، وكان له معبد، وبعل هو الإله الأكبر في تدمر.

ولا بد من أن الآراميين عبدوا أو عرفوا الإله يهوه بفعل علاقاتهم مع مملكة النبي سليمان قبل وبعد انقسامها. فقد وُجدت أسماء أعلام في أماكن مختلفة يدخل فيها هذا الاسم، مثل يوبيدي ملك حماة في أيام سرجون الآشوري، إذ إن المقطع الأول يقابل على الأرجح يهوه، أو مثل يهورام بن توعي ملك حماة في القرن العاشر قبل الميلاد، ومثل عزريو الذي اغتصب عرش برصر ملك سمأل.

وذُكرت أسماء آلهة محلية في نقش قرية النيرب في الجنوب الشرقي من حلب، كالقمر والشمس والنار، وتشير هذه الأسماء وصفاتها إلى تأثير بلاد ما بين النهرين.

وليس لدينا سوى إشارات قليلة يمكن اتخاذها أساساً للحكم على شكل الطقوس، ويبدو أن هذه كانت شبيهة بأشكال الطقوس لدى الكنعانيين المجاورين.

إن الدين عند الآراميين كان يتبع الخطوط العامة للفكر الديني عند الساميين، إلا أنه يتضمَّن فروعاً مشتقة من الحضارات المجاورة في بلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى وكنعان.

الفن

كان مدى الإنتاج الفني في الممالك الآرامية محدوداً، إذ لم يكونوا في وضع يُمكِّنهم من الإبداع الفني وإنما كانت بلادهم ملتقى الثقافات للدول القوية المحيطة بهم،

وهو كالدين مزيج من عناصر حثية وحورية، وعناصر مقتبسة من بلاد الرافدين ومصر، والأصالة فيه قليلة، ويتغير الأسلوب بتبدل الأوضاع السياسية في الزمان والمكان، ولنا في حضارة تل حلف دليل على ذلك، وهي عبارة عن مجموعة من التماثيل ومن الأبواب التي حُفرت عليها صور بارزة. ويمكن تمييز أعمال الآراميين الفنية فيها بما اعتادوه من تصوير وجه الإنسان باللحية المحلوقة فوق الشفتين وتحتهما، وموضوعات الصور البارزة، وهي أساساً أشكال حيوانات ومخلوقات غريبة، ومناظر الصيد، ومع بعض الخشونة في التصوير، وهذا كله مقتبس من بلاد الرافدين.

وربما كانت سمأل المملكة الآرامية السورية التي يدل طابعها المختلط على التطور الذي سبَّبه مرور الزمن وتغيرات الموقف التاريخي، ففنها المعماري وفن التماثيل فيها، منقولان عن أنماط حثية وحورية، وكانت المدينة محاطة بصفين من الأسوار، تقوم في وسطها القلعة والمباني والقصور الملكية والمعابد، ومن الملامح المميزة للقصور، الفناء الخارجي، وهو على هيئة بواكي كما في الفن الآشوري، وعلى جانبي باب المدخل تمثالان لأسدين عظيمين قد فغرا الفكين وتدلى منهما اللسان، وهناك تماثيل كثيرة على صورة أبي الهول.

بدأ الفنان الآرامي بتقليد الأنماط الحثية والحورية أولاً، ثم تحوَّل في مرحلة لاحقة إلى الأنماط الآشورية، فتخلَّى عن الصورة الآرامية التقليدية لِلِّحية. وتنتمي صُوَر بر-ركب البارزة إلى هذه المرحلة الآشورية، ويبدو في إحداها واقفاً وفي أخرى جالساً وأمامه خادم، وصور الأجسام غليظة، فجة، وتخضع مواضع الأجسام والأذرع للتقاليد التي نجدها في بلاد ما بين النهرين.

وكشف علماء الآثار، من خلال التنقيب في المدن الآرامية، بعض المعابد والقصور، من ذلك معبد الرب حدد. نشأ شكل المعبد الآرامي عن امتزاج حضارتين إحداهما كنعانية-أمورية والأخرى آرامية، فجاء على نمط جديد يتمثل في معبد عين دارا في جبال لبنان (الشوف)، وهو على شكل مستطيل يتجه مدخله نحو الجنوب الشرقي، وفي الزاوية الشرقية منه بئر ماء وبقربه حوض من الحجر الكلسي، ويربط المدخل درج خارجي عريض صُنعت درجاته من الحجر البازلتي نقشت عليها أشكال تُشبه الضفائر، ويؤدي الدرج الأوسط إلى القبتين في حين يؤدي الجناحان الجانبيان إلى شرفتين، ويستندان على قاعدتين بازلتيتين كبيرتين. ويلي الدرج الأوسط عتبتان كبيرتان من الحجر الكلسي الجِيري عليهما صورة قدمين بشريتين، وعلى جانبي الدرج أسدان للحراسة برأس امرأة وجناحي طير، وخلفهما من كل جانب أسدان متقابلان يلتفتان نحو اليمين ونحو اليسار، واصطفَّ تحته نسقان من الأسود الجانبية يبلغ ارتفاعها مترين يقوم عليها الجدار اللبني المنهدم. ويُحيط بالمدخل برجان شامخان يصلان إلى قاعة أمامية مزخرفة على شكل مستطيل يصل بينها وبين المصلَّى درج، وتدخل من القاعة إلى البرج الأيمن ومنه إلى بيت الدرج الذي يلتقي بجدار القاعة الشمالي الشرقي، ويؤدي الدرج إلى عتبة كبيرة من الحجر الكلسي يحيط بها

أسدان وبرجان نُقش عليهما رسم القدم اليمنى للإنسان. وخُصِّص ثلث المصلى الأخير للسدة التي يتقدمها المحراب، وتوضع فوقها التماثيل، والقسم الباقي مخصَّص للمصلين، أُحيط برواق غُطِّيَ بعدد كبير من اللوحات البازلتية المزينة بأشكال الأسود، وللرواق مدخلان أحدهما عند الزاوية الجنوبية، والآخر عند الزاوية الشرقية للمعبد.

وبُنيت القصور الآرامية وفق مخطط البناء المعروف ببيت حيلافي (البيت العالي). من هذه القصور: قصر جوزان (تل حلف)، وقصور مدينة سمأل وبخاصة قصر كلاموه الذي يضم ثلاثة أجنحة (رسمي - داخلي سكن - جناح مؤونة). يتألف الجناح الرسمي من قاعتين كبيرتين متتاليتين، ويضم الجناح الداخلي المخصَّص للسكن تسع غرف للنوم والاستحمام، في حين يضم جناح المؤونة حجرتين كبيرتين.

النظام السياسي

تتطلب الحرب وحدة القيادة وأعني قائداً عسكريّاً يسعى إلى الارتقاء ليصبح زعيماً سياسيّاً، فغدا النظام الملكي عند شعوب بلاد ما بين النهرين وسوريا، ومنهم الآراميون، أساس الإدارة السياسية، ويمت إلى الديمقراطية البدائية، فكان القيِّمون من الشيوخ يستثمرون ندوات الرجال الأحرار. ولا شك بأن تطور النظام السياسي مرده إلى تدخل الآلهة، فكل مدينة تسيطر عليها آلهة معينة، ومع أن آلهة أخرى كانت تُعبد في المدينة، فإن لهذه الآلهة حق السيادة الأولية كما أن هيكلها يفوق سائر الهياكل عظمة وغنى، وهي التي توحي بالقرارات التي يتخذها الملك، لذا فإن السلطة الملكية تستند دوماً إلى أساس إلهي يضاف إلى ذلك؛ فإن اللقب الذي يحمله أصحاب السلطة ليس دائماً، على الأقل في أوائل العهد، لقب ملك، لذلك وُجدت كلمات مثل حاكم المدينة، نائب الآلهة، مندوب الآلهة، وبخاصة عندما احتكر المسؤولون مسؤولية الكاهن الأعظم، وأدَّى ذلك إلى اعتبار ملوك الآراميين نواباً للإله حدد، وتوقف منحهم لقب حاكم.

يُظهر هذا الدور السياسي الذي يؤديه الكهنة أو الكاهن الأعظم في شؤون المملكة، النظام السياسي بمظهر ثيوقراطي، لذلك فإن السلطة الملكية تبقى بعيدة عن التوجه نحو العلمنة، كما يُفترض بالآلهة أن تُعيِّن صاحب السلطة، ويتم ذلك وفق طقوس لا نزال نجهلها. ثم إن التقوى تبقى في هذا الحال من صفات الملك وواجباته الدينية، ومنها واجبات طقسية، فالملك بوصفه الكاهن الأكبر للإله الوطني يُقدم طقوس العبادة ويرمِّم ويُشيد ويُكرس المعابد، ويقوم بطقوس التطهير، وتقديم الذبائح، واستشارة الآلهة. وبالإضافة إلى الواجبات الدينية، يقوم الملك بالواجبات الإدارية، فهو يراقب إدارة أموال الهياكل التي يقوم بها رجال الدين، ويتدخل لتقويم ما اعوجَّ منها، ويُعيِّن الأشخاص في المناصب الكهنوتية، ولا يتردد في إسنادها إلى أفراد من أسرته.

وهناك واجبات ملكية معنوية، فمن المؤكد أن كلمات: عدالة، إنصاف، حقيقة، تُذكر أكثر من مرة، وتُفسِّر لنا العلاقة مع الآلهة،

من ذلك ما جرى من ورود نعت أو اسم الملك بعد اسم الإله.

ويقابل خضوع الملك للرغبات الإلهية طاعة مرؤوسيه العمياء له التي تسهل القيام بالواجبات الملقاة على عاتقه، لذا تشمل سلطاته جميع مرافق الحياة بما فيها المرفق العسكري. فالملك هو قائد الجيش الأعلى، يقود الجيوش في المعارك وتعده الآلهة بالنصر، ونادرة هي المعارك التي يُلقي الملك زمام قيادتها إلى نائبه أو أحد أصدقائه.

النظام العسكري

نستطيع أن نتتبع بشيء من الدقة تطور المعدات العسكرية وخطط القتال. إن تقسيم الفرق العسكرية وتنوع معداتها نسبة إلى المهمات العسكرية الملقاة على عاتقها، دقيقان جدّاً. لم يظهر الحصان إلا في وقت متأخر، وكانت الحمير تجر العربات، واستُخدمت لهدفين:

الأول: كدابة حمل تجر العربات العسكرية التي يعلوها رجال عدة.

الثاني: كحيوان ركوب ساعد الحصان في أوائل القرن التاسع قبل الميلاد على تكوين فرقة للخيالة، ولم يكن آنئذ سرج أو ركب بل فرش. حتَّم ركوب الخيل معرفة فن الفروسية الذي ما برح يتقدم ويتطور مع تطور السلاح الهجومي. ويتألف جيش المشاة، وهو الأكثر عدداً، من فرق الرماة وحاملي الحربات، واعتمر بعضهم الخوذ ولبسوا الدروع والأحذية وحملوا الدرقة. ولم يكن لفرق المشاة الخفيفة، التي ضمَّت رماة المقلاع، إلا سلاح دفاعي أقل وزناً وعدداً، يجتاز أفرادها مجاري المياه سباحة أو مستعينين بجلود منفوخة أو يقلبون مجاذيف القوارب على حوافي الأتراس المرتفعة.

ويرافق الجيش عمال مجهزون بالفؤوس والمعاول لشق الطرق في الجبال، ونصب الجسور، وتسريع أعمال الحصار. وأضحى للجيوش فرق للتموين لإمدادها بالغذاء والعتاد تحملها الجمال والحمير. وأجبر فن تطور الحصار الأعداء على الاحتماء وراء الأسوار، ولكن الآراميين كانوا يقذفون المُحاصَرين بالنبال وكوم من التراب للسيطرة عليهم.

وظهرت في وقت مبكر الخدمة العسكرية الإلزامية عند نشوب حرب، ولكن هذه التعبئة نادراً ما تأتي بجنود ذوي جدارة، لذا وُجد بعض الجنود الذين اتخذوا الجندية مهنة لهم لقاء أجر، وشاعت الخدمة العسكرية مع التدريب الشاق، ويتناسب الاختلاف بين فرق الجيش مع التفاوت الاجتماعي.

النظام الإداري

إن الملك الآرامي هو رأس الإدارة في الدولة توجهه عوامل اضطرارية مختلفة نحو المركزية، وهو بحاجة إلى كفاءات مادية وبشرية لتسيير الأمور، لذلك أخذ يسعى لتقوية وحدة الممالك والشعوب التي يسيطر عليها، ولا يتحقق ذلك إلا بوجود إدارة مُحكمة ومراقبة يقظة.

اهتمت الإدارة أولاً بإدارة الأملاك الملكية، واتخذت من القصر مركزاً لها، تحت إمرتها نُظَّار وموظفون يقومون بخدمات معينة، وامتدت صلاحياتها تدريجاً إلى الدولة

بأسرهـا، إذ لم يظهـر أي تمييـز بين أملاك الملـك الشخصية وبين أملاك الدولة بمعناها الحقيقي.

الخلاصة

إن مـا أسهـم بـه الآراميـون فـي مضمار الحضارة هو أساساً اللغة، وهي وسيلة لاكتساب الثقافة والتعبير عنهـا ونشرها، ولم يكونوا في وضع يُمكِّنُهم من الإبداع الفني العظيم.

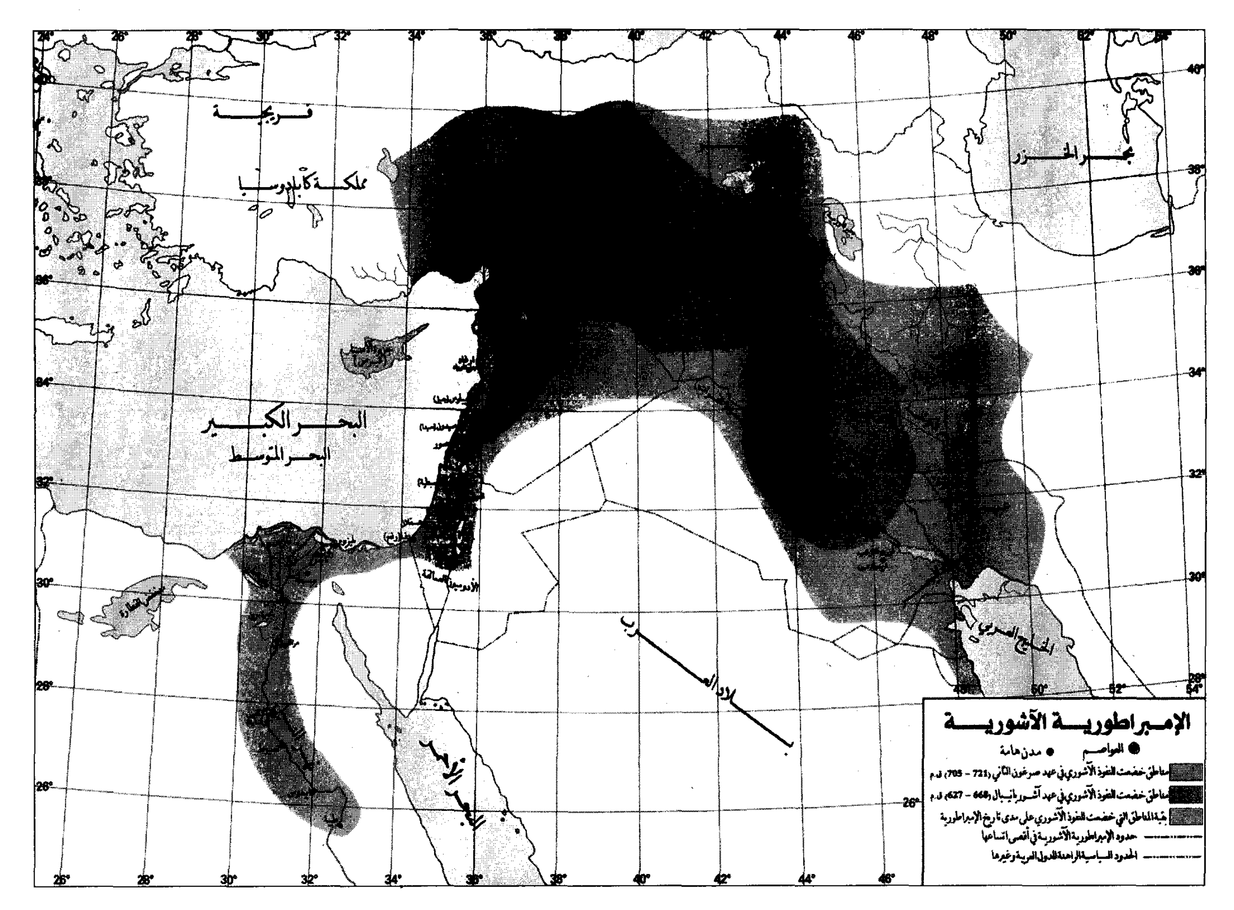
عرف اليونـان والرومان الشرق الأدنى عن طريق الآراميين، والآراميون هم الذين وحَّدوا مصـادر حضارته وأجروها فـي مجرى واحد، فألفـوا بيـن العناصـر البابليـة والفارسيـة والعبرية ونقلوها إلى المسيحية الشرقية ومنها إلـى الغـرب، ونقلوا في وقـت متأخـر الثقافة اليونانيـة من الغـرب إلـى الشـرق، ولا سيما الفلسفـة التي انتقل العلم بهـا إلى العرب عن طريق الآرامية.

المصادر والمراجع

- **العهد القديم.**
- إيمـار، أندريه وجانين أوبوايه: الشرق واليونـان القديم، الجزء الأول من **موسوعة تاريـخ الحضارات العام** بإشراف موريس كروزيه، تعريب فريد داغر وفؤاد أبو ريحان. منشورات عويدات، بيروت ـ باريس.
- سليم، أحمد أمين: **دراسات في تارخ الشرق الأدنى**، مصر ١٩٩١م.
- سواح، فراس: **آرام دمشق وإسرائيل**، سوريا ١٩٩٥م.
- سوسه، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**، العربي للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ط٧.
- عثمان، عبد العزيز: **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول**، دار الفكر الحديث ط٢، لبنان ١٩٦٧م.
- أبو عساف علي: **الآراميون تاريخاً ولغة وفناً**، سوريا ١٩٨٢م.
- علي، أحمد علي إسماعيل: **تاريخ بلاد الشام القديم ـ الجزء الأول**، دمشق.
- فخري، أحمد: **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، مصر ١٩٩٠م.
- موسكاني، سيتينو: **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة السيد يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت ١٩٨٦م.




الحضارة الآشورية
أحمد راتب عرموش



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع الجغرافي

استوطن الآشوريون شمالي بلاد الرافدين (العراق) وجزءاً من شمال شرقي سورية حاليّاً، واختلف في أصلهم. والأرجح أنهم إحدى الهجرات السامية القديمة التي انطلقت من جزيرة العرب في الألف الثالث قبل الميلاد (٣٠٠٠ ق.م) وأقامت في أعالي بلاد الرافدين، واختلط أهلها بالسكان الأصليين وبأفراد هجرات سامية أخرى، وببعض الجوار، من شرق البلاد وشمالها، وينسبهم بعض المؤرخين إلى سام بن نوح.

تقع مدينة آشور (عاصمة الآشوريين) على سفح جبل يشرف على نهر دجلة في موقع يعرف اليوم بـ «قلعة الشرقاط» على بعد ١١٠ كلم جنوب الموصل. ونظراً لموقعها هذا، على الطريق بين سومر وأكاد من جهة، وكردستان والجزيرة العليا (الجزيرة الفراتية) من جهة أخرى، فقد كانت مطمعاً للملوك الأقوياء في بلاد الرافدين أو في شمالي بلاد الشام.

وقد أسس الآشوريون مدناً عدة، منها «نينوى» التي نذروها لعشتار، وكانت عاصمة دينية، و«كالح» وجعلوها عاصمة عسكرية.

هذه بلاد آشور الأصلية وموطنهم الأول، ولكنهم في أوج مجدهم شكّلوا امبراطورية امتدت من بلاد الرافدين، وسيطرت على أرمينيا ومعظم آسيا الصغرى وسورية وقبرص ومصر وأجزاء من الجزيرة العربية.

مختصر تاريخي

لا يستطيع الباحث أن يفصل تاريخ الآشوريين وحضارتهم عن تاريخ وحضارة بلاد الرافدين. فقد كانت المدينة تشكّل مملكة، وغالباً ما كان يحكم المدينة مجلس من وجهائها يرأسهم ملك، فإذا ما برز ملك قوي في إحدى المدن، وكانت الظروف العامة ملائمة، عمد ذلك الملك إلى احتلال بقية المدن أو بعضها، ويكتفي الملك بأن يفرض الجزية على المدن الجديدة ويعيِّن عليها حاكماً موالياً له، ويتركها تمارس ما كانت عليه من أنظمة وعبادات، وربما استطاع السيطرة على الأقطار المجاورة وأسس امبراطورية مترامية الأطراف، كما فعل الحثيون والبابليون والآشوريون وغيرهم. ومع أن الآشوريين استوطنوا المنطقة الشمالية من بلاد الرافدين منذ حوالي سنة ٣٠٠٠ ق.م.، فإنهم لم يستطيعوا أن ينشئوا دولة خاصة بهم، فقد كان يحيط بهم: الآراميون من الغرب، والحوريون (المملكة الميتانية) في وسط بلاد ما بين النهرين، والحثيون في الفرات الأعلى والخابور، والكاشيون في الجنوب.

ويقسم بعض المؤرخين الحكم الأشوري إلى ست أسر، بينما يقسمه آخرون إلى فترتين، تمتد الأولى من سنة ٢١٠٠ إلى ٩٠٠ ق.م والثانية من ٩٠٠ إلى ٦٣٣ ق.م.

وهناك تقسيم ثالث نراه الأفضل للدراسة، ويتألف من ثلاث مراحل:

١ ـ مرحلة التكوين، أو العهد الآشوري القديم، ويبدأ من تأسيس الدولة سنة ٢١٠٠ ق.م إلى نهاية حكم الأسرة الأولى سنة ١٥٠٠ ق.م.

٢ ـ المرحلة الوسطى، من ١٥٠٠ ق.م إلى ٩١١ ق.م.

٣ ـ المرحلة الحديثة، أو مرحلة الامبراطورية، من ٩١١ ق.م. إلى ٦١٢ ق.م.

وهـذه المرحلة يمكـن تقسيمهـا أيضاً إلى مرحلتين:

أ ـ الامبراطوريـة الآشوريـة الأولـى: مـن ٩١١ ق.م إلى ٧٤٥ ق.م.

ب ـ الامبراطوريـة الآشوريـة الثانيـة: من ٧٤٥ ق.م إلى ٦١٢ ق.م.

وقد خضع الآشوريـون، في بداية عهدهم، إلى حكم ملـوك أور (أسرة أور الثالثة). وبعد سقوط الامبراطوريـة السومرية استقلت آشور تحت حكـم «بـوزور آشـور الأول» (٢٠٠٠ ق.م تقريباً) ثم خلفه عدد من الملوك اشتهر منهم «سرجـون الآشـوري الأول» و «شمشـي حـدد الأول» (١٨١٣ ق.م) وفي عهده سيطر حمورابي (ملـك بابـل) علـى بـلاد الآشوريـيـن سنـة ١٧٦٠ ق.م، واستمـروا تحـت حكـم البابليـيـن حتـى سقطـت بابـل سنـة ١٥٩٤ق.م.، فأعلن ملك أشـور «شمشي حدد الثانـي» الاستقلال، فأحسن الإدارة ووسَّع مملكته فأخضع أرمينيا، ووصـل غرباً إلـى البحـر الأبيـض المتوسط. وسنذكر فيما يأتي أكثـر ملوكهم شهرة، وأثراً حربيّاً أو حضاريّاً:

«بـوزور آشـور الرابـع» الـذي بنـى معابد كثيرة، وانتشرت في عهـده عبادة النجوم. ثم خضع الأشوريون بعـده إلى «الميتانيين» الذين شكَّلوا، غرب مملكة آشور، دولة قوية، وتحالف ملكهـم «أرتاتامـا الأول» مـع فرعـون مصـر «تحوتمـس الرابـع». وبعـد ضعـف الميتانيين استطـاع قائد عسكري آشـوري توحيد صفوف شعبـه، وأعلـن نفسه ملـكاً باسـم «أريبا حدد الأول» وبدأ تحرير بلاده من الميتانيين، وأكمل ذلـك ابنـه «آشـور أو باليط» الـذي حكم من ١٣٩٢ إلـى ١٣٧٧ ق.م، وتحالف مـع الحثيين، وقضـوا علـى حكـم الميتانيـيـن حوالـي سنـة ١٣٧٠ ق.م.

وتوالـى علـى الحكـم بعـده ابنـه «إنليـل نيراري» ثم «حدد نيراري الأول، ثم «شلمنصر الأول» (١٢٧٤ ـ ١٢٤٥ ق.م) الذي بنى عاصمة جديـدة سماهـا «كالـح» وشكلـت عاصمـة الأشوريين العسكرية.

وجـــاء بـعـــده «تـوكـولـتـي نينـورتـــا» (١٢٤٤ ـ ١٢٠٨ ق.م) فبلغت الدولة في عهده أشدها، إذ استولى على بابل وخرَّبها، وتلقب بملك سومر وأكاد.

وبعـد موته ضعفت مملكـة الآشوريين حتى وصل إلى الحكم «تيغلات بلاسر الأول» فأعاد إلـى الدولـة الآشورية مجدهـا، ويعـدُّه بعض المؤرخين أول عظماء ملوك آشور. وبعد وفاته توالى على الحكم عدد مـن الملوك الضعفاء، فضعفـت المملكة مـرة ثانية وطمـع بها ملوك الجـوار. وبعد فترة مـن الزمن استطـاع «أدد نيراري الثاني» (٩١١ ـ ٨٩١ق.م)، الذي تسلم الحكـم، أن ينهض بالدولة من جديد، وبحكمه يبدأ العهد الآشوري الحديث.

فقـد عمل هـذا الملك على تقويـة جيشه، وتحالف مـع بابل، ثم جاء بعده «توكلتي ننورتا الثانـي» (٨٩٠ ـ ٨٨٤ ق.م) فبنـى الحصـون والقـلاع، وعمل علـى تأمين طـرق مواصلات الدولـة، وخلفـه «آشـور ناصـر بـال الثانـي» (٨٨٤ـ ٨٥٨ق.م) الـذي اشتهـر بالقسـوة والبطـش والظلـم وتحسيـن الجيـش وتقويته، فلمـا مـات خلفـه ولـده «شلمنصـر الثالـث» (٨٥٨ ـ ٨٢٤ق.م) فأضـاف إلى الامبراطورية التي خلَّفها له والـده بلاداً جديدة، ووصل إلى منابع دجلة فـي آسية الصغـرى، وإلى إيران،

والأناضول، وسورية وفلسطين على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولكن في أواخر عهده اضطربت البلاد من جديد، وتوالى على حكمها ملوك ضعاف. واستمر الوضع على هذه الحال حتى تسلم الحكم «تيغلات بلاسر الثالث» (٧٤٥-٧٢٧ق.م) فأعاد إلى الامبراطورية مجدها، وأضاف إليها مستعمرات جديدة. فدخل دمشق سنة ٧٣٢ ق.م وأمضى فترة حكمه كلها في الحروب، وخلفه ابنه «شملنصر الخامس» (٧٢٦-٧٢٢ ق.م). ثم قام قائد عسكري هو «سرجون الثاني» (٧٢١-٧٠٥ ق.م) بانقلاب وتسلَّم السلطة، وأخضع معظم المدن السورية والفينيقية، وفتح السامرة سنة ٧٢٢ ق.م. وتسلم الحكم بعده ولده «سنحاريب» (٧٠٥-٦٨١ ق.م) فواجه ثورات كثيرة، نظراً لاتساع الامبراطورية، فتعامل معها بقسوة شديدة، وغضب على بابل فقتل أهلها وأحرقها، وخرَّب مقابرها. وبعد مقتله، وهو يؤدي صلاته، على يد أحد أبنائه الذين تنافسوا على العرش، فاز بالحكم ولده «أسرحدون» (٦٨١-٦٦٩ ق.م) فقضى على الفتنة التي نشأت عن مقتل والده، وزحف باتجاه مصر للانتقام منها لتأليب السوريين عليه، ولكن المصريين ردُّوه عنها.

وبعد موته تسلم الحكم «آشور بانيبال» (٦٦٩-٦٢٩ ق.م) وتسلم أخوه «شمش شم أوكن» عرش بابل بترتيب من والدهما، وسارت الأمور بهدوء وتعاون بين الأخوين في بداية الأمر، ثم دخل شمش في حلف ضد أخيه، الذي جهَّز حملة كبيرة ضد بابل، واستمرت الحرب بينهما زهاء ثلاث سنوات، وأسفرت عن احتلال بابل وتدميرها وقد احتل الدلتا، وأدّت مصر الجزية إليه.

وبعد وفاته حدثت منازعات على العرش، كما كان يحصل دائماً، وتسلم الحكم ابنه «آشور أتل إيلاني»، فلم يستطع مواجهة الاضطرابات وعمَّت حركات الانفصال. وعمدت الشعوب التي خضعت بالقوة إلى حكم الآشوريين إلى الانتقام، فتجرأ ملك «الميديين» على التحالف مع ملك بابل، وهاجما عاصمة الامبراطورية الآشورية واستوليا عليها، وعاملاها بالقسوة ذاتها التي كان الآشوريون قد عاملوا بها بابل عند احتلالها، واقتسما الامبراطورية الآشورية، وأرسل ملك بابل ولده «نبوخذ نصر» لتتبع فلول الجيش الآشوري التي هربت إلى حران فانتصر عليها، ودحر المصريين الذين استغلوا الوضع وتقدموا باتجاه سورية.

وبذلك انتهت الامبراطورية الآشورية التي تُعَدُّ من الامبراطوريات المهمة في التاريخ القديم، والتي لا تزال آثارها تدل عليها.

الحضارة الآشورية

لا يمكن فصل حضارة الآشوريين عن حضارة بلاد الرافدين. فبلاد الرافدين تشكل وحدة طبيعية وحضارية متكاملة. ونظراً لخصوبة أرضها، فقد استقر فيها الإنسان منذ فجر التاريخ، وكانت كل مدينة فيها تشكِّل مملكة يحكمها ملك يعاونه في معظم الحالات مجلس من وجهاء المدينة، فإذا ما ظهر في إحدى المدن ملك قوي تطلع إلى السيطرة على المدن الأخرى. وهكذا تبادلت معظم ممالك الرافدين القديمة الاحتلال، ومن هنا

جاء التمازج والاندماج بين مختلف حضارات تلك الممالك، لدرجة جعلت معظم المؤرخين يعدون حضارة بلاد الرافدين حضارة واحدة، يدرسونها تحت عنوان واحد.

وحضارة الآشوريين جزء من هذه الحضارة التي تشمل السومرية والبابلية والأكادية وغيرها. وبما أن الآشوريين أمة محاربة، فقد كان اهتمامها بالعلوم والفنون والحقوق أقلَّ من غيرها، وبرزت في بناء القلاع والحصون والابتكار في الأسلحة والفنون الحربية، كما سنلاحظه فيما يأتي.

النظام السياسي

كانت السلطات كلها في النظام السياسي الآشوري تتركز في يد الملك، الذي لم تكن سلطاته تختلف عن غيره من ملوك ذلك الزمان، إلا أنه لم يصل إلى مرتبة الإله، كفرعون مصر، بل بقي نائباً للإله ينفذ تعليماته وإلهاماته ويعزو كل ما يقوم به إلى إرادة الإله وتوجيهاته، وكان يجمع، بالإضافة إلى سلطاته السياسية، قيادة الجيش، ورئاسة السلطة الدينية.

ولم يكن من الضروري أن يرث الابن الأكبر الحكم، بل يمكن ان ينتقل إلى أيٍّ من الأولاد، إن كان ذلك بالعهد إلى أحد الأولاد، أو بالاتفاق فيما بين الورثة، أو بالسيطرة والقوة. ولكن كان الغالب، في أوج قوة الآشوريين، أن يعمد الملك مبكراً، تحاشياً للفتنة بعد موته، إلى اختيار أحد أولاده لخلافته، ويحصل له على موافقة الآلهة والكهنة، فيصبح وليّاً للعهد، ويبدأ تدريبه على مهامه التي سيتولاها بعد وفاة والده. وفي



تمثال الإله الثور المجنح

كثير من الحالات كان يحصل نزاع بين الإخوة بعد وفاة الملك فيؤدي ذلك إلى الفتنة، أو ينتقل الملك إلى ملك ضعيف فيستغل الموقف أحد القادة ويستولي على الحكم، فيما يشبه الانقلاب العسكري، ولذلك شهد تاريخ الآشوريين انتقال الحكم من أسرة إلى أخرى. وفي مختلف الحالات كان يجب أن ينال الحاكم مباركة الكهنة، لأن الملك هو الكاهن الأكبر ورئيس الكهنة ونائب الإله آشور، والمُلك يأتي من الإله.

ومع أنه كان لكل مدينة إلهها، فقد كانت السلطة لإله الدولة. وكانت تقام للملك يوم تنصيبه احتفالات دينية وشعبية. وبما أنه يصبح رأس السلطة الدينية، بالإضافة إلى مهامه الأخرى، فيجب أن يتصف بالتقوى، وأن

يقوم بالطقوس الدينية، ويشيِّد المعابد، ويدشِّنها، ويقدِّم الذبائح، ويستشير الآلهة ويبتهل إليها أن تلهمه الصواب في كل ما يُقدم عليه من حروب أو غيرها، وكثيراً ما يكون للأحكام أثر في سلوكه وقراراته. وهو الذي يشرف على إدارة أموال الهياكل (المعابد) وهي كثيرة ومتشعبة إن لجهة المداخيل، أو طرق الإنفاق، فالملك ممثل البشر لدى الآلهة، ونائب الإله عند البشر، ولذلك تجب طاعته طاعة عمياء، فكل ما يفعله أو يقوم به هو تنفيذ لرغبة الآلهة.

ومع ذلك لم يكن يمانع، في كثير من الأحيان، وجود بعض المجالس المحلية في بعض المدن التابعة له تتألف من وجهاء المدينة وتعطي رأيها في شؤونها.

وبما أن ملوك الآشوريين كانوا هم قادة الجيوش فقد كانوا يخرجون على رؤوس جيوشهم في حروبهم وفتوحاتهم الكثيرة، وقليلاً ما أوْكَل أحدهم مهمة عسكرية منفصلة إلى أحد قواده. وقد خلَّدت فنونهم ولوحاتهم أعمالهم الحربية، ومثَّلت قوتهم البدنية وجرأتهم في صيد الحيوانات المفترسة.

وقد جسَّد الفنانون الآشوريون في نحتهم الملك دائماً في الحرب، أو الصيد، يقتل الوحوش الكاسرة.

الجيش الآشوري

اهتم الآشوريون بالنواحي العسكرية، وأوْلوا الجيش عناية خاصة حتى غدا، في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، أقوى قوة في العالم في ذلك الزمان، له قيادته العسكرية الشجاعة وقيادته الإدارية المميزة، وعتاده الحربي الخاص به. فقد أدخل الآشوريون أدوات جديدة في الحرب، كما طوروا الأدوات المستعملة سابقاً. فهم أدخلوا الحصان في المعارك الحربية، وشكلوا فرق خيالة، واخترعوا المركبات العسكرية التي وصفها المؤرخون كالآتي: «عربة يجرها حصانان ويقف على مقدمتها فارس يوجه الحصانين بسيور يمسكها بيديه، ويليه فارس محارب بيده حربة، وبجانبه جعبة كبيرة مليئة بالسهام، وخلف الاثنين فارس ثالث يحمل ترساً كبيراً يحمي به رفيقه». وغدت مع الزمن والتطور عربات القتال هذه من أهم ميزات الجيش الآشوري، نظراً لسرعتها في الحركة هي وفرق الخيالة. وغدا الملك يركب إحدى هذه العربات ويسير بها في مقدمة جيشه، وشكل المشاة غالبية الجيش الآشوري. ونظراً لاستعمال الآشوريين الحديد على نطاق واسع، فقد لبس المشاة الدروع والخوذ، وتسلحوا بالحراب والسهام، فشكل حاملو الحراب فرقاً خاصة بهم، وشكل الرماة فرقاً خاصة بهم أيضاً، وهذا بالإضافة إلى فرق الخيالة والعربات الحربية.

وأضاف الآشوريون إلى جيوشهم فرقاً هندسية مجهزة بالمعاول والفؤوس تشق الطرقات وتصلحها، وتساعد في عبور البحيرات والأنهار باستعمال قوارب صغيرة وقرباً منفوخة.

ونظراً لسعة الامبراطورية، وطول طرق المواصلات فقد أوْلوا الإمداد والتموين أهمية خاصة، فاختص قسم من الجيش بتأمين الإمدادات، واستعملوا لذلك البغال والحمير والجمال.

وفي أثناء عمليات الجيش الآشوري كان يواجه حصوناً وقلاعاً، فطوَّر آلات الحصار، واخترع آلات تشبه المنجنيق لدكِّ الحصون، وأبراجاً متحركة تزوَّد برماة النبال، وتُحرَّك باتجاه الحصن، بتغطية من رمي النبال، حتى إذا أصبحت بالقرب من الحصن انقض منها رجال ينصبون السلالم، ويصعدون إلى القلاع والحصون بحماية رماة السهام، وبسرعة كبيرة، تذهل المُحاصَرين وتفاجئهم، فإذا ما تمكنوا من أعدائهم بطشوا بهم بقسوة وشدَّة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

واقتضت كثرة حروبهم تشكيل جيش محترف، وفرض الخدمة الإلزامية على الشبان، كما عملت الدولة على تدريب الشعب على حمل السلاح. ولما كان يلزمهم لأعمالهم العسكرية الواسعة جنود أكثر كانوا يعمدون إلى تطويع مرتزقة من شعوب البلاد التي سيطروا عليها، أو يفرضون التعبئة العامة على جميع السكان.

وهكذا شكَّل الجيش الآشوري مؤسسة ضخمة لها قيادتها، وأركانها، ووسائل تموينها، وحتى مخابراتها، التي كانت تنقل للملك ما يحدث في المدن والأقاليم التابعة له. وارتبط ذكر الآشوريين في التاريخ بالحرب والقتال، والتطور العسكري، حتى أن فنونهم، التي سنتعرض لها لاحقاً، اقتصرت تقريباً على تمجيد الحروب وإظهار بطش ملوكهم وآلهتها، بينما برعوا في تشييد الحصون والقلاع والقصور الكبيرة المحصنة، فتاريخ الآشوريين وحضارتهم هو جزء من التاريخ العسكري العالمي.

النظام الاجتماعي

ساد في المجتمع الآشوري نظام الطبقات، ففي رأس الهرم يأتي الكهنة والأحرار، ومنه الملاكون وكبار موظفي الدولة وقادة الجيش، ويليهم عامة الناس الذين يشتغلون في الحقول وأراضي الملك أو المعابد أو كبار الملاك، ثم العبيد ومصدرهم الأَسْر أو البيع والشراء، وكان يحق لهؤلاء شراء أنفسهم فيصبحون أحراراً في مقابل ما يقدمونه من مال أو أعمال. وقد عرف المجتمع الآشوري نظام الأسرة، إلا أنه كان بإمكان الزوجة أن تعيش في بيت والدها، ويزورها زوجها هناك، ويقدم لها حاجياتها، ويمكن تطليقها، ولم تكن لها أهلية مباشرة أعمالها بنفسها في المجتمع الآشوري لغاية القرن الثامن قبل الميلاد، وبعد أن تأثر الآشوريون بقوانين حمورابي (بابل). وكان القانون يجبرها على الزواج بعد موت زوجها من أخيه، أو من أحد أبنائه من غيرها، إذ يمكن تعدد الزوجات، واتخاذ الخليلات، كما كان بمقدور الرجل أن يرفع مرتبة الخليلة لتصبح زوجة.

ومن الطبيعي في مجتمع عسكري محارب أن تكون المرأة أدنى مرتبة من الرجل، وأن يعمل المجتمع على زيادة النسل لكثرة ما يفقد من الرجال في الحروب.

وكان الزنى جرماً يستوجب الإعدام كما هي حال بعض السرقات الكبرى.

الحياة الاقتصادية

تعد الزراعة قديماً، في جميع بلاد الرافدين، مرتكز الحياة الاقتصادية، لخصوبة الأرض وتوافر المياه، ونظراً لخصوبة


منحوتة من حجر الألباستر
تمثل بطلاً أسطورياً يتأبط أسداً

أراضي جنوبي الرافدين أكثر من شمالها فقد اهتم أهل الشمال بالتجارة، بالإضافة إلى الزراعة وبرعوا فيها.

ونلاحظ في موضوع الزراعة أن الدولة الآشورية اهتمت مبكراً بإنشاء قنوات الري، وبتنظيم ملكية الأراضي وتسجيلها.

وكانوا يزرعون القمح والشعير بشكل أساس، وعرفوا شجرة النخيل، التي شكلت مادة غذائية أساسية، واستخرجوا منها الدبس والخمر والخل.

وقد عرفت بلاد الرافدين الذهب والفضة والنحاس والقصدير والرصاص والحديد، الذي اشتهر الآشوريون باستعماله، فهم أمة محاربة وبحاجة ماسة للحديد ليصنعوا منه الأسلحة وأدوات الحرب. وعُرف عن الآشوريين تصدير بعض المنتوجات الزراعية والمنسوجات والحيوانات، وبخاصة الحمير. وكانوا يستوردون العاج والأحجار الكريمة من الهند، والنحاس من أرمينيا وقبرص، والأخشاب الكبيرة من آسية الصغرى وسورية.

ولسهولة نقل البضائع، فقد صنع الآشوريون المراكب وبنوا الأرصفة في آشور وغيرها من المدن على دجلة والفرات، وكانوا ينقلون الأخشاب من آسية الصغرى وسورية بالقوارب إلى هذه المدن.

أما في النقل البري، فقد اعتمدوا الجمال والمركبات التي تجرها البغال والحمير. وكان التجار يتنقلون في قوافل لتأمين الحماية لهم ولبضائعهم من قطاع الطريق والتعرض للسلب والنهب. وقد ورد في كتاب تاريخ الحضارات العام: «أثبتت المستندات المدعوة (اللوحات الكبادوكية) بأنه في أواخر الألف الثالث ق.م.، كان يوجد في أواسط آسية الصغرى، في ضواحي جبل (أرجيه)، جماعات من التجار الآشوريين يتعاطون أعمال السمسرة للاستيراد والتصدير، وهم يديرون شؤونهم كما لو كانوا جمهوريات صغيرة مستقلة الأرصفة، ويبقون على اتصال مع بلاد ما بين النهرين». فإن صحت هذه المعلومة فإن تاريخها يعود إلى بدء وصول الآشوريين إلى أعالي الرافدين، وقبل استقلالهم وإنشاء امبراطوريتهم بمدة طويلة، وربما كان وجودهم في تلك المناطق أحد دواعي وصول الآشوريين عسكرياً إلى تلك البلاد.

ولا يظهر من الآثار أن الآشوريين استعملوا النقد، وإنما كانوا يلجؤون إلى معدن الرصاص لتقدير قيمة السلعة، بينما اعتمدت بعض ممالك الرافدين القديمة الشعير في أغلب الحالات لتقدير قيمة السلعة، أو معادن أخرى كالفضة والنحاس، واستعمال الرصاص أو أي مقابل لتقدير القيمة يعدُّ أساس فكرة النقد.

الحياة الدينية

من الطبيعي في بلاد زراعية تتأثر بالطبيعة وبالعوامل الجوية والكوارث المختلفة، وتعتمد على ما تجود به السماء، أن يعبد أهلها، كما عبد غيرهم من الشعوب القديمة، ألهة يخترعونها أو يتصورونها للخصب أو الرياح أو الفيضانات، بالإضافة إلى عبادة الكواكب والنجوم. وقصة إيمان إبراهيم في القرآن معروفة عندما انتقل من النجم إلى القمر إلى الشمس قبل أن يصل إلى خالق هذه المخلوقات.

وقد كان لكل مدينة إله خاص بها، وإله الآشوريين هو إله مدينة آشور واسمه آشور. وقد يتكرر اسم الإله الواحد في عدة مدن فيميَّز باسم المدينة فيقال «أشتار إربل» و«أشتار نينوى» و«أشتار آشور»، والإله أشتار هو كوكب الزهرة. ومن الآلهة في بلاد النهرين «مردوخ» إله بابل، وقد اعتمده الآشوريون أيضاً في فترة متأخرة. وكان من الآلهة: (آنو) إله السماء و(إنليل) إله الأرض، و(شمس) إله الشمس و(سين) إله القمر و(إدد) إله الطبيعة، وغيرها كثير.

ويلاحظ أن الإله آشور ارتقى من إله مدينة آشور ليصبح الإله الرئيس لجميع الآشوريين ومدنهم، بالإضافة إلى آلهة كل مدينة. ويحتاج الإله عندهم كما الإنسان إلى منزل وأسرة، ومن هنا نشأت فكرة الهياكل (بيوت الآلهة).

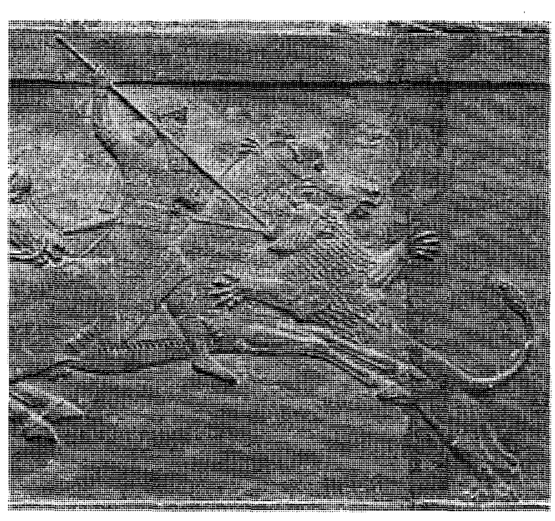
وقد يحتاج أيضاً إلى منزل ريفي خارج المدينة، فهم كانوا يتصورونه كالإنسان، ويحتفلون بانتقاله من المدينة إلى الريف بمسيرة خاصة. وهكذا فقد اخترع الإنسان الآلهة في آشور كما في غيرها، لحاجته إليها. واستغل الملك والكهنة الشعب لتشييد الهياكل والإنفاق عليها، وعلى من يعيش فيها، وإن كانت بعض الهياكل تعيل بعض الفقراء. وكان يتم في الهياكل تدريب الراغبين بتعلم مهنة من المهن باستثناء السحر والتنجيم الذي احتفظ به الكهنة لهم ولورثتهم. وكانت عبادة الآلهة تتم في ساعات محددة من النهار، وتقدم إليها القرابين، وأطايب المأكولات المتنوعة، في أوقات محددة أيضاً، وفق طقوس معينة يقوم بها الكهنة.

وكانت لهم أعياد خاصة يحتفلون بها ويطوفون في الشوارع حاملين تماثيل الآلهة. وكان الكاهن الأعظم في كل هيكل ينوب عن الملك في إجراء الطقوس، ويليه عدد كبير من الكهنة والسحرة والمنجمين والمنشدين. وقد كان للسحر دور مهم في حياة الآشوريين، وهم في ذلك كغيرهم من الأقوام القديمة، وحتى البدائية المعاصرة. فالإنسان يتعرض في حياته لأمراض صحية ونفسية ومصائب متنوعة، وكان يعزوها إلى الأرواح الشريرة، أو السحر. ولطرد الأرواح الشريرة أو لإبطال السحر، كان يلجأ إلى الكهنة الذين يشترطون تطهُّر الإنسان من الخطايا ويعملون على طرد

الأرواح الشريرة، وفك السحر، ويستعملون لذلك البخور ومواد خاصة ويتلون تعاويذ يحفظونها.

وربما مارس بعض الكهنة الطب فاستعمل المواد الطبية المعروفة في زمنهم كالخمر والرماد وبعض الأعشاب. وكان للعرافة دورها أيضاً، وهدفها استكشاف المستقبل ومعرفة نوايا الآلهة وطلباتها وتنفيذها.

وانطلاقاً من الاعتقاد بتأثير الكواكب على الإنسان، فقد اهتم الآشوريون بدراسة النجوم وتحركاتها، وظنوا أن الخسوف أو الكسوف دليل على غضب الآلهة، ولذلك كان الكهنة يقومون بطقوس خاصة ورقى وتلاوات لتجنب آثارها. ودفعهم هذا الاعتقاد إلى تدوين مشاهداتهم في علم الفلك (مراقبة النجوم) والاحتفاظ بها في الهياكل، ولا يزال بعض الناس حتى عصرنا الحاضر يؤمنون بالسحر والتنجيم وقراءة الطالع وفق المعتقدات التي مضى عليها آلاف السنين ويستعملون الأساليب ذاتها، على الرغم من التقدم العلمي والفكري المعاصر.



مشهد صيد للملك الآشوري (آشور بانيبال) وهو على جواده يطعن أسداً ضخماً

اللغة والكتابة

كان الآشوريون يتحدثون باللغة الأكادية، ويكتبون بالمسمارية، وهي الكتابة التي استعملها أو اخترعها السومريون قبلهم، يدل على ذلك الألواح والمسلات التي خلفوها، وسجلوا فيها انتصاراتهم وأعمالهم بالإضافة إلى علومهم وكتاباتهم الدينية.

واللغة المسمارية بدأت إشارات ورموزاً، ثم تحولت إلى مجاميع علامات تشبه كل واحدة منها (المسمار)، ولذلك سميت «الكتابة المسمارية». وكان الكاتب يكتب الحرف (العلامة) بقصبة يغرزها في الخزف أو الفخار الطري بقوة ويسحبها برفق، ثم يجفف الخزف أو الفخار في الشمس أو بالشيِّ بالنار، وتحفظ الألواح في الهياكل أو في القصور فيما يشبه المكتبة. ومن الملوك الذين اهتموا كثيراً بالعلوم والفنون، «آشور بانيبال»، إذ أنشأ في قصره مكتبة كبيرة، وأمر موظفيه وعماله بأن يجمعوا فيها ما يستطيعون جمعه من وثائق ونسخ للنصوص الدينية والتاريخية والعلمية... وكان يفوِّضهم بانتقاء كل ما يرونه مفيداً وضمه إلى مكتبة قصره. ويوجد حاليّاً الآلاف من هذه اللوحات في المتحف

البريطاني في لندن تحتاج إلى ترجمة، لمزيد من الاطلاع على تاريخ الآشوريين وحضارتهم.

العلوم عند الآشوريين

كانت العلوم عند الأمم القديمة، ومنها الآشوريون تقتصر على الطب المختلط بالكهانة والدين، وعلم الفلك الملتبس بالسحر والتنجيم، وبعض الحساب والهندسة. وكان كهنة الآشوريين يتولون معالجة المرض بالرقى والطقوس الدينية لاعتقادهم، كما ذكرنا سابقاً، بمسِّ المريض من قِبَل الأرواح الشريرة التي يجب طردها، ثم تطور الطب عندهم إلى معالجة المرضى بالنباتات والمعادن والشحم والخمر والرماد وغيره مما هو مألوف في الحضارات القديمة.

أما بالنسبة إلى علم الفلك، فقد اعتمدوا التقويم القمري، وجعلوا بداية الشهر تتفق مع ظهور الهلال. ولكي يحافظوا على أوقات الفصول، فقد كانوا يضيفون كل بضع سنين شهراً على السنة بأمر الملك، الذي يحدد وقت الإضافة، ويعد هذا تفكيراً علميّاً مهمّاً، وهو إن كان يحصل في زمن الآشوريين بالأشهر، فهو لا يزال يتم بالدقائق في التقويم الشمسي الحالي.

وفي علم الحساب والرياضيات، فقد قسموا الدائرة إلى ستين درجة، واعتمدوا النظام الستيني الذي اقتبسوه عن السومريين، ولا يزال مستعملاً حتى الآن في تقسيم الساعة إلى ستين دقيقة. وعرفوا الكسور والمربع والمكعب والجذر التربيعي، كما عرفوا نوعاً من الموازين والمكاييل والمقاييس.



تمثال الملك الآشوري آشور ناصر بال الثاني

فن العمارة والبناء

لا نستطيع، بعد مضي آلاف السنين على زوال الامبراطورية الآشورية، أن نحكم بدقة على مدى تقدم العمران وطريقته عندهم، ولكن الثابت أنهم، نتيجة لحروبهم الكثيرة، ولما تعرضوا له من ثورات داخلية، وغزوات خارجية، اعتنوا بالحصون والقلاع، وسوَّروا قصور ملوكهم وحموها بالأبراج، حتى غدت كالقلاع. وقد ذكر مؤلف تاريخ الحضارات العام في حديثه عن حصونهم: «يعجب المرء مثلاً لكثرة وجودة حصون آشور: أرصفة من

الحجـر والآجـر المشـوي علـى طـول دجلـة، وإحـدى القنـوات، وحفـرة نحـو السهـول قد تملؤهـا الميـاه، يبلـغ عرضها عشريـن متراً، وعمقها خمسـة عشر متراً، تتخللها كل ثلاثين متـراً تقريبـاً أبـراج ناتئة، وقـلاع ضخمة في الأماكن المعرَّضة للخطر».

هـذا بالإضافـة إلـى إنشائهـم القصـور الضخمة، التـي غالباً ما تكون على شكل مربع تقريبـاً، بمساحـة زهـاء الأربعـة كيلومتـرات مربعة، وبتحصين هندسـي دقيق، ومثلها مثل الهيـاكل التـي كانـت أيضـاً قلاعـاً محصنة وممتلئـة بالمـؤن تكفـي لتحمل الحصـار مدة طويلة.

وكانـوا يستعملـون فـي البنـاء اللبـن، والأخشـاب لحمـل السقوف، وبقيـت السقوف مسطحة، فاضطروا إلى استعمال الزفت عليها لمنع تسـرب مياه الأمطار، كمـا اضطروا إلى الإكثار من الأعمدة المبنية من الأجر أو اللبن لحمل الأسقف، واكتفوا باستعمال الحجارة في الواجهات.

وبنـو القِبـاب في البيـوت الصغيـرة، كما عرفوا نظام العقد فـي إنشاء الجسور وقنوات الماء.

ولعـل قصـر سرجون الثانـي، الذي لا تزال آثاره باقية حتى الآن، يعطي فكرة واضحة عن التقدم الذي حققه الآشوريون في فن العمارة، وعلـى العظمـة والرفاهية التي توصلـوا إليها. وفيمـا يأتـي وصـف مختصـر لهـذا القصـر، مقتبس مـن تاريـخ الحضارات العـام: «شمخ هـذا القصـر علـى أرض مرتفعـة امتدت على جانبـي سـور المدينـة فـي الشمـال الغربي، وبنتوئه نحو الخارج غدا كأنه حصن دفاعي..

وإذا اتجه المرء من المدينة إلى القصر فإنه، بعـد أن يجتـاز القلعـة، يصل إلـى الرصيف، بواسطـة درج عريض يؤدي إلـى باب القصر، الذي تحيط بـه الأبراج. ثم باحة طول جانبها مائـة متـر، ومـن حواليهـا المستودعـات والإسطبـلات، وتليهـا باحة كبيـرة للحفلات، وحولهـا مبانٍ للسكـن، وفي القصـر أكثر من مئتي غرفة تشرف على أكثر من عشرين باحة لتأمين الهواء والنور.

وقاعـة العـرش طولهـا خمسـون متـراً، وعرضهـا اثنـا عشـر متـراً، وفيـه غـرف للحمامات، وجلبت إليه المياه بالقنوات، وبلغت مساحة القصر هكتارين ونصف».

وقـد لوحـظ فـي أواخـر عهـد الآشوريين اهتمامهم في مدنهم بالحدائق لترطيب الجو، ولاستعمالها منتزهات للسكان.

ولـم يعلوا في بيوتهـم وقصورهم أكثر من طابقيـن أو ثلاثـة، إلا فـي الأبـراج. وكانـوا يضعون علـى مداخل القصـور الملكية تماثيل حيوانات كبيرة من الحجـارة، ويعتقدون أنها، أو ما تمثله، تحرس هذه الأبنية.

الفن الآشوري

بلـغ الآشوريون فـي أواخـر عهدهم درجة عالية مـن الفن، لزيادة ثروتهـم ولاختلاطهم بالشعـوب الأخـرى المتقدمة عليهـم، فنحتوا التماثيـل، وصهروا المعـادن، وصنعـوا الحليَّ ورصعوهـا بالأحجـار الكريمـة، وبرعـوا فـي الطـلاء الممـزوج بالغـراء وصفـار البيـض، وبألـوان زاهية. ويذكر مؤلـف قصة الحضارة أن من أجمل روائع الفن الآشوري «تحفة يرجع عهدها إلى أيام آشور بانيبال الثاني، وهي من

المرمر النقي، وتمثل مردك، إله الخير، يهزم تيمات الخبيث، إله الفوضى».

ويقول: «أما النقوش التي تثير إعجابنا بحق فهي نقوش الحيوانات، وما من شك في أن الفن، قديمه وحديثه، لم ينجح في نحت الحيوانات نجاح الفن الآشوري. إن الألواح تكرر أمام الأعين مناظر مملّة تمثل الحرب والصيد، ولكن العين لا تمل قط من النظر إلى حركات الحيوانات القوية ونفورها الطبيعي».

وقد نحتوا وصوروا مختلف الحيوانات، بالإضافة إلى الإنسان، ولكن جلّ اهتمامهم توجه إلى نحت تماثيل هائلة للحيوانات الضخمة والمفترسة ولملوكهم وآلهتهم.

ومن ذلك: تمثال لإله النور المجنَّح، وهو بجسم ثور مجنح قوي بخمسة أرجل ووجه إنسان، يرجع تاريخه إلى القرن الثامن قبل الميلاد، ومحفوظ حاليّاً بمتحف اللوفر، وكان يوضع أمام قصر الملك «سرجون الثاني»، وتمثال منحوت من حجر قاسٍ، يمثل بطلاً أسطوريّاً يحمل أسداً، وهو في اللوفر أيضاً.

ورسم مشهد صيد للملك أشور بانيبال وهو على فرسه يطعن أسداً، واللوحة في المتحف الملكي البريطاني في لندن، وغير ذلك كثير، ولكنه مكرر على نسق واحد.

خاتمة

امتد الحكم الآشوري زهاء ألف وخمسمائة عام، من ٢١٠٠ إلى ٦٣٣ ق.م.، وتوالى على الحكم عدة أُسر، وكانوا أمة مقاتلة، فأنشؤوا امبراطورية امتدت في أوج قوتها من الفرات إلى النيل، وشملت آسية الصغرى وسورية والخليج العربي، وتأثرت بالحضارات المعاصرة لها، واقتبست منها كما أثَّرت فيها، وتركت آثاراً لا تزال ماثلة للعيان حتى العصر الحاضر، وبرعت في النواحي العسكرية، ويجد الباحث صعوبة في دراستها لقدمها وصعوبة اللغة المسمارية التي خلدت تاريخها، ولذلك نجد أسماء الملوك مختلفة اللفظ في الكتب التي أرَّخت للآشوريين، كما نجد اختلافات أحياناً في سنوات حكم كل ملك.

المصادر والمراجع

- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة**، دار الجيل، ١٩٨٨م، بيروت.
- سيف الدين الكاتب: **أطلس التاريخ القديم**، إعداد دار الشرق العربي، ط١، ٢٠٠٤م. بيروت.
- عثمان، عبد العزيز: **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم**، دار الفكر الحديث، ط ٢، ١٩٦٧م، لبنان.
- عصفور، محمد أبو المحاسن: **معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم**، دار النهضة العربية، بلا رقم طبعة وتاريخ.
- كروزيه، موريس: **تاريخ الحضارات العام الشرق واليونان القديمة**، إشراف منشورات عويدات ٢٠٠٣م - بيروت.

الحضارة الأخمينية[1]

(الهجامنشيون)

أ. د. جمال البدري

(١) انظر أيضاً الحضارة الفارسية.

تأسيس المملكة الأخمينية

تنتمي الأسـرة الأخمينية إلى الفُرس، أحد الشعوب الإيرانية القديمـة التي كانت الموجة الأخيرة من موجات الشعوب الهندية ـ الأوروبية (الآرية) التي اجتاحت أراضي إيران في مطلع الألف الأول ق.م.

ظهرت الأسـرة الأخمينية، في مطلع القرن السابـع ق.م. وبـدأ نفوذ الأسرة يقـوى بعد أن تخلصـت تدريجيّـاً مـن تبعيتهـا للعيلاميـيـن؛ واستقلت بإمـارة أنشان التي كُشفت آثارها في تـل مليان والممتـدة إلى الجنـوب الشرقي من سوسـة، ثـم استولـى أميـر أنشـان، المدعـو تشاهبيش (٦٧٥ ـ ٦٤٥ ق.م)، على بلاد بارسا، في إقليم شيراز اليـوم، وانقسمت الأسرة على نفسها بعد ذلك، وكان لفـرع منهـا حكم فارس ولفـرع ثانٍ حكـم أنشـان، وكانت الغلبـة لهذا الفـرع بـعـد أنْ تـزوجَ قمبيـز الأول (٦٠٠ ـ ٥٥٦ ق.م) الأميرة ماندان ابنة أستياج ملـك الميدييـن، وكان مـن ثمار هـذا الزواج قورش الذي كان حكمه انعطافاً وتحولاً حاسماً فـي دور الأسـرة الأخمينيـة فـي تاريـخ إيران القديم بل والشرق القديم كله.

هذه الأسرة الحاكمة القديمة يرجع أصلها إلى الغرب والجنوب الغربي من إيران، وتُنسب إلى مؤسسها أخمينيش (أخامانيش). وبعد أنْ حكمـت هذه الأسـرة، في القـرن السابع ق.م، إمـارة صغيرة، هـي إمـارة أنشـان، في ذلك الجزء من إيران الذي كان يدعى قديماً بارسا (فـارس)، استطاع أشهر الملـوك الأخمينيين قـورش الثانـي، في أقـل من ثلاثـة عقود من السنيـن (٥٥٦ ـ ٥٢٩ ق.م)، أنْ يتخلـص مـن التبعيـة للميدييـن الذيـن كانـوا يحكمـون امبراطورية واسعة الأرجاء قاعدتها في شمالي إيـران، وأن يوحِّـد العالـم الإيرانـي القديم، ويؤسـس مملكة كبـرى بسطـت سيطرتها على أوسـع امبراطوريـة عرفها التاريـخ حتى ذلك العصـر، امتدت مـن أطراف الهنـد والصين إلـى البحـر المتوسـط. واستمـر حكـم هـذه الأسرة حتى سقوطها بعـد الاجتياح المقدوني للشرق فـي أواخر القرن الرابـع ق. م، وبذلك صار حكم قورش هو حكـم هذه الامبراطورية الحقيقي؛ المليء بالإنجازات والمجد.

التوسُّع شرقاً وغرباً

استطـاع قـورش إعـادة وحـدة الأسـرة الأخمينيـة، وتطلَّـع إلى السيطـرة على ميديا، وتمكن بذلـك من توحيد البـلاد الإيرانية، ثم انتقل إلى بسط سيطرته المطلقة على عواصم الشـرق مستفيـداً مـن الأوضـاع الدوليـة واضطـراب الأحـوال الداخليـة فـي الـدول القديمة. وفي ٥٣٨ ق.م دخل قورش بابل، وكان ذلـك مؤشـراً علـى تغيُّر كبيـر في عالـم بلغ الشيخوخة، والأهم من ذلك أن العالم القديم كان مـدركاً لشيخوختـه، وكان يُظـن لفداحـة الأحـداث والتغيُّـرات المتلاحقة، بعـد اجتياح الفُـرس مملكة ليديا في غربـي آسيا الصغرى على بحر إيجه وبعـد توغلهم في بلاد الشرق، أن تاريـخ الشرق القديم كان يتجه إلى نهايته، لكن المفارقة كانت فـي تجديد العالم القديم ضمن وحـدة سياسية ـ اقتصاديـة امتدت من بلاد الهند إلى ليبيا وحوض بحر إيجه. وهكذا قامـت امبراطوريـة جديدة فـي المشرق على أنقـاض الامبراطوريـات والممالـك القديمة، اجتمعـت فيها شعـوب وتلاقت ثقافـات ولغات

وصنائع وعقائد وعادات، ولكن قورش سقط في ميدان القتال بعد أنْ توغّل في أعماق السهوب الشمالية الشرقية من آسيا الوسطى.

ثمَّ خلفه، بعد مرحلة انتقالية مضطربة، ابنه قمبيز الثاني (٥٢٩ ـ ٥٢٢ ق.م) الذي قاد حملة على مصر (٥٢٥ ق.م) وأسقط عرش الفراعنة، ولكنه أثار المصريين بتصرفاته وبفرض ضرائب مرهقة وبالتعرض للتقاليد الدينية، وبعض الباحثين يعتبر الأسرة الفرعونية (٢٧) بمصر من تشكيلات قمبيز الثاني.

ثم جاء من بعده داريوس الأول (٥٢٢ ـ ٤٨٦ ق.م) وعمل على التوسُّع باتجاه الشرق إلى حوض نهر السند وغرباً إلى ضفاف نهر الدانوب، وتمكن من وضع حدٍّ للمنازعات الداخلية التي أثارها الأرستقراطيون والكهَّان المجوس، أما أكبر منجزاته فهو استكمال بناء الجهاز الإداري للدولة، لكن المبالغة في فرض الضرائب والتدابير القاسية على السكان الإغريق المقيمين على الساحل الأيوني في غربي آسيا الصغرى أدت إلى اندلاع ثورة كبيرة بين ٤٩٩ ـ ٤٩٣ ق.م، كانت الشرارة التي أوقدت نار الحروب الميدية التي اجتاحت العالم الهليني بين الفُرس من جهة والمدن الإغريقية من جهة أخرى، وكانت هذه الحرب عند الهلينيين مسألة حياة أو موت. فقد سجل المؤرخون القدامى دفاعهم عن بلادهم وانتصاراتهم على جيوش الامبراطورية الفارسية عند ماراثون (٤٩٠ ق.م)، ثمَّ في معركة سلاميس البحرية (٤٨٠ ق.م)، وبعدها بعام واحد في معركة بلاتيا (٤٧٩ ق.م). وتعتبر معركة (سلاميس) نقطة تحول حاسمة في تاريخ أوروبا بل والعالم القديم: (ذلك أنَّ مستقبل المدنية الغربية بأسره كان وقتئذ في خطر؛ وكانت أثينا تقوم في شرق أوروبا سدّاً يقيه شر الغزاة؛ فلو لم يُفلح أهلها في صد جيوش الفُرس التي كان الناس حتى ذلك الحين يعدُّونها جيوشاً لا تُغلب، لكان من الجائز أن يُقضى على كلِّ ما نفهمه من المدنية الأوروبية في مهده ولمدَّت آسيا سلطانها إلى المحيط الأطلسي). وفيما استطاع الهلينيون أن يقيموا بينهم بزعامة أثينا تحالفاً قاد الحرب إلى الساحل الأيوني الآسيوي اشتد أوار الأزمات الطاحنة في داخل الامبراطورية الفارسية، فاندلعت الثورات في كلٍّ من مصر (٤٨٦ ـ ٤٨٥ ق.م) وفي بابل (٤٨٢ ـ ٤٧٩ ق.م)، وتوالت تحركات الأمراء الإقطاعيين الساعين إلى الانفصال والاستقلال والمؤامرات والاغتيالات في داخل القصر الامبراطوري نفسه.

نظم الدولة الأخمينية

كان قيام الامبراطورية الفارسية حدثاً مثيراً، فهي من صنع أقوام لم يكن لهم ماضٍ عريق كالعيلاميين القدماء، ولم تكن لهم حتى ذلك الحين ثقافة مميزة كالثقافات البابلية والمصرية والإغريقية، ولكن هذه الامبراطورية ورثت تراث كل الدول القديمة التي قامت على أرض إيران. فقد قامت إمارة أنشان على أرض مملكة عيلام، وورثت أيضاً تقاليد دول بلاد الرافدين في الاستراتيجية وفي الإدارة ومنها فكرة الدولة العالمية. وحلَّت المملكة الفارسية محل الميدية وورثت منها

مطامعها التوسعية في بلاد الشرق القديم. وكان نظام الحكم ملكيّاً مطلقاً، ويستند الملك، لفرض سلطانه، إلى حاشية مميزة. وقد أُعفي الفُرس في هذه الدولة من دفع الضرائب لقاء الخدمة العسكرية، وكان لهم المقام الأول ويأتي بعدهم الميديون. ويساعد الملك حكام إقطاعيون كانوا يملكون الأراضي ويجنِّدون الجيوش ويؤلِّفون طبقة أرستقراطية شغل كبارها الوظائف في قيادة الجيش والوزارة والقضاء والإدارة والولاية، وحصل زعماء القبائل الرئيسة على امتيازات أضحت لهم مع مرور الزمن صفة وراثية. وقد تلقى أبناء الأرستقراطيين تعليماً ممتازاً تضمَّن الرماية والفروسية والنزاهة، وهي المؤهلات اللازمة للعمل في خدمة الملك.

أما الجيش فكان يؤلَّف من مجنَّدين من الشعوب المغلوبة، وأما القادة والفرسان فكانوا يُختارون من بين الفُرس. وأهم الفِرَق العسكرية (الخالدون) وهم عشرة آلاف من حملة الأقواس والقنَّاصين في الحرس الملكي الذين لا ينقص عددهم. وفي كل ولاية يُعيَّن والٍ (ساتراب)، وكان مكلَّفاً قيادة الجيش في ولايته والمحافظة على النظام والأمن وجمع الضرائب والهبات والغنائم.

ولما كان الفُرس غير قادرين على إدارة الامبراطورية الأخمينية الواسعة الأرجاء إدارة مباشرة، لذا اكتفوا بالقضاء على الطموحات الكبرى، وتركت الممالك الصغيرة التابعة، مثل قبرص وكيليكية وممالك المدن الفينيقية على الساحل السوري، وتُرك الزعماء المحليون الدينيون وأمراء القبائل كالعرب والسكيذيين. ولم يكن ثمة حرج في تأسيس دول داخل الامبراطورية، كمملكة بيثينيا في الأناضول، إذا ما ارتضت التبعية لملك الفرس.

وقد عُني ملوك الفُرس بتنظيم جهاز الأمن والمخابرات الذي كان يتولاه موظفون عُرفوا باسم عيون الملك وآذانه، وكانت مهمته المراقبة والتفتيش في الولايات وإطلاع الملك على أحوالها. ولتنظيم الاتصال بين العواصم والولايات شُقَّت الطرق وطُوِّر البريد وأُصلحت الطرق القديمة المعروفة قبل قرون.

ونُفِّذت مشروعات كبيرة لتشجيع المواصلات البحْرية، فشُقَّت قناة تصل بين النيل والبحر الأحمر عند خليج السويس، ونُظمت الرحلات البحرية الاستكشافية لتعرف خطوط جديدة للاتصال بين مصب نهر السند في الهند ودلتا النيل في مصر، عن طريق محطات على الساحل الإيراني وعلى السواحل العربية، وتراكمت، نتيجة لذلك النشاط، ثروات كبيرة بلغت أطناناً كثيرة من الفضة والذهب. وقد ضُربت النقود، وأرفعها الدنانير الذهبية وعليها صورة رامي القوس المتوَّج، وكانت هذه الدنانير تُنفق في تجنيد المرتزقة وشراء العملاء قبل تحريك الجيوش. ولقلة النقد من المعادن الثمينة لجأ ملوك فارس إلى الاستقراض والاستدانة بالفائدة.

وفي القرن الرابع ق.م لجأت الدولة إلى فرض تصنيع ما كانت تحتاج إليه من الفخار والزيت والخمور على الولايات الغربية في آسيا الصغرى وسورية ومصر، ولكن فرض الضرائب كان يؤدي إلى انتفاضات محلية وإقليمية، كما وقع في مصر التي قاومت الاحتلال الفارسي واستردت استقلالها مرتين (٤٦٠-٤٥٦ ق.م) و(٤٠٥-٣٤٣ ق.م).

أما العالم الهليني فقد قاوم الغزو الفارسي منذ بدايته في مطلع القرن الخامس ق.م حتى نهاية القرن الرابع ق.م. وقدَّم المؤرخون اليونانيون المعاصرون له، كهيرودوت، صورة أسطورية عن الامبراطورية الفارسية بعد احتكاكهم بها في بلاد الشرق ومقابلتها وجهاً لوجه بعد غزو الإسكندر المقدوني.

الحضارة الأخمينية وموقعها في التاريخ القديم

لم تتوقف الأسرة الأخمينية في مرحلة تأسيسها وفي أوج قوتها عند توحيد العالم الإيراني بل إنها عملت، عندما سنحت لها الظروف المناسبة، من أجل التوسُّع في بلاد الشرق القديم للسيطرة على طرق مواصلاته وأسواقه. وهكذا ورث قورش وخلفاؤه عروش بابل وسارديس ومنفيس المتداعية التي سرعان ما انهارت أمام القوة الناشئة الجديدة. ولكن الدولة الأخمينية لم تتردد للمحافظة على كيانها السياسي، في نقل السكان وفي نزع ملكية بعضهم لإقامة جاليات فارسية على الأراضي المصادَرة أو المستملَكة في آسيا الصغرى أو في بابل. أما التعذيب والبطش بالثائرين فكانا من الأمور الشائعة والمعروفة، وابتُدعت لها أساليب فاقت في فظاعتها ما عُرف عند السابقين. أما التسامح الديني فلم يظهر إلا عند قورش من بين الملوك الأخمينيين، وهو ما نظن أنه المقصود في القرآن الكريم (ذو القرنين) بقوله سبحانه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ۝ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ۝ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف/٨٦-٨٨]. وقد شاهدنا مجسَّماً نحتيّاً يُظهر قورش وهو يرتدي تاجاً له قرون عدة؛ كما ذكرها القرآن الكريم؛ وقد نشرت الصورة موسوعة تاريخ العالم البريطانية (هامرتن - المجلد ٢ ص٣٩٤)، ولا تكاد توجد أي نقوش تتكلم عن الفُرس قبل قورش الأكبر، وهو الذي وحَّد الفُرس والميديين تحت سلطانه، والله أعلم.

لقد قام قورش بعد تثبيت سلطانه باحتلال بابل وتحرير اليهود والسماح لهم بالرجوع إلى موطنهم. قام قورش باحتلال مملكة ميديا أولاً، عن طريق تأليب المعارضين لها وإثارة الفتن، وبعدما استولى عليها، قام بالهجوم على بابل، ثم توسَّع إلى بلاد الشام، وكذلك إلى غرب الأناضول إلى إيجه، وتوسَّع شمالاً إلى جبال القوقاز، كما توسَّع شرقاً في آسيا الوسطى إلى أقصى ما وصلت إليه الحضارة في البنجاب، وقد امتازت أسطورة قورش بوجه عام بغلبة الطابع الإنساني على سياسته وسلوكه مع الآخرين وخاصة تعامله مع أعدائه السياسيين عند وقوعهم أسرى، مثل إستياخس غريمه على العرش، وسارديس خصمه على إسبارطة.

وعلى العموم، لم يكن العدل الديني سياسة فريدة في بابها في دول الشرق القديم، فقد عرفت حضارات الشرق القديم غالباً التعايش بين العقائد الدينية المحلية، فلم يكن للعامل الديني الدور الأول في توسُّع الدول وفي إنشاء الامبراطوريات عند الفراعنة أو ملوك

الرافدين والأناضول، ولكن الحكام كانوا يتخلون عن تسامحهم الظاهري كلما تطلبت مصلحة الحكم ذلك للقضاء على الثائرين. ومما لا شك فيه أن الإنجاز الذي حققه قورش الكبير، ملك أنشان، وملك الفُرس، كان كبيراً في عصره، ولكن ملوك الفُرس الأخمينيين لم يكن باستطاعتهم أن يقبضوا بسهولة على زمام الأمور في دولة امتدت على نحو خمسة ملايين كيلومتر مربع.

كان الإخفاق واضحاً في قدرة الفُرس على الاندماج سريعاً في المجتمعات الشرقية التي اختلطوا بها بعد انحدارهم من جبالهم إلى السهول التي استقرت فيها المجتمعات الريفية في القرى والحضر، كما أنهم لم ينجحوا في تأسيس مجتمعات مدنية متميزة كما فعل الهلينيون بعدهم عند نزولهم في بلاد الشرق، ومع هذا فلقد مثَّلت الامبراطورية الفارسية الأخمينية بالفعل (مملكة عالمية) ورثت المثل الأعلى القديم للمملكة التي كانت تضم (جهات العالم الأربع)، وهو المثل الأعلى الذي كان يتطلع إليه ملك سومر وأكاد وبابل وآشور، وقد جعله الملوك الأخمينيون واقعاً ملموساً بتوحيد معظم الشرق القديم تحت سلطانهم، إلا أنَّ الغرب الناشىء على أطراف المتوسط بقي خارج هذه المحصلة، بل إنه قاوم الدخول إليه، كما حدث في الحروب الميدية التي نشبت بين الفُرس والهلينيين، وهو ما ترتب عليه صراع حاسم حمل نتائج خطيرة للعالم القديم كله.

ولم يأتِ توحيد الشرق القديم على أيدي الأخمينيين فجأة، إذْ كان الكيان السياسي لدول الشرق القديم قد تضخم واتسع حتى بلغ مرحلة المملكة المركزية الكبرى، وعندما وصل إلى درجة عجز فيها عن المحافظة على ما بلغه من تماسك، تغلبت الأطراف على المركز.

فالدول القديمة التي كانت لها الغلبة والسيادة في السابق أصابها الضعف والوهن على مَر السنين، نتيجة للحروب والصراعات والأزمات المتلاحقة والعنف والكوارث ما أدى إلى تقويض أسس النظم التي كانت قائمة، وإلى إتاحة الفرصة لدخول عوامل تاريخية فعَّالة حملتها دائماً شعوب الجبال والسهوب والبوادي المحيطة بالسهول وأحواض الأنهار، حيث كانت تقوم دول الشرق القديم وترتفع مدنه وتشمخ حضاراته الأولى.

ولقد نجم عن انتقال مركز الثقل السياسي من العواصم التاريخية المعروفة على الفرات ودجلة إلى سوسة ومدن أخرى، وراء جبال زاغروس، توسيع حدود المشرق القديم لتتصل بالعالم الهندي من جهة وبالغرب الأوروبي عند المضائق الواصلة بين البحرين الأسود وإيجه من جهة أخرى. وأطال قيام الامبراطورية الأخمينية عمر الشرق قرنين آخرين في وحدة سياسية ـ اقتصادية هشَّة تفككت أجزاؤها المكونة بعد ذلك تباعاً قبل أنْ يقع الصدام العسكري الذي قاد الهلينيين إلى بلاد الشرق الضعيف والمنهار.

لقد بدأ تضعضع أسس الحضارات الشرقية القديمة ونظمها فكريّاً وروحيّاً قبل هزيمتها الحاسمة عسكريّاً. فقد اهتزت العقائد الدينية القديمة مع تنامي فكرة التوحيد في المجتمعات الشرقية القديمة كما في تراتيل أخناتون في مصر ونابونيد في

بابل، ثمَّ مع ارتفاع هذه الفكرة إلى مستوى التوحيد التجريدي، كما في بعض أسفار التوراة التي أعيدت كتابتها أو كتبت قبيل العصر الأخميني، كسفر عزرا الذي يتحدث عن ربِّ السماوات والأراضي. وهكذا أخذت تتطور الفكرة التي تتحدث عن الإله المنزَّه الذي يمكن أن يكون منفصلاً عن مظاهر الطبيعة التي قدَّستها العقائد القديمة وعن الإنسان، كما تتحدث عن (الإلهي) الذي يمكن أنْ يمثل قوة روحية مستقلة تتجاوز المناحرات السياسية. وفي سياق هذا التطور الروحي- الفكري ظهرت تجربة روحية أخرى في إيران تختلف في بنيتها عما سبقها من تجارب دينية، وهي تؤكد الطبيعة الأخلاقية للإلهي وتجعله يتجاوز الحدود السياسية للدولة، وكذلك الحدود الإثنية.

إن أهم مظاهر الضعف في كيان الامبراطورية الأخمينية هو عجزها عن احتواء الثورة الأيونية ومقاومة المدن اليونانية، خصوصاً بعد رحيل الملك أحشويرش الأول (٤٨٥/٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق.م)، فقد تسارع التدهور ولم يكن لعواهل فارس من هدف سوى مقاومة الدول الصغيرة في العالم الهليني، التي أرادت أنْ تفيد من الصراع الداخلي في الامبراطورية، كما هو في مصر، للحد من وطأة ضغط الجيوش الفارسية الكثيفة عليها. وقد ردَّ الفُرس بتقديم الأموال لزرع الشقاق في صفوف الهلينيين وإيقاف هجماتهم على الحدود الغربية للامبراطورية، ثمَّ أخذوا بمصالحة بعض المدن على حساب مدن أخرى. وكان موت الملك أحشويرش مأساة كبيرة في داخل القصر، وربما تمَّ على أيدي الحريم، وهو ما صار من المألوف تكراره بعد ذلك عند كلِّ تبديل للحاكم عندما لا يكون بفعل الحاشية. وخلف الملك الصريع ابنه أرتا أحشويرش (٤٦٥ ـ ٤٢٤ ق.م)، الذي كان له ضلع في الجريمة بوساطة قائد حرسه الذي قتل أيضاً، وقَبِل هذا الملك آخر الأمر بالتخلي عن الساحل الغربي لآسيا الصغرى ومجموعة من الجزر على أن تتعهد آثينا بألاَّ تمضي في مساعدة ثورة مصر، ثمَّ جاءت الحروب البلوبونيزية (٤٣١ ـ ٤٠٤ ق.م) التي عمَّقت انقسام العالم الهليني، فتمكن حاكم الأناضول الفارسي من استرداد مواقعه على الساحل الغربي الذي اندلعت فيه الثورة على الأثينيين.

تدهور الامبراطورية ونهاية الأسرة المالكة الأخمينية

يتألف تاريخ الأسرة المالكة الأخمينية من سلسلة من الصراعات الدامية التي عجَّلت بتدهور الامبراطورية وحفرت قبر نهايتها. فعندما مات أرتا أحشويرش الأول (٤٢٤ ق.م) خلَّف ثمانية عشر ولداً، وورث العرش أحشويرش الثاني لمدة خمسة وأربعين يوماً، وانتهت حياته مسموماً على يد مغتصب لم يحتفظ بالعرش هو الآخر أكثر من ستة أشهر، إذ قُتل على يدَي داريوس الثاني (٤٢٣ ـ ٤٠٤ ق.م) الذي ضمن العرش لنفسه بعد أن تخلَّص من إخوته وجعل أخته تحكم معه، وتزوج باريزاتيس التي كانت امرأة شرسة صعبة المراس.

وكان التنافس شديداً في القصر الامبراطوري على قيادة الجيوش وعلى طريقة إدارة الصراع مع الهلينيين. وعندما مات

داريوس الثاني ورثه ابنه أرتا أحشويرش الثاني (٤٠٤-٣٥٨ ق.م)، وكان لا يملك إلا مؤهلات ضعيفة، وقد وفَّر حياة أخيه قورش الصغير الذي تآمر عليه مع زوجة أبيه باريزاتيس، ولكن الأمير الفتي حشد جيشاً في آسيا الصغرى وعاد للإطاحة بأخيه لكنه قتل في عام ٤٠١ ق.م في معركة قرب بابل، وتبددت قواته. وقد شجَّع هذا الحدث الإغريق وحلفاءهم على المضي في تحدِّي الفُرس، فهاجمت أسبرطة ممتلكات فارس في آسيا الصغرى، ووجد الملك الفارسي صعوبات في إخماد الاضطرابات العنيفة في مصر وقبرص. وزاد الصراع الداخلي فجاء أرتا أحشويرش الثالث (٣٥٨-٣٣٨ ق.م)، الذي اشتهر بقسوته ولكنه نجح لأمد في ترميم كيان المملكة، فضرب على أيدي الأمراء والولاة المتطلعين إلى الاستقلال، وقمع ثورة أخرى قامت في مصر (٣٤٦-٣٤٣ ق.م)، ولكنه كان قلقاً من صعود مقدونيا وتقدم نفوذها في العالم الهليني، فأخذ يساعد خصوم الملك فيليب الثاني سرّاً وعلانية، ولكنه مات آخر الأمر مسموماً على أيدي أحد رجال القصر (الخصي باجواس)، الذي قتل خلفه أوراسيس (أرسيس) بالسم أيضاً بعد أن حكم مدة قصيرة (٣٣٨-٣٣٦ق.م). وساعد باجواس على اختيار داريوس الثالث، من أحفاد داريوس الثاني، لوراثة العرش (٣٣٦-٣٣٠ ق.م)، واستطاع داريوس (دارا) أن يجعل الخصي المتآمر يتجرع السم الذي أعدَّه لقتل ملكه.

وتحرك فيليب الثاني المقدوني بإرسال جيش لتخليص آسيا الصغرى من حكم الفُرس ولكن الجيش أوقف تقدمه بعد اغتيال العاهل المقدوني (٣٣٦ ق.م)، إلا أنَّ وراثة الإسكندر عرش أبيه القتيل دفع الأحداث إلى منعطف جديد، فاستؤنفت الحرب باندفاع لم يسبق له مثيل لتحقيق أهداف استراتيجية لم يعلن عنها من قبل، وهي إيقاع هزيمة حاسمة بالامبراطورية الفارسية. وهكذا توالت المجابهات بين الملك المقدوني الشاب وجيوش الامبراطورية الفارسية الأخمينية، وتوالت الهزائم في كيليكية وفي خليج الإسكندرونة عند أبواب سوريا وفي بلاد آشور. وبعد أنْ دخل الإسكندر بابل وسوسة وبرسبوليس انسحب آخر الملوك الأخمينيين شرقاً إلى هركانية حيث قتل سنة (٣٣٠ ق.م) على يد أحد الولاة المحليين الذي كان يأمل في مكافأة الإسكندر له، لكنه لقي على غدره وفعلته المصير نفسه.

وهكذا انهارت الامبراطورية الشرقية الفارسية لتحل محلها الامبراطورية العالمية المقدونية بقيادة الإسكندر المقدوني، على أنَّ مهمة الإسكندر لم تكن لتقف عند القضاء على دولة الأخمينيين... «فقد كان سلطانهم شديداً، لذلك وجب على الإسكندر أنْ يُحكم عليهم قبضته... ومن خلال ذلك تحطيم الحواجز القديمة الفاصلة بين الهلينيين وغيرهم من الشعوب؛ وإدماج الشرق في الغرب وتوحيدهما بالفعل».

الآثار التاريخية للسلالة الأخمينية

لقد تركت السلالة الأخمينية الكثير من الآثار التاريخية في أنحاء مختلفة من إيران، ويمكن مشاهدة تقدم فن العمارة في فترة

حكم هـذه السلالة من خلال آثار مدينة برس بوليـس التـي تسمـى باللغـة الفارسيـة «تخت جمشيد»، وهي تقع بالقـرب من مدينة شيراز حاليّـاً، وهي تحتـوي على آثار لمدينـة كاملة، وتشمـل القصـر الملكـي الأخمينـي ومعابـد للديانة الفارسية القديمة ومعسكرات ومخازن للمياه والكثير من الآثار التاريخية؛ وهناك آثار تاريخيـة تعـود لهـذه الحقبـة الزمنيـة يمكن مشاهدتها فـي مدن إيرانية كثيرة، مثل مدينة الـري، همـدان، كرمانشـاه، ملايـر، كنكاور، دماوند وغيرها من المدن الإيرانية.

ويعتقـد الكثير بأنّ اقتراب الملك الفارسي قورش من الطائفة اليهودية، الأسيرة في بابل، وتحريرها من الأسر يعود للنظرة الدينية التي كان يتمتـع بها قورش؛ ولهذا جـاء ذكر قورش في التوراة مدحاً به. لقد سمح قورش وخلفاؤه بدخـول بعـض أنبيـاء اليهـود إلـى داخـل الامبراطوريـة الفارسية والتبليغ لعبـادة الإله الواحـد الأحـد، وهذا هـو سبب تواجـد قبور بعـض هـؤلاء الأنبياء، مثـل دانيـال النبيٍّ في مدينـة شوش في خوزستـان، والنبيٍّ قيدار في مدينة زنجان، والنبيٍّ شالوم في مدينة قزوين وغيرهم من الأنبياء في الأراضي الإيرانية.

وكانـت نهايـة الدولـة الأخمينيـة على يد الإسكنـدر المقدونـي الـذي أنشـأ حكمـاً استعماريّـاً لبـلاد فـارس وما جاورهـا؛ وبقي الحـال حتـى قيـام الدولـة والامبراطوريـة الساسانية الفارسية من جديد لترث كلّ تاريخ وحضارة فارس القديم بما فيه حضارة الدولة الأخمينية.

المصادر والمراجع

- بيرينا، حسن: **تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني**، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي؛ القاهرة ١٩٧٩م.
- الجاف، حسن: **موسوعة تاريخ إيران السياسي** ج١ الدار العربية للموسوعات؛ بيروت ٢٠٠٧.
- هامرتن، جون: **تاريخ العالم**، ترجمة فؤاد إندراوس (العصر اليوناني المتأخر).
- Grundy, G.B., The Great Persian War and Its Preliminaries, 1901, London.
- Jackson, A., **Persia Past and Present**, London, 1906.
- Lewis, G.C, An Essay on the Government of Dependencies, London, 1901.
- Sykes, Sir P. M., History of Persia, London, 1921.

الحضارة الأشكانية[1]

أ. د. جمال البدري

(١) انظر الحضارة الفارسية.



هـي تسميـات عـدة لمجموعـة واحـدة: الأشكانيون؛ الفرثيون؛ البارثيون؛ الأشقيانيون. وهم أقوام مـن الهندو ـ أوروبيـة؛ موطنهم في جبـال زاغـروس في منطقـة (بلورسـتـان) في جنـوب همدان؛ وهنـاك أسَّسـوا دولتهم؛ وكان أول ملوكهم في إيران أرشاق (٢٥٠ ـ ٢٤٧ ق.م)، الذي نجح بطرد السلوقييـن من إيران. وظهر الأشكانيـون بسبب ضعف الدولـة البابلية، وقد نجح الملك (متريـدات الأول) في فتح العراق عـام ١٤١ ق.م، والاستيـلاء علـى سلوقيـة العاصمة (طيسفون). كما امتدت حروبهم إلى بلاد الشـام؛ وتمكن الفرثيـون الأشكانيون من السيطرة على طـرق التجارة عند نهر الفرات؛ فنافسـوا الامبراطورية الرومانيـة في وجودها فـي سوريا، خصوصـاً بعد معركة حـران لعام (٥٣ ق.م) والتـي تغلَّـب فيهـا الفرثيـون علـى الرومان وأبادوا فيها جيش يوليوس قيصر؛ ثمَّ أعقبتهـا معركـة نصيبيـن التـي تكبَّـد فيهـا الرومان المزيد من الخسائر البشرية.

وقد تمكن الأشكانيون، قبل ذلك، بقيادة زعيمهم الجديد (كنداش)، من احتلال بابل وتأسيـس سلالـة أشكانيـة ورثـت جميـع ممتلكات الدولـة البابلية. وهكذا بدأ حكمهم منـذ أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد واستمـر لغاية سنة ١١٦٢ قبل الميلاد؛ حكم خلالها (٣٦) ملكاً منهم؛ ثمَّ جاء العيلاميون واحتلوا بلاد بابل ومعهـا مملكة الأشكانيين؛ فقضـوا على آخـر الملوك بعـد (٣٣٣) سنة مـن حكمهم في بابـل. وإذا أضفنا إلى ذلك مـدة حكمهم فـي إيـران قبـل بابـل فيكون مجمـوع عمر مملكتهـم (٤٢٥ سنـة). وكان آخـر ملوكهم هـو (أردوان الخامـس)، لكن النزاعات الداخلية بين الأمـراء الأشكانيين أدَّت إلـى نهاية حكمهم في العـراق وإيران، وكانت نهايتهم على يـد الساسانيين الفُرس أيضـاً. والأشكانيـون أول مَـن أطلـق لقـب (شاهنشـاه)، أيْ قبـل الأخمينييـن الذيـن استخدموا هذا اللقـب لملوكهم؛ وإلى جانب الملك كان لديهم مجلس تنفيذي يُطلق عليه اسم (مهستان)، وكانت لغتهم الأساس فيما بعد اللغة البهلوية.

كان الأشكانيـون قـد سيطـروا على أهم بقعـة جغرافية فـي العالم القديـم (بابل). ومع طول مدة حكمهم فقد كانت لهم صلات وصراعـات عديـدة مـع الأقوام فـي الشرق والغـرب، إضافـة إلى ذلـك فإنهـم اقتبسوا الحضـارة البابليـة وهـم الرعـاة الجبليون؛ لكنهم تعلَّموا منها الكثير؛ خاصة في النحت والصياغـة والفنـون والبنـاء؛ وكان مـن إنجازاتهـم بنـاء مدينـة (طيسفـون) التـي صارت عاصمة الدولـة الساسانية فيما بعد؛ وأهـم التطـورات كانـت فـي عهـد ملكهـم كوريكالزو الثاني (١٣٤٥ ـ ١٣٢٤ ق.م) الذي أسَّس عاصمة جديدة في منطقة (عقرقوف) في ضواحي مدينة بغـداد حاليّاً. كما أقيمت في عهـد هذا الملـك قصور عـدة وزقورات للعبـادة؛ ومنهـا زقـورة عقرقـوف البالـغ ارتفاعهـا (١٧٠ قدمـاً)، ومـا زالـت قائمة كأطلال سياحية.

ولعـلَّ أهـم إضافـات الأشكانييـن التـي ساهمـت فـي الحـراك الحضـاري القديـم إدخال الخيـول المروَّضة إلـى العراق بشكل واسـع للاستخدامـات الحربيـة. ويضـم المتحـف العراقي حتى اليـوم عشرات الآثار

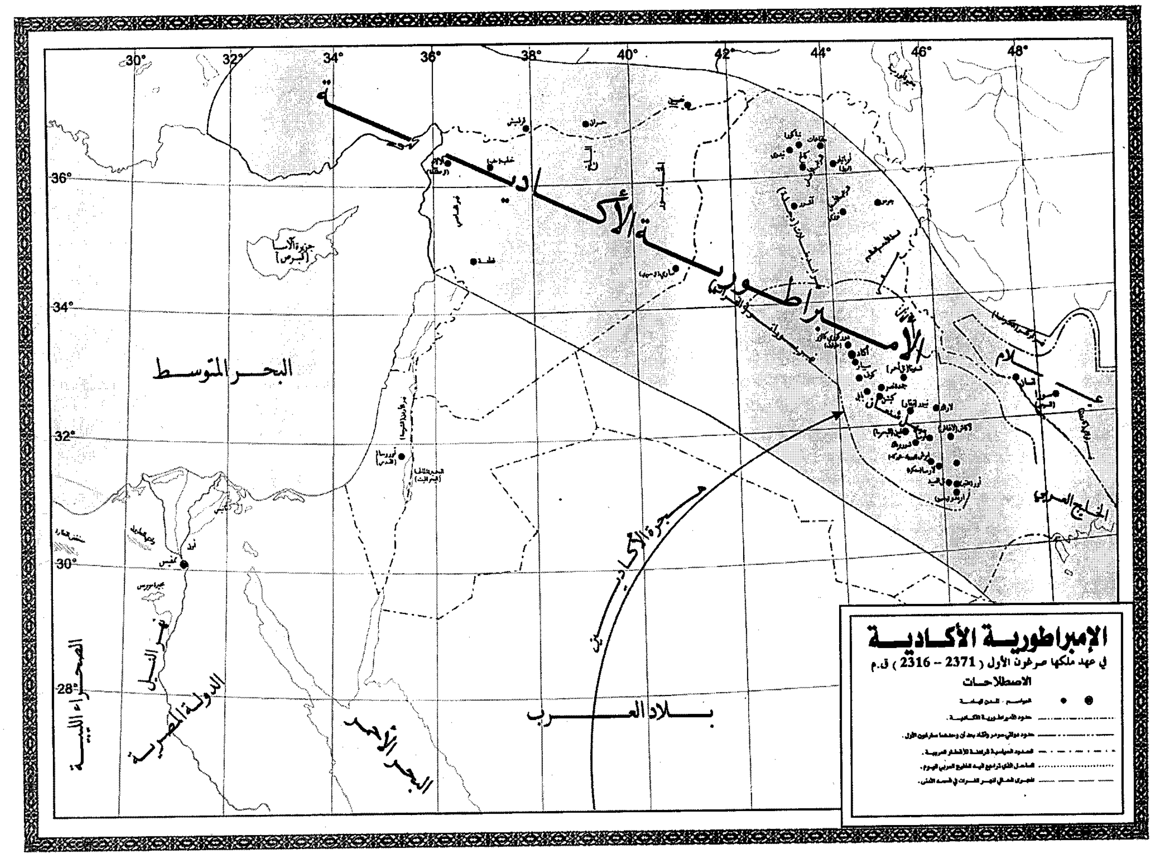
التـي تعـود للعهـد الأشكانـي؛ فـي مجـال الفخاريـات واللقـى والمنحوتـات والتماثيل. ولعـلَّ أبـرز منجزاتهـم كانـت فـي ميـدان الزراعـة وتربية الخيـول وصناعـة الأسلحة الحديدية والنحاسية؛ والصناعات الفخارية لبناء المعابد.

المصادر والمراجع

- باقر، طه: **ديانة البابليين والآشوريين**؛ دورية سومر العدد ٢؛ مديرية الآثار العامة؛ بغداد ١٩٤٦.
- سفر، فؤاد وآخرون: **تاريخ العصور القديمة**؛ ط٧؛ بغداد ١٩٦٠.
- سوسة، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**؛ بغداد ١٩٨١.

الحضارة الأكادية

أ. د. حنان قرقوتي



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع

عاش الأكاديون منذ القدم في الجزيرة العربية ثم هاجروا شمالاً إلى العراق وعاشوا مع السومريين، وآلت إليهم السلطة في نحو (٢٣٥٠ ق.م) بقيادة زعيمهم سرجون مؤسس الامبراطورية الأكادية، الذي تمكن من احتلال بلاد سومر وفرض سيادته على جميع مدن العراق وجعل مدينة أكّاد عاصمته، ثم بسط نفوذه على بلاد بابل وشمال بلاد ما بين النهرين وعيلام وسورية وفلسطين وأجزاء من الأناضول، وامتد إلى الخليج العربي، حتى دانت له كل المنطقة، وبلغت سيطرة الأكاديين من الخليج العربي حتى البحر المتوسط مع جزيرتي قبرص وكريت.

أصل الأكّاديين

الأكّاديون من الشعوب السامية التي سكنت بلاد الرافدين (الهلال الخصيب) ونزحت من شبه الجزيرة العربية، ودخل الأكّاديون شمال بلاد بابل من بلاد الشام، في وقت مبكر، نحو (٣٠٠٠ ق.م.)، وحدَّد بعض الباحثين في التاريخ القديم، بداية الهجرات العربية إلى بلاد الرافدين وشمالي أفريقيا بالألف الرابع ق.م.، وحدَّد بعضهم الآخر، وفق ما جاء في التنقيبات الأثرية الحديثة، تاريخ الهجرات المذكورة بالألف الثالث ق.م.، وهذه الهجرات هي: الأكادية، والكنعانية، والأشورية، والعمورية، والآرامية، والمصرية.

والأكاديون هم أولى السلالات العربية في وادي الرافدين، وسُمِّيت بالسلالة الأكّادية نسبة إلى عاصمتها «أكّاد» التي تقع شمالّي سومر، وسُمِّيت لغتهم اللغة الأكّادية نسبة إلى المدينة نفسها أيضاً.

ويُطلق اسم الأكّاديين على ملوك السلالة السابعة التي أسسها الملك سرجون، أو على رعايا تلك الدولة. وقد أَسَّست هذه السلالة أول امبراطورية قديمة في بلاد الرافدين والعالم، ودامت قرابة قرنين من الزمن، وامتدت من الخليج العربي حتى البحر المتوسط مع قبرص وكريت.

وامتزج الأكّاديون مع جماعات بشرية أخرى تسكن المنطقة، وساهموا معاً في خلق الحضارة الرافدية وتطويرها، أو بما يسمى حضارة بلاد بابل التي شملت الشعب السامي المتمثل بالأكّاديين في الشمال، والآخر غير السامي المتمثل بالسومريين في الجنوب، ونتج عن طريق التزاوج فيما بينهما الجنس البابلي.

وتشير أولى الوثائق الكتابية من عصر السلالات الباكرة إلى وجود مجموعات سامية هي الأكّادية في جنوب بلاد الرافدين. ويمتد عصر فجر السلالات فيما بين نهاية عصر «جمدة نصر» (٢٩٠٠ ق.م.) وبداية عهد الامبراطورية الأكّادية السرجونية (٢٣٥٠ ق.م.). وأقدم البراهين المكتوبة الدالة على وجود الأكّاديين في تلك المنطقة أسماء الأعلام الأكّادية المذكورة في الألواح السومرية القديمة المكتشفة في «أور»، بلد نبي الله إبراهيم عليه السلام (نحو ٢٦٧٥ ق.م.)، وفي أرشيف «فارا» (نحو ٢٦٠٠ ق.م.) والكلمات الأكّادية القديمة الموجودة في اللغة السومرية.

الامبراطورية الأكّادية

عاش الأكّاديون قروناً في جنوب بلاد

الرافدين قبل أن يصبحوا قوة سياسية ذات شأن، ويؤسسوا دولة لهم على يد سرجون، أو صارغون، أو شارُّوكين الذي حكم ما بين (٢٣٥٠ ـ ٢٢٨٤ ق.م.).

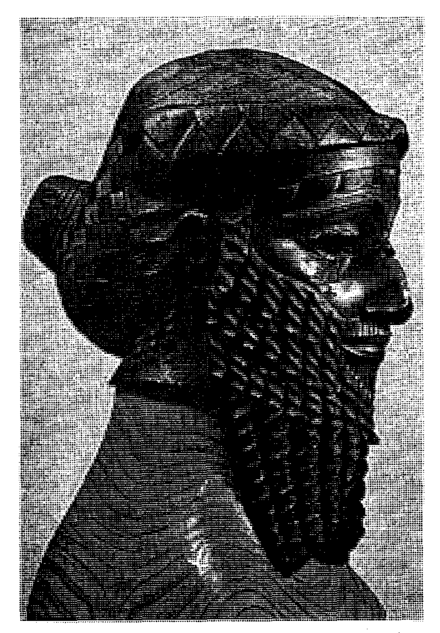
ونشأ سرجون، أشهر ملوك أكّاد، نشأة وضيعة، وفيما يقوله عن نفسه، بعد استيلائه على بلاد الرافدين: «أنا الملك الواسع السلطان، ملك أكّاد. كانت أمي كاهنة معبد ووالدي لم أعرفه. حملت بي أمي الوضيعة الشأن وأخرجتني إلى العالم سرّاً، ووضعتني في صندوق صغير من الأسل، وأحكمت عليَّ الغطاء بالقار وأسلمتني للنهر..». ثم أنجاه أحد سقاة الملك، ورباه في كنفه، وقد قدَّر الله له أن يصبح «سيد مناطق العالم الأربع». ويسرد قصته بنفسه مفسراً سر ارتقائه الخرافي من طفل لقيط إلى مؤسس أول امبراطورية في التاريخ، ويقص قصة هيامه بالإلهة «عشتار» التي هامت به بدورها، فاستطاع بعونها، كما كان يعتقد، أن يهزم ذوي «الرؤوس السود» أي السومريين.

وكان قد بدأ حياته السياسية موظفاً بالمحكمة العليا التي كانت تحت سلطان الملك «أور زبابا»، ملك مدينة «كيش»، وهي إحدى مدن سومر في جنوب بلاد الرافدين.

ولمع اسمه في المجال العسكري عندما انتصر على «لوكال زاكيزي»، الحاكم الأعلى الموقت لكل سومر، في «أوروك»، وبعد ذلك أخضع المدن السومرية برمتها. ويعزى ذلك الانتصار إلى استعمال الأكّاديين أسلحة جديدة لم تكن معروفة من قِبَلِ السومريين، كالقوس والنشّاب والحراب، وإلى اتِّباع تكتيك جديد في المعارك يعتمد على المحارب كعنصر مرن الحركة بدلاً من الاعتماد على الكتل المتراصة من الجنود.

وأسس سرجون عاصمة مُلْكِهِ «أكّاد» شمالي سومر، ولم يعثر علماء الآثار على هذه المدينة بعد. وتذكر وثيقة معاصرة أنها كانت تقع بالقرب من «كيش»، وحسب وثيقة متأخرة أنها لم تكن بعيدة عن «بابل». ويُعتقد أن موقعها الحالي بالقرب من اليوسفية. ويظهر أنها كانت شمال بلاد «سومر» الرئيسية والوصول إليها سهل بواسطة النهر للقوارب الماخرة بالبحار.

أما سرجون، فإن سيطرته على سومر لم تكن إلا مقدمة لتوسيع غزواته إلى ما وراء حدود بلاد الرافدين الطبيعية، ومغامرته الأولى من هذا النوع كانت حملته شرقاً إلى «عيلام» حيث دحر القوى المشتركة لأربعة حكام بقيادة ملك «أوان»، وعيَّن ممثلاً عنه في مدينة «شوشه» التي لمع نجمها منذ ذلك الحين كمركز سياسي جديد. واتَّبَعَت حملته الثانية مجرى الفرات إلى شمالي سورية، وحصل على مدخل لغابات الأرز في جبال أمانوس وإلى مناجم الفضة في طوروس، وضمنت الحملات التالية خضوع المستوطنات الواقعة فوق «نينوى»، وهناك نص مشهور عُرف باسم «ملك المعركة» ويظهر الملك وهو يتغلغل بعمق في قلب بلاد الأناضول لحماية تجَّاره من اضطهاد حاكم محلي، ووصف بأنه ملك «بوروشاندا» الواقعة في مكان ما بمنطقة إلى الجنوب من قيصرية الحالية. ووصلت حملة بحرية له إلى النهاية الجنوبية القصوى من الخليج العربي وعبر البحر الغربي إلى


رأس تمثال من البرونز يعتقد أنه يمثل الملك الأكادي (صرغون الأول)

قبرص وكريت، وأدت هذه الحملات في النهاية إلى إنشاء امبراطورية عراقية لأول مرة في التاريخ واستغلال أقطار غير معروفة حتى ذلك الوقت لأغراض تجارية.

وقاد سرجون جيشه إلى سلسلة من الانتصارات اتسعت بعدها امبراطوريته حتى شملت أراضي ما يعرف الآن بإيران شرقاً، وامتدت إلى البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى (تركيا حاليّاً) غرباً. وأثناء فترة حكمه حلَّ الساميون مكان السومريين وصاروا الأكثرية صاحبة النفوذ في بلاد الرافدين. وتميز سرجون بأنه كان قائداً عسكريّاً وإداريّاً بارزاً، استطاع الاحتفاظ بجيش نظامي، وعيَّن مساعدين له من البلاط الملكي حكاماً في المدن التي تمَّ فتحها، ونظَّم امبراطوريته تنظيماً جيداً، فاستمرت من بعده لأكثر من ٦٠ عاماً.

خلفاء سرجون

بعد وفاة سرجون، قامت بعض الثورات المضادة للحكم، وكان من نتيجة إحداها أن ابن سرجون «ريموش» قُتل في ثورة بقصره، ولكن «مانيشتوسو» والي «مدى أكبر» وحفيده «نرام سن» تمكنا من الحفاظ على عظمة الامبراطورية الأكّادية. ويظهر أن «نرام سن» كان ملكاً ذا مقدرة توازي مقدرة سرجون وتمكَّن مثله أن يصبح بطلاً لأسطورة. وانشغل خلال مدة حكمه الطويل (٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق.م.) بسلسلة من العمليات العسكرية انعكس بعضها في آثاره الباقية، فقام في الشمال مثلاً بحملة ضد ملك «حوري» خُلِّدَت بمنحوتتين ملكيتين تمَّ نحت الأولى على واجهة جبل عند «بير حسين» قرب مدينة «ديار بكر» (حاليّاً في متحف إسطنبول)، والثانية منحوتة صخرية في «دربندي كاور» في شمال غرب إيران (يرجع تاريخها إلى سلالة أور الثالثة) تدوِّن نصراً له على «اللولوبي»، إحدى الجماعات القبلية في «لورستان» والتي كانت تشكل تهديداً مستمرّاً على الحدود العراقية، ونصر آخر مماثل تم تخليده في موضوع نصب «نام سن» الشهير الذي عُثر عليه في «شوشه» والموجود الآن في متحف اللوفر.

انتهاء الامبراطورية الأكّادية

أبقى خلفاء سرجون الامبراطورية موحدة أكثر من ٦٠ سنة حتى اجتاحها مغيرون عُرفوا

بالحوثيين، أتوا من أماكن نائية في الشمال ومن الهضاب الإيرانية وجبال الزاغروس، وعاثوا في بلاد الرافدين خراباً، فكانوا من أهم عوامل انهيار الدولة الأكّادية، وبمعاونة السومريين الضمنية أو الصامتة، الذين كانوا يأملون في استعادة نفوذهم ودورهم السياسي اللذين فقدوهما إبان الحكم الأكّادي، وحدث هذا زمن حكم «شودورول» (٢١٧٤ ـ ٢١٥٩ ق.م). وظهرت عظمة الامبراطورية الأكّادية عندما كان الملوك في البداية أقوياء، فاستطاعوا المحافظة على قوة وحدة الامبراطورية، ولكن ما أن اعتلى العرش ملوك ضعاف حتى دبت الفوضى والاضطرابات في كل أجزاء الامبراطورية، وانفصلت الأجزاء البعيدة عن العاصمة، وتجرأت الشعوب الجبلية على مهاجمة قلب الامبراطورية وقامت بتدمير العاصمة تدميراً كاملاً.

الحياة الإدارية والعمرانية في الامبراطورية الأكّادية

كان الملك الأكّادي أعلى سلطة في الامبراطورية، وكان يتمتّع بسلطة مطلقة في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقضائية، وكان تحت إمرته جهاز كبير من الموظفين لإدارة شؤون الامبراطورية المترامية الأطراف.

وكان يتمُّ تنصيب حكام أكاديين في جميع المدن التي تمت السيطرة عليها يعاونهم بعض القوات الأكّادية للقضاء على أي محاولة للخروج على الملك الأكّادي، وفي حال حدوث تمرُّد حاكم أو أمير محلي كان يتم خلعه وتنصيب آخر مكانه.

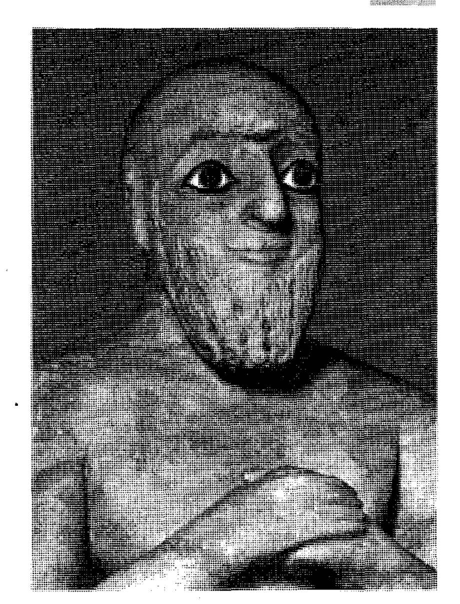
وبتأسيس الامبراطورية الأكّادية تحققت، لأول مرة في تاريخ بلاد الرافدين، فكرة الدولة المركزية الواحدة بدلاً عن دويلات المدن العديدة التي كانت سائدة في عصر السلالات السومرية الباكرة.

وفي بلاد الرافدين، كانت اللغة السومرية هي المستعملة في مملكة «سومر»، وبعد السيطرة عليها من قبل الأكّاديين توقفت اللغة السومرية وحلّت محلها اللغة الأكّادية في الأعمال الإدارية، وأضحت اللغة الأكّادية اللغة الرسمية في المجال الدبلوماسي في المراسلات الخارجية لزمن طويل.

وبالنسبة للأعمال العمرانية فقد كان الاهتمام بها كبيراً، خاصة في فترة حكم ملكها سرجون الذي صرف الوقت الكثير والجهد المضني في إصلاح أو إعادة تعمير الآثار الدينية السومرية القديمة، ومن ذلك أن ابنة سرجون نفسه صارت كاهنة الإله «رب القمر» في «أور».

ومن أهم الأعمال العمرانية في «أكّاد» أن سرجون بنى قصراً لنفسه ومعبداً لـ «زَبابا» إله الحرب في مدينة «كيش»، وآخر للإلهة «عشتار» إلهة الحب، وأنشأ ميناءً في «أكّاد» لتنشيط التجارة مع المناطق البعيدة عبر الخليج العربي.

واهتم الملوك الأكّاديون بصورة عامَّة بإعادة بناء المعابد في المدن السومرية، والغريب أن آثاراً قليلة من نتاجهم ظهرت أثناء الحفريات التي تمت في مواقعهم الأثرية نفسها، ولعل من جاء بعدهم عمد إلى محو آثارهم ومنجزاتهم، على عادة أهل ذلك الزمان.



تمثال (إيبي ايل) كاهن المعبد يعود إلى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد

ومن الجدير بالذكر أن عالم الآثار «هـ.ف. هلبرشت» عندما كان ينقب في موقع «نفر» سنة (١٨٩٩ ـ ١٩٠٠م.) وجد أن «زقورة» سلالة «أور» الثالثة تغطي آثاراً قبلها، كان قد بناها الملك «نرام سن» الأكّادي ولكنه اعتبر التحري عنها أمراً غير عملي. وعثر «فينسنت شيل» في «سبار» (موقع أبو حبة) سنة (١٨٩٣م.) على منطقة دينية واسعة كان قد شيدها بالأصل الملك سرجون الأكّادي؛ ولكنه تتبَّع ووثَّقَ قسماً من البناية التي حلت محلها بعد ألف سنة. ولاحظ «ي. هـ. بانكس» في «باسمايا» (موقع أدب) في (١٩٠٣ ـ ١٩٠٤م.)، أثناء تفتيشه عن الرقم أو التماثيل، وجود قصر وبيوت خاصة ومقبرة تعود كلها إلى العصر الأكّادي ولكنها لا تحتوي على أية سجلات. وتحسَّنت الأحوال قليلاً سنة (١٩٢٣ ـ ١٩٣٣م.) عندما تمكن «ج. واتلين»، أثناء تنقيبه في موقع «تل أنغرة» في «كيش»، أن يميز تعميرات وإضافات إلى زقورة قديمة ترجع إلى العصور الأكّادية، كما وجد مقابر معاصرة في المقبرة. وفي «أورفان» وُجدت آثار تعود إلى عصر سرجون على عمق بعيد تحت بقايا العصور التالية. وقد تمكن «وولي» أن يدرس ويدوِّن بكل دقة حوالي ٤٠٠ قبر أكّادي على الأقل. وبقي للمنقبين الإنكليز والأميركان في الثلاثينات ـ من القرن العشرين الميلادي ـ أن يلقوا الضوء على بعض الصفات الخاصة بالعمارة الأكادية».

الحياة الاجتماعية في الامبراطورية الأكّادية

مزج الأكّاديون الحضارة السومرية بثقافتهم الخاصة، فقد استمر أتباع سرجون في مشاركة السومريين بعقائدهم الدينية وعاداتهم الاجتماعية. ويبدو أن الساميين، من أكّاديين وصولاً إلى الأشوريين، قد تأثرت حضارتهم بتأثيرات سومرية جليَّة المعالم، إن في نمط حياتهم، أو في فنونهم، أو في سائر نواحي ثقافتهم.

العلوم في عهد الأكّاديين

لقد كانت فترة الأكّاديين لامعة من الناحية السياسية والحضارية، فقد انتشرت خلالها العلوم والمعارف والفنون والكتابة في بلاد الرافدين والأقطار المجاورة، ومما يدل على ذلك أن علماء الآثار وجدوا في بلاد بابل، حتى الآن، مئات الألوف من الألواح

المسمارية التي تحتوي على وثائق تاريخية وقانونية ورسائل وسجلات اقتصادية ونصوص أدبية ودينية وبحوث في الرياضيات والفلك والطب والسحر، كما وُجدت ألواح من الطين مكتوبة بالخط المسماري وباللغة الأكّادية في كثير من المناطق البعيدة في الأناضول وعربستان.

وقد ترقَّت الفنون الجميلة والقيم الإبداعية في عهد الأكّاديين، فقد عُثر على تماثيل وجداريات منحوتة في عهدهم تمثِّل مدى الرقي الذي وصلوا إليه.

من آثار الحضارة السومرية في الحضارة الأكّادية

عندما تبنَّى الأكّاديون نظام الكتابة المسمارية السومرية لكتابة لغتهم الخاصة، اقتبسوا أيضاً عدداً كبيراً من القصص السومرية، إلا أنهم بدَّلوا الروايات الأسطورية حول الخلق وسير آلهتهم كي توافق نظامهم الديني الخاص، وأعظم هذه الروايات شهرة قصة الخلق وملحمة «جلجامش»، وتروي الأولى نسبتهم خلق العالم لإلههم «مردوك»، وهو أكبر معبودٍ أكّادي. أما الثانية فإنها تصف طوفاناً كبيراً شبيهاً بقصة الطوفان الذي حدث في عهد نوح عليه السلام. و«جلجامش» بطل سومري أسطوري. كما أبدع الأكّاديون مجموعة من القوانين سُميت بـ «تشريعات حمورابي القانونية».

الدين عند الأكّاديين

كان الأكّاديون الساميون قد تبنوا الديانة السومرية، مثلما تبنوا صنوف الأدب

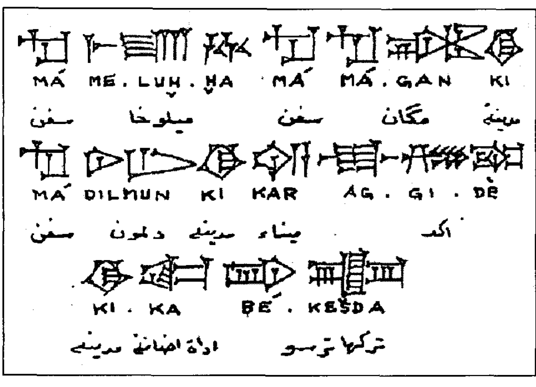


تمثال (جوديا) ملك مدينة (لجش) وكاهنها

السومري، تبنياً جزئيّاً، غير أنهم ركَّزوا على آلهة مدنهم الخاصة أكثر مما ركزوا على آلهة السومريين القديمة. ووصل عدد الآلهة التي عبدوها إلى الآلاف، فقد كان لكل مدينة آلهة حامية لها، كما كان هناك آلهة تمثل الشمس والقمر والنجوم والمناخ والمحاصيل والأنهار والأرض. وأشهر آلهتهم «شَماش» إله الشمس، و«سين» إله القمر، و«عشتار أنونيتوم» سيدة مدينة أكّاد. كذلك عبد الأكّاديون الإله «داكان» الذي يعود بأصوله إلى سورية، وقد أصبحت منطقة الفرات الأوسط مركز عبادته الرئيس في بلاد الرافدين في العصور التالية.

اللغة الأكّادية

أصبحت الكتابة، بعد اكتشافها وتطورها، وسيلة لتدوين التاريخ، وسميت العصور المصاحبة لها بالعصور التاريخية. وسميت بداية هذه المرحلة من الحكم في العراق بعصر «دويلات المدن» أو عصر «فجر السلالات»، ويمتد هذا العصر فيما بين نهاية عصر «جمدة نصر» (٢٩٠٠ ق.م.) وبداية عهد الامبرطورية الأكّادية السرجونية (٢٣٥٠ ق.م.)، وهو من أغنى أدوار بلاد الرافدين من الوجهة الثقافية والحضارية، وقد وُجدت معالم هذه الحضارة في أشهر المدن القديمة مثل «سبار» (تل أبو حبة).



نص بالخط المسماري يعود للملك صرغون الأكادي

وقد دُوِّنَت الكتابة في لوائح مسمارية وباللغة السومرية، وبعد إنشاء الامبراطورية الأكّادية استُعيض عن اللغة السومرية باللغة الأكّادية، لغة الحكام الجدد، التي انتشرت انتشاراً واسعاً على مدى قرون عديدة تجاوزت انتهاء الحكم الأكّادي بزمن طويل وحتى انتشار اللغة الآرامية في القرن الخامس قبل الميلاد. وانتشرت اللغة الأكّادية في منطقة واسعة وأقاليم متعددة، وتفرعت عنها لهجات كثيرة تميزت كل منها بخصائص معينة أملتها البيئة التي عاشت فيها، إلا أنها لم تبعدها عن الأصل الذي تفرَّعت عنه كثيراً، ولا سيما أن ما دُوِّنَ من تلك اللهجات كان بالكتابة المسمارية التي كانت من العوامل المساعدة على الحفاظ على عدد منها وعلى انتمائها إلى لغة واحدة.

والذي ساعد على انتشار اللغة الأكّادية انتشاراً واسعاً هو أن الأكّاديين احتفظوا بلسانهم الجذري (السامي) الخاص. وقد أظهرت الدراسات المختلفة للغة الأكّادية أن معظم التراكيب اللغوية والقواعدية ومصادر الأفعال وجذورها وتصاريف الأسماء والصفات فيها تشبه ما هو موجود في اللغة العربية الحالية.

وظهر مؤخراً أول معجم عن اللغة الأكّادية باللغة العربية، وفق الأسلوب العربي في إعداد المعاجم، فاعتمد جذر الكلمة أساساً في ترتيب المفردات اللغوية منسَّقة حسب الألفباء العربية.

وقد استعمل الأكّاديون نوعاً سمجاً من الخط المسماري القديم لأغراض الكتابة، ولكن ما أن طرأ عليه التحسن بعد ذلك حتى صارت اللغة الأكّادية، التي دونت بواسطته لغة الشرق الأدنى الرئيسية، سواءً بالمراسلات التجارية أو الدبلوماسية.

ومما يشهد على ذلك وجود مئات الآلاف من الألواح المسمارية، في بلاد «بابل» وفي

أماكن نائيـة، كرسائـل باللغـة الأكّادية التي عُثر عليها في «تل العمارنة» في مصر، وترجع إلـى منتصـف الألـف الثانـي قبـل الميلاد، وكذلـك الوثائـق والمراسـلات والنصـوص المختلفـة، وأشهرهـا الموجـودة فـي مكتبـة «آشور بانيبال» وأرشيف «ماري».

المصادر والمراجع

- البستاني، فؤاد أفرام: **دائرة المعارف**، بيروت ـ ١٩٨٣، مصطلح أشور.
- ديورانت، ويل: قصة الحضارة، م١، ج٢، ص١٨٨، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ١٤٠٨هـ. /١٩٨٨م.
- الذنون، عبد الحكيم: **بدايات الحضارة**، دار علاء الدين، ط١، دمشق ـ سوريا، ١٩٩٣م..
- سليمان، عامر وآخرون: المعجم الأكدي، ج١، ص٩.
- فريشاور، بول: **الجنس في العالم القديم**، ترجمة فائق دحدوح، دار نينوى، ط١، دمشق ـ سورية، ١٩٩٩م..
- لويـد، سيتون: **آثار بلاد الرافدين مـن العصر الحجري القديم حتى الاحتلال الفارسي**، ترجمة د. سامي سعيـد الأحمـد، دار الرشيـد للنشر، منشـورات وزارة الثقافـة والإعـلام، سلسلة الكتـب المترجمة (٨٧)، الجمهورية العراقية ١٩٨٠م.
- د. مرعـي، عيـد: **تاريـخ بـلاد الرافديـن منذ أقـدم العصـور حتـى عـام ٥٣٩ ق.م.**، الأبجديـة للنشر، ط١، دمشق ـ سوريا، ١٩٩١م.
- الموسوعة العربية الميسرة.
- النجفـي، حسن: **معجـم المصطلحـات والأعلام في العـراق القديـم**، دار واسـط، ط١، بغداد ـ الجمهورية العراقية، ١٩٨٢م.

الحضارة الأمورية

أ. د. حنان قرقوتي



الموقع

الأموريون شعب قديم ظهر في بلاد الرافدين والجزيرة العليا وبلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن) منذ الألف الثالث ق.م. وساد الأموريون، خلال النصف الأول من الألف الثاني ق.م.، في مناطق واسعة متفرقة من تلك البلاد، واتخذوا مدينة «ماري» عاصمة لهم، التي تقع جنوبي مصب الخابور على الفرات الأوسط بالقرب من الحدود السورية / العراقية الحالية، ووصلوا إلى البحر الأبيض المتوسط وسمي بـ «بحر أمورو العظيم».

أصل الأموريين وتسميتهم

يجمع المؤرخون إجماعاً شبه تام، على أن الأموريين شعب سامي، هاجر من جزيرة العرب في الألف الثالث ق.م. وتغلغل في سورية ليقيم في القسم الشمالي منها.

وشملت هجرة الأموريين من جزيرة العرب شعباً اتجه نحو القسم الغربي من سورية وأطلق على نفسه اسم «الكنعانيين»، وقسم آخر منهم اجتاح بلاد ما بين النهرين، في نهاية الألف الثالث ومطلع الألف الثاني ق.م.، وشكَّل فيها سلالات ملكية حكمت المنطقة من «أشور» شمالاً إلى «لارشا» جنوباً، واشتهرت منها سلالة «بابل» الأمورية والتي كان من أبرز ملوكها «حمورابي».

ينتسب الأموريون في اشتقاق اسمهم إلى لفظة «أمورُّو» وهذه اللفظة ليست سامية بل سومرية، ومعناها «الغربي»، أي الذي يقيم في الجهة الغربية، ولفظة عاصمتهم «ماري» من العائلة الاشتقاقية نفسها، وشبيهة باسم البلاد «أمورُّو» أو «مارتو» أي بلاد الغرب، وكان هذا أيضاً اسم إلههم القديم إله الحرب والصيد، ووسع البابليون فيما بعد مدلول الاسم فصار يشمل سورية كلها، وسموا البحر المتوسط «بحر أمورُّو العظيم».

الأموريون في سورية ولبنان وفلسطين

تظهر أول إشارة إلى أرض الأموريين من عصر «سرجون الأكَّادي» (حوالي ٢٢٥٠ ق.م.)، وهو أول شخصية كبرى في تاريخ الساميين. وأخذ الأموريون يظهرون بالتدريج في سورية الوسطى ولبنان وفلسطين. ويقال إن تسمية «لبنان» و«صيدون» و«عسقلان» و«عمريت» أمورية في نهاية أسمائها. وفي ذلك العهد أصبحت سورية سامية لأول مرة، باستثناء بعض المناطق التي سكنها الحوريون وآخرون من غير الساميين، واحتفظت بصبغتها السامية خلال العصور.

ويتبين من الآثار المتمثلة بمحفوظات «زمري ليم» ملك «ماري» (١٧٣٠ ـ ١٧٠٠ ق.م.) أن مدناً كحلب، بوصفها عاصمة «يمخاض»، و«جبيل» و«قطنة» و«حرَّانو أو حرَّان» كانت تحت حكم سلالات أمورية أو أمراء أموريين، علماً أن المنطقة الممتدة من جبال عيلام شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً كانت جميعها أو أغلبها تحت حكم الأموريين العام ١٨٠٠ ق.م..

ومؤرخو العهد القديم وأنبياؤه يعطون الأموريين مكانة ممتازة في فلسطين قبل دخول الإسرائيليين إليها، ويجعلون جميع سكان الأراضي الجبلية وشرقي الأردن أموريين أيضاً قبل قدوم بني إسرائيل، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن سكان البوادي هم من الكنعانيين.

وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد، كان الأموريون يسيطرون على المواقع الاستراتيجية ورؤوس التلال في سورية الجنوبية، واستطاعوا أن يؤسسوا بعض المراكز التي تطورت فيما بعد، فأصبحت تلك المدن الكنعانية الهائلة هي التي توقَّف عند أسوارها وأبراجها القادمون الإسرائيليون.

وبعد مدَّة تمَّ للإسرائيليين انتزاع السيادة من أيدي الأموريين والكنعانيين، واستولوا على المناطق السورية الواقعة شرقي الأردن بعد اجتياح «سيخون» وجارتها الأمورية في الشمال وهي أرض «باشان». وكان ملك «باشان الذي قيل عنه إنه «من بقية الجبابرة» هائلاً في قامته، وكان طول سريره الحديدي تسعة أذرع.

وجاء ذكر الأموريين في العهد القديم في سفر النبي عاموس عندما انتصر الإسرائيليون على الأموريين الأقوياء ذوي الهامات الطويلة والقوية، فيما يروونه عن الله جل وعلا: «وأنا قد أبَدْتُ من أمامهم الأموري الذي قامته مثل قامة الأرز، وهو قويٌّ كالبلوط. أبدتُ ثمره من فوق وأصوله من تحت. وأنا أصعدتكم من أرض مصر وسرت بكم في البرية أربعين سنة لترِثوا أرض الأموري».

«ماري» عاصمة الأموريين

تقع «ماري» عاصمة الأموريين على الفرات الأوسط بالقرب من الحدود السورية/ العراقية الحالية، واسم موقعها اليوم «تل الحريري»، وجرى تعيين موقعها عام ١٩٣٣م.، إثر تنقيبات فرنسية قادها «أندريه بارُّو»، وأعمق المواقع التي تمَّ الكشف عليها في «ماري» تعود إلى العهد ما قبل السرجوني، علماً بأن السلالة السرجونية حكمت في الحقبة الزمنية (٢٤٥٠ ـ ٢٢٨٠ ق.م.).

وخلال القرن العشرين قبل الميلاد، أصبحت مدينة «ماري» والبلاد المحيطة بها أموريَّةً في سكانها وحضارتها وحكومتها. ولا بد أن الأموريين الساميين وطدوا أنفسهم فوق مجتمع سابق متمدن من سكان بلاد الرافدين، ويمكن الافتراض أنهم كانوا قبل ذلك يتجولون في المناطق الشمالية والبقاع كبدو وراء قطعانهم.

وأهم عهود «ماري» كان ما قبل العهد السرجوني، وكان يحكمها في العهد المذكور السلالة العاشرة بعد الطوفان، وفق لوحات التاريخ المكتشفة في «نيبور» و «كيش».

وأهم ملوكها: «لامجي ماري» حكم نحو (٢٥٠٠ ـ ٢٤٠٠ ق.م.)، و«أيلول إيل» حكم نحو (٢٤٠٠ ـ ٢٣٥٠ ق.م.)، و«إيكو شمجان» حكم نحو (٢٣٠٠ ق.م.)، و«إيل كين» حكم نحو القرن (٢٢ ـ ٢١ ق.م.)، و«إدِّين إيلوم» حكم نحو القرن (٢١ ق.م.). ومن الملوك الذين توالوا على حكم «ماري» بعد ذلك: «إشما داجان»؛ و«إشتب إيلوم»، و«إيلوم أشار»، و«بوزور أشتار»، و«نوار مير» و«يجت ليم» الذي حكم نحو القرن (١٩ ق.م.)، و«يهدون ليم» حكم نحو (١٨٢٥ ـ ١٨١٠ ق.م.)، و«يسمح أدُّو» حكم نحو (١٨١٠ ـ ... ق.م.)، و«زمري ليم» حكم نحو (١٧٨٤ ـ ١٧٥٩ ق.م.).

ودُمِّرت «ماري» في نهاية العهد ما قبل السرجوني وفقدت استقلالها جزئيّاً في عهد ملوك «أجادة». وقد أسكن «نرام سن» الملك الأكَّادي فيها اثنتين من بناته بصفة كاهنتين.

وفـي نهاية القرن التاسـع عشر ق.م. حكم «ماري» ملك عموري اسمه «يهدون ليم» ووصل بفتوحاته حتى البحـر الأبيض المتوسط، وبعد موت هذا الملك مقتـولاً استولى «شمشي أدد» الأشـوري عليهـا ونصَّـب علـى عرشهـا ابنــه «يسمح أدُّو».

وفي زمن حكـم «زمري ليـم»، وهو آخر ملـوك «مــاري»، سقطـت المدينــة علـى يد أعظم ملوك ذلـك العصر وهــو «حمورابي» في العام الثالـث والثلاثين من سني حكمه، وعـاد إليها بعـد عامين من ذلـك، أي نحو عــام (١٧٥٧ ق.م.)، ودمرهــا وأضافها إلى امبراطوريته البابلية.

وكانـت «مــاري» تعتبـر أهم مركـز لتجمع العناصر الساميــة العربية فـي وادي الفرات، ولم تفقد هذه الأهمية إلا بعد سقوطها.

وأنشـأ الأشوريُّـون فـي القـرن الثالـث عشــر ق.م. مركـز دفاع متقدم لهـم في موقع «مــاري»، ودام احتلالهـم لهــا حتـى القــرن السابـع ق.م.، وقامت في موقـع «ماري» أخيراً قرية في العهد السلجوقي.

انتقال الأموريين من البداوة إلى المدنية

توسعـت السيطـرة الأمورية علـى عدد من المناطق بما فيها «بابل» التي مارسوا فيها حياة الاستقـرار. وكانـت «بابـل» قبل دخولهـم إليها عبـارة عـن قريـة صغيـرة عُرفـت باسـم «كدنجيرا»، وأطلق الأموريون عليها اسم «بابل»، وأسسـوا فيها الأسرة البابلية الأمورية الجديدة والتي عُرفـت باسم «دولة «بابل» الأولى». وشهد شاعـر سومري، عاش قبل عــام (٢٠٠٠ ق.م.) بقليل حيـن كان الأموريون يحتلون بلاد «بابل»، حياة الانتقال عنـد الأموريين من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، وعبَّر عنها بصورة شعرية حيث قال:

«بالنسبة للأموري، السلاح هو رفيقه
... فلا يعرف الخضوع
وهو يأكل لحماً غير مطبوخ
وفي حياته كلها لا يملك بيتاً
وهو لا يدفن رفيقه إذا مات
(والآن) «مارتو» يملك بيتاً؟...
(والآن) «مارتو» يملك حبوباً».

شكل الأموريين ولباسهم

يمكـن معرفـة أشـكال الأقـوام البائـدة ولباسهـم من خـلال آثارهـم ورسومهـم التي تجسِّـد حالتهـم فـي عصرهـم، وبالنسبـة للأموريين فهناك رسوم جدارية تعكس شكلهم ولباسهـم فـي أحـد المواكـب، وهـذه الرسوم الجدارية كانت في «بني حسن»، وكانوا يجلبون الكحل إلى «مديـر الصحراء الشرقية» (حوالي ١٨٩٠ ق.م.). وهنـا يظهـر الشيـخ الأمـوري «أبشـة»، وهـو غالباً مـن جنوبـي فلسطين، مع أبنـاء قبيلتـه وبناتهـا بأثواب قصيـرة متعددة الألـوان ومنسوجة بعناية ودقـة، ويلبس الرجال نعـالاً (أو صنادل) والنسـاء أحذية أو جوارب. ويشاهَـد الرجـال بلحيـة سـوداء ووجـه يشبه العصفور وقزحية عيونهم رمادية اللون وبؤبؤها أسود. ويقود «أبشـة» موكبهم. ويتبع النساء في هـذا الموكب رجـل وحماره وعلى ظهـره قربة، وفـي يـده مضـرب ليلعـب علـى قيثارتـه ذات الثمانية أوتار، وعلى ظهر الحمار الصبور سرج يرتبط به رمح ومضرب عصى».

اللغة الأمورية

تضمنت الاكتشافات الأثرية التي عُثر عليها في «ماري»، في النصف الأول من القرن العشرين الميلادي، أكثر من (٢٠٠٠٠) لوح مسماري كُتبت في معظم الأحيان باللغة الأكَّادية، غير أن المفردات والمميزات الصرفية والنحوية لا تترك مجالاً للشك بأن الذين كتبوا تلك الألواح تكلموا اللغة الأمورية أو اللغة السامية الغربية المختلفة عن الأكَّادية أو السامية الشرقية، فكانت اللغة التي كُتبت بها الألواح مزيجاً من عناصر أمورية وحورية وبابلية.

هذا، ولم يُعثر على كتابات أثرية باللغة الأمورية ذات شأن، واقتصرت الكتابات فقط على أسماء أماكن وأمراء فقط، ومع ذلك فإنه من المؤكد بأن اللغة الأمورية اختلفت عن اللغة الكنعانية من حيث اللهجة، ويمكن اعتبارها لغة كنعانية شرقية تقابل اللغة الكنعانية الغربية أو الفينيقية.

الديانة والمعابد

إن الديانة الأمورية في شكلها البدائي لم تختلف غالباً عن عبادة قوى الطبيعة عند الساميين التي كانت شائعة في بادية الشام وبلاد العرب، وكان يوجد بجانب إله القبيلة «أمورو»، وهو إله الحرب، عدد من الآلهة، ويظهر كثير منها في عداد الآلهة الكنعانية فيما بعد، ومن أشهر الآلهة التي عبدها الأموريون:

الإله «مارتو» إله المطر والعواصف، الإله «داجان» إله الغذاء وكان له معبد في مدينة أوغاريت، الإلهة «عاشرة» شريكة للإله «أمورو» وتتصف بحب المسرات والنشاط وتشبه نموذج عشتار المعروف، الإلهة «عشتار» ربة الحب والحرية، الإله «شمش» إله الشمس والنور، الإلهة «نين هورساج» إلهة الجبل، إله القمر، الإلهة «نيني زازا».

وكُشف في «ماري» عن معابد للآلهة «عشتار» و«نين هورساج» و«داجان»، وعثر في هذه المعابد على تماثيل عديدة مقدمة من المؤمنين إلى المعبد، ومنها رسم للملك «لمجي ماري» موجود في متحف حلب.

ومن الطقوس البارزة التي أدخلها الأموريون إلى جنوبي سورية «العمود المقدس» وكان يمثل على ما يظهر إله القبيلة، ويقام في مكان مطهَّر وعادة في مغارة إلى جانبها مذبح من الحجر الكلسي لا تدنسه أية آلة.

ومارس الأموريون طقس التضحية بأول مولود في طقوسهم الدينية، وعند بنائهم للمعابد الكبرى، وتابع الكنعانيون النظم والعادات الدينية التي كان يتبعها الأموريون الذين أتوا قبلهم. وكان الحمار لا يزال يستخدم لأجل تقديم الذبائح في القرن الثامن عشر قبل الميلاد، لأن الجمل كحيوان مدجَّن لم يكن استخدامه شائعاً في ذلك الوقت.

القصور والعمران عند الأموريين

كشفت الآثار في موقع «ماري» عن قصر لملوكها يعود للألف الثالث ق.م.، ويشغل ما مساحته هكتارين ونصف الهكتار، وقام بتدميره الملك «حمورابي» عندما قام بتدمير المدينة زمن حكم «زمري ليم».

وكان هذا القصر يحتوي على ثلاثمئة غرفة وقاعة، ولا يزال قسم من جدرانه قائماً

إلى علو خمسة أمتار، ويقوم في وسطه مذبحان وقاعة كبيرة مزخرفة تمثل مشاهد من الحياة المعاصرة ولا سيما تنصيب ملوك «ماري»، وعُثر في القصر على تماثيل من بينها لإلهة تحمل بيديها إناءً يتدفق منه الماء.

وكانت أسوار القصر تحتوي، إضافة إلى الأجنحة الملكية، على مخازن ومستودعات وقاعات إدارية وصالات للمحفوظات، فيها ما يزيد على عشرين ألف لوحة مسمارية تشكل المراسلات الدبلوماسية لملوك «ماري» الأواخر، وتعتبر هذه اللوحات مصدراً للمعلومات حول تاريخ بلاد ما بين النهرين وطرق العيش فيها. ودلّت اللوحات المسمارية على ان القصر الملكي كان مركزَ الحكم والمركز الإداري للبلاد، وتتم فيه كل الإجراءات الخاصة بالمملكة التي يمثل فيها الملك الرأس المسيطر على كافة الشؤون الإدارية والعسكرية وحتى الاجتماعية.

وكشف في آثار «ماري» عن بعض الأحياء السكنية في وسط المدينة وفي طرفها الغربي، وكانت البيوت ذات مخطط متشابه، ويتألف كل منها من باحة تنفتح عليها الغرف.

الدفاعات الحربية عند الأموريين

كانت «ماري»، العاصمة الأمورية، محاطة بسور دفاعي منيع من ناحية الغرب، واستند عليه من الداخل بناء كبير شيدت فوقه مبانٍ أخرى، ومع مرور الزمن كان هذا البناء معبداً للإلهة «عشتار» تجاوره مساكن الكهنة، وهذا الأمر يفيد بأن المدينة كان يحوطها سور يشكل خط دفاع حصين، شأن التحصينات الدفاعية لسائر المدن في العهود القديمة، ووجود معبد للإلهة «عشتار» ملاصق للسور يفيد بأنها هي التي كانت تُرجى في الحالات الصعبة والحرجة لتذبَّ عن أهل المدينة الويلات.

واستعمل الأموريون المركبات التي تجرها الخيل، وعرف الأموريون أيضاً الإشارات النارية التي كانت تستعمل كتدبير دفاعي أو كوسيلة سريعة للأنباء، كما أظهرت التحارير في محفوظات «زمري ليم» (حوالي ١٧٣٠ ـ ١٧٠٠)، علماً أن الاستراتيجية الحربية القديمة كانت فيما مضى تعتمد على الأبراج للدفاع عن المدينة من العدوان الخارجي، وكانت تقوم فوق الروابي، مقام الحصون في الحماية، وكان البراجون يشعلون فيها النار لتجاوبها نار الأبراج الأخرى في قمم الجبال، إيذاناً بوقوع غارة مباغتة، وطلباً للمدد وجمعاً للقوة، وكانت هذه النار تسمى «المواقيد».

وقد استعمل الجند الأموريون الحراب والخناجر في القتال، وجعلوا رؤوس حرابهم من النحاس، وخناجرهم وسكاكينهم كانت صلبة جدّاً بواسطة التطريق وبمزج النحاس مع القصدير. وأقدم الخناجر الأمورية كانت من البرونز، والذي عُثر عليه منها في فلسطين يشبه الذي عُثر عليه في شمالي سورية، وقد أدخل صَهْر البرونز من هناك إلى فلسطين قبل (٢٥٠٠ ق.م.)، كما استعمل الأموريون أقواساً مزدوجة في القتال. وأما بالنسبة للباسهم، فقد حَفظَت شكله قطعة عاج محفورة تعود إلى عام (٢٣٠٠ ق.م.) تقريباً، تظهر أموريّاً بلباس القتال وهو متأزر بمئزر مزركش بحواشٍ يصل إلى الركبتين.

صناعات أمورية

عرف الأقدمون من سكان سورية، قبل الهجرات السامية، التعدين وفن النحت وخاصة نحت التماثيل، وصُنْع الحلي، وعمارة البيوت، وصناعة الزجاج.

أما في مجال النقش فقد عُثر في «ماري» على كِسَرٍ من لوحات نَذْرِيَّة من الحجر الكلسي في معبد «عشتار»، صوِّر عليها مجلس شراب، امرأة جالسة وبيدها اليمنى كأس وباليسرى غصن نبات، وأمامها الخادم، وتحتها في الحقل الثاني رأسا خادمين.

كما كُشِفَ في الموقع نفسه كِسَر من لوحات الفسيفساء مركبة من قطع الصدف والعاج والحجر الكلسي الأحمر المشفف، كما كان أهل «ماري» فنانين بارعين في زخرفة الأواني الحجرية النَّذْرِيَّة. وعُثر في معابد «ماري» على تماثيل، إلا أنها لم تكنْ على درجة واحدة من الإتقان، واعتنى الفنان بتمثيل الرجال والنساء، كما نحتت تماثيل زوجية، تمثل رجلاً وامرأة كزوجين أو عاشقين.

وازدهرت في «ماري» أيضاً صناعة الفخار، كما ظهر من الآثار المكتشفة فيها، حيث تمَّ العثور على مجموعة من الفخار المتنوع الأشكال والأحجام، ومِنْها الجِرار ذات الألوان المتعددة (أحمر ـ أسود ـ أبيض ـ أصفر)، وبعضها مُغشّىً بطبقة رقيقة تشبه الزجاج مع وجود الألوان، وضمن المجموعة المكتشفة عدد كبير من الصحون والطاسات والقدور والكؤوس، وغير ذلك من الأواني.

وتجدر الإشارة إلى أن الفخاريات لم يقتصر تصنيعها على الإنتاج المحلي بل صُدِّر الكثير منها إلى الخارج، وخاصة إلى مصر.

وتشير رسائل تل العمارنة، التي كانت تمثل العلاقات الدولية بين مصر ودول الجوار، إلى أن الأموريين شاركوا في مجتمعات المراكز التجارية في آسيا الصغرى.

المصادر والمراجع

- حتّي، فيليب: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، ترجمة د. جورج حداد، عبد الكريم رافق، أشرف على مراجعته د. جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ١٩٥٨م.
- الذنون، عبد الحكيم: **بدايات الحضارة**، دار علاء الدين، ط١، دمشق ـ سوريا، ١٩٩٣م.
- سليم، أحمد أمين: **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم، سورية بلاد العرب**، القاهرة ـ مصر، ١٩٩١م.
- عبودي، هنري س.: **معجم الحضارات السامية**.
- علي، أحمد علي إسماعيل: **تاريخ بلاد الشام القديم**، م١، مركز الشام للخدمات الطباعية، ط١، دمشق ـ سوريا، ١٩٩٨م.
- العهد القديم: **سفر النبي عاموس**، الأصحاح الثاني، العددان ٩، ١٠.
- فخري، أحمد: **دراسات في تاريخ الشرق القديم، مختارات من الوثائق التاريخية**، القاهرة ـ مصر.

الحضارة الإيجية

أ. د. محمد سهيل طقوش



موقع بحر إيجة وجغرافيته

يُنسب اسم إيجة إلى إيفوس، وهو اسم ملك أسطوري أُجبر على إرسال ابنه تيسي في مغامرة عسكرية محكوم عليها بالفشل، فعاش بعد وفاته حياة ملؤها العذاب بسبب ظنونه أن شبحاً ابتلع ابنه، فرمى نفسه في البحر الذي حمل اسمه إيغه أو إيجة.

يُعَدُّ بحر إيجة جزءاً من البحر الأبيض المتوسط، يقع بين بلاد اليونان وجزيرة كريت وآسيا الصغرى (تركيا)، يصب فيه نهر ماريكا الذي ينبع من بلغاريا ويشكل الحدود اليونانية التركية، ونهر مندريس التركي، ويضم ثلاثة آلاف جزيرة تقريباً، معظمها يونانية تُشكل جسراً يربط أوروبا بآسيا ومعبراً للأشخاص والتجارة، والمعتقدات والأفكار الفلسفية من أوروبا إلى آسيا وبالعكس. يحده من الغرب ساحل آسيا الصغرى بما فيه من خلجان ومرافئ كثيرة تتميز بوقوعها عند مصبات الأنهار الخصبة، أي عند نهاية الطرق التجارية الآتية من موطن حضارات الشرق الأدنى القديم، ويحده من الغرب بلاد اليونان. وقد أقامت الجزر العديدة المتناثرة في هذه المنطقة قناطر عدة عبر المساحة الضيقة التي يشغلها. وتقع في جنوبه جزيرة كريت عند مفترق الطرق بين ثلاث قارات، هي أوروبا وآسيا وأفريقيا، ويفصل أوروبا عن آسيا في الشمال مضيقا البوسفور والدردنيل ويقعان بين البحر الإيجي والبحر الأسود. ونذكر من بين أهم جزر هذا البحر: خيوس، أوبية، إيكاريا، ليمنوس، ليسبوس، جزر السيكلايد، أي جزر الأربع والعشرين، وجزر الدوديكانيز، أي الاثنتي عشرة جزيرة، أهمها كوس، كاليمنوس، تيموس ورودس.

مقدمة في الحضارة الإيجية

كانت بلاد اليونان القديمة تشمل الجزر والسواحل التي تحيط بالبحر الإيجي وبحر مرمرة، والتي تُشكل وحدة جغرافية باسم المنطقة الإيجية، لكن هذه الوحدة لم تتحول إلى وحدة سياسية، وظلت بلاد اليونان مُقسمة دائماً إلى عدد كبير من الدويلات المستقلة، وكان للموقع الذي شغلته كل منها داخل المنطقة الإيجية تأثير في تاريخها. فالدويلات المطلَّة على البحر كانت أول من حمل مشعل حضارة مبدعة، وشكَّل البحر مركز حياتها. وأما الدويلات التي قامت في غربي بلاد اليونان وغيرها من الأقاليم الداخلية، والتي لا تتمتع بموقع مباشر على البحر الإيجي؛ فكانت قوى من المرتبة الثانية، ولم تظهر على مسرح التاريخ اليوناني إلا في وقت متأخر، لكن هذه الدويلات جميعها أسهمت في بناء وحدة منطقة إيجة التي قامت على أساس التبادل التجاري وإنشاء المستعمرات، وبروز الزعامات السياسية بالإضافة إلى الأساس الروحي، بفعل أن سكان كل دويلة كانوا يشعرون بأنَّهم أبناء وطن واحد.

والواقع أن الحديث عن الامبراطوريات عند الإيجيين هو تقليد موروث، وليس المقصود بها سوى دول صغيرة يكاد يكون مجموع مساحة أراضيها لا يُذكر إذا ما قورن بالامبراطوريات الكبيرة، ولم تكن السيطرة التي بسطتها هذه الدويلات على البحر الآ

سيطـرة متواضعـة نسبيـاً، إلا أن حضارتهـا تكتسب أهميَّتها من:

- نشاطها الاقتصـادي المرتبط بالتجارة البحرية.
- تشكيلها تمايزاً عضويّاً عن فنون الشرق الأدنى القديم.
- نقل تراثها إلى الحضارة اليونانية.

وينقسـم العالم الإيجي إلـى مناطق هي: جزر السيكلايـد (الأرخبيل) وطروادة وبلاد اليونـان وكريت، وقـد قامت فيهـا حضارات منذ عصـر البرونـز اصطلح الأثريـون على تسميتها بالحضارات السيكلادية والطروادية والميسينية والكريتية.

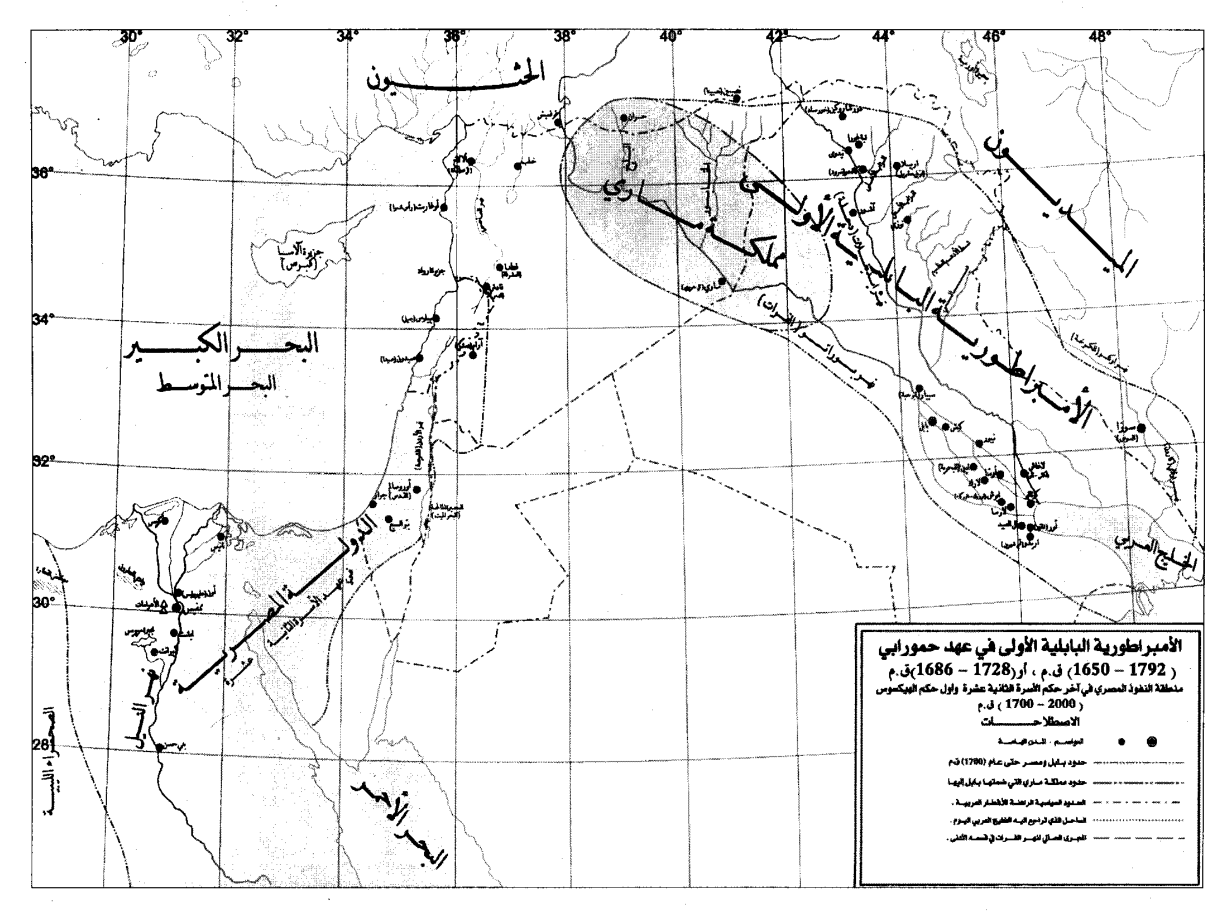
وأتنـاول حضـارات المناطـق المشـار إليهـا وفـق ورودهـا الأبجـدي فـي هـذه الموسوعة.

المصادر والمراجع

- إيمار أندريه وجنين أوبايه، **الشرق واليونان القديمة**، الجزء الأول، من تاريخ الحضارات العام، ترجمة فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات - بيروت - ط ٢ - ١٩٦٣.
- ديورانـت، ويل: **قصة الحضـارة**، مجلد ٢، ج١، ترجمة محمد بـدران، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة.
- Glotz, G: **Aegean Civilization**. New York 1925.

الحضارة البابلية

أ. د. أسعد السحمراني



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع والاسم

قامت بابل على ضفة الفرات، وبابل إحدى أبرز المواقع في بلاد الرافدين (دجلة والفرات)، أو بلاد ما بين النهرين، وهي ناحية منها الكوفة والحلَّة. كان الفرات يخترق المدينة إلى أن حكم «بخت نصر» أو نبوخذ نصر (٦٠٥ ق.م. - ٥٦٢ ق.م.) فحوَّله إلى مجراه الحالي كي لا يقوِّض النهر سور المدينة. ومنهم من أطلقَ بابل على العراق وما والاه، وقال ابن مسعود لأهل الكوفة: أنتم بين الحيرة وبابل. وقال قتادة: هي من نصيبين إلى رأس العين.

اتخذت بابل عاصمة من سومر - آيم مؤسس السلالة في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد ازدهرت في عهدي حمورابي ونبوخذ نصر. وهي، حسب التحديد التاريخي لها، تقع على ضفتي الفرات، واليوم هي الناحية المعروفة بشط الحلَّة، وقد ربطوها بجسر قائم على دعائم حجرية. أما رقعة المدينة فطولها من الشمال إلى الجنوب ٢ كلم، وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٢٠٠م.

اسم المدينة حوله نقاش، وقد كانت الصيغة الأقدم لكتابة الاسم بالخط المسماري: كا - نگر - راكِ Ka-dingir-ra-ki ومعناه بالعربية: باب الآلهة. وبعضهم قال: إن الاسم من اللغة الأكَّادية، وهو: «باب إيلو» ومعناه كذلك «باب الإله».

وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: بنى مدينة بابل بيوراسب واشتقَّ اسمها من اسم كوكب المشتري، لأن بابل باللسان البابلي الأول إنما هو اسم للمشتري.

وورد عند القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: اختُلِفَ في تسمية بابل، فقيل: سمِّي بذلك لتبلبل الألسن بها حين سقط نمرود. ونمرود هو الجبار المعاند الذي قاوم دعوة إبراهيم عليه السلام.

وقيل: سمِّي به لأن الله تعالى لما أراد ان يخالف بين ألسنة بني آدم بعثَ ريحاً، فحشرتهم من الآفاق إلى بابل، فبلبل الله ألسنتهم بها، ثمَّ فرَّقتهم تلك الريح في البلاد.

لقد ورد ذكر بابل في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ [البقرة/١٠٢].

بابل في التاريخ

لا يمكن فصل المسار التاريخي للحكم البابلي عن مسار الوقائع التاريخية لبلاد ما بين النهرين بسبب التواصل، والتداخل جغرافيّاً وتاريخيّاً، إلا أن بابل كانت أبرز الممالك التي قامت في بلاد الرافدين، وقد استمرت، مع فجوات كان فيها غزو خارجي، من أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حتى سقوطها بيد الغازي الفارسي قورش عام ٥٣٩ قبل الميلاد.

كان في بلاد الرافدين السومريون المجهولو الأصل، والمختلف في تحديد الشعب الذي جاءوا منه إلى ضفاف دجلة والفرات، أواسط الألف الخامس قبل الميلاد (حوالي ٤٦٠٠ ق.م.)، ولكن المهم هو أن السومريين هم من أسَّس أول حضارة في بلاد ما بين النهرين، وكان عملهم تأسيسيّاً استفاد منه من حكم البلاد بعدهم. ويؤكد العمل

التأسيسي للسومريين المدن التي بنوها واشتهرت وهي: أروك (الوركاء حالياً)، وأريدو (أبو شهرين حاليّاً)، وأور (المقيَّر حاليّاً)، ولارسا (سنكره حاليّاً)، ولكش (تلول الهبا حاليّاً)، ونيبور (نفر حاليّاً)، وكيش (تلول النفرة والأُحيمر حاليّاً) وهي على بُعد ٢٠ كيلومتراً شمال شرقي مدينة بابل.

بعد السومريين جاء الأكّاديون، وأسسوا مملكة أكاد على يد سرجون الأول حوالي العام ٢٤٠٠ ق.م.، وهو الذي قضى على المملكة السومرية. والأكّاديون من أصل يعود إلى المنطقة العربية، وقد توسعت مملكة أكاد وشملت معظم أرض الرافدين مع أجزاء من سوريا، وأكملوا المسار الحضاري للسومريين، وكانت لهم إنجازات حضارية، إلا أنهم دوَّنوا ما كان عندهم بالخط المسماري الذي استخدمه السومريون، ولم يكن لهم نظام كتابة خاص بهم.

غزا مملكة أكاد قبائل بدوية كنعانية الأصل، أي من أصل وَفَدَ من الجزيرة العربية موطن الكنعانيين الأول، والغزاة هم الأموريون. والأموريون كانوا بوصفهم كنعانيين قد شاركوا في حكم فلسطين وسوريا وبلاد الشام عموماً.

وعندما دخل الأموريون البلاد وانتزعوا الحكم من الأكاديين وجدوا مدناً ومدنية، وتوزعوا بداية في مدن ماري على الفرات الأوسط، وإيسين، ولارسا إلى أن تمركزت سلطة الأموريين في مدينة بابل حوالي العام ١٨٣٠ ق.م.، فغاب اسم الأموريين ليكون بعدها اسم بابل والبابليون، وبه اشتهروا، واشتهرت الدولة والحضارة بهذا الاسم. والراجح، حسب المؤرخ سبتينو موسكاني في كتابه: «الحضارات السامية» أن إحدى الدول الأمورية التي قامت في بلاد ما بين النهرين قد سُميت الدولة البابلية الأولى ودامت من سنة ١٨٣٠ ق.م.، إلى سنة ١٥٣٠ ق.م.

لكن بابل منذ تأسيسها إلى حين سقوطها، لم يتواصل فيها الحكم الأموري البابلي بل غزتها شعوب، ليس هنا محل الكلام عنها، إلا أن مسار البناء الحضاري بقي متواصلاً، وعرف مراحل من الازدهار في عهد حمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م.) وهو سادس ملوك هذه الدولة، ويمكن القول: إن حمورابي هو المؤسس الحقيقي للدولة البابلية الأولى. وفي عهد نبوخذ نصر، ونبوخذ نصر هو ابن نبوبولاصر الكلداني مؤسس الدولة البابلية الثانية أو الكلدانية، التي دامت من سنة ٦٢٦ ق.م. إلى سنة ٥٣٩ ق.م.

لكن نبوخذ نصر، أو بختنصر، يعدُّ المؤسس الحقيقي للدولة البابلية الثانية، كما الحال مع حمورابي في الدولة البابلية الأولى.

إن الرصد التاريخي لبلاد ما بين النهرين يبيِّن مقدار التداخل بين السلطات والممالك القائمة، وبذلك يصعب الحديث عن مملكة استقرت لوحدها، وقد دفع هذا الواقع المؤرخ سبتينو موسكاني في كتابه «الحضارات السامية» إلى القول: «وإذا نظرنا نظرة شاملة إلى التاريخ القديم لأرض الرافدين، لوجدناه يتميَّز بوحدة ملحوظة؛ أي أن قوى سياسية كبيرة استطاعت القيام في تلك الأرجاء، واتخاذها مركزاً للتوسع، ولكن الدول التي نشأت على هذا النحو كانت معقدة التركيب... وحوالي ٥٠٠ ق.م. انتهى تاريخ أرض الرافدين بلداً مستقلاً، وتركزت القوة السياسية منذ

ذلك الحين في مناطق أخرى، ولم تعد أرض الرافدين سوى عنصر على حاشية الصراع بين قوى أخرى».

العلوم والحركة العمرانية

أرض موحشة قامت عليها مدينة بابل، وشعب بدوي هم الأموريون الكنعانيون أقاموا مملكتهم في تلك البقعة، فكان الإنجاز الحضاري الذي شكل معيناً لا ينضب لحضارات أخرى، وللدارسين والباحثين إلى يومنا هذا، فما السرُّ يا ترى؟ لقد أبدى ويل ديورانت حيرة أمام هذا الواقع، فقال بصدده: «ما من أحد ينظر الآن إلى موقع مدينة بابل القديمة ثمَّ يخطر بباله أن هذه البطاح الموحشة ذات الحرِّ اللافح الممتدة على نهر الفرات كانت من قبل موطن حضارة غنية قوية كادت تكون هي الخالقة لعلم الفلك، وكان لها فضل كبير في تقدم الطب، وأنشأت علم اللغة، وأعدت أول كتب القانون الكبرى (شريعة حمورابي)، وعلَّمت اليونان مبادئ الحساب، وعلم الطبيعة والفلسفة... ونقلت إلى العرب بعض المعارف العلمية والمعمارية التي أيقظوا بها روح أوروبا من سباتها في العصر الوسيط».

لقد اعتنى البابليون منذ حمورابي بمجاري المياه واستثمارها في تنمية الزراعة سعياً لتوافر الأمن الغذائي، وكان من ذلك أن أنجز حمورابي حفر قناة من الخليج حيث يلتقي الفرات ودجلة إلى مدينة كيش، حولت ضفتي هذه القناة إلى أراضٍ زراعية فتحقق بذلك توافر الحبِّ، وهيّأت المرعى والمورد المائي للرعاة ومربي المواشي، وأمنت حالة استقرار لأعداد كبيرة من السكان، ولا يخفى على أحد أن وجود الماء يؤمن أول ركائز الاستقرار السكاني تَمهيداً لانطلاق المسار الحضاري، فالحال هذه كانت في وادي النيل، وما بين النهرين، وعلى شاطئ المتوسط، وحول النهر الأصفر هوانج ـ هو في الصين، وغير ذلك كثير.

وكانت نهضة بابلية ثانية في عهد حكم نبوخذ نصر حيث خطط وعمل لتطوير العمران والتجارة واستثمار نهر الفرات، وبعده بأكثر من قرن زار بابل المؤرخ الشهير هيرودوت، الذي وصف واقع البلد قائلاً عن بابل إنها: «مقامة في سهل فسيح يحيط بها سور طوله ستة وخمسون ميلاً ويبلغ عرضه حدّاً تستطيع معه عربة تجرها أربعة جياد أن تجري في أعلاه، ويضم مساحة تقرب من مائتي ميل مربع. وكان يجري في وسط المدينة نهر الفرات يحفُّ بشاطئيه النخيل، وتنتقل فيه المتاجر رائحة غادية بلا انقطاع، ويصل شطريها جسر جميل، وكانت المباني الكبيرة كلها تقريباً من الآجر (القرميد)، وذلك لندرة الحجر في أرض الجزيرة....

وكان أولَ ما يشاهده القادم إلى المدينة صرح شامخ كالجبل يعلوه برج عظيم مدرَّج من سبع طبقات، جدرانه من القرميد المنقوش البرَّاق، يبلغ ارتفاعه ٦٥٠ قدماً». يبدو أن حالة انبهار قد أصابت المؤرخ هيرودوت، ما دفعه إلى طرح أرقام مبالغ بها بشأن بابل طولاً وعرضاً.

وقد أمسك البابليون في عهد نبوخذ نصَّر بطرق التجارة الموزعة إلى أكثر من اتجاه بفعل اتساع رقعة الدولة البابلية، وبفضل

الاستقرار والنفوذ، ولأن بابل على تقاطع طرق تجارية من كل الاتجاهات، من الهند والصين وآسيا الصغرى والغرب الآسيوي وأفريقيا.

كما أن الزراعة تطورت في عهد نبوخذ نصَّر حيث أقام خزانات المياه الكبيرة، وحفر القنوات إليها لجر المياه، ومنها لاستمداد المياه للري. وعرف البابليون المحراث المتطور يجره ثوران ومعه علبة تلقي الحب في الأثلام، واستخدموا العربات للنقل والانتقال، وكانت لعرباتهم عجلات تجرها الحمير قبل أن يتعرفوا على الحصان الوافد إلى بلاد ما بين النهرين.

أما من جهة المعاش، فقد عرف البابليون أنواعاً عديدة من الزراعات، ورغم أنهم مجتمع رعوي، إلا أن اللحوم كانت مرتفعة الثمن، وكان السمك أكثر حضوراً ويسراً في موائد الفقراء.

وعرفوا البرونز والحديد وصنعوا منهما الآلات التي كانت، حتى في عهد حمورابي، تُصنع من الحجارة، وكانوا مهرةً في النسيج من القطن والصوف، وتطورت هذه الصناعة عندهم حتى غدت من أهم السلع المصدرة وبأثمان مرتفعة نظراً لجودتها.

إلا أن البابليين لم يعرفوا سكَّ النقود، وكانوا يستخدمون في تجارتهم المقايضة بالحبوب، والأمور العينية، وأحياناً سبائك من الذهب والفضة، والاعتماد فيها كان على الوزن الذي يتبدل ويختلف، ولم يعرفوا قدراً محدداً معتمداً لها. وكانوا يستخدمون وحدة من الفضة يسمونها: شيقل، وتساوي حوالي ٨،٣٣ غراماً، وكانت حبة الحنطة وحدة نقدية، ومقدار الحبة حوالي ٠،٠٤٦ غراماً، واستخدموا في قياس القماش والأرض الذراع وكانوا يقدرونه بحدود ٥٠ سنتيمتراً.

وأما في الميدان العلمي، فإن علم الفلك نال الحظ الأوفى من العناية حيث حملت الألواح التي عُثر عليها نتيجة للحفريات تُراثاً ضخماً في مجال الأرصاد الفلكية والتقاويم، وعرفت الألواح الدقة حيث كان يسجل موقع الرصد وتاريخه واسم الراصد بالإضافة إلى الكاتب الذي قام بكتابة المعلومات على الألواح.

وتولت المؤسسات المهتمة والممولة من الحكام عند البابليين أمر إصدار التقاويم لسنتين مقدماً، وكانت تحتوي تفاصيل عن الشمس والقمر والكسوف والخسوف، المتوقعين خلال المدة التي تكون في مدى التقويم، والمتعلقة بكواكب سيارة أخرى.

وعلم الفلك عرف تطوراً كبيراً عند البابليين، لأنه يؤدي وظيفتين يحتاجهما الناس عندهم، كما قال الدكتور محمد باسل الطائي في كتابه: «علم الفلك والتقاويم»:

«كانت التقاويم الفلكية البابلية تؤدي وظيفتين في آن واحد:

الأولى: هي وظيفة عملية تختص بتحديد أحوال الجو والفصول ومواسم الزراعة والأمطار، وتحديد المواقيت والأعياد الوطنية والدينية وجباية الأموال وصرف الرواتب إلى الجند وموظفي الدولة والأحوال الشخصية، وغير ذلك من الفعاليات التي تتأثر بالمواقيت.

الثانية: التقاويم الفلكية البابلية، فقد كان استخدامها في التنجيم للتنبؤ بمصائر وأحوال الرعاة (الملوك) والرعية».

والعامل الثاني ربما كان هو الأقوى، لأن

التنجيم كان محل اهتمـام سكان بلاد ما بين النهريـن عمومـاً، وكانوا يسيـرون في حياتهم ومعاشهم بناءً لما يقوله المنجِّمون والعرَّافون.

إلا أن هنـاك عامـلاً ثالثـاً، وهـو العامـل الدينـي، لأن الكواكـب دخلت فـي عقيدة أهل بـلاد الرافدين وعبادتهـم، والدليل على ذلك انتشار ديانـة الصابئة في بلادهـم إلى يومنا هذا، والتي تقـوم العقيدة فيها على مفهوم هو أن بيـن الخالـق والمخلوقـات وسائـط هـي الكواكب.

وكان للبابلييـن إسهام فـي الفنون خاصة فـي تلويـن القرميـد وزخرفته بالرسـوم، فهو مـادة البنـاء الوحيـدة بسبـب غيـاب وجـود الحجارة عندهم، كما تفننـوا في الرسم على معـدن البرونز وعلـى العاج الوافـد إليهم من الهند والصين عبر قوافل التجارة.

أما مـا تميَّزوا به فهو صناعة الأختام التي كان يستخدمها البابلـي للتوقيع على أية إفادة أو وثيقـة أو صـك يعبِّـر فيـه عـن إقـرار ما، ووصـف هـذه الأختـام كمـا عنـد سبتينـو موسكانـي: «وصناعـة الأختـام فـي أرض الرافديـن تستحـق تنويهـاً خاصّـاً،... وكانت الأسطوانة هي الصورة السائدة للخاتم، وكان يحفر ثقب فـي الأسطوانة على طول محورها، يمكـن إدخال حبـل فيـه، فتحمـل الأسطوانة معلقـة في الرقبة. وكانـت المناظر المرسومة على الأسطوانـة ذات طابع ديني فـي الغالب، وكانـت النقـوش تسجـل اسـم صاحـب الأسطوانـة... وكان فـن صناعـة الأختـام في جملته فرعاً من فنِّ حفر الصور البارزة».

أمـا الأدب، فقد برز فيه عالَـم الأسطورة الـذي يعبِّر عن خيـال واسع يرمـز إلى ما هو ديني وغيـر ديني، وإلـى أشكال مـن الغرائب والأمور التـي تجافي الواقـع، وأحيانـاً سمِّيت هـذه الأساطيـر ملاحـم لأن وقائعهـا فيهـا صراعات طويلة وقاسية.

بعد اكتشاف الألواح بالخطوط المسمارية، وحلِّ ألغاز هذه الكتابة في القرن العشرين، تمَّ نقل نصـوص هذه الأساطير إلـى لغات أخرى ووصلـت إلى العربية مترجمـة. ومن المؤلفات الجيِّدة الكتاب المعنون: «أساطير من بلاد ما بين النهرين» والكتـاب ترجمته إلى الإنكليزية ستيفانـي دالي، وعرَّبته نجـوى نصر، ونشرته دار بيان في بيروت.

جـاء فـي مقدمـة تعريفيـة لكتـاب هـذه الأساطير: «تدور أحداث جميع هذه القصص حـول آلهـة وشعوب بـلاد ما بيـن النهرين... وتشـكل المجتمعـات العريقـة فـي القـدم والحضريـة فـي معظمهـا خلفيـة جميـع القصـص... كتبـت جميـع القصـص باللغة الأكادية، وتشمل بتسميتنا هذه سائر اللهجات السامية البابليـة والأشورية التي كانت محكية ومكتوبة... تمَّ العثور على عدد كبير من ألواح الطيـن خـلال أعمـال الحفريـات... تحمـل الألواح كتابات أكادية بالحروف المسمارية... يعـود معظم هذه الألـواح إلى أكثـر من أربعة آلاف عام».

وأبـرز أساطيـر بـلاد بابـل، «ملحمـة كلكامش». «تعتبر ملحمـة كلكامش من أطول وأعظم الأعمال الأدبيـة التي كُتبت بالأكادية المسماريـة. إنهـا تروي حكايـة بحث بطولي عن الشهرة والخلود قام به رجل يتمتع بقدرة فائقة على إقامـة الصداقات، وعلى الصمود والمغامرة والفرح والحـزن. رجل لديه القوة

كما الضعف لكنه يفقد فرصة نادرة في لحظة تهوره».

ويظهر أن بطل كلكامش عاش وحكم في أورك: الوركاء الحالية. ومن نصوص الملحمة:

«أمر ببناء سور أوروك، حظيرة إي آنا الأقدس، الخزفية النقية... ارفع اللوح اللازوردي واقرأ قصة ذلك الرجل، كلكامش، الذي تكبَّد شتى أنواع المشقات... كُتبت الشهرة لكلكامش عند ولادته، «ثلثاه إلهي، وثلث فانٍ». ثم كان معه أنكيدو الآتي من الجبال حيث يعيش كالغزلان، وبعد تواصل بينهما جاء في النص: «أسمع كلكامش صوته وتكلم، وقال لأنكيدو: هيَّا يا صديقي، لنذهب إلى القصر العظيم».

عند موت أنكيدو خاف كلكامش من أن يصيبه الموت، وجمع من يصنع له تمثالاً. وجاء في نص الملحمة: «أطلق كلكامش صيحة دوَّت في أرجاء الأرض، واستدعى الحداد والنحاسي، وصائغ الفضة، والجوهري وصنع تمثالاً لصديقه».

أما التدوين فقد كان على ألواح الطين بالخط المسماري، ونظام الكتابة فيه يكون من اليسار إلى اليمين بخلاف الاتجاه في الخط العربي. وقد برزت اللغة الأكادية بالكتابة المسمارية في الألف الثاني قبل الميلاد، ومع بدايات الألف الثاني قبل الميلاد ظهرت الكتابة باللهجة البابلية التي عرفت التطور بين مرحلة ومرحلة من حياة مملكة بابل.

وإذا كان الدكتور نائل حنون، من علماء اللغات والحضارات، وهو الذي قدَّم «شريعة حمورابي» في أدق ترجماتها، فإنه يفيد أن نترك له أمر الحديث عن التدوين البابلي، وقد قال في مقدمة عمله: «يمكننا أن نتصور أهمية البابلية القديمة من عدد النصوص التي دوِّنت بها، ويُقدَّر عدد ما اكتشف منها حتى الآن بعشرات الآلاف، وبتحديد أدق فإن نسبة النصوص المدونة بالبابلية القديمة تصل إلى حوالي الربع من مجموع النصوص المسمارية المكتشفة حتى الآن. ومن أهم مواضيع النصوص التي دوِّنت بهذه اللهجة تذكر الكتابات الملكية وسجلات الحوادث، نصوص الفأل، الإنبات الجغرافية، الرسائل الرسمية والشخصية، الوثائق القضائية، والنصوص الرياضية التي اشتهر بها العصر البابلي».

المحطة الأخيرة في العلوم ستكون مع الحساب، لأن تقدم علم الفلك والتقاويم، وكون المجتمع البابلي تجارياً بامتياز، يفرضان التطور بعلم الحساب وبالأعداد، وهكذا كان فعلاً.

قال الدكتور محمد باسل الطائي عن الحساب: «وقد برع البابليون في التعامل مع الأعداد، وكانت نظرية العدد عندهم متطورة... لقد اعتمد البابليون النظام الستيني في تمثيل الأعداد، ولهذا النظام فائدة كبيرة في التعبير عن الكميات الهندسية نظراً لأنه يتوافق معها تماماً، إذ إن الدائرة تقسم إلى ٣٦٠ درجة، والدرجة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية، وهكذا. والرقم ٦٠ يقبل القسمة على ١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ١٠ و ١٢ و ١٥ و ٣٠، وعلى نفسه بدون باقٍ، بينما لا تقبل العشرة، التي هي أساس النظام العشري، القسمة إلا على ٢ و ٥ ونفسها فقط، لذلك فقد أتاح النظام الستيني مرونة أعلى للبابليين للتعامل مع الأرقام».



تمثال من البرونز يعتقد أنه من مدينة (لارسا) جنوب العراق، ويمثل عابداً بابليّاً بالزي السائد أثناء حكم الملك البابلي (حمورابي)

شريعة حمورابي

يستحق حمورابي أن تُخصَّص له فقرة خاصة في الكلام عن حضارة بابل، لأن ما قدَّمه هذا الحاكم قد خلَّد ذكره، وخلَّد بابل معه، ففي القانون وعلوم السياسة لا بدَّ من الوقوف عند إنجاز هو: شريعة حمورابي.

استلم حمورابي السلطة في بابل بعد وفاة والده سين مبلط (١٨١٠ ق.م.- ١٧٩٢ ق.م.)، ويعرف عهده بالعصر الذهبي لبابل حيث بسط نفوذه على المدن المجاورة، ومنها بلارسا، وأشنونة وماري وأشور، وبذلك تمَّت وحدة بلاد الرافدين، واستقرت الأحوال في عهده، وبرزت التنمية في كل الميادين، وازدهرت العلوم والعمران والفنون، لكن العطاء الأهم هو شريعة حمورابي.

اكتشفت المسلَّة الطيفية التي دونت عليها شريعة حمورابي بالخط المسماري عام ١٩٠٢م، وكان ذلك على يدي بعثة آثار فرنسية برئاسة دي مورجن De Morgen، وأول من نشر بحثاً حول المسلَّة الفرنسي شايل Scheil عام ١٩٠٢م، والمسلة كانت في موقع سوسة عاصمة العيلاميين (قلعة الشوش حاليّاً).

تتألف شريعة حمورابي من مقدمة وخاتمة بينهما ٢٨٢ مادة، وكان العنوان الأساسي لهذه المواد: العدالة، لأن العدالة كانت في رأس مقاصد حمورابي التشريعية في مجتمع ينقسم فيه الناس إلى ثلاث فئات هي:

١ـ أهل السلطة والمال والإمكانات: لاميلو.
٢ـ العاملون في المهن وسائر الأعمال، ولكنهم فقراء: الموشكينو.
٣ـ العبيد المسترقون، وهم فئة دنيا: واردوم.

لكن تجدر الإشارة أن ما قدَّمه حمورابي إنما هو تراكم معرفي وقد سبقه إلى التشريع آخرون، ما يعني أن نضوج التجربة القانونية قد كان معه، وأن أهل بلاد ما بين النهرين كانوا يهتمون بالقوانين والقضاء. أبرز ما كان قبل حمورابي إصلاحات أورو-اينمجينا حوالي العام ٢٣٥٥ ق.م. كأمير لكش، وقوانين أور - نمُّو (٢١١٢-٢٠٩٥ ق.م.) ملِك أور، وقوانين لبت-عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤ ق.م.)، وقوانين أشنونا حوالي ١٧٧٠ ق.م.، وهذا يدل أن حمورابي جاء إلى الحكم وقد تأصلت معارف وتشريعات وعلوم استفاد منها.

لقد أعلن حمورابي شريعته في الأربع سنوات الأخيرة من حكمه. ويفيد أن يتمَّ ذكر بعض نصوص مواد شريعة حمورابي للوقوف على أبرز ما قدَّمته في علم القانون.

في المادة المسماة: مقدمة الشريعة، ورد: «في يومه، حمورابي، الأمير التقي خاشي الآلهة، أنا لإظهار العدالة في البلاد، لمحو ما هو شرير وخبيث».

هكذا كانت البداية عنده حيث اتكأ على الديني لصياغة القانوني، ووصف نفسه بالتقوى وأنه يخشى الآلهة، وأما المقصد فهو نشر العدالة، والقضاء على الخبائث والشرور ليكون الخير والصلاح.

والعدالة لا تكون إلا إذا توقف الظلم والاضطهاد، لذلك قال حمورابي في مادة المقدمة: «من أجل أن لا يضطهد القوي الضعيف».

إن تطبيق القوانين يحتاج إلى قضاء نزيه يعطي أحكامه بعد نظر وتثبت، ولا يتسرع أو يبدل أحكامه. تنص المادة (٥) على ما يلي: «إذا قضى قاضي قضية، قرر قراراً، أصدر وثيقة مختومة، بعدئذٍ غيَّر حكمه. ذلك القاضي يدينونه بتغيير الحكم الذي قضى به، ويدفع لغاية ١٢ ضعفاً الادعاء الذي نجم عن تلك القضية. وفي المجتمع يخلعونه من كرسي قضائيته، ولن يعود، ولن يجلس مع القضاة في أي قضية».

النص مفكك إنشائياً لأنه معرَّب عن الأصل المسماري، لكن مقصوده واضح، وهو أن القاضي الذي يتلاعب بأحكامه يغرَّم بسبب ما نتج عن حكمه الفاسد، ويعزل من منصبه، ولا يسمح له بعدها بالجلوس في قوس محكمة. هذا التدبير يبيِّن أهمية القضاء، وفي الوقت عينه يوجه إلى الحزم مع القضاة منعاً للفساد.

ويشدد حمورابي بشأن الشهادة لأنها عماد القضاء بعد القانون في إصدار الأحكام لدرجة أنه أوصل عقوبة شهادة الزور إلى مستوى الحكم بالإعدام على من يشهد الزور.

نصت المادة (٣) من مواد قانون حمورابي: «إذا أدلى سيِّد، في قضية، بشهادة زور، ولم يثبت الكلمة التي نطق؛ إذا تلك القضية قضية حياة، وذلك السيِّد ينعدم».

كما أن حمورابي في مواد شريعته حول الحقوق، ومنها الزراعة، قد نص على أمور كثيرة منها التعويض العادل عن الضرر.

فمن ألحق ضرراً بسواه يعوضه ما يماثل ذلك الضرر. ففي المادة (٥٥): «إذا فتح سيِّد ساقيته لسقيه، ثمَّ نفض يده فسبَّب أن تكتسح المياه حقل جاره؛ عليه أن يمدَّ جاره حبوباً كما ينتج جاره».

ولم تهمل قوانين حمورابي أمر كرامة الإنسان حيث فرضت عقوبة على من يقذف كاهنة أو زوجة أحد الناس من دون أن يكون عنده ما يثبت تهمته. تنص المادة (١٢٧): «إذا سيد رفع إصبعاً بالتشهير على كاهنة أو زوجة سيِّد ولم يثبت التهمة، هذا السيِّد يجلدونه أمام القضاة ويحلقون له نصف شعر رأسه».

وكرامة الإنسان تصل إلى حد الحفاظ على حرمة الجنين في رحم الأم الحامل، حيث تفرض شريعة حمورابي دية على من أسهم في إسقاط جنين، وهذا ما قضى به الإسلام. جاء في المادة (٢٠٩): «إذا سيِّد

ضرب ابنة سيِّد، وأسقطها جنينها يوزن لها عشرة شيقلات فضة عن جنينها». (الشيقل البابلي من الفضة هو ٨,٣٣ غراماً تقريباً).

وفرضت قوانين حمورابي عقوبة على الطبيب الذي يؤدي إلى موت مريض بعد جراحة، أو أدى عمله الطبي إلى أذى وعطب في عضو من أعضاء المريض.

ما أحوج واقع اليوم إلى مثل هذا الإجراء أمام ما يسمعه ويقرأه المتابع عن أخطاء بعض المستهترين من الأطباء.

نص المادة (٢١٨) هو: «إذا أجرى آسي (طبيب) جراحة كبرى بمبضع البرونز على سيِّد وأمات السيد، أو فتح بمبضع البرونز صدغ سيِّد واختبط عين السيِّد، يقطعون ذراعه».

ولأن مجتمع بابل وبلاد الرافدين عرف حركة عمرانية مزدهرة، فإن قوانين حمورابي لم تنسَ وضع مواد تعالج ما يحصل من انهيار بناء سببه عدم إتقان البنَّاء مهمته. من هذه المواد المادة (٢٣٢) التي نصت: «إذا فقدت ثروة نتيجة لانهيار ذلك البيت؛ يعوِّض البناء كل ما فُقد. ولأنه لم يقوِّ البيت الذي بنى فانهار، يجب أن يشيِّد البيت الذي انهار من ثروته الشخصية».

بعد ٢٨٢ مادة تأتي مادة الخاتمة، والتي أتت تؤكد مكانة حمورابي ودوره في إرساء أسس الحكم العادل، كما كان الأمر في مادة المقدمة. جاء في الخاتمة: «أحكام العدالة التي حمورابي الملك المقتدر وضع، وجعل البلاد تمسك العرف المكين والريادة الجيدة».

وجاء في الخاتمة كذلك: «قانون البلاد للقضاء، مرسوم البلاد، للقرار، لضمان إنصاف كل مظلوم، كلماتي الموقرات على مسلَّتي سُطِّرت، وأمام تمثالي (ملك العدالة) ثُبِّتت».

شريعة حمورابي جاءت تقدم إنجازاً مميزاً من حضارة بابل، وموادها بيَّنت مقومات حضارة بابل فيما نصت عليه من قوانين تتناول الزراعة والتعامل التجاري والصناعات ورعي المواشي واستئجار المراكب والعربات، إضافة إلى شأن العمران، كل ذلك يؤكد أن بابل كانت فيها حضارة مكتملة الحلقات، وأنه كان لها إنجازات في مختلف الميادين.

الدين في حضارة البابليين

إن واقع بابل مع العامل الديني لا يختلف عن سائر الحضارات في الأرض العربية، وفي الشرق عموماً، فالدين في هذه البلدان كان له تأثيره الفاعل في الشخصية الثقافية، كما كان له تأثيره في الإنجازات الحضارية.

وبلاد ما بين النهرين يشتهر فيها أن سفينة نوح ﷺ بعد الطوفان قد رست فيها، والنبي إبراهيم ﷺ بدأ دعوته إلى عقيدة التوحيد فيها، وكان حواره الذي خلدته كلمات الله تعالى في القرآن الكريم مع الرجل المشرك المتغطرس والذي قيل: إنه النمرود، وقيل غيره. لكن أهل بلاد الرافدين كانوا متقدمين في علم الفلك، لذلك جاء التحدي في المحاجة بأمر فلكي يتعلق بشروق الشمس. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة/٢٥٨].

لكن التراكم المعرفي الديني والموروثات لم تجعل انتقال البابليين إلى التوحيد سهلاً، ولا سواهم ممن أقاموا ممالكهم في بلاد ما بين النهرين، فاشتهرت عندهم مسألة تعدد الآلهة، واتخذ كل قوم إلهاً قومياً يخصهم، وكان للبابليين الإله: مردك أو مردوخ.

أنليل كان أكثر الآلهة أهمية، ومعناه: السيد الهواء، وهو يجسد في عقيدتهم الفضاء بين الأرض والسماء، وهو ابن لإله السماء آنو. وزوجة أنليل هي نتليل ومعناه: السيدة الهواء.

وأدو إله العواصف والأمطار سواء إذا هطلت وكانت إيجابية، أو إذا حصلت على شكل فيضانات مدمرة. والإله نسكو وهو رمز عبادة النار. والإلهة عشتار وتتعلق بها الدورة الطبيعية في النبات وخصوبة الأرض، وهي الأرض الأم. والإله الشاب تموز الذي يرافق النبات فيولد ويموت كل عام. والأرض كانت تتجسد في الإله آيا (EA)، وكان بعضهم يجمع إله السماء (آنو) مع إله الفضاء (أنليل) مع إله الأرض (آيا) في ثالوث، كما الحال في ثالوث الأجرام السماوية الشمس والقمر وكوكب الزهرة، وكانوا يصفون الأخير أنه نجم الصباح.

والصابئة التي نشأت في بلاد ما بين النهرين، وأتباعها إلى اليوم ينتشرون على نهر دجلة في منطقة البطائح، وينسبون أنفسهم إلى نوح عليه السلام، وقد دخلت في عقيدتهم خصائص حضارة بابل، فالنجوم والكواكب عندهم هي وسائط بين الخالق والمخلوقات، والمياه أساسية في عباداتهم، ومنها التعميد بماء مستمد من أصله غير منقول في أوعية.

وقد فكّر البابليون بالمصير الأخروي، وتدل على ذلك نصوص حوتها ملحمة كلكامش خاصة بعد وفاة أنكيدو.

النص: «لماذا تطيل الحزن يا كلكامش؟ بما أن الآلهة صنعتك من لحم الآلهة والبشر، بما أن الآلهة صنعتك مثل أبيك وأمك، فالموت محتَّم، في وقت من الأوقات».

وفي نص آخر: «أحياناً، نبني منزلاً، وأحياناً نصنع عشّاً، ولكن بعد ذلك يتقاسمه الإخوة إرثاً».

وأشارت الملحمة إلى مسألة مهمة هي الموت المؤقت حين النوم، وحالة الإنسان فيه كحالته عند الموت الحقيقي، وهذا أمر أبلغ عنه النص القرآني مما يؤكد الأثر الديني السماوي في الفكر الديني لأهل بلاد الرافدين. النص في الملحمة: «فالنيام والأموات يتساوون».

وظهرت مسألة العامل الديني في العمارة الدينية حيث تسابق الحكام في تشييد الهياكل الكبيرة للآلهة من أجل أن يستميلوا الشعب إليهم، ولم يخرج حمورابي عن هذه القاعدة حيث كان يلتزم كل طقوس بابل ومعتقداتها، وقد بنى هيكلاً لإله بابل الخاص مردك.

وكان الكاهن شريك الحاكم، يتقاسم السلطة معه. ويفيد هنا ذكر ما كتبه ديورانت حول هذا الموضوع، وهو: «لم تكن سلطة الملك يقيّدها القانون وحده ولا الأعيان وحدهم، بل كان يقيدها أيضاً الكهنة. ذلك أن الملك لم يكن من الوجهة القانونية إلا وكيلاً لإله المدينة، ومن أجل هذا كانت الضرائب تفرض باسم الإله، وكانت تتخذ سبيلها إلى خزائن الهياكل إما مباشرة أو بشتى الأساليب والحيل. ولم يكن الملك يُعَدُّ ملكاً بحقٍّ في

أعين الشعب إلا إذا خلع عليه الكهنة سلطته الملكية، وأخذ بيد بل (أحد الكهنة)، واخترق شوارع المدينة في موكب مهيب ممسكاً صورة مردك (إله بابل الخاص)، وكان الملك في هذه الاحتفالات يلبس زيَّ الكاهن، وكان هذا رمزاً إلى اتحاد «الديني بالسياسي».

لقد شاعت الخرافات والأساطير بقوة، كما اشتهر السحر، وكان معتمداً أو دخل في معظم شؤون الحياة، واشتهر عندهم التنجيم وكان عاملاً من عوامل تطور علم الفلك، واقترن ذلك بالمبالغة في النظرة إلى الشياطين، ودورهم في الحياة الخاصة والعامة.

عند البابليين وسواهم في بلاد ما بين النهرين لا عاصم للإنسان من الشياطين، وإن كانت الخطيئة هي التي تفتح الطريق لها، وعندها يبعد المصاب بالمس الشيطاني عن الإله لتصبح طريق الشياطين إليه سهلة.

واعتقدوا أن بعض الأمراض قد تسببها الشياطين، وشيطان الحمَّى هو أكثر الشياطين جلباً للأذى، وبناءً عليه يكون من وسائل العلاج للمرضى عندهم طرد الشياطين.

المرأة والأسرة

كان المجتمع البابلي أبويّاً، والسلطة في نطاق العائلة أو الأسرة إنما هي بيد الرجل، وكانت حالة من الفوضى تسود مجتمعهم بين النساء والرجال قبل الزواج، لكن عقد الزواج يفرض الوفاء للحياة الزوجية، وتصبح عقوبة الزنا قاسية، ويشكل الزنا مع العقم، والضعف في الإدارة المنزلية أسباباً للطلاق.

وكانوا يدوِّنون عقود الزواج، وهذا أمر سبقوا فيه شعوباً كثيرة. ومن نصوصهم بهذا الشأن: «إذا اتخذ رجل زوجة ولكن لم يعقد معها عقداً مكتوباً، لم تكن تلك المرأة زوجة له».

وفي المادة (١٢٨) من شريعة حمورابي: «إذا سيِّد أخذ زوجة ولم يجهز عقودها؛ تلك المرأة ليست زوجة».

والمرأة المتزوجة إذا وجدت متلبسة بجريمة الزنا مع شخص فإن عقوبتهما الإعدام إغراقاً في الماء. نصت المادة (١٢٩) من قوانين حمورابي: «إذا زوجة سيِّد انضبطت في اضطجاع مع ذكرٍ ثانٍ؛ يقيدونهما ويرمونهما في الماء».

ويعاقب البابليون على جريمة الاغتصاب بالإعدام لذلك، ففي نص المادة (١٣٠) عند حمورابي: «إذا سيدٌ، زوجة سيد آخر التي هي ما عرفت ذكراً، ولم تزل مقيمة في بيت أبيها، كبَّلها واضطجع في حضنها وضبطوه، ذلك السيِّد ينعدم؛ ويطلق سراح المرأة».

كما عرف الزواج البابلي نظام المهور، وهو حق للزوجة تأخذه عند الطلاق أو عند موت الزوج، ويرد للمرأة ما كانت قد أحضرته معها من بيت أبيها عند الزواج حال طلاقها. ورد ذلك في المادة (١٣٨): «إذا سيِّد يطلق زوجته الأولى التي لم تلد له أبناءً، عليه أن يعطي لها مالاً بقيمة مهرها، ويسلم لها جهاز العرس الذي جلبت من بيت أبيها ثم يطلقها».

ولم يغفل البابليون مصير الأولاد عند الطلاق حيث يعطون للمطلقة أو العاقر المربية حق حضانة الأولاد، ويترتب لها بموجب ذلك حقوق مالية. ففي المادة (١٣٧) من قوانين حمورابي: «إذا سيِّد وجَّه وجهه إلى طلاق المرأة النصف التي ولدت له أبناءً أو العاقر التي ملَّكته أبناءً، يعيدون إلى تلك المرأة جهاز

عرسهـا، ويعطونها نصف الحقـل، البستان أو الممتلـكات وتربِّـي أبناءهـا. بعـد أن يتربـى أبناؤهـا يعطـون لهـا حصة كما حصـة وارث واحد هي من كل ما يعطى إلى أبنائها».

إن هـذه الحقـوق للمـرأة المطلقـة تبيِّـن مقدار تقديرهم للمرأة، ولم يسبقهم إلى ذلك أي من الشعوب القديمة.

وإذا كان الطـلاق مباحـاً ـ كمـا سبـق القول ـ فإن التعدد كان مسموحاً به حال كانت الزوجـة الأولى عقيماً لا تنجـب، ولكن التقليد أن تكـون الزوجـة الثانيـة أمـة لا مـن النساء الأحـرار كامـلات الحقـوق، ولعـل قصـة إبراهيم ﷺ بزواجـه من هاجر، أم إسماعيل عليـه السلام، كانت من هـذا التقليد المعمول به عند سكان بلاد الرافدين، وهو منهم.

أمـا الميـراث فـكان يذهـب إلـى الأبنـاء الذكور أو من تمَّ ضمهم إلى الأسرة فأصبحوا كالأبناء، ولا يعطى للإناث إلاّ حال عدم وجود ذكور في الأسرة.

كانت المرأة البابلية كثيرة المهمات، حيث يبدأ عملها من التدبيـر المنزلي إلى الإنجاب وتربيـة الأولاد، وعليهـا مهمة نقـل المياه من النهر أو الآبار، وتقـوم بطحن الحبوب، وغزل الخيـوط ونسجهـا، وكانـت تخرج مـن دارها للعمـل كالرجـل، وبعـض النسـاء كـن يعملن بالتجارة ولهن حوانيت ومتاجر خاصة، ومنهن من عملن كاتبات، لذلك كان البابليون يعطون للأنثى حق التعلـم كالذكر، وكانوا يخصصـون للنساء أجنحة خاصة في المنزل.

المرأة البابلية تمتعت بالكثير من الحقوق، وكان لهـا دور فاعل في المجتمـع سواء داخل الأسرة والمنزل أو خارجهما.

خلاصات حول الحضارة البابلية

١ ـ إن حضارة بابل امتزجت فيها مواريث حضارية من موقعها في بلاد ما بين النهرين، أو إنجـازات وافدة مـن الجـوار وبالتفاعل مع أقوام آخريـن، لذلك تختلف الحـال فيها عن حضارة الصين أو الهند.

٢ ـ إن أبـرز علامة تميِّز الحضارة البابلية التدويـن، والتدوين على ألـواح الطين لتوافره في محيـط من نهريـن وروافد وطمـي، بينما غيرهم استخدم ورق البردي (مصر) أو جلود الحيـوان، أو عظامها. لكن المهـم أن التدوين البابلـي كان دقيقاً وشاملاً، وكانت معه معاناة بسبب مادتـه الطينية وبسبـب الكتابة بالخط المسماري وتعقيداته، وهذا يؤكد أهمية التوثيق والتدويـن فـي حفـظ الإنجـازات الحضاريـة والإبداعات الفكرية.

٣ ـ قـدَّم البابليون للعالم كلـه عطاءً نادراً غير مسبـوق هو شريعـة حمورابـي أو قوانين حمورابي، وهـي أول قانون مدوَّن مدني عرفته الأمم، وقد حفظه التدوين من الضياع.

٤ ـ كان للبابلييـن إنجـازات علميـة كثيرة قدمـت للفكـر الإنسانـي إبداعـات وابتكارات مفيدة، وكان مصدرهـا أرض العرب. وتجلَّت هذه الابتكارات في الحساب والفلك والتقاويم ونظـام العمارة، وشق القنـوات وبناء خزانات المياه للزراعة، والمحراث المتطور.

٥ ـ عرف البابليون حـالات من الغلو في السحـر والشياطيـن، كمـا اعتنـوا كثيـراً بالتنجيـم وآمنـوا بمـا يزعمـه العرافـون، وأوصلهـم ذلك إلى نمط أدبـي هو الكتابات الأسطوريـة والملحميـة، إحداهـا ملحمـة كلكامش.

المصادر والمراجع

- حنون، الدكتور نائل: **شريعة حمورابي (٥ أجزاء)**، ترجمة النص المسماري مع الشروحات اللغوية والتاريخية، دمشق، دار المجد، سنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- دالي، ستيفاني: **أساطير بلاد ما بين النهرين**، ترجمة مع المقدمة والملاحظات، تعريب نجوى نصر، بيروت، مكتبة بيسان، ط ١، سنة ١٩٩٧.
- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة، ج٢ من م١**، ترجمة محمد بدران، بيروت، دار الجيل، سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.
- الطائي، الدكتور محمد باسل: **علم الفلك والتقاويم**، بيروت، دار النفائس، ط ١، سنة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- **قاموس الكتاب المقدس**: حرره الدكتور بطرس عبد الملك وآخرون، القاهرة، دار الثقافة، ط ٩، سنة ١٩٩٤.
- القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، سنة ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.
- موسكاني، سبتينو: **الحضارات السامية**، ترجمة الدكتور السيد يعقوب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٧.

الحضارة البطلمية الهلّينية
(البطلسية)

أ. د. محمد سهيل طقوش

موقع مصر وجغرافيتها

نشأت الحضـارة البطلمية في مصر، وتقع هذه البلاد فـي الجهة الشماليـة الشرقية من أفريقيـا عند ملتقـى القارات الثـلاث، أوروبا وآسيـا وأفريقيـا، يحدهـا من الشمـال البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق البحر الأحمر، ومن الغـرب شمالي أفريقيـا وتتوغل حدودها الجنوبيـة عميقاً فـي قلب أفريقيـا، تحف بها الصحاري مـن الجانبيـن الشرقـي والغربي، ولولا حدود النيل لأصبحـت كلها صحراء، لذا وصفها هيرودوت بعبارته الشهيرة «مصر هبة النيل».

أتـاح هـذا الموقـع الجغرافـي والطبيعـي للمصرييـن أن يُنشئوا حضـارة عريقة تأثرت بالتيـارات الوافدة مـن البلدان المجـاورة لها والقريبـة منهـا، كما أثَّـرت بدورهـا في هذه البلدان وكفل لها ذلك الأمن والهدوء.

أثَّر القسم الشمالـي من مصر، وهو الذي أُطلـق عليه اسـم الدلتـا أو مصـر السفلى أو الوجـه البحـري، في حضـارة البحـر الأبيض المتوسـط وتأثَّر بها، وظهر ذلـك في حضارة الفينيقييـن والكريتييـن واليونانييـن بشـكل خاص، وأثَّر القسـم الجنوبي الذي يُطلق عليه اسـم الوجه القبلي أو مصر العليا أو الصعيد، في حضارة بلاد النوبـة والحبشة والصومال، وتأثَّر بها.

ظلَّت معالـم الانقسام بين هذين القسمين بادية مـدة طويلة من الزمن أثنـاء عصور ما قبـل التاريـخ، إلـى أن نجـح الملـك مينا في توحيدهمـا في دولة واحـدة، والراجح أن هذه الخطوة هـي الرائدة في إقليـم الشرق الأدنى القديم.

اشتهـرت مـدن كثيـرة فـي مصـر عبـر عصورهـا القديمة، نذكر منهـا: منف، طيبة، أدفـو، والإسكندريـة التـي أسَّسهـا الإسكندر المقدوني الكبير في القرن الرابع قبل الميلاد.

البطالمة عبر تاريخهم

دخلـت مصـر في طـور جديد مـن أطوار حياتها الطويلـة إثر فتح الإسكنـدر المقدوني الكبير لها، وفي ظـل حكم ملوك البطالمة من بعـده، الذي دام مائتين وأربعـة وسبعين عاماً (٣٠٤ ـ ٣٠ ق.م.)، غير أن ما قام به هؤلاء من أعمـال لـم يؤثـر فـي أوضـاع سـكان البـلاد الوطنيين بشكل عـام، وبخاصة من واقع اللغة والديـن والاقتصـاد والاجتمـاع. وقـد ميَّـز المؤرخـون، الذين كتبوا عن تاريـخ مصر في العهـد البطلمـي، بين مراحل الحيـاة في هذا البلد التي امتـازت بالأحـداث المتكررة، غير أنهم لم يتعمَّقوا فـي كنه أسبابها التي تضرب بجذورها فـي صميـم الحيـاة المصرية، كما أصـرُّوا علـى أن نظـم الحكـم الإداري قـد استمرت بوتيرة واحدة حتـى العهد الروماني. وقـد دلَّـت الأبحـاث كافـة علـى أن الحضارة المصريـة، على الرغم من تعاقـب المحتلين، كانـت سلسلة مستمرة الحلقات لم يطرأ عليها أي تغيير جوهـري. والحقيقة أننـا نملك أدلة كثيـرة تُثبـت أنـه لـم يطـرأ عليهـا أي تغيير أساسـي هـدم الحضـارة المصريـة الأصلية بدخـول اليونـان كمحتليـن، كمـا أن التطـور المحتـوم الذي كان لا بد مـن حدوثه في هذه الحضارة تحـت ظل حكم اليونـان، كان يسير حثيثاً حينـاً وبطيئاً أحياناً، وذلك وفقاً لقوة أو ضعف الحكم البطلمي.

ينقسم العهد البطلمي في مصر إلى مرحلتين زمنيتين هما مرحلة الازدهار والقوة، وتُغطي المدة الزمنية بين عامي (٣٠٤ـ٢١٧ ق.م)، ومرحلة الضعف والسقوط وتشغل المدة الزمنية بين عامي (٢١٧ ـ ٣٠ ق.م).

مرحلة الازدهار والقوة: أنشأ الإسكندر امبراطورية واسعة في سرعة لافتة شملت شعوباً وأقطاراً متباينة لم تكن قد خضعت لنظام سياسي وإداري مُحكم يكفل لها البقاء والاستمرار، كما أن مسألة وراثته لم تكن قد نُظِّمت في الوقت الذي لم يكن له وريث شرعي، وعندما توفي في معسكره في بابل، في ١٣ حزيران ٣٢٣ق.م، كان الأمر بيد قادته وأعوانه، فاجتمعوا على هيئة مؤتمر ليُحدِّدوا مصير امبراطوريته الواسعة على الطريقة المقدونية، والمعروف، استناداً إلى القانون والعرف عند موت ملك مقدوني، أن يختار الجيش من يخلفه، وقد استقر رأي القادة بعد مشاورات جانبية، على:

- أن تبقى الامبراطورية في بيت فيليب والد الإسكندر، فيُنصَّب فيليب أرهيدايوس، الأخ غير الشقيق للإسكندر، على العرش، ويشاركه فيه مولود الإسكندر من زوجته الفارسية روكسانا إذا جاء ذكراً.
- أن تُقسَّم الامبراطورية إلى أربعة وعشرين ولاية يحكم كلّاً منها قائد من قادة الإسكندر بصفته والياً من قبل الأسرة الامبراطورية، ولكن الخلافات التي نشبت بينهم أدَّت بعد مرور سنتين إلى تقسيم جديد بحيث أصبحت الولايات اثنتين وعشرين.
- أن يتولى كراتيورس الوصاية على العرش وبرديكاس قيادة الجيش.

كانت مصر والأراضي المجاورة لبلاد العرب من نصيب بطليموس بن لاغوس، أحد أقدر قادة الإسكندر وأعظمهم حكمة، لكن أوضاعها لم تستقر له إلا بعد حروب عديدة، وقد حرص على:

- أن يُرسي فيها قاعدة ثابتة لدولة مستقلة على رأسها بيت حاكم هو مؤسسه وأول حكامه.
- أن تكون هذه البلاد من دون غيرها مركز الدولة التي يُزمع إنشاؤها.
- أن يعمل بشكل مستمر على خلق مركز أدبي متفوق لمصر في المنطقة التي يضمها العالم اليوناني.

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف، تصدَّى للتوجهات نحو وحدة الامبراطورية وتمسَّك بنصيبه من التركة، وهو مصر، ولم يتزحزح عنه أمام الإغراءات بمنطقة بديلة أو بسلطة أوسع في إدارة الامبراطورية، وقام منذ اللحظة التي مات فيها الإسكندر بنشاط سياسي مكثف.

كان بطليموس بن لاغوس واقعيّاً في تفكيره وتصرفاته، وبذل جهوداً حثيثة في تدعيم مركزه في مصر وفي ترقية الزراعة والصناعة والتجارة، وأنشأ أسطولاً كبيراً أمَّن البلاد من الغزو البحري، كما أمَّنتها الطبيعة من الغزو البري، وساند المدن اليونانية المتحالفة في سعيها للاستقلال عن مقدونيا، ومن أجل ذلك سُمي سوتر، أي المنقذ، ولم يُلقِّب نفسه ملكاً إلا في عام (٣٠٤ق.م) بعد ثمانية عشر عاماً من العمل الشاق والحروب، دعَّم خلالها

مملكته الناشئة من النواحي السياسية والاقتصادية، وأقامها على نظام ثابت ومتين. وبسطت مصر سيادتها في عهده على قوريني (برقة) وفينيقيا وساموس ولسبوس وسمئريس وسوريا المجوفة، وقد وجد أثناء مرحلة شيخوخته متسعاً من الوقت يكتب فيه شروحاً وتعليقات على حروبه، وأن ينشئ في عام (٢٩٠ق.م) دار العاديات وهو المتحف وبيت ربات الفنون والعلوم، والمكتبة، اللذين قامت عليهما شهرة الإسكندرية، وأسس جامعة جديدة بالقرب من القصور الملكية. ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره، وشعر بضعف الشيخوخة؛ أجلس ابنه بطليموس الثاني فيلادلفوس مكانه على العرش وسلّمه زمام الحكم، وذلك في عام (٢٨٥ق.م)، واتخذ مكانه كأحد الرعايا في بلاط الملك الشاب، وتوفي بعد عامين من ذلك الوقت.

اختلف بطليموس الثاني عن والده في كل شيء، فبقدر ما كان بطليموس بن لاغوس جنديّاً من الطراز الأول، كان بطليموس الثاني بعيداً كل البعد عن حياة الجندية وأخلاقها، يعشق حياة النعيم والبذخ، وهو الذي نشأ في أحضان الترف والكتب والعلم والحياة الناعمة، فانعكست على حياته وتصرفاته، فكان من جهة ملكاً طموحاً محبّاً للسلطة والملذات، يُنفق المال بسخاء، وكان من جهة أخرى محبّاً للعلوم والآداب فضلاً عن أنه أول سياسي في عصره جرى وراء المشروعات الاقتصادية المبتكرة.

واجه في مستهل حياته السياسية مؤامرات إخوته المنافسين له على العرش، وخاض حروباً ضد السلوقيين في سوريا ليعيدها إلى سلطة مصر، إلا أنها كانت وبالاً عليه وعلى دولته، فقد أعاقت مسير الحضارة اليونانية عن متابعة توطيد أركانها في مصر بقوة أكبر.

وانهمك بطليموس الثاني في إتخام معدته بأشهى الطعام واتخذ كثيراً من العشيقات وتزوج من أخته أرسينوي التي أدارت شؤون الحكم، في الوقت الذي قضى فيه الملك أوقاته بين طهاته وعلماء بلاطه، وزيَّن عاصمته الإسكندرية بالمباني الفخمة على الطراز اليوناني حتى أصبحت، خلال مدة حكمه الطويلة، عاصمة بلاد البحر المتوسط الأدبية والعلمية، ووسَّع المتحف والمكتبة وأنفق عليهما من المال ما جعل المؤرخين ينسبون إليه إنشاءهما، وتوفي في عام (٢٤٦ق.م).

خلف بطليموس الثالث يورجينيس والده بطليموس الثاني ويبدو أنه كان يتمتع بصفات حميدة، ميالاً، مثل أبيه، للعلم والثقافة، إلا أنه تميز عنه بالخلق الرفيع، فقد اكتفى بزوجة واحدة، هي الملكة برنيكي، ولم يتخذ لنفسه عشيقات، وما إن تولى العرش حتى وجد نفسه مضطراً لخوض غمار حرب شرسة ضد السلوقيين، وهي التي عُرفت باسم الحرب السورية الثالثة، خسر بنتيجتها كثيراً من الممتلكات في شمالي سوريا وآسيا الصغرى، وبقيت لمصر ممتلكاتها في برقة وسوريا الجنوبية وبعض سواحل آسيا الصغرى.

ونجح بطليموس الثالث، على صعيد السياسة الداخلية، في إقامة علاقات طيبة مع الكهنة، وتقرب من المصريين، فأعفاهم من الضرائب في عهد الشدة، واستورد كميات من الغلال لإنقاذ البلاد من المجاعة، فشكره الكهنة على أعماله في عام (٢٣٧ق.م)

بموجب قرار كانوب، نسبة إلى البلدة التي عقد فيها الاجتماع الذي صدر خلاله هذا القرار، ومنحوه لقب يورجينيس، أي فاعل الخير أو المحسن، ومن بين أشهر أعماله التي تدل على الاستنارة محاولته إصلاح التقويم المصري من واقع تحديد عام (٣١١ق.م) بداية للتاريخ البطلمي، وهي سنة وفاة الإسكندر الرابع من روكسانا الفارسية، بفعل أنه انتهى بوفاته آخر ممثل للسلطة الشرعية المركزية في الامبراطورية. وتميز عهده بما جرى فيه من الاهتمام الكبير ببناء المعابد ومنها معبد إدفو المخصص لعبادة الإله حورس، والجدير بالذكر أن عملية البناء استغرقت مائة وثمانين عاماً وانتهت في عهد بطليموس الثاني عشر.

توفي بطليموس الثالث في شباط عام (٢٢١ق.م) وخلفه ابنه بطليموس الرابع وكان في الثانية والعشرين من عمره، واتخذ لقب فيلوباتر، أي المحب لوالده، لمعرفته بمدى حب الناس لوالده، وقد أراد أن يتقرَّب منهم. وتوحي قرائن الأحداث التي وقعت في عهده أن دولة البطالمة بدأت تسير نحو الهاوية بفعل تراجعها في كثير من نواحي الحياة في الداخل، وظهور شخصيات قوية في أفق السياسة في الخارج، طامعة في الاستيلاء على أملاك البطالمة خارج مصر بل وفي مصر نفسها، أمثال أنطيوخوس الثالث، أقوى ملوك الدولة السلوقية، وفيليب الخامس ملك مقدونيا، فكانت الظروف السياسية تتطلب رجلاً حازماً وعقلاً فذّاً يسير بالبلاد إلى بر الأمان لكن لم يظهر هذا الرجل الذي يتحلى بهذه الصفات وتلك الميزات، وكان حكمه بداية لسلسلة من ملوك البطالمة المستبدين الذين يجمعون حب الشهوات من النساء والفتيان والقسوة وفقدان الحس الخلقي، وقد وقع تحت تأثير رجال بطانته الفاسدة، فقتل أمه برنيكي وعمه ليزيماكوس وأخاه ماغاس وكليونيس ملك إسبارطة السابق، بتحريض منهم.

لقَّب بطليموس الرابع نفسه بديونيسوس إله الخمر عند اليونان، وكاد يقنع بأنه من نسله، ونعته المصريون بنعتين لا يدلَّان على احترامهم له هما جالي، وهو كاهن الآلهة سيبيل إلهة الأرض، وكان كهنتها يخصون أنفسهم وهم في حال غيبوية، والمعنى هنا أن بطليموس الرابع كان مثله كمثل خصي، والآخر المترف، تريفون. ولعل أشهر ما حقَّقه من إنجازات هو انتصاره على أنطيوخوس الثالث في معركة رفح عام (٢١٧ق.م). وفي الوقت الذي كان فيه هذا الملك أسير حبه، وكأنه في غفلة عما يدور حوله وهو في أحضان فاتنته أجاتوكليس، وافاه الأجل المحتوم في تشرين الثاني عام (٢٠٣ق.م).

مرحلة الضعف والسقوط: شكَّلت معركة رفح منعطفاً خطيراً في تاريخ مصر في عهد البطالمة وقفت عنده سياسة التوسع والمحافظة على المنجزات المكتسبة، ويُعدُّ عام (٢١٧ق.م) وهو العام الذي جرت فيه المعركة، بداية لمرحلة جديدة في تاريخ هذا البلد جرت فيها تحولات كثيرة داخلية وخارجية أدَّت إلى ضعف الدولة ومن ثمَّ سقوطها. وهكذا بدأت مرحلة التدهور التي من أهم مظاهرها هذا الركود الذي بدا واضحاً قبل انتهاء عهد بطليموس الرابع.

ففيما يتعلق بالتحولات الداخلية، فقد شهدت مصر ثورات المصريين، وضُعف السلطة المركزية، والنزاعات على العرش. وتكمن التحولات الخارجية في ظهور ثلاث قوى فتية راحت تتربص بدولة البطالمة وتعمل على إضعافها، وهي قوة أنطيوخوس الثالث ملك سوريا، وقوة فيليب الخامس ملك مقدونيا، وقوة روما.

لم يكد خبر وفاة بطليموس الرابع يصل إلى مسامع ملكي سوريا ومقدونيا، وارتباك الأوضاع الداخلية في مصر حتى أبرما معاهدة فيما بينهما بهدف تقاسم أملاك مصر الخارجية، وإذا اقتضى الأمر تقسيم مصر نفسها بينهما. والواقع أن أنطيوخوس الثالث لم يشرع في غزو سوريا المجوفة وفينيقيا إلا في عام (٢٠٢ق.م) في الوقت الذي اندلعت فيه الثورة في مصر لمحاكمة المجرمين أمام محكمة الشعب الثائر، والتي قضت بموت أجاتوكليس بسبب ما ارتكبته من جرائم وبخاصة قتل الملكة أرسينوي الثالثة. وتمكّن في عام (٢٠٠ق.م) من هزيمة الجيش البطلمي في معركة بافيون بالقرب من نهر الأردن، وانتزع سوريا المجوفة. وانقضّ فيليب الخامس على ما تبقى من أملاك مصر في جزر السيكلايد وعند مضيق البوسفور وفي منطقة تراقيا، ولم يعد بحوزة مصر سوى قبرص وقوريني، ففقدت في أقل من عشر سنوات من وفاة بطليموس الرابع امبراطوريتها.

انعكست الانتكاسات الخارجية على الواقع الداخلي فاستمرت الثورات التي كانت مظهراً من مظاهر الكراهية التي أبداها المصريون ضد الحكم الأجنبي، وقد زادت من ضعف الدولة التي اضطرت إلى اتخاذ مزيد من المظاهر المصرية كسباً لود السكان المصريين، مثل إعلان تتويج الملك حسب التقاليد الفرعونية في منف وليس في الإسكندرية، كما كان التقليد المتبع، لكن هذه المحاولات لم يكن لها أي أثر إيجابي، وتحوّلت مدينة طيبة إلى بؤرة للثورة، ما أقضّ مضاجع البطالمة، فبذلوا جهوداً جبارة لإخمادها استنزفت مواردهم وأضعفت مكانتهم في الخارج، فنضبت موارد البلاد عن آخرها وبدأ الانحلال يدب في كل شيء. ويتمثل ضعف السلطة المركزية في تولي ملوك ضعاف عرش البلاد وازدياد الخلافات الأسرية على العرش، فانتقل البطالمة من الفضائل إلى الرذائل، ومن الذكاء إلى الغباوة، وانطلقوا يتزوجون من دون قيد وبسرعة أفقدتهم احترام الناس، وانغمسوا في الترف انغماساً أعجزهم عن إدارة دفة الحكم، وأفقدهم في آخر الأمر القدرة على التفكير. وضعفت قدرة الأرض على الإنتاج عاماً بعد عام لخروج الناس عن القانون وقلة أمانتهم وعجزهم وانعدام المنافسة بينهم وضعف هممهم ودوافعهم التي بثّتها الملكية في النفوس. وفقد المصريون في المقابل احترامهم لليونانيين كما فقد هؤلاء احترامهم لأنفسهم، وازداد عدد من يتزوجون بأخواتهم زيادة مطردة، ومن يتزوجون من أسر مصرية، فامتصتهم البلاد واندمجوا في أهلها، وعبد الآلاف منهم الآلهة المصرية، وراحوا يتكلمون بلغة مختلطة يونانية ـ مصرية. وما وافى القرن الثاني قبل الميلاد حتى لم يعد اليونانيون الفئة المسيطرة

حتى من الوجهة السياسية، وبدأ الكهنة يستعيدون سلطانهم عاماً بعد عام.

تعاقب على عرش مصر، بعد بطليموس الرابع، عدد من الملوك الضعاف اتخذوا لقب بطليموس. وكانت الديون قد تراكمت على بطليموس الثاني عشر (٨٠ـ٥١ق.م) في الوقت الذي ازداد فيه تدخل روما في شؤون مصر الداخلية، وقد ترك بعد وفاته ولدين وابنتين، وأوصى بأن تتزوج كبرى بناته، وتدعى كليوباترة السابعة، والبالغة سبعة عشر عاماً، من شقيقها بطليموس الثالث عشر، البالغ عشر سنوات، وأن يحكما سويّاً، على أن يتولى الرومان تنفيذ هذه الوصية.

اتصفت كليوباترة السابعة بالطموح السياسي فتخلَّصت من أخيها وتفردت بالحكم. واشتد، في هذه الأثناء، الصراع السياسي على السلطة في روما بين الحزبين الجمهوري بقيادة بومبيوس والديمقراطي بقيادة يوليوس قيصر، وكانت مصر مسرحاً لهذا الصراع بفعل لجوء بومبيوس إليها. وراوغت كليوباترة السابعة كلا الخصمين لتتقرَّب بعد ذلك من المنتصر يوليوس قيصر وقد أنجبت منه ابنها بطليموس قيصرون، وعندما عاد إلى روما استدعاها لتعيش معه.

وما جرى بعد ذلك من اغتيال يوليوس قيصر في (١٥ آذار عام ٤٤ق.م) بسبب الصراع على السلطة أن عادت كليوباترة إلى مصر، فتخلَّصت من شقيقها الأصغر بطليموس الرابع عشر وأشركت معها في الحكم ابنها قيصرون.

وبرز في هذه الأثناء القائدان ماركوس أنطونيوس وأوكتافيوس، اللذان اقتسما أراضي الامبراطورية لكن العلاقة ما لبثت أن تدهورت بينهما بسبب الصراع على السلطة وتنظيم المؤامرات كل ضد الآخر. وذهب ماركوس أنطونيوس إلى مصر وأقام علاقات مع كليوباترة في خطوة عُدَّت تحدياً لأوكتافيوس، وجرت بين القائدين معركة أكتيوم البحرية على الشاطئ الغربي لبلاد اليونان في (أيلول عام ٣١ق.م)، هُزم فيها ماركوس أنطونيوس، وفرَّت كليوباترة السابعة مع أسطولها الذي اشترك في المعركة إلى جانب هذا الأخير عائدة إلى مصر، فلحق بها أوكتافيوس ودخل الإسكندرية في جو الانتصار. وحاولت كليوباترة أن تتفاوض معه وعرضت عليه أن تتنازل عن العرش لأبنائها، من بينهم توأم أنجبته من ماركوس أنطونيوس، إلا أنه راح يماطل في قبول عرضها، وعلمت بأنه سوف يحضرها إلى روما ويسوقها في موكب النصر، ففضَّلت الانتحار وماتت بلدغة الحية المقدسة. وأمر أوكتافيوس بقتل قيصرون الذي كان يرى فيه منافساً خطيراً له، وأخذ أبناءها من ماركوس أنطونيوس معه إلى روما وأعطاهم إلى أخته أوكتافيا لكي ترعاهم بصفتهم أبناء زوجها الراحل.

وهكذا سقطت دولة البطالمة وزالت إلى الأبد، ودخلت مصر تحت الحكم الروماني، وتحوَّلت إلى ولاية رومانية.

البطالمة عبر نظمهم

النظام السياسي والإداري

كان الملك البطلمي خليفة الملك الفرعوني، احتل مكانه ومكانته ومارس جميع سلطاته كحاكم متفرد، فهو مصدر السلطات

في الدولة وإرادته هي القانون، ويخضع له جميع الموظفين، ويعدُّون خدامه وممثليه يستمدون سطاتهم منه، وهم مسؤولون أمامه عن أداء أعمالهم، وعليه، فإن النظام السياسي والإداري في الدولة يُعدُّ نابعاً نظريّاً من شخصه ومرتبطاً بإرادته.

اعتمد البطالمة في إدارتهم على النظام الذي كان سائداً في مصر منذ العصور القديمة على الرغم مما أصابه من الضعف والتفكك والإهمال في القرون الأخيرة قبل فتح الإسكندر الكبير، بسبب الحكم الفارسي المتعسف والثورات التي قامت ضده، واكتفوا «بأغرقة» الجهاز الإداري وتطويره بما يناسب وضعهم الجديد، وقد تمَّ هذا العمل على أيدي خبراء يونانيين أشهرهم ديمتريوس الغاليري في عهد بطليموس الأول، والوزير أبوللونيوس في عهد بطليموس الثاني، واستكمل هذا النظام عناصره الأساسية في عهد بطليموس الثالث. وعيَّن البطالمة أعداداً كبيرة من الموظفين اليونانيين في القصر الملكي وفي أقسام الإدارة، نذكر منهم:

- وزير المالية (ديويكينيس): إنه الساعد الأيمن للملك وله سلطة كبيرة على جميع مرافق الدولة، تُرفع إليه التقارير والبيانات والإحصاءات والشكاوى، من جميع أنحاء البلاد، وتصدر عنه الأوامر الإدارية والمذكرات التفسيرية للقوانين واللوائح، وتتناسب قوته أو ضعفه عكساً مع قوة أو ضعف الملوك ووزرائهم. ونظراً لصلاحياته الواسعة اتخذ الديويكينيس مساعدين يحمل كل واحد منهم لقب مساعد وزير المالية، هيبوديويكينيس، إنهم رؤساء المكاتب التي تنقسم إليها الإدارات، واختص كل واحد منهم بولاية محددة من ولايات مصر.

- رئيس الحسابات (إيكلوجيستيس): وظيفته مساعدة الوزير في إعداد الإحصاءات وتقدير الضرائب، ويساعده في عمله عدد كبير من المحاسبين المنتشرين في جميع أنحاء البلاد.

- معاونو الملك: هم فئة من الموظفين ملحقون بالقصر، يقومون بالإشراف على الديوان الملكي أشهرهم:

• كاتب رسائل الملك، ويتولى كتابة الرسائل الملكية وردود الملك على الشكاوى والرسائل العديدة التي كان يرفعها إليه الأهالي يوميّاً.

• سكرتير الملك الخاص، يختص بتسجيل قرارات الملك وتوجيهاته التي تُرسل إلى الأهالي في الولايات المختلفة.

- وزير العدل (أرشيبيديكتيس): يتولى الإشراف على الجهاز القضائي المعقَّد بسبب تعدد وتنوُّع القوانين مثل القانون المصري الذي يطبق على المصريين، والقانون الخاص باليونانيين والأجانب، والقانون الخاص بالمدن اليونانية في مصر، ولكل نوع من القوانين محاكم خاصة وقضاة يقومون بتطبيقه. ويتمتع الملك بحق منح العفو العام عن الأشخاص من كل الطبقات باستثناء المزارعين العاملين في الأراضي الملكية، ودافعي الضرائب، وكل من يتصل عمله بإيرادات الدولة، وذلك في الحالات التي يتعاقد فيها المصريون مع اليونانيين بعقود مكتوبة باللغة اليونانية، حيث تُعرض قضاياهم على القضاة اليونانيين، كما تعرض الحالات التي يتعاقد فيها اليونانيون

بعقود مكتوبة باللغة المصرية على القضاة المصريين، وفقاً للقانون المحلي، ولا تعرض القضايا المثارة بين المصريين على القضاة اليونانيين وإنما تنظر فيها محاكم مصرية استناداً إلى القانون المصري، والملاحظ أن لغة العقد هي التي تقرر نوع المحكمة وليس جنسية المتقاضين.

كانت حكومة البطالمة أقدر الحكومات وأحسنها نظاماً في العالم الهليني، وقد أخذت شكلها القومي المركزي عن مصر وفارس ثم أخذته عنها روما. وقد قسّمت البلاد إلى أقاليم (توموس) يدير كلّاً منها موظفون يعينهم الملك، وكانوا كلهم تقريباً من اليونانيين، وهي مقسمة بدورها إلى مناطق يدير شؤونها موظفون يعينهم الملك أيضاً ويستمدون منه قوتهم القانونية مباشرة، ولكن عمليّاً كان يعينهم الموظفون الكبار، ومن الصعب أن نرسم خطّاً فاصلاً ودقيقاً بين الصلاحيات التي يتمتع بها كل موظف، بسبب عدم وجود تمييز واضح بين الوظائف، فكلٌّ يعمل وفقاً للتوجيهات التي كانت تصل إليه من رؤسائه أو من الملك.

كان على رأس الإقليم حاكم عسكري يُسمى أستراتيغوس، يتمتع بالصلاحيات كافة، فهو قائد الحامية العسكرية والمشرف على إدارة الإقليم وشؤونه المالية، وربما كانت له اختصاصات قضائية وبخاصة فيما يتعلق بالجرائم، وَوُقِف هذا المنصب على اليونانيين فقط.

وَوُجد إلى جانب حاكم الإقليم عدد من الموظفين أشهرهم:

- المشرف على الأعمال العامة وأرض الملك (نورماخوس)، وقد تعاقب على هذا المنصب موظفون يونانيون ومصريون.
- الكاتب الملكي (باسيليكوس غراماتيوس): وهو بمثابة السكرتير العام للإقليم، وتكاد جميع أعماله تمر بين يديه، إما في طريقها إلى الحاكم العام أو منه إلى الموظفين الآخرين، وهو مسؤول عن التقارير الإحصائية والسجلات وجميع الأعمال المتعلقة بالضرائب، ويتخذ مقره في عاصمة الإقليم، كما كان يوجد كاتب في كل مركز من مراكز الإقليم، وفي كل قرية.
- المراقب (إبيستانيس): ويختص بشؤون القضاء المحلي.
- رئيس الشرطة (إبيستانيس الحراس).
- المشرف المالي.

كان جمع المحصول وتخزينه ونقله من عمل رؤساء المراكز والقرى بوصفه ضرائب وإيجارات مستحقة على السكان، ويتعاونون مع رؤساء مخازن الحكومة الذين يُطلق عليهم اسم محصلي الغلة، ومع مديري الفروع المحلية للخزانة. وكان هناك جامعو ضرائب خاصون وملتزمون يعملون مع الموظفين السابقين ومع مؤجري الضرائب، وهم وسطاء بين الحكومة ودافعي الضرائب من الفلاحين وأصحاب الحِرَف والصنّاع والتجار.

وتتصل إدارة الإقليم بالمعابد بواسطة مشرفين يديرون أعماله وهم مسؤولون أمام الحكومة بوصفهم ممثلين أمامها عن طوائف الكهنة، ويأتي الحراس في أسفل السلم الإداري.

وطرأت في نهاية القرن الثالث، وفي خلال القرن الثاني قبل الميلاد، تغييرات عدة على هذا النظام الإداري الذي اتجه نحو المركزية

وتجميع سلطات القوى المحلية في يد قائد الإقليم الذي يقوم أحياناً بوظائف الحاكم المالي الذي حلَّ محل السكرتير المالي العام.

ونتج عن هذا التغيير، في القرن الأول قبل الميلاد، إحياء نظام النصف إقطاعي الذي أتاح للمصريين اعتلاء منصب حاكم الإقليم الذي كان حكراً على العسكريين اليونانيين. وأخذ المصريون الأغنياء يشغلون الوظائف الحكومية أكثر فأكثر. ولما كان الموظف مسؤولاً أمام الملك عن شخصه وماله، فإن من صالح الحكومة أن تُعيِّن موظفيها وملتزمي الضرائب من الطبقة الغنية بصرف النظر عن أصلهم، واضطر الملك، تحت ضغط الحاجة وازدياد التذمر في الوجه القبلي والثورات المتتالية؛ إلى ضم كل الوجه القبلي ووضعه تحت حكم قائد عام واحد.

وسارت الإدارة في الممتلكات المصرية خارج مصر وفقاً لمقتضيات كل بلد، والمعروف أن هذه الممتلكات شملت سوريا الجنوبية، فينيقيا، فلسطين، قبرص، أجزاء من سواحل آسيا الصغرى الجنوبية والغربية، جزر السيكلايد وبعض مناطق في بحر إيجة، لكن من الطبيعي أنهم أقاموا فيها حاميات عسكرية، يتمتع قادتها عادة بنفوذ كبير؛ فقائد الحامية هو نائب الملك في ولايته، وقد شغل قائد الأسطول نافارخوس هذا المنصب في جزر السيكلايد، وَوُجِدَ إلى جانب قائد الحامية موظف كبير آخر هو حاكم الجزر.

النظام الاجتماعي

ينقسم المجتمع البطلمي في مصر إلى فئتين: فئة العناصر الأجنبية، أوروبية وآسيوية، من: المقدونيين واليونانيين والفينيقيين واليهود وبعض شعوب آسيا الصغرى، وفئة العنصر الوطني من المصريين، هذا ولا نملك إحصاءات نوعية عن كل عنصر من هذه العناصر يُبيِّن نسبة عدد بعضها إلى بعض، ولا النسبة العددية بينها وبين المصريين؛ على الرغم من أن الإدارة البطلمية كانت تحتفظ بإحصاءات دقيقة عن عدد السكان، كما كانت تسجل المواليد والوفيات بانتظام، نظراً لارتباط ذلك بالضرائب التي كانت تُجبى من الأفراد، وكل ما لدينا من الإحصاءات رقم إجمالي عن عدد السكان هو سبعة ملايين ونصف. وبلغ عدد سكان الإسكندرية، في أواخر العهد البطلمي، ثلاثمائة ألف نسمة من الأحرار ومائتي ألف نسمة من العبيد، بالإضافة إلى بعض السكان النازحين الذين لم يُقيَّدوا رسميّاً ضمن أهالي المدينة.

اعتمد البطالمة في بناء دولتهم على ما استقدموه من المقدونيين واليونانيين، ولما كان هؤلاء يشكلون مع العنصر المصري الوطني أهم عناصر المجتمع، سواء من ناحية العدد أو من ناحية التأثير، لذلك اقتصر بحثي في مجال التركيب الاجتماعي على موقف البطالمة من هذين العنصرين اللذين يكوِّنان طبقتين تشغل العلاقة بينهما وبين الأسرة البطلمية الحاكمة حيزاً من سياسة هذه الأسرة، على الرغم من التفاوت العددي بينهما لصالح المصريين الذين ظلوا يشكلون الغالبية الساحقة من السكان بعامة، في حين كان اليونانيون بعامة لا يمثلون بالنسبة إليهم إلا أقلية ضئيلة، ولكن هؤلاء كان لهم وزن اجتماعي كبير نتج عن الامتيازات الكثيرة

التي منحها البطالمة لهم وهي التي جعلت منهم، على الرغم من قلتهم، طبقة تستحق أن تُسمَّى بهذا الاسم في التقويم الاجتماعي.

حرص البطالمة على تنظيم الجماعات المقدونية واليونانية وفق أسس خاصة نظراً لما كانوا يتمتعون به من كفاءة عسكرية وإدارية واقتصادية وفنية، إما عن طريق إدراجهم في عداد مواطني المدن اليونانية في مصر أو عن طريق تقسيمهم حسب مواطنهم الأصلية، والمعروف أن العضوية في المدن اليونانية في مصر اقتصرت على الطبقات الممتازة من الإغريق الذين احتكروا الوظائف العليا والهبات السخية التي كانت تغدقها الدولة عليهم. والواقع أن البطالمة حرصوا على تهيئة المناخ الملائم لحياتهم في مصر والمحافظة على نقاوة عرقهم، فلا يختلطون بالمصريين عن طريق الزواج بخاصة ما يؤدي إلى فنائهم بمرور الزمن وبوصفهم فئة ممتازة. ولما كان الإغريق يألفون العيش في ظل نظام المدن الحرة، قام البطالمة بتطوير مدينة الإسكندرية لكي تأخذ طابع المدينة اليونانية، كما أنشأ بطليموس الأول مدينة بطلمية في صعيد مصر على النمط اليوناني، وأقام فيها معاهد الجمنازيوم التي تُعدُّ أهم مظاهر المجتمع اليوناني، وهي معاهد ثقافية وتربوية ورياضية بالإضافة إلى الدور الاجتماعي الذي تقوم به. ولكن لم يقتصر وجود العناصر الإغريقية على المدن اليونانية بل انطلقوا في أرجاء مصر كافة، وأُقيمت من أجلهم قرى جديدة في إقليم الفيوم، كما سكنوا المدن والقرى القديمة جنباً إلى جنب مع المصريين.

اقتصرت المواطنية على العناصر الممتازة من الإغريق، أما الآخرون فكانوا من رعايا الملك مباشرة، لكن وُجد لهم نظام خاص يُعوِّضهم عن حرمانهم من حياة المدينة السياسية، هو نظام البوليتيوما، وهو عبارة عن رابطة تضم جميع أبناء الوطن الواحد، ويغلب على هذا النظام الصفة العسكرية، فهو يضم جنود الجيش البطلمي في أثناء السلم، وله أوجه أخرى من النشاطات الاجتماعية والدينية.

وشكَّل المصريون غالبية السكان الساحقة، وعماد المجتمع، وكان تنظيمهم على أساس حِرَفهم وأعمالهم، وينقسمون إلى سبع طبقات هي: الكهنة، الجند، رعاة البقر، رعاة الخنازير، التجار، المفسرون ورجال القوارب. وهناك فئات اجتماعية أخرى اختصت بالزراعة والصناعة وتبوأت الوظائف الإدارية الدنيا.

كان هؤلاء، من الوجهة الاجتماعية، طبقة كادحة مغلوباً على أمرها بالمقارنة مع الوضع الممتاز للإغريق، فكان اليوناني هو الرئيس والمصري هو المرؤوس، باستثناء طبقة الكهنة التي ظلت مصرية في تكوينها، كما كانت أقوى وأخطر مظهر يمثل المصريين، تقوم بأعباء الأعمال المهمة كلها التي شكَّلت عماد حياة الإغريق أنفسهم، وكان هؤلاء يرهقون أفرادها بالعمل الزراعي بخاصة ويُحمِّلونهم المسؤولية. والواقع أن مسؤوليتهم الشخصية والمادية كانت ثقيلة، لذلك كانوا يسعون للفرار من هذه السخرة، وطبيعي أن الفلاح المصري لا يُبدي حماساً كبيراً أو نشاطاً منتجاً في عمله في ظل هكذا ظروف.

ومارس بعض المصريين عدداً من الحرف، مثل صناعة الفخار وبناء السفن، ونجد في أسفل السلم الاجتماعي الطبقة المغمورة، وهم الفقراء والمعوزون من أبناء الشعب المصري، يعمل كثير منهم بالزراعة الملكية، ويعمل أفراد الأسرة معاً ويمارسون حرفة واحدة تنتقل بالوراثة من الأب إلى الابن.

كان المصريون يشعرون بأنهم مُحتقرون ومُهملون، وليس لهم ثقة بهؤلاء الأجانب الذين انصرف همهم إلى جمع الثروة وسيؤول ذلك فيما بعد إلى الاضطرابات والثورات.

وحضّت النصوص الأدبية على الزواج وشجعته، وشاعت عادة الزواج بين الأقارب إلى حد عُدَّ زواج الأخ من الأخت قاعدة عامة. وكانت العقود الخاصة بالزواج عبارة عن اتفاقات مادية يتفق فيها الطرفان على كل المسائل المالية، واتخذت شكلاً وصيغة ثابتتين. وتُشدِّدُ معظم العقود على حقوق الزوجة، وكان الزوج هو الطرف الأول بصورة عامة لأنه يدفع الصداق، ويقابل ذلك أن تصبح المرأة في طاعة الرجل وملك يمينه. ويُذكر في العقود واجبات الزوج نحو زوجته، كما تُذكر الغرامة التي كان عليه أن يدفعها إذا طلّقها وهو ما يقابل مؤخر الصداق. وكانت هناك أمور أخرى تُذكر في صلب العقد تتعلق بنصيب الزوجة من العقار الذي يملكه الزوج مع مراعاة حقوق الأولاد من الميراث، بالإضافة إلى ما كانت تحضره معها من جهاز، مع تعهد الزوج برده لها إذا طلّقها، أو إذا أرادت أن تفارقه بالمعروف، ولا يُذكر في العقدالعبارة التي يفتتح الزواج بها، وهي: «لقد جعلت منك زوجة، أو لقد اتخذتك زوجة»، الذي يُعدُّ الإعلان الرسمي للزواج.

كان تعدد الزوجات مسموحاً في المجتمع البطلمي في مصر، لكن عدم تعدد الزوجات كان شائعاً، والزواج المختلط بين العنصرين اليوناني والمصري كان مسموحاً أيضاً وشرعياً، على خلاف ما كان يُطبق على الكهنة حيثُ يُحرَّم تعدد الزوجات، وكذلك لم يكن مسموحاً لهم بأن يتزوجوا من نساء خارج طائفتهم، والجدير بالذكر أن الطلاق لا يتم إلا بأربعة شهود.

النظام الاقتصادي

نظام الأراضي: قام النظام الاقتصادي في مصر في العهد البطلمي على أسس شرقية مع إضفاء مسحة يونانية لكي يتلاءم مع الهدف الذي يرمي إليه الملوك البطالمة، ولما كان الهدف الذي وضعه بطليموس الأول نصب عينيه هو إقامة دولة قوية قادرة على أن تؤدي دوراً مؤثراً في سياسة العالم الهليني، فإن الوصول إلى ذلك يتطلب إقامة جيش وأسطول قويين، ويستتبع ذلك بالضرورة إقامة اقتصاد متين يُؤمِّن الحاجات الحيوية للنهوض بالدولة، وبناءً على ذلك أقام البطالمة سياستهم الاقتصادية على ثلاثة أسس هي: تأمين الحاجات الاقتصادية من أجل تدعيم حكمهم، وتطوير الاقتصاد للحصول على قدر أكبر من الموارد لتغطية هذه الحاجات، والسيطرة على الحياة الاقتصادية.

تأمين الحاجات الاقتصادية من أجل تدعيم حكمهم: وجد البطالمة أنفسهم في مواجهة نفقات متعددة وكبيرة أهمها:

- نفقات تجنيد عدد كبير من المرتزقة، بفعل سياسة التوسع والدفاع التي كان يفرضها الصراع الدائم بين حكام العالم الهليني.

- نفقات إنشاء أسطول كبير، بسبب التنافس في مجال التسلح البحري، وبخاصة عند تأسيس دولتهم، ولحماية أملاكهم في الخارج، وتأمين حماية الإسكندرية، وضمان سلامة تجارتهم الخارجية.

- نفقات تتعلق باستقطاب الحلفاء في مجال السياسة الدولية عن طريق بذل المال والمساعدات، ليوازنوا ما كان يبذله منافسوهم من ملوك العالم الهلّيني.

- نفقات الأعمال العامة مثل شق الترع، إقامة الجسور، مد الطرق، استصلاح الأراضي وغيرها، على الرغم من أنَّ قسماً من هذه الأعمال، مثل استصلاح الأراضي، كان يقع على عاتق أصحاب الإقطاعات.

- نفقات الموظفين الإداريين والفنيين الذين استقدموهم من بلاد اليونان، وقد شكَّلوا عبئاً إضافيّاً، وبخاصة أن طبيعة عملهم تنظيمي وليس إنتاجيّاً، ويتقاضون أجوراً مرتفعة.

- نفقات لها صلة بشعائر العبادات من واقع إقامة التماثيل والطقوس والاحتفالات الدينية، والتكاليف الخاصة برجال الدين.

- نفقات القصر الملكي، وتشمل نفقات الأسرة المالكة والحاشية. وتستوقفنا مظاهر العظمة التي صبغت احتفالات تنصيب بطليموس الثاني وكذلك مظاهر البذخ الشديد في القصر الملكي.

تطوير الاقتصاد: مَالَ البطالمة، نتيجة هذه النفقات الباهظة، إلى تطوير الاقتصاد سواء من واقع توسيع رقعته للحصول على قدر أكبر من الموارد أو تسهيل التعامل في موارد الانتاج، فبذلوا جهداً كبيراً في زيادة مساحة الأراضي الصالحة للزراعة، واشترطوا على من يمنحونه أرضاً إقطاعية أن يستصلح مساحات مترامية من الصحراء، كما أدخلوا الأساليب العلمية في ميدان الزراعة ما أتاح الحصول على ثلاثة مواسم في العام الواحد، واهتموا بتنمية الثروة الحيوانية فاستوردوا سلالات جديدة من الحيوانات وبخاصة الأغنام التي تمتاز بجودة صوفها، وكان لتربية الخنازير أهمية كبيرة. واستغلوا موقع مصر التجاري إلى أقصى حد ممكن، وتعاملوا بالنقد من أجل تسهيل التعامل الاقتصادي، والمعروف أن التبادل النوعي أو العيني كان سائداً في مصر بشكل واسع، وأقاموا نظاماً متطوراً للتعامل عن طريق المصارف التي عملت كوسيط بين الأفراد والحكومة.

السيطرة على الحياة الاقتصادية: عدَّ الملك البطلمي نفسه مالكاً فعليّاً لكل أراضي مصر بوصفه إلهاً ووارثاً للإله رع، ثم بحق الفتح بطريق الغلبة، كما تأكد هذا المفهوم بعد انتصار بطليموس الأول على برديكاس عام (٣٠٢ ق.م.) عندما هاجم مصر.

وبناءً على ما تقدم، قسَّم البطالمة أراضي مصر إلى قسمين هما: الأراضي الملكية وأراضي العطاء، ويندرج تحت القسم الأخير أنواع مختلفة من الأراضي مثل: أراضي المعابد، والإقطاعات العسكريَّة، وإقطاعات الموظفين، والأملاك الخاصة، والمدن.

شغلت الأراضي الملكية نسبة كبيرة من

المساحات الزراعية، وتكوَّنت من أملاك القصر الملكي وأراضي الأمراء المصريين السابقين وجميع الأراضي التي هجرها أصحابها أو سقطت عنها الملكية لسبب ما. وتتبع هذه الأراضي شخص الملك، وهي مقسَّمة إلى قطع صغيرة يديرها موظفو الملك نيابة عنه، وتقوم بزراعتها فئة ضخمة من المزارعين المصريين يُطلق عليهم فلاحو أو مزارعو الملك، وكانت تؤجر أحياناً لهؤلاء مقابل إيجارعيني من محصول الأرض.

وعمد الملوك البطالمة إلى منح المعابد بعض الأراضي، وهو تقليد درج عليه ملوك مصر منذ العصور القديمة، يديرها موظفون ملكيون بالاشتراك مع الكاهن الأكبر، وهي على نوعين:

الأول: مخصص للكهنة، يقومون بزراعته ويكون بمثابة راتب لهم.

الثاني: مخصَّص دخله للإنفاق على شؤون العبادة والمؤسسات الدينية.

وكانت المعابد تجبي ضريبة خاصة من مزارع الكروم والفواكه والخضراوات تُقدَّر بسدس المحصول وذلك مقابل خدماتهم الدينية، انتقلت في عهد بطليموس الثاني إلى خزينة الدولة.

ولما كانت المعابد تتمتع بثروة زراعية كبيرة، حرصت الدولة على إبقائها تحت رقابتها.

واعتمد البطالمة في تكوين جيوشهم على الجنود المقدونيين واليونانيين المرتزقة، فأقطعوهم بعض الأراضي ليستثمروها ويكون دخلها بمثابة راتب لهم، وقد تفاوتت من حيث المساحة وفقاً لرتب العسكريين. وكانت أصغر المساحات تلك التي تُمنح للجنود المصريين، لكن الوضع تغيَّر في الشطر الثاني من عهد البطالمة، فزادت المساحات المخصصة لهؤلاء.

ولجأ البطالمة إلى إقطاع كبار الموظفين مساحات من الأراضي بدلاً من منحهم رواتب نقدية منتظمة، وكان لهذه السياسة فائدة مزدوجة، فهي من ناحية توفر للدولة قدراً كبيراً من العملة الفضية، ومن ناحية أخرى كانت وسيلة ناجحة في زيادة رقعة الأراضي المزروعة، لأن هذه الإقطاعات تتكوَّن عادة من أراضي بور يقوم هؤلاء الموظفون باستصلاحها. وتُعَدُّ الإقطاعة بمثابة منحة من الملك، له أن يستردها عند ترك صاحبها المنصب الذي يشغله، وأبرز مثال على هذا النوع من الإقطاع تلك الضيعة التي منحها بطليموس الثاني لوزير ماليته أبوللونيوس في قرية فيلادلفيا، وقام بإدارتها زينون الذي عرَّفنا على جوانب مهمة من الحياة في مصر خلال هذا العهد.

وكانت الملكية الخاصة موجودة في مصر عندما دخل البطالمة إليها، واستمرت ونمت في ظل حكمهم. ويبدو أن الدولة أرادت أن تُشجع الأفراد على استثمار أموالهم في استصلاح الأراضي، فمنحتهم حق تملُّكها وأعفتهم من الضرائب في الخمس سنوات الأولى ثم تجبي منهم ضرائب مخفضة في الثلاث سنوات التالية قبل أن تجبيها منهم كاملة بعد ذلك.

وخصَّصت الدولة أراضٍ للمدن التي تتمتع بوضع المدينة اليونانية مثل الإسكندرية

وبطلمية، ويتمتع مواطنوها بحق تملكها، والمعروف أن تقاليد المدن اليونانية تقضي بتخصيصها مساحات من الأراضي الزراعية تكون تابعة لها.

التجارة: نظَّمت الدولة البطلمية الأوضاع التجارية في مصر وأشرفت على تنفيذها، فامتلكت جميع طرق القوافل والطرق المائية، وغصَّ نهر النيل بسفن الركاب والبضائع.

وأنشأ البطالمة أعظم أسطول تجاري في ذلك الوقت كان يجوب عباب البحر الأبيض المتوسط، وتبلغ حمولة السفينة الواحدة ثلاثمائة طن، واستهوت مخازن الإسكندرية التجارة العالمية.

وتُصدِّر الغلال التي تفيض عن حاجة السكان إلى الصين شرقاً وأواسط أفريقيا جنوباً وروسيا والجزائر البريطانية شمالاً، واستطاعت السفن المصرية أن تقضي على سيطرة العرب الجنوبيين على تجارة الهند مع بلاد الشرق الأدنى وذلك بإبحارها من النيل إلى الهند مباشرة، وأضحت الإسكندرية، بفضل تشجيع البطالمة وحكمتهم، أهم ثغور البحر الأبيض المتوسط. وسمحت الدولة باستيراد ما تحتاج إليه مصر من الخارج مقابل دفع ضريبة الجمارك المحددة، كما قامت مصر بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، فتستورد منتجات أفريقيا وآسيا وتُصدِّرها إلى أوروبا. ومما زاد من نمو التجارة وانتشارها ما قدَّمته المصارف المالية من تسهيلات، وكانت الحسابات تُدفع بتحاويل من أرصدة أصحابها في المصارف، وتقرض المصارف المال بالربا وتسدِّد حسابات الخزائن الملكية.

كان المشرفون على هذا النظام ومُنفِّذوه هم من اليونانيِّين المقيمين في العاصمة الإسكندرية وعلى رأسهم الملك الإله.

الصناعة: وسارت الصناعة وسط ظروف مماثلة لظروف التجارة، وكما كان الملك البطلمي المزارع الأول فقد مارس السياسة نفسها في مجال الصناعة، فكان هو الصانع الأول. وانطلاقاً من سياسة البطالمة الهادفة إلى سيطرة الدولة على الحياة الاقتصادية، احتكرت الدولة الصناعات كافة مع الاختلاف في درجة هذا الاحتكار بين التام والإشراف الجزئي.

فمن الصناعات التي خضعت لاحتكار الدولة الكامل صناعتا الزيت والملح. وتُعدُّ صناعة الزيت من أهم الصناعات حيث يجري استخراج زيت الزيتون والسمسم والقرطم والخروع، وهي مواد ضرورية في حياة الناس. واشتهرت مصر بصناعة المنسوجات من الكتان والصوف، وكان للدولة مصانعها، وسمحت بوجود مصانع خاصة تعمل تحت إشرافها، ومارست رقابة صارمة على مراحل إنتاج النسيج كافة. وازدهرت في مصر صناعات أخرى كثيرة مثل صناعة الورق من نبات البردي، وصناعة الفخار والزجاج والخمور والجعة والعطور والحلي والأحجار الكريمة.

وتركت الدولة الصناعات الصغرى للأفراد واكتفت بمراقبتها وشراء جزء كبير من منتجاتها بالسعر الذي تحدده مع فرض ضريبة على أرباحها. وتقوم هيئات من العمال بالصناعات اليدوية، ويتوارثها الأبناء عن الآباء بحكم التقاليد المرعية.

تعقيب على النظام الاقتصادي

لقد أدخل البطالمة على الحياة الاقتصادية في مصر كثيراً من الرقي في النواحي الفنية والإدارية، فازدادت ثروة البلاد، لكنهم استولوا على ما زاد منها. ورفعت الدولة أثمان الغلال التي كانت تحتكرها، ومنعت المنافسة الأجنبية بفرض رسوم جمركية مرتفعة، وجبت الضرائب وإيجار الأراضي والرسوم الجمركية وعوائد المرور على الطرق، وكان الفلاح يؤدي رسوماً على امتلاك الماشية وعلى أعلافها، ويؤدي ملّاك الحدائق والكروم والبساتين للدولة سدس منتجاتهم، ارتفعت إلى النصف في عهد بطليموس الثاني، كما يؤدي السكان، باستثناء الجنود ورجال الدين وموظفي الحكومة، ضريبة الرؤوس. وفرضت الدولة ضرائب على الملح والمحررات الرسمية والمواريث، وعلى الإيجارات خمسة في المائة، وعلى المبيعات عشرة في المائة من أثمانها، وعشرين بالمائة على الأسماك المصطادة في المياه المصرية، وعوائد على البضائع التي تنقل في النيل، كما فرضت رسوماً وضرائب مرتفعة على الصادرات والواردات في الثغور المصرية، وضرائب خاصة للإنفاق على الأسطول والمنارة البحرية، وللترفيه عن الأطباء ورجال الشرطة ولشراء تاج من الذهب لكل ملك جديد.

والخلاصة أن الدولة لم تترك شيئاً تستفيد منه إلا فرضت عليه ضريبة، وكان هناك جيش من الموظفين والكتبة يسجّلون الأشخاص والأملاك بهدف إحصاء الحاصلات والإيرادات والعمليات المالية والتجارية التي يصح فرض الضرائب عليها.

والراجح أن مجموع إيرادات البطالمة نقداً وعيناً كان أكبر ما جمعته دولة من الدول في المدة بين سقوط الدولة الفارسية وعظمة روما.

النظام العسكري

الجيش: اعتمد البطالمة، في بداية حياتهم السياسية، على الجنود المرتزقة من المقدونيين واليونانيين بالإضافة إلى الوافدين على مصر من الممالك الهلينية، وذلك لأنهم لم يثقوا بالجنود المصريِّين، وأسكنوهم في الأراضي المصرية، فكوَّنوا بذلك جيشاً جديداً محليّاً يتمتع بميزات الجنود المرتزقة، يتألف من المشاة والفرسان مُقسمين إلى كتائب تُدعى بالأولى والثانية والثالثة... إلخ.

وتُعدُّ فرقة الفرسان أعظم فرقة من حيث الجاه الأرستقراطي. ويُقسم الجنود المشاة إلى سرايا تُسمى بأسماء البلدان التي أتوا منها، ويُشرف على سكن الجنود الأجانب موظفون خاصُّون ويُحدِّدون لهم إقطاعاتهم. ويسكن الجندي مع أسرته في إقطاعته ويقوم بزراعتها في وقت السلم ويشترك في القتال في زمن الحرب، وأضحت الخدمة العسكرية وراثية في هذه الأُسر.

ومما شجَّع الجنود المرتزقة على البقاء في خدمة الجيش، زواجهم من المصريات، وقد نشأ عن التزاوج جيل شبَّ على التقاليد العسكرية، وشكَّل مورداً دائماً للجيش. وضمن هذا النظام العسكري للبطالمة جيشاً مدرَّباً ودائماً لكنه لم يستمر على هذا الحال، إذ أخذ عدد جنوده يقلُّ شيئاً فشيئاً في القرن الثاني قبل الميلاد بسبب نقصان مساحة الأراضي الزراعية المخصَّصة لكل جندي،

فاضطر البطالمة إلى الاعتماد على الجنود المصريين الذين أخذ عددهم يزداد بشكل بارز. واتَّبع البطالمة الخطط والأنظمة نفسها، القتالية واللوجستية، التي كان يتبعها ملوك مصر مع فروق طفيفة لعل أهمها استعمال الفيلة في حروبهم، ويبدو أنهم اقتبسوا ذلك من السلوقيين.

الأسطول: كان لزاماً على البطالمة، للمحافظة على أملاكهم فيما وراء البحار، وحماية الإسكندرية وتجارتهم الخارجية والتفوق على خصومهم من الدول الأخرى؛ أن يكون لهم أسطول كبير، فبنوا السفن. وكان بطليموس الثاني يملك سفينتين في كل منهما ثلاثون صفّاً من المجذفين. وأمر بطليموس الثالث ببناء سفينة تحتوي على أربعين صفّاً من المجذفين يبلغ طولها مائتين وثمانين ذراعاً، وزيَّنها بأشكال فخمة في المقدمة وزخرفها بأكاليل من أزهار مختلفة، وتحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف مجذف، وتحمل ثلاثة آلاف جندي، لكن البطالمة فقدوا بعد ذلك سيادتهم البحرية، وعلى ذلك لم تكن هذه السفينة سوى سفينة استعراض.

والواقع أن كل ما نعرفه عن الأسطول البطلمي مستخرج من تاريخ حروب البطالمة. ففي القرن الثالث قبل الميلاد لم يخض البطالمة حرباً إلا ظهرت فيها السفن لحماية جيوشهم البرية خلال زحفها بمحاذاة الساحل. وبلغ عدد سفن الأسطول، الذي حارب فيه بطليموس الأول الملك ديمتريوس في معركة سلامين في رودس، مائتي سفينة. وفي عام (٢٩٦ ق.م.) أرسل هذا الملك البطلمي مائة وخمسين سفينة لاحتلال أثينا. والمعروف أن حماية سيطرة البطالمة في عهده على ساحل آسيا الصغرى كانت من وظيفة الأسطول. وبعد أن ضمن بطليموس الثاني السيطرة على كاريا وليسيا أقلع بأسطوله إلى الساحل وحرَّض المدن اليونانية على الخروج على حكم أنطيوخوس، واتخذ من جزيرة ساموس قاعدة له، فهدَّد بذلك كلّاً من ميليتوس وأفيسوس، ووزَّع على امبراطوريته فيما وراء البحار أكثر من أربعمائة سفينة لحماية المدن التي كان يسيطر عليها، ولكن على الرغم من الجهود التي بذلها هذا الملك، فإن الأسطول البطلمي تلقَّى هزيمة قاسية على يد أنتيغونوس في عام (٢٥٦ ق.م) بالقرب من كوس، وشكَّلت هذه المعركة وتلك الهزيمة نهاية السيادة البحرية للبطالمة في بحر إيجة.

الحياة الدينية

كانت مصر، منذ القرن السابع قبل الميلاد، قبلة اليونانيين الذين توافدوا عليها بوصفها مركزاً للعلوم والمعارف. وقد حتَّمت مقتضيات الأوضاع السياسية، منذ بداية عهد البطالمة على اليونانيين تكثيف وجودهم في مصر، وقد جاءوا إليها حاملين معهم معتقداتهم الدينية ما دفع بطليموس الأول إلى إيجاد حلٍّ يوفِّق به بين العقيدتين الدينيتين المصرية واليونانية، وقد رأى من حسن السياسة ألاَّ يحكم البلاد على غير رضى أهلها؛ فاتَّبع نظام الحكم الفرعوني القائم على أن الفرعون هو إله بنظر الشعب، وأنه ابن رع أو ابن أمون رع ووارثه، وبهذه الصفة

يكون حاكم مصر إلهاً. والمعروف أن الإسكندر الكبير اعتنق هذه العقيدة وتبنَّاها بطليموس الأول الذي كان حريصاً على التأكيد على انتسابه للإله أمون، وحمل لقبين من ألقاب الفراعنة، فأدخل بذلك نفسه ضمن أعضاء الأسرة الإلهية. وتأكيداً على احترام ديانة المصريين قدَّم القرابين للآلهة المصرية وأعاد تماثيلها التي كان الفرس قد استولوا عليها أثناء احتلالهم مصر، واهتم بإنشاء المعابد، مثل معبد الإله حورس في إدفو ومعبد إيزيس في فيلة، ثم ربط بين الآلهة المصرية والآلهة اليونانية، بين سيرابيس وزيوس كبير الآلهة عند اليونانيين، وبين حورس وأبوللو، وبين حتحور وأفروديت ربة الجمال عند اليونانيين، ووحَّد بين عبادة أوزيريس وديونيسوس.

والواقع أن شعائر عبادة الإله ديونيسوس تتماشى في معظمها مع شعائر عبادة الإله أوزيريس في منف، وهو الذي سماه اليونانيون سيرابيس، فتلقاه بطليموس الأول ليكون نواة للديانة التوفيقية المشتركة التي أراد أن يجمع حولها سكان مصر الوطنيين منهم واليونانيين الوافدين. وأقام البطالمة معبداً لسيرابيس في منف على طراز المعابد المصرية المعهودة، ولما نقلت عاصمة المملكة إلى الإسكندرية أُقيم له معبد فيها وأضحى صاحب الكلمة الأولى.

لم يتحرَّج موقف اليونانيين الوافدين من تقبُّل المعتقدات المصرية القديمة بفعل أنها كانت قد نفذت إلى أفكارهم في صور مختلفة، وبخاصة أن العلاقة بين مصر وبلاد اليونان لم تنقطع أسبابها منذ منتصف القرن السابع قبل الميلاد، فانتشرت عبادة سيرابيس بسرعة في العالم الأيوني، وأضحى سيرابيس إلهاً وطنيّاً ضَمِنَ لملوك البطالمة حكم مصر، وأقيمت له المعابد في أمهات المدن المصرية مثل منف وطيبة والإسكندرية. ونشر البطالمة ديانة أوزيريس الذي تزوج من إزيس وأنجبا الإله الطفل حور، وهي ديانة ترتكز على هذا الثالوث الإلهي.

والحقيقة أن سيرابيس قُدِّم لليونانيين في صورة إله يوناني، ونظر المصريون إليه بوصفه إلههم القديم أوزيريس، أبيس. واهتمت الدولة اهتماماً كبيراً بالديانة الجديدة وأنشأت معابد لها عُرفت باسم السيرابيوم لعل أشهرها المعبد الذي أقيم في الإسكندرية، وانتشرت هذه الديانة في أنحاء كثيرة من العالم المعروف آنذاك.

وكان دور إزيس على جانب كبير من الأهمية وبخاصة من الوجهة الإنسانية. والواقع أن هذه الإلهة كانت تحمل أسماء عدة وتُعدُّ أعظم إلهة بين الآلهات الهلّينية، والمرأة المؤلهة في كل أنحاء العالم المعروف، واكتسحت عبادتها بلدان البحر الأبيض المتوسط بقوتها وسلطانها. وعندما انتشرت الديانة النصرانية بعد انتصارها على الوثنية وأطاحت بتماثيل الآلهة، نجد ان إزيس وحدها ظلت محتفظة بسلطانها. وقد أُدخلت عبادة العذراء قبل تخريب السرابيوم، ومن ثم انتقل عبَّاد إزيس إلى عبادة أم أخرى بدليل أن تماثيل إزيس قد استُعملت لمريم العذراء.

وأدرك البطالمة في بادئ الأمر ما لرجال الدين الكهنة في مصر من أهمية، فأظهروا احترامهم لهم، إلا أنهم كانوا يخشون من

زيادة نفوذهم، لذلك حرصوا على أن ينحصر دورهم في ممارسة الشعائر الدينية وإعداد الفرد لعالم الآخرة، وأن يكونوا تحت رقابتهم، فعينوا موظفين مدنيين لمراقبة نشاطهم.

وحرص رجال الدين من ناحيتهم على إظهار ولائهم للملوك البطالمة، فكانوا يعقدون اجتماعات سنوية يصدرون في أعقابها مرسوم الولاء لهم، ومن أشهر تلك المراسيم قرار كانوب الذي أصدره رجال الدين في عهد بطليموس الثالث في عام (٢٣٧ ق.م)، وكذلك القرار الذي صدر في عهد بطليموس الخامس في عام (١٩٧ ق.م). وهكذا نجح البطالمة الأوائل في تحجيم دور رجال الدين.

لكن ما حدث في الشطر الثاني في عهد البطالمة من ضعف السلطة المركزية؛ دفع رجال الدين إلى محاولة الحصول على مزيد من الامتيازات والمكاسب. وحرص البطالمة الأواخر من ناحيتهم على إرضاء هؤلاء، غير أن رجال الدين انقسموا في موقفهم من البطالمة.

ففي حين حافظ رجال الدين في منف في الشمال على علاقتهم الطيبة بالملوك، نجد أن رجال دين أمون في طيبة، ناصبوهم العداء وراحوا يُحرِّضون المصريين على الثورة ضدهم.

وانتشرت في مصر في العهد البطلمي عبادة الأولياء والشهداء، كما ازدادت عبادة الحيوان مثل التمساح، ويُعدُّ من يلتهمه شهيداً، ومن يقتل حيواناً مفترساً متعمداً يُعاقَبُ بشدة، ومن يقتل الطائر أبو منجل الذي يتقمصه الإله تحوت أو يقتل صقراً يُعاقب بالموت. وازدادت أيضاً عبادة الثيران وبخاصة العجل بوخيس. وخصَّص المصريون لكل من الحيوانات المقدسة، مكاناً خاصّاً لإطعامها وبنوا لها مدافن خاصة، حيث تحفظ بعناية وتوضع في توابيت من الخشب أو الفخار، وجاء في النقوش ذكر بيت البقرة ومدافن القطط، ويقوم على خدمة هذه الحيوانات المقدسة ملاحظون ومحنطون خاصون.

وعاش في مصر إلى جانب المصريين واليونانيين العديد من العناصر الأجنبية لعل أبرزهم اليهود، فانتشروا في سائر أنحاء البلاد وشغلوا حيّاً بأكمله في الإسكندرية، وقد سمح لهم البطالمة بممارسة شعائرهم الدينية، بل إن بطليموس الثاني أمر بترجمة كتبهم المقدسة إلى اللغة اليونانية، وهي الترجمة المعروفة بالترجمة السبعينية. ولم يتعرض اليهود للاضطهاد إلا في حالات نادرة، كما اتبع البطالمة سياسة التسامح الديني مع العناصر الأخرى مثل الفرس والسوريين والعرب.

الحياة الثقافية والفنية

اهتم البطالمة بالعلوم والمعارف اهتماماً كبيراً، وقد حرصوا من خلالها على توطيد مركزهم السياسي، فاتخذوا من النشاط الثقافي دعامة سياسية، ومن ثَمَّ وجهوا دار العلم والمكتبة لتؤدي إلى جانب الهدف الثقافي، هدفاً آخر هو التدعيم الأدبي لدولتهم عن طريق الدعاية لعاصمتها الإسكندرية، وجعلها قاعدة ثقافية يتقاطر إليها العلماء من كل أنحاء العالم آنذاك. فانشأوا معبد آلهات الفنون الحرة وهو المتحف (الميوزيوم)،

وألحقوا بـه مكتبـة عامـة كبيرة جمعـوا فيها الكتـب بكميـات هائلـة، ويرجـع الفضـل إلـى بطليموس الأول في تأسيس هذا الصرح العلمي الـذي عهـد إلـى المفكـر والسياسـي الأثيني ديمتريوس الفاليري بمهمة التصميم والتنفيذ، وكان لذلـك الأثـر الكبير في اجتـذاب العلماء والدارسيـن من شتَّـى أنحاء العالـم المعروف آنـذاك أمثال: إقليـدس، الذي وضـع كتاباً في الهندسـة، وأرخميدس، صاحـب قانون الطفو. وبرع علماء الإسكندرية في التشريح والجراحة، ونالـت الدراسـات الجغرافيـة اهتمامـاً كبيراً بفضل تشجيع البطالمـة، فتوصل أرستارخوس إلى نظريـة دوران الأرض حول الشمس، ونجح أراتوستثيس في قياس محيط الكرة الأرضية، كما لقيت الدراسات التاريخية الاهتمام نفسه، فقد وضـع الكاهن المصري مانيثون كتابه عن تاريـخ مصـر القديم باللغـة اليونانيـة. وشهد الأدب ازدهاراً كبيـراً، واشتهر من شعراء هذا العصـر وأدبائـه كاليماخـوس وثيوكريتـوس وأبوللونيـوس الرودسـي الذيـن وضعـوا أسس النقـد الأدبـي، وأضحـى علـى كل مثقـف في العالـم أن يلـمَّ بتطـور الإنتـاج الأدبـي فـي الإسكندريـة، وأُطلق على الأدب اليوناني برمته في هذه الحقبة اسم الأدب الإسكندري، وذلك لشـدة تأثير مدرسـة الإسكندرية علـى الإنتاج الأدبي في العالـم، ولعل أعظم الإنجازات التي تحقَّقـت نشـر ملاحـم هوميـروس وتاريـخ هيرودوت.

وترتبـط بـدار العلـوم مكتبـة الإسكندرية المشهورة، وأول من تولـى رئاستها ديمتريوس الفاليري، أحد تلاميذ أرسطو، ومن أشهر من تولـى هـذا المنصـب فيمـا بعـد الشاعـر كاليماخوس أو الجغرافـي أراتوستثيس. وكان آخرهـم أرستارخـوس، الـذي نشر مـا أنتجه اليونانيون المبكرون من هوميروس إلى بندار. وبفضل الرعايـة المستمـرة للبطالمة أضحت مكتبـة الإسكندريـة أعظـم مكتبـات العالـم القديم. فقد عمد بطليموس الثاني إلى إرسال البعثـات إلى بـلاد اليونـان من أجـل إحضار المخطوطـات، كمـا أصـدر بطليمـوس الثالث قراراً يقضي على كل قادم إلى الإسكندرية أن يقـدم ما لديه مـن المخطوطات إلـى مكتبتها حيث يقـوم النساخ بنسخهـا وإعطاء صاحبها نسخة منها مـع الاحتفاظ بالنسخـة الأصلية، وقـد بلـغ عـدد المخطوطـات التـي احتوتهـا المكتبـة مـا يقرب مـن نصـف مليـون لفافة بردية، واحتـوت مكتبة الإسكندرية، إلى جانب المخطوطـات اليونانيـة، مخطوطـات بلغـات أخرى مثل الفينيقية وربما الهندية. ظلت هذه المكتبة تقـوم بدورها بنجاح إلـى أن تعرضت للتدميـر فـي عـام (٤٨ ق.م) خـلال حـرب الإسكندريـة بين يوليـوس قيصـر وبطليموس الثالث عشر.

وأنشـأ البطالمة، إلى جانب هـذه المكتبة الكبـرى، مكتبـة أخـرى أصغـر منهـا أُلحقت بمعبـد السيرابيوم، وقـد سلمت مـن التدمير بفضـل وجودها في حرم المعبد الذي كفل لها الحمايـة، وانتقل إليها مركـز النشاط العلمي. وبعـد انتصار النصرانية علـى الوثنية، أصدر الامبراطـور الرومانـي ثيودوسيـوس فـي عام (٣٩١م) قـراراً بتدمير المعابد الوثنية، فدمَّر معبـد السيرابيـوم ومحتوياتـه، وعندما دخل المسلمون إلى مصر كانـت مكتبة الإسكندرية قد اندثرت وزالت من الوجود.

واشتهرت الإسكندرية بمنارتها التي أقيمت في جزيرة فاروس، وهي من عجائب الدنيا السبع، بدأ العمل بإنشائها في عهد بطليموس الأول على يد سوسترانوس من كنيدوس، واكتمل بناؤها في أوائل عهد بطليموس الثاني، وتمَّ تكريس العمل إلى بطليموس الأول وزوجته الإلهين المنقذين، وكان الهدف من بنائها تأمين البحارة وسفنهم في عرض البحر، وقد بُنيت على شكل برج يتألف من ثلاثة طوابق يبلغ ارتفاعها حوالي مائة وعشرين متراً، واحتوى الطابق الثالث المصباح المرتكز على ثمانية أعمدة وتحته نار خشب راتنجي، ومن المحتمل أن النور كان ينعكس بواسطة مرآة مقعَّرة كانت تضيء الطريق للسفن إلى مسافة ثلاثة أميال.

وتُعدُّ الأعمال الفنية التي وُجدت في مصر في العهد البطلمي، مثل صناعة التحف الدقيقة والتماثيل والصور، من الدرجة الثانية، وكان شعر التماثيل يُعمل من الجبس لكن بولغ في نعومة بشرة الجلد.

والواقع أن قيمة الأعمال الفنية في العهد البطلمي اقتصرت على صنع القطع الفنية الدقيقة والصغيرة، ويمكن القول بأن الإسكندرية هي التي اخترعت الفسيفساء والنقش على الأحجار الكريمة، بشكل بارز، وعلى الرغم من أن المثالية في الفن الإسكندري لم يكن لها نصيب، فإن المدينة كانت تحتوي على تمثال الإله سيرابيس الذي ينم عن مثالية فنية في القوة والجمال وقد صُنع في أيام بطليموس الأول، ولُوِّن باللون الأزرق، ورُصِّعت عيناه بجوهرتين لتلمعا في أرجاء المعبد المظلم، وقد وُصِفَ التمثال بأنه لطيف عليه جلال ورهبة، وَوُضِعَ على رأسه مكيال قمح رمزاً لمصر بوصفها مخزن الغلال الكبير.

الخلاصة

مُنيت الإدارة اليونانية في مصر في العهد البطلمي بفشل ذريع في الحقول السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، ويكمن ذلك في أسباب داخلية. فالصعوبات الجدية لم تأتِ من الهزائم التي تعرض لها البطالمة من العدو الخارجي، بل جاءت من داخل مصر، وذلك بفعل:

- عدم اندماج الرعايا المصريين والإغريق بشكل يحقق مصلحة الطرفين.
- توظيف جميع الوسائل الفنية والبشرية والمادية الضرورية لبلوغ الهدف.
- الاستثمار الأناني الذي ساد هذا النظام عند التطبيق العملي، لأن البطالمة أبقوا على النظام الفرعوني بوصف الفرعون ملكاً وإلهاً له حق كامل على الأرض وما تنتجه، فلم يسعوا إلا إلى زيادة مواردهم الخاصة لمصلحة الملك والحاشية، مستغلين ظروف احتلالهم للبلاد وسكانها وذلك بدلاً من استخدامها لرفع مستوى حياة الوطنيين الذين يشكلون غالبية السكان والطبقة الكادحة المغلوب على أمرها.
- عمومية الضرائب المفروضة، ذلك أن الدولة لم تترك شيئاً إلا فرضت عليه ضريبة.
- فشل عملية الأغرقة في مصر فشلاً تامّاً مع المصريين بسبب تمسك هؤلاء الذين يقطنون خارج الإسكندرية بنظمهم الدينية والاجتماعية، فكانوا ينظرون إلى اليونانيين كفاتحين ومحتلين.

- عدم اهتمام اليونانيين بإقامة مدن يونانية جنوبي الوجه البحري أو بتعلم لغة المصريين، كما أن قوانينهم لم تعترف بالزواج بين اليونانيين والمصريين.

- فشل الملوك البطالمة في توحيد الديانتين المصرية واليونانية، والقول بأن سرابيس وزيوس إله واحد، كما جرَّدوا الكهنة من ثرواتهم وسلطتهم، فكانوا يعيشون على الإنعامات التي تقدمها لهم الدولة، فصبروا بانتظار انحسار الموجة اليونانية.

- تغلّب النزعة الصوفية على الصبغة اليونانية وهي التي وضعت أسس الأفلاطونية الجديدة وتلك الطقوس المتنازعة فيما بينها لاستقطاب نفوس الإسكندرانيين في القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي والتي أحاطت بميلاد المسيح، وأضحى أوزيريس في صورة سيرابيس الإله المحب للمصريين وللكثيرين من اليونانيين، واستعادت إيزيس مكانتها بوصفها إلهة النساء والأمومة، ولما دخلت النصرانية إلى مصر لم يتورَّع الكهنة من استبدال مريم بإيزيس والمسيح بسيرابيس.

لكن البطالمة أثْروا الناحية الثقافية في مصر من خلال إنشاء دار العلوم والمكتبة على الرغم من أنهم وجهوهما ليؤديا، إلى جانب الهدف الثقافي، هدفاً آخر هو التدعيم الأدبي لدولتهم عن طريق الدعاية لعاصمتها الإسكندرية وجعلها قاعدة ثقافية تستقطب العلماء.

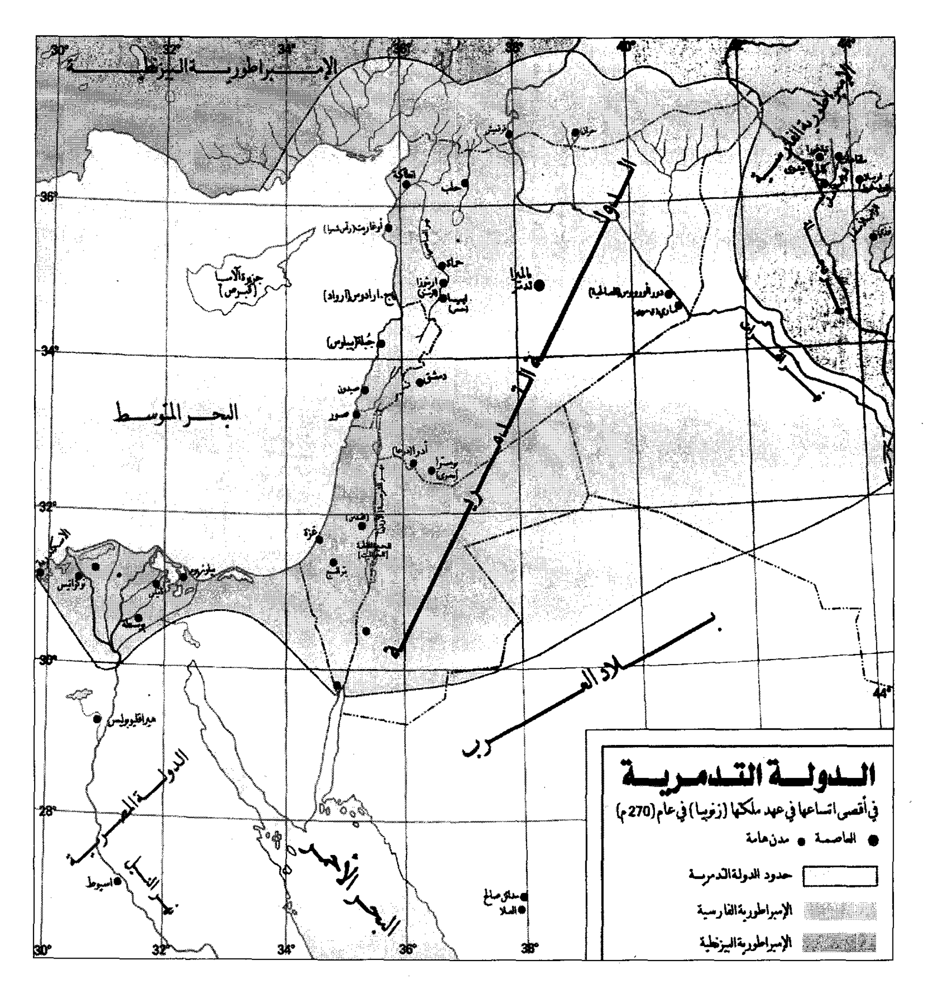
واشتهرت الإسكندرية بمنارتها البحرية التي بُدئ العمل بإنشائها في عهد بطليموس الأول لتأمين البحارة وسفنهم في عرض البحر، ولا تزال هذه المنارة تعمل إلى يومنا هذا مع التطوير الذي طرأ على بنائها وتجهيزاتها.

المصادر والمراجع

- حسن، سليم: **مصر القديمة، الجزءان ١٤، ١٥**، القاهرة
- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة، المجلد الثاني، الجزء الثالث**، ترجمة محمد بدران، القاهرة.
- العبادي، مصطفى: **مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي**، القاهرة،
- نصحي، إبراهيم: **تاريخ مصر في عهد البطالسة**، ط ٢، القاهرة.
- Fruser, P.M. **Ptolmaic Alexandria**.
- Grant, Michael: **From Alexander to Cleopatra**.
- **The Hellenic World**.
- Herodotus: **History**. Trans. by Rowlinson. London, 1862.
- **Polemaic Egypt**, in Cambridge Ancient History vol VII.
- Rostovtzeff, M. - **The Social and Economic History of the Hellenistic World**. Oxford, 1941.
- Tarn, W.W: **Hellenistic Civilizations**, London, 1927.

الحضارة التدمرية

أ. د. محمد سهيل طقوش



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

موقع تدمر

قامت تدمر في طرف بادية الشام حول نبع ماء على بُعد مائة وستين كيلومتراً جنوب شرقي حمص ومائتين وخمسين كيلومتراً شمال شرقي دمشق، في مكان وسط يكاد يُمثل همزة وصل بين أراضي الفرات الشمالية الغربية الخصبة وأراضي الشام الشمالية الشرقية، وهذا ما جعل منها مركزاً تجاريّاً متميزاً وملتقى للقوافل التجارية التي تصل بين العراق والشام.

تدمر عبر تاريخها

تدمر اسم عربي، وهو تحوير لكلمة «تتمر» الآرامية التي تعني المدينة التي يكثر فيها النخيل، وعُرفت عند الكتّاب اليونان والرومان باسم بالميرا، وهي مشتقة من كلمة «Palma» اللاتينية ومعناها النخيل، وسكان تدمر عرب.

ينسب الإخباريون العرب بناء تدمر إلى شخصية خرافية هي تدمر بنت حسّان بن أُذينة بن السميدع، التي يرتفع نسبها إلى سام بن نوح. وتنسب المصادر العبرية بناءها إلى النبي سليمان بن داود، وهذا خلط وتحريف لأن ملكه لم يمتد إلى هذه البلاد البعيدة عن حدود مملكته.

إن تاريخ تدمر موغل في القدم، فقد ورد ذكرها لأول مرة في نقش اكتشف في مسكنة على الفرات يعود تاريخه إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وفيه أول طبعة ختم تدمرية معروفة حتى الآن. وبدأت المدينة تبرز كمحطة تجارية مهمة على طريق القوافل التجارية بين العراق والشام بعد قيام الدولة الأخمينية الفارسية في القرن السابع قبل الميلاد، وعندما خضعت للإسكندر المقدوني لم يهتز مركزها التجاري، وظلت محتفظة بمكانتها التجارية في أيام السلوقيين، خلفاء الإسكندر المقدوني.

وما حدث بعد ذلك من قيام الدولة البارثية في إيران والعراق وانتصارها على السلوقيين؛ سبَّب أضراراً جسيمة لاقتصاد تدمر لأنه فصل بين العراق والشام، وعندما سيطر الرومان على بلاد الشام وفلسطين ومصر وهادنوا الدولة البارثية، عادت التجارة الشرقية تمر بتدمر، وراجت رواجاً كبيراً.

علاقة تدمر بروما في القرون الأولى للميلاد

لعل أول مناسبة تُذكر عن علاقة الامبراطورية الرومانية بتدمر جرت في عام ١٧م على عهد الامبراطور طيباريوس (١٤ ـ ٣٧م). فقد أصدر هذا الامبراطور قراراً في السنة المذكورة يتعلق بالجمارك الخاصة بهذه المدينة، وهذا يعني أن تدمر كانت آنذاك داخلة في نفوذ روما.

والحقيقة أن تدمر كانت تقع في منطقة قرب الحدود الفاصلة بين الامبراطوريتين الفارسية والرومانية، بين وادي الرافدين الذي يسيطر عليه الفرس شرقاً وبين سوريا التي يسيطر عليها الرومان غرباً، وقد حدَّد هذا الموقع المتميز شكل العلاقة بينها وبين الامبراطوريتين، بحيث يُتيح لها نقل ولائها للطرف الذي يضغط عليها أكثر من الطرف الآخر.

وأسس الامبراطور تراجان (٩٨ ـ ١١٧م) فرقة تدمرية نظامية مساعدة في الجيش

الروماني، وأقام حامية رومانية في المدينة، واعتنى بالطرق المؤدية إليها، وعيَّن ممثلاً لروما فيها يتخذ القرارات المهمة في حين لم يكن لمجلسي الشيوخ والشعب سوى سلطات محدودة.

وانتقلت تدمر من النفوذ الروماني غير المباشر إلى تبعية واضحة على عهد الامبراطور هادريان (١١٧ ـ ١٣٨م) الذي بذل عناية كبيرة بوضع المدينة، نظراً لحاجة الامبراطورية إلى التجارة مع الفرس. وهكذا أضحت تدمر مستعمرة رومانية، ولكن ذلك لا يعني أنها أصبحت ولاية رومانية بل كانت في الواقع حكومة مستقلة ذات سلطة تتمتع بقدر من الحرية في إدارة شؤونها، خاضعة خضوعاً شكليّاً لحكم الرومان.

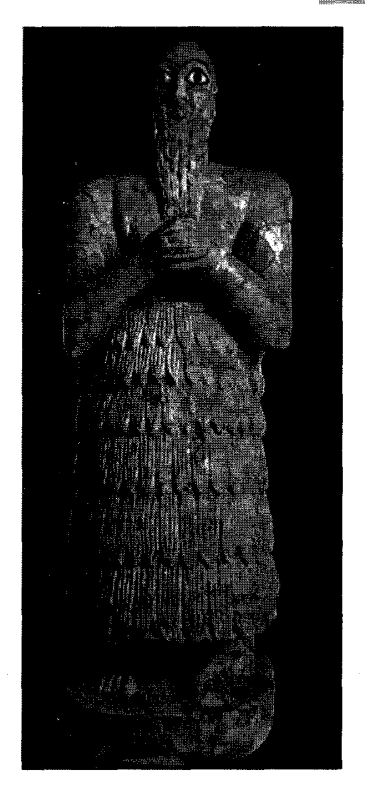
وبدأت تدمر تأخذ طابعها الروماني منذ عهد الامبراطور كركلا (٢١١ ـ ٢١٧م) الذي ربط الامبراطورية بمستعمراتها عن طريق منح الجنسية الرومانية لجميع سكان هذه المستعمرات ومنها تدمر، وأخذ التدمريون يضيفون إلى أسمائهم العربية أو الآرامية، أسماء رومانية أو يونانية، مثل اسم سبتيموس الذي أضافته الأسرة الحاكمة التي ينتمي إليها الملك أُذينة.

استغلت تدمر السلام الناتج عن التفاهم الفارسي ـ الروماني، منذ عهد الامبراطور هادريان، فوسَّعت تجارتها عبر الفرات وأقامت معبداً في بابل، وعلى الرغم من انتمائها المعلن للمعسكر الروماني إلا أنها أقامت علاقات وثيقة مع قبائل العرب في منطقة النفوذ الفارسي بل ومع الفرس أنفسهم بهدف تأمين تجارتها.

ومع بداية القرن الثالث الميلادي تعاظمت قوة تدمر حتى أن التدمريين سيطروا على قسم من أراضي الشرق الهلِّيني قبل الحرب التدمرية ـ الرومانية، مثل مصر وآسيا الصغرى، ويمكن القول بأن النشاط الروماني في القرن المذكور لم يكن منفصلاً عن الحيوية التدمرية، وذلك أن علاقة أسرة ساڤيروس، التي استولت على العرش في روما منذ عام ١٩٣م، بمدينة حمص التي كانت تتحكَّم بالمنفذ الوحيد لطريق تدمر المباشر إلى البحر الأبيض المتوسط، واهتمام هذه الأسرة بتحسين الوحدات العربية داخل الجيش الروماني، مثل الرماة والهجانة، وكذلك اهتمام فيليب العربي بالمقاتلين البدو؛ كل ذلك أسهم في تعاظم قوة تدمر، وقد رافق ذلك ظهور الوحدات التدمرية بقوة في نظام الحاميات الرومانية عند نهر الفرات، وانقلاب في دولة الفرس انتقل بنتيجته الحكم من البارثيين إلى الساسانيين في عام ٢٢٦م، وقد ورثوا العداوة القديمة بين فارس واليونان مع اختلاف الخصم، بعد أن حلَّ الرومان في ربوع الشرق الأدنى.

تدمر في أوج قوتها

كان التنازع على مناطق الأطراف والسيطرة على الطرق التجارية من أهم أسباب النزاع الساساني ـ الروماني، وانتهز الأعراب هذا النزاع فأغاروا على القوافل التجارية والمناطق الحضرية، وأُسر الامبراطور الروماني ڤاليريان في عام ٢٦٠م، ما وضع الامبراطورية الرومانية أمام موقف صعب كاد أن يقضي على جناحها الشرقي،



تمثال الملك باكون شاماجان

فازدادت حاجة روما إلى تدمر وقوتها العسكرية وقدرتها على ردع الأعراب، فألَّفت كتائب عربية للقتال في البوادي. وكانت تدمر قد بلغت آنذاك ذروة قوتها الاقتصادية، وقوي جيشها وتوطدت مكانتها، ومع ذلك فقد تعرَّضت تجارتها واستقلالها للأخطار بفعل المتغيرات السياسية والعسكرية الناتجة عن اجتياح الساسانيين بلاد ما بين النهرين وأجزاء واسعة من سوريا وآسيا الصغرى، فنهض التدمريون للتصدي للغزاة وإعادة حركة التجارة بين تدمر والخليج العربي من جهة، وسوريا وموانئ البحر الأبيض المتوسط من جهة ثانية، وتطلَّبت هذه السياسة التدمرية الجديدة توثيق علاقة الحكومة التدمرية السياسية والعسكرية بروما التي قدَّمت لها المساعدات العسكرية والمالية للدفاع عن مصالحهما المشتركة.

كان على رأس الإمارة التدمرية آنذاك أسرة أُذينة، وهي أسرة وطنية عريقة نذكر من بين أفرادها:

سبتيموس حيران، أو خيران: ثبَّت سبتيموس حيران حكم أسرته ووسَّع تجارة المدينة، ورافق الامبراطور الروماني سبتيموس ساڤيروس خلال حروبه ضد البارثيين الفرس فاكتسب بذلك منزلة كبيرة عند أهل تدمر وعند الرومان، فلُقِّب برأس تدمر.

أُذينة: خلف أُذينة سبتيموس حيران بعد وفاته، فأخضع القبائل المجاورة ووضع خطة للتوسع، واكتفت روما بالتبعية الاسمية تاركة له قدراً من الحرية والاستقلال. وحتى يُجنِّب بلاده ويلات الحروب ويحافظ على تجارتها، حاول التفاهم مع الفرس، لكن تعنُّت الامبراطور الفارسي، سابور الأول، أفشل هذه المحاولة وأدى إلى الصدام المسلح بين الطرفين رجحت فيه كفة أُذينة، فكافأه الامبراطور الروماني غالينيوس بن ڤالريان بأن أنعم عليه لقب «قائد عام على جميع جيوش الشرق»، كما منحه لقب امبراطور على جميع بلاد المشرق، وتضم سوريا والبلاد العربية الشمالية وربما أرمينيا، ولقَّب نفسه بلقب «ملك الملوك». وفي الوقت الذي وصل فيه أُذينة إلى ذروة مجده تعرَّض لمؤامرة أودت بحياته في عام ٢٦٧م.

الزباء، زنوبيا: خلف وهب اللات أباه

أُذينة وكان قاصراً، فتولت والدته الزباء الوصاية عليه، وهي إحدى الشخصيات المهمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم، فما إن تولت السلطة حتى وضعت نصب عينيها المحافظة على مكتسبات زوجها والتوسع باتجاه الجنوب والشمال على حساب الرومان والسيطرة على الطرق التجارية، وقد ساعدها على ذلك القوة العسكرية الهائلة التي تركها لها زوجها وثقافتها العالية. وأجمعت المصادر التي تعرَّضت لذكرها، على أنها كانت على قدر كبير من الذكاء وسعة الحيلة، قديرة على إدارة شؤون البلاد.

عمدت الزباء، قبل الشروع في حروب التوسع، إلى تأمين جبهتها الشرقية مع الفرس وتحصينها ضد غاراتهم، فبنت على الفرات الحصن الذي يحمل اسمها.

لم يكن الرومان بغافلين عن تطلعات الزباء التوسعية وقرَّروا مهاجمتها قبل أن تبدأ بتنفيذ مشروعاتها، إلا أنها تغلَّبَت على الجيش الروماني الذي هاجم تدمر بقيادة هرقليانوس، وقُتل هذا في المعركة.

تطلَّعت الزباء بعد انتصارها إلى مصر، وقد أرادت أن تضرب روما في أهم منطقة اقتصادية وسياسية، والسيطرة على طريق التجارة الجنوبي عبر البحر الأحمر ومراقبة المواصلات بين الهند وعالم البحر الأبيض المتوسط، والمعروف أن مصر كانت آنذاك إهراءً من إهراءات روما ومنفذاً للتجارة الشرقية عبر الجنوب. وبعد أن هيَّأت الظروف الداخلية لتقبل السكان التغيير المحتمل، وكانت الظروف الخارجية مهيأة من واقع الصراع على السلطة في روما، إثر مقتل



زنوبيا ملكة تدمر

الامبراطور غالينيوس في عام ٢٦٨م، وارتباك الوضع الداخلي بسبب غزوات البرابرة الجرمان والقوط لأراضي القسم الغربي من الامبراطورية، وخروج بروبوس حاكم مصر الروماني على رأس أسطوله لمطاردة القراصنة؛ أرسلت جيشاً، تعداده سبعون ألف مقاتل، بقيادة زبدا، اصطدم بالحامية الرومانية المرابطة في مصر وتغلب عليها ودخل البلد. وحتى تتجنَّب ردَّ الفعل الروماني، وتُهدئ من روع الرومان أجرت مباحثات مع روما في أواخر عهد الامبراطور أوريليوس كلوديوس الثاني أسفرت عن موافقة روما على بقاء الجيش التدمري في مصر مع اعتراف تدمر بسيادة روما على هذا البلد. لكن هذا التفاهم لم يدم طويلاً، فقد نقضه الرومان، ما كان دافعاً للزباء لإلغاء الاتفاق المعقود مع الامبراطور أوريليوس كلوديوس الثاني، واندفعت للتوسع نحو الشمال والسيطرة على

طريق التجارة الشمالي مع ما يشكل ذلك من تحدٍّ سافرٍ لروما. فاحتلت الأناضول ووصلت إلى مضيق البوسفور، وتطلعت للزحف على روما، واضطرت من أجل تنفيذ هذا المشروع إلى سحب معظم جيشها المرابط في مصر، فانتهز الامبراطور أورليان هذه الفرصة فاستعاد مصر وهاجم تدمر وحاصرها، وتحصَّنت الزباء بها، لكنه تمكَّن من القبض عليها ودخل المدينة في خريف عام ٢٧٢م، وعندما عاد إلى روما أخذها معه أسيرة. وقُضي على ملكة الشرق أن تقبع في بيت خُصِّص لها في تيڤولي القريبة من روما مع أولادها لتعيش في عزلة عن العالم.

وأضفى الإخباريون العرب على قصة الزباء ونهايتها بشرب السم، جوّاً خياليّاً، ونسجوا الأساطير حولها، لذلك لا تعدو أن تكون قصة خيالية أبطالها الزباء وجذيمة الأبرش اللخمي وقصير، والثابت تاريخيّاً ما ذكرنا من أنها حُملت أسيرة إلى روما.

تدمر عبر نظمها

النظام السياسي

ليست لدينا معلومات عن النظام السياسي في تدمر قبل القرن الأول الميلادي، حيث تكثر الوثائق التي تُشير إلى أنه كان في تدمر نظام أكثر دقة وتقدماً من النظم السياسية في الدول العربية الأخرى، كدولة المناذرة مثلاً، وتُبيِّن هذه الوثائق أنه كان يرأس النظام السياسي ملوك ينتمون إلى أسر ثرية منها أسرة آل أُذينة، يساعدهم في الحكم مستشارون وحاشية البلاط وموظفون كبار وقادة الجيش، كما كان يوجد مجلس للشيوخ يُدعى بولي، ومجلس للشعب يُدعى ديموس، وتدل الأسماء اليونانية لهذين المجلسين على مدى تأثُّر تدمر بالنظم الإغريقية.

يضم مجلس الشيوخ رؤساء القوافل والتجار ورجال الأعمال والوجهاء، يتولون الوظائف العامة والقيادية، ومنهم السدنة والكهان، ولهذا كان من الطبيعي أن تعمل الحكومة التدمرية لمصلحة الفئات التجارية العليا. وللمجلس رئيس وأمين سر، وللرئيس دور مهم في إدارة شؤون الدولة. ويضم مجلس الشعب أفراد العشائر البالغين. ومع تنامي ثروة التجار وأرباب القوافل، ازداد نفوذ مجلس الشيوخ وتراجع نفوذ مجلس الشعب، ثم تراجع نفوذ المجلسين في عهد أُذينة الذي أدار معظم السلطات بنفسه.

وكان للمدينة رئيس يتولى إدارتها هو بمثابة المحافظ، وموظف يُدعى متقن المدينة، وموظف للمالية، وموظف مسؤول عن الأسواق هو بمثابة المحتسب، وموظف مسؤول عن فض النزاعات والنظر في الشؤون القضائية، وللمدينة قوة من الشرطة مهمتها حماية القوافل والطرق من تعديات البدو، مكوَّنة من رماة النبال والخيالة والهجانة، يتولى رئاستها الزعماء الأغنياء، ويحمي هذه القوة إلها القوافل، أرصو وعزيزو (العزى)، وهناك قوة مسلحة تعسكر عند الآبار واستراحات القوافل وفي المناطق المهمة من الصحراء.

الجيش

أنشأت حكومة تدمر، إلى جانب الشرطة والقوات المسلحة الخاصة بحماية القوافل وطرقها، جيشاً نظاميّاً قويّاً استطاع أن

يصمد أمام الفرس ويلحق بهم الهزائم ويكبدهم خسائر مادية ومعنوية، وينتزع من الرومان سوريا ومصر وآسيا الصغرى، وقد بلغ قوامه في بعض المراحل نحو سبعين ألفاً، وجعل من تدمر عاصمة لدولة واسعة الأرجاء.

يتألف الجيش التدمري من الفرسان والمشاة وقوات ثقيلة التسليح قوامها المنجنيق وآلات الحصار. ففي عام ٢٦٤م حاصر الجيش التدمري مدينة طيسفون عاصمة الفرس وضربها بالمنجنيق. وصمد هذا الجيش أمام هجمات الفرس والرومان على مناطق الأطراف أكثر من مرة، واشتهر من قادته زبدا وزباي، وقد تمتَّعا بقدرات قتالية عالية، وبفضل هذا الجيش توطدت الدولة وتعزَّز الأمن.

النظام الاجتماعي

يتألف المجتمع التدمري من ثلاث طبقات: المواطنين الأحرار والأجانب والعبيد.

تتكوَّن طبقة المواطنين الأحرار من عدد من القبائل ينتسب أفراد كل منها إلى جد واحد، نذكر من بينها بني: تويات، بلتي، بلعا، برسعة، جد بعل، حشاش، قحر، بعل، شمعون، تيم وغيرهم، يتفاوتون في المكانة الاجتماعية، ويحتكرون الوظائف الإدارية، ويتمتعون بنوع من الاستقلال الداخلي، ولكل قبيلة مجلس خاص. وكثيراً ما كانت الخصومات تنشب بينها وتؤدي إلى قيام تحالفات بين القبائل المتنازعة، ويتسمَّى أغلب أفرادها بأسماء عربية ساميَّة في حين يتسمَّى القليل منهم بأسماء إغريقية.

يعمل الكثير من أفراد هذه الطبقة في التجارة، ما أتاح لهم الاحتكاك بالأجانب، فوسَّعوا أفقهم وتعلَّموا لغات عدة، فانتشرت الآرامية واليونانية التي كُتبت بها معظم وثائقهم، كما استخدموا اللاتينية في مراسلاتهم الرسمية في العصر الروماني.

وتتكوَّن طبقة الأجانب من اليونان والعبيد المحرَّرين والفرس والرومان، ولم تكن لهؤلاء مكانة كبيرة في المجتمع، غير أنه وُجد عدد من الفرس «الأرستقراطيين» كانوا يُعامَلون كأهل المدينة الأحرار، كما وُجد بعض الرومان عملوا في الوظائف العامة. وأقام التجار الأجانب في خانات خاصة، وخضعوا لموظف خاص، وأقامت الجاليات الأجنبية في فنادق خاصة بها.

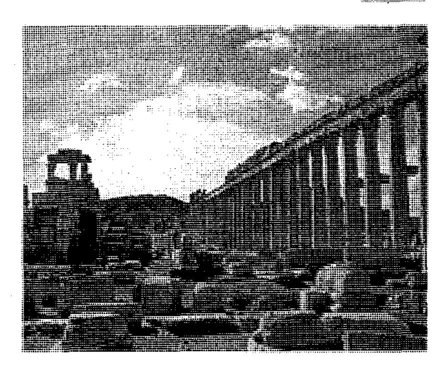
وتتكوَّن طبقة العبيد من الأجانب الذين يعملون خدماً، ولم يتمتعوا بأي حقوق مدنية، غير أنه يحق للواحد منهم أن يتحرَّر إذا ما قام بعمل مهم.

تأثَّر الشعب التدمري في ذوقه ولباسه بالمؤثرات الخارجية، فكان الأفراد يلبسون السراويل والأردية المزخرفة الشبيهة بالألبسة الفارسية.

كانت الحضارة التدمرية خليطاً من عناصر سورية ويونانية وفارسية على الرغم من أن التدمريين كانوا قبائل عربية، ولغة التخاطب والكتابة عندهم لهجة من الآرامية الغربية، غير أن اللغة اليونانية كانت سائدة إلى جاب اللغة الآرامية.

الفن

بدأ الفن التدمري محليّاً قبل أن يتأثر بالفنون الشرقية الوافدة من بابل وأشور



بقايا معبد بعل شمين في تدمر

ومصـــر، واستقى مــن الفن اليونانـــي، إلا أنه بقي خاضعاً للقواعد الشرقية.

كان النحـت أبـرز الفنـون التدمريـة، واكتُشفت أقدم التماثيل المنحوتة في حفريات معبد بعلشميـن، وأسلوبها تقليـدي وهي شبه كاملة.

ويـدل لباس الـرأس على مهنـة التدمري الذي يرتدي ثياباً طويلة تصل حتى القدمين، وهـي متعـددة الثنيـات، وينتعـل صنـادل أو أخفافـاً أو جزمـات، ورؤوس التماثيـل قطعة واحدة مع الجسم وأحياناً تُركَّب فوق الجسم، وفي بعـض الحـالات كان التمثـال ينحت في العمود نفسه.

وكان النحـت الدينـي عبارة عـن مشاهد أربـاب منفـردة أو مجتمعـة، منقوشـة علـى جـدران المعابـد وسقوفها، وتـزدان المذابح النذرية التي تُهدى للمعابـد بمشاهد تقدمات دينية يظهر فيها شخص أو شخصان يؤججان بمجرفة بخور، ويحتوي المشهد على صف من الأربـاب. أمـا النحـت الجنائـزي فمصـدره المدافـن والتوابيت والأسـرَّة الجنائزية، وهو عبارة عن مشاهد منحوتة بالولائم الجنائزية، وهـي صغيـرة الحجـم، مقوسـة أو مثلثـة أو مستقيمـة. وأمـا الصـور الجداريـة الملونـة فقليلة بالمقارنة مع المنحوتات، نفَّذها فنانون محليـون على طبقـة من الجيـر ملساء جافة، واستخدمـوا فـي ذلك ألوانـاً مركَّبـة، واللون الغالب هـو الأحمـر يليـه الأخضر ثـم البني والأزرق فالأسود.

آثار تدمر

ما تزال بقايا تدمر قائمة وأبرزها المعابد والمنشآت الدينية.

المعابد

معبد بعل: هو أبرز الآثار التدمرية، شُيِّد فـوق تـل علـى أنقـاض معبـد يعـود للعهـد الهلنستـي، شُـرع فـي بنائه في أوائـل القرن الأول الميـلادي، وهـو علـى طـراز المعابـد الشرقية، ومكـرَّس للإله بعـل وللثالوث الذي يضمه مع رب الشمس ورب القمر، وكان مقرّاً لمجمع الأرباب.

يشتمل هذا المعبد على هيكل يضم تمثال الـرب الرئيس والأربـاب التابعة لـه، يتوسط فناء مربع الشكل، طـول كل ضلع منه مائتان وخمسة أمتار تقريباً، يحيط به سور تحفُّ به أروقة تطـل عليه بواسطة صف مـن الأعمدة ذات تيجـان كورنثية، ويقوم فـي الفناء مذبح وحـوض وقنـوات وممـر للضحايـا. وللحـرم محرابان، جنوبي خُصص للرب بعل، وشمالي خُصِّص لباقي الأرباب، يحيط به رواق تحمله أعمـدة محـددة وتيجـان مزخرفـة بالبرونز والذهـب. وحُمـل سقف الـرواق علـى جسور ضخمة مـن الحجـر المنحوت نقشـت عليها

مشاهد دينية وأسطورية، وزخارف حيوانية ونباتية. ويمثل هذا المعبد، من حيث الهندسة المعمارية، نظام البناء التدمري، أما العناصر المعمارية كالأعمدة والتيجان فقد اتَّبعت الأسلوب الروماني.

معبد نبو: نبو هو ابن الرب بعل مردوخ، وأمين سر مجمع الأرباب ومسؤول عن مصير البشر. يقع هذا المعبد غربي قوس الشارع الطويل، أُنشئ في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي. واستمر في التوسع حتى نهاية القرن الثاني الميلادي.

يتألف معبد نبو من فناء داخلي يحيط به سور يتوسطه حرم يتجاوز طوله عشرين متراً ويفوق عرضه تسعة أمتار، يحيط به رواق محمول على اثنين وثلاثين عموداً.

معبد بعل شمين: يقع هذا المعبد في الجانب الشمالي من المدينة، أُنشئ خلال القرن الثاني الميلادي. يتألف من حرم وباحتين شمالية وجنوبية تقومان على أروقة، وأمام الحرم عتبة قائمة على ستة أعمدة، وأقيم أمام مدخله مذبح.

معبد اللات: يقع هذا المعبد في الجانب الغربي من المدينة، ويتألف من باحة مستطيلة طولها اثنان وسبعون متراً وعرضها ثمانٍ وعشرون متراً، يتوسطها الحرم، طوله تسعة عشر متراً وعرضه عشرة أمتار، يتقدمه رواق قائم على ستة أعمدة ويحيط به رواق قائم أيضاً على أعمدة، ويقع المدخل الرئيس أمامه. واللات هي الربة الأم عند العرب، وربة الحرب، ويُرمز إليها بالأسد.

معبد بلحمون ومناة: بلحمون هو رب كنعاني ومناة ربة عربية، يقع هذا المعبد في قمة الجبل الغربي وبقي قائماً حتى القرن الثاني عشر الميلادي.

المنشآت المدنية

السور: يحيط بتدمر سور قديم يُسمى سور الجمارك بُني بعد عام ٤١م، أساسه من الحجر وأقسامه العلوية من اللبن والطين، وأقيم داخله سور أصغر منه أخذ شكله النهائي في عهد الملك أُذينة والملكة زنوبيا، بُني بأحجار منحوتة، ومدعَّم بأبراج مربعة بين كل برجين سبعة وثلاثون متراً.

الشارع الطويل: أقيم هذا الشارع أمام معبد بعل، ويمتد إلى بوابة دمشق، يبدأ من الجهة الجنوبية بقوس نصر كبير ويسير نحو الشمال الغربي، ويشكل محور المدينة وتتفرع منه طرقات فرعية، وعلى جوانبه الحوانيت والمخازن المليئة بالبضائع. يبلغ طول هذا الشارع ألفاً وسبعين متراً، يحف به على اليمين واليسار صفان من الأعمدة الضخمة وصل عددها إلى ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً، طول كل منها عشرة أمتار وقطره ما يقارب المتر، لم يتبق منها سوى مائة وخمسين، ولهذا سُميت بشارع الأعمدة أو طريق الأعمدة، نُحت معظمها من المرمر الأبيض، وبعضها من الغرانيت السماقي، وهي مرتبطة ببعضها بواسطة إفريز متصل وطنف على النظام اليوناني.

الحمامات: يتألف الحمام من قاعة مثمنة الشكل تتوسطها فسقية مثمنة، وتتقدم مدخله أربعة أعمدة، ويلحق به باحة للرياضة والاجتماعات، طولها اثنان وعشرون متراً وعرضها عشرون متراً، وهي ذات أروقة، كما

يلحق به قسم المراحيض، ويحتوي على ماء بارد وماء حار.

السوق أو الميدان: يتألف من باحة مربعة مغلقة طولها أربعة وثمانون متراً وعرضها واحد وسبعون متراً، تحيط بها الأروقة. وللسوق أربعة عشر مدخلاً، واستعملت الزاوية الغربية، قاعة للولائم، وله ملحق كانت تُعقد فيه الاجتماعات العامة في السلم والحرب.

منشآت أخرى: كان في تدمر هيكل الموتى ومعسكر روماني وأعمدة تذكارية وكنائس.

وتتألف البيوت من مدخل رئيس وباحة مكشوفة، يحيط بها أروقة تُفتح إليها أبواب الغرف الداخلية، وتحوي البيوت بئراً للسقاية، وليس لها نوافذ، وجدرانها من الحجر واللبن.

وهناك دور خاصة مبلطة بالفسيفساء والرخام، وآثار قصر آل الزباء، الذي يشكّل تحفة في فن النحت بتيجانه الكورنثية الغنية بالزخارف وواجهاته المخرمة بالزخارف، كما كان هناك عدد من الخانات التي تنزل فيها القوافل، ويقيم فيها الأجانب وهي أبنية ضخمة واسعة.

ومن منشآت تدمر الأثرية مقابرها، وأطلق التدمريون عليها اسم بيت الأبدية، بعضها على شكل أبراج عالية من أربعة طوابق مربعة الشكل، تشتمل في الداخل على غرف يُدفن فيها الموتى وبعضها الآخر على شكل بيوت ذات غرفة واحدة مزينة بالنقوش وأنواع الزخرفة، ويلاحظ انتشار هذا النوع في المناطق التي سكنها العرب في أطراف الشام والعراق في العهد البيزنطي. كذلك تبقّت في تدمر آثار قنوات كانت محفورة في باطن الأرض، وبقايا أحواض وخزانات في ظاهر المدينة.

الدين

لم يختلف الدين في تدمر عما هو شائع في سوريا الشمالية وعند قبائل العرب في البادية، فقد عبد التدمريون آلهة عديدة وردت أسماؤها في كتاباتهم، منها ما كان معروفاً عند العرب، وبعضها الآخر أرامي أو بابلي أو فينيقي، ولعل لذلك علاقة بمدى الاحتكاك التجاري بينهم وبين جيرانهم فعبدوا بعض آلهتهم، وأعظم هذه الآلهة ثلاثة هي:

بعل: يُعدُّ هذا الإله وطنيّاً، وعبادته معروفة عند الساميين منذ أقدم الأزمنة.

بعل شمين: أي بعل السماء، أو رب السماء، إنه حامي الزراعة، وأصله معبود فينيقي.

يرحيل: إله القمر.

كانت هذه الآلهة تُرسم في الغالب مجتمعة على شكل ثالوت بحيث يكون الإله بعل في الوسط والإلهان الآخران عن يمينه وشماله وتُعبد في معبد واحد. وازدادت مكانة الإله بعل شمين في عهد الرومان، وصار يُعرف بالإله الطيب الرحيم، وأخذ ينافس الإله بعل في مكانته. وهناك إشارة إلى ملك بعل وهو كالرسول للآلهة.

وعبد التدمريون، إلى جانب هذه الآلهة: شمش وعشتروت وأنينا وفرجال، وهي آلهة بابلية، كما عبدوا الإلهين حدو وعشتروت السورية، والآلهة اللات وأرصو وعزيزو (العزى) وهي آلهة عربية.

وشكَّل رجال الدين في تدمر طبقة متميزة قوية أقام معظم أفرادها في المعابد الرئيسة، وكانت وظائفهم شرفية لا وراثية، ويرأس رجال الدين الموائد الدينية التي تقام عادة في الأعياد وعند دفن الموتى.

النقود التدمرية

أُطلق على النقود التدمرية اسم نقود أمراء تدمر، وقد صُنِّفت إلى أنواع منها:

- نقود تدمرية مجردة من الكتابات رُسم على الوجه صورة للإلهة وعلى القفا صور حيوانات أو أشجار.

- نقود تدمرية محلية عليها حرف أو أكثر من حروف اسم تدمر، وعلى وجهها صور لأحد الآلهة.

- نقود ملك تدمر وهب اللات والملكة زنوبيا، وهي على أنواع أيضاً، بعضها صُوِّر على الوجه صورة ملك تدمر تحيط به كتابة اسمه وألقابه، وعلى القفا صورة نصفية للامبراطور الروماني أورليان يحيط به اسمه وألقابه أيضاً، وبعضها صورة لملك تدمر على الوجه، وعلى القفا صورة أحد الآلهة تحيط به كتابة، ومنها نقود صور عليها ملك تدمر وأُمه زنوبيا.

الخلاصة

- كان النظام السياسي في تدمر ملكيّاً وراثيّاً مُقيداً نسبيّاً بمجلسي الشيوخ والشعب، لكن نفوذ هذين المجلسين تراجع في عهد أُذينة الذي أدار معظم السلطات بنفسه.

- أنشأت حكومة تدمر جيشاً قويّاً صمد أمام هجمات الفرس والرومان على مناطق الأطراف وحقق فتوحاً مهمة في الشمال والجنوب والجنوب الغربي، وتألف من الفرسان والمشاة.

- تكوَّن المجتمع التدمري من ثلاث طبقات هي: الأحرار والأجانب والعبيد.

- تأثر التدمريون في أذواقهم وألبستهم وفنهم بالمؤثرات الفارسية واليونانية.

- كانت الحضارة التدمرية خليطاً من عناصر سومرية ويونانية وفارسية، ولغة التخاطب هي الآرامية، وسادت إلى جانبها اللغة اليونانية.

- تأثر الفن التدمري بالفنون الشرقية، كما استقى من الفن اليوناني، إلا أنه بقي خاضعاً للقواعد الشرقية.

- ترك التدمريون آثاراً متنوعة ما تزال بقاياها قائمة تدل على قوتهم وسيادتهم، مثل المعابد وبعض الإنشاءات المدنية.

- لم يختلف الدين في تدمر عن الأديان الشائعة في سوريا الشمالية وعند قبائل عرب البادية، فهو يرتكز على عبادة الأصنام. وأشهر آلهتهم بعل وبعل شمين وعشتروت.

- شكَّل رجال الدين في تدمر طبقة قوية ومتميِّزة.

- تعامل التدمريون بالنقود وسكُّوها على الطراز اليوناني.

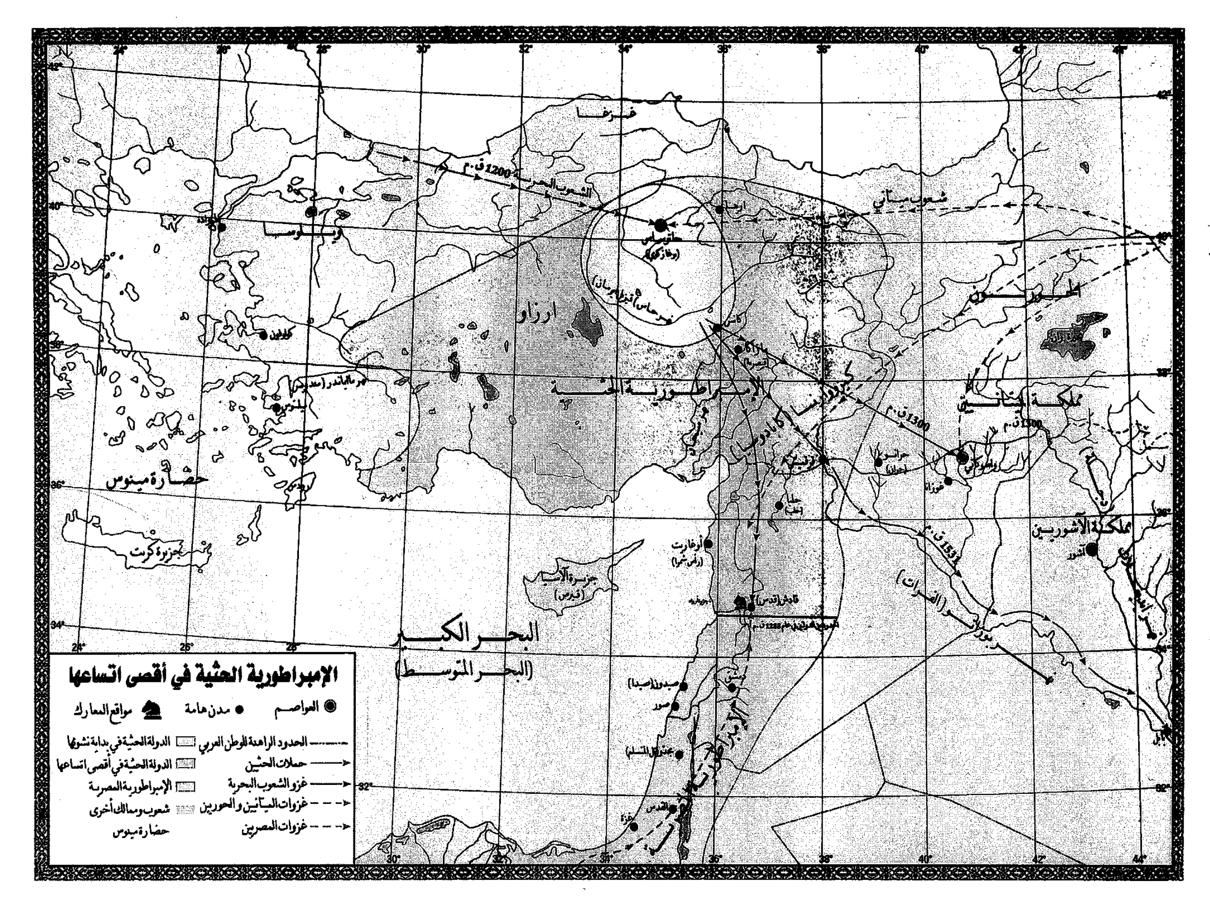
المصادر والمراجع

- البنى عدنان: **تدمر والتدمريون**. دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٧٨م.
- جيبون، أدوارد: **اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها**، تعريب محمد علي أبو درة، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٦٩م.
- **الحولية الأثرية السورية**:
  - المجلد الأول، الجزء الأول، ١٩٥١م.
  - المجلد الثالث، ١٩٥٣م.
  - المجلد الخامس عشر الجزء الأول، ١٩٦٣م.
  - المجلد الثالث والعشرون، ١٩٧٣م.
  - المجلد الرابع والثلاثون، ١٩٨٣م.
- علي، أحمد علي إسماعيل: **تاريخ بلاد الشام القديم، الجزء الأول**، دمشق.
- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزءان الثالث والثامن**، دار العلم للملايين، بيروت.
- Browning, Ian: **Palmyra**, London, 1974.



الحضارة الحثية

أ. د. محمد سهيل طقوش



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع والجغرافيا

تقع آسيا الصغرى (تركيا الحديثة) في جنوب شرقي أوروبا وشمال غربي آسيا، يحيط بها البحر الأسود من الشمال، وجورجيا وأرمينيا من الشمال الشرقي، وإيران والعراق من الجنوب الشرقي، والبحر الأبيض المتوسط من الجنوب، وبحر إيجة واليونان من الغرب، وبلغاريا من الشمال الغربي. يعتمد اقتصادها على الزراعة، إذ إن طبيعة الأرض والمناخ ووفرة المياه جعلت منها بلداً زراعيّاً مهمّاً يُزوِّد الغرب كما يُزوِّد مناطق الشرق الأدنى بالغذاء، وتُعدُّ غنيَّة في معادنها لا سيما الحديد، وتتوسطها هضبة تدعى الهضبة الأناضولية، وتفصلها عن سوريا سلسلة جبال طوروس.

الحثيون عبر تاريخهم

احتضنت آسيا الصغرى أو الأناضول مستعمرات قديمة يعود بعضها إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وتُظهر آثار العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م) التأثيرات الأشورية، ذلك أن التجار الأشوريين أسسوا محطات لهم في الأناضول، وهذا التأثير طبيعي لأن المستوطنات الأناضولية كانت مراكز لحركة بشرية باتجاه بلاد الرافدين وسوريا، وبالتالي تأثرت بالمحيط الجغرافي الذي انتقلت إليه، وهذا ما حصل أثناء الانتشار الحثي الذي يُعدُّ الأكثر فاعلية بالنسبة إلى باقي مستوطنات الأناضول.

يُطلق اسم الحثيين على الشعوب القديمة التي استوطنت الهضبة الأناضولية وينتمون إلى العنصر الهندو ـ أوروبي، أي الآري، والمعروف أن القبائل الشمالية الآرية نزحت من مواطنها الأصلية في سهول روسيا وسارت في اتجاهين متباعدين: الأول نحو الجنوب الشرقي والثاني نحو الغرب والجنوب الغربي. استقرَّت القبائل التي سلكت الاتجاه الأول في بلاد الفرس، وتوجَّهت موجة منها نحو الجنوب إلى الهند، في حين استقرت القبائل التي سلكت الاتجاه الثاني في أوروبا الوسطى والغربية، وتوجَّهت موجة منها نحو الجنوب الغربي واستقرت في البلقان وبلاد اليونان وآسيا الغربية.

ونزحت القبائل النيزية إلى الأناضول من بلاد اليونان عبر البوسفور والدردنيل، أو أنها جاءت من الشمال الشرقي عبر جبال القوقاز واستقرت في الأناضول حول نهر حاس (قِزل إرمان)، وسيطرت على الحاتيين الآسيين، سكان البلاد الأصليين. وأطلق العلماء اسم الحثيين على الشعب الذي نشأ من اختلاط السكان الأصليين بالقبائل النيزية الآرية. واتخذ الحثيون مدينة بوغاز كوى (حاتوشاش القديمة) في شرقي نهر حاس، عاصمة لهم في عام (١٦٢٠ ق.م.) في عهد مورسيل الأول.

اصطلح المؤرخون على أن العصر التاريخي في الأناضول يبدأ بوصول تجار أشوريين إليها، وكانوا يتواصلون مع أوطانهم الأصلية من خلال المراسلات بلغتهم البابلية. وتوحي هذه الرسائل أن المنطقة كانت مأهولة من قبائل هندو ـ أوروبية، ومقسمة إلى عشر إمارات مدن من بينها مدينة بوروش خاندا التي تمتعت بالسلطان، واتخذ أميرها بيتانا لقب العظيم، وناضل ابنه وخليفته أنيتا ضد المدن المنافسة لسيادته من بينها حاتي،

فدمَّر عاصمتها حاتوشاش، ونقل مقر حكمه إلى نيسا، وتمكَّن في أواخر حياته، من السيطرة على معظم الهضبة الأناضولية، وتوسع حتى البحرين الأسود والأبيض المتوسط، وتلقَّب بلقب الملك الكبير، وجدَّد معبد إله السماء والعاصفة تيشوب حدد.

وسار أولاده على نهجه في التوسع، وقضوا على الثورات التي قامت ضد حكمهم، واشتهر منهم توداليا الأول ولابارنا الذي يُعد المؤسس الحقيقي للدولة الحثية الأولى، فوحَّد جميع المدن تحت سلطانه وعيَّن أبناءه حكاماً عليها. وحاول ابنه وخليفته حاتوسيل الأول توسيع المملكة إلى ما وراء جبال طوروس من واقع الاستيلاء على مملكة يامخاد الأمورية وعاصمتها حلب، والمعروف أن هذه المملكة كانت غنية بتجارتها، ولكنه لم ينجح، في حين نجح ابنه وخليفته مورسيل الأول في القضاء عليها ودمَّر عاصمتها وسيطر على سوريا الشمالية، وتوسع باتجاه الفرات الجنوبي، فهاجم المملكة البابلية الأولى حوالي عام (١٥٩٤ ق.م.) وتغلَّبَ عليها، وما إن عاد إلى بلاده حتى قامت ثورة ضده وقُتل. ويبدو أن النظام الداخلي للمملكة الحثية الأولى كان مضطرباً بسبب التنافس على السلطة بين أفراد الأسرة الحاكمة، ولم يصل إلى درجة الاستقرار، واشتهر الملك مورسيل الأول بكثرة حملاته العسكرية وتغيبه عن العاصمة بفعل ذلك، ما شجع على حدوث مؤامرة ضده بقيادة صهره حانتيل الذي قتله.

تعرضت البلاد في عهد حانتيل إلى ضغط خارجي قام به الحوريون المقيمون في الجبال المحيطة ببحيرة وان، فهاجموا القسم الشرقي من المملكة وتقدموا إلى مشارف العاصمة حاتوشاش ودمَّروا في طريقهم بعض المدن. وفَقَدَ حانتيل وخلفاؤه من بعده معظم الأراضي التي كان أسلافهم قد استولوا عليها في الجنوب، ولم يتحسَّن الوضع إلا عندما اعتلى تليبينو سدة الحكم، فتخلَّص من منافسيه على السلطة وأنهى حال الفوضى، ولعل أهم إنجازاته إصداره قانوناً ضمنه تعليمات خاصة باعتلاء العرش وسلوك الملوك والأمراء، وتتلخص سياسته الخارجية بالمحافظة على حدود المملكة وتقوية تحصيناتها وطرد الغزاة من شمالي العاصمة وشرقها، وهو أول من عقد معاهدة مع دولة أجنبية هي دولة كيزواتنا، ويُعدُّ آخر ملوك الدولة الحثية الأولى الأقوياء، حيث ضعفت هذه الدولة بعد وفاته.

دام ضعف الحثيين مدة قرن تقريباً برزت خلاله مملكة ميتاني الواقعة بين الخابور والفرات، وسبَّبت نهضتها أزمة أخرى للمملكة الحثية، لأن بعض المقاطعات التي كانت فيما مضى تسير في فلك الحثيين، انضمت إلى هذه القوة المنافسة أو أعلنت استقلالها.

وفي عام (١٤٢٠ ق.م.) اعتلى توداليا الثاني عرش الدولة الحثية فهاجم حلب واستولى عليها، لكن الحوريين والميتانيين استعادوها بعد وفاته، واضطر خلفه حاتوسيل إلى مهاجمتها مجدداً واستعادها، وأجبر ملكها على أن يُقسم يمين الولاء والطاعة له. ومني خلفه توداليا الثالث، الذي حكم حوالي عام (١٤٠٠ ق.م.)، بهزائم عدة، فقامت ثورة ضده وقُتل، فدبَّت الفوضى في البلاد، ووصلت الدولة في عهد خلفائه إلى حافة الهاوية ولم يُنقذها

مـن السقـوط سـوى اعتـلاء الرجـل القديـر سوبيلوليومـا العـرش فـي عـام (١٣٩٥ ق.م.) تقريبـاً، وهو ابن توداليا الثالـث، ويُقسم عهده إلى ثلاث مراحل:

تميَّزت المرحلة الأولى (١٣٩٥ ـ ١٣٧٨ ق.م.) بالصـراع مـع الميتانيين والتوسع فـي سوريا. فقد اصطدم بالميتانييـن وتغلَّب عليهم ودخل عاصمتهـم واشوكانـي ودمرها، ثـم توسع في سوريـا الداخليـة والساحلية واتخـذ من لبنان حـدّاً لدولتـه. وكاد هـذا التوسـع أن يُزعـج المصرييـن لأن النفـوذ المصري فـي سوريا كان قويّـاً، ويمكـن أن يـؤدي اندفـاع الزعيـم الحثـي إلـى صـدام بيـن الدولتيـن الحثيـة والمصريـة لـولا أن مصـر كانت تمـر آنذاك بمرحلة عدم استقـرار داخلي في ظل انهماك الفرعـون أخناتـون (أمنحوتـب الرابـع) (١٣٨٠ ـ ١٣٦٢ ق.م.) بإصلاحاتـه الدينيـة، وحتى يُطمئـن الفرعون المصـري على حسن نوايـاه أرسـل إليـه يهنئـه بمناسبـة اعتلائـه العرش.

اضطر سوبيلوليوما أن يعود إلى بلاده بفعل ظروف داخلية طارئـة، وترك مهمة المحافظة علـى سوريـا بيد ابنـه تليبينـو لتبـدأ المرحلة الثانية من عهده (١٣٧٨ ـ ١٣٥٨ ق.م.). حافظ تليبينـو علـى الوجـود الحثـي في سوريـا على الرغم مـن أن المهمـة لم تكن سهلـة في ظل تـوزُّع ولاء المقاطعـات السوريـة المتعددة بين النفوذيـن الحثـي والمصري، واتبـع في سبيل ذلـك أسلوب الدسائـس والمؤامرات، وقد عبَّر أحـد هـؤلاء، وهو رب عـدي ملـك جبيل، عن خشيتـه مـن ازديـاد النفـوذ الحثـي وكثـرة مؤامرات الحثيين في الرسالة التي أرسلها إلى الفرعـون أخناتون، لكن الملـك المصري كان منهمـكاً بإصلاحاتـه الدينية فلـم يُعر نداءات حلفائه أي التفاتة جدية.

وشهدت المرحلة الثالثة (١٣٥٨ ـ ١٣٤٧ ق.م.) عودة سوبيلوليومـا إلى سوريا بعد تسوية الأمور لصالحـه في آسيا الصغرى، ولعل لذلك علاقة بالصـراع الأسري بيـن الحورييـن والميتانيين وتدخل دولة أشور في ذلـك. وبعد اصطدامات عسكرية سيطر على بلاد الحوريين والميتانيين ونصَّب ابنه بياسيل ملـكاً على بلاد الحوريين، وعيَّـن صهـره ماني وزَّابـن توشراتا ملـكاً على بـلاد الميتانيين، وولَّـى ابنه تليبينـو ملكاً على حلب، وبذلـك أنشأ دولـة موالية لـه بينه وبين مملكة أشور، وسيطر على الأراضي الممتدة من الفـرات حتى البحـر المتوسـط. وحاولت ملكة مصر عنخس إن أمـون، زوجة توت عنخ أمون، أن تتقرب إليه بالزواج من أحد أبنائه بعد وفاة زوجهـا، إلا أن هـذه الزيجـة لم تتحقـق بفعل استيـلاء القائـد حورمحـب علـى السلطـة في مصر وقتله الملكة وخطيبها.

توفـي الملـك سوبيلوليومـا فـي عـام (١٣٤٧ ق.م) وخلفـه ابنـه الأكبـر أرنوانـدا ولكنه توفي بعد أسابيـع فخلفه أخوه مورسيل الثانـي، وكانت البـلاد قد تعرَّضـت للقلاقل والثـورات بعـد وفـاة سوبيلوليومـا، فنهـض مورسيل الثانـي لقمعها، فأعاد الاستقرار إلى الدولـة، واستعاد الأقاليم التـي انفصلت عن جسمها، ولكن أشور نجحت في السيطرة على مملكـة ميتاني، وترك لابنـه وخليفته مواتالي دولة وطيدة الأركان تحيط بها ممالك موالية. وأخـذ في عهده الصـراع الحثـي ـ المصري شـكل اصطدامات مباشرة، فقـد طمع ملوك

الأسـرة التاسعة عشرة في مصر في استعادة أقاليـم سوريا التـي فقدها المصريـون أثناء حكـم أخناتون. فهاجـم كل من سيتـي الأول وخليفتـه رمسيس الثاني بـلاد كنعان. وجرت المعركـة الفاصلـة بيـن القوتيـن فـي قادش (قريـة النبي منـد) في السنـة الخامسة من حكـم رمسيس الثاني، وتدل قرائنها على أنها لم تكن حاسمة وانتهت بتراجع الطرفين، ثم بـدأت مفاوضـات الصلح بينهمـا. وتوفي في هـذه الأثنـاء الملـك مواتالـي، وخلفـه ابنـه أورحـي تيشـوب، ولـم يحكـم هـذا إلا مـدة قصيـرة، فقـد خلعه عمـه حاتوسيـل الثالث وتولـى الحكـم، فاستأنـف المفاوضـات مـع الجانـب المصـري التـي انتهـت فـي عـام (١٢٨٠ ق.م) بعقـد معاهـدة بينهما، وتقارب الطرفان بالزواج، فقد تـزوج رمسيس الثاني ابنة حاتوسيل الثالث، ولعل مرد هذا التفاهم والتقارب تزايـد قوة أشور. وتوفـي حاتوسيل الثالـث بعد مـدة قصيرة مـن زواج ابنته في عـام (١٢٥٥ ق.م)، وخلفه ابنه توداليا الرابع الذي وجَّه اهتمامـه إلى الأمور الدينية، ومنذ ذلـك التاريخ أخذت قـوة الحثييـن بالتراجع والضعـف، فطمـع بهـا جيرانهـا الأشوريون، وراحوا يقتطعون أراضيها ويفصلون حلفاءها عنها.

تولـى المُلك، بعد توداليا الرابـع، أرنواندا الثانـي، وانهـارت الدولـة الحثيـة فـي عـام (١١٨٠ ق.م) عندمـا أغـارت شعـوب البحـر وبخاصـة الفريجيين، قادمين من تراقيا، على آسيا الصغـرى، واضطر الحثيـون إلى الفرار إلـى سوريـا وحـلَّ الفريجيـون محلهـم كقـوة حاكمة.

الحثيون عبر نظمهم

النظام السياسي

يُعـدُّ الحثيـون مــن أقــوى الشعــوب الهندو-أوروبيـة وأكثرها حضارة، كوَّنوا طبقة عسكرية حاكمة سيطرت على الطبقات الدنيا، والملـك هـو رئيـس السلطـة يرتبـط مباشرة بالآلهة، ويستشير نبوءات عرَّافيها في الشؤون العامـة، ويصوِّرها وهي تُقبِّـل الملك والملكة، ونحا نحو تأليـه نفسه تشبهـاً بفرعون مصر، واتخـذ لقـب شمسـي، وكان يُعبد بعـد موته، ويتقبل التقدمـات الإلهية، ولكن لم تتبلور هذه المنزلة الدينية بسلطة ملكية مطلقة، إذ نجد، إلى جانـب الملك، هيئـة مجلسيـة تتألف من أفراد الطبقة الحاكمة ولها وظيفتان:

الأولـى: تقـرر هـذه الهيئـة قيـام الملك الجديد الـذي يحلف بين يـدي أفرادها يمين الوفـاء، وتتلقـى منـه عهـداً مماثـلاً، ويختار الملك ولي عهده ويقدمـه إلى الهيئة للحصول على يمين الطاعة.

الثانيـة: تتمتـع الهيئـة بسلطـة قضائيـة، فيفصـل أفرادهـا فـي الدعاوى التـي تعرض عليهم وعلى أقرباء الملك.

يتمتع الأمراء، حكام المقاطعات، بنوع من الاستقلالية في إدارة شؤون أراضيهم، وبذلك تُستثنـى أجـزاء واسعة مـن الدولة مـن إدارة الملـك المباشرة، لكـن الملـك يستثمر بعض الأراضـي ويتسلـم العائـدات ويفـرض أعمال السخـرة، كما يتمتع رجال الديـن بالحصانة، والكاهـن الأعظم بسلطات مدنيـة، إلى جانب سلطته الدينية.

ويعقـد الملـك مـع الأمـراء الإقطاعييـن معاهـدات تضمـن لهـم ولذريتهـم سيطرتهم



صورة تمثل محاربين من الحثيين

على الإقطاعة مقابل الطاعة، ويجمع هؤلاء، في أوقات الحرب، فرقهم العسكرية الخاصة من سكان أراضيهم ويشتركون في الحرب مقابل الحصول على جزء من الغنائم، وللملك جنوده الخصوصيون، وهم أشبه بجنود الحرس الملكي، منهم المرتزقة ومنهم المواطنون. ولما كانت التعبئة العامة تجري ببطء فقد توجب الاحتفاظ بحاميات عسكرية في الحصون الواقعة في مناطق الحدود.

النظام الاجتماعي

وُجدت في آسيا الصغرى الحثية مجموعتان من القوانين ترعى أوضاع المجتمع، تأثرت كثيراً بشرائع حمورابي وأوجدت حلولاً اجتماعية لمشكلات طالت الأسرة والزواج والمهر والطلاق والتبني. والملاحظ في الواقع الاجتماعي وجود طبقة عسكرية حاكمة، وتفاوت اجتماعي، ويتحكم أفراد الحرس الملكي بمن يعملون في ممتلكاتهم ومعظمهم من المسبيين ذوي نظام اجتماعي أقل شأناً. ثم إن القانون الجزائي هو أخف وطأة من القوانين السائدة في الشرق الأدنى القديم، وهو يعتمد أكثر على مبدأ الغرامة، أو التعويض الذي يوازي أربعاً وعشرين ضعف قيمة الشيء المفقود. وهكذا لا تحارب السرقة عند الحثيين بالموت، كما أن العقوبات الجسدية تبقى أقل عدداً وأكثر ليناً.

واستفادت الحياة الاقتصادية من معطيات أعمال التبادل والقروض والكفالة والرهن ونشطت التجارة في مختلف مرافقها، وأدى وضع جغرافية بعض الأماكن إلى أن تلعب دور الوسيط بين سواحل البحر الأبيض المتوسط من جهة، وبلاد ما بين النهرين وإيران من جهة أخرى، وغدا الحديد المستخرج من الجبال المتاخمة لأرمينيا أساس الحضارة الحثية، فكان يُصدَّر على نطاق واسع إلى البلدان الشرقية والجنوبية.

وحدَّد التشريع الحثي الأثمان المفروضة على بيع المنتجات الزراعية والحيوانات وبدلات المثل للخدمات والأدوات وفائدة القروض، وارتفعت قيمة المعدن الثمين وفائدة القروض.

الحياة الثقافية

تنتمي اللغة الحثية، في أكثر ألفاظها، إلى أسرة اللغات الهندو-أوروبية، وعُثر في العاصمة بوغاز كوى على اثني عشر ألف لوح تبيَّن أن اشتقاقها وتصريفها شديد الشبه باللغتين اللاتينية واليونانية، وتحتوي على مفردات حثية وما يقابلها باللغتين السومرية

والبابلية، ما يدل على تأثير حضارة بلاد ما بين النهرين على البلدان الشرقية بعامة.

استعمل الحثيون الخط التصويري يكتبونه سطراً من الشمال وسطراً من اليمين، وأخذوا الخط المسماري عن البابليين وعلَّموا أهل كريت صنع الألواح الطينية الخاصة بالكتابة عليها، وتتضمن الألواح عادة أوامر إدارية ونصوصاً قانونية.

الدين

وجدت في المدن الحثية المقدسة بخاصة آثار هياكل ونقوش صخرية تبيِّن الأرواح الحارسة التي تحمي الأبواب كما جرت العادة عند الأشوريين، وتُمثَّل كآلهة منفردة أو مواكب دينية، أشهرها مجموعة من أربعين ذكراً تتقدم صفّاً من عشرين أنثى أو أكثر، ونُظِّم الأشخاص في كلا الصفين وفقاً للدرجات، ففي الصف الأمامي الآلهة الكبرى تليها الآلهة الثانوية ثم رجال الدين. تقدم لنا هذه النقوش معلومات عن الدين.

يحتوي المعبد الحثي على آلهة كثيرة العدد اقتبسوها من مختلف الجهات، وغالباً ما نجهل اسم الإله الحثي مع العلم بأن الهندو ـ أوروبيين قد جلبوا معهم بعض آلهتهم مثل مترا، واقتبس الحثيون بعض آلهة بلاد الرافدين، كعشتار.

كان على رأس هذه الآلهة الكثيرة زوجان، وتحتل المرأة الصدارة، إنها الإلهة الشمس، ومعابدها أشهر المعابد، ولها حيوانان: اللبوءة واليمامة، وزوجها هو إله العاصفة والحرب، ويُمثَّل برفقة ثورين، وترمز إليه الصاعقة أو الحربة أو الفأس أو مجموعة من الأسلحة، ومع مرور الزمن تقدمت عليه ابنته.

تأثرت العبادة والكتب الدينية الحثية ببلاد ما بين النهرين، مثل تقديم الذبائح وتنظيم المواكب، واعتقد الحثيون أن الآلهة هي التي ترسل الأمراض والمصائب، ويمكن اتقاؤها بتهدئتها من خلال التطهير الجسدي وتقديم الذبائح والصلوات والعبادات الطقسية.

وللسحر مكانة معتبرة عند الحثيين الذين اعتقدوا بالتنجيم وزجر الطير والتدقيق بكبد الذبائح. ووُجدت بعض هذه الطقوس في الامبراطورية الرومانية، فقد قرأ الرومان المستقبل من خلال كبد الذبائح وزجر الطير. واستعمل العرَّافون العصا المنحنية الليتيوس التي كان الحثيون يضعونها بين يدي إله الزوبعة والملك يقوم بالخدمة الدينية. والراجح أن الرومان أخذوا هذه الطقوس عن الأتروسكيين الذين قدموا إلى إيطاليا من آسيا الصغرى.

والمعروف أن الديانة التي كانت سائدة في آسيا الصغرى قد انتقلت إلى الخارج. فإله العاصفة المدعو تيشوب عند الحوريين، والذي نجهل اسمه عند الحثيين، هو الإله السوري حدد، وسيصبح في فينيقيا بعل، وفي مدينة دوليكة الإله حدد ـ بعل، والإله زيوس ـ دوليكانوس عند اليونانيين في العهد الهلِّيني، والإله جوبيتر ـ دوليكانوس عند الرومان.

ويبدو أن الآلهة الكبرى التي فقدت تدريجاً صفتها الشمسية ليست إلا الوالدة الكبرى والإلهة الرئيسة لكل آسيا الصغرى تقريباً، وهي مروِّضة الحيوانات المقدسة وبخاصة الأسد، وقد أُطلق عليها أسماء عدة، فدعتها

نصوص فينيقية قديمة باسم كوبابا، وستصبح كيبيبة عند الليديين، وسيبيل عند اليونان، وستجلبها روما في أواخر القرن الثالث قبل الميلاد من مدينة بسينونت في فريجيا، المركز الرئيس لعبادتها، وستنتشر عبادتها في الامبراطورية الرومانية بشكل واسع، وساواها الفرس بإلهتهم أنهيتا.

الخلاصة

استمر الأثر الثقافي للحثيين شائعاً في الأجزاء الجنوبية الشرقية من امبراطوريتهم بعد سقوطها، نحو خمسة قرون، وظلَّت السجلات الأشورية تشير إلى سوريا ومنطقة طوروس على أنها أرض حاثي، وتذكر ملوكاً يحملون أسماء حثية. كذلك يشير العهد القديم إلى ملوك المقاطعات السورية كملوك للحثيين، ويعني ذلك أن تقاليد الثقافة الحثية ظلَّت منتشرة في المناطق الممتدة من ملاطية إلى فلسطين جنوباً. فقد خدم الجنود المرتزقة الحثيون في الجيوش اليهودية وأدخل سليمان الحثيات في حريمه، لكن النقوش التي خلفها هؤلاء والثقافة الدينية التي نصت عليها، كانت تختلف عما كان شائعاً في حاتوساس، ما يعني أن سوريا تعرضت لاجتياح شعب آخر جاء من إحدى المقاطعات الحثية وكان متشرباً بتقاليد حضارة الحثيين.

تأثَّرت العبادة الحثية ببلاد ما بين النهرين، وأثَّر الحثيون بدورهم في شعوب البحر الأبيض المتوسط، فقد علَّموا الكريتيين صنع الألواح الطينية الخاصة بالكتابة، ونقلوا ديانتهم إلى الخارج، فقد انتشرت بعض الطقوس الدينية الحثية في الامبراطورية الرومانية.

المصادر والمراجع

- إيمار، أندريه وجانين أوبوايه: **الشرق واليونان القديمة**، الجزء الأول من **تاريخ الحضارات العام**. منشورات عويدات، بيروت، باريس.
- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة، الشرق الأدنى**، المجلد الأول، الجزء الثاني، ترجمة محمد بدران، القاهرة.
- Conten av, G: **La Civillisation des Hittites et des Hurites du Mitanni** - Paris, Payot 1948.
- Delaporte, L : **Les Hittite**. Paris, A. Michel 1936.
- Duss avol, R : **Les Religions de Hittites et des Hourrites**, P.U.F. 1945.

الحضارة الحميرية

أ. د. محمد سهيل طقوش



موقع اليمن وجغرافيته

قامت الدولة الحِميرية في اليمن، وقد اختلف الإخباريون في تفسير مدلوله، فيُعلِّل ابن الكلبي تسمية اليمن بهذا الاسم بأنَّ يقطن ابن عابر نزل في موضع اليمن، فقال العرب تيمَّن بنو يقطن. وذكر ابن عباس أن اليمن سمي يمناً لأنه يقع على يمين الكعبة، وهو التيمن، وقال: تفرقت العرب فمن تيامن منهم سمي اليمن، وفي رواية أن اليمن سُمي يمناً لِيُمنِه. وقول ابن عباس فيه نظر، على رأي ياقوت الحموي، لأن الكعبة مربعة الشكل فلا يمين لها ولا يسار، فإذا كانت اليمن عن يمين قوم كانت على يسار آخرين، وكذلك الجهات الأربع إلا إن أُريد بذلك من يستقبل الركن اليماني، فيصحُّ.

الواقع أن اليمن لم يكن يُعرف بهذا الاسم، فقد ورد في نصوص سبأ القديمة باسم يمنات ويمنت، ومن البديهي أن اسم اليمن اشتق من يمنات وهي تعني الخير واليُمن، بدليل أن بلاد اليمن كانت، منذ عصورها التاريخية القديمة، كثيرة الأشجار والثمار والزروع حتى أنها عُرفت من أجل ذلك باليمن الخضراء والأرض الخضراء، كما عُرفت عند اليونان بالعربية السعيدة لكثرة خيراتها نتيجة لسقوط الأمطار الموسمية التي استغلها اليمنيون في سقاية أراضيهم بانتظام.

وحدُّ اليمن يمتد من نجد في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب والبحر الأحمر من الغرب، ويتصل به من الشرق حضرموت والشحر وعُمان، وكانت من بلاد اليمن، وهي بهذا الموقع، ملتقى الطرق التجارية العالمية التي تربط الشرق بالغرب.

اشتهرت مدن عديدة في اليمن عبر تاريخه، نذكر منها: صنعاء التي كانت تُعرف قديماً باسم مأرب، وزمار، ونجران، وصرواح، وظفار وغيرها.

تعاقب على حكم اليمن ممالك عديدة، أهمها المعينية والقتبانية ودولة الحضارمة والسبئيون، والمملكة الحِميرية موضوع هذه الدراسة.

الحِميريون عبر تاريخهم

ينتسب الحِميريون إلى حِمْيَرَ بن عبد شمس، سبأ، بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وزعم النسَّابون أنه كان ملكاً، وأنه أول من وضع على رأسه تاجاً من ذهب من ملوك اليمن، وقد حكم خمسين عاماً وخلف ستة أولاد تفرعت منهم قبائل حِمير.

اتفق المؤرخون على أن عصر «ملوك سبأ وذي ريدان»، والعصر الذي يليه المعروف بعصر «ملوك سبأ وذي ريدان ويمنت» هما العصران اللذان برز فيهما الحِميريون على مسرح الأحداث في العربية الجنوبية، لذلك اصطلحوا على تسميتهما بعصري الدولتين الحِميرية الأولى والثانية.

شهد اليمن عهداً جديداً، بدءاً من عام (٣٠ ق.م.) تمثَّل بخلع ملوك سبأ لقبهم القديم واستبدلوا به لقباً آخر هو «ملك سبأ وذي ريدان»، إشارة إلى ضم ريدان إلى ملك سبأ، وأول من تلقَّب بهذا اللقب «اليشرح يحصب» مؤسس الدولة السبئية ـ الحِميرية، والمعروف أن ريدان هي ظفار عاصمة الحِميريين، وتقع على بُعد مائة ميل من مخا، ويدل ذلك على أن الحِميريين كانوا منذ ذلك التاريخ ذوي كيان

سياسي متميز، على الرغم من أن تاريخ هذه المرحلة يبقى مضطرباً نظراً لما تخلَّله من صراع عنيف على السلطة بين سادات القبائل المختلفة، كما وجد أكثر من شخص من سبأ وحِمير، حمل اللقب المشار إليه في الوقت نفسه، وقد أضعفت هذه الحروب البلاد ومزَّقتها وأتاحت للرومان والأحباش التدخل في شؤونها.

تقع مساكن حِمير بين سبأ والبحر في المرتفعات والمناطق الساحلية للبحر الأحمر والمحيط الهندي، أي الأطراف الجنوبية الشرقية من اليمن، وقد أتاح لها موقعها هذا، قرب السواحل وعلى الطرق التجارية بين مدن الشمال، أن تسيطر على الموانئ.

كانت الدولة السبئية ـ الحِميرية أقرب إلى الدول الفاتحة من دولتي معين وسبأ، ولكن الإخباريين العرب بالغوا في وصف فتوحها التي بلغت الشرق والغرب إلى ما يتعدَّى التصديق، إلا أن هذا الوصف يعطينا صورة واضحة عن مدى الاتساع الذي بلغته هذه الدولة وبخاصة في عهد الملك ناشر النعم، ويُعدُّ عهده مرحلة تمهيدية لانتقال السلطة إلى أيدي الحِميريين وتفردهم بها.

أسس الملك شمر يهرعش بن ناشر النعم (٢٧٠ ـ ٣١٠ م) الدولة الحِميرية، وقد سار على خطى والده في التوسع والفتوح، وضمَّ مناطق جديدة إلى مملكته، منها حضرموت وتهامة ويمنات والجبال التي تحيط ببلاد اليمن، واتخذ عن جدارة لقب «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات»، وينسب إليه الإخباريون فتوحاً كثيرة خارج نطاق الجزيرة العربية لا أساس لها من الصحة، إلا أنها تدل على بعض الأعمال العسكرية الناجحة التي قام بها لفرض نفوذ الحِميريين على شواطئ أفريقيا الشرقية بعامة وساحل أزانيا بخاصة، ثم إن النفوذ التجاري الذي بلغته الدولة في عهده كان كبيراً بحيث أن قوافلها كانت تجوب الصحراء شمالاً حتى أعالي الرافدين، وشرقاً حتى حدود الصين، وغرباً إلى مصر، كما أن أسطولها البحري التجاري كان يتنقَّل بين موانئ العالم القديم وينافس أساطيل اليونان والرومان والأحباش، وكان متفوقاً عليها جميعاً.

تعرَّض اليمن، في القرن الرابع الميلادي، لاجتياح حبشي في عهد النجاشي العلي إسكندي، بفعل ثلاثة دوافع:

اقتصادي: بهدف السيطرة على طرق التجارة الشرقية وانتزاعها من أيدي الحِميريين.

تأديبي: بفعل سيطرة الحِميريين على ساحل أزانيا في القرن الأول للميلاد، فأراد الأحباش تأديبهم ومنعهم من تكرار ذلك.

ديني: فقد تلقَّى الملك الحبشي تأييداً ومساندة من الامبراطور البيزنطي قسطنطينوس (٣٣٧ ـ ٣٦١ م) بهدف نشر الدين النصراني في بلاد العرب.

ونجح الأحباش في دخول اليمن والسيطرة عليه في عام (٣٤٥ م)، في عهد الملك الحبشي العلي عميدة، وفرَّ الملك الحِميري آنذاك، يريم يرحب بن شمُر يهرعش، مع أولاده إلى يثرب.

استمر الاحتلال الحبشي الأول لليمن أقل من أربعين عاماً، إذ أخذت قبضة الأحباش تضعف وتتراجع بسبب ثورة نشبت في جنوبي الحبشة، فاستغل الملك الحِميري ملكي كرب

يهأمن انهماك الأحباش بإخمادها، فثار على الاحتلال الحبشي وطرد الأحباش واسترد البلاد في عام (٣٧٨ م).

أدَّى خروج الأحباش من اليمن إلى أن تفقد النصرانية سنداً قويّاً لها، كما أن الملوك الحِميريين، الذين لجأوا إلى يثرب عند الغزو الحبشي، تأثروا بالديانة اليهودية التي كانت منتشرة فيها، غير أنه ليس لدينا دليل على اعتناقهم إياها.

فملكي كرب وابناه أبوكرب أسعد، وهو تبان أسعد، و رووأمر أيمن كانوا يعبدون «ذي سموي» أي إله السماء، لكن اليهودية انتشرت على أي حال في اليمن في عهد تبان أسعد (٤٠٠ ـ ٤٢٠م) الذي يبدو أنه اعتنق اليهودية بعد ذلك على يد حبرين من بني قريظة أثناء مروره بيثرب من غزوة قام بها في الشمال، بدليل أنه دعا قومه إلى اعتناقها وهدموا بيتهم الذي كانوا يعبدونه.

وأضاف تبان أسعد إلى لقب «ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنات»، الذي ورثه عن والده، إضافة جديدة ألحقها في آخره هي «وأعرابها في الجبال وفي التهائم»، ولا بد من أن يكون لهذه الإضافة معنى سياسي قد يتمثل ببروز قوة الأعراب لا سيما أعراب الهضاب، وأعراب جنوبي نجد من قبائل معد وتهامة، ويبدو أنهم بدأوا يؤدون دوراً مؤثراً في سياسة العربية الجنوبية بحيث أضحى باستطاعتهم إحداث تغيير كبير في الوضع السياسي.

اشتهر من بين الملوك الحِميريين، بعد تبان أسعد، ابنه حسان (٤٢٠ ـ ٤٢٥ م)، وقد سار على خطى والده وأجداده التبابعة بالتوسع، ثم تعاقب على الحكم بضعة ملوك لا إنجازات مهمة لهم إلى أن جاء الملك ذونواس (٥١٠ ـ ٥٢٥ م)، الذي اعتنق اليهودية وكان شديد التعصب ضد النصرانية فأراد اجتثاثها من اليمن، وهو صاحب الأخدود وحرق النصارى بالنار.

الواقع أن اضطهاد النصارى في حِمير أثار حفيظة بيزنطية، فأوعزت إلى حليفتها الحبشة بغزو اليمن، فأرسلت حملتين عسكريتين إلى اليمن في الربع الأول من القرن السادس الميلادي، الأولى في عام (٥١٨ م) والثانية في عام (٥٢٥ م)، ونتج عن هذه الحملة الأخيرة، التي قادها أرياط، احتلال الأحباش لليمن وإنهاء الحكم الحِميري، وعندما رأى ذونواس ما نزل به وبقومه وجَّه فرسه إلى البحر فأقحمه فيه، فكان آخر العهد به.

الحِميريون عبر نظمهم

النظام السياسي

شكَّلت المملكة الحِميرية جزءاً من الممالك العربية التي تعاقبت على حكم اليمن في العصر الجاهلي، فتأثر الحِميريون بتنظيم من كان قبلهم، كالمعينيين والسبئيين، واستوحوا نظمهم الحَضاريةَ. وعليه فإن الدراسة الموضوعية تدفعنا إلى الحديث عن النظم الحضارية في اليمن بشكل عام مع تخصيص الحِميريين في الأمور التي تميزوا بها عن غيرهم.

كان القسم الجنوبي من الجزيرة العربية وبخاصة اليمن، أكثر بلاد العرب تحضُّراً في العصر الجاهلي، فقامت فيه دول وممالك

كانت على مستوى متقدم من الرقي والتمدن تميزت بالتوافق أو ما يشبه التوافق الذي يقترب بها من وضعية التداخل، بقدر ما يُبعدها عن الصراعات على الرغم من تعددها، ولعل مرد ذلك يعود إلى التكامل الاقتصادي فيما بينها، ومن ثمَّ كانت السيادة السياسية بينها تتأرجح بين النِّدِّيَّة وتفوُّق مملكة على مملكة أخرى، وسيطرة مملكة على الممالك الأخرى فيما يشبه الوحدة السياسية، ويمثل قيام الدولة الحِميرية ومسارها السياسي دليلاً على ذلك.

قد يكون قيام هذه الممالك والدول مرحلة متطورة من النظام المشيخي أو القبلي الذي يرأسه شيخ القبيلة، إلى نظام الدولة الذي يرأسه الملك أو الرئيس، وأول من اتخذ لقب ملك بصورة واضحة هو كرب آل وتر، ملك سبأ وريدان.

اتصف النظام السياسي في الممالك العربية الجنوبية، ومنها حِمير، بالفردية المطلقة في بادئ الأمر، إذ جمع الملك بين يديه السلطتين الزمنية والدينية، فهو الملك الحاكم والكاهن الأعلى المكرب، المقرَّب، إلى الآلهة، وهو أيضاً الابن الأكبر للإله ونائبه في الأرض، ثم تحوَّلت الملكية الفردية المطلقة إلى ملكية مقيدة، فقد قامت مؤسسات إلى جانب الملك تتمتع ببعض السلطات، وكان ملوك اليمن يستشيرون رؤساء القبائل والكهنة في المشكلات التي تتعرَّض لها الدولة، وخاصة في قضايا السلم والحرب، وشكَّل هؤلاء مجلساً سُمِّي بمزود، أو مسود، كان الملك يُعين أعضاءه، إنه مجلس يمثل في الواقع مصالح كبار الملاك وأثرياء التجار والكهنة، أي الطبقة الأرستقراطية السائدة.

ونذكر من رموز النظام السياسي في اليمن بعامة:

الأقيان أو الأذواء: وهم أمراء أو موظفون كبار أو كهنة، يمثلون الملك في المدن، ويتولون فيها الشؤون الإدارية والاقتصادية، ويمتلك بعضهم عدداً من الأرقاء.

الأقيال: وهم رؤساء القبائل، وتفوق منزلتهم منزلة أعضاء المزود، وشكَّل الملك منهم مجلساً من ثمانية أعضاء كانوا بمثابة نواب له، فهو يعيِّنهم، وهم يساعدونه في الحكم ويُقدمون له المشورة، «ولا يصلح الملك لمن ملك من ملوك حِمير حتى يقيمه هؤلاء الثمانية، وإن اجتمعوا على عزله عزلوه»، و«حِمير كانت أقيالها تكون في كل عصر ثمانين قيلاً من وجوه حِمير وكهلان، فإذا حدث بالملك حدث كانوا الذين يقيمون القائم من بعده، ويعقدون له العهد، وكانوا إذا لم يرتضوا بخلف الملك تراضوا لخيرهم، وأدخلوا مكانه رجلاً ممن لم يلحق به بدرجة الأقيال، فيتم الثمانين قيلاً...».

الجيش

إنه إحدى المؤسسات المهمة في حماية الدولة ومؤسساتها وحفظ مصالح الطبقة الأرستقراطية. لم تتضمَّن آثار اليمن في العصر الجاهلي إلا نزراً يسيراً من صور الحرب والجنود ومعدات القتال، لذلك فإن اعتمادنا للوقوف على تنظيمات الجيوش وأساليب القتال عند اليمنيين مستمدة من هذه الآثار القليلة، بالإضافة إلى نصوص معدودة وردت في الآثار الأشورية والبابلية

تتضمَّن إشارات إلى العرب، وموارد فارسية تحدثت عن حروب نشبت مع العرب.

المحاربون في اليمن على نوعين: أحرار وعبيد، ما يدل على كثرة العبيد الذين يُجنَّدون، والسخرة هي الطريقة الغالبة في التجنيد، فإذا وقع خطر طلب الملك من الأقيال والرؤساء تسخير رعاياهم للقتال، وهم من الطبقة الدنيا عادة.

ويتولى قيادة الجيش إما قادة مدرَّبون على أسلوب القتال ولهم خبرة في الحروب، أو سادات القبائل الذين يقع على عاتقهم قيادة قومهم عند ظهور خطر أو غزو أو حرب، وغالبيتهم غير متخصصة بشؤون الحرب.

ويقال للضابط الذي يقود الجيش أو فرقة فيه في اللغة السبئية، بأسود، ويقود القدم، أي المقدم، قطعة من الجيش وربما قُصد به من يتولى قيادة المقدمة، وعُرف القادة الذين يقودون ألف رجل فما فوق بالجرارين. وكان بعض القادة يحملون درجة مقتوي، وهي منزلة خاصة في الرتب العسكرية. ووردت في النصوص كلمة مقتوي ملكن، أي مقتوي الملك، وتعني قائد الملك، ويبدو أنها رتبة خاصة بالقادة الذين يختارهم الملوك لقيادة الجيوش. وعُرف المكلَّف بإدارة موقع عسكري بِ أمر، أي آمر، والآمر ربما يكون الأمير.

ويطبق قادة الجند، أثناء إدارة المعارك، قاعدة الحرب خدعة، أي خداع العدو وإيهامه للتغلب عليه، والمباغتة، وتعدُّ من أهم وسائل الانتصار في الحرب. وعمد اليمنيون، وبخاصة الحِميريون، إلى استخدام العيون للتجسس على العدو، يرسلونهم في صور شتى للتمويه عليهم، تجاراً أو مسافرين أو على هيئة سرايا صغيرة تقتفي آثار العدو وتسأل من تصادف من المسافرين عن علمهم بأحواله، أو تأسر رجالاً من العدو تُحقق معهم وتحصل منهم على معلومات مفيدة تساعد على إعداد خطة الحرب، ويحتار القادة تكتيك القتال في ضوء المعلومات المحصَّلة.

ويبدو أن حكومات اليمن المتعاقبة، والحيرة والغساسنة، تكاد تكون الوحيدة التي ملكت جيوشاً نظامية مدرَّبة، أي جيوشاً مستعدة في كل وقت للدخول في حرب، وتتألف من كتائب من الفرسان وكتائب من المشاة، ولها قادة يشرفون على تدريبها وإدارتها أثناء القتال، غير أن تجهيزاتها لم تكن على مستوى تجهيزات الرومان والأحباش، لهذا تقدم الجيش الروماني إلى اليمن بكل سهولة، واحتل الأحباش اليمن من دون مقاومة تُذكر، والفرسان هم آلة الحرب الحاسمة في القتال، ويقع على كاهلهم ثقل المعارك.

ويبدو أن حكام اليمن كانوا يعتنون بجمع العساكر وإنشاء الجيوش من أجل القضاء على خصومهم ومنافسيهم، ولم يحفلوا بأمر تنظيم الجيش وتدريبه وتجديده وتحسين سلاحه بشكل يستطيع معه التصدي لعدوان خارجي.

وأخذ اليمنيون بنظام تكتيل الجيش وتصنيفه إلى كتائب، وعرَّفوا الكتيبة بأنها القطعة العظيمة من الجيش، وعرفوا السرية، وهي قطعة من الجيش تسري سرّاً في الليل وتتكون من ثلاثة إلى خمسة رجال، ويبلغ أقصى تعدادها أربعمائة، وقيل هي بين مائة إلى خمسمائة، فما زاد عن ذلك فمنسر، وإذا زادت عن ثمانمائة فجيش، وإن زادت عن أربعة آلاف فجيش جرَّار، والحظيرة ما دون

العشـرة، ويُعبَّر عن المحـارب والمقاتل بلفظة جندي وبأسد، والجمع أسدم أي جنود.

ويعتمـد تكتيك القتـال عند العـرب بعامة على الكر والفـرّ، واتبعوا أيضـاً أسلوب القتال صفوفاً، وقسَّموا المقاتلين إلى مجنبتين، يمنى ويسرى، وقلب ومقدمـة. واستخدم الحِميريون النظـام العشري فـي تنظيم الجيـش متأثرين بالنظـام العسكـري البيزنطـي، وأصغر وحدة عسكريـة، وفق هـذا النظام، هـي المكونة من خمسـة جنـود، تليها وحـدة مؤلفة مـن عشرة جنود ثم مضاعفـات العشرة، ويتولى كل وحدة ضابط يدير شؤونها ويقوم بتدريبها والإشراف على سيرهـا وإدارتهـا أثناء السلم وفـي أثناء القتـال، واتبعـوا أسلوب حـرب العصابات من خـلال تقسيـم الجيـش إلـى وحـدات مستقلة تنتشـر في أماكن متباعـدة وتقاتل بمفردها أو تتعاون فيما بينها عند الحاجة.

ولا بـد للجنـديّ مـن أسلحة يحـارب بها، والسيـف هـو السـلاح الرئيسـي فـي القتـال، يُستعمـل فـي الهجوم وفـي الدفـاع، ويُستخدم الرمح لطعن العدو، وهو سلاح الفرسان غالباً. واستعمل اليمنيون القسي، وهي بمثابة البندقية في يومنـا، والسهام، وهي بمنزلـة الرشاشات فـي هذه الأيام، كمـا استعملوا التـرس للوقاية من الحجارة والسهام، ويُصنع من الحديد في الغالب، ومن الخشب، والجلود الغليظة، ويُعرف التـرس بالدرقـة وبالمجـن، والـدروع هي من أسلحة الوقاية. تقي الجندي ضربات خصمه.

ومـن الأدوات التـي استعملهـا المقاتلـون البيضة، وهي غطاء يوضع على الرأس لحمايته من السيوف والحجارة والعصي وما شابه ذلك، وهي مصنوعة من مواد واقية تحفظ الرأس من الأخطار، واستعمل اليمنيون بعامة، في حروبهم، آلات القذف والرمي وآلات الهدم الثقيلة.

كان الملك عند اليمنيين هو القائد الأعلى للجيـش، يُعلـن الحـرب، ويأمر بعقـد الصلح، ويُعيـن القـادة الذيـن يتولـون إدارة المعركـة لضمـان النصـر، كمـا يأمـر القبائـل بتقديم المقاتلين وفق اتفاق مسبـق، وقد يقوم بنفسه بقيادة الجيش وإجراء العمليات العسكرية، وقد يترك ذلك إلى قادته.

لـم يعتنِ اليَمنيـون بعامـة بتحسين السفن وتجهيزها وتقويتهـا للمحافظة على سواحلهم، فلما ظهر الرومان والبيزنطيون من بعدهم في البحـر الأحمـر، لـم يتمكنـوا مـن مواجهتهم والتصـدي لهـم مـا أتـاح لهـم غـزو بلادهم وانتـزاع السيـادة منهـم علـى هـذا البحـر، بالإضافـة إلـى ممتلكاتهـم علـى السواحـل الأفريقيـة المقابلـة، وسيطـروا علـى التجارة الشرقيـة، ويدل نـزول الأحبـاش بسهولة على السواحـل العربية على عدم وجـود تحصينات بحريـة علـى السواحـل وعلـى ضعـف الجيش الحِميري في ذلك الوقت.

النظام الاقتصادي

الزراعة

أنظمـة الري: تكثر في اليمن الأماكن التي يعمل سكانها في الزراعة وينتجون المحصولات الزراعية التي تفيض عن حاجتهم أحياناً فتجد طريقهـا إلـى أسـواق التبـادل. ولـم يقـف الحِميريون، ومن قبلهـم المعينيون والسبئيون، مكتوفي الأيدي أمام التبعية لعوامل الطبيعة بل عملوا على الحد منها. ففي اليمن كانت تجري أعمـال زراعية يقوم بها مستقـرون دائمون مع

الأرض مسخرين المياه الجوفية والمياه السطحية الموسمية بوسائل متقدمة بالقياس إلى مرحلتهم لإنتاج حاجاتهم المباشرة وحاجات التبادل في الأسواق الداخلية والخارجية على صعيد الجزيرة العربية، وإن كانت البيئة الطبيعية قد حدَّدت شكل الأسلوب المستخدم، فأقاموا السدود، وأشهرها سد مأرب، وحفروا القنوات والمجاري السطحية والجوفية للتحكم في المياه، كما أقاموا المدرَّجات على سفوح الجبال لمنع انجراف التربة.

حقَّقت أنظمة الري الغاية من إنشائها طيلة العهد الحِميري، فزرع الحِميريون، ومن قبلهم السبئيون، الأراضي المحيطة بها والقريبة منها فغدت جناناً وغياضاً عن اليمين وعن الشمال ملأى بأشجار الفاكهة والخضار المتنوعة والأزهار الملونة، فعاش الناس في رخاء وسعة في الرزق، وازداد العمران حتى جاء اليوم الذي تهدَّمت فيه السدود وخربت القنوات، وبخاصة سد مأرب، بسبب التصدعات المتلاحقة التي لم يعد ينفع معها الترميم، فانهدم في عام (٥٧٥ م) وهو العام الذي انتهى فيه الاحتلال الحبشي لليمن.

المعاملات المتصلة بالزراعة: مارس اليمنيون بعض أنواع المعاملات المتصلة بالزراعة وهي ذات تنظيم دقيق ومتقن تبرز الزراعة في اليمن كمورد اقتصادي أساسي من موارد الإنتاج، منها:

المحاقلة: استئجار الأرض الزراعية لقاء مبلغ من المال.

المزارعة: الاتفاق على أن يزرع شخص أرض شخص آخر لقاء نسبة معينة من المحصول على أن تكون البذور من مالك الأرض.

المخابرة: على نمط المزارعة ولكن تكون البذور على عاتق المستأجر أو المزارع، وتكون المحاصيل على النصف.

المساقاة: هي اتفاق بين صاحب الأرض أو الملتزم وبين صاحب الماء يتعهد فيه الأخير بتوصيل الماء إلى أرض الأول مقابل جزء من المحصول.

القصارة: الاتفاق على الحصول على ما يبقى في السنابل من حب بعدما يُداس.

المخاضرة: هي أن يبيع المالك ثمار بستانه قبل أن تنضج.

وشكَّل اليمنيون جمعيات زراعية تعاونية على شيء من التخصص بهدف الإشراف على الأعمال وإدارة أمور المؤسسة الزراعية والإشراف عليها واستصلاح الأراضي وإعمارها.

المحاصيل الزراعية: انتشرت في الجزيرة العربية بعامة واليمن بخاصة أنواع عديدة من المحاصيل الزراعية، وذلك تبعاً لتنوع المناخ والبيئة الطبيعية، مثل: الفواكه والحبوب والخضراوات، ولكن تبرز من بين هذه المحاصيل والثمار ثلاثة أنواع هي: النخيل والأعناب والحبوب.

الصناعة

العلاقة بين الصناعة والعمل الزراعي: شكَّلت الصناعة وما يتصل بها من معاملات مورداً آخر لأهل اليمن. والواقع أن الصناعة، وهي حرفة الصانع، تطورت في العصر

الجاهلي، وظهرت صناعات جديدة إلى جانب ما كان قائماً منها، وأُدخلت بعض التقنيات على وسائلها وطرقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه، ومعنى ذلك أن الحرفة تجاوزت طور العمل الصناعي المنزلي لتلبية حاجات التبادل، وفي هذه الحال يكون انفصال الحرف اليدوية عن الزراعة ظاهرة متقدمة تُعبِّر عن مرحلة جديدة من مراحل تطور المجتمع، ويُعدُّ هذا الانفصال شكلاً من أشكال التخصص في العمل الإنتاجي. والحقيقة أن ظاهرة استقلال الصناعة اليدوية عن الزراعة كانت قائمة في اليمن خلال مراحل تاريخها، وتطورت الحرفة بفعل:

- نمو القطاع الزراعي، والمعروف أن بين الصناعة والزراعة علاقة تبادلية متكاملة.
- توافر الخامات المحلية والمواد الأولية.
- زراعة بعض النباتات التي تُستخرج منها مواد تدخل في بعض الصناعات.
- ظهور أيدي عاملة ذات خبرة اكتسبت مهارات مهنية جيدة.
- بروز حركة تجارية نشطة عمادها الأسواق المحلية والموسمية العامة.
- استثمار جزء من رأس المال التجاري وتوظيف المهارات والخبرات المهنية المتراكمة، المحلية أو المستوردة، فيها.
- استخدام مزيد من الرقيق للعمل في الأراضي الزراعية.

التعدين: يُعَدُّ التعدين من المهن الأساسية التي احترفها اليمنيون، والمعروف أن بلاد اليمن كانت مصدراً للعديد من المعادن وبخاصة معدني الذهب والفضة. وطوَّر اليمنيون عملية التعدين التي كانت تبدأ بجمع المعادن من على سطح الأرض، ثم انتقلت إلى طور جديد من واقع إجراء عملية قشط الطبقة الخارجية الحاملة للمعدن، ومنها انتقلوا إلى حفر الأنفاق والممرات في جوف الأرض على طريقة المناجم المفتوحة. وكان تعدين المعدن الخام وطحنه يتمان بالقرب من المناجم عادة، كما أن المادة المطحونة تُحرق بعد ذلك في أفران لتخليص المعدن من المواد المختلطة به، يلي ذلك صهر المعدن الحاصل في أفران وجمعه في أحواض لنقله أخيراً إلى مراكز التصنيع.

المعادن وأماكن وجودها: وُجد خام الذهب في كثير من أرجاء اليمن مثل: بيش وخنكان ومأرب وذمار وأرض بني سابقة، بالحد بين صعدة ونجران، وصعاد من ديار بني عقيل، وهو عُزير، وقد ذكره النبي ﷺ في قوله: (مُطرت أرض عقيل ذهباً)، والقفَّاعة. ودُعي ذهب صعدة بمعدن النار، وهو خير المعادن، ويماثله في الجودة معدن المخلفة من أرض حجور في همدان شمالي اليمن. وليس أدل على وفرة الذهب في اليمن مما قاله سيف ابن ذي يزن لكسرى عندما نثر الدراهم التي أعطاه إياها، عندما ذهب إليه يطلب مساعدته ضد الاحتلال الحبشي، على خدم القصر، وقال: «ما أصنع بهذا؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة».

وكانت الفضة من جملة المعادن المعروفة في اليمن وموضعها بالرضراض. ووُجد العقيق في اليمن إلى جانب الذهب والفضة في مكان قريب من صنعاء وفي ألهان. ويُسْتَخرج العقيق الأحمر والأصفر والجزع من منطقة صنعاء، واشتهرت ظفار بجزعها الذي فيه سواد

وبياض تُشبَّه به العين. واستخدم أهل اليمن الرصاص في كثير من أعمالهم، والكبريت من المعادن الموجودة في اليمن ومركزه ذمار، والزاج مشهور في اليمن، ويقال له الشب اليماني، وهو من الأدوية، والملح من المواد التي تاجر بها اليمنيون وتوجد معادنه في أماكن متعددة، ويستخرجه بعضهم من المواد المالحة وبعضهم الآخر من المناجم، واشتهر في مأرب جبل الملح الذي امتاز بصفائه.

صناعة المعادن: صنع اليمنيون الأدوات والأواني المعدنية معتمدين في ذلك على ما يستخرجونه من معادن في أرضهم، مثل التماثيل واللوحات البرونزية والأقداح والصواني والمرايا والمسارج والأسلحة والمسكوكات وأدوات البناء والنحت والزراعة. انتشرت صناعة الحلي والمجوهرات في اليمن ونشطت مع ازدياد الطلب على شراء المصوغات من جانب نساء وجهاء القبائل والتجار والأثرياء للتزين بها. وكانت الحدادة حرفة شائعة في اليمن امتهنها الأشراف والعبيد وارتبطت بالأعمال الزراعية، فكان الحدادون يصنعون ما يحتاج إليه الفلاحون من محاريث ومساح وفؤوس لحراثة الأرض، ومناجل للحصاد وغير ذلك. والنقود من الصناعات المعدنية المعروفة في اليمن، وقد اصطلح على تسميتها بالمسكوكات، وقد ضُرب على بعضها اسم الملك الذي سُكَّت في أيامه أو الحرف الأول من اسمه. ويبدو أن سبأ كانت أول دولة عربية جنوبية سكَّت نقوداً، وقد قلَّدت العملة الأتيكية اليونانية ثم تأثرت بالعملة الرومانية ونقش عليها اسم مركز الضرب، وورثت الدولة الحِميرية العملة السبئية فسكَّت نقوداً مماثلة في ظفار لكنها أضافت إليها رسوماً ونقوشاً عربية ما جعل الطابع العربي غالباً على الطابع الأجنبي. استعمل سكان اليمن النقود في معاملاتهم، وقد سكَّت من ذهب وفضة ونحاس ومن معادن أخرى، كما تعاملوا بالنقود الأجنبية، واشتهرت المسكوكات المعينية والقتبانية والحضرمية بسعة انتشارها، وانتقلت الأولى إلى خارج الجزيرة العربية. وتميزت النقود اليمنية بميزتين:

الأولى: برموزها التي تشير إلى اسم المدينة التي ضُربت فيها، وشعار الدولة أو إلهها الرسمي أو اسم الأسرة التي ضربتها.

الثانية: بدقة أوزانها.

توقف الحِميريون عن ضرب النقود في المدة قبيل ظهور الإسلام، ولم يعد لديهم سكة خاصة بهم ولا نقود تحمل اسمهم، واعتمدوا في تعاملهم على الدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية بالإضافة إلى قطع فضية غير مضروبة ولا منقوشة، ولعل لذلك علاقة بمدى زوال سيادة المملكة الحِميرية بفعل الاحتلال الحبشي ثم الفارسي لليمن والصراع بين المحورين البيزنطي ـ الحبشي والفارسي، للسيطرة على البلاد والطرق التجارية التي تخترق الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال.

الصناعة الحجرية: ساعد وجود أحجار متنوعة قابلة للقطع والنحت والتشكيل في اليمن على قيام صناعة أدوات وأوعية حجرية قابلة للاستخدام، فصنع اليمني من أحجار المرمر والرخام أوعية لحفظ مواد الزينة كالعطور واللبان والدهان، وهي على هيئة جرار صغيرة أو صناديق لها أغطية زُيِّنت من الخارج

بالنقوش والصور المحفورة، كما صنع منها أطباقاً ومجامر وتماثيل بشرية وحيوانية دخلت في المعابد، مثل المذابح والإفريزات التي كانت تُبنى في مقدمة المعبد وتُزخرف بالنحت البارز. وصنع من الحجر الصابوني أواني المطبخ كالقدور، ومن أحجار الغرانيت والديورايت دواليب الرحى والمساحل اللازمة لطحن الحبوب والصخور التي تحتوي على نسبة عالية من المعادن لاستخلاص المعدن منها، ومن حجر المسنّ مقابض للسكاكين، ومن الحجر الهيصمي، وهو حجر يشبه الرخام، الآنية، وصنع من بعض الأحجار آلات الحفر، وآلات بسيطة كانت تُستخدم في قطع الأشجار والزجاج وذبح الحيوانات وأعمال الحلاقة والطب كالعمليات الجراحية، وصناعة الجلود والمنسوجات وبعض أنواع القداح الذي يُستعمل لإشعال النار. ونالت أحجار اليمن شهرة عالمية بفعل جودتها، وذلك من خلال تصديرها إلى الخارج، وقد امتدحها ديودورس الصقلي وقارن بينها وبين أحجار جزيرة باروس المعروفة بجودتها فوجد أنها أكثر جودة.

صناعة الغزل والنسيج: نشطت صناعة الغزل والنسيج في اليمن وانتشرت في معظم أرجائها تلبية للطلب المتزايد على منتجاتها، كالثياب والخيام والبسط والزرابي والستور وغيرها، وقد ساعد في توسُّع هذه الصناعة توافر الخامات الأولية من صوف غنم ووبر جمل وشعر ماعز، وخامات كتان وقطن وأصبغة وأيدي عاملة ذات خبرة، ونشاط الأسواق المحلية والموسمية العامة ورواج التجارة، واشتهرت اليمن ونجران بصنع الحلل والثياب الملونة والمزركشة مثل الخال والبرود والعصب والممرجل والمعاجر والسَّحل والحبرة والسيداء والمرحَّل والوصائل، وتروي المصادر أن كسوة الكعبة في الجاهلية كانت من الأنطاع والمعافر، وأن تبان أسعد، أبا كرب الحِميري، أحد تبابعة اليمن، هو أول من كسا الكعبة بالوصائل اليمنية، وكساها الرسول ﷺ الثياب اليمنية أيضاً، واستمرت تكسى من اليمن حتى عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان.

وطوَّر اليمنيون صناعة الغزل والنسيج لجعل منتجاتهم أكثر جودة وذلك بإدخالهم عليها بعض التقنيات، حيث يتجلَّى تمازج الألوان بشكل يثير الإعجاب والدهشة، فاستعملوا الأصبغة النباتية لتلوين الثياب والأقمشة، وقد توفرت في اليمن خامات الصباغة مثل الورس والعصفر وقِرف الأرطى وقِرف السدر وغيرها.

وراجت الأقمشة والثياب اليمنية في الأسواق ولا سيما البرد، واشتهرت عدن بصناعتها. ونسج اليمنيون إلى جانب الثياب الناعمة والفاخرة، لسادات القبائل والأثرياء وكبار الموظفين والتجار، الثياب والملبوسات البسيطة، الغليظة والخشنة نسبياً وقليلة الكلفة، لفقراء البدو والحضر والعبيد، ما يعكس تمايزاً طبقيّاً وتفاوتاً في الثراء بين الأغنياء والفقراء. وازدهرت في اليمن صناعة البسط وهي أنواع، مثل العبقري والعباقري، وتحتوي على الأصباغ والنقوش، كما ازدهرت صناعة الخيام.

وعلى الرغم من الازدهار الذي بلغته صناعة الثياب والأقمشة في اليمن إلا أن

اليمنيين استوردوا المنسوجات النفيسة من بلاد فارس والهند والصين والشام ومصر، من بينها الديباج والإستبرق والسندس والأنسجة الحريرية والقطنية والصوفية، وصنَّعوها محليّاً لتلائم أذواق الناس.

الصناعات الجلدية والدباغة: راجت الصناعات الجلدية وصناعة دبغ الجلود في اليمن، وذلك لسد حاجات ومتطلبات الزراعة ووسائل الريِّ مثل: الدلاء والقِرب وغيرها، بالإضافة إلى سد حاجات الناس من النعال وغيرها. وقد شغلت هذه الصناعة مرتبة الطليعة بين صناعات اليمن بفعل أنها كانت ذات شأن عند اليمنيين.

كانت صعدة مركزاً لدباغة الجلود لوقوعها في بلاد القرظ، وتُصنع فيها الركاء الجيدة والأنطاع الحسنة، وتُنتج الأديم الجيد، وكذلك كانت نجران من المراكز المشهورة بدباغة الجلود. والمعروف أن الجلود المعدة للدباغة هي جلود البقر والغنم والماعز والوحش، وتُدبغ بالقرظ والأرطى والسَّلم والطيَّان وغيرها. وتدخل الجلود بعد دبغها في مختلف الصناعات الجلدية التي يحتاج إليها الناس في حياتهم اليومية.

وصنع اليمنيون ملابس جلدية من جلود الحيوانات البرية، كالأُسود والنمور، كما صنعوا السروج والفرش وأجلَّة للخيل. وعمَّت شهرة الجلد اليمني في جميع أنحاء الجزيرة العربية بفعل جودته وحسن صنعه، وبخاصة النعال المصنوعة من جلود البقر.

صناعة الأصباغ والعطور: الصبغ ما يُلوَّن به، وعرف اليمنيون في العصر الجاهلي الأصباغ واستخرجوها من بعض النباتات لتلوين الجلود والأقمشة، وكانت سلعة رائجة ومطلوبة لأنها جيدة وثابتة ما أدَّى إلى نشوء صناعة الصباغة، ونذكر من بين النباتات البرية والمزروعة التي استخرج منها اليمنيون الألوان: الورس، العصفر، الزعفران، قِرف الأرطى وقِرف السدر، الفوَّة، العندم، اللك، الحناء، الأرقان، الطيب، المسك، العنبر، اللبان، ماء الورد وغيرها.

ويبدو أن العطارين اليمنيين لم يكتفوا بما كانوا يستخرجونه من دهون وعطور من النباتات المحلية، بل كانوا يستوردون من الهند وغيرها مواد أخرى يُصنِّعونها طيوباً فاخرة، ثم يُصدِّرونها إلى الخارج وبخاصة إلى فارس وبلاد الروم.

الصناعات الخشبية والنجارة: كانت الصناعات الخشبية من بين اهتمامات اليمنيين بهدف تلبية الحاجات المتنامية للأدوات المنزلية والزراعية ووسائل الري والصيد وما يتطلبه بناء المنازل والحظائر وغيرها، وساعد في قيام الصناعات الخشبية نمو عدد كبير من الأشجار في مرتفعات اليمن وفي بطون الأودية، بالإضافة إلى بعض الأخشاب المستوردة من أفريقيا والهند، التي تمتاز بصلابتها مثل: الساج، الآبنوس والصندل.

واستخدم النجارون بعض أصناف الشجر في صنع أبواب البيوت ونوافذها وسقوفها وإقامة حظائر الأنعام، مثل أشجار: الطلح والسمر والعرعر والجوز والسرو، واستعملوا شجر المرْخ في إنشاء هياكل الخيام، وصنعوا من خشب الجوز والأثل والضرو: القصاع والجفان، والآنية والمكاييل والصيعان والأقداح،

ومن خشب الميس: الرحال، ومن جذوع الأشجار السروج والهوادج. ودخلت الأخشاب في صناعة الأثاث المنزلي كالكراسي والسُرر والصحون والأرائك والصناديق الخشبية.

واستعمل النجارون أدوات متنوعة في معالجة الخشب وقطعه ونشره وتسويته منها: الفأس، الحصين، الحدأة، العاقور، الكرزن، القدوم، المنشار، المحفرة، المسحل، المثقب، الكلبتان، العتلة وغيرها.

صناعة الفخار والأواني الفخارية: وهي حرفة معروفة في اليمن بدليل ما عثر عليه علماء الآثار من أوانٍ فخارية وخزفية وكسرها، بالإضافة إلى أواني فخارية ملونة ومزينة بنقوش هندسية أو نباتية أو حيوانية، كالقدور والجفان والصحاف والأباريق والكيزان وغيرها. وأدخل الفخارون بعض التحسينات التقنية إلى صناعتهم، فكانت جفانهم مثلاً تزدان بنقوش دقيقة تُدهن باللون الأسود، أما المواد المستعملة في هذه الصناعة فهي كثيرة نذكر منها: الرمل، الحجر الصابوني، الصلصال، القش، أتون النار.

اعتمد عامل الفخار على الأساليب اليدوية في الصناعة لعدم وجود آلات مخصَّصة لذلك، وتميز فخار اليمن بزخرفته وبألوانه الزاهية.

صناعة الأواني الزجاجية: عرف اليمنيون صناعة الأواني الزجاجية بدليل ما عثر عليه علماء الآثار من مصنوعات زجاجية وكسرها في أماكن متفرقة من البلاد، كما عرفوا البلَّور وكانوا يستخرجونه من الحجارة ويصقلونه بعناية، ويغلب عليه اللون الأبيض. وتمتاز الصناعات الزجاجية بتعدد ألوانها وبطريقة مزج الألوان لإكسابها جمالاً، وقد زُخرفت معظم الأواني الزجاجية برسوم تنم عن ذوق رفيع وتطور في الصناعة، وكانت الكؤوس تُزيَّن بالنقوش والزخارف واللؤلؤ والحجارة الكريمة.

صناعة السفن: عرف اليمنيون صناعة السفن التي ترتبط عادة بوجود الأخشاب الملائمة، ولما كانت أخشاب غابات اليمن ليست بالمتانة والصلابة اللازمتين لبناء السفن، فقد استورد اليمنيون الأخشاب من بلاد الشام وبعض مدن البحر الأبيض المتوسط.

تُصنع السفن الكبيرة من ألواح خشبية مستوردة تشد بعضها إلى بعض بالدسر، ويُجعل في خللها القار، وتُسَدُّ الشقوق والخزوق بالشحوم كما تُطلى بها الأخشاب لمنع تأثرها بالماء، وتُسقف بالألواح وتُثبت بالطائق، وتُستعمل فيها الأشرعة المربعة لدفعها فتجري مع الريح، وكانت قادرة على الإبحار في المحيط الهندي مع الرياح الموسمية، وتُزوَّد السفينة بالأنجر وهو المرساة.

والقوارب أنواع، منها الصغيرة التي تُستخدم في رحلات الصيد وهي بسيطة الصنع، تتكوَّن من جذوع الأشجار والقِرب المنفوخة. وتتنوع السفن فمنها الفلك، القرقور، الجارية، الخلية وهي السفن الكبيرة وعدولى والخليج. ومن أنواع المراكب الصغيرة الزورق، القارب، الركوة والبوص. وكثرت الفرض والموانئ على شواطئ اليمن التي ترسو فيها السفن القادمة من الهند ووادي الفرات ووادي النيل نذكر منها: مدن الفرات، ظفار، مسقط وعمانا (صحار).

صناعة المواد الغذائية: اهتم اليمنيون بتطوير صناعة المواد الغذائية وتوسيعها وتنويع منتجاتهم بهدف تحسين أطعمتهم، واستخدموا من أجل ذلك أدوات وآلات كثيرة منها المطاحن الآلية التي تدور بقوة الماء، والرحى والجواريش لطحن الحبوب والسويق والجريش والبهارات، ومعاصر لعصر العنب واستخراج الزيوت من البذور.

واشتهرت اليمن بزراعة العنب، وتناوله اليمنيون رطباً ومجففاً، زبيباً، ادَّخروه لأيام الشتاء، وصنعوا منه الخمور. وكان سكان الشواطئ يُجفِّفون السمك في الشمس ليؤكل وقت الحاجة وقد يُقدَّم علفاً للحيوانات، وقد يُحفظ السمك في ماء مملح أو في خل.

وعرف اليمنيون صناعة الزيوت المستخدمة في الأكل وفي الإنارة وفي بعض الصناعات، مثل زيت الزيتون، والزيوت المستخرجة من السمسم والكمون والكتَّان، وكانوا يُصدِّرون الزيوت المستخرجة والمصنَّعة إلى الحجاز وإلى مواضع أخرى من جزيرة العرب. والعسل كثير في اليمن، واشتهرت صنعاء بالشهد الحضوري الماذي الذي يُقطع بالسكاكين، وكان يُهدى إلى العراق ومكة وسائر البلدان.

التجارة

كان اليمن ملتقى الطرق التجارية العالمية التي تربط الشرق بالغرب، وقد حدَّد اليمنيون لهم طريقين رئيسين تسير القوافل عبرهما محمَّلة ببضائعهم وبتجارتهم وتجارهم.

الأول: الطريق البري الموازي للبحر الأحمر، والذي تسلكه القوافل بين اليمن والشام عبر الطائف ومكة ويثرب، وتتفرع منه خطوط تتوجه صوب الغرب والشرق والشمال الشرقي. وتتحدث روايات المصادر عن ازدهار هذا الطريق المعروف قديماً باسم طريق العطور أو طريق البخور.

الثاني: طريق البحر الأحمر الذي يربط شرقي أفريقيا بالهند وسيلان والصين وجنوب شرقي آسيا بعامة.

وأدرك اليمنيون منذ القدم أهمية موقع بلادهم على طريق التجارة العالمي فاستغلوه من خلال إنشاء صلات تجارية وحضارية مع بلدان وشعوب الشرق الأدنى والهند وجنوب شرقي آسيا المعاصرين لهم، وأرسلوا القوافل التجارية عبر الحجاز إلى الشام وفلسطين شمالاً، وإلى منطقة الخليج العربي والعراق شرقاً، وإلى مصر غرباً، وبسطوا هيمنة على طرق الملاحة البحرية فسيَّروا سفنهم الشراعية إلى الهند والحبشة وشرقي أفريقيا.

وسيطر المعينيون، ومن بعدهم السبئيون، على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب، وازدهرت في عهدهم التجارة اليمنية، وبخاصة بعد أن نما نفوذ المعينيين وامتد إلى شمالي الحجاز، واقتبسوا أبجدية الفينيقيين وعلومهم في المحاسبة لتدوين حسابات أعمالهم التجارية في البيع والشراء. وخلفت مملكة سبأ مملكة معين بعد أن قضت عليها وورثت مكانتها التجارية، ونمَّى السبئيون مملكتهم وتجارتهم.

وبرز الحِميريون على مسرح الحياة السياسية في العربية الجنوبية، بدءاً من عام (٣٠ ق.م.)، وقد أسسوا دولة استوحت نظمها السياسية والاقتصادية من الشعوب التي

سبقتهم. وتعرَّضت البلاد في عهدهم إلى حملة قام بهـا إيليوس غالوس، حاكم مصر الروماني فـي عـام (٢٥ ق.م.)، للاستيـلاء علـى اليمن واستغـلال ثرواتـه، والسيطـرة علـى الطـرق التجارية وتطهير البحر الأحمر من القراصنة، لكـن الحملـة عجـزت عن دخـول مـأرب بفعل مقاومة أهلها وبالتالي فشلت في تحقيق هدفها.

نقل اليمنيون في قوافلهم البرية والبحرية منتجـات بلادهـم، وفـي طليعتهـا البخـور والطيـوب واللبـان والعطـور التـي احتكـروا إنتاجها، وكانت لها أهمية كبيرة عند الشعوب القديمـة، الذيـن استعملوهـا فـي المعابـد والطقـوس وفـي الأعيـاد الدينيـة والتحنيـط وحـرق الموتى وتعطيـر البيوت والتبـرج، كما تاجروا بمنتجات شرقي أفريقيا كالتبر والعبيد وخشـب الآبنوس وريش النعام والعاج والقرود، والهنـد مثـل: الأفاويـه والسيـوف والأنسجة، والصيـن مثـل: الحرير، والخليـج العربي مثل اللؤلـؤ. وقد تزايد الطلب علـى هذه السلع من قِبَـل الطبقـات الغنيـة والحكَّام وكبـار القادة والموظفيـن، ما دفع التجار إلـى رفع أثمانها، وعمـدت الحكومـات التـي تمـر القوافـل فـي أراضيها، إلى زيادة رسوم المرور والضرائب، فازدادت ثروتها وأضحـت مضرب الأمثال في الغنـى والتـرف حتـى بلغـت مسامـع الرومان وأثارت الامبراطور الروماني أُغُسطس ودفعته إلى إرسال حملة إيليوس غالوس المذكورة.

وكان اليمنيون يستـوردون من جهة أخرى، مصنوعات صـور، ومحصـولات الشام بطريق المبادلـة قبل سـك النقـود، أهمهـا: الحنطة والزيـت والخمـر، ومصنوعـات فينيقيـة ومـا يُحمل من آسيا الشرقية، كالمنسوجات الكتانية والقطنية والأرجوان والميعة والزعفران، والآنية من الحديد والصفر وسبائك الفضة.

أسهمـت التجارة في تطوير أوضاع المملكة الحِميريـة وتقدمهـا، وإثـراء أفـراد الطبقـة «الأرستقراطيـة» والتجارية الذين لهم حظ من رفاهيـة العيـش. وتعاطى التجـارة، إلى جانب التجـار، الملـوك ورؤسـاء المعابـد، وأصحاب الأملاك ورؤساء العشائر.

غيـر أن الأوضـاع الاقتصادية قـد تغيَّرت منـذ القرن السـادس الميلادي بفعـل اشتداد الصـراع الدولي علـى اليمن والـذي أدَّى إلى تغيُّر طـرق التجارة، واحتـلال الحبشة لليمن، وانهيـار سـد مـأرب، ونشـوب اضطرابـات سياسيـة، وتدهـور الأوضـاع الاقتصاديـة والسياسيـة للمملكة الحِميرية مـا أتاح ظروفاً مناسبـة لنمو حركة التجارة في الحجاز بعامة ومكة بخاصة.

الأسواق

أقام اليمنيون لتجارتهـم أسواقاً دائمة في المدن، وأخـرى موسمية مؤقتـة يعرضون فيها السلع وجميع المـواد التجارية لبيعها. وتحوَّلت المـدن التـي تقع علـى طـرق التجـارة البرية والبحرية إلـى محطات للقوافـل والمسافرين، وإلى أسـواق للبيع والشراء، ولكن هذه الأسواق كانت تُقام فقط فـي أوقات وصول القوافل إلى تلـك المحطـات فيقصدهـا الناس مـن تجار ومستهلكيـن، فيتبـادلـون عـروض التجـارة والصناعـة والزراعـة ثـم تنفضُّ بعـد ذلك، والواضح أن تعدد أنواع الغلاَّت والمحاصيل قد ساعـد على نشأة هذه الأسـواق وتوسعها. ومن أقدم أسواق اليمنيين في مدنهم عدن ونجران،

ومن أشهر أسواقهم الموسمية عدن وصنعاء ورابية وحضرموت.

الحياة الثقافية

اللغة: يعكس الوعي البشري لأي شعب واقع نشاطه الاجتماعي بخصائصه المميزة، وإن تجليات العلاقة بين الوجود الاجتماعي والوعي الفكري هي ما ندعوه بالحياة الثقافية، وهي عبارة عن مجموعة معارف عن العالم المحيط بالشعب أو المجتمع والذي يتأثر به أفراده ويؤثرون فيه، ويعيشون في ظروفه وشروطه الخاصة.

ولكل لغة حياة معينة مرتبطة مباشرة بحياة الإنسان، أي بالنشاط الاجتماعي للإنسان، وتتمتع بطاقة من النمو والتطور، بقدر ما يكون للناس الذين يتفاهمون بها طاقة النمو والتطور والارتقاء في ميادين نشاطهم البشري.

انطلاقاً من هذه النظرة إلى اللغة نبني رؤيتنا الواقعية لأبرز معالم الحياة الثقافية لعرب اليمن بخاصة، والواقع أن ثقافة العرب بعامة هي نتاج تاريخهم الطويل الذي يمتد بجذوره إلى مئات السنين قبل الميلاد، وتتألف من معارف عملية اقتبسها العرب من:

- تجاربهم الحياتية.
- خبرات الأقوام المجاورة لهم والتي سبقتهم في مضمار الحضارة.
- ممن سكن معهم وعايشهم من الأجانب.
- من اللغة والشعر والأمثال والأساطير والمعتقدات الدينية.

وإذا كانت الثقافة العربية هي نتاج تاريخ العرب، فإن اللغة هي الأداة المعبِّرة عن هذه الثقافة.

إن البحوث الأثرية ـ اللغوية تبيِّن أن هناك نقوشاً وُجِدت في الجزيرة العربية وبلاد الشام كُتبت بالخطين، القلمين، المسند والنبطي، وسنقتصر حديثنا على الخط المسند لأنه خط حِمير وأقدم الخطوط التي عُرفت في الجزيرة العربية، وقد دُوِّنت به الكتابات المعينية والسبئية والقتبانية والحِميرية والأوسانية، وهي كتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية.

لم يكن الخط المسند قاصراً على العربية الجنوبية، بل كان شائع الاستعمال في أنحاء الجزيرة العربية كافة، فقد عثر الباحثون في العربية الشرقية، في منطقة العروض، على كتابات تعود للعصر الجاهلي مدونة بالخط المسند، وقد ثبت أن أصحابها كانوا يتكلمون بلهجات غير بعيدة عن اللهجة العربية القرآنية. كما عُثر في قرية الغاو في أواسط الجزيرة العربية وفي خشم كمدة، التي تبعد عنها مسافة مائة كيلومتر إلى الشمال، على كتابات بالخط المسند تُثبت انتشار هذا الخط في تلك المنطقة.

وللخط المسند خصائص لغوية خاصة أهمها:

- إن حروفه منفصلة، وهي بشكل واحد لا يتغير بتغير مكان الحرف من الكلمة.
- تبدأ الكتابة بهذا الخط من أي جهة شاء الكاتب.
- إن حروفه غير متشابهة.
- إنه غير مشكول، وإنما يُكتب بحروف صامتة.

غير أن الكتابة بهذا الخط هي أبطأ إلى حد ما من الكتابة بالخط العربي نظراً

لضخامة حروفه بالنسبة إلى الحروف العربية المختزلة.

وعثر المستشرقون في القرنين الماضيين، في الجرف والحجر والعلا وجبل شيحان وكوكبان وشمَّر، على كتابات متأخرة عن المسند ومتفرعة عنه ويعود تواريخ بعضها إلى ما قبل الميلاد، وبعضها الآخر إلى ما بعد الميلاد وربما تتأخر حتى القرن الخامس الميلادي، وهي نقوش قصيرة وشخصية لا تتعرض للشؤون العامة، وهي مثل الخط المسند لا علامات لها، كما أن حروفها متعددة الصور وأداة التعريف الشائعة فيها هي (هـ) أو (ها) بدلاً من (أل) على الرغم من وجود أسماء قليلة مُعرَّفة بأداة التعريف (أل).

كان الخط المسند الخط الرئيس في جزيرة العرب قبل الإسلام، وقد تفرَّعت عنه خطوط لا تزال غير واضحة الأسباب، وقد يكون لأشكال الحروف التي تتطلب دقة في الرسم علاقة بذلك، فمال الكتَّاب إلى ابتكار أشكال مرنة لا تحتاج إلى عناية في الرسم، فاستخدموها في الكتابة لسهولتها.

ويبدو أن الخط المسند مشتق من الأبجديات السامية الشمالية، كالأبجدية السينائية والخط الفينيقي، لكن من الصعب الجزم بذلك لأن صور الأبجديات القديمة التي وصلت إلينا لا تزال قليلة ولا نجد بينها وبين صور المسند تشابهاً كبيراً، لأن شكل حروف المسند لا يشبه شكل حروف الأبجديات القديمة بحيث يمكننا التثبت من أصله، على الرغم من تشابه حروف قليلة بينهما التي لا يمكن معها أن تكون سبباً للحكم باشتقاق خط من خط، والراجح أن الأبجدية العربية الجنوبية تُمثل مجموعة خاصة تفرَّعت من أصل لا يزال مجهولاً.

كان عرب الجنوب يكتبون بطريقة الحفر بأداة حادة على الحجارة والصخر والخشب والمعادن، وهي مادة الكتابة عندهم، متجنِّبين، على ما يبدو، الكتابة بالحبر على القراطيس والجلود والرق وعظام الحيوانات بفعل قابلية تلك المواد للتلف وحاجتها الشديدة إلى العناية.

المعارف العلمية

تمهيد: اكتسب اليمنيون خبرات علمية وعملية متقدمة نسبيّاً بالمقارنة مع ما كان سائداً في أوساط جيرانهم، والواقع أنهم كانوا يختزنون هذه المعارف من تجاربهم اليومية، وهي غير مقصودة لذاتها كتجربة من أجل المعرفة، وإنما هي استجابة لحاجات حيوية آنية تتكرر تلقائيّاً في مجرى حياتهم اليومية العادية. وتشمل المعارف العلمية التي سنبحثها: الإنشاءات المعمارية والطب وعلم الفلك وعلم الأنواء.

الإنشاءات المعمارية: أنشأ المهندسون والخبراء الفنيون السدود، ويُعدُّ سد مأرب أرقاها من الناحية الهندسية، ففيه ما ينمُّ عن مجتمع عريق في الحضارة وفي الأعمال الفنية الرائعة.

وإذا كان السبئيون هم الذين بنوه إلا أن الحِميريين ورثوا عنهم الثقافة المعمارية وقاموا بترميمات عدة للسد بفعل تصدعه على مر الزمن. وقد اتخذ هذا السد شكله النهائي من خلال الترميم الذي أجراه الملك الحِميري شمر يهرعش الثالث في عام (٣٠٠ م)، وهو

يُشكِّل العمود الفقري لتنظيم الري الاصطناعي وتطور الزراعة الكثيفة في اليمن. والسد هو عبارة عن حائط حجري ضخم أُقيم في مربط الدم عند مخرج السيل من الوادي، وبُني على زاوية منفرجة ممتدّاً من الجنوب إلى الشمال مسافة ستمائة وخمسين متراً، وله فتحات وأبواب تفتح وتغلق حسب الحاجة لمرور الماء منها إلى المسايل المتصلة بها لإرواء الحقول والبساتين والمزارع، وأبواب لتصريف المياه الزائدة لتخفيف الضغط الشديد عن السدّ والمخارج.

استُخدمت في بناء السد حجارة بركانية كبيرة اقتُطعت من صخور الجبال القريبة، بلغ طول بعضها مترين وربع، نُحتت ورصفت فوق بعضها بشكل دقيق، ووضعت بين الحجر والآخر مادة الملاط فمسكت تلك الأحجار حتى صارت كالإسمنت.

وأنشا اليمنيون حواجز وحوائط منخفضة في الأماكن المرتفعة لمنع مياه الأمطار من الانحدار فتحصرها هذه الحواجز فتسيل إلى المزارع لتسقيها، وقد تُوجَّه المياه إلى خزانات للاستفادة منها في مواسم انحباس المطر. وقد تخصص أناس باستنباط المياه وتقدير حفر الآبار كما تخصص آخرون بالسيطرة على المياه وحصرها بالسدود.

وأنشأ اليمنيون الأحواض في أماكن كثيرة من اليمن بهدف تخزين مياه الأمطار والإفادة منها عند الحاجة وقت الجفاف، وقد أُحيطت بجدران متينة من الصخور صُنعت وزُيِّنت على هيئة مدرجات حتى إذا انخفض مستوى الماء أمكن، لمن يريد الاستقاء منها، أن ينزل على هذه الدرجات حتى يبلغ الماء. ولمنع تسرب الماء من الحوض يُسَدُّ ما بين الحجارة من منافذ بالمدرة المعجونة، وتُطلى أوجه الجدران بمادة تغطيها لمنع تسرب المياه إلى الخارج، كما يُبلَّط قاع الحوض. وقد تُرفع جدر الحوض فوق الأرض وتُعمل فيه صنابير لخروج الماء منها أو تُنشأ حنفيات لأخذ الماء تُصنع من المعدن أو الحجارة.

وبنى اليمنيون الحصون والمسالح، ويُعدُّ بناء القصور ظاهرة معمارية مميزة، وهي بحد ذاتها من مفاخر فن العمارة اليمني، وتعكس الانقسام الطبقي والتفاوت الاجتماعي في توزيع الثروة وعدم المساواة في المجتمع اليمني، إذ من بين مهامها حماية مصالح الطبقة الحاكمة والغنية، ولهذا شيَّد الأقيال والأذواء والملوك والحكام وكبار التجار قصوراً فخمة وُظِّفت في تشييدها أعمال هندسية وفنية على مستوى متقدم. واستخدم المعماريون الغرانيت والكلس والبرونز والرخام في بنائها، واهتموا بهندسة الحجارة وصقلها وتزيينها، واستعملوا الحجارة الملونة في بناء بعضها، وكسوا أوجه الجدران بالرخام وزيَّنوها بألواح رقيقة مزخرفة بالصور والنقوش، كما فرشوا أرض الغُرف والمعابد بالرخام ليكسبها رونقاً، ووضعوا شرائح مُرقَّقة شفافة في النوافذ وكسوا السقوف والأبواب والأعمدة وبعض الجدران بصفائح من الذهب والفضة والحجارة الكريمة وعاج الفيلة والأخشاب النفيسة.

ودُعيت بلاد اليمن ببلاد القصور لكثرة ما بُني فيها، نذكر منها: غمدان، ناعط، صرواح، سلحين، ظفار وغيرها، ويُعدُّ قصر غمدان في صنعاء أعظم هذه القصور وأضخمها.

وكان بعض القصور عبارة عن مدن حكومية تشتمل على دار الأمير، وهي مركز الحكومة، وشُيِّد المعبد في مقابلها، مثل رئام وأتوه.

ونشأت في اليمن مدن متعددة تركَّزت في الواحات، والجبال، وعلى مقربة من الأنهار، والأودية، وعند طرق التجارة البرية والبحرية، والمواقع ذات الأهمية العسكرية. ويبدو أن المهندسين كانوا يضعون مخططاً للمدينة يُحددون فيه أماكن المنشآت والمرافق العامة.

وتختلف المدن من حيث شكل مخططاتها بين مستطيلة ومربعة أو على شكل هلال مع ميل إلى الاستطالة. وتضم المدينة غالباً المعبد والبئر ودار الندوة وقصر الملك أو الأمير وأحياء سكن العامة والسوق والمقابر، وغير ذلك من المنشآت والمرافق الخدماتية، يلي ذلك الضواحي المحيطة بها، ويحيط بها جميعاً سور وأبراج لحمايتها من المعتدين وتمكين المدافعين من صد هجماتهم.

الطب: الطب علاج الجسم والنفس، وهو من المعارف المطلوبة في المجتمعات الإنسانية كافة بفعل ما له صلة بصحة الإنسان وحياته. وكان اليمنيون عاجزين عن تفسير أسباب المرض تفسيراً علميّاً، لذا اعتقدوا أنها تعود إلى غضب الآلهة على الناس، وإلى أرواح شريرة، فكانوا يستطبُّون بالسحر والرقى والتعاويذ ولكنهم، مع مرور الزمن وبفعل الملاحظة وتجارب الحياة، حصَّلوا بعض المعارف الطبية التي اقتربت بهم من صحة تعليل المرض والشفاء، فاستعملوا العقاقير التي استخرجوها من النباتات والأشجار ومنتجات الحيوان.

كان للطبيب منزلة كبيرة في المجتمع، وعالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجرح، وكانوا يضمِّدون الرأس لتخفيف الصداع، والعين بوضع الدواء فيها أو على الخرقة ومن ثمَّ تضميدها بها، وكذلك كانوا يضعون الأدهان على الضماد لتضميد الجروح أو الأورام أو موضع الألم، ويكون الشفاء عند العرب بعامة في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار.

استُخدم العسل في مداواة الإسهال المفرط وسوء الهضم، كما استُخدم ممزوجاً بمواد أخرى لصنع عجائن ولصقات. واستُعملت الحجامة في معالجة أوجاع الرأس. واستخدم الأطباء الكي في معالجة أمراض المفاصل والجروح والقروح ووجع الرأس وذلك بكي الجزء المريض بحديدة محماة أو بحجر محمًّى، وكثيراً ما كانوا يُعالجون بالبتر.

واستعمل اليمنيون الأعشاب والنباتات لمعالجة الأمراض، كما استخدموا السواك لتنظيف الأسنان والتجبير في كسور العظام ووضع المناقيع فوق العضو المصاب عظمه بالكسر.

وتَخصَّص نفر من اليمنيين بمعالجة الحيوان لما له من أهمية في حياتهم واقتصادهم، وهم البياطرة، ويتم العلاج بالأدوية.

الفلك: الفلك علم يبحث في الأجرام السماوية وأحوالها، وكان اليمنيون بأمس الحاجة إلى معرفة الظاهرات الفلكية وتحولاتها لارتباطها بطبيعة حياتهم الاقتصادية. وقسَّم العرب الجاهليون بعامة حركة القمر في السماء إلى منازل يجري القمر بينها في نظام محدَّد،

ويتعاقبون إذا سروا، بطلوع النجوم وغروبها. ووردت كلمة البروج في القرآن الكريم، وهي إما ان تكون أجرام النجوم الهائلة وإما أن تكون المنازل التي تنتقل فيها تلك الأجرام في أثناء دورانها. والخسوف والكسوف ظاهرتان معروفتان في اليمن وكذلك الشهب والنيازك. وكان اليمنيون يلجؤون إلى المتفرسين في دراسة الأجرام السماوية لمعرفة الأمور الغيبية وذلك بالاستدلال عليها من ظواهر الكواكب والنجوم. ويختص الكهان بالأمور المستقبلية والعرافة بالأمور الماضية، والمراد بها التنبؤ واستطلاع الغيب.

واهتم اليمنيون بالتوقيت، أي تعيين الأوقات وضبط الأزمنة، وقد استدعت ذلك حاجتهم إلى تحديد أوقات الزراعة والمواسم وتسيير القوافل التجارية، ويُقاس الوقت بالسنين، وتتألف السنة من اثني عشر شهراً، أو ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوماً، وقسَّموا السنة إلى أربعة فصول، والفصل إلى أشهر، والشهر إلى أسابيع، والأسبوع إلى أيام، واليوم إلى ساعات، واستعملوا التقويم الشمسي أو القمري أو التقويمين معاً، والفصول عندهم هي: الشتاء والربيع والصيف والخريف، ولأسماء بعض الأشهر عند العرب الجنوبيين علاقة بالجو والزراعة والحياة الدينية مثل ذو قبض وذو فدران وذو ثبتن وذو عشتر.

الحياة الدينية

الدين هو الإيمان بوجود كائنات روحية وقوى خارقة، آلهة، أرواح، تكون فوق الطبيعة والبشر فتسيِّرهما وتؤثر في حياة الكون. وقد أدَّى تطور القوى المنتجة في اليمن وقيام صلات حضارية بين اليمنيين وبين العالم الخارجي، إلى تطور مستوى الوعي الديني عند هؤلاء تمثَّل في تراجع الظاهرات الدينية البدائية وظهور الوثنية، وقد ظهرت مع قيام دولة سبأ. والواقع أن نشأة الوثنية في العربية الجنوبية المتحضِّرة نسبيّاً جرت على خلفية أوضاع اليمنيين الاجتماعية وشروطها المادية، والمعروف أن هؤلاء كانوا يحترفون الزراعة ويمارسون التجارة المرتبطة أساساً بمعرفة الفلك وتنظيم أوقات الزراعة، والرياح، والليالي الصافية.

إن المصادر المتعلقة بالدين قاصرة على أسماء آلهة فقط لذلك تفتقر إلى:

- تعاليم دينية.
- آداب دينية أو صلوات أو أغاني أو وصايا متعلقة بالوثنية.

الواقع أن الصفات الحقيقية للإله الوثني مهملة إهمالاً يكاد يكون تامّاً، فالإله يُذكر ومعه وطنه ووصف لنصبه وسدنته وأعوانه ثم الشخص المسلم الذي حطَّمه، لكننا لا نجد وصفاً حقيقيّاً للوثنية.

برزت عبادة النجوم والكواكب في العربية الجنوبية متأثرة بوثنية بلاد الرافدين، ومصدرها الصابئة وبقايا الكلدانيين، ولكنها شكَّلت انعكاساً لأوضاع اليمنيين الاقتصادية والزراعية والتجارية، وقوام هذه العبادة الثالوث الذي يمثله القمر والشمس والزهرة، وتدل عبادة هذا الثالوث الكوكبي على أن العرب الجنوبيين بعامة هي عبادة كواكب.

يُعدُّ القمر الأول بين أركان هذا الثالوث الذي عرفه السبئيون باسم ألمقة، والمعينيون

باسم ودّ، والحضرميون باسم سين، والقتبانيون باسم عم وعمم، وعُرف أيضاً عند السبئيين وغيرهم باسم ورخ وهوبس وشهر وكهل وأبم، وذلك بوصفه أكبر الآلهة سنّاً والمقدم عليها جميعاً.

وقد أُطلق على أسماء القمر جميعها لفظ مشترك هو إيل، أي الإله، ويقابله هبل عند العرب الشماليين وبعل عند الساميين، وقدَّمه أهل اليمن على نحو ما فعل البابليون والكلدانيون، والقمر هو الأب السماوي وزوج الشمس.

إن الظاهرة اللافتة في الديانة العربية الجنوبية هي اعتبار إلهة الشمس أُمّاً، فهي زوجة القمر وأُم عشتر، يجتمعان مرة في كل شهر عند اتجاه الكوكبين نحو الأرض، وهي لذلك إلهة البركة والخصب والحمل.

تبدأ أسماء الشمس غالباً بلفظ ذات، وسميت في النصوص المعينية باسم نكرح، وعند السبئيين ذات حميم وذات بعدن وذات غضرن وذات ظهرن، وفي النصوص القتبانية ذات صنتم وذات صهرن وذات رحبن، وتدل هذه الأسماء كلها على السخونة الشديدة.

يلي القمر والشمس في الثالوث الكوكبي الزهرة، عشتر، وهو ابن القمر والشمس، وقد ورد هذا الاسم في أساطير العربية الجنوبية. وعشتر إله مذكر في العربية الجنوبية ومؤنث في العربية الشمالية، وهي العزى، والزهرة هو النجم الثاقب الذي ورد في القرآن الكريم.

وأطلقت النقوش العربية الجنوبية أسماء مختلفة للآلهة الثلاثة: ود، عثيرت وملك. والمعروف أن ود اسم إله القمر، وعثيرت امرأة ود، وهي إلهة الشمس، ولا بد أن يكون اسم ملك هو اسم إله الزهرة ويُرمز له بالتاج، ولا بد من أنهم عملوا أصناماً ترمز إلى هذه الآلهة.

وشيَّد اليمنيون في المدن الكبرى معابد لآلهتهم كانت على شيء من البذخ أشهرها معبد ألمقة الكبير بمأرب، ولكل معبد كهنة يقيمون الطقوس ويقبضون العوائد ويتصرفون في الأوقاف، ويشير ذلك إلى القوة التي تمتعوا بها والقائمة على ثلاثة عوامل هي:

اجتماعية: فقد كان أكثر رجال الدين من الطبقة «الأرستقراطية» وكبار الأغنياء وشكلوا سنداً للطبقة الحاكمة.

اقتصادية: كان لرجال الدين العُشر من محصول اللبان، ومنتجات الأرض، وأرباح التجارة، لذلك كان مقدار الثروة التي يحصلون عليها كبيراً.

سياسية: انعكست القوة الاقتصادية التي تمتع بها رجال الدين، وبخاصة في مملكتي سبأ وحِمير، فانتزعوا الصلاحيات الدينية من يد الملوك.

وانتشرت الوثنية في اليمن، واشتهر اليمنيون بعبادة الأصنام والأوثان، وقد اتخذت آلهة من دون الله.

وعرف العرب الجنوبيون عبادة النار أو المجوسية، وقد تسرَّبت إليهم عن طريق الاتصال بالفرس، وقد أشير إلى وجود المجوس في اليمن في أخبار الفتوح.

وانتشرت اليهودية في اليمن في ظل حكم المملكة الحِميرية، ودخلت إليها عبر رافدين حتى أضحت هذه البلاد أحد المراكز اليهودية المهمة في جزيرة العرب:

الأول: التَّهَوُّد، فأثناء مرور الملك الحِميري

تبان أسعد أبو كرب بيثرب في طريق عودته إلى اليمن من غزوة قام بها في الشمال، اجتمع بحبرين يهوديين من بني قريظة، فأُعجب بما وصفا له عن دينهما فاعتنقه كما ذكرنا، وأخذت اليهودية تنتشر في اليمن منذ ذلك الحين وتتوطد حتى بلغت ذروتها في عهد الملك الحِميري ذي نواس في أوائل القرن السادس الميلادي.

الثاني: التجارة والهجرة، بفعل اتصال اليمن بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية، ببلاد الشام، وهجرة جماعات من اليهود إليها عن طريق الحجاز، وقد جذبهم هذا البلد المتحضر وازدهار التجارة في ربوعه.

وأنشأ اليهود مستوطنات لهم في نجران بشكل خاص، المدينة ذات الموقع التجاري المهم، والمنطقة الزراعية الخصبة، عاشوا فيها مع العرب الوثنيين والمتنصِّرين. وتسرَّبت إلى اليمن الأفكار التوحيدية والتعاليم اليهودية وما تضمَّنته من خلق السماوات والأرض، والبعث والحساب، والجنة والنار ومصطلحات مثل: جنهم، الشيطان وإبليس.

وتسرَّبت النصرانية إلى العربية الجنوبية، اليمن، عبر رافدين بري وبحري. فقد دخلتها برّاً من بلاد الشام عبر الحجاز ومن العراق مع القوافل التجارية، ودخلتها بحراً بواسطة السفن اليونانية، كما دخلتها مع الأحباش الذين كانوا على اتصال دائم باليمن وبقية العربية الجنوبية. وكانت هذه المنطقة تشهد، منذ منتصف القرن الرابع الميلادي، صراعاً حادّاً على النفوذ بين البيزنطيين وحلفائهم الأحباش وبين الفرس، ولكل طرف أطماعه الخاصة في احتلال اليمن لاستغلال موارده الاقتصادية بشكل خاص.

غير أن النصرانية في اليمن كانت مدعاة لعدم الاهتمام لأنها اعتمدت على دولة الحبشة التي أخذت بالتداعي، والدولة البيزنطية المنهمكة بقتال الفرس، باستثناء نجران التي انتشرت فيها النصرانية بشكل لافت، ولعلها كانت الموطن الوحيد الذي توطدت فيه، وذلك بحكم اتصالها التجاري مع العراق عبر وادي الدواسر واليمامة والبحرين، كما كانت على اتصال وثيق بالحضارة والثقافة العربية السورية، وتعزَّزت في ظل الاحتلال الحبشي الثاني لليمن (٥٢٥ ـ ٥٧٥م)، وأنشأ الأحباش فيها كنيسة عُرفت بكنيسة نجران وببيعة نجران وبكعبة نجران، وكانت بمثابة مزار يقصده العرب النصارى من كل صوب.

لقد اختلفت مبادئ الديانة النصرانية عما ألفه العرب الوثنيون في اليمن، ويبدو أنها، بما أثارته من قضايا لاهوتية، لم تصل إلى أعماق اليمني، ومن هنا ظل العهد الجديد الذي هو كتاب النصرانية في الهامش بالنسبة للتفكير العربي بعامة واليمني بخاصة.

وظهرت في اليمن عبادة أخرى هي عبادة الرحمن متأثرة باليهودية والنصرانية لكنها كانت غامضة المعالم ومُشوَّشة الملامح. ظهرت هذه التسمية في نقش الملك الحِميري شرحبيل بن يعفر اليهودي الاعتقاد، على جدار سد مأرب في أواسط القرن الخامس الميلادي، كما ظهرت في نقش الملك عبد كلال بن مثوب النصراني العقيدة، على جدار السد أيضاً، ذُكر فيها الرحمن. والواضح أن استخدام اليهود والنصارى معاً هذه

التسمية في اليمن يعني أنهم استخدموا تسمية أو صفة لله كانت شائعة عند العرب بعامة واليمنيين بخاصة.

وعرف اليمنيون الله، واتبعوا الأسلوب التوحيدي من خلال تجريد فكرة الله، فسمى السبئيون معبودهم «ذسموي» أي إله السماء، إنه الإله الأسمى والأعلى، وهو لا يحمل اسماً خاصاً به، ومن غير المؤكد ما إذا كانوا قد اعتنقوا عقيدته متأثرين باليهودية أو بالنصرانية، وإنما يمكن عدُّه تجسيداً لفكرة وحدانية الله.

الخلاصة

- تأثر الحِميريون بنظم من كان قبلهم، كالمعينيين والسبئيين، واستوحوا منهم نظمهم الحضارية.

- اتصف النظام السياسي في الدولة الحِميرية بالفردية المطلقة في بادئ الأمر، ثم تحوَّل إلى ملكية مقيدة.

- طوَّر الحِميريون أنظمة الري، فسخَّروا المياه الجوفية والسطحية الموسمية بوسائل متقدمة، ورمموا سد مأرب أكثر من مرة بسبب التصدعات المتلاحقة التي أصابته على مر الزمن.

- طوَّر الحِميريون الصناعة، فظهرت في عهدهم صناعات جديدة إلى جانب ما كان قائماً منها، وأدخلوا بعض التقنيات على وسائلها وطرقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه، فتجاوزت الحرفة طور العمل الصناعي المنزلي لتلبية حاجات التبادل، ونمُّوا الحرفة بفعل توافر المواد الضرورية. ويُعدُّ التعدين من الحرف الأساسية، فصنعوا من المعادن الأواني والتماثيل واللوحات وغيرها مما ارتبط بحياتهم اليومية، كما ضربوا النقود المعدنية، وصنعوا من الحجر أدوات وأوعية قابلة للاستخدام، ونشَّطوا صناعة الغزل والنسيج والأصباغ والعطور والفخار وغيرها.

- اشتهرت حِمير بخطها المسند، وهو أقدم الخطوط التي عُرفت في الجزيرة العربية إلى جانب الخط النبطي، دوَّن الحِميريون به الكتابات المعينية والسبئية والقتبانية والحِميرية والأوسانية، وهي كتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية، وشاع استعمال هذا الخط في أرجاء الجزيرة العربية.

- اكتسب الحِميريون خبرات علمية وعملية متقدمة نسبيّاً بالمقارنة مع ما كان سائداً في أوساط جيرانهم، استخلصوها من تجاربهم اليومية، مثل الإنشاءات المعمارية وعلم الفلك وعلم الأنواء والطب.

- برزت عبادة النجوم والكواكب واضحة في اليمن في العهد الحِميري متأثرة بوثنية بلاد الرافدين، ولكنها شكَّلت انعكاساً لأوضاعهم الاقتصادية والتجارية وقوامها الثالوث الذي يمثله القمر والشمس والزهرة. وعرف الحِميريون عبادة النار أو المجوسية، وقد تسربت إليهم عن طريق الاتصال بالفرس، ودخلت اليهودية إلى اليمن في عهدهم وكذلك النصرانية، وجرى صراع بينها على أرض اليمن دفع الحِميريون ثمنه بزوال مملكتهم على يد الأحباش.

المصادر والمراجع

- **الاكتشافات الأثرية في اليمن**، مصر ١٩٦١م.
- الألوسي، محمد شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**. باعتناء محمد بهجت الأثري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٢٤م.
- الجرهمي، عبيد بن شرية: **أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها**، أو **كتاب الملوك وأخبار الماضين**. ملحق بكتاب **التيجان في ملوك حمير** لوهب بن منبه. حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٤٧هـ.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: **معجم البلدان**، دار صادر ـ دار بيروت ١٩٧٩م.
- زيدان، جرجي: **العرب قبل الإسلام**، دار الهلال، القاهرة.
- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. دار العلم للملايين، بيروت.
- فخري، أحمد: **اليمن ماضيها وحاضرها**، القاهرة، ١٩٥٧م.
- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم الدينوري: **كتاب الأنواء**. حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٥٦م.
- الكلبي، هشام بن محمد السائب: **كتاب الأصنام**. تحقيق محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- ابن المجادر، جمال الدين بن يعقوب: **صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسماة بتاريخ المستبصر**، اعتنى بطبعه أوسكر لونغرين، بريل، ليدن، ١٩٥١م.
- ابن منبه، وهب: **كتاب التيجان في ملوك حمير**. حيدر آباد الدكن، الهند، ١٣٤٧هـ.
- النعيم، نورة عبد الله العلي: **الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد**، الرياض، ١٩٩٢م.
- نلسن، ديتليف: **الديانة العربية القديمة**، فصل في كتاب **التاريخ العربي القديم**، تعريب فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣م.
- الهمذاني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء ـ دار الآداب، بيروت ـ لبنان.
- هومل، فرتز: **التاريخ العام للبلاد العربية الجنوبية**، فصل في كتاب **التاريخ العربي القديم**، تعريب فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣م.
- ولفنسون، إسرائيل: **تاريخ اليهود في بلاد العرب**، القاهرة، ١٩٢٧م.
- يحيى، لطفي عبد الوهاب: **العرب في العصور القديمة**، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٧٩م.
- Diodorus, S.: **Library of History**, Trans. by R.M; Greer and C.H; old father. Loeb classical Library; London; 1970.
- **Periplus of the Erythean Sea**. Trans. by Wilfred scholf, Oriental Books, New Delhi, 1954.
- Pliny, G.: **Natural History**, Trans. by Rakhan, London, 1969.
- Strabo: **The Geography of Strabo**, Trans. by H.L. Jones, Loeb Classical Library, London, 1983.



الحضارة الحورية
(الميتانيون)

أ. د. جمال البدري



الجغرافيا والتاريخ

الميتانيون هم أقوام جبليون من أصول هندو ـ أوروبية قفقاسية؛ موطنهم الأصلي (أورارتو)، وهي جمهورية أرمينيا الحالية في القوقاز، ويسميهم بعضهم (هوري) أو الميتانيين نسبة إلى مملكة (ميتاني) التي أسسوها، وهم من الأقوام الوثنية. تمتد البيئة الجغرافية لهؤلاء ضمن الإقليم الواقع إلى الشمال والشرق من بحيرة (وان) التركية بمحاذاة هضبة الأناضول، التي فيها منابع نهر دجلة، ثمَّ غادر أغلبهم وعبروا جبال زاغروس بين العراق وتركيا واتجهوا نحو بلاد آشور في حوالي القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ومن هناك انتشروا؛ فبعضهم ذهب إلى لبنان (فينيقيا) وبعضهم الآخر ذهب إلى فلسطين. ورد ذكر الحوريين في التوراة بعد هذه الهجرة عندما أقام بعض منهم في منطقة جبل سعير جنوب شرقي فلسطين التي سميت لاحقاً بأرض آدوم.

ومن جهة أخرى، تمكن الحوريون من قهر بلاد آشور والقضاء على عهد حاكمهم (أداد الأول وشمشي داكان الأول) وأسسوا في شمال العراق إمارات عدة امتد نفوذها إلى آسيا الصغرى (تركيا)، إلا أنهم لم يتمكنوا في أول الأمر من إقامة وإنشاء مملكة موحَّدة لهم، رغم قدراتهم العسكرية المتطورة على الأقوام المجاورة، لكن في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد تمكن الحوريون من تأسيس إمارة لهم في شمال سورية ضمن إقليم البليخ وخابور الفرات؛ واتخذوا مدينة (واشوكاني) عاصمة لهم فيما اتخذوا مدينة (أرابخا) في شمال العراق مركزاً ثانياً لهم. وأرابخا هي حالياً مدينة كركوك، وإلى جانبها بنوا مدينة أخرى مهمة هي (نوزي) على بُعد كيلومترات عدة، ومن هذه المدن أعاد الحوريون نفوذهم السياسي من جديد؛ ونجحوا بتأسيس امبراطورية تمتد من بحيرة وان شمالاً إلى حدود الدولة البابلية جنوباً؛ ومن أرمينيا شرقاً إلى (حلب) في بلاد الشام غرباً؛ عُرفت بمملكة (ميتاني)؛ وبذلك صاروا على تماس بمناطق النفوذ السورية للامبراطورية المصرية على عهد تحوتمس الثالث (١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق.م)، الذي كان يطارد الهكسوس بعد إخراجهم وطردهم من مصر؛ وهروبهم إلى سورية.

لقد نجح الحوريون بفرض نفوذهم لما تميَّزوا به من تفوُّق في استخدام الخيول والعربات الحربية التي تجرها الخيول السريعة، لكن الحوريين واجهوا تنافساً من:

١ ـ الكوشيين في العراق القديم.

٢ ـ المصريين في بلاد الشام.

إلا أنهم لم يدخلوا في حروب مع الكوشيين؛ في الوقت الذي اصطدموا بالجيش المصري وهو في أعقاب مطاردته للهكسوس في سورية؛ لكن الجيش المصري انتصر عليهم، ثمَّ ما لبثت العلاقات بين الحوريين والمصريين أنْ تحسَّنت على عهد الملك أمنحوتب الثالث (١٤١٧ ـ ١٣٧٩ ق.م)، واستمر الحال لغاية عهد الملك أمنحوتب الرابع، وهو المعروف بالموحِّد إخناتون (١٣٧٥ ـ ١٣٥٨ ق.م)، الذي شهد عهده انحسار النفوذ المصري عن بلاد الشام؛ فاستثمر الحوريون الوضع الجديد، فهجموا على سورية بزعامة ملكهم (شوبيلوليوما) وسيطروا عليها وأدخلوها في امبراطوريتهم.

وبالمقابل وجد العهد الآشوري بزعامة الملك (أوبلط الأول)، ومن بعده الملك (شلمنصر الأول) الفرصة سانحة بعد ظهور التنافس الحثي-الحوري؛ فهجم الملكان تواليًا على مملكة ميتاني الحورية واسترجعا الأراضي التي سبق للحوريين الاستيلاء عليها، وعاد العهد الآشوري القديم باسم العهد الآشوري الوسيط (١٥٩٥ - ٩١١ ق.م)، ليحكم شمال العراق بعيداً عن الوجود الحوري السابق.

الحضارة الحورية

لم يكن للحوريين تأثير كبير على الحضارة في المنطقة؛ وذلك بسبب لغتهم المعقَّدة جدّاً التي عزلتهم عن السكان المحليين؛ فهي ليست لغة سامية ولا لغة هندو-أوروبية، بل خليط من لهجات جبلية لأقوام عدة قفقاسية وقوقازية؛ تكتب بحروف مسمارية أكادية قديمة، فهي خليط غير متجانس؛ يدل على تكوينهم الثقافي غير المستقر، وفيها تشابه من لغة أوغاريت القديمة، فهم أقرب إلى حياة البداوة منهم إلى حياة الحضارة المستقرة التي كانت في المنطقة.

وأبرز إضافاتهم إدخال العربات الحربية التي تجرها الخيول بسرعة عالية لتحقيق النصر على جيوش الأعداء في الحروب من خلال الالتفاف على الأجنحة واختراق قلب الجيش المعادي وإرباكه وهزيمته. وأخذوا من الحضارة الآشورية الكثير من المعارف العسكرية من دون غيرها؛ فنجحوا بذلك، كما أنَّ لهم دوراً في استثمار الأراضي الزراعية الخصبة في بلاد الشام وتربية المواشي وخاصة الأبقار؛ بما يكفي لإدامة تجهيز جيوشهم وحروبهم من دون الاعتماد على الآخرين؛ وكذلك كان لديهم نشاط تجاري مع سواحل البحر المتوسط عبر مدينة (حلب).

ويعتقد الكثير من المؤرخين، ومنهم المؤرخ الكردي محمد أمين زكي في كتابه: نقلاً عن الموسوعة البريطانية: «إنَّ الحوريين يشكلون أحد الأقوام التي ينتمي إليها الأكراد باعتبارهم من الآريين»، لكن لا توجد إثباتات وثائقية تؤكد هذا الاعتقاد، سوى تواجدهم الجغرافي المركزي ضمن إقليم جبل (الجودي) الوارد ذكره في القرآن المرتبط بسفينة سيدنا نوح: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود/٤٤]، وربما كان قرب الحوريين من الكوشيين ما جعل من المؤرخين من يربطون بينهم وبين أصلهم (المشترك).

كانت نهاية مملكة الحوريين في ميتاني على يد الحثيين بزعامة ملكهم (لابارنا) الذي احتل مدنهم الواحدة تلو الأخرى في بلاد الشام والعراق، وكان الحثيون أقوى وأكثر عدداً منهم؛ والأقدر على التعامل مع عناصر الصراع في المنطقة، رغم أنَّ الحوريين سبق لهم معاونة الحثيين في حربهم ضد المصريين وذلك في معركة (مجدو ١٤٧٩ ق.م)، والتي قادها ملك قادش؛ لكن الحثيين انقلبوا عليهم وسط صراع على النفوذ في المنطقة، التي لم تحتمل وجود أكثر من قوة كبيرة متفرِّدة بالنفوذ والسيطرة عليها، وفي الوقت نفسه (ثار) الأشوريون على الحوريين ما عجَّل بأفول سيادتهم؛ وبذلك انتهت مملكة ميتاني الحورية؛ فصار نهر

الـفـرات الـحـد الـفـاصـل بـيـن الحثيين والآشوريين، وتوزع الحوريون بين هاتين الدولتين القويتين فذابوا في شعوبها واندثروا بالتزاوج المختلط بسرعة.

وبشكل عام، فتاريخ الحوريين كأقوام قفقاسية قوقازية ثمَّ كفاتحين محاربين يكتنفه الكثير من الغموض التاريخي؛ وقلَّما توافرت معلومات عنهم إلا ما وُجد في رسائل نينوى الآشورية وفي رسائل تل العمارنة المصرية، ولعلَّ عدم قدرتهم على التأثير الحضاري في مجتمعات الشرق الأوسط القديم؛ وانشغالهم بالحياة الحربية من دون غيرها؛ قد ساهم في هذا التهافت التاريخي.

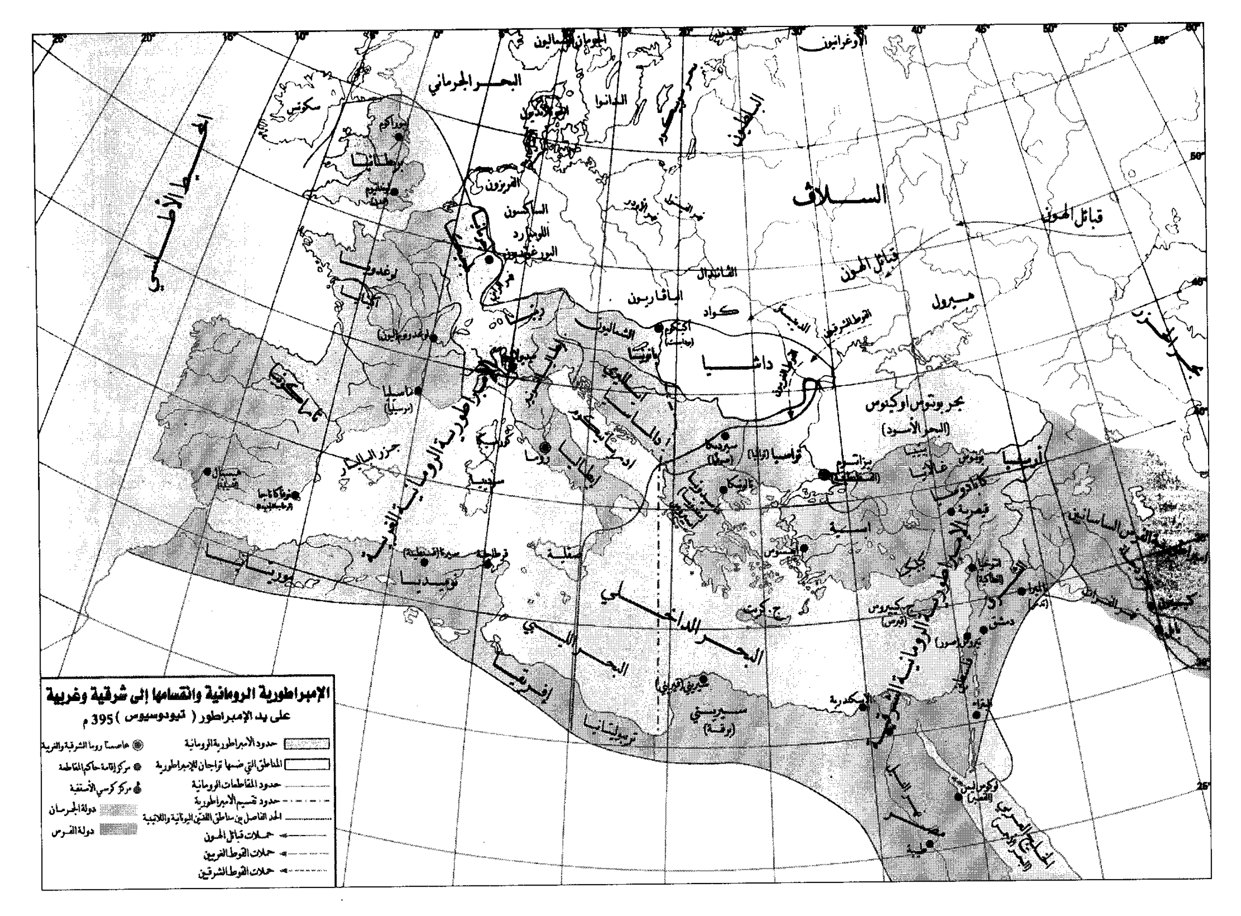
المصادر والمراجع

- باقر، طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**؛ ج١: مديرية الآثار العامة - بغداد ١٩٥٥؛ ص٢١١.
- زكي، محمد أمين: **خلاصة تاريخ الكورد وكوردستان** ج١ (عن الموسوعة الحرة: ويكيبيديا).
- سوسة، أحمد: **اليهود والعرب في التاريخ**، وزارة الإعلام - بغداد ١٩٨١.
- Speiser E.A.: **Introduction to Hurrian**, 1941, J. Puhvel, Vol. II.



الحضارة الرومانية

أ. د. حنان قرقوتي



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع

عـاش الرومـان منـذ نشأتهم فـي مدينة «رومـا» التي تقع علـى ضفة نهـر «التيبر» في وسط إيطاليـة، على بُعد ١٦كم شرقي «البحر التيرانـي». وتقع المدينة علـى ٢٠ تلّاً، وتمتد ضواحيها إلـى المناطق السهليـة. ثم توسعت ممتلـكات الرومـان بفعـل قوتهـم العسكريـة الهائلة التي تمكنت مـن السيطرة على معظم العالم القديم.

فقـد سيطـرت «رومـا» على معظـم شبه الجزيرة الإيطالية حوالـي سنة (٢٧٥ ق.م)، ثـم شملت الامبراطورية، وهـي في أوجها في القـرن الثاني الميـلادي، نحو نصـف أوروبا والقسـم الأكبـر مـن بـلاد الشـام والساحل الشرقـي لأفريقيـة، ثم بـدأت بالتفتُّـت شيئاً فشيئـاً حتـى أطاحـت القبائـل الجرمانيـة، المولعـة بالحرب، بآخر امبراطور روماني في القسـم الغربـي مـن الامبراطوريـة سنـة (٤٧٦م).

تسمية الرومان

سُمِّـيَ الرومـان بهـذا الاسـم نسبـة إلى عاصمتهم «روما» التـي تُعد أقدم عاصمة في الدول الغربية القائمة اليوم، وما فتئت مركزاً روحيّـاً للعالـم النصرانـي (المسيحي) منذ القـرن الأول لولادة السيـد المسيح عليه السلام حتى اليوم، وهـي التي ساعدت فـي تحضُّر العالم العربي. وقد سُمِّيَت «روما» لأهميتها التاريخية وتاريخهـا الطويـل بـ«المدينة الأزليـة»، وهي تضـم بيـن جنباتهـا حاليّـاً كثيراً مـن الآثار القديمـة التي تنـمُّ عـن حضـارة عريقة في القِدَم. وقد ظلت هذه المدينة لمئات السنين مركـز القـوة فـي أوروبـا وشمالـي أفريقيـة وغربـي آسيـة. وابتـدأ إنشاؤهـا، كمـا تقول أسطورة رومانية، عندمـا قام أخوان توأمان، هما «رومولوس وريمـوس» بتأسيس مستوطنة سنـة (٧٥٣ق.م) علـى «تل البالاتيـن»، وهو أحد تلال «رومـا» المطلة على نهـر «التيبر»، ويَعتقد معظـم المؤرخين أن مَـن سكنوا تلك البقعة كوَّنوا شعباً عُرف باسم «اللاتين».

الحكم الروماني

ينقسم الحكم الروماني إلى ثلاث مراحل:

١ ـ مرحلة النظام الملكي.

٢ ـ مرحلة النظام الجمهوري.

٣ ـ مرحلة النظام الامبراطوري.

أولاً ـ مرحلـة النظـام الملكـي: امتـدت مرحلة النظـام الملكي الرومانـي حوالي قرن ونصـف، منـذ قيـام مدينـة «رومـا» سنـة (٧٥٣ ق.م) حتـى حوالـي سنـة (٥٠٩ ق.م)، ويُعتقد أنه توالى على عرش «روما» خلال هذه المرحلة ستة ملوك.

وكان مجلـس الشيوخ (السناتـو)، المؤلف مـن زعمـاء عائـلات «رومـا» البـارزة، يقوم بتوجيـه الملـك. وكان محرَّمـاً علـى أعضـاء المجلس الـزواج من الممثـلات، وذلك «رغبة فـي المحافظة علـى منزلتهـم، ومـا لهم من احتـرام»، ثـم أُبطلـت تلـك السُّنَّـة فـي عهد «يوستينوس الأول» الذي كان يلتقي المواطنين فـي مجالـس للتصويت علـى قـرارات الملك ومجلـس الشيوخ، ولكن لم يكن لهذه المجالس أي اختصاص تشريعي.

وكان الملـك هـو القانـون ومصـدره، وهو الـذي ينظِّم العلاقـات بين النـاس فـي الدولة

أكثر من القانون، ومن جهة أخرى كان تدخُّل الملك في حالات النزاع بين المواطنين مقصوراً على تعيين مُحَكِّمين لبحث النزاع وإصدار الأحكام باسم الملك.

وكان الملك يمارس سلطات جنائية واسعة، خاصة ضد جرائم الجناية والقتل بدون مبرر، أما فيما عدا ذلك فكان الملك يعيِّن هيئة قضائية، مهمتها تحديد نوع الجريمة المرتكَبة، وكان القضاة يُصدرون أحكاماً تتراوح بين الغرامة، والجلد، والنفي، والإعدام، وكان من حق الملك تخفيفها. كما كان من واجبات الملك الأمر بجباية الأموال من أجل شَن الحروب، أو إقامة المنشآت العامة، وما عدا ذلك لم يفرض على الرومان أي التزامات مالية.

ثانياً ـ مرحلة النظام الجمهوري: امتدت مرحلة النظام الجمهوري حوالي ٥٠٠ سنة، من سنة (٥٠٩ ق.م) إلى سنة (٢٧ ق.م)، ووطدت روما في هذه المرحلة سيطرتها ومركزها، واكتسبت عن طريق الحروب تجاربها السياسية والإدارية، كما استفادت من حضارة الشعوب الأخرى.

واحتفظ النظام الجمهوري بملامح كثيرة من النظام السابق، بما في ذلك مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية، وكان يترأس الحكومة موظفان منتخبان يُسمى الواحد منهما قنصلاً، وكان القنصل يخدم لمدة سنة واحدة فقط.

ومع أن القنصلين تقاسما السلطة إلا أنه كان بإمكان أي منهما نقض إجراءات القنصل الآخر.

وكان مجلس الشيوخ أقوى الهيئات الحكومية سلطة في الجمهورية الرومانية، يوجِّه السياسة الخارجية، ويُصدر المراسيم، ويعالج الأمور المالية الحكومية، وكانت عضوية مجلس الشيوخ مدى الحياة. وكان أعضاء هذا المجلس في البداية من الأشراف، أي أبناء أقدم عائلات روما وأغناها، وقد هيمن هؤلاء على مجلس الشيوخ وعلى المجلس الذي كان ينتخب القناصل والموظفين المهمين الآخرين.

أما بقية مواطني روما، والذي سُمُّوا «العامة»، فلم يكن لهم إلا نفوذ سياسي ضئيل. واستطاع العامة تشكيل مجلس خاص بهم عُرف بـ«مجلس العامة» للحصول على حقوق سياسية، وانتخبوا زعماء أُطلق عليهم اسم «التريبيون»، وبمجهود التريبيين ازدادت مكانة العامة، تدريجيّاً، إلى أن حصلوا على الحقوق السياسية نفسها التي يتمتع بها الأشراف. وفي وقت لاحق ظهر مجلس جديد أوسع، وهو «جمعية القبائل»، مثَّل الأشراف والعامة معاً، ولكن العامة كانوا هم المهيمنين بصورة رئيسية على هذا المجلس.

وفي أواخر العهد الجمهوري في سنة (٦٤ ق.م) فتح القائد الروماني بومبي شرقي تركيا وسورية وفلسطين، وحينما عاد إلى روما رفض مجلس الشيوخ الاعتراف بانتصاراته، ونتيجة لذلك شكَّل «بومبي» سنة (٦٠ ق.م) حكومة ثلاثية، ومنذ ذلك الحين حتى قيام الامبراطورية سنة (٢٧ ق.م)، توالت على الحكم في روما حكومتان ثلاثيتان هما:

١ ـ الحكومة الثلاثية الأولى التي تألفت من: «بومبايوس (بومبي)»، و«يوليوس قيصر»، و«ماركوس كراسوس (ليسينوس)».

٢ ـ الحكومة الثلاثية الثانية سنة (٤٣ ق.م) التي تألفت من: «أنطونيوس (مارك أنطوني)»،

و«أُوغسطس (أوكتافيوس / أوكتافيان)»، و«ليبيدوس (ماركوس ليبيدوس)» وبقيت حتى سنة (١٣ ق.م).

ثالثاً ـ مرحلة النظام الامبراطوري: امتدت مرحلة النظام الامبراطوري منذ سقوط الحكم الجمهوري في روما سنة (٢٧ ق.م)، بعد ٢٠ سنة من الحرب الأهلية، وحتى سقوط روما سنة (٤٧٦م)، وكان أول امبراطور فيها هو «أوكتافيوس (أوكتافيان)» الذي اتخذ اسم «أوغسطس» أي المعظم.

وخلال مرحلة النظام الامبراطوري أمسك الأباطرة بالسلطة العليا، وأبقوا على المؤسسات الحكومية القديمة للعصر الجمهوري. وكان الأباطرة يسمون القناصل، ويعينون أعضاءً جدداً لمجلس الشيوخ، ولم يكن للمجالس الشعبية سوى سلطة ضئيلة، كما كان الأباطرة يقودون الجيش، ويتحكمون في صياغة القانون، ويعتمدون على مستشاريهم أكثر مما يعتمدون على مجلس الشيوخ؛ وكان هناك جهاز واسع من الموظفين المدنيين يقوم بتصريف شؤون الامبراطورية بشكل يومي.

وكانت وظائف مجلس الشيوخ «السناتو» تنقسم إلى قسمين: الأول: يختص بالمجالس البلدية، والثاني: يختص بالامبراطور. وكان والي المدينة يُتخذ كرئيس لـ«السناتو»، وهو صلة الوصل بينه وبين الامبراطور، وأي قانون قبل إصداره كان يجب أن يناقَش في «السناتو»، وكذلك القرارات التشريعية المهمة والخاصة بالسياسة العامة، وكان على الامبراطور ألاَّ يتخذها منفرداً، أي أن السناتو كان يُعَدُّ شريكاً في المسؤولية.

وبعد موت الامبراطور «ثيودوسيوس الأول» سنة (٣٩٥م) انقسمت الامبراطورية إلى قسمين: الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الرومانية الغربية. وأخذت الامبراطورية الغربية تضعف بشكل مطَّرد، فقد هاجم «الواندال» (شعب جرماني إسكندنافي)، و«القوط» الغربيون، وشعوب جرمانية أخرى، كلّاً من إسبانية والغال (شمال إيطالية وفرنسة) وشمالي أفريقية، ونهب «القوط» الغربيون مدينة «روما» سنة (٤١٠ م). ويؤرَّخ سقوط القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية غالباً بسنة (٤٧٦ م)، حيث عَزَل، في تلك السنة، الزعيم الجرماني «أدواسر» آخر حاكم للامبراطورية الرومانية الغربية، وهو «رومولوس أوغستولوس» عن العرش، وكان الزعماء الجرمان قد بدأوا قبل ذلك بتقسيم الامبراطورية الرومانية إلى ممالك عديدة.

التوسُّع الروماني

عمل الرومان على سياسة التوسُّع عبر محاربة جيرانهم والانتصار عليهم، فكانت عملية التوسُّع على قدم وساق، وما إن حلَّت سنة (٢٧٥ ق.م) حتى كانتً «روما» قد هيمنت على معظم شبه الجزيرة الإيطالية، وقدَّمَت إلى المدن التي فتحتها الحماية وبعض امتيازات المواطَنَة الرومانية، وبالمقابل زوَّدت تلك المدن المفتوحة الجيش الروماني بالجنود.

ولم تكتفِ «روما» بما أنجزته من انتصارات عسكرية، بل تطلَّعت إلى التوسُّع فيما وراء البحار، ما جعلها امبراطورية قوية خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد. وكانت قد ابتدأت بمحاربة «قرطاج»

التي كانت ذات قوة بحرية ومركزاً تجاريّاً على ساحل شمالي أفريقية، وخاضت قرطاج، من أجل السيادة على البحر الأبيض المتوسط، ثلاث حروب دعيت بـ«الحروب البونية».

وإثر الحرب «البونية» الأولى (٢٦٤ ـ ٢٤١ ق.م) تمَّ لـ«روما» الاستيلاء على جزيرة «صقلية» القريبة من إيطالية، وعلى جزيرتَي «سردينيا» و«كورسيكا». وفي الحرب «البونية» الثانية (٢١٨ ـ ٢٠١ ق.م) هزمت القوات الرومانية القائد القرطاجي «هانيبال (هنيبعل)»، الذي سار بجيشه عبر جبال «الألب»، وهاجم إيطالية، إلا أن صمود القوى الرومانية أرهقه، وهزمه سنة (٢٠٢ ق.م). وفي الحرب «البونية» الثالثة (١٤٩ ـ ١٤٦ ق.م) دمَّرت «روما» «قرطاج». وجعلت هذه الانتصارات سواحل البحر المتوسط في إسبانية وأفريقية تحت السيطرة الرومانية.

وبعد الحروب «البونية»، بدأت «روما» بالتوسُّع نحو الشرق، وفي نحو سنة (١٤٠ ق.م) تمَّت لـ«روما» السيطرة على بلاد «اليونان (الإغريق)» و«مقدونيا» معاً. ومما ساعد على توسيع الممتلكات الرومانية أيضاً أنه في سنة (١٣٣ ق.م) مات «آتالوس الثالث» ملك «برجاموم»، حليف الرومان، وأوصى بمملكته لـ«روما» (كانت جزءاً من تركيا الحالية). وفي سنة (٦٤ ق.م) تمَّت السيطرة على منطقة شرقي تركيا وسورية وفلسطين، وفي سنة (٣٠ ق.م) تمَّت السيطرة على مصر وجُعلت ولاية رومانية. وكانت قد دارت حرب بين اثنين من أشهر القادة العسكريين الرومان، وهما «أوكتافيان» و«أنطوني» للسيطرة على روما. والتمس أنطوني الدعم من «كليوباترا» ملكة مصر، ومن ثم وقعا في غرام بعضهما بعضاً. وفي سنة (٣١ ق.م) هزم «أوكتافيان» قوات «أنطوني» و«كليوباترا» في معركة «أكتيوم» على مقربة من الساحل الغربي لليونان. وفي سنة (٣٠ ق.م) تمكَّن الرومان من السيطرة على مصر بعد مقتل «أنطوني» وانتحار «كليوباترا».

أسباب توسُّع الامبراطورية الرومانية

وصلت الامبراطورية الرومانية إلى توسُّعها الأكبر في العهد الجمهوري، وتعود أسباب توسع الامبراطورية إلى:

١ ـ سياسة «السناتو».

٢ ـ تسابق القناصل إلى إحراز النصر والتغلُّب على الشعوب الأخرى.

٣ ـ الحماس العسكري في الشعب.

وزخرت القرون السبعة الأولى بتتابع الانتصارات السريعة.

ولم يزد على الامبراطورية الرومانية في القرن الأول المسيحي سوى ولاية بريطانية، ومما ساعد على تمتين وحدة أجزاء الامبراطورية عاملان هما:

أولاً: انتشار الهلنستية (الأفكار الإغريقية اليونانية) التي أثَّرت بعمق على مختلف الولايات منذ العهد الروماني.

ثانياً: وحدة العقيدة الدينية، رغم بعض الفوارق التي نشأت على الصعيد اللاهوتي، وأدَّت إلى قيام عدة بطريركيات متناحرة في «الإسكندرية» و«أورشليم» و«أنطاكية» و«القسطنطينية».

نماذج من أباطرة روما الذين لم يكونوا على قدر المسؤولية

انغمس القياصرة الأُوَل، بعد وفاة «أوغسطس»، في اللهو، وانصرفوا إلى الظلم والطغيان، ومن ثم ندر ظهورهم مع الجيوش، أو في الولايات.

ومرَّ بتاريخ «روما» الطويل حكام يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيِّناً من حيث الطباع والشخصية، فمنهم المجانين العطشى إلى الدماء، والمغنُّون الماجنون، والراقصون المستهترون، والعباقرة، والمقاتلون البواسل، والفلاسفة، والمنظِّمون من الطراز الأول. وكان من الحكام «تيبريوس» الكهل الذي قضى جل فترة حكمه رابضاً في قصره بجزيرة «كابري» أقرب ما يكون إلى شبح مخيف منه إلى إنسان، وذُكرت أعماله التي تدينه إلى هذا اليوم في مؤلفات «تاكيتوس» التاريخية. وكان منهم أيضاً الامبراطور «ينسل» أشبه ما يكون بلص يسترق السمع لما كان شعب المدينة يهمس به من جزيرته إلى أسوار «روما».

وكان من الأباطرة أيضاً «كاليجولا» الذي دأب أن يطوف بسجون عاصمته ويختار بنفسه بعض الأسرى ليقذف بهم إلى الوحوش المفترسة في السيرك، كما كان الامبراطور «كلوديوس» مغرماً بالقيام بدور القاضي وإصدار أحكام بالإعدام، وكان ينسى أحياناً أولئك الذين أَمر بإعدامهم، وكثيراً ما كان يستدعي بعضهم لعقد اجتماع معهم أو للعب «الداما». ومن الأباطرة أيضاً «نيرون»، الممثل والمغني والمصاب بجنون الحريق (أحرق «روما» وجلس يتفرج عليها من قصره) والمضطهِد للمسيحيين.

الامبراطورية الرومانية الشرقية

عُرِفَت الامبراطورية الرومانية الشرقية باسم «بيزنطة» على اسم عاصمتها «بيزنطة (القسطنطينية)»، وامتد عهدها من سنة (٣٣٠م) حتى سقوط عاصمتها «القسطنطينية» سنة (١٤٥٣م).

وابتدأ هذا العهد مع «قسطنطين» الذي اختير امبراطوراً على الولايات الرومانية الغربية في سنة (٣٠٦م)، وكان النظام الذي وضعه «ديو كليشيان»، والذي يقوم على الاشتراك في السلطة والتعاقب، قد انهار بسرعة بسبب تنافس عدد كبير من الرجال على العرش. وفي سنة (٣١٢م) نجح قسطنطين في هزيمة منافسه الرئيسي. وفي سنة (٣١٣م) أجاز «قسطنطين» و«ليقينيوس» لامبراطور الولايات الشرقية حرية العبادة للنصارى، وحكم «قسطنطين» و«ليقينيوس» حتى سنة (٣٢٤م) حين هزم «قسطنطين» شريكه الامبراطور في الحرب.

وفي سنة (٣٣٠م) نقل «قسطنطين» عاصمته إلى «بيزنطة»، وسمى المدينة «القسطنطينية» نسبة إلى اسمه، وكان الهدف من تأسيسها تأمين الدفاع عن ممتلكات روما في الشرق، وحمايتها من هجمات البرابرة الجرمانيين واللافيين على الدانوب وهجمات الفرس على الفرات.

إلا أن الامبراطورية البيزنطية لم تقم فعلاً إلا سنة (٣٩٥م) حين جُزِّئت الامبراطورية الرومانية إلى دولتين متميزتين، من دون أن تفقدا وحدتهما. وكانت الشرائع تُسنُّ والعدالة تُنفَّذ باسم امبراطورَي هاتين الدولتين. وبعد انهيار الامبراطورية الغربية سنة (٤٧٦م)

أصبح امبراطور بيزنطة صاحب السلطة الوحيد على مجموع أجزاء الامبراطورية، وأصبحت الامبراطورية البيزنطية تسمى بالامبراطورية الرومانية الشرقية.

نهاية الامبراطورية الرومانية الشرقية

تُعدُّ الفتوحات الإسلامية، بداية انحسار نفوذ الامبراطورية الرومانية الشرقية وانحلالها. واستمرت المعارك منذ ذلك الحين بين كَرٍّ وفَرٍّ بين المسلمين والرومان البيزنطيين، ابتداءً من معركة اليرموك وتسليم مدينة «القدس الشريفة» وفتوح مصر زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وتمكَّن الأتراك السلاجقة في سنة (١٠٧١م) تحت قيادة «ألب أرسلان» من هزيمة الرومان البيزنطيين وأسر امبراطورهم «رومانوس ديوجنيس»، وبعد عشرين سنة تقريباً خضعت الولايات الرومانية في آسية الصغرى للسلطان «سليمان السلجوقي».

ولم يبقَ على الولاء الأول للمسيح وقيصر بعد سقوط آسية الصغرى، سوى «أنطاكية» التي سُلِّمت فيما بعد للسلطان «سليمان»، وتبعها بالتسليم جميع المدن من اللاذقية إلى أرباض حلب، فامتدت فتوحات السلطان «سليمان» وحكمه نتيجة لذلك من اللاذقية إلى البوسفور. وضَمن جهل الترك بالملاحة، لبعض الوقت، سلامة الامبراطورية، ولكن سرعان ما بنى السلطان «سليمان» أسطولاً يتألف من مائتي سفينة بأيدي الأسرى من اليونانيين، فارتعد الامبراطور «ألكسيوس» فَرَقاً وراء أسوار عاصمته، وانتشرت رسائله في جميع أنحاء أوروبا، تستدر عطف اللاتين، وتصوِّر الخطر المُحْدِق بمدينة «قسطنطين».

سقوط القسطنطينية

حاصر الجيش العثماني بقيادة السلطان «محمد الفاتح» «القسطنطينية»، وهي آخر معقل من معاقل الرومان البيزنطيين، وكان الجيش غنيّاً حينها بالأسلحة البرية، أما السفن فقد قاموا بتصنيعها في مكان بعيد عن السواحل.

وبعد ابتداء المعارك بيومين، ظهرت في بحر مرمرة خمس سفن نصرانية تحمل الطعام والمعدات والرجال، فأمر السلطان «محمد الفاتح» بالاستيلاء عليها أو إغراقها، لكنها استطاعت أن تفلت من أيدي المسلمين رغم استبسال المجاهدين واستشهاد العديد منهم، ثم دخلت هذه السفن إلى القرن الذهبي وأنزلت السلاسل الضخمة.

وأخذ السلطان «محمد الفاتح» يبحث عن وسيلة لإدخال سفنه إلى القرن الذهبي للسيطرة على هذا الميناء وإحكام الحصار على المدينة، فهداه الله سبحانه إلى فكرة بارعة تؤدي غايته. وفي ليلة واحدة عُبِّدَت الأرض، وسُوِّيَت بألواح من الخشب، ودُهِنَت بالزيت والشحم، وصُفَّت على الطريق الواقع بين مينائَي «بشكطاس» و«القرن الذهبي» بمسافة ثلاثة أميال، ثم تمَّ تزليق سبعين سفينة على هذه الطريق وأُلقيت في مياه «القرن الذهبي» داخل الميناء.

واستيقظ أهل القسطنطينية على صيحات المسلمين المدوية وهتافاتهم المتصاعدة، فأطلُّوا من فوق أسوارهم ورأوا تحت أعينهم السفن العثمانية برجالها ومعداتها فانتابهم الهلع والفزع. وسقطت المدينة في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو سنة (١٤٥٣م)، وأُسدل الستار على آخر معقل من معاقل الامبراطورية الرومانية على يد المسلمين.

عوامل انهيار الامبراطورية الرومانية

بعد التوسُّع الكبير للامبراطورية الرومانية بدأت شمسها بالأفول، ومما أدى إلى انهيارها عدة عوامل منها:

١ ـ اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء بسبب انتشار البطالة التي نشأت حينما طُرد المزارعون الصغار من العمل في مزارع الأغنياء ليحل المستعبَدون (الرقيق) محلهم، إثر تدفُّق الغنائم والمستعبَدين من الأسرى من المناطق المغلوبة من جراء الانتصارات فيما وراء البحار.

٢ ـ صراعات بين القادة أدَّت إلى الاضطرابات في «روما» نفسها من جهة، وثورات قام بها حلفاء «روما» الإيطاليون من جهة أخرى، إضافة إلى الحرب التي اندلعت في آسيا الصغرى.

٣ ـ عدم التمكن من السيطرة على حكم أراضي الامبراطورية نظراً لتوسعها. ففي سنة (٢٨٤ ق.م) قام الامبراطور «ديو كليشيان» بتقسيم الامبراطورية إلى وحدات أصغر بغية إعادة النظام، بحيث يصبح لكل وحدة حكومتها وجيشها الخاص بها. وعيَّن «ديو كليشيان» جنديّاً يدعى «ماكسيميان» ليكون امبراطوراً مشاركاً، كما عيَّن نائبين ليخلفاهما. وحكم «ماكسيميان» القسم الغربي من الامبراطورية في حين حكم «ديو كليشيان» القسم الشرقي، بعد ذلك تمَّ تأسيس «القسطنطينية» وقسمت الامبراطورية إلى قسمين.

٤ ـ مهاجمة القبائل المتبربرة للحدود، وعقد هُدَنٍ معها، كتوصل «أوغسطس» إلى إبرام معاهدة مع قبائل «البارثيين» أدت إلى استعادة الأعلام والأسرى الذين أُخذوا في هزيمة «كراسوس».

٥ ـ سلطان البابوات الزمني.

٦ ـ حروب اللاتين الصليبية في الشرق.

٧ ـ شخصية رسول الله محمد ﷺ ودينه.

٨ ـ فتوحات المسلمين العرب (الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين) والتُرك (السلاجقة والعثمانيين).

الجيش الروماني

كوَّن المزارعون في «روما» القديمة العمود الفقري للجيش الروماني، وكان هؤلاء يزرعون محاصيلهم في الربيع ويحصدونها في الخريف، وخلال الصيف يُجَنَّدون في الجيش.

وفي ظل الجمهورية الرومانية كان الجيش يتألف فقط من المواطنين الذين يملكون الأراضي، لأن الرومان كانوا يعتقدون أن أصحاب الممتلكات الذين لهم نصيب أكبر في الجمهورية سيدافعون عنها بشكل أفضل من الذين لا أرض لهم.

وعندما بدأت روما بشن الحروب، فيما وراء البحار، احتاجت إلى عدد أكبر من الجنود، وكان على هؤلاء الجنود الخدمة في الجيش لفترات أطول. ولكن في سنة (١٠٧ ق.م) ألغت الحكومة الرومانية شرط الملكية وفتحت الجيش للمتطوعين، وبذلك أتاح الجيش لعدد كبير من الرومان مهنة طويلة الأمد. وفي وقت لاحق أصبح عدد الذين يجندون من الولايات يزداد تباعاً. وفي سنة (٢٠ ق.م) كان نحو (٣٠٠٠٠٠) رجل يخدمون في الجيش الروماني، وقد تغير هذا العدد قليلاً بعد ذلك. وكان معظم الجنود من

المحترفيـن، وجعل تدريبهـم وانضباطهم من الجيش الرومانـي واحـداً مـن أعظـم القوى المحاربة في التاريخ.

ولـم تكـن مهنـة الجنـود الرومـان القتال فحسـب، وإنمـا قامـوا أيضـاً ببنـاء الطـرق والقنوات المعلّقة والأسـوار والأنفاق. وبعد أن وصلـت «روما» إلـى أقصـى اتساع لهـا كانت المهمة الرئيسية للجيش هي الدفاع عن حدود الامبراطوريـة، ولهـذا تمركزت قـوات عديدة على طـول نهـرَي «الرايـن» و«الدانـوب»، كما أقيمت مراكـز عسكرية مهمة أخرى في مصر وسوريا وبريطانيا.

السياسة والقانون

برع الرومـان بالسياسة، وكانـوا السبّاقين في هـذا الميـدان بين الأمـم التـي سبقتهم، ودعمـوا ذلـك بثقافـة تساعـد علـى الوحـدة الفكريـة، وما كان أحد يستطيـع توحيد الدول الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط في رباط من السلام غير «روما» بعد أن اختبر الرومان الحياة بكل معانيها.

ونقلـت الحضـارة الغربيـة عـن «يوليوس قيصـر» آراءً لا تُحصى ولا تُعَـد حول الإدارة والحكومة والقانـون، وهو الذي أدخل التقويم الحديث، واستطاع أن يمـزج بنجاح مفهومَي «الديمقراطيـة الحـرة» و«الحكـم المطلـق» المتعارضَيْـن، لكـن عصـر الأباطـرة الذين خلفـوه قـد بَرْهَـن علـى أن النـار والمـاء لا يمتزجان.

وكان الملاييـن من النـاس، الذين عاشوا فـي الامبراطوريـة الرومانية، يتكلمـون لغات متعددة، ويتّبعون تقاليدَ وأدياناً مختلفة، ولكن الامبراطورية الرومانية ربطتهم جميعاً بنظام قانونـي وحكم مشترك، وقد أثـار هذا الإنجاز الإعجاب قديماً وحديثاً.

ويُعَـدُّ القانـون الروماني القـوة التي تكبح السلطـات الدستوريـة للامبراطـور، وكـان الامبراطـور هـو مصـدر كل قانـون، وكانـت المعرفـة بالقانـون تعـد شيئـاً ضروريّـاً لـكل موظف.

أما مصادر القانون فكانت تتمثل بالعُرْف، والقوانيـن الملكيـة المتمثلـة بالقـرارات التي يُصدرهـا الامبراطور، وتشريعـات الجمعيتين الشعبيتيـن «الجمعيـة القبليـة» و«الجمعيـة المئوية» و«مجلس العامة»، ومنشورات الحكام، وتوصيـات «السناتو»، والمنشـورات، والفتاوى، والأحكام، والتعليمات.

كما قـدَّم القانون الروماني الأساس للنظم التشريعية لمعظم بلدان أوروبا الغربية وأمريكة اللاتينية.

ونشـر الرومان أولـى مدوناتهـم القانونية المعروفة نحو سنـة (٤٥٠ ق.م) وسَجَّلَت هذه المدونـة، التـي أُطلـق عليهـا اسـم «القوائـم الاثنتـي عشرة للقوانيـن»، الأعـراف السائدة بشـكل مكتوب. وظلَّ القانـون الروماني، مرناً، واعتمد على تفسيرات لمحامين وقضاة مهرة. وتطورت، بمرور السنيـن، مجموعة شاملة من القواعـد التشريعيـة، طُبِّقـت علـى مختلـف الشعوب التي تعيش فـي ظل الحكم الروماني. وأطلق المحامون الرومان على هذه المجموعة مـن القواعـد التشريعية اسم «قانـون الأمم»، وقد ارتكز هذا القانون علـى الأفكار البديهية للعدالـة، مـع مراعـاة التقاليـد والأعـراف المحلية.

اللغة

تكلَّم موظفو الحكومة وأفراد الطبقة العليا، في كل أرجاء الامبراطورية، اللغتين «اللاتينية» و«اليونانية». وأصبحت لغة الرومان القدماء «اللاتينية» أساساً للغات «الفرنسية» و«الإيطالية» و«الإسبانية»، واللغات الرومانية الأخرى. وبينما كانت «اللاتينية» هي لغة الإدارة في حكومة المشرق، كانت «اليونانية» لغة الفلسفة والأدب.

وتكلمت معظم الشعوب المغلوبة لغاتها المحلية، ففي كل من الغال (شمال إيطالية وفرنسة) وبريطانية تكلم الناس اللغة «السلتية»، وفي شمالي أفريقية اللغة «البربرية»، وفي سورية وفلسطين اللغة «الآرامية» وكتب مثقفوهم باللغة «اليونانية»، وفي مصر اللغة «القبطية»، وتكلم اليهود اللغة «العبرية»، والعرب اللغة «العربية»، واستعمل الأنباط (سكنوا منطقة جنوب الشام وشمال جزيرة العرب وشبه جزيرة سيناء) اللغة «الآرامية» في كتاباتهم.

التعليم والعلوم

لم تكن هناك مدارس رومانية في بداية تأسيس الامبراطورية الرومانية، ومع اتساع رقعة الدولة اهتمت الطبقات العليا بتعلُّم لغة الإغريق (اليونانية)، ودراسة آدابهم وفلسفتهم، وفنونهم الخطابية، وأدَّى كل ذلك إلى ظهور مدارس كثيرة، وكانت هذه المدارس بشكل عام، خاصة وليست للدولة، وأدى انتشار التعليم إلى نمو الأدب وازدهاره.

وتطور الأدب المسرحي اللاتيني تطوراً سريعاً نتيجة لطغيان اللغة اللاتينية على غيرها، وكان الشعر «الحماسي» يحتل مكاناً بارزاً في الأدب اللاتيني. وأخذ تدوين التاريخ بنظام «الحوليات» (تدوين الأحداث وفق السنوات)، ودُوِّن بداية باللغة «الإغريقية» ثم باللغة «اللاتينية» فيما بعد.

وفي ميدان الفلسفة لاقت الفلسفة الإغريقية رواجاً عند الرومان، وخاصة «المدرسة الرواقية».

وبَرَز على الصعيد الفكري رجال كان لهم الفضل في تثمين الحضارة الرومانية، وكان منهم: «بروبوس» في الأدب، و«يوسيفوس» و«فيلو الجبيلي» و«ميناندروس» و«يمبليخوس» في التاريخ، و«مارينوس» في الجغرافية، و«أرخيجينس» في الطب، و«أدريانوس» و«أنتيباتروس» و«لوقيانوس» في البلاغة، و«أنتيباتروس» و«نومينوس» و«إميليوس» و«بورفيريوس» و«يمبليخوس» في الفلسفة، و«بابينيانوس» و«أولبيانوس» في الحقوق.

وبلغت «روما» ذروة الحكمة السياسية والأدبية زمن حكم «أوغسطس» الذي برع في فن الخطابة ورفع من شأن اللغة اللاتينية. وبرع في الشعر الشاعر «أوفيد» الذي كتب ما يُسمى «المسوخ» في خمسة عشر ديواناً نهج في نظمها الوزن «السداسي»، وتغنَّى «هوراس» بالحب والخمر وعظمة «روما» وجمال الطبيعة. وبرع المؤرِّخ «ليفي» في الكتابة التاريخية التي وصلت إلى مائة واثنين وأربعين جزءاً لم يبقَ منها سوى خمسة وثلاثين. وقبل هذا العصر كتب «كاتولوس» الفيروني المرهَف الحس أروع ما في اللغة اللاتينية من أشعار الحب والغرام، وفي أعقاب هذا العصر حاول «سنيكا» الفيلسوف أن يفضي بقدر من حكمته لـ«نيرون» ابن روما الطائش.

العمارة

خطَّط المهندسون الرومان المدن بعناية فائقة، وشيَّدوا المباني العامة في أماكن مناسبة، وزوَّدوها بشبكات المياه والمجاري. وكان الأباطرة أو الأثرياء يدفعون الأموال اللازمة لإنشاء المباني العامة الضخمة، كالحمَّامات والملاعب الرياضية والمسارح. وفي قلب المدينة كان يقع «الفورم» الروماني، وهو ميدان كبير مكشوف تحيط به المعابد والأسواق والمباني الحكومية.

وازدهرت المباني الرخامية رغم انتشارها في «روما» في عصر «أوغسطس» حتى أنه قيل: «إن «أوغسطس» حريٌّ به أن يباهي بأنه جاء إلى عاصمة بناؤها من الآجر وأنه تركها وهي من الرخام».

وشيَّد «تراجان» الساحة الامبراطورية في «روما» وأقام موانئ «أنكونا» و«أوستيا» و«كيفيتافيكيا»، ومدَّ قناطر قوية عبر «الدانوب» ليتسنى للقوات الرومانية أن تمر بدون مشقة لقمع قبائل «الداكيين» المعادية.

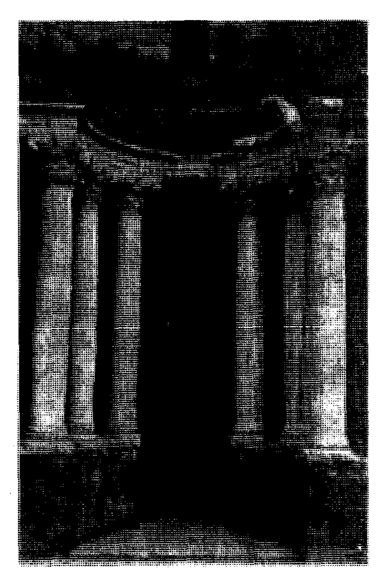
وشيَّد «هادريان» «البانثيون» الروماني الذي يُعَدُّ من الناحية الفنية من أعظم المباني التي بلغت حد الكمال في فن العمارة العالمي، وهو هيكل جميع الآلهة الذي أمكن الحفاظ عليه إلى اليوم.

وامتازت المباني الرومانية ببراعة تصميم المنشآت، واستخدام «العقود (الأقواس)» في أعمال البناء. وأدخل الرومان على المسارح بعض التطويرات التي جعلت طابعها مميزاً، فقد شادوا أماكن المتفرجين على مجموعة من «العقود»، وزادوا الجزء الخاص بالتمثيل وغرف الممثلين تعقيداً، والغرف ارتفاعاً، كما امتازوا بجعلهم مختلف أجزاء المسرح مترابطة بحيث أصبحت وحدة متماسكة.

وهناك إنجازان من إنجازات الهندسة الرومانية جعلا بناء العمائر الضخمة أمراً ممكناً، أولهما: القوس، وثانيهما: «المِلاط (إسمنت أو طين يُطلى به الحائط) الخرساني». فالأقواس كانت تدعم أبنية كالجسور والأقنية التي كانت تنقل المياه إلى المدن الرومانية، وكانت السقوف المحمَّلة على الأقواس تسمح بترك مساحات داخلية واسعة ضمن الأبنية، وقد ألغت هذه السقوف المحمولة على الأقواس الحاجة إلى الأعمدة لحملها. ومع أن الرومان لم يكونوا مبتكري الأقواس، إلا أنهم كانوا من أوائل مَن نقلوها إلى حيِّز الواقع. ووَفَّرَ «المِلاط الخرساني» الذي ابتكره الرومان مادة بناء قوية بالنسبة إلى الجدران والسطوح المقبَّبة.

أما بناء البيوت السكنية في المدن فكان متراصّاً ومؤلَّفاً من عدة طبقات، وكانت بيوت الأغنياء تُبنى على شكل فناء حوله غرف صغيرة ومن دون نوافذ، إلا أن هذا الفناء كان فسيحاً ويغطيه سقف له فتحة تسمح بدخول الضوء والهواء. وفي المناطق الزراعية كانت بيوت الفقراء عبارة عن أكواخ صُنعت من «اللَّبِن» (طين وماء) المجفف بالشمس.

وبالإضافة إلى الأبنية، اهتمَّ الرومان بتحديث شبكات الطرق في جميع البلدان التي حكموها، ولا تزال آثار بعضها موجودة إلى اليوم، وظلت بعض الطرق والجسور والقنوات الرومانية تُستخدم كنماذج للمهندسين في العصور اللاحقة، وعلى شبكة الطرق هذه اعتمد النظام البريدي الروماني المنظم بدرجة عالية جداً.



بوابة مسرح بصرى في بصرى الشام

النحت والتصوير

تركّز فن النحت عند الرومان في فرعين أساسيين هما:

١ ـ التماثيل، الكاملة منها والنصفية.

٢ ـ النقوش البارزة الزخرفية، الجنائزية منها والتاريخية.

أما فن التصوير فقد قطع الرومان به شوطاً كبيراً، وشمل صوراً حائطية لنباتات وحيوانات وما شابه، وصوراً بشرية، كما اشتهر الرومان بالفسيفساء في زخرفة الكنائس.

الزراعة

اشتهرت الامبراطورية الرومانية بالزراعة وتربية الحيوانات، واكتشف الرومان أن ترك نصف الحقل بوراً كل سنة يجعل التربة أغنى لزراعة المحاصيل في السنة التالية.

وأنتجت أراضي الامبراطورية الرومانية حاصلات وفيرة من مختلف أنواع الحبوب، كالقمح والذرة والشعير، والبقول، كالبازلاء والفاصولياء. وازدهرت زراعة كروم العنب والزيتون بعد السيطرة على المدن الإيطالية وجزيرة صقلية. وبعد اتساع الامبراطورية شرقاً أُدخلت أنواع أخرى من الفاكهة إلى المشاريع الزراعية، مثل التفاح والكمثرى (الإجاص) وأشجار التين، وانتقلت زراعة الكتّان من مصر إلى بلاد الغال (شمال إيطالية وفرنسة).

وبتوسُّع رقعة الامبراطورية الرومانية تغيرت الحياة الريفية، إذ أُرسل عدد كبير من المزارعين لخوض الحروب الخارجية لفترات طويلة، وبذلك كانوا مضطرين لبيع أراضيهم، فأقام أثرياء الرومان مزارع كبيرة زرعوا فيها المحاصيل وربُّوا المواشي من أجل التجارة، واشتروا المستعبَدين للعمل لديهم، كما كانوا أيضاً يؤجِّرون الأراضي للمزارعين التابعين لهم.

الصناعة والتعدين

اشتهر عدد من الصناعات في مختلف المناطق الرومانية، كالفخار والأواني الزجاجية والأسلحة والأدوات والمنسوجات. وعرفت «روما» صناعة الآجر والأنابيب الرصاصية لأشرعة السفن، كما عرف الرومان أيضاً صناعة التعدين واستخراج المعادن من المناجم، واشتهرت بهذه الصناعة بلدان عديدة، كاشتهار إيطالية بالنحاس وبالحديد الخام، وإسبانية بالذهب والفضة، وبريطانية بالرصاص والقصدير، وكان العمل في

المناجم شاقّاً وغير صحي، فأجبر الرومان المستعبَدين والمجرمين المحكومين وأسرى الحروب على العمل فيها.

التجارة

ازدهرت التجارة مع توسُّع الامبراطورية الرومانية، وقد نقلت السفن البحرية الضخمة البضائع بين موانئ البحر الأبيض المتوسط، ومن ثَمَّ كانت العربات والمركبات تقوم بنقل هذه البضائع على شبكة الطرق إلى أرجاء الامبراطورية.

وكانت المعابد تنظِّم معارض تجارية دورية على أراضيها، وكان يشارك فيها سكان المقاطعات المجاورة وحتى البعيدة، وكان يتخلل هذه المعارض طقوس وشعائر دينية.

وكانت الواردات الرئيسية لمدينة «روما» تشتمل على المواد الغذائية والمواد الخام والسلع المصنَّعة. وصدَّرت شبه الجزيرة الإيطالية الخمور وزيت الزيتون. وتاجر الرومان مع بلاد تقع خارج حدودهم، كاستيرادهم الحرير من الصين عبر التجار الفرس الذين ترددوا على أسواق أرمينية ونصيبين، واستوردوا أيضاً التوابل والأحجار الكريمة من الهند وجنوبي الجزيرة العربية، والعاج من أفريقية.

وسَكَّتِ الحكومة الرومانية قطعاً نقدية من الذهب والفضة والنحاس والبرونز، وتحكَّمت بالموارد المالية لجعل التجارة أكثر سهولة، إلا أن العمل بالمقايضة كان الأكثر شيوعاً، فقد كانوا يقايضون إنتاجهم من جواهر ونقود وخزف وآلات زراعية مقابل جلود الحيوانات والرقيق والكهرمان، ومنتجات أخرى حسب احتياجاتهم.

وساعد في ازدهار التجارة الأسطول الضخم الذي بناه الرومان، فأبحرت سفنهم إلى كل موانئ البحر الأبيض المتوسط، وأبحرت سفنهم أيضاً في الأنهار الكبيرة كـ«الراين» و«الدانوب» في أوروبا و«النيل» في مصر.

الدين

كان الرومان الأوائل يعتقدون بأن لآلهتهم سلطة على الزراعة وعلى نواحي الحياة اليومية كلها، وكل إله مختص بناحية من نواحي الحياة، ولهذا اتخذوا عدة آلهة كان منها: «سيريز» إلهة الحصاد، و«فستا» حارسة نار الموقد، و«يانوس» حارس الأبواب، و«لاريس» حارسة الأسرة والبيت، وفيما بعد أصبح «جوبيتر» أكبر الآلهة، وعُبد في بادئ الأمر إلهاً للسماء ومتحكماً في الطقس.

وكانت تُسند إلى الملك بعض المهمات الدينية، كتحديد أيام الأعياد وتقديم القرابين، وأُسند إلى هيئة «كبار الكهنة» أمر تفسير الشرائع الدينية والحفاظ على تقاليدها، وإلى هيئة «العُرَّاف» أمر استطلاع رغبات الآلهة، وإلى الكاهنات العذارى السهر على بقاء النار المقدسة مشتعلة باستمرار في مقر العبادة الرومانية.

وفي العهد الامبراطوري ظهر نوع جديد من العبادة هو عبادة الأباطرة بوصفهم آلهة محليين (كان الإغريق الآسيويون هم أول مَن ابتدعوا ذلك)، بكل ما تقتضيه العبادة من أُبَّهَة المذابح والمعابد والأعياد والقرابين، ومن ذلك أن «أوغسطس» سمح لبعض مدن الولايات أن تقيم المعابد تكريماً وتمجيداً له، شريطة

أن تربط عبادة «روما» بعبادة الملك، وتسامح في بعض الخرافات الخاصة التي قد تدور حول شخصه، وقَنَعَ بأن يكون إجلال «السناتو» والشعب له على أساس شخصيته الإنسانية.

وكان القيصر متى مات يُعقَد «مجلس الشيوخ» بشكل فوري ليبحث فيما أتاه القيصر في حياته من أعمال، وباسم الشعب يحاكمه، فإذا حكم عليه بالإدانة تبطل جميع أعماله وتحطَّم تماثيله ويُمحى كل اسم حُفِرَ له. أما إذا كانت أعماله مجيدة فسرعان ما يُصدر مجلس الشيوخ قراراً بأن القيصر قد أتى من الأعمال ما بسببها قد ارتقى إلى مصاف الأرباب، وأنه كان صورة تجسُّدية للإله على الأرض حَلَّ ليخلِّص الإنسان من العذاب، ولُقِّبَ بـ«المخلِّص». وممن نُعِت بالمخلِّص «يوليوس قيصر»، وكذلك «أغسطس» حينما أصدر «مجلس الشيوخ» في سبتمبر سنة (١٤م) لائحة بتأليهه كصورة تجسدية للإله على الأرض، ولَقَّبَهُ بـ«المخلِّص»، وأُقيمت له معابد في جميع أرجاء الامبراطورية.

احتكار البطاركة للوظائف العامة

في بداية عهد الجمهورية، كان جميع الكهنة من البطاركة، وكان لهم نفوذ واسع في الدولة لأنهم حرَّاس القانون الديني، وكان كبير الكهنة هو الوحيد الذي يحدد سنويّاً أيام كافة الأعياد العامة. واستطاع هؤلاء السيطرة على دفَّة الحكم بما لهم من صلاحيات واسعة، فاستطاعوا احتكار الوظائف العامة وعضوية الجماعات الدينية، فضلاً عن عضوية «السناتو»، كما كانوا يحتكرون الإحاطة بالقوانين الرومانية وتفسيرها وتطبيقها، وبذلك كانوا يحلِّلون ويحرِّمون ما يتفق مع مصالحهم، وإزاء ذلك ضجَّ العامة ودخلوا في صراع مع الكهنة دام قرابة قرنين من الزمن للمطالبة بسَنِّ قوانين جديدة واضحة المعالم.

وأمام مطالب العامة وإلحاحهم، اضطر البطاركة إلى الاستجابة إلى مطالبهم، وانتُخِبَ في عام (٤٥٤ق.م) ثلاثة أشخاص لدراسة القانون، وبعد سنتين أوصوا بانتخاب لجنة مؤلَّفة من عشرة أشخاص لسَن القوانين ونشرها، وبعد أن سُنَّت القوانين تمَّ حفرها على اثني عشر لوحاً، وفي عام (٢٤٥ ق.م) صدر قانون يعترف بشرعية التزاوج بين العامة والبطاركة.

اليهود

ضمَّت الامبراطورية الرومانية العديد من الأعراق والأجناس وكان منهم أصحاب رسالات سماوية كاليهود والنصارى.

وكان اليهود أقل الجماعات استجابة لتأثيرات الحضارة الرومانية، كما كانوا يتمتعون بامتيازات خاصة على صعيد العبادة وينطوون في عزلة تغذي شعورهم القومي، مما أدى إلى قيام ثورة قومية في عهد «نيرون» ما بين سنة (٦٦-٧٠م) انتهت بتدمير «تيطس» لـ«أورشليم» (القدس الشريفة)، وبعد دمار الهيكل تدميراً كاملاً رُسِمَ على الأرض مكانه شكلٌ يمثِّل سِنَّ المحراث، علامة على أن المكان أصبح محرَّماً تحريماً دائماً.

النصارى

ظهرت في ظل الحكم الروماني، في القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية، ديانة

جديدة هي الديانة النصرانية (المسيحية) التي ترتكز على تعاليم المسيح عليه السلام. وبرغم أن الرومان حاكموا المسيح ﷺ بتهمة الخيانة كما يزعمون في سنة (٣٠م)، إلا أن أتباعه نشروا النصرانية في شتى أرجاء الامبراطورية. وفي البداية لم تعرْ الحكومة الرومانية الديانة «النصرانية» إلا اهتماماً ضئيلاً، ثم تعرضت للنصارى بالاضطهاد والتعذيب بين ذبح وحرق وقتل واغتصاب وسجن، ودام هذا الاضطهاد حتى مطلع القرن الرابع الميلادي، وكان سببه خصومات محلية أكثر منها أوامر من روما من جهة، وتناقض بين فكرة التوحيد في الدين الجديد والاعتقاد الروماني بتعدد الآلهة من جهة أخرى.

وظهرت إلى جانب المسيحية ديانات أخرى من أصل شرقي، أبرزها ديانات «الأسرار». وآلهة «الأسرار» هي أصلاً آلهة نباتية، أمثال «ديونيسوس» و«إيزيس». وانتشرت كذلك ديانة «ميترا»، وهو بالأصل إله الشمس لدى الفُرس، ويتلخَّص هذا الدين بتصوير الحياة كصراع مستمر بين إله خير وقوة شريرة.

طبقات المجتمع الروماني

كان المجتمع الروماني ينقسم إلى ثلاث طبقات رئيسية هي:

١ـ **طبقة النبلاء:** وكانت تُعَدُّ صفوة المجتمع الروماني، ولها المكانة السامية، من حيث اللباس والمسكن والوظيفة وعدد الأتباع والثروة والجاه، ودَخْلُ هذه الطبقة كان متعدد المصادر، من الضِّياع والتجارة والرشاوى والسلب والابتزاز والهبات.

٢ـ **طبقة الفرسان:** وكانت تُعَدُّ أساساً أرستقراطيّاً للمجتمع، وتتكون من أصحاب رؤوس الأموال وكبار ملاَّكي الأراضي، حتى إن بعضهم تجاوز ثراء بعض النبلاء، ولذلك لم يُرضِهم احتكار النبلاء للوظائف العامة، والسيطرة على مقاليد الحكم، والهيمنة على المحاكم، فكان أن اتحدت طبقة الفرسان وأخذت تعمل على مناهضة النبلاء حتى تمكنت من دخول معترك السياسة، والتدرج فيها، والوصول إلى أعلى المناصب. وكانت علاقة هذه الطبقة بطبقة النبلاء متنوعة، بين عدائية وودية، حسب الظروف السياسية والمصالح المتبادلة.

٣ـ **طبقة العامة:** وكانت تُعَدُّ عصب المجتمع الروماني الاقتصادي في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة، حيث كانت تؤلف الغالبية العظمى لصغار الملاك، لكن هذه الطبقة انهارت تحت وطأة الكوارث الاقتصادية التي ألمَّت بالدولة، وانتهى مصير معظمها إلى الاضمحلال والنقصان تدريجيّاً، وانحدر بعض أفرادها إلى حالة من البؤس.

إضافة إلى هذه الطبقات الثلاث كانت هناك طبقة رابعة هي طبقة العبيد، وكانوا ينتمون إما إلى ولايات الدولة الرومانية، وإما إلى أسرى الحرب، وكثير من هؤلاء الأسرى كانوا يمكثون سنوات طويلة تمتد إلى نهاية حياتهم في الثكنات العسكرية التي يُعَدُّونَ فيها للمعركة التي تودي بحياتهم في السيرك، كما كان يحدث في سيرك «فلامينيوس»، حيث كانت أنظار آلاف المتفرجين تنظر إليهم بعين الازدراء كمتبارزين، إما قاتلين وإما مقتولين، وكان المبارز بالشبكة يقف في قلب

الساحة محاولاً أن يلقي بشبكته فوق منافسه ليشل حركته ويتسنى له قتله بمطرقته الحديدية.

وعموماً، اشتغل العبيد في الأعمال المنزلية والزراعية والصناعية والتجارية، وكان مسموحاً لهم ادخار الأموال لشراء حريتهم أو الحصول على ممتلكات، وبعد عِتقهم كان من حقهم أن يعملوا تجاراً أو أصحاب حِرَف أو كَتَبَة صغاراً، على الرغم من أن بعضهم كان يعمل في مجالات أخرى، كبنَّائين أو مدرِّسين أو أطبَّاء، وقد حقَّق القليل منهم ثروات طائلة. وكان العبد المعتَق يخضع لبعض القيود القانونية، غير أن أولاده كانوا يصبحون مواطنين يتمتعون بكافة الحقوق التي يتمتع بها المواطن الحر.

أما الفتيات من العبيد فكان عملهن دائماً هو الطحن على الرحى، وحين كانت إحداهن تُبدي صخباً فسرعان ما كانت عصا ربَّة المنزل تتحطم فوق ظهرها، وأما ذوات الحظ العاثر من بينهن فكنَّ يقمن بخدمة الثريات من الرومان والعناية بجِلدهن وشعورهن، ولو حدث أن وضعت إحداهن خصلة من شعر سيدتها في غير موضعها بالضبط فإنها تتعرض لضرب مبرح بسوط من جلد البقر.

الحياة العائلية

كان رب الأسرة الرومانية صاحب سلطة مطلقة على جميع أفراد أسرته تصل إلى حد بيع أولاده رقيقاً أو حتى قتلهم، ولم يكن بإمكان الابن حيازة أية ملكية خاصة، أو التمتع بأية سلطة شرعية، بما في ذلك أولاده، ما دام أبوه على قيد الحياة.

ولم تكن المرأة الرومانية تحتسي الخمر إلا نادراً، ولم يسمح لها بالاتكاء على الأرائك في الحفلات العامة أُسْوَةً بالرجال، ومع ذلك، كان بوسعها أن تخرج إلى السوق لتبتاع ما تريد، كما كانت تصحب زوجها إلى السيرك بين الفينة والفينة.

اللباس

كان الرومان يرتدون ثياباً خفيفة من الصوف أو الكتان، وكان الثوب الرئيسي للرجال والنساء رداءً يسمى «التيونك»، وهو قميص بكُمٍّ قصير يتدلى إلى الركبة أو ما دونها، وكان «التيونك» بمثابة ثوب نوم أيضاً. وكانت النساء فوق «التيونك» يرتدين عباءة تدعى «البالا»، وكلتاهما تشبهان الملاءة التي تلتف حول الجسم. وغالباً ما كانت ثياب الرجال بيضاء اللون، ولكن برغم ذلك فإن التوجة التي تلبسها الطبقة العليا من الرومان كانت ذات حافة أرجوانية، أما ثياب النساء فكانت غالبيتها مصبوغة بألوان متعددة.

الحفلات الترفيهية

كان المزارعون يتشوقون إلى الأعياد الدورية التي تقام عند زراعة الأرض وحصادها، وكانت تشتمل على ألعاب رياضية وتسليات أخرى، وأغلب الأعياد كانت دينية. وكثيراً ما كان الامبراطور أو موظفو الدولة الأغنياء يتبنون إقامة أنشطة الترويح العام مجاناً في مسارح مكشوفة واسعة ذات مُدَرَّجات تُعرف بـ«المسارح المُدَرَّجة».

ومن أهم الحفلات الترفيهية وأعظمها حفلات «الألعاب القَرْنِيَّة» التي تقام كل مائة سنة في روما، بكل مظاهر الأُبَّهة والعظمة. وكانت القرابين الخفية الرمزية تقدَّم خلالها في ثلاث ليال على ضفاف «التيبر». وكانت ساحة «مارشيوس» تعج بالموسيقى والرقص، وتضاء بعدد لا يحصى من المصابيح والمشاعل، ولم يرخَّص للعبيد والغرباء الاشتراك في هذه الحفلات.



(بعلبك) وكانت تسمى قديماً (هليوبوليس)، أي مدينة الشمس

عادة الدفن

كان بعض الرومان يحرقون جثث موتاهم، وبعضهم الآخر يدفنونها، وكان الموتى يُشَيَّعون إلى مثواهم الأخير في مواكب جنائزية كبيرة أو صغيرة، حسب الحالة الاجتماعية والاقتصادية للمتوفى.

المصادر والمراجع

- أحمد علي، عبد اللطيف: **مصادر التاريخ الروماني**، القاهرة ـ مصر، ١٩٧٠م.
- إسماعيل علي، أحمد علي: **تاريخ بلاد الشام القديم**، مركز الشام للخدمات الطباعية، ط١، ١٩٩٨م.
- جيبون، إدوارد: **اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها**. سلسلة ألف كتاب (٢٥٨)، ترجمة محمد علي أبو درة، مراجعة وتقديم أحمد نجيب هاشم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، القاهرة ـ مصر، ١٩٩٧م.
- السقاف، أبكار: **الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين**، دار العصور الجديدة، القاهرة ـ مصر، ٢٠٠٠م.
- عبودي، هنري س.: **معجم الحضارات السامية**، جروس برس، طرابلس ـ لبنان، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- عطاء، زبيدة: **الدولة البيزنطية من قسطنطين إلى إنستاسيوس**، بيروت ـ لبنان، ل.ت.
- ليسنر، د. إيفار: **الماضي الحي حضارة (تمتد سبعة آلاف سنة)**، ترجمة شاكر إبراهيم سعيد، مراجعة محمد أبو المحاسن عصفور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١م.
- **الموسوعة العربية العالمية**: المترجم أحمد عبد اللطيف أحمد وآخرون، التحرير والمراجعة محمد عبد الخالق محمد فضل وآخرون، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط٢، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.
- نصحي، إبراهيم: **تاريخ الرومان منذ أقدم العصور حتى عام (٣٣ ق.م)**، القاهرة ـ مصر ١٩٨٣م.

الحضارة السبئية

أ. د. محمد سهيل طقوش



الموقع والجغرافيا

قامت مملكة سبأ في اليمن وامتدت جنوباً إلى البحر الأحمر، يحدها من الشمال مملكة معين ومن الجنوب والجنوب الغربي قتبان ومن الشرق حضرموت، وتمتد أراضيها إلى الساحلين الغربي والجنوبي. وكانت منازل السبئيين أوسع رقعة على الساحل الجنوبي، وتشمل ريدان بيت عدن وحور، ويملكون أراضي في ساحل اللبان الذي يمتد إلى الشرق.

تشتمل كتب الجغرافيين على تفصيلات جغرافية عن إقليم سبأ، بَيْدَ أنها لا تساعدنا على تكوين فكرة شاملة عنه بفعل أنها كلها أو معظمها تحتوي على أسماء قائمة بذاتها، غير أننا يمكن أن نخرج بفكرة عامة خلاصتها أن سبأ أرض باليمن مدينتها مأرب، ومن مدنها صنعاء، وسميت بهذا الاسم إما لأنها كانت منازل ولد سبأ يشجب بن يعرب بن قحطان، أو بفعل حرارتها، يقال: سبأته النار إذا أحرقته. وقد نشأت أقدم الدول العربية في اليمن بفعل موقع البلاد الجغرافي على طرق التجارة العالمية، ووفرة مواردها بفعل الأمطار الموسمية التي تهطل عليها بانتظام، والظروف السياسية التي أحاطت بها، وتتمثل في الصراعات الدولية على أرضها.

يتخلَّل إقليم سبأ وديان جافة تنساب فيها مياه الأمطار، وربما كانت بقايا أنهار قديمة جفَّت على مَر القرون، كما تكثر فيه الجبال والمرتفعات والمنخفضات الحارة والرطبة.

السبئيون عبر تاريخهم

سبأ اسم لقوم كانوا ينزلون في جنوب غربي جزيرة العرب في الألف الأولى قبل الميلاد، وينتسبون إلى عبد شمس بن يشجب الذي يرتقي بنسبه إلى قحطان، أحد أجداد العرب، ولُقِّب بسبأ نظراً لكثرة حروبه وغزواته، وهو أول مَن سبى من العرب، وغلب الاسم على المملكة.

إن أقدم ما ورد من إشارات مكتوبة عن سبأ هي التي وردت في النقوش المسمارية السومرية. فقد وردت كلمة سبو في نقش سومري لأردنانَّر ملك لكش الذي عاصر آخر ملوك أور في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد، والراجح أنها علم على أرض السبئيين.

وورد لفظ سبأ في نقش معيني يشير إلى أن قبيلة بدوية كانت تسطو على الطريق التجاري الممتد بين بلاد العرب الجنوبية ومعان الواقعة في شمالها، وتهاجم القوافل المعينية القادمة من مصر، ونجد الحال نفسها في العهد القديم، لصوصاً سبئيين يسطون على رعاة أيوب ويقتلونهم.

ويرجع تاريخ أقدم الإشارات الموثقة عن السبئيين إلى القرن الثامن قبل الميلاد. فقد ورد ذكر السبئيين في النقوش الأشورية التي ترجع إلى أيام الملوك تغلث فلاسر الثالث (٧٤٥ـ٧٢٧ ق.م) وسنحاريب (٧٠٤ـ٦٨٨ ق.م) وأسرحدون (٦٨١ـ٦٦٩ ق.م) بما يشير إلى أن هؤلاء فرضوا الجزية على ملكَي سبأ يثعمر وكرب إيلو. ففي أخبار الحملة التي قام بها تغلث فلاسر الثالث على شمالي بلاد العرب نجد ذكر السبئيين من بين القبائل التي قدَّمت ولاءها لهذا الملك، كما ورد اسم الملكة سمسي صاحبة عريبي. ويذكر سرجون الثاني (٧٢٢ـ٧٠٥ق.م) في حولياته عن عام

(٧١٥ق.م) عرب الصحراء الذين يقيمون في بلاد قاصية، وورد ذكر الملكة سمسي صاحبة عريبي ويثعمر، من بني سبأ، من بين الذين أقبلوا حاملين هدايا نفيسة كجزية لهذا الملك وقوامها الذهب واللبان والأحجار الكريمة وغيرها، وهي محصولات مألوفة لدى عرب جنوب الجزيرة العربية.

ومن الإشارات القديمة المكتوبة التي تحدثت عن سبأ، تلك التي وردت في العهد القديم وذكرت أن بني سبأ كانوا يُزوِّدون الشام ومصر بالطيب وبخاصة اللبان، ويُصدِّرون إليهما الذهب والأحجار الكريمة، وأن ملكة سبأ زارت سليمان في القدس وحملت إليه الطيب والذهب الكثير والأحجار الكريمة، كما يشير العهد القديم إلى قوافل بني سبأ، ويُصوِّر هؤلاء وهم ينهبون شمالي بلاد العرب، ما يعني أن السبئيين كانوا يجمعون في بعض الأحيان بين السرقة والتجارة.

والراجح أن السبئيين كانوا شعباً بدويّاً يتنقَّل بين شمالي الجزيرة العربية في الجوف وبين جنوبها، قبل أن يستقروا في بلاد اليمن حوالي عام (٨٠٠ ق.م) نتيجة لضغط الأشوريين عليهم من الشمال، فاستغلُّوا ضعف المعينيين وتوسَّعوا على حسابهم، ولما قوي أمرهم، قضوا على الدولة المعينية، وأقاموا دولة لهم على أنقاضها، وورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها، وخلفوهم في الاشتغال بنقل التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق حتى أضحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة العالمية.

ويبدو أن السبئيين سلكوا طريقين في ارتحالهم نحو الجنوب:

الأول: الطريق الذي تسلكه القبائل البدوية عادة، والذي يمتد في الأراضي الزراعية على طول الشاطئ الغربي للجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

الثاني: الطريق الذي يمتد على طول الساحل الغربي للخليج العربي حتى عُمان وحضرموت، أي باتجاه طريق اللبان الشرقي.

ومن الطبيعي أن يكون بنو سبأ أو أجدادهم قد لزموا المناطق الغربية ومناطق الساحل بفعل أنها أنسب المناطق للاستقرار نظراً لجودة تربتها ووفرة مياهها.

ويأتي بعد هذا في الترتيب التاريخي، الإشارات إلى سبأ في المؤلفات اليونانية والرومانية، وكان السبئيون قد انتقلوا إلى جنوبي الجزيرة العربية واستقروا في الرقعة الجنوبية الغربية، وأقدم مَن كتب في ذلك من اليونانيين ثيوفراسطس، فقد ذكر أن سبأ وثلاث ممالك أخرى في جنوبي بلاد العرب هي مصدر للطيب، ثم ما نقله استرابون من روايات أراتوستينيس من أنه كان يقيم في جنوبي بلاد العرب أربعة شعوب كبرى من بينها شعب سبأ المجاور لبني معين. ويذكر استرابون أن السبئيين شعب عظيم البأس يزرع في أرضه المر واللبان والقرفة، وتنمو على ساحله أيضاً شجرة البلسم وغيرها من أشجار الطيب ونباتاته، ويستطرد حيث يروي نبأ حملة قام بها إيليوس غالوس حاكم مصر الروماني في عام (٢٥ ق.م) على جنوبي بلاد العرب.

وذكر ديودورس وبليني منازل بني سبأ على البحر الأحمر والتي تمتد أراضيهم جنوباً إلى البحر. وقد أثَّرت الشواهد المكتوبة عن سبأ وروايات التجار والرحّالة على مؤلَّفات اليونان

المتأخرة، وكذلك على كتب الرومان منذ القرن الأول الميلادي وحتى القرن التاسع عشر، أمثال: هاليفي وبريتوريوس ومورتمن ومولر وغليزر وغيرهم.

وكادت سبأ تغيب عن ذاكرة الجغرافيين العرب المسلمين بعد ظهور الإسلام، لكن سرعان ما أضحت في نظرهم صدى من أصداء الماضي وجوهر تاريخ العصر الجاهلي، غير أننا لا نجد في روايات هؤلاء معلومات ذات قيمة إلا القليل، ويمكننا أن نقسم الإشارات القليلة هذه إلى قسمين:

يتضمَّن القسم الأول بيانات جغرافية وتاريخية قيِّمة عن بقايا العمائر السبئية وتفصيلات عن تاريخ سبأ القديم تشتمل على معلومات عن الآثار القديمة.

ويتألف القسم الثاني من أساطير أقل شأناً، وهي التي بقيت ماثلة في الروايات بعد زوال الثقافة السبئية، وتسرَّبت إلى الإشارات التاريخية الخاصة بشؤون مملكة حِمير، وهي الدولة التي كانت أقرب إلى سبأ في المدى الزمني.

ويأتي الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني في طليعة مَن كتب في القسم الأول، وهو يمني من أهل صنعاء، وذلك في كتابه «صفة جزيرة العرب» الذي يُعد من أهم المصادر المكتوبة عن جغرافية بلاد العرب بوجه عام، ويتضمن تفصيلات جغرافية عن إقليم سبأ، كما اهتمَّ بالآثار القديمة في العربية الجنوبية (اليمن) في كتابه «الإكليل» الذي يُعد تاريخ اليمن ووصفاً لآثاره.

تدرَّج بنو سبأ في الحكم من الإمارة والكهانة إلى الملك الواسع الذي يسعى للتجارة وتجميع الثروة، وبسط الهيمنة السياسية، فأنشأوا في بداية حياتهم السياسية إمارة صغيرة ما لبثت أن أضحت مملكة تتمتع بنفوذ قوي على ما جاورها من ممالك، ولا يعود ذلك إلى قوتها العسكرية بقدر ما كان لها من سيطرة تجارية وأراضٍ زراعية حقَّقت لها ازدهاراً وثراء. فقد سيطرت سبأ على الطريق التجاري الذي يربط الجنوب بالشمال، وأضحى لها نفوذ واسع يمتد من اليمن جنوباً إلى نجد وشمالي الحجاز، كما سيطرت على طريق التجارة العالمية الذي يربط جنوبي الجزيرة العربية ببلاد الشام ومصر. وكانت حكومة سبأ تُرسل حكاماً يقيمون في الواحات الشمالية التي تقع على هذا الطريق، إلى جانب حاميات عسكرية لتضمن بقاء المحطات التجارية.

مرَّت الدولة السبئية، استناداً إلى النقوش المكتشَفَة، بمرحلتين تاريخيتين متتاليتين تتميز كل منهما بألقاب ملوكها:

الأولى: مرحلة المكربين، وهي مرحلة تلقَّب فيها حكامها بلقب مكرب سبأ، أي المقرب من الآلهة، واتخذوا مدينة صرواح الواقعة غربي مأرب عاصمة لهم، وتمتد بين عامَي (٨٠٠ـ ٦٥٠ ق.م).

الثانية: مرحلة الملوك، وهي مرحلة تلقَّب فيها حكامها بلقب ملك سبأ، واتخذوا مدينة مأرب عاصمة لهم، وتمتد بين عامَي (٦٥٠ ـ ٣٠ ق.م).

مرحلة المكربين: ورث السبئيون المعينيين وأضحوا سادة البلاد العربية الجنوبية، وكان حاكم البلاد يسمى مكرب ويقوم بدور الملك والكاهن معاً، ويدل ذلك على مدى القداسة التي اعتمد عليها الحكام السبئيون في حكم

دولتهم، ويتراوح قيام الدولة بين القرنين الثامن والسادس قبل الميلاد، وما ورد في القرآن الكريم في سورة النمل من ذكر ملكة سبأ وعلاقتها بالنبي سليمان، أي في القرن العاشر قبل الميلاد، فالراجح أنه يعني السبئيين الذين كانوا يسكنون آنذاك في شمالي الجزيرة العربية، في ريدان ومعان وتيماء.

تمكّن العلماء من جمع أسماء زهاء سبعة عشر مكرباً وردت في النقوش العربية الجنوبية، أولهم سمه علي (٨٠٠ ـ ٧٨٠ ق.م) مؤسس الدولة، وقد قاد قبيلته من الفيافي والقفار إلى الأرض السعيدة التي تفيض لبناً وعسلاً، واتخذ مدينة صرواح عاصمة لدولته. وكان هذا المكرب يُقدم البخور باسمه ونيابة عن قبيلته للإله ألمقة، إله القمر، وخلفه ابنه يدع إيل ذريح (٧٨٠ ـ ٧٦٠ ق.م)، وقد بنى معبداً للإله ألمقة في مدينة صرواح، كما شيَّد معبداً آخر لهذا الإله في مأرب، وقدَّم القرابين إلى الإله عثتر.

وتوالى على حكم سبأ عدد من المكربين قاموا بأعمال إنشائية وعمرانية مثل بناء السدود. فقد بنى سمه علي ينف بن زمر، الذي حكم عام (٦٦٠ ق.م)، سد رحاب، وهو جزء من المشروع المعروف بسد مأرب الذي وسَّع الأراضي الزراعية في مأرب، وزاد من ثروة أهلها، ومع ذلك، لم يفِ بجميع حاجات الأراضي المزروعة، ولذلك أقدم ابنه يثعمر على زيادة سد رحاب طولاً وعرضاً وارتفاعاً، وأقام سدّاً أكبر منه يُعرف بسد حبابض، وأضحت مدينة مأرب نتيجة ذلك مقرّاً لكبار الملاَّك والفئات الغنية والمتنفذة ما هيَّأ لنقل العاصمة لاحقاً من صرواح إليها.

ويُنسب إلى يثعمر بن يدع إيل ذريح بناء معبد الإله ألمقة في بلدة دابر الواقعة بين مأرب ومعين في الجوف، ونستدل من الموضع الذي أُقيم فيه هذا المعبد، أن السبئيين اصطدموا بالمعينيين وانتصروا على قبائل نجران، وقتلوا عدداً من أفرادها مثل: المحامر وعامر وأوهاب.

كان كرب إيل وتر آخر الحكام المكربين، وقد دُوِّنت أعماله في كتابة صرواح، الوثيقة التاريخية التي تقص أخبار سبأ وتتضمَّن ما قام به من حروب التوسُّع التي قضى فيها على استقلال ممالك وإمارات في العربية الجنوبية أو أخضعها لحكم سبأ.

والواقع أن هذا المكرب خالف سياسة أسلافه القائمة على البناء والزراعة، واتبع سياسة عسكرية قائمة على قاعدتين:

الأولى: التوسُّع على حساب جيرانه.

الثانية: السيطرة على طرق التجارة الدولية.

وساعدته الظروف السياسية السائدة آنذاك على تحقيق طموحه، ذلك أن مصر كانت لا تزال تحت تأثير غزو الأشوريين لها في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وكانت أشور من جهتها منهمكة في الحروب مع البابليين والكاشيين، كما أن بابل كانت تواجه ثورات اليهود في فلسطين؛ ما منع هذه الدول الكبرى من التدخل في الشؤون العربية.

ففيما يتعلق بالقاعدة الأولى، فقد تحالف كرب إيل وتر مع ملكَي حضرموت وقتبان ضد خصومه المعينيين والأوسانيين، ثم هاجم دولة معين وغزا نشان والمناطق المجاورة لها والمتحالفة معها في الشمال، وقضى عليهم

جميعاً، ثم توجَّه إلى أوسان في الطرف الجنوبي الغربي من اليمن، وكانت تسيطر على الطرق التجارية في المنطقة، فهاجمها وانتصر عليها وعلى القبائل المتحالفة معها.

وطَّدت حروب التوسُّع سلطة الزعيم السبئي في العربية الجنوبية، وعزَّزت نفوذه على القبائل المعارضة، ما دفعه إلى طرح لقب مكرب وتلقَّب بلقب ملك، ويعني ذلك أنه استأثر بالسلطة واستبدَّ بها، وألحقت حروبه أضراراً بالغة باقتصاد المناطق التي أخضعها، ما أدَّى إلى تدهور أوضاعها، واندثار كثير منها بسبب إحراق المدن والقرى أو تخريبها وتدميرها ومقتل أهلها أو هلاكهم. وتشير كتابة صرواح إلى حجم الأراضي وعدد المواشي والأموال النفيسة، وإلى عشرات الآلاف من الأسرى وغير ذلك من الغنائم التي سجَّلها باسمه أو باسم أفراد أسرته وأقربائه ومقرَّبيه، أو باسم الحكومة أو باسم ألمقة وعثتر.

وفيما يتعلق بالقاعدة الثانية، فإنه نتيجة لهذا التوسُّع على الأرض، وبفعل وقوع سبأ في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية المطلَّة على سواحل البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي، سيطر الملك السبئي على طرق تجارة البخور والتوابل الآتية من الشرق والشمال، وظهرت سبأ بين القرنين السابع والرابع قبل الميلاد كأكبر قوة تجارية في العالم القديم، فقد كان أسطولها التجاري الكبير يُزوِّد معابد مصر بالبخور والطيوب من اليمن، والحرير والتوابل من الهند.

كان المكربون يمارسون إلى جانب السلطة الزمنية سلطة دينية، ويبدو أن تنامي قوة رجال الدين السياسية والاقتصادية فرضت أن يتخلَّى الملك عن صلاحياته الدينية ليتفردوا بها، أو أن كرب إيل وتر أراد التفرغ لممارسة السلطة السياسية، لذلك وبعد أن سيطر على كامل بلاد اليمن، غيَّر لقبه ولقَّب نفسه بلقب ملك سبأ، واقتدى به مَن أتى بعده من الحكام، وحملوا إلى جانب أسمائهم ألقاباً تدل على الفخامة مثل: وتر، وتعني العظيم، وبيين، وتعني الممتاز، وذرح، وتعني الشريف، ويهنعم، وتعني المحسن، وينف، وتعني السامي.

مرحلة الملوك: اتخذ ملوك سبأ في هذه المرحلة مدينة مأرب عاصمة لهم كما ذكرنا، وجعلوا من قصر سلحين، سلحن، مقاماً ومستقرّاً يديرون منه شؤون البلاد. وازدهرت الزراعة في هذه المرحلة نتيجة التوسُّع في أعمال الري الاصطناعي، ونمَت الحِرَف، وتوسَّعت الحركة التجارية، فكان لسبأ أسطولها التجاري الكبير، وتفوُّقها في الملاحة ما انعكس إيجاباً على الوضع السياسي من واقع استمرار السبئيين في التوسُّع على حساب جيرانهم وتوحيد الممالك العربية الجنوبية، وضمِّ الإمارات المستقلة ودمجها في مملكة سبأ.

وعمد السبئيون إلى مصادرة أراضي القبائل المعارضة ومنحها لأفراد أُسرهم، الأمر الذي أدّى إلى انتقال الحكم تدريجاً إلى أيدي الأُسر النافذة الأوفر ثراء، والأوسع أملاكاً والأكثر قوة، وأضحى المال نتيجة ذلك عاملاً أساسيّاً للوصول إلى السلطة، كما صارت السلطة في نظر هؤلاء وسيلة لتكديس الثروات. ومنذ عام (٥٠٠ ق.م) بدأت تظهر أُسر قوية أدَّت دوراً فاعلاً في سياسة البلاد، نذكر منها: بنو فيشان، وبنو مرثد، وبنو بتع من همدان، وتمكَّنت إحداها من اغتصاب العرش من ملوك

سبـأ، كما ظهرت آلهة جديـدة مثل: ذو السماء أو ذو سماوي أو رب سماوي، وهي أسماء تعكس تطوراً خطيراً في حكومة سبـأ وتغيُّراً مهمّاً في السياسة والدين والنظم الاجتماعية.

وبدأت قوة مملكة سبأ تهتز منذ القرن الرابع قبل الميلاد بفعل عاملين: خارجي وداخلي.

ففيما يتعلق بالعامل الخارجي، فقد ظهرت فـي مصر قوة البطالمة التـي احتكرت التجارة الشرقية ما أثَّر سلباً على مركز سبأ التي فقدت الكثيـر مـن مكانتهـا التجاريـة فـي البحريـن الأحمـر والأبيـض المتوسـط قبـل أن تفقدهـا نهائيّاً لصالح اليونان والرومان.

وفيما يتعلق بالعامـل الداخلي، فقد واجهت مملكـة سبأ ثورات داخليـة عاتية بسبب سياسة ضم الإمـارات المستقلة وتوحيـد القبائل تحت سيادتهـا، ذلـك أن هـذه السياسـة اصطدمت بالمصالـح الشخصية للزعامـات المحلية التي عـزَّ عليها أن تتنـازل عن استقلالهـا، وقد نتج عن ذلـك حصـول اضطرابات عنيفـة وثورات داخليـة أثَّـرت سلباً علـى الوضعيـن السياسي والاقتصـادي للدولـة، وأتاحت للـدول الأجنبية التدخـل فـي شؤونهـا، غيـر أن صحـوة عابرة انتابت القيِّمين على الدولة في القرن الأول قبل الميـلاد، فظهر في مأرب ملـوك كان لهم شأن كبيـر مثل: علهـان نهفان وابنـه شعراوتر، وقد خاضـوا حروبـاً واسعة ضـد الحبشـة المتوثبة للسيطرة على السواحـل اليمنية تمهيداً للتمدد نحو الداخل، وحِمْيَـر وحضرموت ومملكة كندة التي حاولـت استعادة حريتهـا واستقلالها عن الدولـة السبئيـة، وتوسَّعـوا شمالاً علـى حساب المـدن المعينيـة التـي كانـت تمـارس حياتها السياسية كدول مدينية مستقلة.

ويبـدو أن خلفـاء شعراوتـر كانـوا ملـوكاً ضعافـاً، فشلـوا فـي المحافظة علـى منجزات أسلافهـم المكتسبـة، وإعـادة الوحـدة إلـى المملكة، ومنع القبائل المتصارعة على العرش من الاقتتـال. وتُسجِّل الأيـام الأخيرة من حياة الدولة السبئيـة قيام نزاع خطيـر حول العرش كان له أثر سيىء فيما أصاب البلاد من خراب ودمـار وتحوُّل كثير من الأراضـي الزراعية إلى أراضٍ جرداء قاحلة.

وفي غمرة هذا الصـراع، حاول الريدانيون القاطنـون قـرب السـاحـل الجنوبـي للجزيـرة العربية إلى الشمال من حضرموت، والحميريون القاطنون إلـى الغرب من حضرموت، استغلاله لصالحهـم، وتمكَّنـوا فـي النهايـة مـن انتزاع العـرش السبئي فـي عـام (٣٠ ق.م)، وأسَّسوا أسرة جديدة تلقَّب ملوكها بلقب ملوك سبأ وذي ريدان.

السبئيون عبر نظمهم

النظام الاقتصادي

الزراعة

تمهيـد: يتأثـر الوضـع الاقتصـادي عـادة بطبيعـة الإقليم، إذ إن للطبيعة أثـراً كبيراً في تحديـد خيراته وإنتاجـه الزراعـي والصناعي والحيوانـي. وقد أثَّرت طبيعـة الجزيرة العربية بعامـة واليمـن بخاصـة فـي تكييـف اقتصـاد السبئييـن وفـي تحديـد مواردهـم وتوجيههـم الاقتصادي. ونظراً لخصوبة أراضيهم وانتظام سقـوط الأمطـار، فقـد اعتمدوا علـى الزراعة كمـورد رئيـس إلـى جانب التجـارة، كمـا كان عندهـم إلمـام بالصناعـة. ويبرز فـي الوضع الاقتصادي تعدد الموارد وتنوعها، ويلاحظ في

القـرون الأخيرة قبل الميـلاد منحى التوجهات الاقتصاديـة مـن واقـع تطـور وسائـل الإنتـاج والقـوى المنتجـة، وتوسُّـع أعمـال الـري الاصطناعي، وازدياد الإنتاج الزراعي، وحدوث تقسيم جديد للعمل من خلال انفصال الحِرَف الصناعية اليدوية عن الزراعة، وارتباط الإنتاج الصناعـي بسـوق التبـادل ونمو المـدن وتحول العديد من القرى إلى حواضر مدينية.

السـدود: لم يقف السبئيون مكتوفي الأيدي أمـام التبعيـة لعوامـل الطبيعة بل عملـوا على الحد منها، فسخَّروا المياه الجوفية والسطحية الموسميـة بوسائـل متقدمـة بالقيـاس إلـى مرحلتهـم الزمنيـة التي حكمـوا فيهـا، لإنتاج حاجاتهـم المباشـرة وحاجـات التبـادل فـي الأسـواق الداخليـة والأسـواق الخارجيـة على صعيد الجزيـرة العربية والشرق والغرب، وبنوا السدود، وحفـروا الآبار، وحبسـوا مياه السيول لاستعمالهـا فـي الـري خـلال أيـام الجفاف، وتوسَّعوا فـي أعمال الـري الاصطناعي، وجرُّوا الميـاه إلـى الأراضـي المزروعـة، وأقامـوا المدرَّجـات على سفـوح الجبال لمنـع انجراف التربة.

وقـد تنوَّعت أنظمـة الري التـي استخدمها السبئيون، إلا أن أنظمة السدود والقنوات كانت أهمهـا، والواقـع أن السدود لم تكـن على نسق واحد من حيـث البناء والشكل، وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: بسيـط وبدائـي، وهو مجـرد حاجز من تـراب أو صخور كُدِّسـت بعضها فوق بعض لحبس الماء في المنخفض ومنعه من الجريان، وتحويلـه إلـى المـزارع والحقـول، وأُقيـم على الأودية الصغيـرة الفرعية والشعـاب. وتختلف أشكاله وطريقة بنائه، فمنها ما يُقام في وسط مجرى الوادي، ومنها ما يُبنى على جانب واحد من حافة الوادي، وقد تعددت أشكال هذا النوع مـن السدود فـي الـوادي الواحـد، وكثيـراً ما تنجـرف مع السيـول ويُعاد بناؤها فـي الموسم التالي.

الثانـي: بُنـي علـى شـكل حـرف V لحجز التربة والطمي المنجرف مع مياه السيول.

الثالث: يتميـز بالفخامة والصلابة والقوة، ويحتـاج بنـاؤه إلـى أحجـار صلبة ومـواد بناء مختلفة ومتنوعة بالإضافة إلى أعداد كبيرة من العمـال، والهدف مـن بناء هذا النـوع مزدوج: رفع مستوى الماء في مجرى الوادي والتحكم به عبر قنوات إلـى مسافات طويلـة، وحجز الماء في أحواض كبيرة لاستخدامه في وقت الجفاف لسقـي الماشيـة وري النباتـات فـي الحقـول والبساتين.

ويُعـدُّ سد مـأرب مـن أهـم السـدود التي اكتسبت شهرة في اليمن والجزيرة العربية. بدأ السبئيـون فـي بنائـه فـي القـرن الثامـن قبل الميـلاد، واتخـذ شكلـه النهائـي مـن خـلال الترميـم الـذي أجـراه الملـك شمـر يهرعش الثالث فـي عـام (٣٠٠م)، وهو بشـكل العمود الفقـري لتنظيـم الـري الاصطناعـي وتطـور الزراعـة الكثيفة في سبـأ. وقد بُنـي في وادي أذنة بين جبلَي أبلـق القبلي وأبلق الأوسط على بُعد ثلاثـة أميال من مأرب. وللسد فتحات عدة تُفتـح وتُغلق لمرور المياه منهـا حسب الحاجة، إلـى الحقـول والبساتيـن المجـاورة. ويبدو أن السبئيين بنوه لهدفين:

الأول: حمايـة مدنهم وقراهـم ومزارعهم مـن السيـول الجارفـة التـي كانـت تشهدهـا

المنطقة بين حين وآخر والتي كانت تزيد عن حاجة الناس.

الثاني: خزن المياه ورفعها وتوزيعها حسب الحاجة لري ما يجاور مدينتهم من الحقول والأراضي الخصبة التربة.

وزرع السبئيون الأراضي المحيطة بالسد والقريبة منه، فغدت جناناً وغياضاً عن اليمين وعن الشمال ملأى بأشجار الفاكهة والخضار المتنوعة والأزهار الملونة، فعاش الناس في رخاء وسعة في الرزق، وازداد العمران، وازدهرت مدينة مأرب نتيجة ذلك، واتخذها السبئيون عاصمة لدولتهم بدل صرواح.

وأشار القرآن الكريم بشكل واضح في سورة سبأ إلى غنى سبأ وشعبها وخبر الجنتين عن يمين سد مأرب وعن شماله وفيهما من كل الثمرات.

القنوات: استخدم السبئيون الوسائل الصناعية الفنية للسيطرة على المياه والتحكّم بها، فأنشأوا المجاري الصناعية، القنوات، لتجري فيها بقدر وحسب الحاجة، وهذا النظام على نوعين:

الأول: نظام القنوات السطحية، وهو عبارة عن شبكة من القنوات أو الجداول التي تُحفر على سطح الأرض لتصريف مياه السيول والينابيع والآبار وإيصالها إلى الأراضي الزراعية، وتُبنى عادة بانحدار بسيط ومناسب وفقاً لطبيعة الأرض، وقد تُحوَّل إلى قنوات جوفية إذا ما اعترضها عائق طبيعي، كوادٍ مثلاً.

الثاني: نظام القنوات الجوفية، وهو عبارة عن أنفاق تُحفر في باطن الأرض، أو مجموعة من الآبار يتصل بعضها ببعض بواسطة نفق تحت الأرض يُستعمل لجر المياه من مصادرها في باطن الأرض إلى أماكن استعمالها في القرى والمدن والحقول.

المعاملات المتصلة بالزراعة: مارس السبئيون بعض أنواع المعاملات المتصلة بالزراعة، وهي ذات تنظيم دقيق ومُتقن، وتبرز الزراعة في سبأ كمورد اقتصادي أساسي من موارد الإنتاج، ومن بين هذه المعاملات على سبيل المثال:

المحاقلة: استئجار الأرض الزراعية لقاء مبلغ من المال قد يكون عيناً أو نقداً.

المزارعة: الاتفاق على أن يزرع شخص أرض شخص آخر لقاء نسبة معينة من المحصول يدفعها المستأجر عند القطاف، على أن تكون البذور على عاتق مالك الأرض.

المخابرة: على نمط المزارعة ولكن يُقدم المستأجر البذور، وتكون على النصف.

المساقاة: اتفاق بين صاحب الأرض أو ملتزم الأرض وبين صاحب الماء، يتعهد فيه الأخير بتوصيل الماء إلى أرض الأول مقابل جزء من المحصول.

القصارة: الاتفاق على ما يبقى في السنابل من حَب بعد أن يُداس، فيكون أحياناً من نصيب الذاري وأحياناً أخرى من نصيب صاحب الزرع.

المخاضرة: هي أن يبيع المالك ثمار بستانه قبل أن تنضج.

وتضمَّنت بعض أنواع المعاملات، أو العقود المتعلقة بالأرض المزروعة لمدة معينة شروطاً منها: أن يكون للمالك الحق في فسخ العقد وإبطال مفعوله إذا تبيَّن أن المستأجر تباطأ في استغلال الأرض أو أهملها أو قام بأعمال

تُسيء إليها وتضر بالإنتاج الذي يكون للمالك نصيب فيه.

ووُجدت في المجتمع السبئي جمعيات زراعية تعاونية على شيء من التخصص نذكر منها:

- جمعيات زراعية تضم عادة ثمانية أعضاء يرأسها أحدهم لمدة معينة، هدفها: الإشراف على العمل، إدارة أمور الأراضي الزراعية، تأمين البذار وما يحتاج إليه الزرع، حفظ حقوق المزارعين وما يترتب عليهم من واجبات، دفع حصص الحكومة والمعبد من الضرائب وبدلات الإيجارات، خزن وبيع وتصريف المحصولات.

- هيئة تهتم بالأراضي الزراعية، وتؤجرها لمَن يزرعها لآجال محددة مقابل وديعة نقدية، ويبدو أن هذه الهيئة قد ساعدت في استصلاح الأراضي وإعمارها، وأتاحت للمزارعين العمل في الحقول لمدة زمنية وفق رغبتهم.

المحاصيل الزراعية: انتشرت في سبأ أنواع عديدة من المحاصيل الزراعية مثل: الفواكه والحبوب والخضراوات، ولكن تبرز من بين هذه المحاصيل والثمار ثلاثة أنواع هي النخيل والأعناب والحبوب.

يحظى النخيل وما ينتجه من تمر بأهمية بالغة، وقد شكَّلت التمور الغذاء الرئيس لسكان الجزيرة العربية بعامة، وهي غنية بعناصرها الغذائية والدوائية، وقد صُوِّرت النخلة أو نُحتت على بعض الصخور وعلى كثير من نصوص المسند، ولعل الفوائد الجمَّة لهذه الشجرة دفعت بعض الأعراب من أهل نجران إلى تقديسها. ومن بين هذه الفوائد استعمال جذوعها أعمدة للمنازل وحمّالات لسقوفها، وتُستعمل سعفها في سقوف المنازل أيضاً، وتُصنع من خوصها المكاتل والقفف، وتُقدم نواتها علفاً للإبل بعد دقه.

وانتشرت في سبأ زراعة الأعناب بسبب توفر المياه والمناخ المناسب، وكانت تُزرع على السفوح المدرجة، واشتهرت أثافت، إحدى مدن نجران، بكثرة كرومها وخمورها المصنوعة من هذه الكروم. وظهرت الأعناب بشكل واسع في زخارف السبئيين حيث أغصان العنب وعناقيده محفورة على آثارهم سواء في الأحجار أو على الخشب. وقد نالت الأعناب شهرة بفعل أنها فاكهة طيبة الطعم ومصدر لصناعة الخمور. وتشير النصوص السبئية إلى معاملات تتعلق بهذه الزراعة وبتجفيف الأعناب زبيباً، من بينها نص يشير إلى توزيع أبرهة الحبشي حصصاً من الزبيب على العمال بمناسبة إسهامهم في ترميم سد مأرب. والعنب أنواع منها: الجُرشي والكلافي والغربيب والحمنان.

وتأتي الحبوب، الحنطة والشعير، في الدرجة الثانية من حيث الأهمية بعد التمور كمصدر أساسي للغذاء في سبأ فهما عماد الخبز. ويحتل القمح المرتبة الأولى من بينها ويُزرع في بطن الأودية وواحاتها ولكن على نحو ضيق بفعل عدم ملاءمة المناخ أو التربة على مدار العام، ويُزرع في فصل الصيف تبعاً لاختلاف تساقط الأمطار. وتُزرع الذرة في الأراضي البعلية والمروية. ويأتي الشعير في المرتبة الثانية في قائمة الحبوب، ويُعد من أكثرها انتفاعاً، وانتشرت زراعته في سبأ منذ الألف الأول قبل الميلاد.

ومن بين الحبوب التي تُزرع في سبأ: الفول والحمص والعدس والكرسنة والشوفان والكمون.

ومن بين النباتات والفواكه: السمسم وقصب السكر والرمان والموز والخوخ والسفرجل والإجاص والتفاح واللوز والجوز والزنجبيل. واشتهر السبئيون بزراعة الورس الذي يدخل في صناعة الأصباغ، واختصَّت سبأ بزراعة أربعة أشياء هي الورس والكندار والخِطْر والعَصْب. والتين من الأشجار المعروفة في سبأ ويُزرع في المرتفعات الغربية ويؤكل طريًّا كما يؤكل مجففاً يابساً.

واشتهرت سبأ بإنتاج اللبان، وتوسَّع السبئيون في إنتاجه بفعل أهميته كمورد اقتصادي، وتصل مساحات الغابات التي تنمو فيها هذه الأشجار نحو مائة ميل طولاً وخمسين ميلاً عرضاً، وتنتشر على التلال المرتفعة من قمتها إلى سفحها في منطقة تدعى سربية، ويعمل في إنتاجها ثلاثمائة أسرة يُدعى أفرادها بالمقدسين، ثم إن العمل الذي يقوم به هؤلاء الأفراد، وهو شق لحاء الأشجار لاستخراج العصارة الصمغية التي يتكوَّن منها اللبان، إنما يتم وسط مظاهر من الشعائر الدينية التي تشير إلى مدى الأهمية التي أعطاها أصحاب هذه الغابات لهذا المورد الاقتصادي المهم، ومنها طهارة الأشخاص الذين يقومون بهذا العمل من واقع عدم ملامسة النساء أو الاشتراك في الجنائز. وقد حرص ملوك سبأ عبر تاريخهم على أن تلتزم القوافل، التي تنقل هذه المادة من مكان استخراجها إلى العاصمة، الطريق العام الممتد بينها وبين الغابات، ويُشكل الانحراف عن هذا الطريق جريمة يُعاقب مرتكبها، ولعل لذلك علاقة بحرص هؤلاء الملوك على عدم التلاعب بالمحصول أثناء نقله إلى المدينة.

واشتهرت ظفار أيضاً بإنتاج المر، وتُزرع شجرته في الجبال ولها بساتين على سواني، أي مرتفعات.

الصناعة

تمهيد: شكَّلت الصناعة وما يتصل بها من معاملات مورداً آخر للسبئيين. والواقع أن الصناعة، وهي حِرفة الصانع، تطورت عبر تاريخ سبأ وظهرت صناعات جديدة وأُدخلت بعض التقنيات على وسائلها وطرقها بهدف زيادة الإنتاج وتحسين نوعه. وتطورت الحرفة بفعل عوامل عدة أهمها:

- نمو القطاع الزراعي، علماً أن بين الصناعة والزراعة علاقة تبادلية ومتكاملة، فالزراعة تقدم الخامات اللازمة للقطاع الصناعي والتي لا غنى عنها للصناعة، ويُقدم القطاع الصناعي في المقابل الأدوات والآلات التي تحتاجها الزراعة لنموها وتطورها.
- توافر الخامات المحلية والمواد الأولية، مثل خامات الحديد والذهب والفضة والنحاس والرصاص والزمرد والعقيق والملح والمواد الصلصالية والأحجار القابلة للنحت والتشكيل كالرخام والمرمر، فضلاً عن وجود ثروة حيوانية قامت على جلودها وأصوافها ووبرها وألبانها صناعات متنوعة.
- زراعة بعض النباتات التي تستخرج منها مواد تدخل في بعض الصناعات، كالدباغة والنسيج والعطور والزيوت والخمور.
- ظهور أيدي عاملة ذات خبرة اكتسبت مهارات مهنية جيدة.
- بروز حركة تجارية نشطة عمادها الأسواق المحلية والموسمية العامة.

- استعمال مزيد من الرقيق للعمل في الأراضي الزراعية.

التعدين: يُعدُّ التعدين من المهن الأساسية التي احترفها السبئيون، والمعروف أن اليمن كانت مصدراً للعديد من المعادن وبخاصة معدنَي الذهب والفضة. وطوَّر السبئيون عملية التعدين التي كانت تبدأ بجمع المعادن من على سطح الأرض، ثم انتقلت إلى طور جديد من واقع إجراء عملية قشط الطبقة الخارجية الحاملة للمعدن، ومنها انتقلوا إلى حفر الأنفاق والممرات في جوف الأرض على طريقة المناجم المفتوحة.

وكان تعدين المعدن الخام وطحنه يتمان بالقرب من المنجم عادة، كما أن المادة المطحونة تُحرق بعد ذلك في أفران لتخليص المعدن من المواد المختلطة به، يلي ذلك صَهر المعادن الحاصل في الأفران وجمعه في أحواض خاصة لنقله أخيراً إلى مركز التصنيع في المدن حيث يُحوَّل إلى أدوات استعمال للإنسان.

كانت سبأ غنية بالمعادن، فقد وُجد فيها خام الذهب، وبخاصة في مأرب وأرض بني سابقة بالحد بين صعدة ونجران، وليس أدل على وفرة الذهب في اليمن بعامة مما قاله سيف بن ذي يزن لكسرى عندما نثر الدراهم التي أعطاه إياها عندما ذهب إليه يطلب مساعدته ضد الاحتلال الحبشي؛ على خدم القصر، وقال: «ما أصنع بهذا؟ ما جبال أرضي التي جئت منها إلا ذهب وفضة». وكانت الفضة من جملة المعادن المعروفة في سبأ وموضعها بالرضراض، ووُجد العقيق في سبأ إلى جانب الذهب والفضة في مكان قريب من صنعاء وفي ألهان، ويُستخرج العقيق الأحمر والأصفر والجزع (الخرز) من منطقة صنعاء. وعرف السبئيون معدن الحديد، فقد وُجد في نقم وغمدان حول صنعاء وفي جبل الحديد بعدن. واستخدم السبئيون الرصاص في كثير من أعمالهم منها صبُّه في أسس الأعمدة وبين مواضع اتصال الحجارة لترتبط بعضها ببعض، والرصاص نوعان: أبيض وأسود. والكبريت من المعادن الموجودة في سبأ ومركزه ذمار ومنها يُجلب إلى سائر أنحاء اليمن وهو من الحجارة الموقدة. والزاج مشهور في سبأ ويقال له الشب اليماني، وهو من الأدوية. ومن أخلاط الجير والشب حجارة يُتخذ منها الزاج وأجوده في اليمن. والملح من المواد التي تاجر بها السبئيون وأشهر مواضعه جبل الملح في مأرب.

الصناعات المعدنية: صنع السبئيون الأدوات والأواني المعدنية معتمدين على ما يستخرجونه من معادن من أرضهم مثل: التماثيل واللوحات البرونزية والأقداح والصواني والمرايا والمسارج والأسلحة والمسكوكات وأدوات البناء والنحت والزراعة.

انتشرت صناعة الحلي والمجوهرات في كثير من أنحاء اليمن، ونشطت مع ازدياد الطلب على شراء المصوغات من جانب نساء وجهاء القبائل والتجار والأثرياء للتزيُّن بها، منها ما يُعلَّق على الرقبة ومنها ما يوضع على الرأس أو الزند.

وسكَّ السبئيون النقود المعدنية من ذهب وفضة ونحاس، وهم أول مَن سكَّ نقوداً من الشعوب العربية القديمة، وقد قلَّدوا العملة الأتيكية اليونانية، ثم تأثَّروا بالعملة الرومانية، ونقشوا عليها اسم الملك الذي سُكَّت في أيامه

أو الحرف الأول منه واسم مركز الضرب، واستعملوا النقود في معاملاتهم التجارية.

تميزت النقود السبئية بميزتين:

الأولى: برموزها التي تشير إلى اسم المدينة التي ضُربت فيها وشعار الدولة أو إلهها الرسمي، أو اسم الأسرة التي ضربتها ما يدل على وجود أُسَر متخصصة بالضرب.

الثانية: بدقة أوزانها.

الصناعات الحجرية: ساعد وجود أحجار متنوعة قابلة للقطع والنحت والتشكيل في جنوبي الجزيرة العربية، على قيام صناعة أدوات وأوعية حجرية قابلة للاستخدام. فقد صنع السبئيون من أحجار المرمر والرخام أوعية لحفظ مواد الزينة، وأطباقاً ومجامر وتماثيل بشرية وحيوانية دخلت في المعابد مثل المذابح، وصنعوا من الحجر الصابوني أواني المطبخ كالقدور، ومن أحجار الغرانيت والديورايت دواليب الرحى والمساحق اللازمة لطحن الحبوب، ومن حجر المسن مقابض للسكاكين، ومن حجر الشذب ألواحاً وصفائح وقوائم السيوف ونصل السكاكين، ومن الحجر الهيصمي الآنية، كما صنعوها من حجر الحرض الذي يحتفظ بالحرارة مدة طويلة، وصنعوا من بعض الأحجار آلات الحفر، وآلات بسيطة لقطع الأحجار والزجاج وذبح الحيوانات، وأعمال الحلاقة، والطب كالعمليات الجراحية، وصناعة الجلود والمنسوجات وبعض أنواع القداح الذي يُستعمل لإشعال النار.

وقد نالت الصناعات الحجرية شهرة عالمية بفعل جودتها وذلك من خلال تصديرها إلى الخارج، وقد امتدحها ديودورس الصقلي وقارن بينها وبين أحجار باروس المعروفة بجودتها، فوجد أنها أكثر جودة.

صناعة الغزل والنسيج: نشطت صناعة الغزل والنسيج في اليمن وانتشرت في معظم أرجاء الجزيرة العربية تلبية للطلب المتزايد على منتجاتها، كالثياب والأقمشة والخيام والبُسُط والزرابي والستور وغيرها. وقد ساعد في توسُّع هذه الصناعة توافر الخامات الأولية من صوف غنم ووبر جمل وشعر ماعز وخامات كتان وقطن وأصبغة وأيدي عاملة ذات خبرة، ونشاط الأسواق المحلية والموسمية العامة ورواج التجارة. واشتهرت نجران بصنع الحِلَل والثياب الملونة والمزركشة. وكانت كسوة الكعبة في الجاهلية من الأنطاع والمعافر اليمنية، وكساها الرسول ﷺ الثياب اليمنية أيضاً. وطوَّر السبئيون صناعة الغزل والنسيج لجعل منتجاتهم أكثر جودة وذلك بإدخالهم عليها بعض التقنيات حيث يتجلّى تمازج الألوان بشكل يثير الإعجاب والدهشة. وراجت الثياب المصنوعة في عدن بخاصة واليمن بعامة لا سيما البرد. وعلى الرغم من الازدهار الذي بلغته هذه الصناعة، إلا أن العرب الجنوبيين استوردوا المنسوجات النفيسة من بلاد فارس والهند والصين والشام ومصر.

الصناعات الجلدية: راجت الصناعات الجلدية ودبغ الجلود في مملكة سبأ وذلك لسَد حاجات ومتطلبات الزراعة ووسائل الري مثل الدلاء والقِرَب وغيرها، بالإضافة إلى سَد حاجات الناس إلى النعال وغيرها. وقد شغلت هذه الصناعات مرتبة الطليعة بين صناعات السبئيين. وكانت صعدة في اليمن مركزاً لدباغة الجلود لوقوعها في بلاد القرظ،

وكذلك كانت نجران، علماً أن الجلود المعدَّة للدباغة هي جلود البقر والغنم والماعز والوحش، وتُدبغ بالقرظ والأرطى والسَلم والطبَّان وغيرها، وتدخل الجلود بعد دبغها في مختلف الصناعات الجلدية. وعمَّت شهرة الجلد اليمني في جميع أنحاء الجزيرة العربية بفعل جودته وحُسن صنعه وبخاصة النعال المصنوعة من جلد البقر. واشتهرت اليمن على الصعيدين الداخلي والخارجي بصباغة الجلود وتلوين الألبسة والحِلَل.

صناعة الطيوب: امتهن السبئيون حرفة استخراج العطور والروائح العطرية من الأزهار والورود والنباتات، ويدخل المر في تركيب العطور للمحافظة على رائحتها مدة طويلة، كما يدخل في تركيب الأدوية ويضاف إلى الخمور لإكسابها رائحة زكية. واشتهرت عدن بصناعة الطيب وأشهرها دهن العنبر والزباد والمسك. ويبدو أن العطارين السبئيين لم يكتفوا بما كانوا يستخرجونه من دهون وعطور من النباتات المحلية، بل كانوا يستوردون من الهند وغيرها مواد أخرى يُصنِّعونها طيوباً فاخرة ثم يُصدِّرونها إلى الخارج.

الصناعات الخشبية: كانت الصناعات الخشبية من بين اهتمامات السبئيين بهدف تلبية الحاجات المتنامية للأدوات المنزلية والزراعية ووسائل الري والصيد والأسلحة وما يتطلبه بناء المنازل والحظائر. وساعد على قيام هذه الصناعات نمو عدد كبير من الأشجار في مرتفعات اليمن وبطون الأودية، بالإضافة إلى بعض الأخشاب المستوردة من أفريقيا والهند التي تمتاز بصلابتها مثل: الساج والآبنوس والصندل. واستخدم النجّارون أدوات متنوعة في معالجة الخشب وقطعه ونشره وتسويته منها: الفأس والقدُّوم والمنشار والمحفرة والمسحل والعتلة والكلبتان وغيرها.

صناعة الأواني الفخارية: تمتد صناعة الفخار في المدى الزمني إلى عصور ما قبل التاريخ، وهي حرفة معروفة عند السبئيين بدليل ما عثر عليه علماء الآثار من أوانٍ فخارية وخزفية وكسرها في اليمن، مثل: القدور والجفان والصحاف والأباريق والكيزان والأكواب وغيرها. واستعمل السبئيون الجرار لخزن الطعام في المنازل، كالحبوب والدقيق والزيت والدبس والتموز والأشياء النفيسة، وأدخلوا بعض التحسينات التقنية إلى صناعتهم وزيَّنوها بنقوش دقيقة تُدهن باللون الأسود.

صناعة الأواني الزجاجية: عرف السبئيون صناعة الأواني الزجاجية بدليل ما عثر عليه علماء الآثار من مصنوعات زجاجية وكسرها في مواضع متفرقة وبخاصة البلور بفعل وجوده في اليمن، وكانوا يستخرجونه من الحجارة ويصقلونه بعناية ويغلب عليه اللون الأبيض.

وتمتاز الصناعات الزجاجية بتعدد ألوانها وزخرفتها وتطور صناعتها، وكانت الكؤوس تُزيَّن بالنقوش والزخارف واللؤلؤ والحجارة الكريمة.

صناعة السفن: عرف السبئيون صناعة السفن التي ترتبط عادة بوجود الأخشاب الملائمة، ولما كانت أخشاب غاباتهم ليست بالمتانة والصلابة اللازمتين لبناء السفن، فقد استوردوا الأخشاب من بلاد الشام وبعض مدن البحر الأبيض المتوسط. وتنوعت السفن التي كانت تُصنع في اليمن، فمنها الفلك، القرقور، الجارية، الخلية، وعدولي، والخليج، وبعض

أنواع المراكب الصغيرة، مثل الزورق، القارب، الركوة، والبوص. وكثرت الفرض، الموانئ، على شواطـىء اليمن التي ترسو فيها السفن القادمة من الهند ووادي الفرات ووادي النيل، مثل عدن.

يبقى، فـي نهايـة الحديـث عـن الصناعة، النظـر إلى الحجم الحقيقـي للمصنوعات الذي لم يكـن بالقدر الذي يؤمله الخبير الاقتصادي للوهلة الأولى. فعلى الرغم من أن اليمن صدَّرت السيـوف وبعض المنسوجـات وغيرها من السلع الأخرى إلـى عدد من أقسام الجزيـرة العربية، إلا أن هـذا التدبير ظلَّ قاصـراً على هذا الإطار المحلـي ولم يعرف طريقه إلـى الخارج، كما أنَّ عدداً من السلع من بينها الأقمشة والذهب كانت تُستـورد مـن الخارج علـى شكل أثـواب جاهزة وسبائك مصقولة، وربما يعود هذا التناقض إلى أن إنتاج واستيـراد السلع نفسها يكمن في نظرة العربي الازدرائية إلى حرفة الصناعة، وأنها أمر متـدنٍّ في قيمتها كمهنة يحترفهـا لأن الصناعة من حِرَف العبيد والخدم والأعاجم.

التجارة

تقـع الجزيـرة العربيـة فـي قلـب العالـم القديم، وتمـر عبرها، وعبر البحـار المحيطة بها، الطرق البرية والبحريـة العالمية الرئيسة التي تربـط الشرق بالغرب ما جعـل منها صلة وصـل بيـن القـارات الثـلاث آسيـا وأفريقيـا وأوروبـا، وإن إطـلال الجزيـرة العربيـة علـى سواحـل البحر الأحمـر والخليـج العربي وبحر العـرب، أتاح لسكانهـا الاستفادة مـن الأهمية التي يتمتع بها هذا الموقع كطريق تجاري يصل أطراف العالـم القديم آنـذاك بعضها ببعض؛ للقيـام بنشـاط تجـاري مرموق، فقـام العرب بالتجـارة منذ أقدم العصـور، واحتكروا تجارة الإقليم الموسمي في الشـرق منذ الألف الرابع قبل الميلاد. ومن الطبيعـي أن يرتاد السبئيون مسالك معينة وواضحة تسير قوافلهم التجارية عبرها، فاختاروا طريقين:

الأول: الطريـق البـري المـوازي للبحـر الأحمـر والـذي تسلكـه القوافـل بيـن اليمـن والشام، وتتفرع منه خطوط تتجه صوب الغرب والشـرق والشمـال الشرقـي. وتتحـدث روايات المصـادر عن ازدهـار هذا الطريـق المعروف باسم طريق العطور أو طريق البخور. يبدأ هذا الطريق مـن صنعاء ويخترق الحـدود الشمالية لمنطقة سبأ وأراضي المعينيين إلى مكة ومنها شمـالاً إلـى ريدان ثـم مديـن وأيلـة والبتراء، ويتفرع هذا الطريق بعد ذلك إلى فرعين، يتجه أحدهمـا إلى تدمر والآخر إلى غزة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ومنها إلى مصر.

الثانـي: طريـق البحر الأحمـر الذي يربط شرقي أفريقيا بالهند وسيلان والصين وجنوب شرقـي آسيا بعامـة. وكانت تجـارة الهند التي تصـل إلى عُمـان تُنقل عبر البحـر الأحمر إلى مصـر، إلا أن مصاعـب النقل البحـري حوَّلت هذه التجارة إلـى طريق البر من شبوة عاصمة حضرموت إلـى مأرب عاصمة السبئيين ثم إلى مكة فالبتراء ومنها إلى غزة ثم إلى مصر.

سيطـرت مملكة سبـأ على الطـرق التجارية بيـن الشمـال والجنـوب، وازدهرت فـي عهدها التجـارة في بلاد اليمن، وأضحـى السبئيون في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة فـي العالم القديم. ونمت مملكـة سبأ وازدهرت نتيجة احتراف الزراعة والعمـل التجاري ووصل نفوذهـا إلى نجد والحجاز فـي شمالي الجزيرة

العربيـة. وعيَّـن السبئيـون علـى طـول الطـرق التجارية مراكز لنزول القوافل والتجار لتحصيل المكـوس ومراقبـة الرجال المرافقيـن للقوافل، ووضعوا فيها حاميات عسكرية للمحافظة عليها، وكانت ريدان المركز الرئيسي الذي تُمارس منه نفوذهـا علـى شمالي الجزيـرة العربيـة. وعلى الرغم مـن قوة المملكة السبئية واتساع نفوذها، إلا أن قوافلها كانت تتعرَّض لتعديات البدو أثناء سيرها على الطرق التجارية، كما أنها لم تتحمل دائماً مشقات السفر البري ما دفعها إلى التحول إلى البحـر الأكثر أماناً والأقصر مسافة. فكانت مستـوردات الهنـد وأفريقيا تُخزَّن فـي مرافىء السبئييـن مثـل موزا وعـدن ثم تُنقل بحـراً إلى مرفأ أيلة ومنه برّاً إلى فلسطين والشام ومصر، أو تُنقـل إلى مرفـأ القصير علـى البحر الأحمر ومنه إلى قُفط على النيل.

ونقل السبئيون في قوافلهـم، بالإضافة إلى مـا كانـوا يستوردونـه مـن الخـارج، منتجـات بلادهم وفي طليعتها البخـور والطيوب واللبان والعطـور التـي كانـت لهـا أهميـة كبيـرة عند الشعوب القديمة الذيـن استعملوها في المعابد والطقـوس والأعيـاد الدينيـة والتحنيط وحرق الموتى وتعطير البيوت والتبرُّج.

أسهمت التجارة في تطور أوضاع مملكة سبأ وتقدمها وإثـراء الطبقة الحاكمة وطبقة التجار الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش، وكذلك رؤسـاء المعابـد وأصحـاب الأمـلاك ورؤسـاء العشائر.

النظام السياسي

مـرَّ النظـام السياسي في سبـأ بمرحلتين، مرحلة المكربين ومرحلة الملوك.

حكم المكربون حكماً مزدوجاً دينيّاً ودنيويّاً، ويُعرف الكاهن الملك بمكرب أي المقرَّب. وورد فـي كتابات المسند أسماء عـدد من المكربين، غيـر أنها لم تُزوِّدنا بصـورة عن أصول حكمهم وكيفيـة إدارتهم للدولة وتلقيهـم الأوامر الإلهية التي يطلبون من رعاياهم تنفيذها.

والواقع أن المكرب لم يكن غالباً رجل دين بالمعنى المتعارف عليه، أي عالماً بأمور الدين، فقيهـاً بها ويتولـى إمامة الناس فـي صلواتهم، وفـي أداء الشعائـر الدينية، ومُقدِّمـاً القرابين بنفسـه للآلهة، بل إنه مجرد منصب له صبغته الدينية.

لم تُشِر الكتابات السبئية إلى الأسباب التي دفعـت آخر مكرب، كـرب إيل وتـر، على تغيير لقبـه واتخاذ لقب ملك، غير أنـه يمكننا القول إن لذلك علاقة بتوسع الدولة.

استتبـع انتقـال الحكـم من المكربيـن إلى الملوك حـدوث تغيير فـي أصـول الحكم حيث انقطعـت صلـة الملـك بالمعبـد، وفَقَـدَ صفته كرئيـس مباشـر لرجال الدين علـى الرغم من أنه بقي حامـي الدين والمعبـد، وانصرف إلى إدارة الدولـة فـي حين انصرف رئيـس المعبد إلى إدارة الشؤون الدينية.

والملك هو السلطة العليا في الدولة السبئية والموجِّه والمدبِّـر لأمورها، والعـادة أن تحتكر الحكـم الأُسَـر الكبيـرة والرفيعـة المتنفـذة، وينتقـل من الأب إلـى الابن أو إلـى الأخ أو إلى غيره من أفـراد الأسرة وفقاً للسن، ولم يستقر العُـرف على ضرورة انتقاله مـن الأب إلى ابنه الأكبر، مـا أدَّى إلـى نزاعات أُسريـة وانقسام الأسـرة، وتدخـل أُسر كبيـرة أخـرى لمنافسة الأسرة الحاكمة.

ويُلقّب أحياناً أكثر من شخص من أفراد الأسرة الحاكمة بلقب ملك في وقت واحد، ويدل ذلك على اشتراك هؤلاء اشتراكاً فعليّاً في الحكم، وقد يكون هذا اللقب مجرد لقب يُمنح لشخص أو أشخاص للإشارة إلى منزلتهم ومكانتهم المعتبرة بين الناس.

لم يكن النظام السياسي في سبأ انتخابيّاً لا من قِبَل الشعب ولا من قِبَل المزاود، وهي المجالس الوطنية المشكَّلة من قادة الجيش وسادات المدن والقبائل ورجال الدين وكبار الموظفين والملاّكين من ذوي الرأي والخبرة، وكان الملك يعين أعضاءها، غير أن لهذه المزاود دوراً في الحياة السياسية من واقع الاستشارة الملكية شبه الملزمة في المشكلات التي تتعرض لها الدولة وفي إصدار القوانين والبت في القضايا المهمة، وفي موضوع فرض الضرائب، علماً بأنه لم يكن لأفراد الطبقة الوسطى ولا للعامة رأي ولا تمثيل.

وللملك علامات تُميزه عن غيره، منها: التاج والعرش والرمح أو الحربة وعربة الملك والحرس الملكي الخاص وضرب النقود باسمه والعمارة، وهي رقعة مزينة تُخاط في المظلة أو ما يضعه الملك على رأسه عمارة لرئاسته. ويختار الملك بعد اعتلائه العرش اللقب الخاص به. وتبقى كيفية إجراء المراسم الخاصة بالتتويج، أكانت تتم في المعابد برئاسة رجال الدين، حيث يقوم الكاهن الأكبر بإجراء الطقوس الدينية وتلاوة الصلوات والأدعية الخاصة بهذه المناسبة، ثم يقوم بعد ذلك بوضع التاج على رأس الملك أمام تمثال الإله كما كان يجري في أشور وبابل، أم أنها كانت تتم في القصور الملكية.

وتراجع دور ملوك سبأ السياسي منذ القرن الثاني قبل الميلاد، وتقلّصت سلطتهم، وتجلّى ذلك في:

- ظاهرة الحكم المشترك حيث كان يُذكر اسم ولي العهد مع اسم الملك حاملاً اللقب الملكي. فقد ذُكر اسم الملك علهان نهفان مع ابنه الملك شعراوتر دلالة على أنهما حكما معاً حكماً مشتركاً.
- الازدواجية في الحكم من واقع تلقُّب شخصين من أُسرتين مختلفتين في الوقت نفسه بألقاب الملوك.

نتج عن تراجع سلطة الملوك بروز حكم أمراء الإقطاع، بحيث أضحى الأمر والنهي في أيدي الأقيال (رؤساء القبائل) والأقيان (أمراء أو موظفون كبار أو كهنة)، وقد تحكّموا في تنصيب وعزل الملوك.

النظام العسكري

لم يُخلِّف السبئيون إلا آثاراً قليلة تتضمن مشاهد حروب أو جنود ومعدات قتال، ولفظة الحرب هي الشائعة عند العرب القدماء بعامة، وترادفها لفظة ضر في اللهجات اليمنية. ووردت في اللغة السبئية لفظة حربت بمعنى معركة وحرب، وللفظة ضبا في السبئية معنيان: إعلان الحرب والشروع فيها، ووردت لفظة ضبات بمعنى مقاتلين، ويُعبَّر عن لفظة قاتل بلفظتَي سبا وخبت، وعن الحملة أو الغزوة بلفظة برث، وعن الأخيرة بلفظة غزتس. وللحرب عند السبئيين أسباب عدة أبرزها التوسُّع والسيطرة على المفاصل التجارية. والمحاربون على نوعين: أحرار وعبيد، والسخرة هي الطريقة الغالبة في التجنيد،

والملـك هو القائد الأعلى للجيش، يعلن الحرب ويأمـر بالصلـح ويعيِّن القـادة، ويأمـر القبائل بتقديم الجنود، وقد يقود الجيوش بنفسه ويدير العمليـات العسكريـة، أو يتـرك ذلـك لقادته. ويحمـل بعـض قادة الجيـش لقب مقتـوي وهي درجة خاصة في سُلَّم القيادة العسكرية، ووردت لفظة مقتـوي ملكن، أي مقتـوي الملك، بمعنى قائـد الملك، وهي درجة خاصـة بمَن يختارهم الملـوك لقيادة الجيوش، ويُقـال للضابط الذي يقـود الجيش أو قطعة منه أسـود. وكان القادة مـن رؤسـاء القبائـل والعشائـر والوجهـاء هم الذين يقـودون أتباعهم في الحرب، وهذا يعني وجـود أشخاص مـن بينهم غيـر متخصصين بالقيادة العسكرية وبشؤون الحرب، واضطرتهم مراكزهم إلى قيادة أتباعهم.

ويبـدو أن السبئيين لم يُشكِّلوا عبر تاريخهم جيشـاً مدرَّباً ومنظمـاً ومجهـزاً بأسلحة حديثة بالمقارنة مع أسلحـة مَن عاصرهم من الشعوب ومستعـدّاً للقتال في كل وقت، وإنما اعتنوا بجمع العساكر وتكوين الجيش للقضاء على خصومهم وشن حروب داخلية فقط، كما لم يعتنوا بتحسين السفـن وتجديدهـا للمحافظـة علـى سواحلهم الطويلـة، بدليـل أنهـم عندمـا ظهـر اليونـان والرومـان فـي البحـر الأحمـر، لـم يصمـدوا أمامهـم، وخسـروا السيـادة علـى هـذا البحر بسهولة.

ولا بـد للمحارب مـن أسلحـة، والسيف هو السلاح الرئيس في القتال، يُستعمل في الهجوم وفي الدفاع عن النفـس، ويُستعمل الرمح لطعن العـدو، واستخـدم السبئيـون القسـي والسهام والأقواس لرمي أعدائهم، كما استخدموا الترس والدرع للوقاية، وللجيوش ألوية ورايات، واستعمل السبئيون آلات خاصة لقذف الحصون وهدمها.

كان النظام العشـري في تنظيم الجيش هو المتَّبـع فـي المناطـق التابعـة للامبراطوريـة اليونانية والمتأثرة بثقافة اليونان ومنها اليمن، لذلك ليس مستبعَداً أن يكون تنظيم الجيش في سبأ على هذا الأساس، وقد يكون أسلوب القتال صفوفاً، وتبدأ المعركة عـادة بالمبارزة وتنتهي بالالتحام، والفرسان هم آلة الحرب الحاسمة، ويقع عليهم ثقل المعارك.

الحياة الاجتماعية

كان النظـام القبلـي دعامـة سياسيـة فـي الممالـك والإمـارات التـي قامـت فـي جنوبي الجزيرة العربية ومنها مملكة سبأ، فلم تنصهر القبائل التي نزلت في المدن والحواضر بشعب واحد وإنما ظلَّـت تحتفظ بتنظيمها القبلي على الرغم من اختـلاط أنسابها وتداخـل شعوبها، بحكم اختلاطهـا بغير العرب ممن لا يحافظون على النسب في بيوتهم وشعوبهم.

ووُجـدت فـي المجتمـع السبئـي عوامـل انقسـام داخـل التكتـلات الاجتماعيـة بفعـل التفـاوت في توزيـع الثـروة، فهنـاك الأثرياء وأبنـاء الطبقـة الحاكمـة الذيـن شكَّـلوا فئة متميـزة احتكـرت وظائـف الدولـة، كمـا كان هناك الفلاّحون والحرفيون والعاملون في جمع الطيـوب. وهـذا التصنيـف الطبقـي ثابت لا يتغيـر، يتوارثـه الأبناء عـن الآبـاء، ولم يكن باستطاعة أحد الأفـراد أن يُغير مهنته وينتقل مـن فئة إلى فئة أخرى. وقد زاد من حدة هذا الوضع الطبقي، أن طبقـة أصحاب الحِرَف أو مَن كانـوا يعملـون بالأجرة، كان يُنظـر إليهم على أنهم يمارسون عملاً متدنياً.

وتَجمع الدولة شمل قبائل عديدة، كما تضم طوائف وفئات رُسمت لها حدود معينة وقيود لا تتجاوزها، وقد حدَّد المجتمع مكانتها ومنزلتها بحيث جعل من المجتمع العربي الجنوبي مجتمعاً طبقيّاً يتمتع فيه الملوك والحكام وكهنة المعابد بالمنزلة العليا ثم تليهم بقية الطبقات، وفقاً لمدى قوتها ومكانتها إلى أن تصل إلى طبقة العامة وأقلهم منزلة الرقيق وأصحاب الحِرَف المبتذلة، وبقيت جذور هذا النظام وروحه قائمة في اليمن بعد زوال الدولة السبئية، ويديره الحكام ورجال الدين والأغنياء.

ووردت في الكتابات السبئية كلمة شعب بمعنى قبيلة، ولكنها لا تعني عند السبئيين معنى القبيلة بالمفهوم البدوي، إنما هي رابطة مواطنة تجمع شمل جميع المواطنين بالدولة ماديّاً وروحيّاً.

الحياة الثقافية

الثقافة الأدبية: الثقافة هي عبارة عن مجموعة معارف عن العالم المحيط بالشعب أو المجتمع والذي يتأثَّر أفراده به ويؤثِّرون فيه ويعيشون في ظروفه وشروطه الخاصة. والواقع أن ثقافة السبئيين هي نتاج تاريخهم الطويل الذي يمتد بجذوره إلى مئات السنين قبل الميلاد، وتتألف من معارف عملية اقتبسها السبئيون من تجاربهم الحياتية وممارساتهم لأوجه النشاط الاجتماعي والعملي وبخاصة التجاري، وممن سكن معهم وعايشهم من الأجانب.

إن بحث الحياة الثقافية للسبئيين تستلزم رؤية الوضع اللغوي من خلال علاقته الحيوية مع هذه الثقافة ومع تاريخ السبئيين معاً متجاوزين المعالم الثقافية الأخرى، مثل الفنون الشعرية والنثرية التي لم يكن للسبئيين إلمام واسع فيها لانصرافهم إلى العمل التجاري. ويقودنا هذا البحث إلى المضي في طريقين أولهما مدخل إلى الثاني، هما: تكوين صورة تاريخية للغة السبئية التي كان السبئيون يُعبِّرون بها عن أفكارهم ومشاعرهم ونشاطهم وصور حياتهم، وتكوين فكرة عن أبعاد الصلة بين حياة هذه اللغة وحياة أهلها في المدة الزمنية نفسها. وأول ما يستوقفنا من تاريخية اللغة التي كان يتكلم بها السبئيون، ارتباطها ببعض اللغات السامية أو ببعض لغات الشمال والجنوب حول الجزيرة العربية. وتُبيِّن البحوث الأثرية ـ اللغوية أن هناك نقوشاً وُجدت في جنوبي الجزيرة العربية بالخط المسند، علماً بأن هذا الخط يُعد أقدم الخطوط التي عُرفت في الجزيرة العربية، وقد دُوِّنت به الكتابات المعينية والسبئية والقتبانية والحِميرية والأوسانية، وهي كتابات تمثل لغة متطورة ذات قواعد نحوية وصرفية.

وللخط المسنَد خصائص لغوية خاصة أهمها:

- إن حروفه منفصلة وهي بشكل واحد لا يتغير بتغير مكان الحرف من الكلمة.
- تبدأ الكتابة بهذا الخط من أي جهة شاء الكاتب.
- إن حروفه غير متشابهة.
- إنه غير مشكول وإنما يُكتب بحروف صامتة.

غير أن الكتابة بهذا الخط هي أبطأ إلى حد ما من الكتابة بالخط العربي نظراً

لضخامة حروفه بالمقارنة مع الحروف العربية المختزلة.

كان الخط المسند هو الخط الرئيس في جزيرة العرب قبل الإسلام، وقد تفرَّعت عنه خطوط لا تزال غير واضحة الأسباب، وقد يكون لأشكال الحروف التي تتطلَّب دقة في الرسم علاقة بذلك، فمال الكتّاب إلى ابتكار أشكال مرنة لا تحتاج إلى عناية في الرسم، فاستخدموها في الكتابة لسهولتها. وتُمثِّل الأبجدية العربية الجنوبية مجموعة خاصة تفرَّعت من أصل لا يزال مجهولاً.

كان السبئيون يكتبون بطريقة الحفر بأداة حادة على الحجارة والصخر والخشب والمعادن، وهي مادة الكتابة عندهم متجنبين على ما يبدو الكتابة بالحبر على القراطيس والجلود والرق وعظام الحيوانات بفعل قابلية تلك المواد للتلف وحاجتها الشديدة إلى العناية.

الثقافة العلمية والعملية: اكتسب السبئيون خبرات علمية وعملية متقدمة نسبيًّا، وذلك من مصدرين:

الأول: من تجاربهم الحية.

الثاني: من خلال التأثير الخارجي، وذلك بحكم الصلات التجارية والحضارية بينهم وبين مَن جاورهم من الأمم.

وتشمل الثقافة العلمية والعملية الإنشاءات المعمارية والطب وعلم الفلك وعلم الأنواء.

أنشأ المهندسون والخبراء الفنيون السدود، ويُعد سد مأرب أرقاها من الناحية الهندسية. ففيه ما ينم عن مجتمع عريق في الحضارة وفي الأعمال الفنية الرائعة. الواقع أن المهندسين عاينوا طبيعة الأرض التي أُقيم عليها السد ثم بنوا عليها المخطط الهندسي الذي هو عبارة عن حائط حجري ضخم أُقيم في مربط الدم عند مخرج السيل من الوادي وبُني على زاوية منفرجة، واستُخدمت في بنائه حجارة بركانية كبيرة اقتُطعت من صخور الجبال القريبة، بلغ طول بعضها مترين وربع، نُحتت نحتاً متقناً ورُصفت فوق بعضها بشكل دقيق، ووُصلت بعضها ببعض بقضبان من الرصاص والنحاس، ووُضعت بين الحجر والآخر مادة الملاط فمسكت تلك الأحجار حتى صارت كالإسمنت، ونُحتت بعض هذه الأحجار بحيث تتداخل بعضها في بعض فتتماسك وترتبط ارتباطاً وثيقاً لتتحمَّل ضغط الماء عليها. وتحكَّم المهندسون بالماء وسيطروا عليه من خلال استخدامهم مخارج لضبطه في الدخول والخروج، وأنشأوا فتحات لتقسيم المياه وتوزيعها على المجاري والسواقي تُفتح وتُغلق حسب الحاجة، وأبواباً لتصريف المياه الزائدة لتخفيف الضغط الشديد على السد والمخارج. وأنشأ السبئيون حواجز وحوائط منخفضة في الأماكن المرتفعة لمنع مياه الأمطار من الانحدار، فتحصرها هذه الحواجز، فتسيل إلى المزارع لتسقيها، وقد تُوجَّه المياه إلى كهوف وآبار محفورة كخزانات لتمتلئ بالماء للاستفادة منها في مواسم انحباس المطر. وقد تخصَّص أناس باستنباط المياه وتقدير حفر الآبار، كما تخصَّص آخرون بالسيطرة على المياه وحصرها بالسدود.

وأنشأ السبئيون حياضاً في أماكن كثيرة بهدف تخزين مياه الأمطار والاستفادة منها عند الحاجة وقت الجفاف. ولمنع تسرُّب الماء من الحوض، يُسدُّ ما بين الحجارة من منافذ

بالمدرة المعجونة، وتُطلى أوجه الجدران بمادة تغطيها لمنع تسرُّب المياه إلى الخارج، كما يُبلَّط قاع الحوض، ويوضع التراب حول الحوض لدعمه وتقويته.

وبنى السبئيون القصور والمسالح، ويُعد ذلك ظاهرة معمارية متميزة، وهي بحد ذاتها من مفاخر فن العمارة في العربية الجنوبية، وتعكس الانقسام الطبقي والتفاوت الاجتماعي في توزيع الثروة وعدم المساواة في المجتمع السبئي. فشيَّد الأقيال والأقيان والملوك وكبار التجار والأغنياء قصوراً فخمة واستخدموا الغرانيت والكلس والبرونز والرخام في بنائها، واهتموا بهندسة الحجارة وصقلها وتزيينها، واستعملوا الحجارة الملونة في بناء بعضها، وكسوا أوجه الجدران بالرخام، وزينوها بألواح رقيقة مزخرفة بالصور والنقوش لتعبِّر عن مباهج الحياة، كما فرشوا أرض الغرف والمعابد بالرخام ليُكسبها رونقاً، ووضعوا شرائح مُرقَّقة شفافة في النوافذ، وكسوا السقوف والأبواب والأعمدة وبعض الجدران بصفائح من الذهب والفضة والحجارة الكريمة وعاج الفيل والأخشاب النفيسة. ودُعيت اليمن ببلاد القصور بفعل كثرة ما بُني فيها، ويُعد قصر غمدان في صنعاء أعظمها وأضخمها، وهو يتألف من عشرين سقفاً بين كل سقفين عشرة أذرع ما يسمح بالتهوية الطبيعية والحياة الصحية، وبُني في أعلاه مجلس من الرخام الملون، وسقفه قطعة واحدة من الرخام الشفاف، وله أربعة أبواب تقابل الاتجاهات الأربعة حتى يُستقبل منها مختلف الرياح، وفيه مقيل من الساج والأبنوس يقضي فيه صاحب القصر القيلولة، ويوقد فيه القناديل. وللقصر أربعة أوجه مختلفة الألوان إمعاناً في التفنُّن والتزويق، وفي كل ركن من أركانه أسد من نحاس، رجلاه في الدار ورأسه وصدره خارج القصر، وما بين فيه (فمه) إلى مؤخرته حركات مدبرة، فإذا هبَّت الريح في أجوافها زأرت، وكان بعض قصور سبأ عبارة عن مدن حكومية تشتمل على دار الأمير، وهي مركز الحكومة، وشُيِّد المعبد في مقابلها.

وترافق نشوء المدن والقرى في سبأ مع عملية الاستقرار والتحضُّر، وتركَّزت في الجبال وعلى مقربة من الأنهار والأودية، وعند طرق التجارة البرية والبحرية، وفي المواقع ذات الأهمية العسكرية، وتختلف من حيث مخططاتها، فكانت مأرب ذات شكل مربَّع مع بعض النتوءات في أماكن متعددة، وكذلك كانت نجران. وتضم المدينة عادة المعبد والبئر وقصر الملك أو الأمير وأحياء سكن العامة والسوق والمقابر وغير ذلك من المنشآت والمرافق الخدماتية، يلي ذلك الضواحي المحيطة بها، ويحيط بها جميعاً سور وأبراج لحمايتها.

والطب علاج الجسم والنفس وهو من المعارف المطلوبة في المجتمعات الإنسانية كافة على مختلف مستوياتها، بفعل ما له صلة بصحة الإنسان وحياته. وكان السبئيون عاجزين عن تفسير أسباب المرض تفسيراً علميّاً لذا اعتقدوا أنها تعود إلى غضب الآلهة على الناس، وإلى أرواح شريرة تصيب الجسم، فكانوا يستطبُّون بالسحر والرقى والتعاويذ لما بين الطب والسحر من صلة وصلت إلى حد عَدِّ الطب ضرباً من السحر، لكنهم، مع مرور الزمن وبفعل الملاحظة وتجارب الحياة،

حصَّلوا بعض المعارف الطبية التي اقتربت بهم من صحة تعليل المرض والشفاء، فاستعملوا العقاقير وهي الأدوية، استخرجوها من النباتات والأشجار ومنتجات الحيوان.

عالج الأطباء الجروح بوضع الخرق بعضها فوق بعض على الجرح، أي بتضميده بها، وكانوا يُضمِّدون الرأس لتخفيف الصداع، والعين بوضع الدواء فيها أو على الخرقة ومن ثمَّ تضميدها بها.

والفلك علم يبحث في الأجرام السماوية وأحوالها، مثل منازل القمر والبروج والخسوف والكسوف والشهب والنيازك والتوقيت والفصول الأربعة وغيرها، وكان السبئيون بأمَس الحاجة إلى معرفة الظاهرات الفلكية وتحولاتها لارتباطها بطبيعة حياتهم التجارية، لذلك اهتمُّوا بمراقبتها والوقوف على تحركاتها ومواقع طلوعها وغروبها، وربطوا بينها وبين الحوادث الطبيعية وجعلوها مواقيت لها، فنظموا حركة القمر في السماء إلى منازل يجري القمر بينها في نظام محدد، ونسبوا لطلوعها وغروبها ظاهرات الجو من مطر وريح وبرد وحَر.

واهتم السبئيون بالتوقيت، أي تعيين الأوقات وضبط الأزمنة، وقد استدعى ذلك حاجتهم إلى تحديد أوقات الزراعة والمواسم وتسيير القوافل التجارية. والسير في سبل البر والبحر تتطلب معرفة بالأنواء، لذلك عنوا بتتبع سير الكواكب ودراسة ملامح السماء وملاحظة الظواهر الطبيعية التي لها علاقة بالرياح والأمطار والحرارة والبرودة للاستفادة منها في حياتهم العملية. وكان الكهنة وسدنة الكعبات ومَن لهم علاقة بالأصنام، يقومون بضبط الوقت وتثبيت الأعياد وأوقات العبادة. ويُقاس الوقت بالسنين، والسنة عندهم اثنا عشر شهراً وأيامها ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً، وقسَّموا السنة إلى أربعة فصول والفصل إلى أشهر والشهر إلى أسابيع والأسبوع إلى أيام واليوم إلى ساعات، واستعملوا التقويم الشمسي أو القمري أو التقويمين معاً.

والأنواء عند السبئيين ما يتعلق بعلم الظاهرات الجوية من سحب وأمطار وحَر وبرد لكن ينسبونها إلى طلوع الكواكب وغروبها، واستدلوا على المطر بالبرق والرعد، وله علامات إذا ظهرت دلَّت على حدوثه، منها الهالة التي تتكوَّن حول القمر.

الحياة الدينية

الدين هو الإيمان بوجود كائنات روحية وقوى خارقة، آلهة، أرواح، تكون فوق الطبيعة والبشر فتسيِّرهما وتؤثر في حياة الكون، ويرتبط ظهوره بمستوى تطور العقل البشري الذي ظهرت فيه بذور التفكير النظري وإمكان الفصل بين الفكر والواقع. لم يكن للسبئيين في بداية حياتهم الدينية نظام ديني شامل وإنما بقايا من ديانات بدائية قائمة على عبادة الأسلاف، والفيتشية القائمة على تقديس أو عبادة الأشياء المادية الجامدة، والطوطمية القائمة على تقديس الحيوان أو النبات، والأرواحية، وهي الاعتقاد بوجود أرواح تؤثر في الطبيعة؛ ارتقت نتيجة الاحتكاك الحضاري والتجاري مع البلدان الأكثر تحضراً إلى الوثنية المتمثلة بعبادة الأصنام. وقد أدى تطور القوى المنتجة وقيام صلات حضارية بين السبئيين وبين العالم الخارجي إلى تطور في مستوى

الوعي الديني عند هؤلاء تمثَّل في تراجع الظاهرات الدينية البدائية من دون زوالها نهائيّاً وظهور الوثنية التي عُدَّت أكثر الأشكال الدينية انتشاراً وأقواها جذوراً في المجتمع السبئي، ويمكننا اعتماد المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها دولة سبأ بشكل واضح لتحديد هذا التحول، وهي المرحلة التي ترقى إلى القرن الثامن قبل الميلاد. والواقع أن نشأة الوثنية في سبأ المتحضرة نسبيّاً جرت على خلفية أوضاع السبئيين الاجتماعية، والمعروف أن هؤلاء كانوا يحترفون الزراعة ويمارسون التجارة المرتبطة أساساً بمعرفة الفلك وتنظيم أوقات الزراعة والري والرياح والليالي الصافية، غير أن المصادر المتعلقة بالدين قاصرة على أسماء آلهة فقط، لذلك نفتقر إلى تعاليم وآداب دينية أو صلوات أو أغاني أو وصايا، كما في بابل وأشور، متعلقة بالوثنية. والحقيقة أن الصفات الحقيقية للإله الوثني مهمَلة إهمالاً يكاد يكون تامّاً، فالإله يُذكر ومعه وطنه ووصف لنصبه وسدنته، وقد تُذكر بعض القصص المتعلقة بعبادته، لكننا لا نجد وصفاً حقيقيّاً للوثنية. وبرزت في سبأ عبادة النجوم والكواكب متأثرة بوثنية بلاد الرافدين، وقوامها الثالوث الذي يمثله القمر والشمس والزهرة، وهي ظاهرة ساميَّة عامة، وقد شكَّلت انعكاساً لأوضاع السبئيين الاقتصادية، والمُلفت أن السبئيين لم يصوروها في صورة أشكال آدمية لأن صور الآلهة أو تماثيلها لم تكن معروفة آنذاك في مجتمعهم.

يُعد القمر الأول بين أركان هذا الثالوث الذي عرفه السبئيون باسم ألمقة، إنه الأب السماوي وزوج الشمس، وأقاموا له المعابد. والظاهرة المُلفتة في الديانة السبئية هي اعتبار إلهة الشمس أمّاً، فهي زوجة القمر كما ذكرنا وأم عثتر (الزهرة) يجتمعان مرة في كل شهر عند اتجاه الكوكبين نحو الأرض، وهي بذلك إلهة البركة والخصب والحمل، بدليل ما جاء في نص سبئي عُثر عليه في مدينة صرواح أن صاحبته قدَّمت إلى الإلهة أم عثتر أي الشمس، أربعة تماثيل من ذهب، لأنها وهبتها أربعة أطفال، ولد وثلاث بنات، كلهم أحياء يُرزقون، راجية أن تستمر في الإنعام عليها وعلى ابنها وبناتها بالصحة والعافية. وسُمِّيت الشمس في النصوص السبئية بذات حميم وذات بعدن وذات غضون وذات برن وذات ظهرن، وتدل هذه الأسماء على السخونة الشديدة. ونجد من بين رموز الحيوانات عند العرب بعامة، وكذلك عند الساميين، الحصان على أنه حيوان الشمس المقدس، وهو ينوب عن إلهة الشمس عند السبئيين والمسماة ذات بعدن. ويلي القمر والشمس في الثالوث الكوكبي، الزهرة (عثتر) وهو ابن القمر والشمس. وقد ورد هذا الاسم في أساطير وخرافات السبئيين، وعثتر إله مذكر عندهم، أما عند العرب الشماليين فهي أنثى وهي العزَّى.

وشيَّد السبئيون في المدن الكبرى معابد لآلهتهم كانت على شيء من البذخ يصل إلى مستوى ما يُبذل في بناء القصور، لعل أشهرها معبد ألمقة الكبير بمأرب المعروف بمعبد ألمقة بعل أدم، ألمقة رب أدام، وكان لهذا الإله معبد آخر في مدينة صرواح. ولكل معبد كهنة يقيمون الطقوس، ويقبضون العوائد، ويتصرفون في الأوقاف وما يُحبس على المعبد من

مشروعـات، ويشيـر ذلـك إلى القـوة التي كان يتمتع بها رجال الدين عنـد السبئيين والقائمة علـى ثلاثـة عوامـل، اجتماعيـة واقتصاديـة وسياسية.

ففيما يتعلق بالعامـل الاجتماعي، كان أكثر رجال الدين مـن الطبقة «الأرستقراطية» وكبار الأغنيـاء، وشكَّلـوا سنـداً اجتماعيّـاً وعقائديّاً للطبقة الحاكمة.

وفيما يتعلق بالعامـل الاقتصادي، فقد كان لرجال الديـن العُشر من محصول اللبان، وهي الحصـة المخصَّصة للآلهة، كمـا كان لرجال الدين العُشر أيضاً من منتجات الأرض والأرباح التي تُجبى من التجارة، لذلك كان مقدار الثروة التـي يحصل عليهـا هؤلاء كبيـراً بالمقارنة مع مستـوى البـذخ الـذي كانـت عليـه المعابـد، والأثمان الباهظة التي تباع بها الطيوب.

ومن حيـث العامـل السياسـي، فـإن القوة الاقتصادية التي تمتع بها رجال الدين انعكست فـي سبأ التـي انتزع فيهـا هـؤلاء الصلاحيات الدينيـة من يد الملك بعد أقل من قرن ونصف من قيام هـذه المملكة ليتفردوا بها منذ حوالي عام (٦١٠ ق.م) ولمدة خمسة قرون كاملة.

المصادر والمراجع

- **الإكليل**، تحقيق أنستاس الكرملي، مطبعة السريان الكاثوليكية، بغداد ١٩٣١م.
- الجرهمي، عبيـد بن شرية: **أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها أو كتاب الملـوك وأخبار الماضين**، ملحق بكتاب **التيجان** لوهب بن منبه، حيدرآباد، الدكن، الهند ١٣٤٥هـ.
- زيدان، جرجي: **تاريخ العرب قبل الإسلام**. دار الهلال، القاهرة.
- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٦.
- العهد القديم
- النعيـم، نورة عبـد الله العلي: **الوضـع الاقتصادي في الجزيـرة العربية في الفترة مـن القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث الميلادي**. الرياض ١٩٩٢م.
- الهمدانـي، الحسـن بن أحمد بن يعقـوب: **صفة جزيـرة العرب**، تحقيـق محمد بن علـي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ودار الآداب، بيروت.
- Diodorus, S.: **Library of History**. Trans. by R.M, Greer and C. H., Oldfather, Loeb Classical Library, London, 1970.
- **Periplus of the Ery Threan Sea**, Trans, by Wilfred Schoff. Oreintal Book Reprint, 5th Ed, New Delhi 1954.
- Pliny: **Nature History**. Trans.by H. Rakhan. London, 1969.
- Strabo: **The Geography of Strabo**, Trans. by H. L, Jones, Loeb Classical Library. London, 1983.
- Theophratus: Enquiry into Plants, Trans. by Sir Arthur Hort. Loeb Classical Library, London, 1968.

الحضارة السلوقية الهلّينية[1]

أ. د. محمد سهيل طقوش

(١) انظر أيضاً الحضارة الهلّينية.

الموقع والجغرافيا

ضمَّت الدولة السلوقية ممالك عديدة، من البحر الأبيض المتوسط غرباً إلى الهند شرقاً، غير أن قوتها تركَّزت في سوريا الشمالية وبلاد ما بين النهرين، لذلك سأقتصر بحث الموقع والجغرافيا على هاتين المنطقتين.

تقع سوريا في منطقة غربي آسيا، تحيط بها آسيا الصغرى من الشمال، والجزيرة العربية من الجنوب، وبلاد ما بين النهرين من الشرق، والبحر الأبيض المتوسط من الغرب، وكانت فلسطين عند هيرودوتس قسماً من سوريا.

وقد ساعدت الطرق القديمة عبر الممرات الجبلية على تسرُّب الشعوب والحضارات من سوريا إلى جيرانها وبالعكس، وأهم هذه الطرق:

- مضيق بيلان، ويُسمى أبواب سوريا، وهو يخترق جبال الأمانوس.
- طريق يمر من مرعش متجهاً إلى منطقة النهارينا، التي تقع بين الخابور ووادي الفرات، ويمتد إلى وادي العاصي.
- طريق يقطع نهر الفرات ويتجه إلى مدينة حران الواقعة على نهر البليخ ثم يصل إلى سهول الجزيرة.
- طريق شرقي يسير في محاذاة وادي دجلة ويتجه إلى الغرب مارّاً بمدينة ملاطية، كما يتجه إلى الشرق حتى يصل إلى شمالي بلاد ما بين النهرين.

تنقسم سوريا من الناحية الطبيعية إلى قسيمن: غربي وشرقي.

يتألف القسم الغربي من سهول ساحلية تمتد من خليج الإسكندرون إلى شبه جزيرة سيناء، وتنحصر بين سلاسل الجبال الغربية والبحر، وهي سهول خصبة لكنها ضيقة، بالإضافة إلى سلاسل جبال غربية تمتد من جبال الأمانوس إلى سيناء، وكانت قديماً مغطاة بالغابات وبخاصة بأشجار الأرز في جبال الأمانوس ولبنان، وأشهر مدن هذا القسم الساحلية: رأس شمرة، أوغاريت، اللاذقية، عمريت، جبيل، بيروت، صيدا، صور، عكا، حيفا، يافا، أسدود، عسقلان وغيرها.

أما القسم الشرقي، وهو القسم الداخلي من سوريا، فيرويه نهر الفرات وروافده الشمالية البليخ والخابور، ولم تكن هناك حدود فاصلة بينه وبين بلاد ما بين النهرين لذلك تأثَّر بحضارة تلك المنطقة حتى غدا هذا القسم جزءاً منها، وتمثَّل ذلك بعقد تحالفات لمواجهة الأخطار الخارجية وبخاصة الحملات المصرية. وأشهر مدن هذا القسم: تل حلف، رأس العين، شكر، بازار، تل براك وغيرها. أما أهم المدن في شمالي سوريا فهي: تل الجديدة، تل العطشانة (الألاخ)، تل رفعت، حلب، جرابلس (كركميش) أرسلان طاش، تل أحمر، تل الفخارية وغيرها.

تقع منطقة ما بين النهرين في القسم الشرقي من بلاد الشرق الأدنى القديم، ويطلق اسم بلاد ما بين النهرين، أو بلاد الرافدين، على الأراضي الواقعة بين نهرَي دجلة والفرات، تحيط بها هضاب الأناضول من الشمال، وشبه جزيرة العرب والخليج العربي من الجنوب، وجبال زاغروس من الشرق التي تفصلها عن هضبة إيران، وبادية الشام وجبل سنجار ومنطقة الجزيرة من الغرب.

تتألف أراضي الرافدين من سهل منبسط في الجنوب بين دجلة والفرات يرتفع تدريجاً في الوسط باتجاه الشمال حتى حدود الأناضول، وأخذ يتسع شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن وتراكم رواسب الطمي حتى التقى النهران في القرنة قبل وصولهما إلى الخليج العربي، فشكّلا نهراً واحداً هو شط العرب. أما سواحل الخليج فهي أراضٍ خصبة صالحة للزراعة بفعل تراكم الرواسب وشدة التبخر نظراً لارتفاع الحرارة، وقد سُمّي هذا السهل قديماً بسهل شنعار، وأطلق عليه العرب اسم السواد، ويُعدُّ من أخصب بقاع العالم، وكان مهد الحضارات الأولى في بلاد الرافدين. وهكذا يكون العراق هبة الرافدين، فلولاهما لكان جزءاً متمماً للصحراء العربية وبادية الشام. وأشهر مدن هذه البلاد: أريدو، أور، لارسا، أوروك، لاجاش، السِن، تيبور، كيش، بابل، سيبار، أشنونا، أكاد، آشور، كالح، نينوى، دور شروكين وغيرها.

السلوقيون عبر تاريخهم

أنشأ الإسكندر المقدوني الكبير امبراطورية واسعة في سرعة لافتة شملت شعوباً وأقطاراً متباينة لم تكن قد خضعت لنظام سياسي وإداري محكم يكفل لها البقاء والاستمرار، كما أن مسألة وراثته لم تكن قد نُظِّمت في الوقت الذي لم يكن له وريث شرعي، وعندما توفي في معسكره في بابل في (١٣ حزيران ٣٢٣ ق.م) كان الأمر بيد قادته وأعوانه، فاجتمعوا على هيئة مؤتمر ليُحدِّدوا مصير امبراطوريته الواسعة على الطريقة المقدونية، والمعروف، استناداً إلى القانون والعرف عند موت ملك مقدوني، أن يختار الجيش مَن يخلفه، وقد استقر رأي القادة، بعد مشاورات ومناورات جانبية، على:

- أن تبقى الامبراطورية في بيت فيليب، والد الإسكندر، فيُنَصَّب فيليب أرهيدايوس، الأخ غير الشقيق للإسكندر، على العرش ويشاركه فيه مولوده من زوجته الفارسية روكسانا إذا جاء ذكراً، وكانت حاملاً، وفعلاً وضعت هذه الملكة بعد بضعة أشهر ولداً ذكراً هو الإسكندر الرابع.
- أن تُقسم الامبراطورية إلى أربعة وعشرين ولاية يحكم كلّاً منها قائد من قادة الإسكندر بصفته والياً من قِبَل الأسرة الامبراطورية، لكن الخلافات التي نشبت بينهم أدَّت، بعد مرور سنتين، إلى تقسيم جديد بحيث أضحت الولايات اثنتين وعشرين، وكان نصيب القائد سلوقس سوريا وبلاد ما بين النهرين وآسيا الصغرى.
- أن يتولى كراتيوس الوصاية على العرش وبرديكاس قيادة الجيش.

وما جرى بعد ذلك من النشاط الواسع للقائد أنتيغونوس وابنه ديمتريوس للسيطرة على الامبراطورية والإبقاء على وحدتها تحت حكم أسرته؛ أن ألَّب عليه القادة الآخرين، فتحالفوا ضده وتمكّنوا، بعد سلسلة من الانتصارات، أن يقضوا على طموحه، واقتسموا أراضي الامبراطورية فيما بينهم، فحصل سلوقس على ممالك وثقافات عدة هي: عيلام، سومر، فارس، بابل، أشور، سوريا وفينيقيا ثم آسيا الصغرى وفلسطين في بعض الأحيان، غير أن قوة الدولة السلوقية تركزت في سوريا الشمالية وبلاد الرافدين

كما ذكرنا، لذلك أنشأ سلوقس (٣٠١ - ٣٠٠ ق.م) عاصمتين لدولته هما سلوقية قرب بابل، في مكان لا يبعد كثيراً عن ملتقى نهري دجلة والفرات، وكان هذا المكان من أصلح الأمكنة لاستقطاب التجارة بين الجزيرة الفراتية والخليج العربي وما وراءه، وأنطاكية على نهر العاصي، وكان موقعها شبيهاً بموقع سلوقية، إذ لم تكن تبعد عن مصب النهر مسافة كبيرة تحول دون وصول السفن إليها، ولكنها تبعد مسافة إلى الداخل تجعلها في مأمن من هجوم الأساطيل المعادية، وتمكّنها من استغلال أراضي وادي النهر الغنية واجتذاب تجارة البحر الأبيض المتوسط وشمالي الجزيرة الفراتية وسوريا، وأعلن يوم ٦ تشرين الأول عام ٣١٠ ق.م قيام الدولة السلوقية، وحتى يُؤَمِّن على حدوده الشرقية غزا الهند وعقد معاهدة صلح مع الملك تشاندراغوبتا في عام ٣٠٦ ق.م تضمَّنت:

- تحقيق المصاهرة بين الأسرتين المالكتين.
- حصول سلوقس على خمسمائة فيل.
- تنازل سلوقس للملك الهندي عن بعض الأراضي الشرقية مقابل تأمين الحدود.

توسَّع سلوقس في عام (٢٨١ ق.م) في آسيا الصغرى ما وضعه في مواجهة مع ليسيماخوس، فاصطدم به في كوروديون (لودية) وتغلَّب عليه وقتله وضمَّ أراضيه إلى أملاكه، وبذلك يكون الملك السلوقي قد سيطر على كامل امبراطورية الإسكندر الكبير الشرقية باستثناء مصر، ولُقِّب من أجل ذلك بلقب نيكاتور، أي المظفَّر.

اغتيل سلوقس الأول في مطلع عام (٢٨٠ ق.م) على يد بطليموس جيراتوس، أخي بطليموس الثاني فيلادلفوس ملك مصر، أثناء عبوره الدردنيل في طريقه إلى سلوقية عاصمة الدولة المقدونية للسيطرة عليها، وقد حكم البلاد حكماً صالحاً كسب خلاله قلوب شعبه.

خلف أنطيوخوس الأول، الملقب بسوكر أي المنقذ أو المقاوم، والدَه سلوقس الأول في حكم الدولة السلوقية (٢٨٠ - ٢٦١ ق.م)، وكان قد تمرَّس على العمل الإداري والعسكري في عهد أبيه، كما تلقى دعماً من العنصر الفارسي، ما ساعده على الاستمرار واستعادة أمجاد الدولة التي كانت قد اهتزت عقب وفاة والده بفعل ثورات المدن السورية ومدن آسيا الصغرى وطمع البطالمة في أراضيها، فأخمد الثورات السورية إلا أنه فشل في إخضاع الثورات التي قامت في مدن آسيا الصغرى.

وتوضَّحت في عهد أنطيوخوس الأول صورة العالم الهلّيني السياسية الذي انقسم إلى ثلاث ممالك كبرى هي: المملكة السلوقية والمملكة البطلمية والمملكة المقدونية، ودار صراع بين المملكتين الأولى والثانية حول السيطرة على سوريا، خسر أنطيوخوس الأول بنتيجته منطقة قيليقيا في آسيا الصغرى، وتوقفت الحرب بينهما في عام (٢٧٢ ق.م) ثم توفي أنطيوخوس الأول في عام (٢٦١ ق.م).

خلف أنطيوخوس الثاني، الملقب بثيوس أي الإله، أباه أنطيوخوس الأول (٢٦١ - ٢٤٦ ق.م). كان ملكاً عابثاً وجادّاً في الوقت نفسه، نشبت بينه وبين بطليموس ملك مصر حرب طويلة من أجل السيطرة على طريق التجارة الجنوبي، واستطاع في نهايتها أن يستعيد مقاطعات

الدولة السلوقية، فحرَّر مدن الساحل السوري شمالي صيدا من سيطرة البطالمة، واستولى على أكثر الساحل الغربي لآسيا الصغرى بالإضافة إلى جزيرة ساموس، وما حدث من تقارب أُسري بين السلوقيين والبطالمة، أدى إلى عقد صلح بينهما في عام (٢٤٩ ق.م)، وتوفي أنطيوخوس الثاني في عام (٢٤٦ ق.م) في أفيسوس أثناء زيارته لزوجته لاوديكي.

ونشبت الاضطرابات في المملكة السلوقية بعد وفاة أنطيوخوس الثاني بفعل الصراع على السلطة بين زوجتيه، ابنة عمه لاوديكي والبطلمية برنيكي، وأولادهما، وأسفر الصراع عن مقتل الثانية ما أثار البطالمة، فهاجموا الأملاك السلوقية وسيطروا على تراقيا وشمالي سوريا، وعبر الجيش البطلمي الفرات ووصل إلى بكتريانا في الهضبة الإيرانية، وفرض سيطرته على معظم الأراضي السلوقية.

ونهض سلوقس الثاني، ابن لاوديكي (٢٤٦ـ٢٢٦ ق.م)، الذي تسلَّم الحكم خلفاً لوالده، لاستعادة ما خسرته المملكة أمام البطالمة، فاستردَّ الولايات الوسطى الشرقية وقسماً من قيليقيا وكامل سوريا السلوقية باستثناء سلوقية بيريه، ثم حاول دفع الخطر البطلمي إلى أبعد نقطة، إلا أنه فشل في ذلك حيث تلقى هزيمة قاسية أمام البطالمة وعاد إلى أنطاكية. واستعاد البطالمة دمشق بمساعدة أنطيوخوس بن برنيكي، أخي سلوقس الثاني بن لاوديكي، ثم عُقدت هدنة بين سلوقس الثاني وبطليموس الثالث مدتها عشر سنوات. ومن جهة أخرى تفاقمت الخلافات الأُسرية بين الأخوين سلوقس الثاني وأنطيوخوس كانت نتائجها لصالح الثاني، إلا أنه توفي وهو يحاول استعادة كامل سلطته، كما توفي أخوه سلوقس الثاني.

خلف سلوقس الثاني ابنه سلوقس الثالث (٢٢٦ـ٢٢٣ ق.م) ولقِّب بـ شيروتوس، أي الصاعقة، ولم يكن في لقبه هذا معنى ينطبق عليه، فقد كان ضعيف الجسم واهن العزيمة، فعهد إلى أخيه أنطيوخوس بولاية العهد، ولم يدم حكمه مدة طويلة، فقد قُتل مسموماً من قِبَل أتباعه الذين كانوا يزدرونه لضعفه.

تسلَّم أنطيوخوس الثالث (٢٢٣ـ١٨٧ ق.م) الملقب بالكبير السلطة بعد مقتل أخيه سلوقس الثالث ولم يتجاوز عمره الثامنة عشرة. كان رجلاً عظيم الكفاءة، قديراً، حسن السياسة، استعاد بحروبه الطويلة مع البطالمة معظم الولايات التي فقدتها المملكة السلوقية منذ أيام سلوقس الأول، وأنشأ مكتبة في أنطاكية، وشجَّع الحركة الأدبية التي بلغت ذروتها على يدَي مليجر الغزي في أواخر القرن الثاني قبل الميلاد، وحافظ على العادة اليونانية المتمثلة باستقلال المدن بشؤونها، ولكن قضت عليه المطامع المفرطة، والخيال القوي، والعشق العنيف، وهزمه بطليموس الرابع عند رفح في (٢٢ حزيران ٢١٧ ق.م) وانتزع منه فينيقيا وسوريا المجوفة إلا أنه احتفظ بسلوقية على نهر دجلة. وخفَّف من وقع هذه الهزيمة ونتائجها ما قام به من حملة ناجحة ضد بكتريانا في تركستان وبلخ والهند. وبعد أن رتَّب شؤون هذه الولايات الشرقية عاد إلى عاصمته سلوقية في عام (٢٠٥ ق.م)، واتخذ في هذه السنة لقب الملك الكبير. وأغراه القائد القرطاجي هنيبعل بمساعدته

في حروبه ضد روما، فأرسل جيشاً إلى عوبية. وهام، وهو في الخمسين من عمره، بحب فتاة حسناء من خلقيس فتزوجها باحتفال مهيب، وقضى معها الأيام والأشهر، ونسي الحرب، وهزمه الرومان في ترمبيلي في عام (١٩٠ ق.م) بقيادة كرنيليوس شيبيون، وطردوه من أوروبا وآسيا الصغرى إلى ما وراء جبال طوروس، واضطر أن يعقد معهم معاهدة أفاميا في عام (١٨٩ ق.م) تعهَّد فيها:

- بإخلاء جميع مدن أوروبا وآسيا الصغرى حتى جبال طوروس.

- بدفع غرامة حربية مقدارها خمسة عشر ألف وزنة.

- بتقديم عشرين رهينة يختارهم الرومان.

- بتسليم هنيبعل الذي أشعل هذه الحرب، إلى الرومانيين، ويُذكر بأن القائد القرطاجي كان آنذاك في بمفيليا في آسيا الصغرى من أجل طلب المساعدة من أنطيوخوس الثالث ضد الرومان.

- بتسليم جميع فيلته وسفنه الحربية إلى الرومان.

وشُغل أنطيوخوس الثالث بتدبير المال اللازم لدفع الغرامة إلى الرومان وطاف البلاد لجبايتها، ولما وصل إلى بلاد العيلاميين نُمي إليه بأن في أحد هياكلها، وهو هيكل جوبيتر بالوس، كنزاً، فدخل إلى الهيكل واستولى عليه، ما أثار حنق السكان فثاروا عليه وقتلوه مع حاشيته وذلك في عام (١٨٧ ق.م).

خلف أنطيوخوس الثالث الكبير ابنه الأكبر سلوقس الرابع (١٨٧ ـ ١٧٥ ق.م) ودعي بـفيلوباتر، أي المحب لأبيه. كان ضعيف الشخصية ميّالاً للسلم، أدار شؤون الدولة بالحكمة، ولا يذكر المؤرخون أحداثاً مهمة في عهده، واغتيل في عام (١٧٥ ق.م) على يد هليودوروس، أحد الطامعين في العرش.

خلف أنطيوخوس الرابع أخاه سلوقس الرابع بعد أن قتل قاتل أخيه واعتلى العرش واتخذ لقب أبيفان أي الشريف (١٧٥ ـ ١٦٤ ق.م) ويُعد أجدر أفراد الأسرة السلوقية بالاهتمام وأكثرهم أخطاء، ذلك أنه كان مزيجاً فريداً من الذكاء والجنون والقسوة والكرم، لا يعتمد في أحكامه على عقل منفتح بل يحكم ويصفح عن هوى، يغمر أفراد الشعب الفقراء بالهدايا القيِّمة ويلقي النقود على رؤوس الناس في الشوارع، يحب الخمر والنساء والفنون، يُفرط في الشراب ويقوم من مجلسه في الولائم ليرقص عارياً مع ضيوفه أو يتعاطى نفايات الطعام والشراب، احتقر وقار البلاط وزخرفه، يجوب الشوارع متخفياً ليتعرف على آراء الناس عن الملك، منَّى نفسه بأمنيتين:

الأولى: مهاجمة مصر وإنزال الهزيمة بالبطالمة.

الثانية: نشر الهلّينية والفكر الهلّيني في منطقة الشرق الأدنى.

وإذا كان قد فشل باحتلال مصر على الرغم من أنه دخلها بفعل تدخل روما لصالح البطالمة، إلا أنه نجح في نشر الثقافة الهلينية في ربوع الشرق الأدنى، وكان يشعر بحماسة صادقة للآداب والفنون اليونانية، فظلت أنطاكية بفضله، مدة مائة عام، مركز الفنون في العالم اليوناني، وتشرَّب بحب الأنظمة الجمهورية، فكان يسرُّه أن يخلع على سلطته الملكية المطلقة ستاراً من الحرية الجمهورية.

واستولى أنطيوخوس الرابع على ما احتواه هيكل أورشليم من الأموال والتقدمات ليسترد ما أنفق في حروبه، وحاول إكراه اليهود على التخلي عن معتقداتهم والقضاء على نفوذهم الديني والسياسي، فانقسموا بين مؤيد لسياسته ومعارض لها، والتجأ المعارضون إلى الجبال مشكلين حركة مناهضة بقيادة يهوذا المكابي، وتوفي بسبب الصرع والجنون والمرض أثناء عودته من فارس.

خلف أنطيوخوس الرابع ابنُه أنطيوخوس الخامس، وكان طفلاً يبلغ التاسعة من العمر، وفي رواية أنه كان عمره اثنتي عشرة سنة، ولُقِّب أوباتور، أي الشريف، فتولى ليسياس، وهو أحد القادة، الوصاية عليه. لم يدم ملكه إلا سنتين (١٦٤ ـ ١٦٢ ق.م) وقضى الوصي أيامه في محاربة المكابيين اليهود. وقضى ديمتريوس بن سلوقس الرابع على الملك ومدبره في ثورة ناجحة، بعد فراره من روما، وكان يعيش فيها كرهينة، وتسلَّم الحكم تحت اسم ديمتريوس الأول (١٦٢ ـ ١٥٠ ق.م). أثار هذا الانقلاب ثائرة روما التي كانت تفضِّل أن يتولى ملك قاصر كأنطيوخوس الخامس الحكم السلوقي بدلاً من ملك شاب شديد البأس كديمتريوس، فشجعت اليهود على الثورة ضد حكمه، ثم راحت تعمل على الإطاحة به، وتمكنت من ذلك في عام (١٥٠ ق.م) بواسطة شخص يدعى إسكندر بالاس ادَّعى بأنه ابن أنطيوخوس الرابع، فحاربه وتغلَّب عليه، وتسلَّم الحكم (١٥٠ ـ ١٤٦ ق.م).

لم يكن إسكندر بالاس على قدر المسؤولية، فقد أقام في عكا وترك شؤون الحكم بيد أحد أعوانه، ويدعى أفونيوس، فثار عليه ديمتريوس الثاني بن ديمتريوس الأول وقتله، وتولى العرش السلوقي (١٤٦ ـ ١٤٤ ق.م).

وتعرضت الدولة السلوقية منذ ذلك التاريخ لمزيد من الاضطرابات الداخلية والتفكك بفعل الصراع على العرش بين ملوك ضعاف مرُّوا بشكل متسارع، وثورات اليهود المتكررة، وضغط الدولة الرومانية والفرس البارثيين. فاستولى اليهود، بزعامة يوناثان المكابي، على بعض المراكز الإدارية في شمالي فلسطين، وشنَّ الرومان حملة على سوريا بقيادة بومبيوس في عام (٦٤ ق.م) واستولوا عليها وعلى آسيا الصغرى وحوَّلوها إلى ولاية رومانية مُنهين بذلك حكم السلوقيين، وكان ذلك في عهد آخر ملوكها أنطيوخوس الثالث عشر، واجتاح الفُرس قبل ذلك إقليم بابل واستولوا على سلوقية دجلة، العاصمة الشرقية للدولة السلوقية.

السلوقيون عبر نظمهم

النظام السياسي والإداري

ورثت الملكية السلوقية التقاليد الآسيوية، فكانت ملكية مطلقة لا تحد من سلطتها أي جمعية شعبية، فالملك هو رأس السلطة، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش والمشترع الوحيد، يُعين الموظفين ويُسرحهم ويوجههم ويجيب على أسئلتهم، وهو أعلى سلطة قضائية، والمعروف أن القضاء لم يكن مفصولاً عن الإدارة، لذلك فإنه يتلقى العرائض من طبقات الشعب كافة، وهو يضع التاج على رأسه رمزاً للملكية، ويتخذ الخاتم شعاراً لها، أما اللباس الملكي فكان الرداء

المقدوني. ونظّم الملوك السلوقيون بلاطاتهم على الطراز الشرقي، فاحتوت على رجال التشريفات ذوي الملابس المزركشة والخصيان ذوي الحلل الرسمية والبخور والموسيقى، ولم يبقَ فيها شيء يوناني إلا اللغة والملابس الداخلية. لكن سمعة الملك لا تتوطد إلا بنسبة أهلية وأخلاق أولئك الذين يلتفُّون من حوله ويلجأ إليهم لمساعدته، وبخاصة الجنود، لا سيما الحرس الملكي، وأهل البلاط، وهؤلاء بطانته الذين يسند إليهم الأعمال الحكومية ويختار من بينهم الوزراء والقادة والسفراء، غير أن الشؤون الإدارية أضحت من التعقيد بحيث أنها فرضت حدّاً أدنى من التخصص، لذلك نرى في كل ملكية وظيفة رئيس القضايا، وهو استمرار لمنصب الوزير عند الفرس، ورئيس الديوان الملكي ووظائف أخرى مثل وزير المالية والكاتب المالي وقائد الحرس والطبيب الرئيس. ووُجد إلى جانب هؤلاء الموظفين خدّام الملك الخصوصيون الذين يشغلون غالباً وظائف بلاطية ويحصلون على لقب يربطهم شخصيّاً بالملك، ويتيح لهم التحدث إليه بمزيد من الارتياح مثل «أهل الملك»، «آباء الملك المربون»، «مهذبو الملك»، «إخوة الملك الرضيع»، «تلاميذ الملك»، والمقصود بذلك ألقاب شرفية فقط. وهناك الأصدقاء من دون صفة، والأصدقاء المكرَّمون، والأولون، والأولون المكرَّمون، ويوزع عليهم الملك الإنعامات والألقاب الملكية لقاء خدمات شتى. وهكذا فإن عدد رجال البطانة قد يكون مرتفعاً جدّاً، وتحمل التعابير الرسمية على الاعتقاد بأنهم يشتركون في السلطة الملكية شأن الجيش، وكأن هناك ملكية جماعية قائمة على الشورى، لكن هذه الشورى غير ملزمة للملك وإنما هي استشارية فقط، ولكنها تبقى ضرورية.

من الأمور المسلَّم بها أن الإدارة المحلية كانت أرسخ استقراراً من الحكومة المركزية، ولكن معرفتنا بها ضئيلة جدّاً إذا قارناها بالحكومة المركزية. والمؤكد أن السلوقيين حافظوا على اسم وواقع المرزبانات الفارسية القديمة باستثناء تقسيم بعضها إلى قسمين، فقد ورثوا القسم الأكبر من نُظم الفرس الإدارية. ويُذكر بأنه كان يوجد اثنتان وسبعون مرزبانة في عهد سلوقس الأول، وتضم سوريا ثماني مرزبانات، أربع في الشمال، وأربع في الجنوب. وتقسم المرزبانة إلى أقضية تختلف أسماؤها وفقاً للمناطق وأسماء الموظفين المكلفين بإدارتها، ويتولى حكم كل مرزبانة قائد عسكري، والجدير بالذكر أن كل الوظائف الرفيعة والملحقة بها قد خُصِّصت لليونانيين، غير أنه كان هناك استثناء في بداية عهد الدولة في المناطق التي لم تخضع بشكل تام ونهائي للدولة، كأرمينيا وكبادوكيا وبيثينيا، حيث روعيت الأوضاع المحلية، فجرى القبول بإبقاء بعض المرازبة الشرقيين، أما في المناطق التي كان الملك سيدها المطلق فلم يُعوَّل إلا على اليونانيين أو الشرقيين المتأغرقين.

وكانت اليونانية اللغة الرسمية، وبفعل ثقافة اليوناني واستعداده الفكري كان الموظف اليوناني أكثر تنظيماً ودقة وأمانة لأن الواجب يقضي عليه بالتضامن مع الملك أمام رعايا يمارسون حضارة أخرى.

وتتطلب الإدارة الحسنة مواصلات سهلة بغية نقل الأوامر الملكية وممارسة رقابة الحكومة المركزية بسرعة، غير أن المركزية في ملكيات ذلك العهد كانت تؤدي إلى التعقيد وبطء المعاملات، وتضعنا المستندات المتوفرة أحياناً أمام وقائع. ففي شهر آذار اتخذ أحد الملوك السلوقيين قراراً مهمّاً لمصلحة المملكة، وكان على الموظفين إبلاغه بسرعة إلى المعنيين، غير أن القرار لم يصل إلى الدوائر الإدارية الدنيا في إحدى المرزبانات المجاورة إلا في شهر أيار، كما لم يصل إلى المرزبانات الواقعة غربي الهضبة الإيرانية إلا في شهر تموز، ويتراءى لنا من ثمَّ ما يمكن أن تؤول إليه الأمور مع انحطاط الملكيات.

النظام الاجتماعي

ضمَّت الدولة السلوقية أجناساً مختلفة ومتباينة في عاداتها وتقاليدها ووضعها الاجتماعي وتفاوت مستوى معيشتها وتباين حضارتها، ولا تربطها إلا رابطة الخضوع للدولة. ويتكون السكان من العناصر التالية: العرب، المقدونيين اليونانيين، الفرس، الأتراك واليهود، واقتصر سكان سوريا على عنصرين: الإغريق والعرب الوطنيين. والمعروف أن الدولة السلوقية كانت مُقسَّمة إلى ثلاث ولايات إحداها سوريا. وينقسم العنصر الأول إلى عسكريين ومدنيين، استوطن العسكريون المستعمرات العسكرية ومعظمهم من المقدونيين، وسكن المدنيون في المدن ومعظمهم من اليونانيين، وقد شكّلت هاتان الفئتان القوة الأساسية للدولة، وانصهر معظمهم، مع مرور الزمن، بالسكان الوطنيين من خلال التزاوج واندماج بعض العادات والتقاليد، لكن ظلت الفوارق واضحة بين العنصرين من واقع المستوى الحضاري، فكوَّن السكان الوطنيون مجتمعات تجارية وكهنوتية كانت موجودة قبل العهد السلوقي، وعليه، فقد حافظ المجتمع في العهد السلوقي على عاداته وتقاليده الموروثة، وتكوَّن هذا المجتمع من ثلاث طبقات هي:

الطبقة العليا: تُقسم هذه الطبقة إلى فئتين:

تتألف الفئة الأولى من الملك وأفراد أسرته وحاشيته وكبار معاونيه من موظفي الدولة والقصر الملكي من المدنيين والعسكريين، وكلهم من المقدونيين واليونانيين، وهم أوسع الناس نفوذاً وأكثرهم ثراءً.

وتتألف الفئة الثانية من كبار التجار والصناعيين وملاّكي الأراضي في المدن.

الطبقة الوسطى: لم يكن أفراد هذه الطبقة على مستوى اجتماعي واحد، ويمكن إدراجهم ضمن فئتين: رسمية وغير رسمية. تضم الفئة الأولى صغار ضباط الجيش الذين استقروا في المدن الرئيسة وبخاصة أنطاكية، ويتلقى هؤلاء رواتب منتظمة إلى جانب واردات إقطاعاتهم، بالإضافة إلى صغار الموظفين الذين انتشروا في أرجاء البلاد كافة. وتضم الفئة الثانية بقية العناصر المقدونية اليونانية، ومنهم العلماء والمدربون والأطباء والمحامون والفنانون ومتوسطو الحال من أصحاب المِهَن الحرة كرجال الصناعة والتجارة. وتتمتع هذه الطبقة ببعض اليسار ما يسمح للشخص أن يعيش وعائلته وفقاً لقواعد

الاعتدال من دون فخفخة صاخبة ويستخدم العبيد في منزله، أما مصدر الثراء فهو مكاسب تجارية، نشاط مثمر عام أو خاص، ويغلب على الاعتقاد أن المهن الحرة لا تؤمِّن، إلا بصورة استثنائية، ثروة كافية للسمو بالعائلة إلى المجتمع الراقي، غير أنه من الواضح أن الازدهار الاقتصادي ودخول رؤوس الأموال والخدمة في الإدارات والجيوش الملكية، كانت من بين أسباب نمو هذه الطبقة المتوسطة التي سكن أفرادها في المدن وأداروا شؤونها.

الطبقة الدنيا: تتكوَّن هذه الطبقة من السكان والمواطنين العاديين، وتتألف من فئات هي:

فئة عليا: وتشمل كبار ملاّكي الأراضي والكهنة ورؤساء العشائر القبلية، ولم يكن هؤلاء على مستوى معيشي واحد، فكبار الملاّك كانوا يتمتعون بوضع اجتماعي أفضل من صغار الملاّك وكذلك الكهنة والتجار.

فئة وسطى: تتألف من متوسطي الدخل الذين يكسبون رزقهم من ممارسة الزراعة والتجارة والصناعة، أو من ممارسة العمل الحكومي في الوظائف المتدنية نسبياً، واعتمد بعضهم على الثقافة الإغريقية.

فئة دنيا: هم السكان الكادحون والمسحوقون، ويُشكلون أكثر الفئات عدداً وأقلها أهمية وأدناها من حيث مستوى المعيشة، ويكسب أفرادها معيشتهم من العمل في الزراعة والتجارة والصناعة كأُجراء، باستثناء الفلاحين المرتبطين بالأرض التي يعملون فيها، وتنتقل ملكيتهم إلى آخر إذا بيعت الأرض أو وُهبت أو وُرِّثت.

كانت سياسة السلوقيين الاجتماعية أرحب أفقاً، ففي عام (٣٢٤ ق.م) أرغم الإسكندر الكبير في سوزة ثمانين من كبار ضباطه على الزواج من نساء إيرانيات كما فعل هو نفسه، فأبطل كلهم هذا الزواج بعد وفاته متنكرين لسياسة الامتزاج التي أرادها الفاتح المقدوني، ومرتدِّين إلى عصبية عنصرية أكثر انسجاماً مع التقاليد اليونانية، باستثناء سلوقس الذي كان مدعوّاً لأن يؤسس أسرة حاكمة، فهو لم يُطلِّق زوجته أفاميا البختيارية في بادىء الأمر، وأطلق اسمها على مدن عدة أنشأها، كما سلَّم مملكته إلى ابنه أنطيوخوس الذي أنجبه منها، فلم يأنف السلوقيون من بعده من تزويج بناتهم إلى أفراد من بلاط ثانوي في سوريا وآسيا الصغرى أو التزوج من بنات هذا البلاط. غير أن الواجب يقضي بأن لا نبالغ في أهمية التفرُّد من الوجهة العملية، إذ إن هناك أسباباً أخرى لسياسة السلوقيين التي لا تخضع لمبادئ مقررة في الحرية حدَّدتها الوراثة بفعل ضرورات ملحة، فقد استهدف السلوقيون إحراز الثروة والتمتُّع بالقوة، لكن مساحة مملكتهم الكبيرة وعدد رعاياها أتاحا لهم تأمين موارد كافية من دون إثقال مطالبهم، كما أنهم لم يحكموا شعباً واحداً بحضارته التقليدية بل شعوباً متعددي الأجناس واللغات والديانات، ويختلفون من ناحية التنظيم الاجتماعي والنفسي ونوع المعيشة، وهم مُرغمون على التوحُّد بفعل وحدة ظروف المعيشة نفسها وبالنظام الذي تفرضه الطبيعة عليهم.

والواضح أن القوة العسكرية واتفاق الظروف هما اللذان جمعا هؤلاء الرعايا

المتعددي الاتجاهات والتوجهات تحت سلطة واحدة.

المدن اليونانية

أدرك السلوقيون أن نفوذهم في هذا المحيط الأجنبي إنما يعتمد على ولاء السكان الإغريق، ثم إن الأسلوب الذي اعتمدوه في نشر الحضارة الهلّينية، وهي العامل المشترك والوحيد بين رعاياهم، دفعهم إلى أَغْرقة هؤلاء الرعايا من خلال الإقدام على إنشاء المدن اليونانية والتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب المحلية، لذلك بذلوا جهوداً مضنية لإحياء المدن اليونانية القديمة وتأسيس مدن أخرى جديدة. ومن أشهر ما أنشأوا مدينة أنطاكية على نهر العاصي في سوريا ومدينة سلوقية على نهر دجلة في بابل. وتعزو روايات المصادر إلى سلوقس الأول إنشاء تسع وخمسين مدينة منها ست عشرة باسم أنطاكية على اسم أبيه أو ابنه، وتسع عشرة باسم سلوقية وخمس باسم لاوديكي، وحذا خلفاؤه حذوه إنما باندفاع أقل.

وشحن السلوقيون المدن المنشأة بالمهاجرين الإغريق والمستغرقين الذين اكتسبوا صفة المواطنين بعد أن تخلوا عن قوميتهم السابقة، وذلك مقابل إفادة مادية، أي مُلكٍ عقاري، بالإضافة إلى حامية عسكرية لصد الغزوات الخارجية.

تتمتع المدينة بحد أدنى من الحريات الإدارية والسياسية التي يمنحها لها الملك على حساب سلطته، وفي مقابل ما ينطوي عليه قيامها من انتقاص للسلطة الملكية؛ يعمد الملك إلى تعيين جهاز إداري خاص في المدينة يؤمِّن له متطلباته.

كانت مهمة إنشاء المدن وأَغْرفة السكان الوطنيين على شيء من السهولة في الشطر الغربي من المملكة، وبخاصة السواحل المتوسطية، حيث سبق للحضارة اليونانية أن انتشرت وتأصَّلت، لذلك فإن جميع المنطقة الغربية من آسيا الصغرى وساحلها الجنوبي وقيليقيا وشمالي سوريا، قد غدت مُلكاً للمدن اليونانية وأشهرها أنطاكية التي بقيت حتى آخر العهد القديم أكبر عواصم الشرق المتوسطي، ونافست الإسكندرية.

كانت النتيجة المباشرة لجهود السلوقيين انتشار الإغريق في أرجاء المملكة، لكن نسبة توزيعهم الجغرافي بقي متفاوتاً، ولم تخلُ منهم منطقة خاضعة للسلوقيين، وقد شكَّلوا جماعات منظَّمة بصفة مواطنين ينعمون بشريعة تحدد حقوقهم وواجباتهم، وتتوفر لهم المعابد والمنتديات الرياضية الضرورية للمحافظة على الحضارة اليونانية ونقلها بكل حرية إلى أولادهم، بالإضافة إلى استقطاب العناصر الشرقية إلى هذه الحضارة، وهو أحد أهداف نشرها.

واحتوت المدينة على فئات من السكان إلى جانب المواطنين ذوي الحقوق الكاملة، وهي ذات وضع اجتماعي أدنى، مثل العنصر المحلي والعنصر الأجنبي المقيم في المدينة. وكان على طبقة الوطنيين الميسورين المتأغرقين الذين رُفعوا إلى رتبة المواطنين أن يحملوا اسماً يونانيّاً واعتماد الزي اليوناني والتخلُّق بالأخلاق اليونانية والتكلُّم باللغة اليونانية.

هل حقّقت المدينة اليونانية الأهداف التي أُنشئت من أجلها؟

الواقع أن النتائج جاءت متفاوتة بين منطقة وأخرى بالاستناد إلى كثافة المدن والسكان اليونانيين.

ففي آسيا الصغرى المتأثرة قبل عهد السلوقيين بالحضارة اليونانية، نظراً لوقوعها على بحر إيجة، كانت النتائج جديرة بالاهتمام، ويصح القول نفسه على الساحل السوري، أما في شمالي سوريا فقد توطدت الحضارة اليونانية في المدن فقط، ولم تتأثر الأرياف كثيراً بهذه الحضارة. أما في المناطق الأخرى، فكانت المدن والرعايا اليونانيون أقل عدداً وعلى شيء من التشتُّت، فلم يُشكّلوا في بلاد ما بين النهرين سوى جزر صغيرة وسط المساحات الشاسعة التي شغلها الوطنيون، وعليه لم تشع الحضارة اليونانية إلا في مدن قليلة لم يتوفر الوقت والطاقة من الإكثار منها. وتجدر الإشارة مع ذلك إلى أن اليونانيين والمتأغرقين دافعوا طويلاً عن حضارتهم وأبقوا عليها على الرغم من التفوُّق العددي للوطنيين الذين حافظوا على أنظمتهم الاجتماعية.

وحاول السلوقيون التأثير، خارج المدن، على بعض طبقات المجتمع الوطني المتنوعة عنصريّاً والمحرومة غالباً من الغِنى المادي والحريات القانونية، فقد أصدر أنطيوخوس الثالث أمراً في عام (٢١٠ ق.م)، في أعقاب الاضطرابات التي نشبت في ليديا وفريجيا في آسيا الصغرى، بنقل ألفَي عائلة يهودية من بابل يكون أفرادها أكثر إخلاصاً. وأقام السلوقيون مراكز في غربي آسيا استجابة لمتطلبات عسكرية، تتعلق بهجرة العسكريين أو بتسهيل تعبئة الجيش أو بحفظ الأمن في المناطق المضطربة أو الحدودية، كانت بمثابة مستعمرات عسكرية سكنتها بعض العائلات، ولم يحاولوا في عملهم هذا تحسين أوضاع الطبقات الدنيا المحرومة ولا بتخفيف الفوارق بين الطبقات.

إن الوحدة التي سعى السلوقيون إلى تحقيقها هي الوحدة الحضارية وسيادة الحضارة اليونانية، إذ رأوا أنها الوحيدة التي تطور البلاد والعباد تطوراً حقيقيّاً، لذلك سعوا إلى طبع الوطنيين بالحضارة اليونانية، لكن نشاطهم لم يتناول سوى أعضاء الطبقة العليا الحاكمة، الأسهل منالاً والأشد تأثيراً، والواقع أنه أعوز السلوقيين التأثير على عامة الشعب مع ما يتطلب ذلك من جرأة لم يقوموا بها، فاستمرت العبودية والتبعية التي ترعاها الأعراف، من دون تغيير، واحتفظت المصانع والمزارع بعمالها وفلاحيها المرتبطين وراثيّاً بالأرض.

النظام الاقتصادي

الزراعة: كانت مهمة السلوقيين أن يهبوا الشرق الاستقرار الاقتصادي والسياسي، وقد أدوا هذه المهمة على الرغم مما انتاب البلاد من ثورات وحروب ونهب وفساد، ذلك أن التوسُّع السلوقي حطَّم ما أقامته الحكومات واللغات من حواجز بين الشعوب، ودعت الشرق والغرب إلى تبادل المصالح التجارية بشكل أكثر شمولاً مما كان بينهما من قبل، وكانت النتيجة أن بُعثت الحياة في آسيا اليونانية بعثاً بارزاً. لقد كان للوحدة التي

حقَّقها السلوقيون وكذلك للسلم، أثر كبير في تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة. وساعد على نمو الزراعة خصب أودية دجلة والفرات والأردن والعاصي وميانـدر وهاليس وجيحون، وتُروى الأرض بوساطة شبكة من القنوات تُشرف الدولة عليها وتعتني بها على الرغم من تعدد مالكيها، (من الملك إلى الأفراد). وكان العبيد هم المولجون بزراعتها، وينتقلون معها إذا بيعت أو وُرِّثت أو وُهبت. وتعدُّ الدولة ما تحويه الأرض من ثروة مُلكاً قوميّاً.

تقدمت الزراعة بفضل هذا النظام، بشكل واضح، فاستعمل المزارعون الأساليب العلمية ما أتاح إنتاج أنواع جديدة من النباتات والأعشاب. ويبدو أن اهتمام السلوقيين بالزراعة مردُّه إلى حاجتهم الملحة إلى الأموال اللازمة لبناء قوتهم العسكرية وإنشاء المدن، وتُعدُّ الزراعة أهم مورد في الدولة.

استخدم الفلاح في العهد السلوقي المحراث لحراثة الأرض، يجره ثوران، واتبع الدورة الزراعية التقليدية القائمة على نظام ترك الأرض بدون زراعة مرة كل عامين.

وطوَّر السلوقيون الزراعة من واقع أقلمة أنواع جديدة من المزروعات اقتبسوها من المناطق المجاورة، فاهتمُّوا بزراعة الكروم وأشجار الزيتون واستصلحوا الأراضي لزيادة المساحات المزروعة، واستخدموا إلى جانب المحراث الفأس والمنجل وبقية الأدوات المستعملة في الحصاد والبذار وجني المحصول وغيرها.

ويُعدُّ القمح أهم المزروعات، وانتشرت زراعته في المناطق الخصبة كافة، وكانت سوريا أحد الأقاليم الهلِّينية التي اشتهرت بزراعة الحبوب وعلى رأسها القمح، وهي تُنتج أحسن أنواعه، وأدخله البطالمة إلى مصر بفعل جودته. ونقل السلوقيون زراعة أشجار الفستق من المناطق الشرقية إلى سوريا، واهتمُّوا بزراعة أشجار التين والرمان. وانتشرت زراعة النخيل نظراً لأهميته الاقتصادية المتعددة، وكذلك زراعة الخضراوات والنباتات الطبية، كما انتشرت الغابات في شمالي سوريا وعلى سفوح جبال لبنان الغربية، واشتهرت أخشابها عالميّاً لما تمتاز به من ميزات خاصة، فاستُخدمت في بناء السفن والمعابد والمنازل وفي صنع الأثاث، وكانت أشجار الصنوبر مصدراً مهمّاً للقطران والصموغ.

واهتم السلوقيون بالثروة الحيوانية بفعل توفر المراعي، مثل الأغنام والماعز والخيول والثيران والأبقار والخنازير والدجاج والإوز، وتُربى الأغنام من أجل لحومها وألبانها وصوفها، والأبقار من أجل لحومها وألبانها وجلودها، والثيران والحمير لاستخدامها في الحراثة والنقل. وتلي الثروة الحيوانية الزراعة من حيث الأهمية. أما الثروة المعدنية فكانت قليلة الأهمية بالمقارنة مع الزراعة، وعلى الرغم من قِلَّتها فقد توفر منها النحاس والحديد والملح وأحجار البناء ومادة الصلصال الصالحة لصناعة الآجر والقرميد والآنية الفخارية.

التجارة: اكتسبت التجارة أهمية كبيرة في العهد السلوقي، فهي عماد الاقتصاد، وقد أسهمت عوامل عدة في تطور الحركة التجارية وانتعاشها لعل أهمها:

ـ التحول من النظام العيني إلى النظام النقدي. لقد حلَّ التعامل بالنقد في ذلك

الوقت محل المقايضة التي ظلت أربعة قرون وسيلة للتعامل، وأصدر السلوقيون نقوداً كانت تكفي لتيسير التجارة.

ـ وجود المصارف التي يسَّرت وسائل الائتمان الفردي والعام.

ـ تقصير المسافات بين البلدان بفعل استخدام السفن الكبيرة التي تستطيع الإبحار في عرض البحار.

ـ اعتناء السلوقيين بالطرق البرية.

ـ نمو المدن، مثل دمشق وأنطاكية، التي كانت تُصدر البطاطين والبُسُط والسجاد ونسيج الكتان، وأرقى أنواع الخزف وصنوف الزجاج والجواهر والعطور وأدوات الزينة.

تاجر السلوقيون مع الهند والصين، واشتهرت تدمر كمحطة تجارية على طريق القوافل، فنقل تجارها السلع الهندية والعربية إلى أسواق أوروبا. وكان للمعابد مراكز تجارية خاصة، وينظم الكهنة معارض تجارية دورية في أراضي المعابد يشارك فيها سكان المقاطعات المجاورة وحتى البعيدة، ويتخلَّلها طقوس وشعائر دينية.

شكلت التجارة عاملاً جزيل الفائدة لجميع العاملين في الحقل التجاري لا سيما الوسطاء، وقام تنافس شديد بغية الإشراف على طرق هذه التجارة، وحاولت كل مدينة وولاية إيصالها إليها لتأمين الخامات الثمينة ولجني الأرباح الطائلة من إعادة توزيعها أو تحويلها.

وتعدَّدت طرق التجارة في عهد السلوقيين واشتهر منها ثلاثة هي:

طريق الشمال: ينطلق هذا الطريق من الهند ويعبر التركستان ويمر بمدينتَي كابل وبلخ حتى مصب نهر جيحون، ثم يعبر بحر قزوين إلى البحر الأسود بعد أن يجتاز أودية القوقاز.

طريق الوسط: ينقسم هذا الطريق إلى فرعين: بحري وبري. ينطلق الفرع البحري من الهند إلى الخليج العربي مباشرة ثم إلى بابل. وينطلق الفرع البري من الهند إلى بختيار وينتهي بفضل القوافل الإيرانية إلى بابل. وأسَّس السلوقيون هنا مدينة سلوقية دجلة واتخذوها عاصمة شرقية لدولتهم واستخدموها مستودعاً لكل البضائع المنقولة بحراً وبرّاً. ويتفرع هذا الطريق من بابل نحو الغرب عبر وادي الفرات إلى نصيبين والرها، ثم تسير القوافل بخط مستقيم نحو مرافئ فينيقيا عبر حلب وحمص ودمشق، أو تتجه مباشرة إلى أنطاكية، عاصمة السلوقيين الغربية، ومرفأ سلوقية بيرية، وتتوجَّه أطول هذه الطرق إلى ميلة وأفيسوس بنوع خاص، على بحر إيجة، مروراً في قيليقيا ووسط آسيا الصغرى.

أثارت هذه النقاط التجارية المتوسطية أطماع الدول المختلفة، فقد تنازع السلوقيون والبطالمة للسيطرة عليها، وكانت الغلبة للسلوقيين طيلة القرن الثالث قبل الميلاد، فسيطروا آنذاك على سوريا الجنوبية والشاطئ الفينيقي بالإضافة إلى سلوقية بيرية حوالي ثلاثين عاماً. أما في الشمال، فعلى الرغم من أنهم فشلوا في السيطرة على الطرق الساحلية في آسيا الصغرى إلا أنهم أمَّنوها بواسطة الحماية أو التحالف مع مدن تلك المنطقة.

وتبدَّل الوضع بعد ذلك نتيجة بروز روما على المسرح السياسي، وقد طردت السلوقيين

من آسيا الصغرى، غير أن هؤلاء احتفظوا بسوريا وفينيقيا، واستهدفت حروب كثيرة فتح أو إغلاق نوافذ آسيا على البحر المتوسط.

طريق الجنوب: هو طريق بحري يصل الهند بالموانئ الواقعة في جنوبي جزيرة العرب، ويمر طريق البخور هذا بسبأ ومعين ويثرب والعقبة والبتراء ودمشق وصور، ويتفرع منه خط يصل إلى غزة.

كانت التجارة حرة لكن لا يُسمح بممارستها إلا بعد أداء ضريبة مزاولة المهنة وغيرها من الضرائب المتعلقة بالعمل التجاري. ونشطت التجارة الداخلية بين المراكز القديمة والمستحدثة. ونتيجةً لتطور الاقتصاد، جرى توسيع الأسواق العامة، وفُرضت الرقابة على الموازين والمقاييس، ونُظِّمت عملية المرور في الشوارع، إذ لم يكن يسمح لعربات النقل بالدخول إلى المدينة إلا ليلاً.

الصناعة: لا تتراءى لنا الصناعة في العهد السلوقي إلا من خلال صادراتها، أي من خلال مصنوعاتها، ويتضح في هذا الحقل تفوق سوريا، الغنية بالمواد الأولية الثمينة، والمعروف أن أهم الصناعات التي كانت رائجة في العهد السلوقي هي صناعة الزجاج والحرير والأصباغ والسفن والتعدين والعجلات العسكرية وأدوات القتال والنسيج والأثاث والأواني والحلي والأحذية، وغيرها.

واشتهرت اللاذقية بصناعة النبيذ الجيد، وتطورت صناعة الزيوت نتيجة وفرة محصول الزيتون وجودة صنعه، وازدهرت صناعة الأواني الفخارية نظراً للحاجة الماسة إليها لتعبئة وحفظ النبيذ والزيوت. وراجت صناعة الزجاج والأواني الزجاجية، مثل الكؤوس والأطباق والحلي الزجاجية، واشتهرت صيدا بهذه الصناعة. وكانت المدن السورية تُصدِّر الزجاج. وانتشرت صناعة النسيج في سوريا في العهد السلوقي بفعل توفر مواد صناعتها، كالكتان والصوف والحرير.

وبلغت الحِرَف وكذلك المدن في العهد السلوقي درجة عالية من التخصص الصناعي، فكانت ميليتوس مركزاً لصناعة النسيج، وتستورد أنطاكية المواد الخام وتحولها إلى بضائع مصنوعة، كما بلغت بعض المصانع الكبيرة التي تستخدم العبيد درجة لا بأس بها من الإنتاج الذي تُصدِّره إلى الأسواق العامة، ولكن الاستهلاك المحلي لم يُجارِ الإنتاج لأن فقر السكان لم يساعد على قيام أسواق محلية كبيرة تُشجِّع الصناعات الكبيرة.

الدين

لم تُحقق السيطرة اليونانية نتائج جوهرية على العبادات التي كان يمارسها الوطنيون في العهد السلوقي، إذ إن هذه العبادات قد حافظت بشكل عام على ميزتها الخاصة وحيويتها، وكما برهن الإسكندر المقدوني عن احترامه للمعتقدات والطقوس الدينية؛ أطلق خلفاؤه السلوقيون حرية رعاياهم الدينية، وأظهروا احترامهم لأبرز الآلهة الشرقية، غير أن ما واجههم من صعوبات مالية دفعهم إلى محاولة وضع أيديهم على ثروات المعابد وكنوزها. فقد انتزع أنطيوخوس الثالث الذهب والفضة من معبد أكباتان في عام (٢١٠ ق.م) ولكنه قُتل على أيدي المحليين بعد أن استولى على كنوز أحد المعابد في بلاد سوزة، واضطر

ابنه وخليفته أنطيوخوس الرابع، بعد عشرين عاماً، إلى الانسحاب حين عزم على القيام بعملية مماثلة.

ولم يشذ عن هذا التعايش الديني ذي الطابع السلمي سوى فلسطين، فقد انفجرت الخصومات بين السلوقيين واليهود حول كنوز معبد أورشليم، وانتهت الحوادث المختلفة إلى نزاع دام. فقد صمَّم أنطيوخوس الثالث على أن يضعَ يده على كنز الهيكل، فواجه معارضة شديدة، وأقدم أنطيوخوس الرابع على عمل انتقامي، فعيَّن رئيساً للكهنة يلبِّي جميع متطلباته، وأطلق على أورشليم اسم أنطاكية، وشيَّد فيها حصناً أقام فيه حامية عسكرية، وانتهك حرمة الهيكل بذبائح دموية، وبإدخال تمثال زيوس إليه، وكرَّس معابد محلية بأسماء آلهة يونانيين، وأراد فرض أكل لحم الخنزير؛ فانفجرت، نتيجة ذلك، في عام (١٦٦ ق.م) أعمال الشغب فيما عُرف بثورة المكابيين التي استهدفت الملك والمتأغرقين معاً، والتي انتهت، بفعل ضعف المملكة السلوقية، إلى قيام دولة يهودية مستقلة.

الواقع أن مرد هذه الأزمة يعود إلى التناقض بين الحضارتين الشرقية واليونانية ومحاولة الحضارة اليونانية استقطاب العناصر الوطنية، ما أوجد سوء تفاهم متبادل بين المسؤولين عنهما، ولا شك بأن سلوك أنطيوخوس الرابع ساهم بشكل بارز في إذكائها.

والراجح أن هذه السياسة لم تطبَّق وفق قاعدة ثابتة، فقد أصلح الملوك السلوقيون بعض المعابد في مدينة أوروك من أعمال بلاد بابل، وأعادوا بناء معبد أرتاغانيس في منبج، واهتموا بتشييد وإصلاح عدد من المعابد. ومورست بحرية شعائر الديانة المحلية في الهضبة الإيرانية على الرغم من ارتباطها بالحكام المعزولين والروح القومية الإيرانية. وأبقى السلوقيون في بلاد فارس على بعض الوطنيين كرؤساء محليين، وأطلقوا عليهم «حراس النار» ما أتاح لهم أداء دور ديني. ولم تُسبِّب أغرقة الوطنيين أي مشكلة لأن هذا التطور لم يؤدِّ إلى ارتداد، وغالباً ما تبنَّى الإغريق بعض الآلهة الوطنية مثل زيوس الذي تمثلوه في بعل السوري أو الفينيقي، لكن لم يحدث أي تغيير جوهري في الطقوس ولا في الواجبات المفروضة على المؤمنين.

لكن حدثت مع ذلك تجديدات متفاوتة الأهمية لإرضاء ميول الناس العاطفية مثل العبادة الملكية والسلالية التي توافقت مع نظرية الفاسيلفوس، أي الإنسان المتفوق على الناس، ما يمنحه الحق الشرعي بأن يُمثَّل بالألوهية، وترافقت مع العبادة الملكية والعبادة الشعبية الرغبة في تأمين السعادة والخلاص، وعُبِّر عن هذه النزعة في لقب المخلص الذي أُطلق على الآلهة القدامى والجدد والكثير من الملوك.

وعبَّر الإغريق، على الصعيد الديني، عن قابلية للاقتباس من الشرق معترفين بعدم شمولية معتقداتهم، ولكن بشيء من التحفُّظ. فعندما تبنَّوا رسميّاً عبادات محلية غريبة بذلوا الجهد لتكييفها وتطهيرها وإخضاعها للعقل.

وعلى الرغم من التدابير المتخذة للحفاظ على نصيب الديانة اليونانية، استمر استقلال ونفوذ الشرق الديني، وقد اجتذبت عباداته العديد من المؤمنين اليونانيين، فمدُّوا

عبادات الآلهة الشرقية إلى الغرب لا سيما إلى ديلوس.

وهكذا سرعان ما قَبِلَ اليونانيون آلهة الشرق ورأوا في جوهرها آلهتهم هم، ولكن اليوناني لم يؤمن بالآلهة كإيمان الشرقي بها، ولهذا استمر الإله الشرقي، وتراجع الإله اليوناني، فعادت أرتميس الأفيسوسية كما كانت إلهة شرقية للأمومة، واستسلم عدد كبير من اليونانيين للطقوس الدينية البابلية والفينيقية والسورية.

لقد قدَّم اليونان الفلسفة للشرق، وفي المقابل قدَّم الشرق الدين لليونان، ولما كانت الفلسفة خاصة بالأقلية الضئيلة، والدين سلوى للكثيرين، فقد تغلَّب الدين الذي استعاد سلطانه في هذا التبادل التاريخي.

الحياة الفكرية

أخذ غربي آسيا يصطبغ بالصبغة اليونانية بخطى سريعة، وكان الانتشار الهلّيني من بعض نواحيه عودة الحضارة اليونانية إلى مواطنها الآسيوية القديمة. فقد شغل اليونانيون، منذ ما قبل عهد الإسكندر المقدوني الكبير، مناصب رفيعة في الامبراطورية الفارسية، كما كان التجار اليونان يسيطرون على المسالك التجارية في الشرق الأدنى. واستقطبت الفرص السياسية والتجارية والفنية سيلاً جارفاً من المهاجرين المغامرين والمستعمرين والكتبة والجند والتجار والأطباء والعلماء والسراري. وكان النحّاتون اليونان ينحتون التماثيل، وينقش النقّاشون النقود لملوك فينيقيا وكاريا وليسيا وصقلية وبكتريا، وأثارت مدارس الألعاب الرياضية اليونانية وساحاتها في بعض الشرقيين شغفاً لم يألفوه من قبل. ونشطت المدارس ودور الكتب والتمثيل والقراءة والأدب، وأمَّ طلاب العلم الكليات والجامعات وجابوا شوارع المدن يناقش بعضهم بعضاً أو يناقشون الناس، وكان المثقف هو الذي يتكلم باللغة اليونانية ويستمتع بمسرحيات الكتّاب اليونان.

غير أن ما وصل إلينا من آثار فكرية، علوم آداب وفلسفة، ضئيل جداً، ولا نجد إلاَّ عدداً قليلاً من الشخصيات اللامعة أمثال زينون الرواقي وسلوقس الفلكي.

وحافظ الشرق، بفضل خصائصه المتأصلة، على اللغات واللهجات المحلية، فقد ظلَّت جمهرة الناس تتخاطب بلغاتها الوطنية، وكان الغشاء اليوناني الذي يغشى البلاد البعيدة عن شواطئ المتوسط رقيقاً، فالمراكز الهلّينية القائمة هناك، أمثال سلوقية على نهر دجلة؛ جزائر يونانية في المحيط الشرقي. ولم تمتزج الأجناس والثقافات إلا جزئيّاً، فاحتفظت بابل بالكتابة المسمارية، وتراجعت اللغة اليونانية إلى المرتبة الثانية في عالم الأعمال، وأفسد التنجيم والكيمياء الكاذبة، فلك اليونان وعلومهم الطبيعية، وملأ تصوف الشرق وتقواه الفراغ الذي تركه تدهور الدين اليوناني.

وقدَّمت الملكية في الشرق السلوقي إطاراً جديداً فرض تكيفاً خاصّاً، وأحدث كثيراً من الموجبات والتسهيلات. وكانت العلاقة طيبة إجمالاً بين الدولة وتشجيع الآداب، وكثيراً ما أدّى التنافس بين الملوك دوراً في استقطاب فيلسوف أو كاتب شهير. فقد حدث في نهاية إحدى الولائم أن منح أنطيوخوس الثالث هدية

ولقب «صديق» لشاعر ألقى أبياتاً من الشعر. وقد تألف البلاط الملكي بعامة من أفراد على مستوى ثقافي عالٍ، ومُنح الأدباء والعلماء أعطيات سخية ساهمت في رفع مستوى معيشتهم، وأسهمت المؤسسات في نشر أبحاثهم، وانتشرت الثقافة الفكرية بشكل خاص في أوساط الطبقة الوسطى، الملاّك والتاجر والموظف، ويُفسِّر ذلك تحسُّن الوضع المادي لأفرادها، وبالتالي ازدياد مَن يتعاطون نشاطاً فكريّاً.

إن تعلُّق الإغريق بحضارتهم المتفوقة قد حدَّ من الاقتباس عن الثقافة المشرقية، وعلى الرغم من ذلك، وبدافع الفضول المعرفي؛ فقد جمع بيروز، أحد الكهنة البابليين، بإيعاز من الملك السلوقي أنطيوخوس الأول، كلَّ ما كان معروفاً عن السلالات الشرقية، كما بقي الاقتباس محدوداً أيضاً عن العلوم الشرقية البارزة لا سيما علم الفلك، فقد اعتمد السلوقيون التقويم البابلي، واعتُمد حساب خسوف القمر الشائع في المعابد البابلية ولو متأخراً.

كانت الثقافة الفكرية في الشرق المتوسطي أضعف من أن تستقطب الإغريق، وعلى النقيض من ذلك فإن الحضارة اليونانية هي التي استمالت الكثير من الشرقيين، ويُشكل ذلك مظهرين من حدث اجتماعي واحد:

الأول: إن الاستغراق حصل بنوع خاص عند النخبة الوطنية ولدى سكان المدن الذين كانوا على اتصال بالطبقة الوسطى اليونانية.

الثاني: صعوبة إحصاء الشرقيين الذين اقتبسوا الحضارة اليونانية، ولكن عددهم كان غفيراً في آسيا الصغرى وفينيقيا وفلسطين.

كانت اللغة الأتيكية هي اللغة الأدبية الوحيدة السائدة في العالم اليوناني، وفي ظل تعدد اللهجات المحلية كانت هناك لهجة يونانية مشتركة درج استعمالها في المدن؛ سهَّلت انتشار الحضارة اليونانية في أوساط الشرقيين، لكن انتشارها في الأرياف كان محدوداً، وإذا حدث أن اندثرت اللغات القومية القديمة في الشرق الآسيوي، باستثناء اللغة المصرية، فقد تمَّ ذلك في أوساط الطبقات الاجتماعية الدنيا، وقد جاء ذلك في مصلحة اللغة الآرامية التي استمرت بالنمو داخل المملكة السلوقية وأضحت لغة الشعب، واقتصرت اللغة العبرية في فلسطين على الطقوس والشعائر والعبادات اللاهوتية.

الفنون

تمهيد: سيطر الفن الإغريقي على الشرق، وتسرَّب إلى أماكن كثيرة من ساحل آسيا المتوسطي منذ ما قبل عهد الإسكندر المقدوني الكبير، ولم تحافظ الفنون المحلية على حيويتها إلا في بعض الأماكن، ولعل مرد ذلك يعود إلى إحجام النخبة الاجتماعية بسبب فقدان روحها القومية، وهي التي كان باستطاعتها إنماءها عن طريق طلباتها عليها، لكن هناك خروجاً نادراً عن هذه القاعدة، ففي أوروك في بابل، استمرت الحياة الكهنوتية بفعل عطف السلوقيين وتشييدهم معابد وترميمهم معابد أخرى.

ويبدو أن الفن اليوناني خضع لتجديدات أملتها ظاهرة الميل نحو إحساس جديد، فاقتبس من الشرق المعاني الروحية والقدرة

على التأثير الديني، فاصطبغت الوجوه والمناظر الطبيعية بصبغة صوفية.

وتحسَّنت الظروف المادية للحياة الفنية حين شرعت المدن اليونانية في الشرق تقليد المدن اليونانية في الغرب من واقع التزيين والتجميل، وازدياد البذخ الكمالي بفضل نمو الطبقة الثرية، والطلب المتزايد للملوك وحاشياتهم التي انطوت على البذخ والعظمة؛ فكثر الطلب على متطلبات الحياة الفنية وارتفع عدد الفنانين المهنيين.

العمارة: عرفت العمارة الهلِّينية القوس والعقد والقبة المستعملة في العمارة الشرقية، غير أنها لم تستخدمها إلا نادراً محافظة بذلك على الأساليب التقليدية. وإذا كان عدد الأبنية المشيَّدة، لا سيما المعابد، كان آنذاك كبيراً، إلا أنه لم يُبذل في تصميمها سوى جهد ضئيل، والملاحظ أن الفنانين الذين استخدموا في بناء المعابد مواد وتزييناً ينم عن غنى؛ تجنَّبوا القياسات الضخمة التي كانت سائدة في العهود السابقة.

والواضح أن هذه النزعة تتوافق مع الوقائع السياسية والجغرافية والإمكانات المالية، ويستوقفنا في هذا المقام معبد ديديموس الذي تعهدت ميلة في إعادة بنائه منذ عهد الإسكندر المقدوني الكبير، وقد أُقيمت أمام مدخله أعمدة أشبه بالغابة بسبب كثرتها، مُوزَّعة على خمسة صفوف، وأحاط بالبناء نوعان آخران أيضاً. وأقيمت في الداخل اثنتان وعشرون درجة تتجه نحو الأسفل وتؤدي إلى فناء طلق شُيِّد فيه معبد صغير لأبولون. ويبدو التأثير الشرقي في هذا المعبد واضحاً، مثل قاعات الأعمدة، والفناءات الداخلية في المعابد الشرقية، والتماثيل الجالسة العائدة إلى الأسرة البارثية الكهنوتية.

وبرز طراز يوناني جديد هو في الحقيقة هندسة تجميلية، يتمثل بالمذبح الضخم لزيوس المخلص في برغاموس وفي معبد إله الحظ في أنطاكية، وقد ارتفع على مقربة من أعلى قمة في المدينة داخل شبه مربع واسع يحده رواق مزدوج من جهاته الأربع، يُصعَد إليه بواسطة سلَّم يُشرف عليه جناحا الرواق.

وهناك نزعة تجديدية في الفن المعماري تمثَّلت في الأبنية المتنوعة المعدَّة للسكن والمجهَّزة بوسائل الراحة، والعيش الرغيد، وقد شُيِّدت وسط الحدائق الغنّاء، ففتنت الملوك الشرقيين بنضارتها، وطبيعي أن تشكل المساكن الضيقة المتواضعة التي ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية، غالبية الأبنية.

وتميز البيت الهلِّيني في العهد السلوقي عن البيت التقليدي، وقد روَّجت الطبقة الوسطى الغنية بناءه وزوَّدته بوسائل الراحة والبهجة. ويشغل هذا البيت مساحة أكبر، وهو خالٍ من النوافذ المطلَّة على الخارج، وله باب واحد يؤدي إلى ممر جانبي مظلم، والغرف مفتوحة على فناء وسطي مجهز في الغالب برواق ذي أعمدة يقي من المطر والشمس، وهو حسن التهوية، ورُصفت أرضه بالفسيفساء ذات الرسوم الهندسية، وكثيراً ما أُلبس القسم السفلي من الجدران بالصفائح الرخامية. وهكذا نشأ في الشرق المتوسطي ذلك المسكن الخاص الذي سيتوسع ويتزوق مع الزمن وتُضاف إليه حديقة كبيرة.

لم يظهر أي تغيير مهم في عناصر المدينة التقليدية كالمسرح وغيره التي كوّنت الإطار المادي لحياة اليونان، لكن تجديداً حدث مع ذلك تمثَّل في توحيد هذه العناصر تحقيقاً لأهداف جمالية ومادية، وبدت المدينة ككائن مادي لا يختلف في تميزه، وتفوقه على مجرد تلاصق الأبنية العامة والمساكن، عن تميز المدينة اليونانية وتفوقها.

وصُمِّمت المدينة الهلّينية وفقاً لمخطط سهل التنفيذ مع الأخذ بعين الاعتبار شوارعها المتوازية وتوسُّعها اللاحق، ووُزِّعت الأبنية بشكل منطقي وفقاً للغاية الموضوعة لها؛ ما أوجب نوعاً من الوحدة في القياس والقاعدة، وحُدِّد عرض الشوارع الرئيسة بعشرة أمتار والثانوية بستة إلى ثمانية أمتار.

النقش: لعل أشهر النقّاشين الهلّينيين هو ليسبوس الذي كان قد بدأ نشاطه قبل عهد الإسكندر المقدوني الكبير، وغدا النقاش الرسمي لهذا الأخير في آسيا، وتميزت نقوشه بالحركة والإيقاع والتحليل الحاد للعواطف، وقد شقَّ الطرق أمام مَن أتى بعده في هذا المضمار، وتتلمذ على يديه كل من خاريس، صانع تمثال رودوس، أحد عجائب الدنيا السبع، وأفتيخيداس، واضع مجموعة إله الحظ في أنطاكية التي تميزت بالوفرة وبساطة الرموز، ويستوقفنا نقش السبَّاح، الفتى القوي الذي يمثل نهر العاصي متفجراً من تحت الصخر المليء بالحركات المعبرة عن طبيعة الوضع، كرفع الرجل اليمنى فوق كتف السبّاح، واليد اليمنى القابضة على السنابل حتى مستوى الرقبة في حين تتكئ اليد اليسرى على الصخر، وتُعبِّر الفوارق الرقيقة عن الجلال والراحة في جلسة كلها مرونة، وعن العطف والوقار في وجه يتَّسم بالعذوبة، وتخلَّلت هذا الإنتاج الفني بعض النزعات المحلية ولكنها لم ترقَ إلى مستوى الحديث عن مدارس فنية.

التصوير: قطع فن التصوير شوطاً كبيراً وهو على نوعين: صور جدرانية وصور أشخاص. وزينت فسيفساء المعادن بالموضوعات الدينية المحركة للعواطف، وقد قدَّمتها الميثولوجيا بوفرة، أما الهندسة البنائية فلها علاقة بالديانة الوثنية. وكان للروحانيات وكابوس الموت والفلسفة والأدب، أثر عميق في تصميم بعض الزخارف، وخرجت بعض الأنصاب التي اكتُشف عدد كبير منها في تساليا وفينيقيا عن الابتذال الاصطلاحي بفضل طابع الصورة الفردي. وبشكل عام، كان الفن الهلّيني فنّاً عظيماً من شأنه أن يساعدنا على فهم الفنون الأخرى بصورة أفضل.

وتراجع فن التصوير على الخزف بشكل واضح في أعقاب تعدد المصانع وتوزعها على البلاد، واستخدام يد عاملة أقل مهارة، واستعمال السكان الميسورين الأواني المعدنية المزدانة بالمشاهد الناتئة في الوقت الذي اكتفى السكان المتوسطو الحال بالخزفيات الناتئة التي قلَّدت الأواني المعدنية، ولم يعد الخزف مادة لفن مستقل، بل غدا تدريجاً بديلاً زهيد الثمن للمعدن.

وحدث الشيء نفسه للتماثيل الصغيرة في آسيا الصغرى بشكل خاص، فكانوا يصنعونها من التراب، لكن دقة صنعها تدنَّت، وأكثروا من صنع تماثيل مستهجنة تستهدف إثارة

الضحك، إلى جانب تماثيل السيدات الأنيقات والفتيات النضرات.

واحتاج سبك المعادن، من برونز وفضة وذهب وعاج وجواهر، ونقشها وتزيينها؛ إلى أيدي تقنية ماهرة، وتفوَّقت مدن فينيقيا في هذا الإنتاج، والواضح أن عظمة البلاط السلوقي ومبالغته في الترف اللتين قامتا على ثروة كبيرة، قد خلفتا نمطاً يُفسِّر التصويرات البعيدة، فاكتُشفت أواني زجاجية في مدن آسيا الصغرى وبلاد الشام.

الخلاصة

- ورثت الملكية السلوقية التقاليد الآسيوية الشرقية، فكانت ملكية مطلقة.

- حافظ السلوقيون على التقسيمات الإدارية الفارسية القديمة (المرزبانات) وورثوا عن الفرس كثيراً من نظمهم الإدارية، واعتمدوا اللغة اليونانية كلغة رسمية في التخاطب والكتابة.

- ضمَّت الدولة السلوقية أجناساً مختلفة ومتباينة في عاداتها وتقاليدها ووضعها الاجتماعي، لكنها فشلت في صهر هذا الخليط الذي لا تربطه إلا رابطة الخضوع للدولة، باستثناء ما جرى من اندماج اليونانيين، بمرور الزمن، بالسكان الوطنيين على الرغم من بقاء الفوارق الحضارية واضحة بين العنصرين.

- حافظ المجتمع السلوقي على عاداته وتقاليده الموروثة، وكانت سياسة السلوقيين الاجتماعية أرحب أفقاً، فقد انفتحوا على العناصر الوطنية وتقاربوا وإياها بالزواج.

- أدرك السلوقيون أن نفوذهم في هذا المحيط الأجنبي إنما يعتمد على ولاء السكان الإغريق، لذلك حاولوا أغْرقة رعاياهم من خلال إنشاء المدن اليونانية والتأثير على النخبة الاجتماعية بين الشعوب المحلية، وكانت النتيجة المباشرة لهذه الجهود انتشار الإغريق في أرجاء المملكة.

- كانت مهمة السلوقيين أن يهبوا الشرق الاستقرار الاقتصادي والسياسي، وقد أدوا هذه المهمة على الرغم مما انتاب البلاد من ثورات وحروب، فتقدمت الزراعة بفضل إنشاء شبكة من القنوات، واستخدام المحراث لحراثة الأرض، وأقلمة أنواع جديدة من المزروعات اقتبسوها من جيرانهم، واهتموا بالثروة الحيوانية بفعل توفر المراعي، ومارسوا التجارة، وقد شكَّلت عماد اقتصادهم، فتطورت الحركة التجارية ونمت بفعل عوامل عدة. ونمت الصناعة، واشتهرت بعض المدن بصناعاتها المتميزة، مثل اللاذقية، وبلغت الحِرَف درجة عالية من التخصص. وحافظت العبادات التي كان يمارسها الوطنيون على ميزتها الخاصة وحيويتها، فمنح السلوقيون رعاياهم حرية العبادة، واحترموا الآلهة الشرقية، غير أن التناقض بين الحضارتين الشرقية واليونانية ومحاولة السلوقيين فرض الحضارة الأخيرة واستقطاب العناصر الوطنية إليها؛ أوجد سوء تفاهم متبادل أدى إلى اصطدامات مع الشعوب التي حكموها وبخاصة مع اليهود.

- عبَّر اليونانيون، على الصعيد الديني، عن قابلية للاقتباس من الشرق معترفين بعدم شمولية معتقداتهم ولكن بشيء من التحفظ، وسرعان ما قَبِل اليونانيون الآلهة الشرقية ورأوا في جوهرها آلهتهم هم.

- قـدَّم اليونانيـون الفلسفـة للشـرق، وفي المقابل قدَّم لهم الشرق الدين. وكان الانتشار الهلّيني فـي ربـوع الشـرق عـودة الحضـارة اليونانية إلى مواطنهـا الآسيوية القديمة، غير أن مـا وصل إلينا من آثـار فكرية ضئيل جدّاً. وحافظ الشرق من جهته على اللغات واللهجات المحلية. وقد حدَّ تعلـق اليونانيين بحضارتهم المتفوقة الاقتباس من الثقافة الشرقية، وكانت هذه الثقافة أضعف مـن أن تستقطبهم، وعلى النقيض من ذلك فـإن الحضارة اليونانية هي التي استمالت الكثير من الشرقيين.

- سيطر الفـن اليوناني علـى الشرق، ولم تحافظ الفنـون المحلية علـى حيويتها إلا في بعـض الأماكـن، لكـن الفـن اليونانـي خضع لتجديدات أملتها ظاهـرة الميل نحو إحساس جديد، فاقتبس المعاني الروحية من الشرق.

- لـم تستخـدم العمـارة اليونانيـة ما كان منتشراً في ربـوع الشرق من الفنون المعمارية إلا نـادراً محافظـة بذلـك علـى الأساليـب التقليديـة. وهنـاك نزعـة تجديدية فـي الفن المعمـاري تمثَّلت في الأبنيـة المتنوعة المعدَّة للسكن والمجهَّزة بوسائل الراحة، وتميز البيت الهلّيني عن البيت التقليدي.

- قطع فـن التصوير شوطاً كبيـراً، وزُينت فسيفسـاء المعـادن بالموضوعـات الدينيـة المحركة للعواطف، أمـا الهندسة البنائية فلا علاقة لها بالديانة الوثنيـة. وكان للروحانيات أثر عميق في تصميم بعض الزخارف، وتراجع فـن التصويـر على الخـزف في أعقـاب تعدد المصانـع واستخـدام يـد عاملة أقـل مهارة، واحتـاج سبك المعـادن ونقشهـا وتزيينها إلى أيدي تقنية ماهرة.

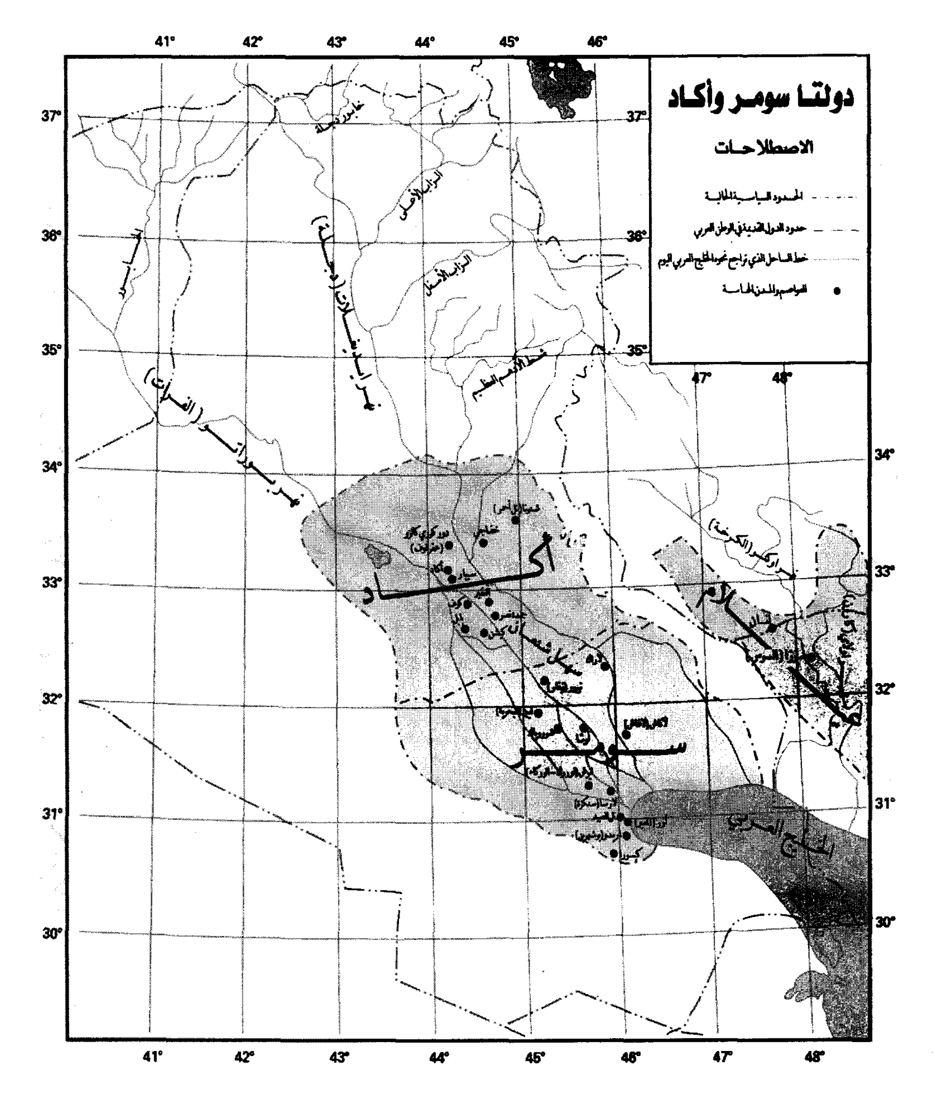
المصادر والمراجع

- إيمـار، أندريه وجانيـن أوبوايه: **الشرق واليونـان القديمة، الجـزء الأول من تاريخ الحضـارات العام**، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس.
- ديورانـت، ويل: **قصـة الحضارة، حيـاة اليونـان، المجلد الثانـي الجزء الثالث**، ترجمـة محمد بدران، القاهرة.
- العابد، مفيد دائق: **سورية في عصر السلوقيين من الإسكندر إلى بومبيوس**، دمشق.
- علي، أحمد علي إسماعيل: **تاريخ بلاد الشام القديم**، الجزء الأول، دمشق.
- Glotz, G. - **Greek City**. London, 1924. **Ancient Greece**. N.Y. 1926.
- Rost Voltzeff, M: **Social and Economic History of the Roman Empire**, Oxford, 1926.



الحضارة السومرية

أ. د. جمال البدري   أ. د. حنان قرقوتي



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع

نشأت الحضارة السومرية بين نهري دجلة والفرات، فيما يعرف ببلاد ما بين النهرين، جنوب شرقي العراق حاليّاً، في مكان يشكِّل موطن الحضارة الأولى المدوَّنة في العالم، والتي بدأت حوالي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد، وازدهرت هذه الحضارة واستمرت حتى حوالي سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد، حيث ذابت بعد ذلك وامتزجت بحضارة بابل وحضارة الأشوريين، كما تدل شظايا الألواح الطينية المدونة بالكتابة المسمارية والتي تعود إلى فترة ظهور الحِثيين.

وبلغ أقصى اتساع للامبراطورية السومرية، قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، على يد القائد «لوجلالمند» ملك مدينة «أدب» (٢٥٢٥ ق.م. ـ ٢٥٠٠ ق.م.)، وامتدت من جبال «طوروس» حتى جبال «زاغروس» (في إيران)، ومن الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط.

أصل السومريين

سكن السومريون في جنوبي العراق، أو بلاد ما بين النهرين، منذ الألف الخامس قبل الميلاد، ولم يُعرف أصلهم على وجه التحديد ولا منحدرهم الجغرافي الأول، وهناك أربع نظريات بشأن ذلك:

الأولى: إنهم من أصول أناضولية جاؤوا إلى شمالي وادي الرافدين في تاريخ مبكر، ثم نزحوا لاحقاً واستقروا في جنوبي العراق القديم المسمى في التوراة أرض شنعار.

الثانية: إنهم من أصول فارسية، بدليل العلاقة والصراع مع سوسة وعيلام خلال تاريخهم، جاؤوا إلى السهل الرسوبي للعراق القديم واستقروا هناك.

الثالثة: إنهم من أصول آسيوية، وسط آسيا، هاجروا منذ الألف الخامس قبل الميلاد واستقروا في جنوبي العراق القديم، وأنشأوا أول حضارة فيه.

الرابعة: إنهم جماعة عراقية محلية ظهرت في شمالي العراق ثم هاجرت إلى جنوبه واستقرت فيه، ولهذا اشتق اسمها من اسم سام بن نوح.

وتشير أغلب الدلائل إلى ترجيح النظرية الرابعة، والسبب في ذلك أن رفاتهم تختلف عن رفات الشعوب السامية النازحة من شبه الجزيرة العربية، والتي استوطنت العراق، إضافة إلى اختلاف لغتهم عن جذور اللغات السامية.

والراجح أن السومريين هم من بقايا قوم نوح، نزلوا في شمالي العراق قرب جبل الجودي، بعد انتهاء الطوفان العظيم واستقروا فيه في بادئ الأمر، لكنهم اضطروا للنزوح إلى منطقة السهل الرسوبي، جنوبي بابل، تحت ضغط الأقوام والجماعات المجاورة لهم، من الشرق جبال زاغروس الإيرانية، ومن الشمال جبال طوروس التركية، وأنشأوا هناك الحضارة الإنسانية الأولى فيما سُمي بفجر الحضارة والتاريخ في الألفية السادسة قبل الميلاد.

ودعاهم علماء الآثار بـ«العُبيدين» نسبة إلى رابية «العُبيد» التي وجدت فيها بقاياهم الثقافية، كما وجدت آثارهم في الطبقات السفلى من الحفريات الأثرية في العديد من التلال التي تحفل بها أرض سومر.

وقد شملت تلك البقايا أدوات حجرية، مثل المجرفة والقدوم والرحى ويد الهاون والسكين، وآلات طينية صنعوا منها المنجل والقرميد والتماثيل الصغيرة وسواها، وجعلوا من الفخار مصنوعات تحمل طابعهم المتميز بالرسوم.

فكان «العبيديون» المزارعين الأُوَل الذين بنوا قرىً ومدناً في البلاد جميعاً، ومعهم عرفت بلاد «سومر» مرحلة الاختراع الآلي وأدركت المؤسسة التجارية ورأت القصور، وانتقل المجتمع السومري من طور البداوة، أو الريفي البسيط، إلى طور صناعي وتجاري وعمراني بإقامة المعابد و«الزقورات (المصاطب المُدَرَّجة)» الشاهقة في عدد من الأماكن.

تأسيس المدن

ظهر اسم سومر في بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد في فترة ظهور الحثيين، لكن بداية تاريخ السومريين الحقيقي كان في الألفية السادسة، كما ذكرنا، عندما استقروا في جنوبي العراق وأنشأوا المدن السومرية الرئيسة، وهي من الشمال إلى الجنوب: «سيبارو» و«كيش» وهي عبارة عن مجموعة تلال شرقي «بابل»، و«أكشاك» وتقع على نهر دجلة، و«لاراك»، و«نيبور» وتقع بالقرب من مدينتي «كيش» و«بابل» واسمها الحالي «نفر»، و«أدب» واسمها الحالي «بسمايا»، و«أوما» وتُعرف اليوم باسم «جوخة»، و«لجش» واسمها الحالي «الحبة»، و«باد - تيبيرا»، و«أوروك» وتقع على بعد ٢٧٠ كم جنوب «بغداد» وذُكرت في التوراة باسم «أرك» واسمها الحالي «الوركاء» أو «الورقاء»، و«لارسا» وتقع على بعد ٢٠ كلم شمالي الفرات واسمها الحالي «سنكَرة»، و«أور»، و«أريدو».

وتميزت هذه المدن بقصورها ومعابدها الفخمة، وبنى «السومريون» حولها أسواراً لحمايتها من الغزاة، واختاروا معابدهم في مكان مرتفع وسط المدن، وكانت تحيط بفناء المعبد ورش النحاسين، والنقاشين، والخبازين، وصانعي الأسلحة، والموظفين والكتَّاب.

نظام الحكم في المدن

نشأت المدن في أرض «سومر» بعد أن أخذ الفلاحون يتجمعون في أسر نافذة تنفرد بالسيطرة على أراضٍ شاسعةٍ وعبيدٍ وما إلى ذلك. ومتى ثَبُتت قوة المدينة وخَضعت لها مدن عدة لُقِّبَ الحاكم بـ«لوكال» أو «الملك»، وكان من مهامه معالجة الطوارئ الحربية والإشراف على النشاط الديني.

وكان رؤساء المدن يسعون إلى الهيمنة بعضهم على بعض والسيطرة على بلاد «سومر» للحصول على لقب «لوكال»، وفي حال عدم تمكنهم من بلوغ هذه الرتبة كان يطلق عليهم لقب «إنزي» أي «وكيل الإله المحلي».

وكان في كل مدينة «حكومة» تتمتع باستقلالها السياسي والإداري في التنظيم والعمران. وكان السكان ينتخبون نخبة منهم تسمى «الجمعية العمومية»، ومهمتها الالتئام عند الضرورة للبحث في المسائل التي تعني أبناء المدينة، كانتقاء كبار الحكام وإعلان الحرب وانتخاب حاكم المدينة.

وكانت كل مدينة من المدن تشكل دولة

مستقلة، وتتألف من المدينة نفسها وما يجاورها من أراضٍ يتولى الأهالي زراعتها.

وفي بعض الأحيان كانت المدينة تجمع إلى نواتها مدينة ثانية أو أكثر مع قرى شتى تلتحق بها، فتتوسط المدينة الرئيسة تلك الجملة.

وكان من الطبيعي في هذا الجو أن تنشأ منازعات بين مدن، وتحالفات بين مدن أخرى، وكانت المدينة الأكثر قوة تستطيع السيطرة على جاراتها.

وفي حال تمت سيطرة مدينة على سائر المدن، كان يُطلق على الحاكم لقب «ملك البلاد»، كما حدث في مراحل تاريخية مختلفة لعدد من المدن كـ «أور»، و«أوروك» و«لجش».

وكثيراً ما كان صراع «المدن السومرية» وتناحرها فيما بينها يؤدي إلى تضعضعها ما يمهد السبيل أمام مدينة أخرى قوية للإطاحة بالمدن الضعيفة، كما حدث حينما استطاعت مدينة «لجش» السيطرة على بلاد «سومر» عندما تمكن حاكمها «إيناتوم» من الانتصار على سائر المدن السومرية وبعض الدول المحيطة.

وعرفت البلاد نظام «الأُسَر الحاكمة»، وهو ابتداء التاريخ الحقيقي الواقعي للسومريين. وابتدأ عهد «الأُسَرِ الحاكمة» السومرية الأولى في مدينة «كيش»، ثم في مدينة «أور»، ثم في مدينة «أوروك (الوركاء)»، وكان من أبرز رؤساء الأسرة الأولى في مدينة «كيش» الملك «إتانا»، كما كان من أبرز رؤساء الأسرة الأولى في مدينة «أوروك (الوركاء)» الملك «جلجامش».. وبلغت أخبار هذين الملِكين عند «السومريين» مبلغ الأساطير، وذلك بسبب أن «الإنسان السومري» لم يستطع أن يتحرر من الأسطورة في تعليل أحداث العالم وهو في تلك المرحلة المبكرة من التاريخ المدوَّن، حيث اعتقد مثلاً أن الملك «جلجامش» هو «فارس العالم القديم بدون منازع».

نبذة تاريخية

شكَّلت المدن السومرية، مع ابتداء التدوين التاريخي فيها، (٣٥٠٠) قبل الميلاد، دويلات صغيرة هي دويلات المدن، وكان من أبرزها مدن: «كيش»، و«لجش»، و«أمّا»، و«أور»، و«أوروك (الوركاء)».

واستطاعت مدينة «الوركاء»، خلال القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد، السيطرة على بلاد «سومر» لفترة وجيزة حتى أخضعهم سرجون الأكادي لسيطرته.

وتمكنت مدينة «أور» قبل سنة (٢١٠٠) قبل الميلاد بفترة وجيزة من السيطرة على بلاد «سومر» أولاً، وبعد ذلك على إقليمي «أشور» و«عيلام» المتجاورَين.

ويعتبر الحاكم السومري الملك «إتانا»، ملك مدينة «كيش»، أول من وَحَّدَ بلاد «سومر» اعتباراً من سنة (٢٨٠٠) قبل الميلاد، وتمكَّن، من بعده، ملك مدينة «أوروك (الوركاء)» «ميسكياجاشر» من السيطرة على المنطقة الممتدة من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى جبال زاغروس. وخلف «ميسكياجاشر» ابنه «إنمركار» سنة (٢٧٥٠) قبل الميلاد، وتمكن من السيطرة على مدينة «أراتا» بشمال شرق بلاد ما بين النهرين.

وفي سنة (٢٧٠٠) قبل الميلاد، تمكن ملك مدينة «كيش» «إنمبارجاسي» من السيطرة على بلاد «سومر» والانتصار على دولة

«عيلام»، وأقام معبداً للإله «إنليل» بمدينة «نيبور» التي أمست المركز الديني والحضاري لبلاد «سومر».

وفي سنة (٢٦٧٠) قبل الميلاد انتهى حكم مدينة «كيش» بعد انهزامها أمام ملك مدينة «أور» «ميزنباد»، الذي اتخذ من مدينة «أور» عاصمة مركزية لبلاد «سومر»، وبعد موته سقطت مدينة «أور» بيد ملك مدينة «أوروك (الوركاء)» «جلجامش»، الذي بسط نفوذه السياسي على المدن، وامتدت فترة حكمه من سنة (٢٧٠٠) إلى سنة (٢٦٥٠) قبل الميلاد.

وقبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، تمكنت مدينة «أدب» السومرية بقيادة «لوجلالمند» (٢٥٢٥ ـ ٢٥٠٠) قبل الميلاد، من السيطرة على رقعة كبيرة من الأرض امتدت من جبال «طوروس» حتى جبال «زاغروس»، ومن الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط.

وعاشت بلاد «سومر» بعد ذلك فترة اضطرابات داخلية حتى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، حينما اجتاحها الملك «سرجون» الأكادي (٢٣٥٠ ـ ٢٢٨٤) قبل الميلاد.

وأثناء حكم حفيد الملك «سرجون»، جاء الحِثِّيُّون من جبال «زاغروس» وتمكنوا من الاستيلاء على «أكاد» وسائر بلاد «سومر» المتبقية.

واستطاع «السومريون»، بعد عدة أجيال، استعادة بلادهم من «الحِثِّيين»، وعملوا على طردهم من البلاد على يد ملك مدينة «أوروك (الوركاء)» «يوتوهيجال» (٢١٢٠ـ٢١١٢) قبل الميلاد. وخلفه في الحكم أحد قواده «أور نامو» بمدينة «أور»، وخلف «أور نامو» في الحكم ابنه شلجي (٢٠٩٥ـ٢٠٤٧) قبل الميلاد، وكان هذا الحاكم قائداً عسكريّاً ومصلحاً اجتماعيّاً، ومن أبرز ما تميَّز به وَضْعُهُ قانوناً قبل قانون حمورابي بثلاثة قرون.

ومع بداية الألفية الثالثة قبل الميلاد، جاء «العيلاميون» من وسط سورية، أي من غربي بلاد «سومر»، واستولوا على أهم مدنها، وأسروا حاكمها وسيطروا على البلاد بشكل كامل. بعد ذلك جاء «حمورابي» ملك «بابل» وتغلب على «العيلاميين» سنة (١٧٦٣) قبل الميلاد، وأصبح الحاكم الوحيد لبلاد «سومر» و«أكاد» بعدما ضمهما لـ«بابل»، وانتشرت الحضارة البابلية بعد ذلك في أرجاء المنطقة.

ويُعتبر عصر ما قبل «سرجون» جوهر «الحضارة السومرية» التي نشأت في العراق، وكان لها تأثير في الحضارات التي تلتها، كالحضارتين «الأكادية البابلية» و«الأشورية» وغيرهما من الحضارات، رغم الاختلاف اللغوي فيما بينها. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن «الحضارة السومرية» خَلَّفَت آلاف الألواح المسمارية باللغة «الأكادية»، ذلك أن الحضارات التي تعاقبت على بلاد ما بين النهرين استعملت «الخط المسماري» على ألواح الطين لتدوين حضاراتها مع تدوينات أخرى، وهو الخط الذي اشتهرت به «الحضارة السومرية» بادئ ذي بدء.

اللغة السومرية

إن اللغة السومرية هي لغة مختلفة عن اللغات المعروفة في بلاد ما بين النهرين، ومن خلال الدراسات الأثرية للُّغَويين تبيَّن

أنها لا تنتسب إلى أيٍّ من اللغات المعروفة، سواءً كانت هذه اللغات «سامية» أو «حامِيَّة» أو حتى «هندية أوروبية»، ولم تتشابه هذه اللغة مع أيٍّ من اللغات الأخرى، كالصينية والتبتية والدرافيدية والمجرية والأفريقية والهندية الأميركية ولغات جزر المحيط الهادي.

وأساس هذا الاختلاف أن اللغة «السومرية» هي لغة ملصقة مقطعية رمزية، وهي بالتالي غير اشتقاقية كاللغات «الساميَّة»، وتُنشَأُ الكلمات فيها بدمج مفردين أو أكثر لتشكيل كلمة واحدة. ومن ذلك على سبيل المثال: كلمة «لوكال» وتعني: «الملك»، فهي تتركب من «لو» بمعنى «رجل»، و«كال» وتدل على «العظيم».

الكتابة

ابتكر «السومريون» نظام الكتابة بالخط المسماري على ألواح صنعوها من الطين، وذلك بعد سنة (٣٢٥٠) قبل الميلاد، وظلت «الكتابة السومرية المسمارية» حوالي (٢٠٠٠) سنة تمثِّل لغة الاتصالات بين دول المنطقة حينها.

وشكَّل «الخط المسماري السومري» أول نظام للكتابة في العالم، وتكوَّن أساساً من مجموعة رموز، ثم تطوَّرت هذه الرموز إلى حروف كتابة مسمارية استُخدمت فيها رموز مكونة من علامات مثلثة الشكل، واستُخدم هذا النوع من الكتابة لتدوين عدة لغات في جنوب غربي آسية.

وتم صنع الرموز عن طريق ضغط آلة حادة الطرف في ألواح من الطين الخزفي المبلل بعصا على شكل الإسفين، وهو الشكل الذي مَنح هذا الخط اسمه، فكان «الخط المسماري». وتتم عملية الكتابة بالحروف المسمارية بـ«القلم الموشوري المثلث» على اللوح الطيني على شكل أعمدة تمتد من اليسار إلى اليمين، ثم من اليمين إلى اليسار على الوجه الثاني من اللوح. وكانت هذه الألواح تُحفظ بعد ذلك لاحتوائها على معلومات عن سياسة الدولة وآدابها واقتصادها وقوانينها ودينها وعلومها.

وقد عُثر في موقع مدينة «نيبور» السومرية على عشرات الألوف من الألواح الطينية التي تعود إلى الحقبة الممتدة ما بين نهاية الألف الثالث قبل الميلاد والقرن الرابع قبل الميلاد، ما يدل على المدى الزمني الطويل لاستخدام «الكتابة المسمارية»، وقد احتوت هذه الألواح على اتفاقيات ونصوص اقتصادية.

المدارس والتعليم

كان من الطبيعي أن يتم تأسيس بعض المدارس لتدريب النّاسخين على الكتابة في ظل انتشار «الكتابة المسمارية»، لذا فقد اهتم «السومريون» بهذا الأمر وأسَّسوا المدارس لتخريج نسَّاخ يقومون بتدوين المعلومات المطلوبة في سجلات خاصة بمكاتب الحكومة والمعابد وبعض المؤسسات الأخرى.

توصف المدارس في التقليد السومري على أنها بيوت الألواح، وقد كشفت البعثة الفرنسية في ماري نموذجاً من بيوت الألواح هذه، حيث كان الطلاب يجلسون على مقاعد من الآجر، كما أن قوائم الكلمات تشير إلى وجود نظام مدرسي في الألف الرابع ق.م.

وشكلت النصوص المدرسية التي وجدت في شورباك، والتي تعود إلى منتصف الألف

الثالث ق.م.، دليلاً مباشراً على ذلك. وقد وجد على نهايات ألواح التمارين أسماء الطلبة وأسماء آبائهم الذين كانوا يعملون في المهن الإدارية والقيادية بشكلٍ أساسي، هذا وكان على الطلبة في البداية تعلُّم ٢٠٠٠ مقطع ـ رمز مسماري، ومن بعض النصوص يمكن تتبع آليات التعليم من قِبَل المدرسين الذين يُسمون آباء أيضاً، حيث نجد بعض الفكاهة كوسيلة لإيصال المعلومات، من مثل قصة: الذئب الذكي والذئاب التسعة الأغبياء، للحثّ على تعليم عملية الجمع بسهولة.

ومن المرجح أن المعارف التي توجب على الطلبة إتقانها هي رسم (تخطيط) المقاطع الكتابية، واللغة السومرية، ما يعني القدرة على الكتابة والقراءة. فقد توجب كتابة القصص التعليمية والحِكم والأناشيد والملاحم المتداولة آنذاك. وكان مدير المدرسة السومرية يدعى (أب) المدرسة؛ والطالب (ابن) المدرسة؛ والمدرس (الأخ الكبير).

وتحتوي الوثائق السومرية على معلومات تدور حول مناهج التعليم؛ وهي معلومات فريدة في تاريخ البشرية؛ حيث أنَّ الوثائق نفسها عبارة عن كراريس الطلاب من أول محاولة للنسخ والكتابة حتى التخرج.

إنَّ منهج المدرسة يشتمل على نوعين من الدراسات هما:

١ ـ **الدراسات العلمية**: الخاصة بتعلُّم اللغة السومرية والرياضيات والنباتات والحيوانات.

٢ ـ **الدراسات الأدبية**: وتدور حول الشعر والأساطير والملاحم والقصص الديني.

قدَّمت الحضارة السومرية أقدم ما هو معروف حتى الآن من علم الاشتغال بالرياضيات، فهم مَنْ طوَّر استخدام النظام الستيني في العدِّ، وأول من أوجد القبة والدائرة، وأول من بنى الصروح الضخمة في أور وأوروك ولكش، كما هو معروف من الزقورات، الأمر الذي يحتاج إلى حسابات هندسية رياضية، ويرى بعض المؤرخين إمكانية أن تكون فكرة الأهرامات المصرية مأخوذة من نظام الزقورات العراقية القديمة؛ التي سبقت بناء الأهرامات بأكثر من ألفي سنة، كما تبين النصوص أنهم عرفوا بعض الكواكب منها كوكب عطارد، إضافة إلى القمر الذي كان أحد معبوداتهم الأساسية؛ ويسمونه: (سين).

وهكذا نجد أنَّ أقدم حضارة باشرت الوجود في الأرض بعد الطوفان العظيم؛ قد تبلورت منذ الألف الخامس قبل الميلاد؛ لتقدِّم للناس الكتابة والعجلة ونظام الحكم؛ في بلد اليوم أخطر ما فيه تهديد أهل العلم والكتابة والحكم؛ بتوقف عجلة الحضارة فيه بسبب الاحتلال الأجنبي؛ كما كان أهل سوسة وعيلام يفعلون دائماً؛ كأن التاريخ ما زال واقفاً منذ زمن الطوفان؛ يرفض الرحيل ولو إلى ألواح بيت الطين.

الزراعة والرّي

كانت الحضارة السومرية في بدايتها حضارة زراعية، وعمل معظم «السومريين» بالزراعة أو تربية الماشية، ودَفَعَ مناخ المنطقة الجاف «السومريين» إلى حفر قنوات لريِّ حقولهم، ويمثل الشعير والقمح والتمور والخضراوات المحاصيل الزراعية الرئيسة، كما ربى مُربُّو الماشية الأبقار والحمير

والأغنام التي استخدموا صوفها في صناعة النسيج.

وُجد في مدينة نفر أقدم تقويم زراعي يتضمن معلومات عن طرق الزراعة والإرواء، التي كان يمارسها سكان العراق القدامى، وصلت إلينا موضحة في تقويم سومري عُثر عليه في خرائب مدينة نيبور؛ ومن الغريب أنَّ الأوصاف التي ينطوي عليها هذا التقويم تدل على أنَّ طرق الري والزراعة، التي كانت تمارس في تلك الأزمان، لا تختلف في شيء عن طرق الري والزراعة التي يطبِّقها الفلاح العراقي في الوقت الحاضر؛ ويشتمل هذا التقويم على نصائح وإرشادات يوجِّهها أحد المزارعين إلى ولده حول طريقة إدارة شؤون مزرعته وطريقة إعداد الأرض وإنجاز عملية الحرث وتنظيم الري في حقله، كي يحصل على أجود منتوج وأوفر محصول. وقد دُوِّنت هذه الوثيقة، التي يرقى تاريخها إلى ما قبل أكثر من ثلاثة آلاف عام، على رقيم من الطين يتكون من ١٠٨ أسطر بالخط المسماري باللغة السومرية، وهي تعدُّ أقدم تقويم معروف في تاريخ الحضارة عن الأساليب الفنية للري والزراعة المتبعة في تلك الأزمنة القديمة، ما يدل على التطور الزراعي في بلاد السومريين والمناطق المجاورة لهم.

ففي مجال الزراعة، لم يدجِّن السومريون أنواع نباتات أو أنواع حيوانات جديدة غير التي كانت معروفة مسبقاً في القرى الزراعية الأولى للهلال الخصيب، إلا أنهم ساهموا في تطوير أساليب الري، والصناعات الغذائية في مجال مشتقات الألبان، لكن اعتماد أساليب الري الصناعي، عبر شقِّ القنوات وغمر الحقول بالمياه، يُعتبر من أهم عوامل تمليح التربة الذي ساهم لاحقاً في ضعف الإنتاج الزراعي والتدهور الاقتصادي-الاجتماعي للعديد من المدن السومرية، وحسب الدراسات الحالية فقد كان السجل الغذائي في سومر يتكوَّن، بشكل أساسي، من منتجات الحبوب والتمور والعسل والسمسم، كذلك تمَّ صيد الأسماك بشكل موسع.

ويعدُّ إختراع العجلة، الذي تمَّ أيضاً لأول مرة في سومر، من الاختراعات التقنية ذات الأهمية البالغة في التاريخ، والتي ارتبطت بتدجين الحيوانات واستخدامها في الحرث والجرِّ في الأعمال الزراعية، والنقل لاحقاً، ثمَّ تطور هذا الاستخدام في الشؤون المدنية للتواصل بين المدن والحضارات؛ وفي الحروب والغزوات... والأهم في تطوير مفهوم العجلة في شؤون الري والسقي. ويعد الكثيرون أنَّ ابتكار العجلة حضاريّاً هو بمستوى معرفة واكتشاف اللغة المحكية بين الناس في أول عهدهم بالحياة القديمة، وشكَّل اختراعها، مع اكتشاف النار، أبرز ما أدركته الإنسانية في تطورها التقني المتواصل.

الصناعة

اهتم «السومريون» بالصناعة، فكانوا حرفيين مهرة، وبرع الكثير منهم في سبك المعادن ونحت الأحجار التي كان جُلُّها مستورداً من الخارج، كما نشأت صناعات عديدة جديدة، كصناعة النسيج والخزف والأسلحة والدروع.

وكشفت أعمال التنقيب عن أوانٍ فخارية، ومجوهرات، وأسلحة، تدل على مهارة «السومريين» في سبك المعادن من النحاس والذهب والفضة.

التجارة

اتسعت تجارة «السومريين» مع سواهم من شعوب آسية الغربية، وكان من أهم ما صدَّروه الأدوات المعدنية، والمنسوجات الصوفية، والبلح، والحبوب، وامتدت تجارتهم من البحر الأبيض المتوسط إلى نهر السند.

واستورد «السومريون» النحاس والحجارة من «عُمان»، والقصدير من «إيران» و«سورية» و«آسية الصغرى»، والفضة والرصاص من جبال «طوروس»، والخشب من الجبال الشمالية الشرقية والتي قد تكون جبال «سورية» الساحلية، والحجارة الكريمة اللازوردية من «باكستان»، وعِرْقَ اللؤلؤ من «الخليج العربي»، والأصداف من «شبه جزيرة الهند».

وكانت «التجارة السومرية» إلى الأقاليم المجاورة تتم بالطريق البري عبر القوافل أو عن الطريق النهري بالزوارق، كما كانت «السفن السومرية» تبحر إلى الأراضي المتاخمة للخليج العربي لجلب العاج والسلع القيِّمة الأخرى.

العلوم

تشير «الألواح المسمارية السومرية»، المكتشفة، خلال الحفريات الأثرية في مواقع مدن «السومريين»، إلى أن «السومريين» برعوا في عدد من العلوم، كالرياضيات والفلك والطب.

وأبرز ما برع فيه «السومريون» عدد من المسائل، منها أنهم:

١ - كانوا أوَّل من أسَّس نظماً تجاريةً ومصرفية.
٢ - عرفوا أنواعاً من الموازين والمكاييل القانونية.
٣ - استخدموا عقوداً مكتوبة بأشكال مختلفة.
٤ - كانوا أول من سنَّ قانوناً مدنيّاً مكتوباً.
٥ - عرفوا الطريقة الستينية في العدِّ، والتي لا تزال مستعملة في تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة، والساعة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى ٦٠ ثانية، وفي تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة.
٦ - أول من بنى الصروح الضخمة في «أور»، و«أوروك (الوركاء)»، و«كيش»، كما هو معروف من بناء «الزقُّورات (مصاطب مُدَرَّجَة)» والتي يحتاج بناؤها إلى حسابات هندسية ورياضية.
٧ - عرفوا بعض الكواكب، ومنها كوكب «عطارد».
٨ - برعوا في سبك المعادن، كالذهب والفضة والنحاس.
٩ - بنوا العقود والأقواس والقباب الأولى في تاريخ البشرية، وكانوا أول من أوْجَدَ «القُبَّة».
١٠ - سَمَوا في التنظيمات العسكرية وأبدعوا في استحداث أدوات الحرب.

الديانة

إنَّ أهل بلاد ما بين النهرين اعتقدوا أنَّ العالَم كان عبارة عن قرص مسطح، ويحيط به فضاء ضخم ومثقوب، وفوق كلِّ ذلك الجنَّة. كما اعتقدوا أنَّ الماء كان في كلِّ مكان، أعلى، أسفل وعلى الجانبين، وأنَّ الكون وُلد من هذا البحر الهائل، بالإضافة إلى ذلك، كانت ديانة بلاد ما بين النهرين تقوم على تعدد الآلهة.

إنَّ الكلمة السومرية لوصف الكون هي آنكي، التي تشير إلى الإله: أن، والإلهة: كي وابنهما هو إنليل، إله الهواء؛ وكانوا يعتقدون أن الإله إنليل هو الإله الأقوى بين الآلهة. ورغم ذلك كانت لهم عدة آلهة، من أهمها:

- أنو: إله السماء السومري. كان متزوجاً من كي، ولكن في بعض أديان بلاد ما بين النهرين الأخرى كانت له زوجة تسمى أوراس. على الرغم من أنه كان يعتبر الإله لكنه سمح لإنليل المطالبة بالمنصب من دونه.

- إنليل: في البداية، كان الإله الأقوى في ديانة ما بين النهرين، وكانت زوجته نينليل، وأطفاله هم: أشكور، صوين، نرجال نيسابا، نامتار، نينورتا، بابيلساج، نوشو، ابيلولو، أوراس زابابا وإينوجي. موقعه في صدارة مجمع الآلهة لكنه اغتصب، في وقت لاحق، من قِبَل مردوخ ومن ثمَّ من قِبل آشور لاحقاً؛ تبعاً للغلبة السياسية والعسكرية.

- إنكي (ايا) إله أريدو؛ وكان إله المطر.

- غولا أو أوتو (في السومرية)، وشماش (في الأكادية) هو إله الشمس وإله العدالة؛ كما هو في مسلة حمورابي الموجودة اليوم في متحف اللوفر بباريس.

كان لكل مدينة من بلاد «سومر» إله يحميها وإلى جانبه قرينته، وكانت المعابد المكانة الأولى قبل القصور، وهي عبارة عن مجموعة واسعة من الأبنية تشرف على «الزقُّورة (مصاطب مُدَرَّجة)»، وكانت هذه المعابد المركز الاقتصادي لكل إمارة، وكان الأمراء هم الكهنة وممثلي الإله على الأرض.

وأُنشئت المعابد في المدن السومرية على أسطح عالية؛ وكان المؤمنون يمثَّلون فيها بتماثيل حجرية متخذة وضع الصلاة.

وعُثر في «تل الأحيمر»، أحد تلال مدينة «كيش»، على معبد وزقُّورة مُخَصَّصَيْن للإله «زبابا». وكان لمدينة «لاراك» الإله «أندر بيلهورساج»، ولمدينة «نيبور» الإله «إنليل»، وكان معبد هذا الإله مشيداً بجانب الزقُّورة تتقدمه فسحة مربعة تتصل به عن طريق بوابة عظيمة ومحاطاً بالأسوار. وكان لمدينة «أور» إله القمر «نانار» وزوجته «نينجال»، وكان معبد «نانار» قد شُيِّد فوق الزقُّورة التي ترتفع عشرين متراً عن سطح الأرض، وطول قاعدتها ٦٢ متراً وعرضها ٤٣ متراً.

وفي «أريدو» شُيدت المعابد على مصاطب من «اللَّبِن (حجارة طينية)»، وهي تعتبر أصل المعابد العالية «الزقُّورات»، التي أتت من تَجَمُّعِ ركام الأبنية القديمة، وكانت مجموعة الدرجات تشكل المدخل إلى الباب على الجانب الطويل من البناء.

ويتكون بناء المعبد، ذو الشكل الهرمي، من غرفة مركزية طولها أكثر من عشرة أمتار، ولها منصَّة جانبية واسعة وطاولة للقرابين في الجانب الآخر، وقد أحاطت بجانبيها الكبيرين غرف أصغر حجماً، ولها أدراج تتيح الصعود للطابق العلوي أو السطح، وكان الكهنة والصنَّاع والخدم يعملون في هذه الغرف. وكان القسم المركزي من المعبد أكثر ارتفاعاً من الغرف ذات الطابقين، وتتوفر له الإنارة بواسطة نوافذ مستطيلة الشكل.

وفي المعبد مشكاة يرتفع فيها تمثال الإله وقد امتدت أمامه منصة من القرميد لتقديم القربان. وفي المعبد أيضاً حجرة الهيكل التي

كانت تُحَلّى بألواح الذهب والرخام وقطع من الحجارة الكريمة. وكان المعبد يتحول إلى حصن في أيام الحرب.

وكانت الواجهات الخارجية للبناء مزينة متقنة التصميم، وفجوات ما زالت تُعتبر أمراً مميزاً لكل الأبنية المقدسة في بلاد ما بين النهرين. استعمل السومريون في البناء الطوب المشوي أو العادي ولم يستعملوا الحجر إلا للنقش.

وكانت الزقُّورات عبارة عن مصاطب ضخمة يرتفع بعضها فوق بعض، وتصغر بمقدار علوها؛ وفي أعلاها كان هيكل الإله، وفيه سرير ومائدة ولا يسكنه أحد، وكانت تزوره في كل ليلة حسناء لتبيت مع الإله. وقد تألفت الزقُّورة من خمس أو سبع طبقات، فكانت في نظر «السومريين» تربط الأرض بالسماء، وحاكم المدينة بحاكم السماء، وكانت مراصدَ لدراسة أحوال الكواكب.

طبقات الناس

ظهر المجتمع الطبقي في بلاد «سومر»، وشمل:

١ ـ **طبقة الكهنة:** هم الذين يديرون أملاك المعبد الشاسعة من الأراضي التي يشرف عليها الحاكم، إضافة إلى إدارتهم وإشرافهم على السجلات لسيدهم الغيور، ولزملائهم في الجمعية العمومية.

٢ ـ **طبقة الحرفيين:** هم العاملون في المعبد أو في ورشات صغيرة، وصغار مالكي الأرض.

٣ ـ **طبقة المأجورين:** هم الذين لم يكونوا يملكون شيئاً من الأراضي.

٤ ـ **طبقة العبيد:** هم الذين يعملون في خدمة المعبد، وكانوا يعملون حمَّالين، أو بستانيين في مزرعة المعبد ذات الأراضي الشاسعة، ومنهم مَنْ خدم في المطبخ، وفي صنع الجِعَة (البيرة)، وفي الغزل والحياكة. وقد حُرمت طبقة العبيد من الاشتراك في توزيع الأراضي، ولكنها نالت شيئاً من التعيينات التي لم تكن تُعتبر أجراً على الإطلاق، وإنما قُصد منها المحافظة على قوة العبد البدنية وحدها.

المدافن

دفن «السومريون» موتاهم بباطن الأرض، وكان لهم اهتمام كبير بدفن ملوكهم وحكامهم، وكانت تُدفن مع الملوك أوانٍ ذهبيةٌ وحُلِيٌّ وأدوات للزِّينة وأسلحة، كما ظهر في مقابر الملوك في «أور»، حيث عُثر في القسم الجنوبي الغربي لحرم المعبد على المقبرة الملكية التي تحتوي على قرابة الألفي مدفن، وبُنيت على مدى قرون متعددة، وكان ستة عشر مدفناً منها مبنياً بالحجر والقرميد، وتحتوي على أثاثٍ رائع بفخامته مُؤَلَّف من أوانٍ ذهبية وفضية وقيثارات. ويقع في الشرق من المقبرة، مدفن مَلِكين من السلالة الثالثة هما «شولجي» و«برسين»، وقد سُرقت محتويات قبر هذا الملك الأخير منذ العصور القديمة.

وكانت بعض المقابر تُقام بجوار قصر الحاكم، وقد عُثر في إحدى تلال «كيش» على بقايا قصر سومري في أطلاله مقبرة تعود إلى ما قبل العصر «السرجوني»، تضم مئة وأربعة وخمسين قبراً تحتوي على آنية فخارية ودمى تعود إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد.

الفن

مرَّ «الفن السومري» بثلاث مراحل مختلفة:

المرحلة الأولى: هي مرحلة تمتد من الألف الخامس قبل الميلاد إلى حوالي سنة (٢٨٠٠) قبل الميلاد.

المرحلة الثانية: هي مرحلة السلالات القديمة لـ «الباتيسيين» الأُوَل، وتمتد من سنة (٢٨٠٠) إلى سنة (٢٥٠٠) قبل الميلاد.

المرحلة الثالثة: هي المرحلة «السومرية» الجديدة الممتدة من سنة (٢٣٠٠) إلى سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد.

وظهرت في «أريدو» أوَّلُ السلع الخزفية، وكانت تُصنع باليد وتُزخرف برسوم هندسية بلون بني على خلفيَّة سكرية، وهي شبيهة بالخزف الذي وُجد في «سامراء» و«تل حلف» و«الأربجية» وبلاد ما بين النهرين الشمالية، وقد تطوَّرت أشكال الخزف وتعددت في زمن «العُبيديين» بينما ظلَّت الزخرفة الهندسية موجودة.

وقد عرف «السومريون» كذلك فنَّ تنزيل قطع من «العَظم» أو «العاج» في ألواح من «القار».

وفي مجال «النحت»، فقد عَرف «النحاتون السومريون» بعض الطرق واستعملوها واقتبسوها في صنع المرافق والأكتاف البارزة من تماثيل الآلهات الأفاعي، وربما وُرِثَ الأنف الأعقف من الإنسان الطائر لعصر ما قبل التاريخ، أي التخطيط الحاد كما هو ظاهر في الطيور التي صُنعت على شكل سلالم «الزقُّورة»، وفوق كل ذلك العيون الكبيرة المحدقة للآلهة والآلهات، ووُجدت تماثيل عُثر عليها في «تل أسمر» و«خفاجي».

وعمل «النحاتون السومريون» بنحت الأحجار، وكذلك حفر الفنانون الأوائل، الذين صنعوا قيثارات «أور»، أشكالاً حيوانية، وكذلك تمَّ نحت التماثيل الخشبية التي كانوا يغلِّفونها برقائق من المعدن، وقد عُثر في التنقيبات الأثرية في بلاد «سومر» على تماثيل بدائية مصنوعة من الخزف، وعُثر على رأس امرأة من المرمر في «أوروك (الوركاء)» يشهد بحُسن الصنعة، وعلى نقوش بارزة.

وعُثر في التنقيبات الأثرية أيضاً على أختام أسطوانية، أظهر صانعوها مهارة لم يصل إليها قط نحاتو التماثيل والرسوم البارزة، وتكشف مواضيع هذه الأختام عن الحياة الدينية للعصور العائدة لها.

المصادر والمراجع

- أوتس، ج.: **قواعد اللغة السومرية.**
- بارو، أندري: **سومر، فنونها وحضارتها**، ترجمة وتعليق د. عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد ـ العراق، ١٩٧٩م.
- سكر، د. عزمي: **السومريون في التاريخ**، مع ترجمة كتاب **الحضارة السومرية**، للمؤرخ جاك بيرين، عالم الكتب، ط ١، بيروت ـ لبنان، ١٤١٩هـ. /١٩٩٩م.

- سوسة، أحمد: **حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور**، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ١٩٧٩.
- عبودي، هنري س.: **معجم الحضارات السامية**، جروس برس، ط٢، طرابلس ـ لبنان، ١٤١١هـ./١٩٩١م.
- عطا، بشار: **سومر**، جامعة بغداد، بغداد ـ العراق، ل. ت.
- عوف، أحمد محمد: **موسوعة حضارة العالم**.
- غربال، محمد شفيق: **الموسوعة العربية الميسرة**.
- كلنغل، هورست: **حمورابي ملك بابل وعصره**، ترجمة دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٦.
- **الموسوعة العربية العالمية**، موسوعة أعمال الموسوعة، ط ٢، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ. /١٩٩٩م.
- ميلارت، جيمس: **أقدم الحضارات في الشرق الأدنى**، ترجمة محمد طلب، دار دمشق، ط ١، دمشق ـ سورية، ١٩٩٠م.

الحضارة السيكلادية[1]

أ. د. محمد سهيل طقوش

---

(١) أنظر الحضارة الإيجية.

ظهرت في عصر البرونز المبكر، حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م، في بعض جزر الأرخبيل في بحر إيجة حضارة عُرفت باسم الحضارة السيكلادية، نسبة إلى جزر الأرخبيل الملتفة حول ديلوس على شكل دائرة، وهي تتباين في خصائصها، فقد اتخذت في الجزر الشمالية: بيروس، سيفنوس وأندروس، طابعاً مختلفاً عن الطابع الذي اتخذته في الجزر الجنوبية: ميلوس، أمورغوس وباروس، وجمعت في ناكسوس بين الطابعين. وأول ما صنع سكان هذه الجزر أواني فخارية مزينة بخطوط محفورة تحمل طابعاً أناضوليّاً، تحولت بعد ذلك، في عصر البرونز الأوسط، إلى زخرفة هندسية ملونة، يتبين ذلك من أشكال الآنية مثل وعاء الحساء والإبريق ذي الصنبور المستقيم. والمعروف أن الزخرفة الحلزونية ظهرت لأول مرة في فخار سيروس ما يشير إلى علاقات مع منطقة نهر الدانوب. وكانت هذه الزخرفة مجهولة في كريت حتى المرحلة المينوية . المبكرة.

واستعمل الفنان في جزائر السيكلايد الحجر الزجاجي الأسود المتوفر في فيلاكوبي بجزيرة ميلوس، والرخام الأبيض المتوفر في باروس وأمورغوس، فصنع منه تماثيل صغيرة للربة الكبرى، وهي أصنام على شكل الكمان مبسَّطة إلى درجة السذاجة، وكانت تُدفن مع الميت، وتبدو رؤوسها طويلة ومفرطحة. كما صنع الفنان تماثيل صغيرة لموسيقيين عُثر على بعضها في كيوس، إحدى مدن أمورغوس يظهر فيها عازف الناي واقفاً وعازف القيثارة جالساً.

ويتبين شغف الفنان في جزر الأرخبيل بالأشكال الآدمية من خلال زخارف الأواني الفخارية، وهي محفورة أو مطلية بألوان مع نزعة إلى الأسلوب الهندسي، ويرسم جسم الإنسان في شكل مثلثين متقابلين عند الرأس.

انتشرت الحضارة السيكلادية في شرقي البحر الأبيض المتوسط وبخاصة في طروادة ولسبوس، وهي حضارة ملاّحين يعيشون على التجارة وأحياناً على القرصنة، وهم مولعون بتصوير مراكبهم ذات المقدمات المرتفعة والتي تسير بالمجاذيف وتوجهها دفَّة موضوعة في منتصف المركب.

لم تُعمِّر الحضارة السيكلادية مدة طويلة، وفقدت شخصيتها منذ عصر البرونز الأول واندمجت في الحضارة الطروادية والمينوية بدليل أنه عُثر على أدوات وأسلحة وأواني فخارية مشابهة لآثار العصور التي مرَّت بها الحضارة المينوية.

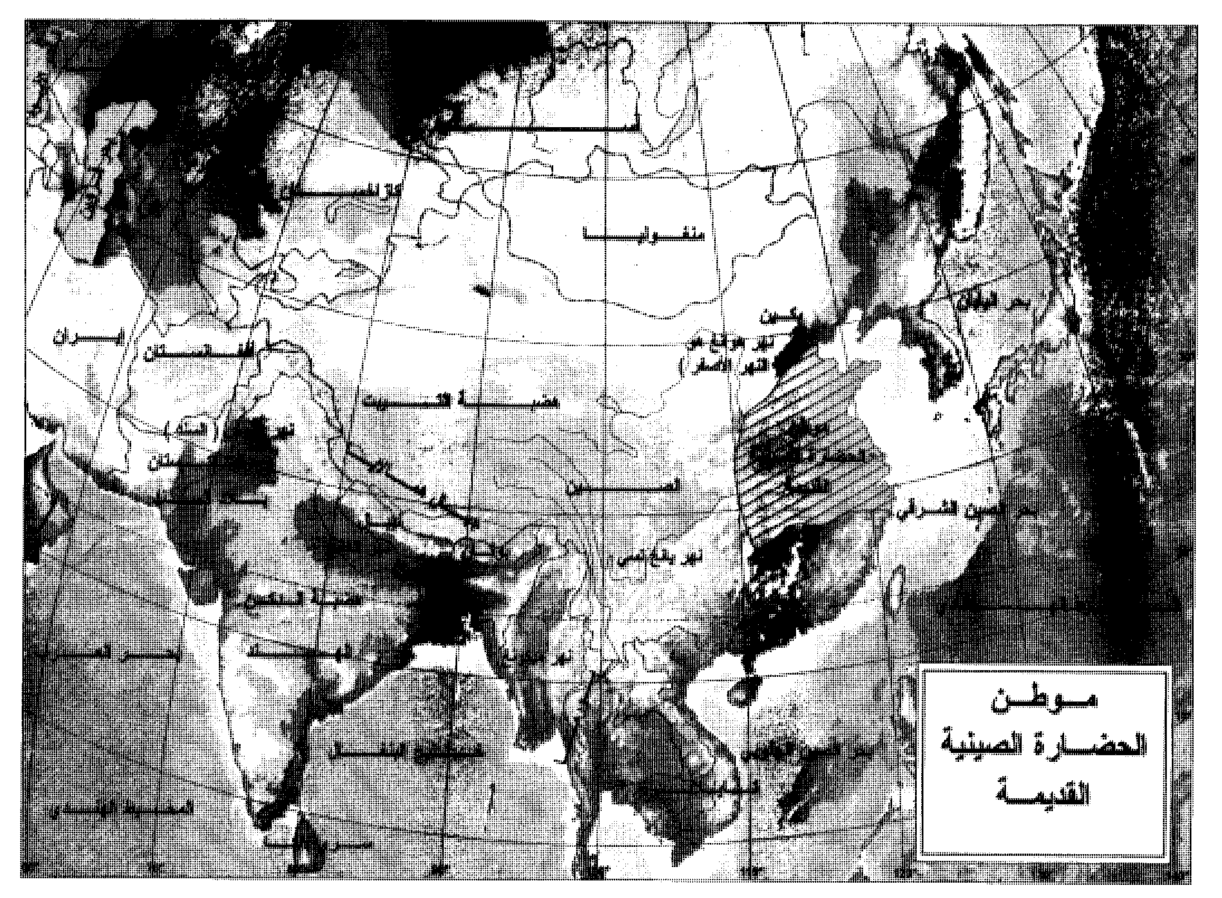
والواقع أنه ما وافى القرن السابع عشر قبل الميلاد حتى خضعت جزائر السيكلايد في نظمها السياسية وفي فنونها، بل خضع بعضها في لغته وكتابته، لسيطرة الكريتيين، وعندما حلَّ الطور الأخير من أطوار الحضارة الكريتية (١٤٠٠ ـ ١٢٠٠ ق.م) انقطع ما تستورده جزائر السيكلايد من كريت، وولَّت وجهها شطر ميسيني تستورد منها فخارها وأساليبها.

المصادر والمراجع

- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة** المجلد الثاني الجزء الأول، **حياة اليونان**، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة.
- علي، عبداللطيف أحمد: **التاريخ اليوناني**، الجزء الثاني، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م.
- Homer: - **Iliad**. Trans. by W.C. Bryant. Boston 1898.
  - **Iliad Text**. Trans. by A.T. Murray- Loeb, Library.
- Keller, A.G.: **Homeric Society**, N.Y, 1902.

الحضارة الصينية

أ. د. أسعد السحمراني



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الجغرافيا والموقع

تمتد الصين على مساحة كبيرة تعادل قارة، فمساحتها هي ٨٢١ ٦٤٠ ٩ كلم مربع، وهذه المساحة جعلت لها حدوداً مشتركة مع أربع عشرة دولة هي: أفغانستان، وبوتان، وميانمار، والهند، وكازاخستان، وقرغيزستان، ولاوس، ومنغوليا، والنيبال، وكوريا الشمالية، وباكستان، وروسيا، وطاجيكستان، وفييتنام.

الصين في أقصى الشرق، وبسبب تضاريسها المتنوعة التي لا تسمح بالتواصل بيُسر بين مناطقها ولا مع محيطها، عاشت الصين حالة عزلة بخلاف أمم وشعوب كثيرة، لذلك أطلقوا عليها أسماء تشي بهذه الفرادة في العزلة، فهي عندهم: تيان-هوا: تحت السماء، أو زهاي: بين البحار الأربعة، أو تشونفكوو: مملكة الوسط، أو تشونغ-هوا-كوو: الدول الوسطى الزاهرة.

الصين بلد شرق آسيوي، تقع على الساحل الغربي من المحيط الهادي، ولها حدود بحرية أو شواطئ طويلة تبلغ ثمانية عشر ألف كيلومتر، أما حدودها البرية مع الأربع عشرة دولة التي تحيط بها فهي ٢٢٨٠٠ كيلومتر.

ينضمُّ إلى البر الصيني قسم بحري يتوزع في ٥٤٠٠ جزيرة أكبرها تايوان التي تبلغ مساحتها ٣٦ ألف كلم مربع، وجزيرة هاينان ومساحتها ٣٤ ألف كلم مربع. وتحاذي القسم الشرقي من تايوان من جهة الشمال جزيرتا تشيوي ودياويوي. وهناك عدد كبير من الجزر تنتشر في بحر الصين الجنوبي منها: جزر دونغشا، وجزر شيشا، وجزر تشونغا، وجزر نانشا. لكن العامل الجغرافي الفاعل في الحضارات عموماً، ومنها الصين، هذا العامل هو توافر المياه، لأن الإنسان تمركز حول منابع المياه ومجاري الأنهار بوصفها حاجة ضرورية للإنسان من أجل حياة مستقرة ومعه سائر الكائنات الحية.

النهران الأبرز في الصين هما: هوانج-هو: النهر الأصفر، ونهر اليانجتسي. النهر الأصفر يستقبل روافد نهرية هي: چهن Chhin، ولو Lo، ووى Wei، ويخترق القسم الشمالي من الصين، وقد شكل حالة من التحدي للسكان تفوق حالة أي نهر آخر، فالمنطقة تنتقل من أقصى البرودة في الشتاء إلى أقصى الحرارة في الصيف، ومجرى النهر يتبدل مع الفيضانات التي تجتاح كل شيء في طريقها، وبذلك يكون التعامل مع النهر الأصفر بحاجة إلى حالة من الحذر والإبداع في أساليب استثمار مياهه ومخلفاته، وهذا ما أتقنه قدامى الصينيين.

وأما نهر يانج-دزه: اليانجتسي، فإنه يمثل عطاءً مهماً حيث يمتد طوله، وهو يخترق جنوبي الصين، ثلاثة آلاف ميل، وعرضه الأقصى عند مدينة شنغهاي (أكبر مدن الصين اليوم) ثلاثة أميال.

ويلفت أرنولد توينبي إلى موقع النهر الأصفر في حضارة الصين بالقياس مع نهر اليانجتسي فيقول: «يبدو أنه عندما سيطر الإنسان للمرة الأولى على الفوضى المائية للوادي الأدنى النهر الأصفر (هوانج هو)، لم يكن النهر صالحاً للملاحة في أي فصل، إذ كان خلال الشتاء متجمداً أو غاصّاً بالثلج

العائم. وكان ذوبان الثلوج في الربيع يُحدث فيضانات مدمِّرة تغيِّر باستمرار خط سير النهر عن طريق نحت مسالك جديدة له، بينما تستحيل المسالك القديمة إلى مستنقعات تغطيها الأدغال، بل إنه اليوم، بعد انقضاء ثلاثة أو أربعة آلاف سنة من الجهد البشري لتصريف المستنقعات وحصر النهر في نطاق جسور، لم يتأتَّ بعد التخلص من فعل الفيضانات المدمرة. أما اليانجتسي، من الجهة الأخرى، فلا بد وأنه كان صالحاً للملاحة في جميع الفصول، وفيضاناته أقل تكراراً من فيضانات النهر الأصفر، وإن اتخذت في الفينة بعد الأخرى طابعاً مدمِّراً، كما أن فصول الشتاء في وادي اليانجتسي أقل عنفاً».

ورغماً عن ذلك، انبعثت الحضارة الصينية على النهر الأصفر، لا على اليانجتسي.

وإذا كانت جغرافية الصين تتشطر بالنهرين الأصفر واليانجتسي، إلا أنها تتوزع بين أراضٍ خصبة وسهول، وصحارٍ شاسعة، وجبال، لكن الأنهار وروافدها تشكل الأساس لجغرافية الصين.

تاريخ الصين القديم: محطات رئيسة

لا يزال من العسير الإجابة على سؤال هو: من أين جاء الصينيون؟ أو إلى أي جنس ينتسبون؟ أو متى بدأ مسار الصين الحضاري القديم؟ لكن بعض المصادر، بالاستناد إلى حفريات وبقايا لعظام بشر، تفيد أن أول مَن سكن هذه البلاد، منذ حوالي ٤٠٠ ألف سنة قبل الميلاد، إنسان بكين (سينانثروبس بكينينس)، وهناك شواهد أخرى تؤكد وجود سكان عاشوا في الصين في العصر الحجري المتأخر، حوالى سنة ١٢ ألف قبل الميلاد.

ما تختص به الصين هو التدوين المحايد، وشبه الدقيق، ووثائقه قديمة نسبيّاً، وهذا التاريخ المدون يعود إلى العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد.

أما الكثافة السكانية في أرض الصين، والحضارة التي تركت آثارها، فإنها كانت مع العام ٢٥٠٠ ق.م، حيث برزت مئات بل آلاف القرى والتجمعات السكانية في اجتماعات تعتمد الرعي والزراعة. وبدأت هذه التجمعات تندمج حتى كانت في ٥٥ ولاية، شغلت الإقليم المعروف حاليّاً باسم إقليم هونان. هذه الحِقبة عُرفت باسم: حضارة يانجشاو Yangshao، وأبرز هذه الولايات هي: هونان، وشانسي، وشَنْسي، وشانتونج، وكانسو، وتشين، وهذه الأخيرة أخضعت لسلطتها سائر الولايات الصينية، وأسَّست امبراطورية موحَّدة أعطت للصين اسمها وانطلقت معها شخصيتها، وقد قاد هذه الحركة الحاكم هوان، والفضل في نجاح خطواته يعود لمستشاره ووزيره الأول چون چونج، حيث وُضعت في عهده أسس حكومة مستقرة تقوم على نظام إداري محكم رافقته حركة ثقافية وحركة حضارية باهرة.

يكفي أن يعرف المرء ما قاله كنفوشيوس (٥٥١ـ٤٧٩ ق.م) عن هذه الحقبة ليدرك أهمية چوان چونج في تاريخ حضارة الصين القديمة. قال كنفوشيوس: «إن الناس لا يزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التي أسبغها عليهم، ولولا چوان چونج لظللنا حتى

اليوم ذوي شعر أشعث، ولظلت ملابسنا تُزرَّر جهة الشمال».

وأبـرز ملامـح هـذا العهـد هـو وضـع التشريعـات والقوانيـن، وكانـت، لأول مـرة، حالة من النزاع بيـن العادات والتقاليد وبين القوانيـن ومشـروع الدولـة الـذي لـم يعتده الناس من قبل.

الأسرة التي تولت الحكـم والسيطرة بعد ذلـك هي أسـرة شـانگ أو شانـج، التي دام حكمها مـن ١٦٠٠ ق.م إلى العام ١٠٤٦ ق.م. وتذكـر بعض المصـادر أنه بين عهـد أُسرة يانجشاو وأسـرة شانج قامت حركة حضارية صينية عُرفـت بحضـارة لونج ـ شـان، وكان لهـذه الحضـارة إنجـازات فـي البنـاء والصناعات الخزفية.

لم تـدم حضارة لونج ـ شـان، ودال الأمر بعدهـا لأسـرة شانـج التـي دلَّـت التنقيبات والحفريات المعاصرة علـى إنجازاتها، حيث اكتُشفت آثار في عاصمة هذه الأسرة «أنيانج» التي تقع حاليّاً في هونان. وقد أنجزت أسرة شانـج فـي الحضـارة الكثيـر، لكـن السِّمـة البـارزة كانـت العرافة والتنبـؤات المزعومة التي كانـوا يكتبونهـا على عظـام الكتف من الحيوانـات اللبونـة، أو دُرق السلاحف، وقد وجـد علمـاء الآثـار المعاصرون بعـض هذه الوثائق المكتوبة على العظام.

ثمَّ جاء الدور إلى أسرة چوو التي استلمت السلطـة، وقـد دامـت ولايتها لمرحلـة طويلة نسبيّاً، من سنة ١٠٢٧ ق.م إلى سنة ٢٥٦ ق.م.

أُسْـرة چـوو كانت مـن الرعـاة ولم تكن تمتلـك قـدرات حضاريـة كمـا الحـال مـع سابقتهـا أسـرة شانج، لكنهـم استفادوا من النظـم القائمـة، ومـن العلـوم والصناعات الموجودة، لكن في بدايات القرن الثامن قبل الميلاد بـدأ الضعف يدبُّ في أوصال الدولة، وقد شهدت الصين حالة من عدم الاستقرار دامت ما يربو على خمسة قرون.

قُتِل الامبراطور لو Lu في العام ٧٧١ ق.م، واضطـر خلفـه، أمـام الضغـط العسكـري للبرابرة المتحالفين مع حكام إحدى الولايات الصغيـرة الذيـن قتلو لو، أن ينقـل العاصمة من موقعها قـرب سيان، إلـى «لويانج» لجهة الشرق، وقد بـدأ مع هذا التاريـخ تنازع بين ولايـات استقلـت بالحكـم وصل عددهـا إلى خمس وعشرين ولاية لم يكن لها مع العاصمة «لويانج» سوى ارتباط شكلي.

هـذا الواقع السياسـي الفوضوي لم يمنع من بـروز ولاية لها إنجازات فـي إنتاج الملح والحديـد وتصنيعـه وسواهمـا، هـي ولايـة «چهى» فـي شانتونـج، وكذلك ظهـرت أدوار لولايات سونج، وچن وچهن وچهو.

واشتهـرت فـي هـذه الحقبـة المـدارس الفلسفية، وظهـر كنفوشيوس، كمـا انتشرت مراكز العلوم وأشهرها أكاديمية چى ـ هْسِيا، في ولاية چهى، التـي أسسها الحاكم هْسوان عام ٣١٨ ق.م.

ومع التطور الفلسفي والعلمي والاقتصادي برز دور لولاية چهن التي قوي نفوذها، وبدأت عملية غـزو لسائـر الولايـات حتـى دان لها معظـم الحـكام، وتوحَّـدت الصيـن مجدداً حوالي العام ٢٢٢ ق.م مـع الامبراطور چينج Chêng الـذي اتخذ لنفسه لقـب «چهن شيه هوانج تى» ومعناه بالعربية: الامبراطور الأول للصين الموحدة.

في عهد أسرة جهن، تمَّ تطوير المرافق العامة والبنى التحتية، وفي هذا العهد تمَّ بناء سور الصين العظيم، وهو فاصل بين السهوب وبين الأراضي الزراعية، والغرض منه حماية الصين من الغزو والغارات التي يقوم بها البدو أو البرابرة من جهة الشمال، وفي الوقت عينه أرادوا السور لوقف نزوح سكان الصين نحو الشمال، وبالتالي تحقيق الاستقرار.

لم يتمكن وريث چينج، ابنه، من الحفاظ على الامبراطورية، فانقضَّ عليه القائد العسكري ليوبانج واستلم السلطة منه عام ٢٠٢ ق.م، واتخذ لنفسه اسم: «هان كاوتسو»، ومعه بدأ عهد أسرة «هان» الذي استمر أربعة قرون. لقد جعل ليوبانج عاصمته في «چهانج ـ إن» وهي «سيان» حاليّاً، وفي عهده استلم الشأن أتباع الكنفوشية، وعرفت بذلك، هذه الفلسفة التي باتت ديانة وثقافة، طريقها إلى الشخصية القومية الصينية، ولا تزال أساساً في الشخصية الصينية إلى يومنا هذا.

أسرة هان التي يشكل منتسبوها اليوم ٩١,٦ بالمئة من مجموع سكان الصين، دامت سلطتها من سنة ٢٠٦ ق.م إلى سنة ٢٢٠م. وقد تميز فيها عهد الامبراطور ووتي Wu Ti (١٤٠ ق.م.ـ ٨٧ ق.م) وكانوا يسمونه: امبراطور الهان العظيم. فقد أمَّن استقراراً داخل الدولة مع إدارة حكومية ناجحة، وتطلع إلى علاقات مع الخارج، وأوفد لهذه الغاية المبعوثين، وقد عرف عهده نهضة علمية في مختلف الميادين.

مع السنوات الأولى بعد الميلاد (٩ ـ ٢٣م) بدأت أسرة هان تعاني من خلال استيلاء الوصي على العرش «وانج مانج» على السلطة، ورغم أن عهده عرف بعض مظاهر التطور الحضاري إلا أن بعض أفراد فئة حكام أسرة الهان اغتالوه، واستلم السلطة «ليوهْسِيو»، ابن عم الامبراطور السابق، وأنشأ حكم أسرة هان المتأخرة عام ٢٥م.

وامتد نفوذ أسرة هان إلى تخوم بحر قزوين خلال عهد بان چهاو، وذلك عام ٨٠م، ونشطت بعدها الاتصالات مع المحيط، وعرفت الصين حالة من الازدهار إلى أن بدأت النزاعات بين أهل القصر على السلطة بدءاً من العام ١٨٤م، وبعد عام ٢٢٠م انقسمت الصين إلى ثلاث ولايات أو ممالك هي: ويى Wei، ووو Wu، وشو Shu وبقيت حالة الانقسام هذه ٦٠ عاماً تلتها حالة انقسام إلى مملكتين: شمالية وجنوبية، دامت ٢٧٠ عاماً.

هذه أبرز محطات تاريخ الصين القديمة التي عرفت حالات من الازدهار والتقدم الحضاري جعلت حضارة الصين القديمة بين أبرز الحضارات، وإن كانت مدة حكم أسرة الهان هي أكثر المراحل إشراقاً في الفلسفة والعلوم والصناعات، هذا مع بروز دور مهم للكنفوشية التي شكَّلت منذ ذلك العهد (٢٠٦ ق.م) المصدر الرئيس للشخصية الثقافية الصينية.

الصين والعلاقات مع الجوار

إن الصين الواسعة الأرجاء، والموزَّعة على مواقع جغرافية تتراوح بين الثلوج ورمال الصحراء، وبين الجبال وسهول فسيحة، وبين ضفاف الأنهار والشواطئ البحرية،

كانت تعيش حياتها متفاعلة مع ذاتها، ولم تشهد تواصلاً بالمعنى الدقيق والشامل إلا في عهد أسرة هان.

إن انفتاح أسرة هان ساعد على بداية عهد جديد من العلاقات الدولية مع الصين من خلال زيارات من الدول والأمم إلى الصين، خاصة الرومان والعرب، وزيارات بعثات صينية إلى دول أخرى، تأتي بين أبرز الزيارات الرسمية تلك التي قام بها چانج چهيين، وهو موظف رسمي في قصر حاكم الهان، حيث زار شعب يويه ـ چيه في باكتريا، وهي مملكة كانت تضم شمالي أفغانستان مع طاجيكستان وأوزبكستان، وكان غرض الزيارة تشجيع هذا الشعب على رصِّ الصف والتعاون لمواجهة هجمات الهون الذين كانوا يقضُّون مضاجع أسرة هان، وكأنها زيارة لعلاقات تعاونية عسكرية أمام عدو مشترك.

وإذا كانت زيارة چانج چهيين صعبة لأن الهون أسروه في الطريق وبقي محتجَزاً لديهم قرابة عشر سنوات، إلا أن هذه الزيارات فتحت الأفق أمام الصين لتتوسع غرباً في وقت لاحق، وقد رافق ذلك تأسيس الطريق التجاري من الصين إلى بلاد فارس فالأمة العربية، وإلى الهند وجوارها، وهذا الطريق هو الذي اشتهر باسم: درب الحرير القديم، انطلاقاً من تسمية الكل باسم الجزء، لأن الحرير كان بين السلع التي تصدِّرها الصين، وكان الحرير نوعاً من النسيج الذي تنفرد به الصين.

كانت رحلة چانج چهيين (ت١١٤ ق.م) الأولى هذه بأمر الامبراطور هام وو دي Ham Wu Di (١٥٦ ق.م.ـ ٨٧ ق.م) وكانت رحلته الثانية عام ١١٩ ق.م إلى دول غرب آسيا، ووصلت إلى بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام والإسكندرية التي يحكمها البطالمة، وهذا التواصل يؤكده استخدام الجمل كوسيلة سفر مع أسرة الهان.

أما التواصل الآخر فقد حصل في عهد بان تساو (١٣٢ ق.م.ـ ١٠٢ق.م) الذي أرسل أحد مساعديه العسكريين، واسمه ڤان ينغ، إلى بلاد الفرس والعرب، وكان ذلك عام ٩٧ق.م.

إن الاتصال الصيني العربي تؤكده المدونات الصينية القديمة، حيث جاءت أخبار عن بلاد العرب وواقعها في كتاب «سجلات التاريخ» وفي سجلات أُسرتَي هان وتانغ.

كما أن بعض الآثار العربية حوت ما يبيِّن ذلك التواصل خاصة آثار مملكة تدمر ما بين عامَي (١٣٠م ـ ٢٧٠م)، ولعل الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه: (اطلبوا العلم ولو في الصين) يأتي مشيراً إلى أن الصين بلاد علم، وأنها معلومة عند العرب، وبينها وبين العرب اتصال، لذلك يمكن أن يؤمَّها طالب العلم العربي بسهولة بفعل الخبرة في التواصل، ويدلِّل على ذلك ما كان لاحقاً من اتجاه الجيش الفاتح بقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي الذي افتتح تركستان الشرقي، وهو إقليم من الصين معروف اليوم باسم: سينكيانج.

الفلسفة والحركة الفكرية في الصين القديمة

لقد اعتنى الصينيون القدماء بالفلسفة والفكر إلا أنهم ركَّزوا على الفلسفة العملية

التـي تدور حـول الواقع والحيـاة، ولم يعيروا اهتماماً كبيـراً بالتنظير في الماورائيات (ما وراء الطبيعة Métaphysique).

أصل الكائنات عندهم العناصر الخمسة، وهـي: المـاء، والتربـة، والنـار، والمعـدن، والخشـب. والجانب الماورائـي الوحيد الذي اهتمُّـوا به هو نظريـة القوتيـن الأساسيتين، وهمـا: اليانـج، واليـن. وقـد ظهـر هـذان المصطلحان في القـرن الرابع قبل الميلاد، وقد ورد المصطلحان في الكتاب المسمى إي چنـج (I Ching) (كتاب التغيُّرات) الذي تمَّ تأليفه أبّان القـرن الثالث قبل الميلاد، وكان قـد ذكرهما كتـاب سبـق ظهوره فـي القرن الرابـع قبـل الميـلاد اسمـه: طاوتـى چنـج (شريعة قوة الطاو).

اليانج يحوي عنصر الذكورة، وهو عنصر إيجابي منتج وفعّال، والعلامة الكتابية الدالَّة عليـه هي أشعة الشمـس، أو راية ترفرف في أشعة الشمس، وهـو عنصر الضوء والحرارة والحياة.

اليـن يحـوي عنصـر الأنوثـة، وعلامتـه الكتابيـة الدالَّـة عليـه تشتمـل رسومـاً تمثِّل السُحُـب والظلال، وهو عنصـر سلبي لصيق بالأرضيات، ومنفعل غيـر فاعل، وهو عنصر البرودة والظلمة والموت.

إن السماء لها يانج وين وكذلك الإنسان، وعندما يفعلان في السمـاء يتجاوب الإنسان مع ذلك، فالقانـون واحد، والكائنـات الحيَّة جميعاً محاطة بالين وإنها تغلِّف اليانج.

تأسيسـاً علـى مـا تقـدم، يكـون قدامى الصين قد بنوا فكرهم العلمي ونظرتهم إلى الكـون علـى مبدأين همـا: القوتـان (اليانج والين)، والعناصـر الخمسة (الماء، والتربة، والنار، والمعدن، والخشب).

صـاغ نظريـة العلاقـة بين اليانـج والين الفيلسوف «تونج چونج ـ شو» في نص له على الشكل التالي:

«المسار الثابت للطبيعة معناه أن الشيئين المتعارضيـن بعضهمـا مـع بعـض لا يكونان قادريـن علـى النهـوض سويّاً فـي آن واحد؛ فالين واليانج يتحركان في مسارين متوازيين بـدون أن يتخـذا الـدرب نفســه، ويقابل كل منهمـا الآخر، ويؤدي كلٌّ منهمـا دور الموجِّه على التناوب».

أما المنحـى الفلسفي الآخـر، الذي كان في وقت سابـق على ظهور فيلسـوف الصين العظيـم كنفوشيوس (كونج ـ فو ـ دْزه Kung-Fu-Tzu) (٥٥١ق.م ـ ٤٧٩ق.م)، فهـو ذلـك الاتجـاه المعرفـي العملي الذي تحـدث عنه لـو ـ دزه، والـذي نُسـب إليـه كتـاب اسمــه: «الدّو ـ ده ـ چنـج ـ أى»؛ أي «كتـاب الطريقـة والفضيلة». ما يحويه هذا الكتاب عرضه ويل ديورانـت في مقالتـه: «ومعنى لفـظ الدّو هو الطريقـة: وهـي أحيانـاً طريقـة الطبيعـة، وأحياناً الطريقة الدَّوية للحياة الحكيمة. أما المعنـى الحرفي لهـذا اللفظ فهـو الطريق، وهـو في الأصـل طريقة للتفكيـر أو للامتناع عـن التفكيـر، وذلـك لأن الدّويين يـرون أن التفكير أمـر عارض سطحي لا خيـر فيه إلا للجـدل والمحاجة، يضرُّ الحيـاة أكثر مما ينفعهـا. أمـا الطريقة فيمكن الوصـول إليها بنبذ العقـل وجميع مشاغلـه، وبالالتجاء إلى حياة العزلـة والتقشُّف والتأمُّـل الهادىء في الطبيعـة. وليـس العلـم ـ فـي رأي صاحـب

الكتاب ـ فضيلة، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم، وليس العلم هو الحكمة، ذلك أنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من صاحب العقل. وشرُّ أنواع الحكومات التي يمكن تصوُّرها حكومة الفلاسفة؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي... إن المهرة لا يجادلون، وأصحاب الجدل عطل من المهارة... وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب... والحكيم يُبقي الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة، وإذا وجد مَن لهم علم منعهم من الإقدام على العمل... وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في الدُّو لم يفعلوا ما فعلوه لينيروا عقول الناس، بل ليجعلوهم سُذَّجاً جهلاء... والصعوبة التي يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم، ومَن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته ينكِّل بها ويُفسد شؤونها، أما الذي لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة».

إنه موقف غريب ومستغرَب اتخذه هذا الفيلسوف من العلم، ومن إعمال العقل، والأكثر غرابة أن يصنِّف المفكر بأنه خطر على الدولة، وأن الفكر والقوانين يمنعان الحرية حيث يقول: «وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا في الأنظمة والقوانين؛ فهو يرغب في إقامة مجتمع على قواعد هندسية، ولا يدرك أن أنظمته إنما تقضي على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية».

وكان دعا أحدهم إلى الحدِّ من الطموح، وتعطيل كل المقاصد باتجاه المجد كي يكون المرء بمنأى عن المتاعب والشقاء، ففي عام ١٢٥٠ ق.م قال الفيلسوف ذايو ـ دْزَه: «مَن يطرح المجد ولا يعبأ به ينجُ من الأحزان».

ولم تخلُ المدارس الفلسفية الصينية من أصحاب فكر عبثي يعمدون إلى الجدل العقيم على طريقة السوفسطائيين اليونان، من هؤلاء تنج تشو الذي لم يقرَّ بوجود أية حقيقة، ولا ثبات لأية قاعدة، وعبارته هي: «إن الحق والباطل أمران نسبيان». وكان يتباهى بأنه يستطيع أن يثبت أمراً وفي اليوم التالي يثبت نقيضه، ولما أحسَّت السلطات بالتأثيرات السلبية لفلسفته ولاحقته عمد إلى توزيع المنشورات السريَّة حتى كان إعدامه بسبب إصراره هذا على مواقفه.

لكن مراجعة الفلسفة الصينية في معظم مدارسها تبيِّن أنهم دعوا إلى الحرية، وأن يتخلى الإنسان عن المطالب الدنيوية كي لا تقيِّدهم هذه المطالب، والحرية هي التي تخلق مناخاً من الحيوية في عموم الميادين.

نقلت مصادرهم فقرة من خطبة ألقاها دوق (چو) بين يدَي حاكم «لي ـ وانج» سنة ٨٤٥ ق.م، قال فيها: «يعرف الامبراطور كيف إذا كان الشعراء أحراراً في قرض الشعر، والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات، والمؤرخون أحراراً في قول الحق، والوزراء أحراراً في إسداء النصح، والفقراء أحراراً في التذمُّر من الضرائب، والطلبة أحراراً في تعلُّم العلم جهرة، والعمال أحراراً في مدح مهاراتهم وفي السعي إلى العمل، والشعب حرّاً في أن يتحدث عن كل شيء، والشيوخ أحراراً في تخطئة كل شيء».

إن هذا الفكر السياسي الذي يعتمد فلسفة الحرية معدداً نوع الحرية المطلوبة

لكل فئة من فئات المجتمع يعدُّ بحق فكراً مستنيراً يتجه اتجاهاً إيجابيّاً بالسلطة والحكام نحو مستقبل أفضل للدول، ولا تزال مثل هذه التوجيهات صالحة إلى يومنا هذا.

إن الفلسفة العملية الصينية القديمة برزت بشكل قوي مع رائد الفكر الفلسفي الذي لا تزال بصماته قائمة ظاهرة للعيان، كنفوشيوس، وقد أدرك كنفوشيوس لو ـ دْزه (لاوتسو Lootzu) (٦٠٤ ق.م ـ ٥٥٧ ق.م) في أواخر أيامه، وزاره فأعطاه وصية تتجه هذا الاتجاه السلوكي العملي في الفكر الفلسفي الاجتماعي والسياسي، وكانت على الشكل التالي: «لقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته، ويعمل عمل مَن لا يملك شيئاً من حطام الدنيا، وأن الرجل العظيم بسيط في أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال، فتخلَّص من كبريائك ومطامعك الكثيرة، وتصنُّعك وآمالك المفرطة البعيدة».

أما كنفوشيوس فهو الفيلسوف الأبرز في تاريخ الصين القديم والمعاصر، رغم أن فلسفته عاشت قرنين ونصف وأكثر من دون أن تكون فاعلة في مجتمع الصين. وكانت انطلاقتها الأساسية مع أسرة هان، أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، وبعدها كانت المهيمنة، ولا تزال صاحبة المكانة الأساسية في ثقافة الصين من الناحية الاجتماعية، والناحية السياسية.

لم يعتنِ كنفوشيوس بفلسفة ما بعد الطبيعة (ميتافيزيقا)، ولا هو بحث في نظام الكون وسننه، ولم يُعطِ اهتماماً للبحث في المادة والماديات وظواهر الطبيعة ومظاهرها، وإنما تركز اهتمامه على الفلسفة العملية اجتماعيّاً وسياسيّاً، وبالتالي كان الإنسان عنده هو المحور.

هذا الموقف الكنفوشي طبع الفلسفة الصينية القديمة إلا في حالات نادرة، لذلك قال الباحث في الفكر الشرقي القديم جون كولر: «إن الاهتمامات بالناس تأتي أولاً في الصين، فالعالم الإنساني له الصدارة، أما عالم الأشياء فيحتل مرتبة ثانوية، وهذه السِّمة تتجلى في الكنفوشية في التأكيد على النزعة الإنسانية الاجتماعية... يؤدي التأكيد على العظمة الإنسانية، بصورة طبيعية، إلى التأكيد على الأخلاق والحياة الروحية، فالروح، وليس الجسم، هي الجانب الأهم في الوجود البشري، وهذه الروح لا بد من تغذيتها ورعايتها، لكي تتطور بحسب قدراتها، ولقد كانت الحياة الأخلاقية مطلباً مسبقاً لهذا التطور، وتلك إحدى الخصائص البالغة الوضوح في الكنفوشية».

إن مراجعة أدبيات الكنفوشية تشير إلى أن كنفوشيوس كان يعدُّ الدين والأخلاق والسياسة شيئاً واحداً، فكلمة لي (Li)، التي تعني عنده النظام الاجتماعي، تعني في الوقت نفسه النظام السياسي والنظام الديني، وهذه الكلمة، كلمة (Li)، قد أخذت معنىً خاصّاً عند الصينيين، وإذا أُطلقت وحدها فُهم منها مذهب كنفوشيوس السياسي والديني والاجتماعي.

ويركِّز كنفوشيوس على الطابع الإنساني الذي يريد من خلاله أن يُثبت أن للحياة معنى، وأن السعادة تكون بالعيش في مناخ الفضيلة واحترام القيم والاعتراف بالآخر.

الدين في الصين القديمة

لم يكن العامل الديني حاضراً في حضارة الصين القديمة كما كان الحال في الهند، بل كان الدين أقل تأثيراً، ولم ينل الاهتمام نفسه، لكن مجتمع الصين لم يخلُ من مفاهيم دينية عامة كسائر الشعوب، وكان ينتشر الاعتقاد بآلهة متعددة، فمنها ما يختص بأعمال الحقول الزراعية، وآخر بالأعمال البيئية... إلخ، وقد برز بين هذه الآلهة ربُّ الأعالي ويسمونه: شنغ ـ تي، وإله السماء وسيِّد الأرض، ويسمونه: هيو ـ تو، وإله السماء، عندهم، هو سيد الآلهة والإنسان وملك الموت والقاضي الذي لا يُعلى عليه.

أما عباداتهم القديمة فقد كانت محصورة بالنبلاء، أما العوام فإنهم ـ حسب مفهومهم ـ يستفيدون من بركة عبادات النبلاء من دون أن يقوموا أنفسهم بمثل هذه العبادات. الصلاة أول هذه العبادات ترافقها قرابين، ويقومون بذلك من أجل الخير العام وليس من أجل منفعة أو أجر للفرد، ومَن قام بعباداته رجاء خير شخصي يلومونه على ذلك. والقرابين عندهم تكون ذبائح تقدَّم في وليمة جماعية لروح السلف والأجداد والآباء، أو يقدمها النبلاء في فصل الربيع مع بداية كل سنة زراعية باعتبار أن النبلاء هم أصحاب الأرض.

عرف مجتمع الصين القديم طبقة الكهنة، وكانت لهم بعض الامتيازات، وهم المعنيون بتلاوة الصلوات، ويقومون بمراسم الجنائز والدفن، ويقصدهم المسؤولون ليتنبأوا لهم عن الحرب والمواسم الزراعية، ويفسرون الأحلام للناس. وكان الكهنة يستعينون بمساعدين للخدمة الدينية، أو بعازفين لأداء الموسيقى المطلوبة مع الطقوس الدينية، وكان الكهنة في فئتين:

أ ـ الكهنة الرسميون، ويقومون بأعمال الصلاة، والتنجيم، وتفسير الأحلام، وبعض أبحاث علم الفلك.

ب ـ كهنة من فئة وضيعة يحترفون أعمال السحر والشعوذة.

لكن الحديث عن الدين في الصين يحتاج الوقوف عند ثلاث ديانات هي: الطاوية، الكنفوشية، والبوذية الوافدة من الهند.

١ ـ الطاوية أو الدّاوية Taoïsme: المؤسس هو لو ـ دْزه (لاوتسو Loo Tzu). وهو أبرز فيلسوف صيني قبل كنفوشيوس، وكان البحث قد تناوله فيلسوفاً قبل هذا الموضع، وما سيرد هنا هو الجانب الديني في الطاوية أو الدّاوية: لاوتسو، أو لو ـ دزه، معناها بالعربية: المعلم العجوز، والمعلم كان يفسر الدّو أو الطريق.

يعتقد الطاويون أن الطبيعة مكتفية بذاتها وغير مخلوقة، وكانوا يسمونها: تسو ـ چان؛ أي تلقائية أو ذاتية النشأة. وقد عبَّر لاوتسو عن ذلك بقوله: «طرائق البشر تقرِّرها طرائق السماء، وطرائق السماء تقرِّرها طرائق الطاو، والطاو اكتسب كينونته من تلقاء ذاته تسو ـ چان».

كان لاوتسو يُؤثِر الصمت، فهو حكمة عنده، وصمته ليس للتفكير والتأمُّل، فالتفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه، ويضرُّ الحياة أكثر مما ينفعها ـ هذا أمر تمَّ عرضه تحت عنوان الفلسفة، ولا داعٍ للتفصيل فيه هنا ـ.

لقد كانت الطاوية سلبية في مواجهة

الواقع السياسي الاجتماعي، بخلاف الكنفوشية التي تصدَّت للإصلاح، وقد انسحب الطاويون إلى أحضان الطبيعة في البراري والأرياف من أجل التأمُّل، والوقوف على المخلوقات كما هي. وفي سلوك آخر نجدهم قد عملوا سحرة أو شامانات، والشامان هو الشخص الذي يدَّعي أن قوى خارقة قد حلَّت فيه تعينه على شفاء المرضى ومعرفة المستقبل، أو العمل ليسقط المطر حال انحباسه. ووصل الأمر بهم حوالي العام ١٤٧م، في سشوان، أن يدَّعي واحدهم شفاء المرضى أيّاً كان نوع المرض أو الداء لقاء خمس حفنات من الأرز.

ظلت الطاوية ناشطة حوالي ألف عام، ثمَّ ما لبثت أن أخلت المكان للبوذية الوافدة من الهند، وإن كان أثر المفاهيم الطاوية قد ظلَّ ماثلاً في البوذية الصينية كما الحال مع الكنفوشية، حيث نجد بوذية مشبعة بالمفاهيم الكنفوشية.

يُعَدُّ شوانج تسو Chuang Tsu (٣٦٩ ق.م - ٢٨٩ ق.م) أبرز مَن بعث الطاوية وأسهم في نشرها، وارتقى بها من مجرد فلسفة لتكون معتقداً دينيّاً له أتباع. والأساس الطاوي هو العزلة والتأمُّل، لا التصدي الإيجابي لمعالجة الأمور أو الاستجابة للتحديات، والسبيل عندهم هو بالاعتزال، والانفراد أولاً (الخلوة)، بعد ذلك تكون مرحلة التقشف والزهد والبُعد عن كل مطلب مادي يدنِّس الروح، ثم يكون بعد ذلك الإشراق والمعرفة من مصدر غير بحثي ولا علمي ينطلق من الحقائق الطبيعية في الواقع. هذا المشترك مع رهبانية الهند كان له تأثيره في المسار الحضاري الصيني، وامتدت آثاره إلى غير الصين في مراحل لاحقة، كما حال حضارة الصين القديمة مع شعوذات الطاوية الوافدة إليها من آسيا الشمالية.

٢ - الكنفوشية: كونج - فو - دْزه، أو كنفوشيوس Confucius، وكونج بالصينية معناها: المعلم، أسس مذهباً فلسفيّاً اجتماعيّاً واقعيّاً، وقد كان نضال كنفوشيوس من أجل نشر العدالة الاجتماعية في مجتمع الصين الإقطاعي. وقد فشل المؤسس وبعده المريدون في نشر الكنفوشية، لكن سلطان الكنفوشية بدأ مع حكم أسرة هان، السابقة الذكر، حتى كانت الشخصية الصينية الثقافية كنفوشية القسمات بحيث قال بعضهم: كنفوشيوس امبراطور الصين غير المتوَّج.

خالف كنفوشيوس سنَّة الصينيين التي تعتمد التدوين الجماعي، وشرع بالكتابة والتأليف، حيث صاغ فكره الذي كان يدور حول السلطة والمجتمع، وكان هدفه التوعية والإصلاح. وقد ترك تراثاً منه الكتب الخمسة المعتمدة في الكنفوشية وهي:

أ- كتاب الشعر أو الأغاني Shihching

ب- كتاب التاريخ Shuching

جـ- كتاب التغيُّرات أو التحوُّل I-ching

د- كتاب الطقوس أو سجل المراسم Li chi

هـ- كتاب حوليات الربيع والخريف Chunchiu

وكانت له مدونات أخرى في الفلسفة، ولكنه في كل الأحوال لم يدعُ إلى دين أو

معتقد معين، إلا أنه دعا إلى تنظيمات اجتماعية تتوافر من خلالها حياة كريمة للإنسان. لقد كان الإنسان هو المحور في الكنفوشية، وتجمع مبادئ كثيرة بين بوذا وكنفوشيوس، حيث أن كلاهما وجّه اهتماماته للإنسان والأخلاق وإصلاح المجتمع، ولم يعر اهتماماً كبيراً للبحث العقدي في الخالق والمخلوق، ولا هما اعتنيا بصياغة منظومة للعبادات.

سأل كي ـ لو مرة عن خدمة أرواح الموتى فأجابه: إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم؟

وسأله: هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت؟ فأجابه كنفوشيوس: إذا كنت لا تعرف الحياة فكيف يتسنّى لك أن تعرف شيئاً عن الموت؟

لم يسلّم كنفوشيوس بالوثنية المنتشرة في الصين القائمة على الاعتقاد بتعدد الآلهة، فهذه ليست أكثر من رموز لقوى طبيعية وأرواح السلف، وإنما مَن يُدان له هو السماء، ودعا لعبادة السماء بوصفها رب الأرباب.

الكنفوشية كانت قائمة أولاً على عبادة السماء باعتبارها الإله الأعظم وحاكم الحكام أو رب الأرباب، ثمَّ عبادة الأرض، لأن للأرض هي الأخرى إلهاً، ثم عبادة أرواح الأجداد، ثم عبادة الجبال والأنهار، وأخيراً تقديم الأضاحي الخمس. وهذه العبادات الخمس كانت لها طقوس خاصة تختلف من عبادة لأخرى، كما كانت القرابين التي تقدَّم في حالة عبادة السماء غير تلك التي تقدَّم في حالة عبادة الأرض مثلاً. وعبادة هذه الأشياء الخمسة إنما كانت لأغراض نفعية خاصة بالإنسانية؛ فعبادة السماء أو رب الأرباب تؤدي إلى أن يقوم كل رب من الأرباب الأخرى المنتشرة في السماء والأرض والبحر بمهمته المكلَّف بها، وعبادة الأرض من شأنها أن تحفِّز إله الأرض إلى إنماء النبات وإخراجه إلى حيِّز الوجود، وعبادة أرواح الموتى والأجداد في المعبد الخاص بذلك من شأنها أن تؤكد الصلة بين الأجداد والأحفاد والآباء والأبناء، وتولِّد الشفقة والعطف بين أفراد الأسرة الواحدة. أما عبادة الجبال والأنهار فهي لتقديس الأرواح الإنسانية الأخرى غير أرواح الأقارب والأجداد. أما تقديم القرابين الخمسة فالغرض منه تخليد أهل الحِرَف الإنسانية. ولقد اختلف العلماء في تفسير المقصود من الأضاحي أو القرابين الخمسة، فبعضهم فسَّرها بعبادة العناصر الخمسة التي يرجع إليها أصل كل الموجودات وهي: التراب، والماء، والنار، والمعدن، والخشب.

يضاف إلى ذلك ما قرَّره كنفوشيوس في فكره، وهو أن فطرة الإنسان وطبيعته معدن خير، ومهمة التعليم هي إزالة ما علق بشخصية الفرد بعد الولادة من أدران، وتطهير النفس لتعود إلى صفائها الأول الذي وُلدت عليه.

لقد أمَّنت الكنفوشية أساساً مكيناً للوحدة الثقافية الصينية منذ تمَّ تبنِّيها من قِبَل أسرة هان، بدءاً من سنة ٢٠٦ ق.م، ولقد كان للكنفوشية الفضل الكبير في إشاعة روح الوحدة الاجتماعية بدءاً من وحدة الأسرة والعائلة وتواصل الأجيال إلى إعطاء الاهتمام

للتنمية والتطوير الذي ينطلق من الأرض والزراعة ويليها سائر الصناعات. هذه الأفكار العملية كان لها أبلغ الأثر في وجود الجدِّيَّة عند الصينيين عبر كل العصور، إلى يومنا هذا، وفي ما حققوه من تطور باهر تمَّ إنجازه في مدة زمنية قصيرة.

بعد كنفوشيوس نشأت طقوس وعبادات ليس محل عرضها في هذا البحث حول الحضارة القديمة، وقد رافق ذلك إقامة معابد (الپجودات). هذه الپجودات المنتشرة في الصين هنا وهناك وأجملها في بكين حيث تبرز فيه معالم تعبِّر عن الفلسفة الكنفوشية أكثر من المظاهر الفنية، تقوم لعبادة الأسلاف والتواصل معهم لصياغة وحدة مجتمعية جعلت الوحدة الوطنية إلى يومنا هذا مقدَّمة على ما عداها، لكنها مع ذلك تحوي مظاهر قداسة لكنفوشيوس، وتقدَّم القرابين فيها لذكراه.

٣ ـ البوذية: البوذية دخلت الصين أواسط القرن الأول للميلاد، وكان ذلك بعد انتشارها في الهند بزخم قوي مع آشوكا بعد العام ٢٧٣ ق.م. لكن البوذية في الصين اتخذت سبيلاً إلى مفاهيم عقدية تختلف عن البوذية الأصلية، وقاد هذا التطور إلى بروز نوعين من البوذية:

أ ـ هينايانا، أو العجلة الصغيرة: وهذه البوذية ركَّزت على السلوك، واعتمدت نظاماً صارماً للكهنة، تظن أن الفرد يعمل ليكون المستنير على طريق بوذا، وهذا الشخص يصبح بوذا الذي لا يبشر. وهذا الشكل من البوذية طابعه سلبي، وليس موجوداً في الصين.

ب ـ الماهايانا، أو العجلة الكبيرة: هم بوذية الصين الذين آمنوا بتألُّه بوذا ويقدِّسون الروح التي ألهمت غوثاما سيد هارثا الذي أصبح بوذا المستنير بفضلها، ولها نظام وطقوس، وقد فكَّروا بالمصير الأُخروي، ورفضوا التركيز على الفرد، وهجروا الأنانية والخلاص الفردي، والعمل يجب أن يكون لخلاص الجميع.

البوذية الصينية تشبَّعت بالكنفوشية وفلسفتها التي تجمع الديني مع السياسي والاجتماعي. وهذه البوذية حقَّقت تفاعلاً بقدر معين بين الهند والصين، وهذا لا بد من أن تكون له آثاره على الحضارة إن في الجانب العقدي والفكري، أو السياسي والاجتماعي، أو في نظام العمارة، خاصة العمارة الدينية للمعابد والتماثيل.

الاقتصاد والإنتاج

اتجه الاهتمام الصيني بداية إلى الحاجات الأساسية للإنسان؛ أي إلى الأمن الغذائي، وأساس ذلك الزراعة، والزراعة لم تكن سهلة المنال في الصين القديمة، فالبلاد واسعة أرجائها، وواقعها الطبيعي صعب، تكسوها الغابات، أو تمتد فيها الصحاري، أو ترتفع فيها الجبال الوعرة، لذلك كان الهمُّ الأساسي مواجهة العوامل الطبيعية من أجل تحريك عجلة الزراعة.

هذا التحدي الطبيعي جعل الاستجابة في حضارة تنتزع الأرض من الوحوش والآجام، وتنظِّف الأرض من الشوك وتطهِّرها من الحشرات والقوارض، وتجفِّف التربة من المستنقعات، وتنظِّم توزيعها

وأوضاعها بعد الفيضانات وتحوُّل مجاري الأنهار.

تنقل المصادر التاريخية التطور الذي بلغته الصين، من ذلك محطة قادها الامبراطور فوشى، قرابة العام ٢٨٥٢ قبل الميلاد، الذي كانت له زوجة مستنيرة شاركته شؤون الدولة، فقام اقتصاد دولته على تدجين الحيوانات، والاعتناء بدود القزِّ لاستخراج الحرير، وصيد السمك بالشِّباك، إضافة إلى توجيه قدر من الجهد للفنون، كالرسم والموسيقى، إضافة إلى الكتابة.

جاء خليفته «سن تولج» ليولي اهتمامه بالزراعة بالدرجة الأولى، وفي عهده صنعوا المحراث واستخدموه، كما أنهم أقاموا الأسواق ونظَّموا أعمال التجارة، واستخدموا النباتات والأعشاب في أعمال العلاج الطبي.

وإذا قصد الباحث نهر اليانجتسي الواقع إلى الشرق، فإنه يجد، ومنذ آلاف السنين، القنوات المنتظمة لأعمال الري حيث لا وجود للأراضي البور على ضفافه وفي محيطه، وكانت تلك المنطقة المصدر الرئيس للأرز.

وعرفت المناطق الجنوبية الشرقية مع إنتاج الأرز عملية قطع الأخشاب وصيد الأسماك، أما في الغرب، في حوض سيجوان الأحمر، فقد كانت تربته خصبة، وعرف كثافة سكانية اهتمت بالمحاصيل الزراعية، وأبرزها الأرز والقطن وقصب السكر، وفي عهود لاحقة عرفوا زراعات أخرى من الحبوب، كان عندهم: القمح والشعير والذرة، بعد الأرز، ومن الخضار عندهم: الكوسى واللوبياء والبصل والثوم والبطيخ.. إلخ.

أما الأشجار المثمرة فقد عرفوا منها: التوت (الفرصاد)، والكرز، والمشمش، والتفاح، والسفرجل، والكستناء.. إلخ.

لقد بدأت الزراعة الصينية القديمة مع نظام إقطاعي يسيطر فيه النبلاء ويعمل المزارعون لصالحهم، والاقطاعيون ملاّك الأرض اعتمدوا ـ في بعض المراحل الزمنية القديمة ـ طريقة توزيع الأراضي في حقول على شكل مربعات، وبين كل ثمانية مربعات لثماني عائلات من الفلاحين يكون مربع تاسع يخدمونه ويخصَّص إنتاجه للإقطاعي مالك الأرض.

لكن الازدهار الذي عرفته الصين كان في عهد أسرة تشاو التي حكمت بعد العام ١٠٠٠ ق.م حوالي ثلاثة قرون، حيث تطورت الصناعة بعد الزراعة، وكانت أبرز صناعاتهم الحرير، والخزف، والجلد، والعاج، والخيزران، والخشب، وكلها صناعات بقيت الصين تشتهر بها لآلاف السنين. فالحرير أعطى اسمه لطريق الصين التجارية مع الجوار فسمَّوها: درب الحرير، والمصنوعات الخزفية حملت اسم الصين فيقال: الأواني الصينية أو الصحون الصينية.

كما عرف هذا العصر تطوراً في صناعة الآلة، من آلات الفلاحة إلى آلات الحرب، كالحراب والتروس والأقواس والسهام، كما أنهم صنعوا آلات موسيقية عديدة أبرزها: الطبل، والعود، والمزمار، والصنج... إلخ. وكانوا يستخدمون النحاس، لأن الحديد لم يتم استخدامه عندهم إلا أواخر عهد أسرة تشاو، هذا بدون أن ننسى صناعة الورق التي بدأت مع الصينيين، ولم تزل الصين المصدر الأول للورق، والأمر نفسه بالنسبة

لصناعة الحبر. وصناعتهم عرفت إذابة النحاس، كما عرفت عجن الخزف وطلاءه وتنميقه، وعرفت الحفر والكتابة على العاج والعظام والنحاس والخشب، وبذلك يكون الصينيون سبّاقين في هذا الميدان.

من المفيد، في هذا الباب، أن يُذكر ما كتبه المؤرخ جوزيف نيدهام الذي قال: «لعل أبرز سمات حضارة يانجشاو هي خزفها المطلي الذي كان يصنع حوالي ٢٥٠٠ ق.م بطريقة اللَّف الحلزوني لأسطوانات رفيعة من الطين».

وقال يصف أدوات للطبخ راقية: «أفرز الصينيون من عندياتهم... ابتكارات ذات سمات خاصة أبرزها طِرازان من الآنية الخزفية يبدوان فريدين، كما أنهما مثيران لاهتمام مؤرخ العلم نظراً للصلة الوثيقة بين الطَّهي والكيمياء؛ وأحدهما يسمى (لي Li)، وهو قدر ذو ثلاث أرجل جوفاء من شأنها العمل على زيادة السطح المعرض للحرارة من أجل رفع كفاءة الطهي، أما الآخر فكان (تسينج Tseng) وهو إناء ذو قاع مُثقَّب يمكن أن يستقرَّ فوق (لي) ومن ثمَّ يصبح وسيلة مزدوجة للطهي بالبخار، كما كانت له أيضاً ميزة السماح بطهي أكثر من مادة غذائية في آن واحد. وعندما أُدمج الإناءان في تكوين واحد - غالباً - ذي حاجز شبكي قابل للتركيب والخلع، صار هذا التكوين يسمى (هسيين Hsien) وقد أصبح أكثر فاعلية عندما حلَّ البرونز محل الخزف»، إذ المعلوم أن البرونز قد بدأ يأخذ مكانه في حضارة الصين في عهد أسرة شانج، حوالي سنة ١٥٠٠ ق.م.

يلي الإنتاج الزراعي والصناعي موضوع التجارة، فما واقع التجارة عند قدامى الصينيين؟

قامت التجارة الصينية داخلية بدافع الحاجة إلى تبادل المنتجات بين منطقة وأخرى بفعل تنوع الجغرافيا الصينية، ومعها يكون التنوع في الإنتاج الزراعي والحيواني، ويتبع ذلك تنوع في الصناعات، لذلك تكون التجارة، بوصفها عملية تبادل، أمراً ضروريّاً، وكانت المقايضة سلعة بسلعة بدون استخدام للنقود، بداية.

لكن هذا التبادل التجاري ما لبث مدة حتى بدأ استخدام النقود من الصدف بداية، ثم كانت القطع من العظام، ثم كان بعدها النحاس، وكانت تسمى القطعة: وان، وتتكون من ثلاث أواقٍ، وقطعة تسمى: الكين من نصف أوقية، كما استخدموا سبائك تزن عشر أوقيات، لكنهم لم يسكُّوا النقود إلا مع بدايات القرن الخامس قبل الميلاد.

لكن النقد غير المعدني كان لأول مرة أواخر القرن الثاني قبل الميلاد في حكم الامبراطور تشانج نجان Chang Ngan. كان للامبراطور غزال أبيض لا نظير له، فأشار الوزير على الامبراطور بذبحه، وتقسيم جلده قطعاً صغيرة تصبح صكوكاً في خزانة الدولة العامة، وقد اختاروها لأن هذا الحيوان نادر، وبالتالي يكون تقليدها صعباً. نفذوا ذلك وكانت القطعة من الجلد حوالي قدم مربع، وجعلوا لها حدوداً لها أهداب وزخرفوها بصورة، وجعلوا لكل قطعة قيمة فرضتها الدولة هي أربعمائة ألف قطعة نقدية نحاسية.

كانـت هـذه أول محاولـة لنقـد غيـر المقايضـة، وغيـر المعـادن، سبـق إليهـا الصينيون، إلا أن النقود الورقية لم تستخدم إلا بعد تطور الورق والطباعة عند الصينيين، وكان ذلك فـي عهد حكومة تانـج Tang بين عامَـي ٨٠٧ و٨٠٩ بعـد الميـلاد، وكانت على شكل شيـكات يحتفظون بأرومتها، أما طباعة النقود الورقية على هيئة قائمة إلى يومنا فقد كانـت عـام ٩٧٠م فـي عهـد حكومـة سونج Sung.

أمـا التجـارة الخارجيـة فلـم تنطلق من البـاب الواسـع إلا مع عهـد أسرة هـان بعد العـام ٢٠٦ ق.م، حيث كانـت البعثات، وكان التأسيس لعلاقات الصين باتجاه بحر قزوين والفـرس والعرب والـروم، وباتجاه الهند وما جاورهـا. ودرب الحريـر القديـم حمل تجار الصيـن فيـه الحريـر والخـزف والخيزران والعاج وغيرها، واستوردوا البرسيم الحجازي (علـف للحيوانـات)، والعنب، وجـوز الفوقل (نوع مـن ثمار النخيل) واللتشية (ثمرة ذات قشرة صلبـة بداخلها لب لحمـي حلو الطعم يـؤكل)، كذلك استـوردوا الخيـول المؤصَّلة، واستخدموا الجمل المستـورد في النقل بدءاً من القرن الثالث قبل الميلاد.

الحركة العلمية

حضـارة الصيـن، فـي تطورهـا السابق ذكره، عرفـت حركة علميـة وفلسفية أسست للنهضة الصناعية والتقنية، وقد قدَّم المؤرخ جوزيـف نيدهـام فـي موسوعتـه «العلـم والحضارة في الصيـن» مادة قيِّمة لمثل هذا المبحث.

اللغـة في الصين لها وضـع لافت هو أنها بقيـت محافظة على أسلـوب الكتابة الرمزية التـي تتكون علـى أساس من الأشـكال أو من النغمـات والأصـوات، وقـد بقيـت فـي حالة رفـض للتحـوُّل إلـى نظـام أبجـدي كسائـر اللغات.

أمـا الملاحظة الأخرى فهـي أن التدوين كان عندهـم أسبـق من أي شعـب آخر، وهو تدويـن تميَّـز بأمريـن همـا: الحيـاد أو الموضوعية من جهة، والدقة من جهة أخرى، والدقة وصلت إلى حد تحديـد اليوم والشهر والسنة لكل واقعة.

الأسـاس الثالـث فـي الحركـة الفكريـة الصينيـة القديمـة هـو الاهتمـام الكبيـر بالفلسفة، حيـث سيطر الفكـر الفلسفي من القـرن السـادس قبـل الميـلاد إلـى أواسط القرن الثالـث ـ كما مرَّ سابقـاً ـ وكان لذلك أثـره الكبير علـى الأدب الصيني، وعلى تعثُّر العنايـة بالبحـث العلمي والعلـوم التجريبية، وكان أبرزهـا الطاويـة والكنفوشيـة، وكان الفلاسفـة وأتباعهـم يتنقلـون مـن عاصمة لأخـرى ليعملـوا مستشاريـن ووزراء للنبلاء الحـكام، وقـد أسهـم ذلـك فـي تأسيـس أكاديميات علمية كانت أبرزها أكاديمية بوابة چي ـ هْسِيـا فـي عاصمة چهى، وقـد أسسها الحاكم هْوان عام ٣١٨ ق.م، وكان يأوي إليها العلماء من كل الولايات حيث يجدون الرعاية، وتوافر الإمكانات لحياة كريمة.

ميدان آخر من ميادين العلم عرف تطوراً لافتـاً هو الطِّب، وهـذا أمر طبيعـي لأن فيه حفْـظ الأبـدان، وهو في اهتمـام كل إنسان. وإذا كان بعـض الصينييـن قـد عمـد إلـى

مداواة المرضى وعلاجهم بالشعوذة والسحر، كما كان الحال ولا يزال عند غيرهم، إلا أن إنجازات مميَّزة في الطب برزت في عهد أسرة هان في القرن الثاني قبل الميلاد، وقد تمَّ فيه تأليف كتاب هوانج تي ني چنج Huang Ti Neiching (موجز الامبراطور الأصفر في شفاء الأبدان)، الذي كان مصدراً لعلم الطِّب على مدى ألفَي عام، وقد حوى الكتاب الموسوعة، إضافة إلى أبواب في تشخيص الأمراض وعلاجها، أول عرض للتطبيب بالإبر الصينية، وهو باب في الطِّب لا تزال الصين منفردة به إلى يومنا هذا.

وقد برزت جهود مهمة في عهد أسرة هان في علم الفلك، وإصلاحات في نظم التقاويم، وتطور بارز في علوم الأرض، وإرساء أسس علمية في تصنيف الحيوانات والنباتات أنواعاً وخصائص، كما وضعوا أول كتاب في الكيمياء عام ١٤٢م. وشهدت الصين تطوراً في مناهج التفكير، وفي بروز منهج الشك المنهجي مع وانج چهونج حوالي سنة ٨٠ م.

لقد برز التطور العلمي في مجالات عديدة في عهد أسرة هان وكان بعض أمرائها مولعاً بالكتب والعلم. وقد تمَّ تسجيل ٧٠٠ مصنَّف مدونة على ألواح من الحرير والخشب والخيزران، وتمَّ اختراع الورق وشاع استخدامه ما أثَّر إيجاباً في حركة التطور العلمي.

الدولة والإدارة الحكومية

عاشت الصين موحَّدة أو موزَّعة في ولايات وإقطاعات آلاف السنين تحت حكم أُسر من النبلاء والإقطاعيين، وقد توالت هذه الأُسَر على السلطة منذ أن كانت الصين على الخريطة حتى العام ١٩١١م.

أما تعاقب الأُسَر المعلومة تاريخيّاً، والتي تركت إنجازات حضارية فهو على الشكل التالي:

١ ـ حِقبة الحكام الأسطوريين (٢٨٥٢ ق.م ـ ٢٢٠٥ ق.م).

- أسرة فوشى (٢٨٥٢ ق.م ـ ٢٧٣٧ ق.م).
- أسرة شونج تونج (٢٧٣٧ ق.م ـ ٢٦٩٧ ق.م).
- أسرة هوانج دى (٢٦٩٧ ق.م ـ ٢٥٩٧ ق.م).
- أسرة ياو (٢٣٥٦ ق.م ـ ٢٢٥٥ ق.م).
- أسرة شون (٢٢٥٥ ق.م ـ ٢٢٠٥ ق.م).

أسرة شيا أوهِسْيا Hsia (٢٢٠٥ ق.م ـ ١٥٢٠ ق.م).

٢ ـ أسرة شانج Shang (يِنْ Yin) (١٥٢٠ ق.م ـ ١٠٣٠ ق.م).

٣ ـ أسرة چوو Chou (عصر الإقطاع) (١٠٣٠ ق.م ـ ٢٢١ ق.م).

أ ـ العصر المبكر لأسرة چو (١٠٣٠ ق.م ـ ٧٢٢ ق.م).

ب ـ عصر چهون چهيو (٧٢٢ ق.م ـ ٤٨٠ ق.م).

ج ـ عصر الممالك المتحاربة (چان كيو) (٤٨٠ ق.م ـ ٢٢١ ق.م).

٤ ـ أسرة چهن Chhin (٢٢١ ق.م ـ ٢٠٦ ق.م).

٥ ـ أسرة هان Han (٢٠٦ ق.م ـ ٢٢٠م).

كل أسرة أو مملكة قامت في الصين كان فيها طبقة من الساسة تمسك بالسلطة، ومع السلطة تملك الأرض في دول وممالك عمادها الزراعة، وبالمقابل هناك مواطنون خاضعون لهذه الطبقة هم الفلاحون وسائر قطاعات الإنتاج.

وقد ساد مفهوم سياسي أعطى هالة للحاكم الامبراطور، هذا المفهوم مفاده أن هذا الحاكم الأول ورئيس طبقة النبلاء من أسرته إنما هو ابن السماء، والسماء عندهم رب الأرباب، وعندهم أن سلطة هذا الامبراطور ممنوحة له من سيد الأعالي السماء، وعلى الناس أن يخضعوا له، وهو مرجع سياسي وديني. أما انتقال السلطة في الأسرة الحاكمة فهو وراثي من الأب إلى الابن، مع الإشارة إلى أن هذا الحاكم قد تكون له زوجة شرعية، وأخريات من النساء ينجب منهن من دون أن يكنَّ زوجات شرعيات، وإذا كانت الحالة كذلك فإن الوارث للحكم هو الابن البكر من الزوجة الشرعية من دون سواه.

أما النظام السياسي الإداري عندهم فقد كانت السلطة فيه متمركزة بيد الحاكم الامبراطور، يليه وزيره الأول الذي يقاربه في الصلاحيات الممنوحة له، ثمَّ يكون ثلاثة وزراء يختص كلٌّ منهم بميدان معين؛ وهم وزراء الزراعة، والحرب، والأشغال العامة، وهذا الأخير يدخل في اختصاصه الاهتمام بتوزيع الأراضي بعد الفيضانات، أو بين الفلاحين من قِبَل الإقطاعيين، كما أنه يعتني بالطرقات وبناء السدود المائية، وشقِّ أقنية الري، ويرعى الصناعات والحِرَف، وبذلك يكون وزير الأشغال، وكأنه أكثر من وزير لوزارة محددة، ثم تكون الهيكلية الإدارية من المعاونين والموظفين كما الحال في أية دولة.

يتبيَّن من المراجعة للتشكيل الإداري في الصين مستوى من الدقَّة في التنظيم، فالوحدة الإدارية هي القرية، والمجموعة المتجاورة من القرى تتوسطها بلدة كبيرة تشكل معاً (بينا)؛ أي مقاطعة، وعندما يكون أكثر من (بينا) في موقع تشكل (فو)، وكل عدد من الـ(فو)، لحدود الثلاثة، تشكل (دو) أي دائرة، وعندما يجتمع أكثر من (دو) يكون منها (شنج)؛ أي إقليم.

كل دائرة إدارية من (بينا) فما فوق كان يدير شؤونها إداري موظف تعيِّنه السلطة الحاكمة، وكان الجهاز الإداري في مستوى الـ(فو) فما فوق يتألف من موظف رئيس للإدارة، ومعه قاضٍ، وخازن لبيت المال، وغيرهم، أما الإقليم فإن حاكمه يعدُّ نائباً للامبراطور ومفوضاً من قِبَله كما هو حال المحافظين أو الولاة في التنظيمات الإدارية المعاصرة.

وتجدر الملاحظة أن مسار الإدارة في الصين كان يعتمد مرجعية العادات والتقاليد أكثر من اعتماد القانون ما أضعف دور القضاء، وزاد من حالات الفساد، وأنتج الضعف، مما أمَّن جوّاً لتعاقب الأُسَر على السلطة.

أما الجيش، وهو ذراع السلطة الأمنية والوقائية، فقد كان محل عناية الحكومات والحكام، وضاعف من هذا الاهتمام الحاجة إلى جند قوي لحكم بلاد واسعة معرَّضة للغزو، ولمجموعات التمرد والسلب. وكان

الجيش يتألف من أبناء تقدم كل أسرة أحدهم، وكانوا يعتمدون تنظيماً عسكريّاً يوزِّع الجيش إلى نظام يقوم على خمسة فيالق لكل جيش، والفيلق يتوزع في خمس كتائب، والكتيبة في خمس فرق هي: فرقة الخيّالة، وفرقة عربات الخيل، وفرقة الحراب، وفرقة القوس، وفرقة المشاة، يرافقهم حملة الأعلام والطبول وبيدهم إصدار الأوامر.

المجتمع والأسرة

لم يكن المجتمع البشري الصيني مختلفاً عن سواه، فقد كان مجتمعاً ذكوريّاً ينتظر الأبناء الذكور، وكان شبه مذلَّة للمرأة التي أنجبت إناثاً ولم تنجب ذكوراً، لأن الرجال أكثر قدرة بدنية على العمل في الزراعة وغيرها، وأكثر قدرة في ميدان القتال. وكان الرجال ينفردون بتقديم القرابين للأسلاف، ولا يحق ذلك للإناث.

تحضُّ تقاليد الصين القديمة على الزواج، وكانوا يعدون الامتناع عن الزواج عيباً خلقيّاً، حتى أن بعض الإدارات كانت تكلِّف موظفاً بعمليات تفقُّد المواطنين لجهة أن يكون كل مَن بلغ الثلاثين من الرجال متزوجاً، وكل مَن بلغت العشرين من النساء متزوجة، لأن العزوبة خطر على الجنس البشري، وجريمة ضد الأسلاف.

كان عند قدامى الصين ثمة تبعات على إتمام الزواج، منها أن العروس يجب أن تحمل معها بائنة (دوطة) إلى بيت العريس هي عبارة عن أغراض جهازية، وتُربَّى على طاعة زوجها الذي لا يسمح له اللقاء بها قبل الزْواج، وواجبها أن تخدمه وتخدم والديه.

فقراء الصين كانوا يكتفون بزوجة واحدة، لكن الميسورين، ولغرض إنجاب الذكور، يتجاوزون إلى الزواج من عدد من الزوجات أو السراري، وكذلك كانوا يعدِّدون الزوجات حال كانت الزوجة الأولى عاقراً.

أما النبلاء فقد كان لهم حالات خاصة، فكل واحد منهم كانت له زوجة أساسية يتزوجها في حفل علني، ومن ثمَّ يكون له زوجات ثانويات لا عدد محدَّد لهن. أما مَن كان من طبقة النبلاء والإقطاعيين في مركز مرموق فيتخذ له زوجتين رئيستين وأخريات ثانويات، ومَن كان في موقع قيادي في الإدارة فتكون له ثلاث زوجات وأُخريات ثانويات، والأمير الذي يتولى إقليماً تكون له تسع نساء، وأما الامبراطور أو الملك فتكون له اثنتا عشرة امرأة، وعدد غير محدد من النساء الثانويات والسراري، وبعض السراري والغواني كان الرجل يضمهن إلى زوجاته شراء بالمال.

أما ولادة الأطفال فإنها لم تكن تحظى بأية طقوس، لكن اشتهر عن بعضهم قتل الطفل الذي يولد في وقت يعدُّونه وقت شؤم، والمصير نفسه كان يلقاه الطفل الذي يولد في الشهر الذي كان قد وُلِد فيه أبوه، ويُقتل أطفال التوائم الثلاثة.

كانوا يتركون المولود معزولاً لثلاثة أيام، بعدها، وبناء لقرار رب الأسرة، ينقلونه إلى النساء ليُرضعنه، وتكون مع ذلك ذبيحة قربان، وفي سنِّ الفتوة كانوا يقيمون حفلة قصِّ الشعر، ويتركون للذكر خصلة شعر تشبه القرن، وللأنثى خصل شعر على شكل صليب، ثم يتمُّ اختيار اسم المولود (منغ)، ويُدوَّن في سجل الأسرة.

التمييز كان حاضراً عند الصينيين القدماء على أساس النوع بين الرجل والمرأة، وكانت النساء يعتزلن في أقسام خاصة من المنزل، ولا حضور اجتماعي لهن إلا نادراً. وقد عبَّر عن ذلك شعراً فوشوان قائلاً:

«ألا ما أتعس حظَّ المرأة

ليس في العالم كلِّه شيء أقلَّ قيمة منها»

أما الجانب التربوي فإن التمييز كان حاضراً فيه بقوة، حيث كانوا يرسلون الذكور لتحصيل العلم بين سنِّ العشر سنوات والعشرين سنة، بعدها تعطى له قبعة رجالية (كوان) تشير إلى أنه قد أصبح رجلاً، ويعود إلى أهله تاركاً شعر رأسه بدون قصٍّ لمدة شهرين، ثم تكون حفلة له، ويُعطى اسماً جديداً (تسيو)، أما العلوم التي كان يحصِّلها فهي الكتابة، والحساب، والموسيقى، وقيادة عربات الخيل، والرمي بالقوس.

وكانت الفتاة تُفصل عن الفتيان عند سن العاشرة، وتضاف إلى قسم النساء في المنزل، ويتمُّ تدريبها على الأعمال الموكولة إلى النساء، وعند سن العشرين كانوا يعطونها دبوس زينة لشعرها (كي) واسماً جديداً، وبذلك يكون حال المرأة عند قدامى الصينيين كغيرهم من الشعوب والأمم.

خلاصات حول حضارة الصين القديمة

١ ـ إن اتساع رقعة الأراضي التي تقوم عليها الصين منذ القدم، يضاف إلى ذلك موقعها في أقصى الشرق، جعلا منها بلداً عاش آلاف السنين بدون أن يتفاعل مع غيره من الأمم والشعوب، وهذا ما ترك آثاره على العلاقات الدولية للصين، وإلى يومنا هذا. ورغم التطور الاقتصادي الباهر والمميَّز الذي انتشرت إنجازاته في العالم قاطبة لا نجد تفاعلاً سياسيّاً، ودوراً للصين يوازي هذه القدرات الحضارية المعاصرة، وربما كان السبب المناخ الثقافي الصيني الموروث منذ أقدم العصور.

٢ ـ لقد برزت العناية بالفلسفة في الصين، حيث ظهر فلاسفة وفلسفات سبقت ما كان عند أمم أخرى، وفلسفة الصين ـ إلا قليلاً ـ لم تتجه إلى الماورائيات، وإنما كانت فلسفة عملية وجهت نظرياتها إلى شؤون الحياة، وأحجمت عن مباحث ما وراء الطبيعة، وما بعد الموت.

٣ ـ لقد قدَّمت الصين قبل آلاف السنين كشوفاً علمية مهمة كان أبرزها في الطِّب، وما تميَّزت به الصين لجهة العلاج بالإبر، وهذه الطريقة في العلاج تُعرف باسم: العلاج بالإبر الصينية، إلى يومنا هذا.

٤ ـ لقد بدأت تقنيات الصناعة باكراً عند قدامى الصين، ومما تميزوا به الحرير، واشتهر ذلك من خلال إطلاق اسم: درب الحرير القديم، على طرق التبادل التجاري الصينية مع العالم المعلوم يومها. والصناعة الثانية هي الخزف المستخدم في الأدوات المطبخية، حتى أن الأدوات باتت تشتهر ـ إلى يومنا هذا ـ بالاسم المستمَد منهم، فيقال للصحون الخزفية: الصحون الصينية، يضاف إلى ذلك صناعة الورق والحبر، وهما صناعتان لا تزال الصين متقدمة فيهما حتى اليوم.

٥ ـ لقد ساد الصين، منذ آلاف السنين،

نظام حكـم إقطاعي، حيث كانت السلطة في يـد مـلاَّك الأرض الزراعيـة حتـى العـام ١٩١١م، وهــذه السلطة كانـت تتعاقب عليها أُسر إقطاعية، ينتقل فيها الحكم بالوراثة.

والملاحظـة الثانية هـي اعتمـاد هيكلية إدارية هرمية، تبدأ بإدارة القرية وصولاً إلى الامبراطور وهو رأس الهرم.

أمـا الملاحظـة الثالثـة فهـي أن الصين كانت تسود فيها التقاليـد والأعراف، وكانت القوانين تجد عوائق في طريقها إلى التنفيذ.

٦ ـ لم يكن العامل الديني فاعلاً وحاضراً في حضـارة الصين القديمة كمـا الحال في حضـارة الهند أو وادي النيـل أو بلاد ما بين النهريـن، وقـد هيَّـأ هـذا الأمـر مُناخـاً للكنفوشية كي تتأصل وتترسخ في الشخصية الصينيـة الثقافيـة لآلاف السنيـن، لكونهـا فلسفـة أخلاقيـة تهتـم بتنظيـم الاجتمـاع البشري، وبالإنسان في مختلف شؤون حياته، مـن الـولادة إلـى المـوت، أسـرة واقتصاداً وتربية وسياسة.. إلخ.

المصادر والمراجع

- إيمـار، أندريه، وأوبوايـه، جامين، **تاريخ الحضـارات القديمة**، ١٣، نقله إلى العربية فريـد داغر، وفؤاد أبو ريحان، بيروت، دار عويدات، ط١، سنة ٢٠٠٣.
- توينبي، أرنولد، **تاريخ البشرية**، عرَّبه د. نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط٣، سنة ١٩٨٥.
- توينبـي، أرنولـد، **مختصـر لدراسة التاريـخ**، ترجمة فـؤاد محمد شبـل، مراجعة أحمد عـزت عبدالكريم، القاهرة، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ط١، سنة ١٩٦٠.
- ديورانت، ويل، **قصة الحضارة**، ج٤، بيروت، دار الجيل، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
- السحمرانـي، أسعـد، مـن **قامـوس الأديـان (الشنتويـة ـ الكنفوشيـة)** بيـروت، دار النفائـس، ط١، سنـة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- سعفان، د. حسن شحاتة، **كنفوشيوس**، القاهرة، دار نهضة مصر، بدون تاريخ.
- كولـر، جون، **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة د. إمام عبدالفتاح إمام، الكويت، عالم المعرفة، تموز ـ يوليو ١٩٩٥.
- نيدهـام، جوزيف، **موجز تارخي العلم والحضارة في الصيـن**، ترجمة محمد غريب جودة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥.

الحضارة الطروادية[1]

أ. د. محمد سهيل طقوش

(١) أنظر الحضارة الإيجية.

تتباين الروايات في أصل الطرواديين، فتُرجعهم بعضها إلى أصل بلقاني عبروا مضيق الدردنيل في القرن السادس عشر قبل الميلاد مع أبناء عمومتهم الفريجيين، واستقروا في وادي اسكمندر الأدنى على الساحل الغربي لآسيا الصغرى (تركيا حاليّاً)، وتذهب روايات أخرى إلى أنهم أقوام من كريت نزحوا بعد تدمير كنوسوس واستقروا في المكان الذي بُنيت فيه طروادة فيما بعد، بدليل أنه كان لكريت وطروادة جبل مقدس يسمّى جبل أيدو ذو الفوارات الكثيرة.

وتعرَّض ساحل آسيا الصغرى الغربي لمؤثرات حثية سياسية وجنسية، وتدل أعمال الحفر على وجود حضارة متعددة الخصائص مينوية وميسينية وآسيوية ودانوبية. ويتكلم الطرواديون اللغة اليونانية، ويعبدون آلهة يونانية، ويصفهم اليونانيون المتأخرون عن عصر هوميروس بأنهم آسيويون، وأن حصار مدينتهم المشهور الذي وقع في عام (١١٩٤ ق.م) هو أول حلقة من حلقات الصراع القديم بين الشرق الآسيوي والغرب الأوروبي أو بين الساميين والآريين.

عبرت التجارة الميسينية كما عبر النفوذ الميسيني البحر من قبرص إلى سوريا وكاريا وانتقل منهما عن طريق الشواطئ والجزر الآسيوية إلى طروادة الواقعة على تل تفصله عن البحر مسافة ثلاثة أميال. وقد مرَّت هذه المدينة بتسع مراحل زمنية متعاقبة هي عبارة عن تسع مدن، كل واحدة فوق الأخرى، وتُنسب حضارتها إلى الحضارة الإيجية.

وُجدت في الطبقة الدنيا، أي طروادة الأولى، بقايا قرية من العصر الحجري الحديث، يبدأ تاريخها من عام (٣٠٠٠ ق.م) وينتهي في عام (٢٤٠٠ ق.م)، وعُثر فيها على جدران من الحجارة غير منحوتة تتخللها طبقات من الطين، وقواقع حلزونية، وقطع من العاج المشغول، وأدوات من الحجر الزجاجي، وقطع من الفخار المصقول باليد، وبقايا عظام حيوانات ومأكولات بحرية.

لم تكن هذه المدينة الأولى مدينة بالمعنى المفهوم للكلمة، على الرغم من أنها كانت محاطة بسور دائري، وشُيِّد فيها قصر لعله كان لأمير قوي.

ووُجدت فوق هذه الآثار أنقاض المدينة الثانية، أي طروادة الثانية التي لا يتجاوز محيطها ربع ميل، وهي أشبه بالقلعة منها بالمدينة، محاطة بسور من حجارة ضخمة يشبه أسوار ميسيني وتيرنثوس، مدعَّم بأبراج ناتئة عند الجوانب، وقلاع، وفي أركانها أبواب ضخمة مزدوجة، وثمة منحدر معبَّد يؤدي إلى البوابة، ومنازل تعلو نحو أربعة أقدام بُنيت من الآجر والخشب فوق أساس حجري، وطراز قصر الملك المعماري هو طراز الميغارون، يحتوي على بهو كبير مُزوَّد بموقد مستدير، وأطراف جدرانه الجانبية مبنية من الآجر ومكسوة بالخشب لوقايتها.

وعُثر في هذه المدينة الثانية على كميات كبيرة من الدبابيس الذهبية والفضية والأقراط والأواني والأسلحة وتماثيل صغيرة، متأثرة بأساليبها ببلاد ما بين النهرين، ما يدل على أن الصنَّاع إما أن يكونوا قد وفدوا من هذه البلاد أو أنهم كانوا متأثرين بفنونها. ثم حلَّ البرونز محل الحجر في صنع الأدوات والأسلحة والحلي لكن التماثيل الصغيرة بقيت بدائية الصنع

خشنة وفجة. ويبدو أن الإنتاج الصناعي المحلي لم يكن يكفي حاجة الاستهلاك الداخلي، لذا عمد السكان إلى استيراد أواني فخارية من أوروبا وبخاصة البرنيق.

تطوَّرت الحياة في هذه المدينة الثانية بشكل مُلفت، وظهر الثراء على مجتمعها على الرغم من أن السكان لم يكن لهم إلمام بالكتابة، ويبدو أن ذلك نشأ عن سيطرة الطرواديين على الطريق البحري المار بالدردنيل وفرضهم المكوس على السفن المارَّة بهذا المضيق، وهيمنتهم على الطرق التجارية التي تربط البلقان بوسط الأناضول، واستغلالهم مناجم الفضة التي زخرت بها تلك المنطقة.

والواقع أن تجارة المعادن الثمينة والأحجار الكريمة قد نشطت في طروادة وهي مستوردة من جهات نائية، مثل الأوبسيديان من ميلوس، واللازورد من هضبة إيران، والكهرمان والخيل والسيوف من بلاد الدانوب وتراقيا، والنحاس وزيت الزيتون والخمر والفخار من الجزء الجنوبي من بحر إيجة. واستوردت طروادة من البلاد المحيطة بها خشباً وفضة وذهباً وحمراً برية، وصدَّرتها إلى الخارج. واشتهر أهلها بأنهم مروِّضو خيول.

تعرَّضت طروادة الثانية لغزو مدمِّر في عام (٢٢٠٠ ق.م) قام به اللوبيون، وهم قبائل هندو-أوروبية، جاؤوا من المناطق المتاخمة لبحر قزوين والبحر الأسود، فاقتحموا آسيا الصغرى واستقروا في ليكيا وبامفيليا وقيليقيا، وأحرقوا المدينة، ويتضح ذلك من مخلفاتها.

ووُجدت فوق مدينة طروادة الثانية المحروقة بقايا ثلاث دساكر متتالية صغيرة وفقيرة لا قيمة أثرية لها.

وقامت مدينة طروادة السادسة حوالي عام (١٦٠٠ ق.م) على هذا التل التاريخي، ومساحتها أكبر من مساحة المدينة الثانية، وهي مزدانة بالمباني الكبيرة المبنية من حجارة مسوَّاة، يحيط بها سور يرتفع ثلاثين قدماً ذو أبواب في أركانه. ووُجد في أنقاضها مزهريات أدق صنعاً من المزهريات التي وُجدت من قبل، كما وُجدت فيها آنية شبيهة بآنية أوركمنوس وقطع من الفخار شبيهة بفخار ميسيني. إنها مدينة هوميروس التي حاصرها الآخيون بين عامَي (١١٩٤ و١١٨٤ ق.م) ودمَّروها.

لم تقم طروادة من كبوتها بعد تدميرها على أيدي الآخيين، وأضحت قرية في الطرف الشرقي لبحر إيجة خاضعة لليونان غالباً.

المصادر والمراجع

- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة، المجلد الثاني الجزء الأول، حياة اليونان**، ترجمة محمد بدران. القاهرة.
- علي، عبداللطيف أحمد: **التاريخ اليوناني، الجزء الثاني**، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م.
- Gardiner, E.N.: **Athletics of the Ancient World**, Oxford, 1930.
- Gardiner, P: - **New Chapters in Greek History**, N.Y, 1892.
  - **Principles of Greek** Art. N.Y. 1914.
- Herodotus: **History**, Trans. by Rawlinson, London, 1862.
- Pausanias: **Description of Greece**, London 1806.
- Pliny: **Natural History**, Trans. by H. Rakhan, London, 1969.

الحضارة العبرانية

(العبرانيون / Hébreux)

أ. د. أسعد السحمراني



لـم يؤسـس العبرانيون حضـارة، ولا نجد لهـم أثـراً حضاريّـاً واحـداً فـي مختلـف المجالات، وقد أدرجنا هـذا العنوان في هذه الموسوعة لأن بعض الموسوعات ذكرته ضمن موضوعاتها تحت عنوان «الحضارة العبرية»، وسنبيِّـن فيما يأتي لماذا لم يترك العبرانيون حضـارة، ولمـاذا لا يصـح وصـف تاريخهم بالحضاري؟.

أصل الكلمة

عبـري Hébreux: مصطلـح اجتماعـي يؤشِّـر إلـى نمـط فـي أساليـب العيـش هو البداوة، فالعبرانيون يترحَّلون من مكان لآخر ولا يعرفـون الاستقـرار على موقـع جغرافي محدد.

والمفـردة: خبيـرو أو هبيـرو أو عبيرو، وصُحِّفت إلـى عبري وعبرانـي، كانت تطلق على القبائل العربية التي كانت تجوب الجزء الشمالي مـن الجزيرة العربيـة، ثم توسعت لتطلـق علـى الآراميين وسواهـم ممن كانوا يعيشون حيـاة البداوة غير المستقرة. ولهذا السبـب أُطلقت التسمية علـى إبراهيم عليه السلام ومَـن رافقـه فـي تنقلـه بيـن بلاد مـا بين النهرين ومصر مروراً ببلاد الشام، وأُطلقت كذلك على أتباع موسى عليه السلام باعتبارهم من البدو؛ أي القبائل الرحَّـل. والتسمية وصلت إلى قـوم موسى ولم تبدأ معهم، لذلك يكون من الخطأ إطلاق صفة عبراني على مَن هو يهودي، لأن العبرانية نمط معاش اجتماعي، واليهوديـة رسالـة سمـاويـة جـاء بـهـا موسى عليه السلام.

وقد حاول يهود أن يعيدوا النسب إلى نسل مزعـوم ورد ذكـره في العهـد القديـم: «وولد لسـام بنـون، وهو أبـو جميع بني عابـر» (سفر التكويـن، الإصحـاح ٢١:١٠) «وعـاش شالح ثلاثين عاماً وولـد عابر» (سفر التكوين، الإصحاح ١٤:١١). لكن يهود عمدوا إلى التشويش بشأن المصطلح إذ أطلقـوا مفردة عبـري أو عبرانـي على كل يهودي، وعدُّوا الاسمين واحداً، مع أن الحقيقة تفيـد غير ذلك. فاليهودي هـو مَن اتَّبع رسالة موسى عليه السـلام، والعبري مَن عاش بدويّاً ديدنه الترحال.

والتشويش الآخر كان باستخدام «إسرائيلي» للدلالـة ذاتهـا علـى يهـودي أو عبـري، وهذا تزوير كبيـر، إذ إن كلمة «إسرائيل» آرامية من مقطعيـن: إسـرا (عبـد)، وإيل (إلـه)، وهي إذن: عبدالإله، والاسم إسرائيل خاص بيعقوب عليـه السـلام، فليعقـوب اسمـان: يعقـوب وإسرائيـل، وبذلـك يكـون الخطـاب: يـا بني إسرائيل؛ معناه: يا نسـل يعقوب. هذا التزوير الكبيـر في المصطلح يجـده المتابع لنصوص العهـد القديم كمـا استخدمها يهـود وهي من صياغتهـم. لذلك تكـون الفرضيـة: إذا كانت هنـاك حضـارة فعـلاً فهـل هـي عبريـة أم إسرائيلية أم يهودية؟ أم غير ذلك؟ وهل يمكن لحضارة أن تكون بلا هويـة ولا موقع جغرافي قامت عليه؟

لا بل نجـد النص فـي سفر الخـروج وقد صنَّـف الغريب عن بلده الـذي يسترقُّه آخرون ويستخدمونـه بأنـه عبرانـي. النـص: «إذا اشتريت عبـداً عبرانيّاً، فليخـدم ست سنين، وفي السابعـة ينصرف مجانـاً» (سفـر الخروج، الإصحاح ٢:٢١).

فهل يبني العبيد أو البدو الرحَّل حضارة؟

أين الموقع؟

المعلوم أن الحضارة تقوم على أساس التحدي والاستجابة، وأساس التحديات الجغرافيا والبيئة، فكل الشعوب دفعتها تحديات العوامل الطبيعية، من الأنهار إلى الجبال إلى السهول إلى الصحاري، ومن توافر الماء أو ندرته، وحالات تقلُّب المناخ، إلى الاستجابة بوضع الحلول التي تؤهِّلهم للتكيُّف مع الواقع، وبسبب ذلك كانت لهم حضاراتهم.

لكن ضياع الاسم (عبري - إسرائيلي - يهودي) رافقه تشتُّت في الإقامة، فلا العبريون قبيلة أو مجموعة بشرية، ولا كانت لبني إسرائيل منطقة جغرافية ليقيموا عليها حضارتهم، ويهود أتباع رسالة توزعوا في الناس كما الحال بالنسبة لكل الديانات والرسالات.

إن فقدان الموقع الجغرافي يقود إلى القول: لا توجد في التاريخ حضارة عبرية أو عبرانية، وما ذلك إلا زعم وادعاء.

إن القدس كنعانية النشأة والمسار التاريخي الحضاري، ومن الكنعانيين كان اليبوسيون، ولذلك سميت القدس: يبوس. وداود وسليمان أقاما في القدس مع سكانها اليبوسيين وفي محيطها مع سائر سكان أهل الأرض الأصليين.

أما ما جاء في العهد القديم عن بناء يدَّعونه ويسمُّونه «الهيكل» فلا يُعتد به، ولم تستطع الحفريات الحديثة العثور عليه، على الرغم مما يبذله الكيان الصهيوني من جهود، وإن وُجد في مكان ما (فهو يخص بني إسرائيل ولا علاقة للعبرانيين به) ونظنُّه بناء من دون أي إبداع فني أو بنائي، وإلى أن توجد أية آثار تدل على حضارة ما لنسل إسرائيل، فإننا لا نستطيع إعطاءهم أية صفة حضارية.

وكذلك فإن ما ورد في القرآن الكريم عن مُلك داود وسليمان، وهما من نسل إسرائيل (يعقوب)، فإن فترة استقرارهم في قسم من أرض فلسطين لم تتعدَّ الثلاث والسبعين سنة، وفق نص العهد القديم نفسه: «وكان داود ابن ثلاثين سنة يوم ملك، وملك أربعين سنة، ملك في حبرون، على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وملك في أورشليم ثلاثة وثلاثين سنة على كل إسرائيل ويهوذا. وزحف الملك ورجاله على أورشليم، على اليبوسيين سكان الأرض» (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٥: ٤، ٥، ٦).

وفي نص آخر: «وكانت أيام ملك سليمان في أورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة» (سفر الملوك الأول، الإصحاح ١١: ٤٢).

وما جرى على أيديهما من صناعة الدروع وما شابهها، أو الصرح الممرَّد من قوارير، أو تعلُّم منطق الطير وغيره، فهي معجزات خصَّ الله أنبياءه بها، ولا علاقة لها بأية حضارة.

لقد كتب يهود في العهد القديم ما يفيد ذلك صراحة: «وكان بعد ذلك أن داود ضرب الفلسطينيين وأذلَّهم، وأخذ داود زمام الحكم من أيدي الفلسطينيين. وضرب الموآبيين وقاسمهم بالحبل، مُضجعاً إياهم على الأرض. فقاس منهم حبلين للقتل وطول حبل للاستبقاء. وصار الموآبيون رعايا لداود يؤدون الجزية. وضرب داود هدد بن عازار بن رحوب، ملك صوبَة.. فقتل داود من الآراميين اثنين وعشرين ألف رجل، وأقام داود محافظين في أرام دمشق، فصار الآراميون رعايا لداود يدفعون الجزية» (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٨: ١ - ٦).

داود جاء غازياً واحتلَّ أرض الموآبيين والآراميين، وهل المحتل يكون صاحب البلد؟

كم من الأُمم والشعوب تعرضت بلادها للاحتلال من قبيلة أو بلد آخر ثم ما لبثت أن تحرَّرت، فهل يخرج داود عن هذا؟ هذا إن صدقت كل الوقائع كما صاغها يهود في العهد القديم الذي استمر تدوينه ثمانية قرون. فالمساحة التي يدَّعون أنها أرض لهم إنما هي لقبائل وممالك أخرى، وهم بدو ترحَّلوا بين وادي النيل وشرقي نهر الأردن، وما بين النهرين، وعرَّجوا لبعض الوقت على جنوب فلسطين (غزة) وهنا أرض الفلسطينيين، والقدس أرض كنعان ويبوس، ومما يؤكد ذلك ما قالوه بأنفسهم: «ولما سمع أدوني صادق، ملك أورشليم، أن يشوع قد استولى على العَيِّ وحرَّمها... وأن أهل جبعون قد سالموا إسرائيل خاف خوفاً شديداً... فأرسل إلى هوهام ملك حبرون، وفِرآم، ملك برموت، ويافيع ملك لاكيش، ودبير ملك عجلون... فتجمَّع ملوك الأموريين الخمسة.. وصعدوا بجميع جيوشهم وعسكروا على جبعون وحاربوها» (سفر يشوع، الإصحاح ١٠: ١-٥).

أدوني صادق كان ملكاً على أورشليم القدس، وقد دعا كل حكام الإمارات الأمورية المحيطة لمقاومة الغزاة الطامعين بقيادة يشوع. فالبلاد إذن لا وجود ليهود فيها، ولا لبني إسرائيل (يعقوب)، ولا لعبرانيين، والعبرانية بداوة يُسمَّى بها أي شعب.

كل هذا يؤكد أنه لا موقع جغرافي خاص بهؤلاء الناس وإنما هم قبائل غازية، وكيف يكون لمترحلين غير مستقرين أن يؤسسوا حضارة؟!

والدليل بإقرارهم أنهم رُحَّل غير مستقرين وأن يعقوب عليه السلام أوصى أن يتمَّ دفنه في مغارة لمواطن حِثّي، جاء عندهم في سفر التكوين: «أنا منضم إلى أجدادي. فادفنوني مع آبائي في المغارة التي في حقل عفرون الحثِّي، المغارة التي في حقل المكفيلة، بإزاء ممرا، في أرض كنعان. والتي اشتراها إبراهيم مع الحقل من عفرون الحثِّي، ملِك عبر» (سفر التكوين، الإصحاح ٤٩: ٢٩، ٣٠).

وإذا كانت المقابر والعمارة الجنائزية دليلين على حضارة شعب، وإشارة إلى استقراره في منطقة ما، وتواصل أجياله تاريخيّاً، فإن ذلك غير متوافر، فإبراهيم امتلك قبراً بالشراء من عقار لعفرون الحثي، والأرض من بلاد كنعان، أبَعْد كل هذا يقال: حضارة عبرانية؟! أين الموقع الذي نشأت فيه هذه الحضارة؟

وتأتي نصوصهم لتبيِّن أن يعقوب وقومه وافدون من مصر، وهم من مكوِّنات المجتمع المصري، وبهذا جاء في سفر التكوين بشأن جنازة يعقوب ما يلي: «فوصلوا إلى بيدر الشوكة الذي في عِبْر الأردن، وندبوه هناك ندباً عظيماً وبليغاً جدّاً، وأقام يوسف لأبيه مناحة سبعة أيام. فرأى سكان أرض كنعان المناحة في بيدر الشوكة، فقالوا: هذه مناحة عظيمة للمصريين. ولذلك سمِّي المكان مناحة المصريين، وهي في عبْر الأردن» (سفر التكوين، الإصحاح ٥٠: ١٠، ١١).

الأرض كنعانية وفد إليها بنو إسرائيل من مصر ودفنوا ميتاً لهم وهي في عِبْر الأردن لا في القدس (أورشليم)، وهذا يؤكد مجدداً أنه لا استقرار لشعب عبري أو إسرائيلي في أرض معيَّنة ليقيم حضارة.

ويؤكدون أن مصر هي بلدهم عندما يتحدثون عن يوسف عليه السلام، والنص:

«وأقام يوسف بمصر وهو بيت أبيه» (سفر التكوين، الإصحاح ٢٢:٥٠) وفي نص آخر: «ومات يوسف وهو ابن مئة وعشر سنين، فحنّطوه وجُعل في تابوت في مصر» (سفر التكوين، الإصحاح ٢٦:٥٠).

إذاً ما الذي يربط هؤلاء الناس بالقدس أو فلسطين حتى يبنوا فيها حضارة؟ يعقوب اسمه الثاني إسرائيل، وابنه يوسف عاش في بيت أبيه من بلاد مصر، وعند موته تمَّ تحنيط جثمانه على طريقة المصريين القدامى، فهذه كلها تبيِّن تهافت المزاعم القائلة بوجود حضارة عبرانية في فلسطين.

أما إذا انتقل الحديث إلى موسى وقومه، فالحكاية لا تختلف، فموسى عاش مع شعبه تحت حكم الفراعنة، وكانوا مستعبَدين للخدمة، وكانوا يُعاملون بقسوة، لذلك أحبَّ أن يخرج بهم كأي شخص أو مجموعة تجد حياة أفضل خارج بلدها. وقد كتبوا ذلك في سفر الخروج:

«فهرب موسى من وجه فرعون وانطلق إلى أرض مدين وجلس عند البئر» (سفر الخروج، الإصحاح ١٥:٢).

«فنزلت لأنقذه من أيدي المصريين وأُصعده من هذه الأرض إلى أرض طيِّبة واسعة، إلى أرض تدر لبناً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيين، والحثيين، والأموريين، والفرزيين، والحويين، واليبوسيين» (سفر الخروج، الإصحاح ٨:٣).

إن موسى هرب بشعبه من ظلم فرعون إلى بلاد تقوم فيها حضارات ولها سكان وشعوب، فهل كل مَن أقام عند قوم يكون قد صادر حضارتهم وبلادهم؟! وموسى الذي أقام عند ماء مدين، وهي مياه في الأردن على الطريق نزولاً باتجاه الأغوار، ومدين قوم شعيب عليه السلام، وقد طلبت إحدى ابنتَي شعيب من والدها أن يستأجر موسى، فهل كل هذا يفيد أن لهم موقعاً وأنهم بنوا عليه حضارة؟ إن هذه المتابعة تبيِّن أنهم لم يستقروا في موضع بعينه، وبالتالي مَن لا موقع جغرافي له لا حضارة له. وإذا كان بعض قدامى يهود - وهم قلة - قد أقاموا في بعض مناطق فلسطين، فإنهم لم يكونوا يوماً مستقرين أو مستقلين ليؤسسوا أية مسيرة حضارية خاصة. وبالعودة إلى كتاب «تاريخ فلسطين القديم» نقرأ ما يلي: وقد تجاهل أحد رحّالة القرن الخامس قبل الميلاد المؤرخ المعروف هيرودوتس (Herodo-tus) ذكر يهود ودولتهم ما عدا القدس وبعض الأماكن التي لم تبعد عن القدس أكثر من عشرة أميال.

ويعلِّق على موقف هيرودوتس هذا الدكتور فوكس جاكسون (Foakes Jackson) الأستاذ بجامعة كمبردج في كتابه (يوسف ويهود) قائلاً إن «تفسيره بسيط غاية البساطة. لقد كانت مملكة يهوذا مقاطعة غاية في الصغر، وكان سكانها من التفاهة في العدد لدرجة أن أذكى وأبصر السوّاح في القرن الخامس قبل الميلاد: هيرودوتس، كان يزور ما كانت تسمَّى بفلسطين سورية أو بسورية فلسطين، وقد لا يسمع عن يهود شيئاً أبداً. ولا بد أن القدس كانت في أيام نحميا (القرن الخامس قبل الميلاد)، مدينة خاملة الذكر جدّاً بحيث لا تُغري سكان المدن المجاورة لها بسكناها إلا بشقِّ الأنفس. والأجدر بالملاحظة من تفاهة يهود في فلسطين في زمن نحميا (٤٤٥ق.م-٤٣٢ق.م) هو أن رقعتهم قد ظلت ضيقة... ولم يصبحوا قوة في البلاد إلا حوالي منتصف القرن الثاني قبل الميلاد (حكم المكابيين). وما من شك أنهم

كانوا عديدين في بابل وفي مصر، أما في فلسطين فقد كانوا قلّة تافهة».

وتطول القائمة لو سرد الكاتب سيرورة حياة يهود، فهم أتباع معتقد ينتسبون إلى قوميات شتى، ولم تكن لهم بقعة خاصة ليقيموا عليها حضارة.

كما أن مراجعة بعض الكتابات حول نسبة يهود اليوم تبين أن ٩٢ بالمئة منهم أصلهم من العرق الخزري الذين كانوا يقيمون على ضفاف بحر قزوين، وقد تهوّدوا مع ملكهم بولان (Bulan) بدءاً من العام ٧٤٠ بعد الميلاد، وهو تاريخ متأخر، وبعد انقراض مملكتهم توزعوا في أوروبا وبعض آسيا، ولغتهم العبرية الحالية هي في الحقيقة لغة تسمى «اليديشية» وهي مزيج من بعض العبرية مع لغة ألمانية قديمة، وفي كل ذلك لا يمتُّون بصلة إلى الأرض العربية وفي القلب منها فلسطين والقدس. يراجع كتاب (القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم لمؤلفه اليهودي آرثر كيستلر Arthur Koestler).

علاقاتهم بالمحيط

إن مَن آمنوا باليهودية قاموا بصياغة نصهم المقدس بما يرضي دفائن نفوسهم، وأساس ذلك عنصرية طاغية تنطلق من أنهم شعب خاص ميَّزهم الرب عن سائر الشعوب حتى أنه خصَّهم باسم من أسمائه ليس لسواهم إنه: «يهوه».

واعتقاد أنهم شعب مختار دفعهم إلى الاستعلاء، واستباحة حرمات سواهم، من استباحة القتل إلى انتهاك الحرمات إلى السلب والسيطرة، وما يجده إنسان معاصر من أنواع الإجرام الصهيوني في فلسطين المحتلة وضد العرب لا يختلف عمّا هو موجود في نصوص العهد القديم عندهم.

وهؤلاء القوم، وهم متوزعون في أكثر من بلد عربي تاريخيّاً (ما خلا مَن تهوَّد من الخزر، وهم ٩٢٪ من يهود اليوم)، وموجودون في غير الأرض العربية لم تستقر بهم الحال ـ كما مرَّ سابقاً ـ وكانوا يعيشون حياة حرب، وكل نصوصهم تدفعهم إلى العسكرة والتسلُّح، وقد تباهوا في أشكال العدوان والحروب التي خاضوها ضد أية إمارة أو مملكة معاصرة لهم، وأعطوا لأنفسهم حقّاً دينيّاً بالقتل والإرهاب.

يزعمون بأن الرب قد وعدهم عند الخروج من مصر أن ينهزم أمامهم كل أهل البلاد الأصليين، وأنه يوصيهم بعدم التزام أي ميثاق أو عهد مع أي شعب. ففي سفر الخروج: «ها أنا ذا طارد من أمام وجهك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. فاحذر أن تقطع عهداً مع أهل الأرض التي داخل إليها، لئلا يكون فخّاً في وسطكم» (سفر الخروج، الإصحاح ١٢:٣٤).

فالأمر، بالنسبة لهم، أساسه عدم الثقة بأحد، فكل أحد قد يكون فخّاً منصوباً لهم، وكل علاقاتهم مع سواهم تقوم على الصراع والحرب.

وعندما يظفرون بأية مجموعة بشرية فإن الإبادة هي الفعل الذي يرتكبونه. بعد معركة زعموا أنهم قادوها برئاسة موسى وألعازار الكاهن كتبوا في سفر العدد: «والآن فاقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا كل امرأة عرفت مضاجعة رجل. وأما الإناث اللواتي لم يعرفن

مضاجعة الرجال فاستبقوهن لكم» (سفر العدد، الإصحاح ٣١: ١٧، ١٨).

إن مراجعة أسفار «يشوع» و«القضاة» و«صموئيل الأول» و«صموئيل الثاني» وسواها من الأسفار تُظهر أن التاريخ المدَّعي أنهم «يهود» أو «بنو إسرائيل» لم يكن سوى تاريخ مشحونٍ بالحروب والقتال، ولم تكن لهم علاقاتٌ إيجابية مع أحد، وهذا يؤكد العنصرية في فكر يهود والبداوة في أبشع وجوهها التي لا تعرف سوى الغزو وداء التنازع.

قالوا في سفر تثنية الاشتراع: **«وإذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها، فادعها أولاً إلى السلم، فإذا أجابتك بالسلم وفتحت لك أبوابها، فكل القوم الذين فيها يكونون لك تحت السخرة ويخدمونك. وإن لم تسالمك، بل حاربتك، فحاصرتها، وأسلمها الرب إلهك إلى يدك، فاضرب كل ذكر بحدِّ السَّيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وجميع ما في المدينة من غنيمة، فاغتنمها لنفسك»** (سفر تثنية الاشتراع، الإصحاح ٢٠: ١٠ـ١٤).

وفي سفر يشوع: «ولم يَرْدُد يشوع يده التي مدَّها بالحربة، حتى حرَّم جميع سكان العيِّ. ولم يغنم إسرائيل لنفسه سوى البهائم وأسلاب تلك المدينة، على حسب أمر الرب الذي أمر به يشوع. وأحرق يشوع العيَّ وجعلها ركاماً للأبد، خراباً إلى هذا اليوم» (سفر يشوع، الإصحاح ٨: ٢٦، ٢٧، ٢٨).

وجاء في سفر القضاة: «وحارب بنو يهوذا أورشليم، فاستولوا عليها وضربوها بحدِّ السيف وأحرقوا المدينة بالنار. ومن بعد ذلك نزل بنو يهوذا ليحاربوا الكنعانيين المقيمين بالجبل والنقب والسهل. وخرج يهوذا على الكنعانيين المقيمين بحبرون، وكان اسم حبرون قبلاً قرية أربع، وضربوا شيشاي وأصيمان وتلماي. وزحفوا من هناك على سكان دبير، وكان اسم دبير قبلاً قرية سِفْر» (سفر القضاة، الإصحاح ١: ٨، ٩، ١٠).

وجاء في سفر صموئيل الأول: «وخرج إسرائيل على الفلسطينيين للحرب فعسكروا عند أبان هاعيزر، وعسكر الفلسطينيون في أفيق. واصطفَّ الفلسطينيون بإزاء إسرائيل، واتسع القتال، فانكسر إسرائيل أمام الفلسطينيين» (سفر صموئيل الأول، الإصحاح ٢: ١، ٢).

وفي نص من سفر صموئيل الثاني: «ولما كان مدار السنة في وقت خروج الملوك إلى الحرب، أرسل داود يوآب وضباطه معه وكل إسرائيل فأهلكوا بني عمّون وحاصروا ربَّة» (سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ١١:١).

إن هذا نزر يسير من النصوص التي تعج بألوان القتال والتدمير والإحراق والإبادة، ما يبيِّن أن فئة هذا شأنها لم تقم علاقات مع أية مملكة أو قبيلة أو جهة يجاورونها أو يعيشون معها، وفي مصر حيث كانوا يعيشون اضطروا للفرار بسبب مفاسدهم، وبقيت حالهم كذلك بسبب معتقداتهم الفاسدة، ومفاهيمهم الإجرامية، وفكرهم العنصري.

هل خلَّفوا حضارة؟

إن مجموعة بشرية لا استقرار جغرافي لها، ولا عاش أفرادها في بلد محدد، وأغلب أيامهم كانت صراعات وحروباً ـ كما ظهر من العرض السابق ـ فكيف تكون الحضارة مع البداوة والعبور من منطقة إلى أخرى؟ وكيف تكون الحضارة والممارسات هي إحراق مدن وتدمير عمران في مدن يدخلونها؟

هـذا الواقـع دفـع مؤلفـي كتـاب «تاريـخ الحضـارات العام» إلى القـول: «فالعبرانيون لم يُدخلـوا، سياسيّاً، شيئاً جديـداً يستحق الذكر، علـى تاريـخ الحضـارة. فالثيوقراطيـة نفسهـا ليسـت نظاماً جديداً في حيـاة الشرق، حتى ولا النظام القبلي من قبل... وكذلك فإن إسهامهم الفني، بقدر تخيلنا له على الأقل، مفقود تماماً، ولم يكن له على كل حال أي أثر في الخارج».

وقـد فصَّـل الدكتـور أحمد سوسـة مواقف لمؤرخيـن ومفكريـن تؤيـد عقـم هـؤلاء القوم حضاريّـاً، منها موقف للدكتـور غوستاف لوبون الفرنسـي يقول فيـه: «لم يكن ليهـود فنون ولا علـوم ولا صناعة ولا أي شيء تقوم به حضارة، ويهود لم يأتوا قط بأيـة مساعدة مهما صغرت في إشادة المعارف البشرية، ويهود لم يجاوزوا قط الأمم شبه المتوحشة التي في التاريخ».

وقد جاءت نصـوص العهد القديم، وهو من صياغتهم، تبيِّن كيف أن الهيكل المزعوم، الذي يدَّعـون تشييده زمـن سليمان، قـد استدعى له سليمـان المهندسيـن والبنّائين ومعهـم أدوات البناء وخشـب الأرز والنحاس وكل ما يحتاجونه من صور، من ملكها حيرام.

وممـا جاء عندهـم: «وصنع حيـرام القدور والمجـارف والكـؤوس» (سفـر صموئيـل الثانـي، الإصحاح ٥: ٤، ٥، ٦).

وعندهم كذلـك: «كان حيـرام، ملك صور، قـد أمدَّ سليمان بخشـب أرز وسرو وبذهب على حسـب كل ما طاب له. إن الملك سليمان أعطى حيرام عشرين مدينة فـي أرض الجليل. فخرج حيرام من صور ليرى المـدن التي أعطاه إياها سليمـان، فلـم تحسن في عينيـه» (سفـر الملوك الأول، الإصحاح ١١: ٤٢).

أية حضـارة عند قـوم لا يقـوون على صنع الأدوات البسيطة؟ ثم كيـف يهبون مدناً يدَّعون أنها لهم مقابـل بعض الخشـب والذهب؟ فأين علاقتهم بهذه المدن؟

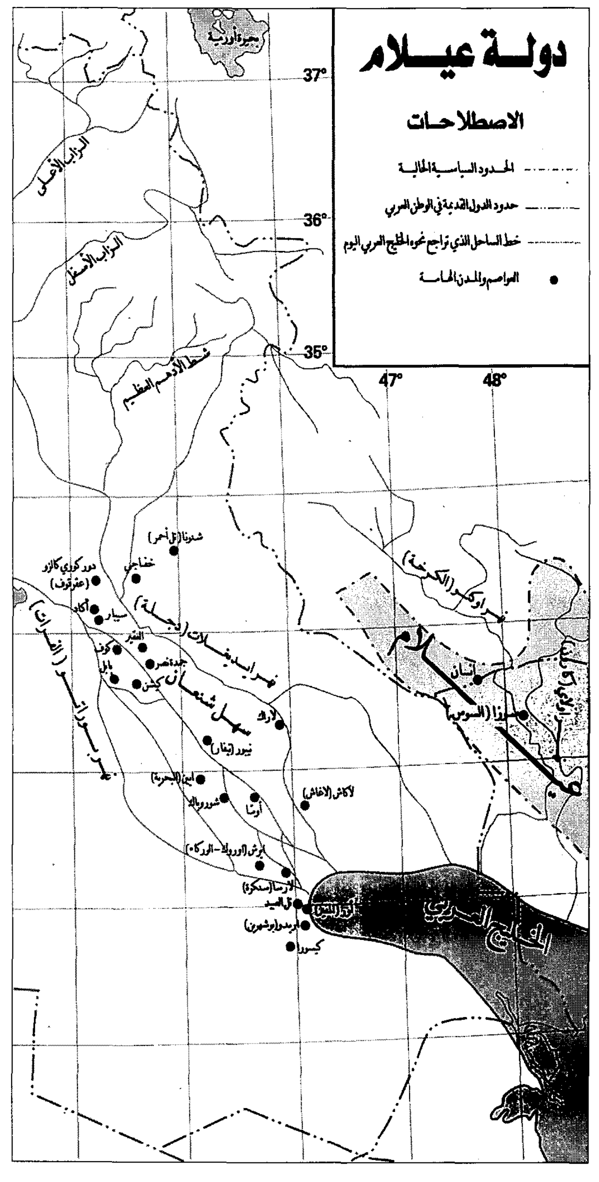
المصادر والمراجع

- إيمـار، أندريه، وأدموايه، جامين، **تاريخ الحضـارات العام**، نقله إلى العربية فريـد داغر، وفؤاد أبو ريحان، بيروت، دار عويدات، ط١، سنة ٢٠٠٣.
- خان، ظفر الإسلام، **تاريخ فلسطين القديم**، بيروت، دار النفائس، ط٦، سنة ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
- السحمراني، أسعد، **من اليهودية إلى الصهيونية**، بيروت، دار النفائس، ط٢، سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- سوسة، الدكتور أحمد، **العرب واليهود في التاريخ**، دمشق، العربي للطباعة والنشر، ط٧، بدون تاريخ.
- **الكتاب المقدس**، بيروت، دار المشرق، ط٤، سنة ١٩٩٧.
- كيستلـر، أرثر، **القبيلـة الثالثة عشرة ويهود اليـوم**، ترجمة أحمد نجيب هاشـم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩١.



الحضارة العيلامية

أ. د. جمال البدري



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

العيلاميون

أقوام ظهروا في منطقة الأحواز المشتركة بين إيران الحالية والعراق الحالي فيما يُعرف بعربستان؛ أو خوزستان بالفارسية. وعيلام معناها الأرض المرتفعة العالية، وهناك أقاموا مدنهم وأشهرها مدينة السوس، أو سوسة باليونانية، فيما تسمى بالفارسية (شوش) أو شوش القصر، كما تسمِّيها التوراة، واستمرت دولة عيلام ما بين سنتَي (٢٧٠٠ ـ ٥٣٩ ق.م).

وحضارة عيلام، واسمها باللغة الفارسية: إيلام، عاصمتهم الأولى في (إوان) وبعد فترة من الزمن انتقلت عاصمتهم إلى مدينة سوسة.

كانت هذه الدولة تتكون من عشر عشائر، وكلُّ عشيرة كان لها أمير؛ كانوا موحَّدين تحت ظلِّ الملك أون تاش، وهؤلاء بنوا لهم حصناً أو قلعة سميت باسم مؤسسهم؛ أي قلعة أون تاش. ولكثرة غاراتهم على مدن سومر أُطلق عليهم اسم إيلام، وإيلام تعني المرعب أو المرهب، أي الإرهاب لشدة عدوانهم على المدن السومرية والدولة الأكادية؛ وهذه أول إشارة ظهرت في التاريخ لنشوء الإرهاب المرتبط بالخارج؛ حسب المفهوم الحديث للإرهاب. وعليه نستطيع القول: إنَّ العيلاميين هم أول جماعة بشرية مارسوا الإرهاب ضد الدول من خلال النهب والسلب.

أما ثقافة العيلاميين فكانت متأثرة بالثقافة السومرية بالإضافة إلى بعض الخصوصيات التي تخص المجتمع العيلامي؛ وهي من تقاليد عشائر أون تاش، ومنها كانت لهم آلهة عدة تختلف أسماؤها اختلافاً تامّاً عن أسماء آلهة السومريين. فمثلاً الإله الأم التي كانت ترمز إلى القمر عند السومريين وتسمى الإله (ننه)، أما إله الأم عند العيلاميين فاسمها: (غرورجة أو قررجة)، وبالإضافة إلى هذه الآلهة هناك إلهان آخران بهذين الاسمين. هذه الخصوصية، إلى جانب الزرادشتية الفارسية، تدل على تفرُّدهم الحضاري قياساً لباقي الجماعات الآرية. وكان للعيلاميين دور ومكانة حضارية في التاريخ القديم وفي تطورات وشؤون المنطقة؛ سواء من خلال صراعهم العسكري الطويل مع السومريين في جنوب العراق القديم، أو في قيامهم بغزو فلسطين؛ ولهذا يرد ذكرهم بالتوراة؛ من خلال ذكر اسم ملكهم (كودلعومر). ويبدو أن العيلاميين كانوا حلفاء للبابليين، فقد شاركوهم السيطرة على فلسطين القديمة في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وكانت عاصمتهم سوسة، الواقعة على نهر الكرخة، مركز هذا النشاط، وتاريخ الصراع بين العيلاميين وجيرانهم ترسمه هذه المدينة؛ فبعد السومريين جاء الأكاديون؛ وتبادل الطرفان، العيلامي والأكادي، السيطرة عليها؛ حتى تمَّ فتحها فيما بعد من قِبَل الآشوريين في القرن السابع قبل الميلاد على يد الملك آشور بانيبال؛ وكان آخر ملوك عيلام يومئذ (كياخسار الماذي). لكن عاصمة عيلام التاريخية عادت إلى الصدارة في العهد الأخميني الفارسي بعد احتلال بابل (٥٣٩ ق.م)، لكن الإسكندر المقدوني تمكَّن من فتحها بعد احتلاله للمنطقة، ثمَّ آلت إلى الحكم السلوقي على عهد الحاكم (أنطوخس).

ورغم أفول الدولة العيلامية بقيت العاصمة سوسة تمارس دورها الحضاري؛ وهي ظاهرة غريبة في التاريخ القديم؛ فبعد السلوقيين عادت سوسة لممارسة دورها على عهد الرومان أيضاً؛ وبقي حالها حتى فتحها العرب المسلمون سنة ٦٤٠ ميلادية. وأهم ما عُرفت به سوسة اكتشاف مسلَّة الملك البابلي حمورابي فيها؛ وتمَّ هذا الكشف من قِبَل الباحث والمؤرخ الفرنسي (دي مورجان)، الذي حمل المسلَّة إلى فرنسا، وهي اليوم في متحف اللوڤر بباريس. كما اكتشف مورجان الكثير من الآثار والكتابات والنقوش العيلامية التي تدل على مكانة هذه الدولة وعاصمتها في مجال التطور الحضاري العريق، إلى جانب دورها العسكري الهجومي.

ولعيلام دور غير مباشر في قيام الدولة الأخمينية بعد قرون من الزمن، لأنَّ والد الملك قورش يعود بأصوله إلى عيلام؛ لهذا نجد بعض المصادر القديمة تخلط بين هذا الأصل ونشوء الامبراطورية الأخمينية لاحقاً، بل وهناك مَن يعتبر عيلام هي الأساس في كلِّ الحضارة الفارسية القديمة ما قبل الآرية (الفُرس والميديين) اللذين تجسَّدا بالامبراطور قورش الأخميني وفتوحاته الواسعة، وتهافتت عيلام بظهور الامبراطورية الأخمينية ثمَّ الساسانية.

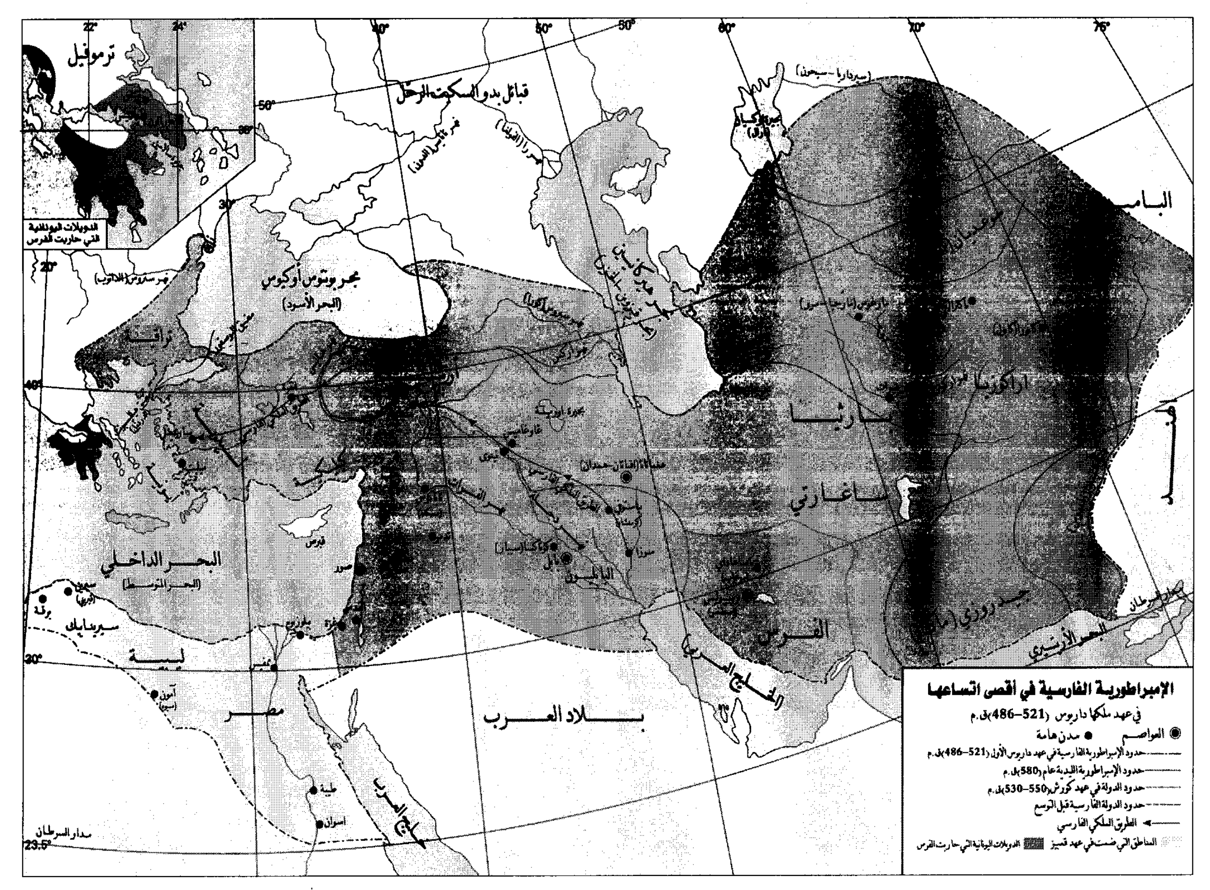
وكغيرهم من الأقوام القديمة ترك العيلاميون أثراً حضاريّاً من خلال الزراعة وصناعة أدواتها وتربية المواشي؛ وصناعة الفخار والصناعات العسكرية وتربية الخيول، مع بعض الفنون في الخزفيات والأنسجة، لكنهم لم يتركوا أعمالاً أدبية تجسِّد حضارتهم تلك، لكن أهم ما في عيلام الأصالة بالانتساب لبلاد فارس قياساً لباقي الأقوام.

المصادر والمراجع

- حسنين، عبد المنعم محمد: **الإيرانيون القدماء**؛ القاهرة؛ ١٩٧٤.
- سفر، فؤاد وآخرون: **تاريخ العصور القديمة**؛ ط٧؛ بغداد ١٩٦٠.
- سوسة، أحمد: **العرب واليهود في التاريخ**: بغداد ١٩٨١؛ ص٨٤٤.
- هامرتن، جون: **تاريخ العالم**: **موسوعة هامرتن** م٢؛ من مقال: **الفرس امبراطورية الشاه الأعظم**، بقلم ج.ب. جرندي عن كتابه: **الحرب الفارسية الكبرى**؛ ص٤٤٠ وما بعدها.

الحضارة الفارسية القديمة

أ. د. جمال البدري



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

إنَّ الحضارة الفارسية القديمة واحدة من أقدم الحضارات الإنسانية، إلى جانب الحضارات الشرقية في الصين والهند وبابل وآشور وبلاد الشام ومصر؛ والحضارات الغربية في أثينا اليونان وروما إيطاليا وقسطنطينية بيزنطة. وهنا سنقدِّم ملامح عامة لكنها أساسية، عن خصوصية هذه الحضارة وسنحدد ملامحها التاريخية والجغرافية والدينية والثقافية، وما يرتبط بها من عوامل وعناصر رسمت شخصيتها بين حضارات العالم القديم، علماً بأنه تعاقبت على حكم بلاد فارس القديمة أقوام عدة منهم: العيلاميون والميديون والأشكانيون والأخمينيون، وقد فصلنا الحديث عن كل منها في مكانها الألفبائي من هذه الموسوعة.

أولاً: التسمية

إنَّ تعبير (فارس) أول مَنْ أطلقه هم الإغريق؛ واستُمِدَّ هذا الاسم نسبة لإقليم (بارسا) في الجزء الجنوبي الغربي من الهضبة التي تشكل معظم إقليم إيران الجغرافي، وتمَّ تعديل اللفظ ليكون (برسيس)، وأخذه العرب وجعلوه (فارس). وفارس أحد أقاليم إيران؛ وهو من قبيل إطلاق الجزء على الكل. وهناك تسميات أخرى اشتُقَّت من مفردة (آري) التي جاءت من الميديين والفرس باعتبارهما من أصل واحد، وهذه التسميات هي: (إيرانشهر) أي إقليم إيران، وهي تسمية سياسية؛ و(إيران زمين) أي أرض إيران وهي تسمية جغرافية. واستقرت تسمية إيران على بلاد فارس بشكل رسمي منذ عام ١٩٣٥م بطلب من الحكومة الإيرانية آنذاك.

ثانياً: الأرض والجغرافية

على الرغم من أنَّ هضبة إيران تشكل القسم الأكبر من دولة إيران؛ فهي تتضمن من الناحية الجيوسياسية معظم دولة أفغانستان الحالية وغرب باكستان الحالية... وهذه الهضبة تطل من الجنوب على منطقة الخليج العربي، ومن الشمال على بحر قزوين (الخزر سابقاً)، وكان العرب يسمُّونه ببحر طبرستان، أو بحر جرجان؛ كما جاء في مقدمة ابن خلدون. وهضبة إيران ـ بقدر تعلقها بموضوعنا ـ هي بمثابة جسر بين أواسط آسيا وأوروبا عبر آسيا الصغرى (تركيا الحالية)، كما تشكل جسراً بين آسيا وجزيرة العرب عبر العراق ومنطقة الخليج العربي، وهذه الهضبة قسِّمت من الناحية الجغرافية إلى أربع مناطق رئيسة هي:

أ ـ منطقة جبال زاغروس؛ المرتبطة بامتدادها إلى بلاد الرافدين؛ من الجنوب عبر السهول ومن الشمال عبر الجبال المشتركة؛ ويبلغ امتدادها نحو ألف كيلومتر؛ وعرضها نحو (٢٠٠كلم)، وهي أهم مناطق إيران في تشكيل حراكها الحضاري عبر التاريخ؛ لوجود طرق المواصلات والزراعة والمياه والسكان فيها.

ب ـ سلسلة جبال البرز وسهولها المطلة على بحر قزوين، ويبلغ عرضها نحو (١٣٠كلم) وأهم قمة جبل فيها تدعى قمة جبل (دامافاند)، أو جبل اللازورد، وهو أعلى جبال إيران؛ ويسميه السومريون: (بكني).

جـ ـ المرتفعات الشرقية والجنوبية الشرقية، وتسمى بالمنطقة القاحلة؛ لعدم وجود مؤهلات طبيعية للحياة فيها؛ وفيها

جبال مكران وخراسان ذات المنافذ العديدة؛ مما كان يشكل سبباً للعبور منها من قِبَل الغزاة لاحتلال إيران، لكنها بالمقابل كانت مهداً لبعض أهم السلالات الإيرانية الحاكمة، مثل الفرثيين قديماً؛ والقاجاريين لاحقاً.

د ـ المنطقة الصحراوية المنخفضة في الوسط، وتقدَّر مساحتها تقريباً بنصف مليون كلم مربع، وتضم أكبر المناطق الصحراوية، وهما صحراء (كافر) وصحراء (لوط)، وهي من الصحاري المنخفضة، حتى يصل هذا الانخفاض إلى (٢٥٠ قدماً) تحت سطح البحر.

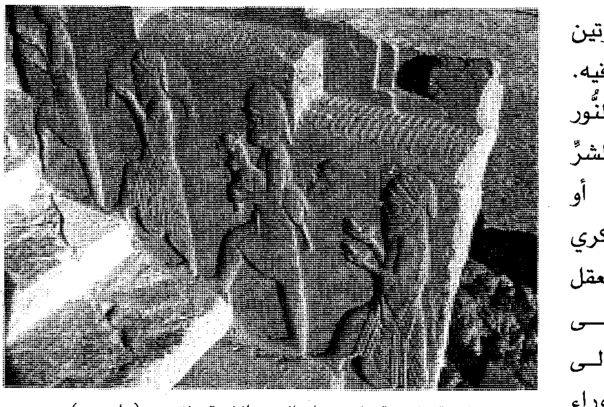
وهكذا يتضح أن للعوامل الجغرافية في أرض إيران تأثيرها المهم في توزيع مناطق الاستقرار الحضاري عبر التاريخ؛ طبعاً هذا إضافة للموارد والقرب من الأنهار والمسطحات المائية؛ والتهديدات من المناطق المجاورة؛ لأنَّ هضبة إيران رغم إحاطتها من أغلب حدودها بسلاسل جبلية لكنها مفتوحة من كلِّ جانب تقريباً، سواء من ناحية بلاد الرافدين في الشرق والجنوب أو من روسيا في الشمال؛ ومن الهند قبل استقلال باكستان في الشرق؛ ومن منطقة الخليج العربي في الجنوب. وكمثال على ذلك؛ فمن خلال بوابة خراسان والبوابة الضخمة التي يبلغ اتساعها ما يقرب المائة كيلومتر في شمال غرب آذربيجان، بين جبال البرز وزاغروس؛ دخل إلى هضبة إيران عشرات الأقوام؛ كالميديين والفرس قديماً؛ والتتار والأتراك والروس لاحقاً... ولم يقتصر دور هذه البوابات على دخول الأقوام والشعوب الأخرى إلى إيران؛ فقد خرج منها الفرس واتجهوا غرباً؛ حيث كوَّنوا أضخم امبراطورية لهم في العالم القديم وصلت إلى مصر واليونان.

وأنَّ المناطق التي يمكن أن تتطور عليها الحياة دائماً تكاد تنحصر في أودية وسهول جبال زاغروس في الجنوب والشمال؛ كما ظهرت في هذه المنطقة البواكير الأولى لفجر الحضارة الإيرانية القديمة، وأبرز مثال فيها مدينة (سوسة) العيلامية.

ثالثاً: الدِّين والدولة في إيران قديماً

على الرغم من وجود مظاهر الشرك والوثنية لدى الأقوام التي سكنت هضبة إيران بمفهومها الجيوسياسي؛ أو جاءت مهاجرة إلى هضبة إيران وأقامت فيها كياناتها المختلفة، فهناك شخصية (دينية) خاصة شكَّلت معالم الفرد والدولة الإيرانية قديماً، وهي منطلقة من مقولة الملك دارا الأول: «المعبد والعرش في إيران لا يفترقان»، وبالتالي شكلت الشخصية الحضارية الفارسية عموماً؛ فقد كانت بداية مرحلة (الإيمان) الأولى بظهور:

١ ـ **الدِّين الميتهري**: وقد ظهر هذا (الدِّين) في جنوب هضبة إيران التابعة لامتداد جبال زاغروس عند نهر الكرخة؛ أي في مدينة سوسة العيلامية. وتسمية (الميتهري) جاءت كدلالة على جوهر العقل البشري وعلاقته بضياء الشمس؛ فالربُّ لديهم هو النُّور الذي يضيء الظلام؛ ظلام الكون والنفس والعقل. وكان رجال وفقهاء هذا الدِّين القديم يسمون بالموابذة؛ وهم في الوقت نفسه الحكام والقضاة. وعليه، فالكون مقسَّم بين قوتين كبيرتين هما: (القدرة والمقدرة)، وبقدر اتسام الكون (بما فيه


لوحة منحوتة على جدار الدرج الشرقي لقصر (داريوس) في مدنية (برسيبوليس)

الإنسان) بإحدى هاتين القوتين تكون نسبة الخير والشر فيه. وهكذا تشكَّل إله الخير والنُّور وهو: (أهورا مزدا) وإله الشرِّ والظلام وهو (دروج) أو إهريمان. وبهذا التحول الفكري نحو (أهورا مزدا) تحوَّل بالعقل التفكير من المظهر إلى المصدر؛ ومن الظاهر إلى الغائب؛ ومن النُّور إلى ما وراء النُّور، أي إلى الينبوع نفسه المستقر فيما وراء (ميتهرا).

ولأنَّ (مزدا) هو جانب النُّور والخير؛ انتصر جوهر العقل؛ فكان ظهور:

٢ ـ **الدِّين المزدي أو المزدكي**: وهو الداعي إلى أن يكون النُّور: (ابن الإله). ولأنَّ الصراع ما زال قائماً بين (أهورا مزدا) و(دروج)، فلا بدَّ من البحث عما وراء النُّور والنار إلى القوة الكامنة وراءهما من اللامرئي، من خلال اعتلاء هضبة إيران لرؤية الشمس وقبلة الصلاة وهذا لن يتم إلا بتناول رحيق وشراب (هامو المقدس). ولكي يرى الربُّ عباده لا بدَّ من إقامة المعابد حتى يراها بنفسه؛ وهذا لن يكون إلا بإشعال النار فوق قمم الجبال، عندها يرى الربُّ فيكون الوجود منتظماً بعجلة النظام الذي هو (أرتا) لتحقيق العدالة التي هي (آشا). وهذا النظام الحاكم يمتد في المزدية من الخارج إلى الداخل؛ كما ينتظم العالم الداخلي للنفس. ولمّا كان الصراع بين إله الخير وإله الشر سجالاً مستمرّاً فإنَّ الإنسان الذي خلقه (مزدا) سيقاتل بالنيابة عن الإله؛ وكلما كان هذا الإنسان نقيّاً وتقيّاً وحرَّ الإرادة يكون قريباً من تحقيق الانتصار لصالح (مزدا)، وهزيمة إله الشرِّ وأتباعه، بَيْدَ أنَّ هذا (الفرقان) لن يتحقق بشكل دائم من دون إصلاح العقل المتدين وإيصاله إلى مرحلة النضوج الروحي؛ ومن هنا وُلد:

٣ ـ **الدِّين الزرادشتي**: ومعناه: ذهب الصحراء. لقد عاش زرادشت بين عامَي (٦٦٠ ـ ٥٨٣ ق.م)، في (ميديا). ومن هنا انتقلت ديانة إيران إلى مرحلة جديدة هي (النبوة)، فكان زرادشت أول مَن قال بها من أهل فارس، وجاء زرادشت بكتاب هو (زندافستا)، وهو من ثلاثة أقسام:

الأول: افستا: أي النصوص الأصلية، ويقسم إلى نوعين: القديم: وهو (فشبرد) والأقدم: وهو (يآسنا). واليآسنا هو الأهم؛ وفيه خمس مجموعات تضم سبعة عشر نشيداً مقدَّساً تسمى: (جاتها). كما ظهر (خردان افستا) أو الافستا الصغرى الخاصة بتسابيح الملائكة.

الثاني: زند: أي التعليقات والشروح الإضافية.

الثالث: إضافات لاحقة تمت من بعد زرادشت، أضافها الموابذة تسمى: (فنديداد).

وهكذا تشكلت الزرادشتية من الأقوام الميدية المتواجدة في الجزء الجنوبي الغربي من هضبة إيران ضمن إقليم آذربيجان، في زمن مليء بالفوضى والصراع والقتال والسلب والنهب، ما ساعد الدولة على التبشير بالزرادشتية لغرض الإصلاح الشعبي والخلقي، وبالتالي السياسي، تحت ثنائية صراع الخير والشر؛ إلى جانب الدعوة إلى وحدانية الإله؛ في إشارة عميقة لوحدانية العرش والسلطان في الأرض وهذا ما جاء في القراءة رقم (٤٤) من الجاتها يآسنا بالقول: «إني لأدرك أنك وحدك الإله وأنك الأوحد الأحد، أي آهورا مزدا: إنه أنت هو أيها السيد الحكيم فليس هناك إله سواك».

وهكذا تكلم زرادشت قائلاً: «إنِّي أشيد بالفكر الطيب؛ الكلمة الطيبة؛ العمل الطيب». ومن هنا نشرت الزرادشتية قيمها الأخلاقية والسياسية والاجتماعية القائمة على ثلاثة أركان هي:

أ - حُمادا: وتعني التفكير الحميد.

ب - حقاتا: وتعني القول الحق.

جـ - خفارشتا: وتعني العمل الشريف.

وكانت هذه الأركان الثلاثة خصوصية الزرادشتية عن المزدية؛ وبذلك نجحت الزرادشتية كدين سياسي واجتماعي في عموم إيران عبر العصور؛ في انحيازها إلى الفقراء بدعم من الملوك؛ لكسب الشعب إلى جانب الدولة؛ ومن هنا قال زرادشت لدعم هذه



نقش يمثل داريوس وهو يصارع أحد الوحوش

الرؤية: «مَن يعاون الفقير البائس يُسهم في إقامة دولة آهورا مزدا»!! ومن هنا أيضاً تمَّ تقسيم المجتمع الإيراني القديم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: رجال الدِّين؛ وهم الذين تقوم عليهم الدولة؛ وخاصة في إقامة العدل والقضاء ودعم الملك.

الثاني: المحاربون؛ للذود عن الوطن والعرش.

الثالث: الفلاحون في الأرض، وقد وقع عليهم أغلب الظلم الأكبر.

وهنا نجد أنَّ الملوك والأمراء لم يُذكروا لأنهم الطبقة العليا (السرِّية) غير المشمولة بالتقسيم كغيرهم؛ وهذه هي نقطة ضعف النظام؛ لكن ذلك لم يُثِر انتباه العامة آنذاك؛

والتي بقيت مشغولة بتفاصيل الحياة والصراع والمصير بين طريقَي الخير والشرِّ، وهو ما جاء في القراءة (٣٠) من الجاتها يآسنا: «أصغِ جيداً إلى الحقيقة: تأمَّل بذهن صافٍ الطريقين؛ وتنبَّه إلى أيِّ الطريقين أسلم لك يوم الحساب». وكانت النقلة النوعية لهذه الديانة الفارسية اعتناق الملك (جشتاسب) لها واعترافه بها، ليس فقط كونها الدِّين الرسمي وإنما هي الدِّين الحقُّ من دون غيره. وأُسندت هذه المهمة إلى قبيلة المجوس في مدينة بلخ، وقد قام رجال هذه القبيلة الفارسية المسمون بالتُّبَّع بنشر الزرادشتية في داخل وخارج إيران من خلال حلفاء المال من القبائل؛ ونشر معابد النار المقدسة.

وبهذه المعتقدات التي جمعت التاريخ والحضارة والمجتمع والسياسة والفكر راح الدِّين الزرادشتي بالتبشير في عموم مدن إيران القديمة؛ حتى عهد الامبراطور (دارا الأول ٥٣٢ ـ ٤٨٦ ق.م) وهو عهد الكيانيين؛ ما أدى لأول مرة إلى ظهور أكبر امبراطورية فارسية عرفها التاريخ السياسي، ليشهد العالم آنذاك عصر الامبراطورية وقيام الزرادشتية ديناً رسمياً ورغم ما تعرضت له الزرادشتية من محاولة زعزعة بإعادة المزدية لوحدها على عهد الأكاسرة لكنها بقيت الإطار الجامع للمجتمع والدولة الإيرانية القديمة؛ ما شكَّل الشخصية الفارسية الفكرية وميَّز معتقداتها عما سواها وكالآتي:

الأول: بقي آهورا مزدا، إله الخير والنُّور، محاطاً بالكائنات الملائكية المسماة (يازاستا).

الثاني: بقي أهريمان، إله الشرِّ والظلام، محاطاً بالكائنات الشيطانية؛ المسماة (ديفو). ويبدو أنَّ هذا التقسيم دخل إليهم من فلاسفة الهند.

إذن، العالم في رؤية الفكر الإيراني القديم انقسم إلى حزبين هما: حزب الله، وحزب الشيطان.

ونتيجة هذه التطورات ظهر لدى الدولة ما سمِّي بالدين المزدي الزرادشتي المشترك القائم على خمس قواعد إيمانية هي:

١ ـ الإيمان بالإله الواحد.
٢ ـ الإيمان بالملائكة.
٣ ـ الإيمان بزرادشت كنبيٍّ.
٤ ـ الإيمان بيوم الحساب في السماء.
٥ ـ الإيمان بالكتاب المقدَّس وملاحقه: (الزندافستا).

وجاء الاحتلال المقدوني، بقيادة الإسكندر (٣٣١ ق.م)... وحارب هذا الوجود الديني السياسي بسياسة (فَرِّقْ تَسُدْ) كما نصحه بها الفيلسوف اليوناني (أرسطو) المرافق لجيش الإسكندر؛ لكنه لم ينجح، بل كان ذلك مهمازاً لقيام الفُرس بلَمِّ الشمل والانتصار على التشتُّت بقيادة رجال الدِّين؛ فهم يدركون أنَّ الوحدة السياسية لن تكون إلا بقيادة (الفقهاء)، لذا نجد من بيت النار في مدينة إصطخر؛ ومن دعوات الفقيه (ساسان) انطلقت حركة التحرر الإيراني القديمة؛ حتى انتهت بإقامة الامبراطورية الجديدة في إيران والعراق... من سنة (٢٢٦ ق.م ولغاية عام ٦٤١ بعد الميلاد، أي مع الفتح العربيِّ الإسلامي للعراق بمعركة القادسية؛ بقيادة سعد بن أبي وقاص).

وهكذا تمَّت العودة إلى المزدية الزرادشتية بإطار سياسي أكثر من ذي قبل، على عهد

الملك أردشير بن بابك بن ساسان، ومنذ ذلك الوقت وُضع دستور إيران على أساس وحدة الدِّين والدولة. بالدِّين وُحِّدَت الدولة؛ وبالدولة وُحِّدَ الدِّين؛ وقام صرح الدولة على أسس الدِّين.

لقد أدرك الفُرس أنَّ الحفاظ على هذه الثنائية المتوحدة لا يتم من غير مؤسسة ترعاها، فكانت بيوت العلم هي المرجعية المشتركة لذلك. وكانت مدرسة جنديسابور أول هذه المرجعيات الدينية السياسية في إطار من العلم الذي انطلق من رؤية لا تنتهي في كلِّ زمان ومكان، وهي نظرية أو عقيدة (المخلص المنقذ المنتظر)، كجزء من الإيمان بيوم الحساب في السماء نتيجة تأثُّره بالرؤية المسيحية التي ظهرت آنذاك وانتشرت في عموم المشرق القديم. وقد كانت هذه الإضافة من تبشيرات النبيِّ المجدد للديانة الإيرانية القديمة: ماني (٢١٦ ـ ٢٧٥م.) لقد أحاط ماني رؤيته الجديدة بنزعة صوفية مغالية متأثرة بالنزعة المسيحية؛ تحت دعوى الخلاص من شرور النفس. ولغرض تسهيل الامتداد السياسي خارج هضبة إيران؛ أعلن ماني الإيمان بالأنبياء (آدم وشيت ونوح وإبراهيم وبوذا وزرادشت وعيسى وماني)، وزاد عليها ضرورة الإيمان بنظام الإمام القائد؛ إضافة للقواعد الزرادشتية السابقة. ولم تظهر أية تطورات جديدة سوى من المجوسية التي تبنت الزرادشتية المزدية ونشرتها بقوة في عموم إيران والمشرق القديم.

المجوسية نسبة لقبيلة مجوس الفارسية التي كانت تدعو إلى تصدير الدِّين الزرادشتي ليس إلى عموم المشرق فحسب إنما إلى جزيرة العرب بخاصة، وهذا ما تمَّ في اليمن بعد العراق قبل الإسلام. لقد جمعت الديانة الزرادشتية المزدية، بكلِّ الرؤى الأخلاقية الاجتماعية والسياسية الإيرانية القديمة؛ أغلب الجماعات والأقوام الفارسية أو التي جاءت إلى بلاد فارس وإيران عبر العصور المختلفة؛ وإن لم تخلُ جماعة منها من ميول وثنية أو مشركة؛ خاصة تلك التي كانت تعيش حياة بدوية جبلية لم تندمج بالحضارة، وما زالت هذه الرؤى في صميم الشخصية الإيرانية المعاصرة بعد مزجها بالإسلام الشيعي؛ من خلال ولاية الفقيه التي نصَّ عليها الدستور الإيراني في ١٩٧٩/١١/١٥ ميلادية، وكذلك في سياسة إيران الخارجية بغض النظر عن نوع النظام وجوهر فلسفته السياسية؛ قديماً وحديثاً.

وهكذا نجد في تاريخ إيران القديم وحضارته العريقة هذه الشخصية للجماعات والأقوام الفارسية أو التي تفرَّست تاريخيّاً. وكلها تلتقي بشكل مباشر أو غير مباشر بتلك الجذور التي أينعت فوق (الهضبة) بين قحل صحراء وارتفاع جبل وانبساط سهل وانخفاض وديان.. برعاية الملوك والفقهاء قبل شعب إيران، وفي أدناه سنتعرف على أنماط الحياة والحضارة الفارسية القديمة في مختلف المجالات الأخرى.

رابعاً: المظاهر السكانية الفارسية

توضح المنحوتات القديمة أن الفُرس كانوا وسيمي الطلعة، ذوي أنوف طويلة ومستقيمة. وقد ارتدى وجهاء الفُرس والموسرون منهم

خاصة أثواباً طويلة سميت فيما بعد (القفاطين)، ولبسوا المجوهرات والشَّعر المستعار للتجمُّل خصوصاً في المناسبات والأعياد، وكانوا يعيشون في قصور فخمة ذات منحوتات؛ فيما عاش معظم الناس العاديين في أكواخ من الطين شبيهة جدّاً بالأكواخ التي يعيش فيها سكان الأرياف اليوم في إيران، وما زالت بقايا قصور الملوك والنبلاء هذه موجودة حتى اليوم في إصطخر وأصفهان وكرمنشاه.

لقد تبنَّى الفُرس كثيراً من عادات الآخرين الذين احتكُّوا بهم بحكم الجوار، لكنهم احتفظوا بكثير من تقاليد القبائل الرُّحَّل. فقد علَّموا أولادهم، مثلاً، ركوب الخيل ورمي السهام، والعادات الحميدة، ويعدُّ الفُرس الكذب مذمَّة اجتماعية وشخصية لا تليق بالشخص المحترم، ويحرصون على الكتمان الشديد.

لقد تشكَّلت الأُسَر الفارسية في عشائر تكوَّنت منها القبائل، بعد النمو المركزي للامبراطورية، وبدأت تختفي الوحدات الاجتماعية الأكبر من الأسرة. وقد كان تعدُّد الزوجات عندهم مألوفاً، وكان الملك يختار زوجاته من بين الأُسَر الأرقى اجتماعيّاً، وهي ست أُسَر اجتماعية تشكل ست قوى سياسية داخلية من المقربين للملك. وقد كانت نساء الحكام يعشن في أجنحة خاصة منعزلة نسبيّاً.

من جانب آخر، كان للزرادشتية دورها في رسم معالم المظاهر السكانية الفارسية طوال كلِّ العهود؛ وذلك لأنَّ المعتقد الديني عندهم يقوم على ثلاثة أسس اجتماعية هي:

١ - إنَّ الزراعة وتربية الماشية هما وحدهما المهنتان النبيلتان للإنسان المواطن.

٢ - إنَّ الكون بأسره معركة بين الخير والشرِّ، وكلُّ ما يخدم الحياة والعمل هو من الخير؛ وكلُّ ما يؤدي إلى الكسل والسرقة والكذب فهو من الشرِّ.

٣ - إنَّ عناصر الماء والهواء والنار والتراب طاهرة ولا يجوز تدنيسها؛ لذا على الفرد الإيراني أن يشيِّد بيتاً يكون له ولعائلته وللماشية؛ ولموقد النار التي تُطهِّر بلهيبها الأشياء العفنة؛ مع احترام الأرض والماء من التلوث، ولهذا لا يجوز عندهم دفن الموتى، بل تُطرح الجثث في برج الصمت المسمى (دخمة) لتأكله الطير؛ حتى لا يُلوث الأرض، وما زال هذا الطقس قائماً في بعض مناطق بلاد إيران؛ وقد شاهدناه عياناً.

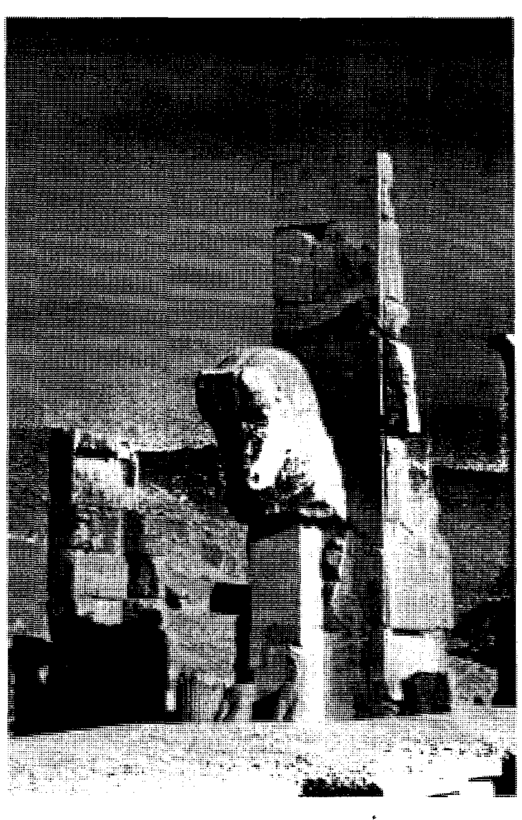
خامساً: اللغة

تحدَّث الفُرس القدماء الفارسية القديمة، وهي لغة هندو - أوروبية لها صلة باللغة السنسكريتية في الهند وباللغة الفارسية الحديثة، واتخذ الفُرس نظاماً مسماريّاً للكتابة، لكن النظام المسماري استُخدم في المخطوطات الملكية فقط، لأن عدداً قليلاً من الناس استطاعوا قراءته، واستخدم الفُرس اللغة الآرامية، وهي لغة سامية، كلغة كتابة. وكانت الآرامية واسعة الاستعمال في سوريا وفلسطين وبلاد الرافدين، واستطاع الفُرس نقلها إلى الهند وآسيا الوسطى وآسيا الصغرى (تُركيا حاليّاً)، كما كانت الآرامية واللغات المحلية تُستخدم في مختلف أجزاء الامبراطورية الفارسية لمختلف الأغراض التجارية والإدارية والثقافية والسياسية، لكنهم كتبوا أعمالهم الأدبية بلغتهم القومية المسماة

(البهلوية) وتعني لغة الأبطال أو الأحرار.

سادساً: الاقتصاد والتجارة

كان الفُرس الأوائل من المزارعين الجيدين الذين يربُّون الحيوانات ويزرعون الحبوب، وقد كانت الصحاري تغطي معظم المناطق المرتفعة. وقد طوَّر الفلاحون وسائل الري لزراعة القمح والشعير والشوفان والخضراوات، واستخدموا القنوات المحفورة تحت الأرض لتجنُّب التبخُّر الذي تسببه الشمس الحارقة، كما جلبوا المياه من الجبال من بُعد أكثر من ١٥٠كلم إلى الأودية والسهول. وأقاموا في المرتفعات بفارس عدداً من المدن الكبيرة. ويلاحظ أن الحِرَف قد تطورت بعد إنشاء المدن، وصارت صناعة الخزف والنسيج وأعمال التعدين على النحاس والحديد والذهب والفضة والخزف حِرَفاً مهمَّة. وصارت تجارة الأواني الخزفية والمعدنية أكثر أهمية من الأسلحة وأدوات الحرب؛ وخصوصاً مع الهند والصين؛ وكان الصينيون يستوردون حجر الكوبالت الأزرق من بلاد فارس، وكذلك تطور تبادل تجارة السلاح بينهما والمنتجات الزراعية كالحبوب. وقام الخزّافون والنسّاجون بصناعة الخزف والسجاد والملابس. وحملت القوافل التجارية البضائع من مختلف أنحاء العالم عبر إيران إلى



من أطلال قصر داريوس في برسيبوليس

البحر الأبيض المتوسط. واشتملت السلع التجارية المهمة على الأحجار الكريمة وشبه الكريمة وعلى التوابل. وقد افتُتح طريق الحرير إلى أواسط آسيا والصين حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. وقد أدت الطرق التجارية من بلاد الرافدين إلى الشرق الأقصى إلى فتح أواسط فارس، وربطت طرق أخرى الشرق بالهند والشمال بجبال القوقاز والبحر الأسود. وقد عبَّد الفُرس الطرق بين المدن المهمة في امبراطوريتهم، وكان أكثرها شهرةً الطريق الملكي، الذي كان

يربط ساردیس في غربي آسيا الصغرى بسوسة بالقرب من الخليج العربي، وقد استخدم الفُرس هذه الطرق لإيصال البريد السريع بتناوب الخيّالة.

وقد استفادت الامبراطورية الفارسية من منتجات الشعوب والأقوام التي سيطرت عليها في بلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر واليونان والأناضول؛ وهو ما انعكس على تنوُّع الحياة الاقتصادية في بلاد فارس وفي الولايات التابعة لها التي كانت تسمى بالإيالات. وكان أفضل تنظيم للإيالات على عهد دارا، ذلك أنه قسَّم الامبراطورية الفارسية إلى عشرين إيالة وطلب إلى كلٍّ منها أن تساهم بمبلغ معين في دخل الامبراطورية، فكان نصيب الهند ٤٦٥٠ وزنة من الفضة وبابل ألف وزنة من الفضة، ومنح كلَّ إيالة شيئاً من الاستقلال أشبه بالنظام الاتحادي المعاصر. واهتم الفُرس بالزراعة وبإصلاح الأراضي؛ ووضعوا عقوبات لمَنْ لا يزرع الأرض من الفلاحين.

سابعاً: نظام الحكم السياسي والإداري الفارسي

بشكل عام، كانت بلاد فارس مقسَّمة إلى وحدات إدارية، مسيطَراً عليها من قِبَل رجال السياسة والإدارة ضمن الإقليم الواحد على سعته وتنوع الأقوام فيه، وكان النظام الإداري الفارسي فعَّالاً بعد قيام الامبراطورية التي كانت تمتد على مساحة خمس ملايين كلم مربع في الشرق القديم، وكمثال: كان للفُرس مجالس جيدة التنظيم؛ وقد تمَّ تقسيم الامبراطورية إلى ولايات تُسمى المرزُبانيات، كل مرزُبانية يحكمها موظف يسمى المرزُبان. وحكام المرزُبانيات عاشوا كملوك صغار، ولكن الشاهان شاه، الذي حكم الامبراطورية من فارس، كانت له السلطة المُطلقة والنهائية. وقد نظَّم الملوك القوانين في مختلف أجزاء الامبراطورية، وسيطرت الحكومة المركزية على الجيوش في الولايات. وكان هناك جهاز سري أطلق عليه الإغريق (عيون وآذان الملك) يُخبر الملك بالأحوال في كلِّ أنحاء الامبراطورية. وتطورت فنون الحرب ومحاصرة المدن بمعدات متفوقة على باقي الأقوام في المنطقة. وكان الجيش الفارسي قويّاً ويمتلك صنوفاً ملكية من الرماة وضاربي السهام الأشداء الذين كانوا يفتحون الطريق نحو النصر في المعارك المختلفة.

ثامناً: الفلسفة الفارسية

وفي الفترة نفسها ظهرت معالم الفلسفة الفارسية من خلال علاقتها بالدِّين والأخلاق ورؤية العالم الآخر، ومن أهم كتب الفلسفة الفارسية كتاب بُندهشن ودادستان دينيك وداناي مينوج خرد، وأقسام من دينكرت، فقد طُرحت فيها مواضيع مهمة في مجال الفلسفة الأولى ومعرفة العالم، شعراً ونثراً، حتى يقال إنَّ الفلاسفة اليونان قد تأثروا بهذه الرؤية الفلسفية التي تجرَّدت من الرؤى المادية. كما ظهرت عند الفُرس ملاحم كالشهنامة جسَّدت العلاقة الفلسفية بروح أدبية بين البطولة والأسطورة والمجتمع والحرب، وبقي تأثير الكثير من نتاجات الأمة الفارسية مستمرّاً في مختلف مناطق الشرق والغرب.

المصادر والمراجع

- باقر، طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**؛ ج٢؛ بغداد ١٩٥٦.
- بيرنيا، حسن: **تاريخ إيران القديم، من البداية حتى نهاية العهد الساساني**؛ ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي، القاهرة ١٩٧٩.
- تاريخ العالم: **موسوعة هامرتن** م١، لندن من مقال جون ماريوت «فكرة الامبراطورية وكيف شكلت التاريخ».
- ابن خلدون، عبد الرحمن: **المقدمة** ج١ ط١؛ القاهرة ١٩٥٧.
- الراوي، عبد الستار: **الفكر السياسي الإيراني**؛ مركز البحوث والمعلومات؛ بغداد ١٩٨٥.
- سايكس، برسي: **تاريخ فارس**؛ ترجمة يحيى الخشاب؛ وزارة المعارف المصرية ١٩٢١؛ لندن.
- السقاف، أبكار: **الدّين في الهند والصين وإيران**؛ الانتشار العربي ط١؛ بيروت ٢٠٠٤.
- سليم، أحمد أمين: **إيران منذ أقدم العصور**؛ دار النهضة العربية؛ بيروت ١٩٨٨.
- فرزات، محمد حرب: **تاريخ فارس القديم**، دمشق، منشورات دار الفكر العربي دمشق ١٩٩٠.
- نصر، سيد حسين: **الموسوعة الإسلامية الكبرى** ج١٠؛ مركز الموسوعة الإسلامية الكبرى، طهران ١٩٨٩.
- ولبير، دونالد: **إيران ماضيها وحاضرها**؛ ترجمة عبد المنعم محمد حسنين؛ القاهرة ١٩٥٨.
- Ghirshman, R.; **Iran from the Earliest Times to the Islamic Conquest**, London, 1978.
- Jackson, A., **Persia Past and Present**, London, 1906.
- Mallowan, M, **Early Mesopotamia and Iran**, London, 1965.
- Nollet, R., Farzami, S, **Iran, In Larousse Encyclopedia of World Geography**, London, 1967.

الحضارة الفينيقية

أ. د. حنان قرقوتي

الموقع

تقع فينيقية في القسم الغربي من قارة آسية، في رقعة ساحلية على شاطئ البحر الأبيض المتوسط عُرفت باسم «فينيقية»، وتمتد على ساحل بلاد الشام من «أوغاريت (رأس شمرة)» شمالاً (على الساحل السوري حاليّاً)، مروراً بالساحل اللبناني إلى «جبل الكرمل (في فلسطين المحتلة حاليّاً)» جنوباً. وتمتد خلف هذه الرقعة الساحلية جبال لبنان من جهة الشرق لتشكل حاجزاً طبيعيّاً لأراضيها، فيما يمثّل البحر الأبيض المتوسط الجهة الغربية لها، ولا يزيد عرض هذه الرقعة الساحلية على ٤٠ كلم وطولها على ٣٠٠ كلم.

وشكلت المنطقة الجبلية في «فينيقية» حاجزاً طبيعيّاً بين المدن الفينيقية ما جعل مدنها مجزأة كل مدينة منها على حدة، كما لم تُغَطِّ سهولها الساحلية حاجة السكان من المواد الزراعية، الأمر الذي دفع بأهل «فينيقية» للاستفادة من البحر واللجوء إلى التنقلات التجارية البحرية ما بين المدن المتناثرة على الشاطئ، انطلاقاً من عكا وصور ومروراً بصيدا وجُبيل وحتى أرواد وأوغاريت.

وكان مقدَّراً لهذا الممر الضيق بين البحر وصحراء الشام، المتصل بمصر عن طريق فلسطين وسيناء وببلاد ما بين النهرين وآسية الصغرى عن طريق الفرات، أن يصبح ملتقى الطرق التجارية ومحط أطماع الامبراطوريات الكبيرة المجاورة.

الأصل والتسمية

يعود الفينيقيون في أصلهم إلى الكنعانيين، والكنعانيون من الشعوب السامية التي جاءت من شبه الجزيرة العربية، ومن منطقة الخليج العربي حيث كانت لهم مدن تحمل الأسماء نفسها التي اشتهروا بها على ساحل بلاد الشام كأرواد وصور وصيدا.

وسكن الفينيقيون الساميون فينيقية منذ مطلع الألف الثالث ق.م.، وهم جزء من الكنعانيين الذين عرفوا في بلاد الشام (سوريا ـ لبنان ـ فلسطين ـ الأردن)، ويُعتقد أن الإغريق (اليونان) هم من أطلق عليهم هذه التسمية في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد لاشتهارهم بالصباغ الأرجواني المستخرج من «صدف الموركس»، الذي انتشر بكثرة على الشواطئ الساحلية القريبة من المدن الفينيقية. وكانت لفظة «فوينيك» الإغريقية (اليونانية) التي تعني «الأرجوان الأحمر» تستعمل للدلالة على التجار الذين كانوا يتاجرون في هذا النوع من «الأرجوان»، وبعد حوالي سنة (١٢٠٠ ق.م.) أضحت كلمة «فينيقي» مرادفة لكلمة «كنعاني».

الملاحة البحرية

عشق الفينيقيون المغامرة البحرية، وساعدهم في ذلك وجود خشب الأرز ـ الذي صنعوا منه سفنهم ـ في الجبال القريبة منهم، ولذلك عمدوا إلى إنشاء العديد من المرافئ البحرية في عدد من المدن التي سكنوها، كـ «أرواد»، و«طرابلس»، و«جبيل» (بيبلوس)، و«بيروت»، و«صيدا»، و«صور»، و«عكا» واختاروا لهذه المرافئ رؤوساً بحرية أو جزراً قريبة من الساحل تؤمن لهم حماية من الرياح وملاذاً في حال تعرضهم للغزو.

لمحة تاريخية

إن الطبيعة الجبلية الوعرة التي أحاطت بالفينيقيين لم تمكنهم من إقامة وحدة سياسية فيما بينهم، بل أدى الأمر إلى انقسامهم إلى دويلات متزاحمة فيما بينها.

وكانت فينيقية عبارة عن مدن متفرقة لكل منها سيادتها الخاصة بها، ولم يشكلوا قوة حربية قوية إلا في قرطاجة الفينيقية الواقعة في القارة الأفريقية.

وتعرضت «فينيقية» في تاريخها الطويل لهجمات دول أخرى كالمصريين، والأشوريين، والبابليين ثم الفرس.

وأبدى الفينيقيون تعاوناً مع الفرس وساعدوهم في حروبهم مع الإغريق (اليونان)، وعُيِّن ملك صيدا أميراً على الأسطول الفارسي، ثم ثاروا عليهم في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ولما جاء الإسكندر المقدوني في سنة (٣٣٣ ق.م.) فتحت له المدن الفينيقية أبوابها إلا مدينة صور التي أعربت عن رغبتها في أن تبقى على الحياد في الصراع القائم بين الإغريق (اليونان) والفرس، فرضي الإسكندر، ولكنه أصرَّ على أن يدخل معبد ملقارت ويقدم القرابين، فلما رفض الصوريون ذلك هاجمهم الإسكندر وحاصر جزيرتهم ودخل المدينة ودمَّرها وقتل كثيراً من سكانها وأسر من أسر.

وبعد الإسكندر أصبحت المدن الفينيقية تابعة للملوك السلوقيين، ثم اكتسبت استقلالها الذاتي الواحدة تلو الأخرى وأخذت تضرب مسكوكاتها مستقلة عن سلطة الملوك السلوقيين حتى سنة (٦٤ ق.م.) حينما جاء القائد الروماني «بومبيوس» وحوَّل فينيقية إلى مقاطعة رومانية.

نظام الحكم

عاش الفينيقيون في عدد من المدن، ولم توحَّد تلك المدن في حكم دولة واحدة، بل كان لكل مدينة حكمها الذاتي، فكانت أرستقراطيات (الطبقة العليا) يحكمها ملوك.

وبدءاً من القرن التاسع قبل الميلاد ظهرت مجالس الحكماء لتحكم إلى جانب الملك، وكان بعض هذه المجالس أكثر نفوذاً من الملوك. وفي وقت لاحق أصبحت معظم هذه المدن تحكمها حكومة مدنية تُسمَّى «الشوفيت».

الازدهار والتوسع التجاري

بعد التخلص من الهيمنة المصرية سنة (١٢٠٠ ق.م.) بدأ عهد استقلال عند الفينيقيين تحت زعامة «صور» وعرفوا فيه ازدهاراً كبيراً.

واهتم الفينيقيون بالتجارة البحرية منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وشمل نشاطهم البحري التجاري كامل حوض البحر الأبيض المتوسط.

وعمدت «فينيقية» إلى توسيع مجال نشاطها البحري تدريجيّاً، فقامت بدور الوساطة التجارية بين الغرب والشرق، وسيطرت على المراكز التي كانت تقصدها قوافل الصحراء في مدن «حماة»، و«دمشق»، و«تابساكس» للتزود بالسلع الشرقية، وقامت بفتح وكالات ومستعمرات تجارية عديدة حول البحر الأبيض المتوسط.

وأقام الفينيقيون في جزيرة «قبرص» في القرن العاشر قبل الميلاد، إلا أنهم اصطدموا بالإغريق (اليونان) على شواطئ آسية الصغرى، واضطرهم هذا الصدام إلى إخلاء جزيرة «قبرص» أمام انتصار القوات الإغريقية (اليونانية)، بعد أن كانوا قد أقاموا مراكز تجارية لهم في جزيرة «رودس» المتوسطية التي اضطروا إلى إخلائها أيضاً مع غيرها من المراكز التي شغلوها لفترة.

وكان نظام تواجدهم خارج بلادهم شبيهاً بنظام وجودهم داخلها، يتشكل من مدن مستقلة تربط فيما بينها وحدة المصالح واللغة والدين، وتتبع رمزيّاً إلى المدينة الأم وهي تارة «صور» وتارة «صيدا» وتارة أخرى «قرطاجة».

ووصل توسعهم شمالاً حتى مشارف الأناضول، وعُثر على كتابات فينيقية هناك تعود إلى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد في منطقتي «قره تبة» و«زنجرلي».

وكانت لهم مراكز لرسو سفنهم في الشاطئ الكنعاني الفلسطيني، في «ريجيش» و«بيت بلت» و«حلمون» و«يافا»، كما كانت لهم مراكز لوكالاتهم التجارية في مصر، في «نوكراتس» و«ممفيس» و«الرطاب».

كما تغلغلوا في البحر الأبيض المتوسط فاستوطنوا «قبرص»، وجزر «بحر إيجة»، وجزر «صقلية» و«سردينية» و«بنتلّريا» و«لمبدوسة» و«مالطة».

ويقول المؤرخ النمساوي البروفسور «لودوفيكو شونهاغن» إن مستعمرات الفينيقيين وصلت إلى آسية وأوروبا وأفريقية، وبلغت أربعمئة مستعمرة تقريباً، وظلت هكذا إلى حوالي سنة (١٥٠٠ ق.م.) عندما اجتمعت قبائل أوروبا الجنوبية المؤلفة من «الدوروس» و«الفوسيوس» و«الأشيوس» وغزت البلقان، وعرفت بعدئذ باسم «القبيلة اليونانية العامة».

وطالت الحرب بين الإغريق (اليونانيين) والفينيقيين أجيالاً، وأسفرت عن سقوط «طروادة» وشواطئ «آسية الصغرى» بيد الإغريق (اليونانيين). وخسر الفينيقيون في هذه الحروب حوالي ثلاثمئة مستعمرة، ولم يبق لهم سوى مئة تقريباً في شمال أفريقية وإسبانية، ولذلك استعدُّوا للقيام باستكشاف جديد لاستعاضة ما فقدوا.

وخربت «طروادة» الفينيقية بين سنتي (١١٧٠ ق.م. ـ ١١٥٠ ق.م.) وربح الإغريق (اليونانيون) الفاتحون بلداناً عديدة منها «ملاتو»، و«أفيزو»، و«زولوفون»، فنزح السكان إلى «إيبيريا» في إسبانية التي ظلَّت تحت الحكم الفينيقي.

ثم استعمر الفينيقيون، بمساعدة النازحين إلى إيبيريا، جنوبي البرتغال كـ«طنجة» (تنجيس قديماً)، و«داكر»، وجزر «الكناریاس» (كارناري قديماً)، وذلك بين سنتي (١١٥٠ ـ ١١٠٠ ق.م.).

ويتبادر إلى الذهن بأن تاريخ التوسع الفينيقي وأماكنه مبالغ فيه كقوى بشرية، وأن وجود الآثار الفينيقية في تلك الأماكن كانت بسبب تجارتهم، من حيث أنهم قاموا ببناء مراكز تجارية لهم «مستوطنات» بمعنى «مستعمرات» على نحو ما يوجد حالياً في العالم المعاصر.

قواعد فينيقية للانطلاق التجاري مع أفريقية وإسبانية

أنشأ الفينيقيون في القرن التاسع قبل الميلاد قواعد تجارية لهم، في «مالطة» و«غوزو» و«بانتاليرية»، للانطلاق منها في تجارتهم مع أفريقية، كما أنشأوا مراكز تجارية لهم، في «سردينية» و«إيبيسة»، للانطلاق منها إلى «إسبانية» (بلاد ترشيش) حيث كانوا يحمّلون سفنهم بالفضة والقصدير الواردَين من شمال «إسبانية» أو من جزر «كاسيتيريد»، وفي عودتهم كانوا يسلكون المياه القريبة من الشواطئ الأفريقية عن طريق مستعمراتهم القديمة، كـ«هبّو» و«ديارهيتوس» و«عتيق» سنة (١١٠٠ ق.م.) و«قرطاجة» (٨١٤ـ ٨١٣ ق.م.) وخليج «سيرتا الصغرى» (حضر وميت ولبتيس).

قرطاجة

أسس الفينيقيون مدناً في شمالي أفريقية مثل «أوتكا» و«قرطاجة»، ولكن الأثر الكبير للفينيقيين في الحضارة الغربية كان عبر مستعمرتهم «قرطاجة» التي تُعد كبرى المستعمرات الفينيقية في الغرب.

وقد تأسست المدينة في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، وتقول أسطورة تأسيسها إن «متّان» ملك «صور» الفينيقية أوصى قبل موته في سنة (٨٢١ ق.م.) بأن تشترك ابنته «أليسار» مع أخيها «بيغماليون» بالمُلك.

ولكن «بيغماليون» أراد الاستئثار بالحكم وحده، ووافقه على ذلك حزب الشعب، فعمد إلى التخلص من «زيكار»، الكاهن الأكبر وزوج أخته «أليسار»، بقتله، لأنه كان يخاف نفوذه ويطمع بثروته العظيمة.

فهبت «أليسار» والحزب المناصر لها للانتقام وإشعال الثورة فلم تُفلح لأن حزب الشعب كان أقوى، لذلك آثرت «أليسار» الابتعاد عن مملكة أخيها مع حاشيتها وخيرة رجالها، ولُقِّبت بـ«ديدون» أي «الهاربة».

واتجهت «أليسار» ومن معها من «صور» إلى «قبرص»، ثم إلى شمال أفريقية (تونس حاليّاً)، وكانت تسكن هناك جالية صيدونية منذ سنة (١٢٤٠ ق.م.) تقريباً، وأسست هناك «قرطاجة» الفينيقية في سنة (٨١٤ ق.م.) تقريباً.

وما كادت «ديدون» ومن معها يؤسسون «قرطاجة» حتى بعثوا رسلاً إلى بلدان عدة مجاورة ليجمعوا عمالاً وجنوداً وسكاناً لعاصمتهم الجديدة، أما الصُّوريون فأرسلوا أسطولاً ليمنع هذا التجمع الخطير.

وكي ينتقم القرطاجيون من الحزب الحاكم في «صور»، فقد قرر مجلس شيوخهم عدم السماح بالمرور في مضيق «قادش» (جبل طارق أو أعمدة هرقل) لكل سفينة تحمل مهاجرين إلى مستعمرات «صور» في المحيط الأطلسي، مهددينهم بالقتل إذا وقعوا تحت رحمة السفن المكلَّفة مراقبة المضيق. ويعتقد أن الدافع لهذا التدبير هو منع الصوريين من نقل مهندسين وعمال، فينيقيين ومصريين، إلى أماكن في ما يُعرف اليوم باسم «القارة الأميركية»، ومن هذه الأماكن ما عُرف بعد أكثر من ألفي سنة باسم «البرازيل».

ونتيجة لموقف «قرطاجة» المعادي

لـ «صور» ومستوطناتها فـي «القارة الأميركية» انقطعت الصلات بين فينيقية وبين المهاجرين منها إلى تلك المستوطنات.

وكانـت «قرطاجة» فـي أفريقية، في القرن التاسع قبل الميلاد، في ذروة منافستها للوطن الأم الـذي كان قد أخذ بالانحطـاط، وعجَّلت بذلك الانحطاط موجة الاستعمار اليوناني في أواخر القرن الثامن وأوائل السابع قبل الميلاد واستيلاء الأشوريين على المدن الفينيقية في بلاد الشام.

هنيبعل (هانيبال) القائد القرطاجي

وُلد فـي «قرطاجة» أعظم قائـد فينيقي هو «هنيبعـل» (هانيبال) سنـة (٢٤٧ ق.م.)، وفي التاسعة من عمره رافق والده إلى إسبانية. وفي سنـة (٢٢١ ق.م.) اختاره الجنـود قائداً لهم، وتمكن مـن بسط نفوذ قرطاجة على كامل شبه الجزيـرة الإيبيرية بما فـي ذلـك «صاغنتوم» إحدى المحميـات الرومانية، وقـد رأت «روما» فـي ذلـك خرقـاً للمعاهـدة التـي عقـدت إثر الحـرب البونيَّـة الأولـى، وطالبـت بتسليمهـا هنيبعل، ولكن شيئاً من ذلـك لم يكن مما أدى إلى انـدلاع الحرب البونيـة الثانية بيـن سنتي (٢١٨ ـ ٢٠١ ق.م.).

وزحف هنيبعل بجيوشه لمحاصرة روما من إسبانية عبر جبـال الألب، وتمكن من الوصول إلى إيطالية.

وبعـد قتـال دام خمسـة عشـر عامـاً فـي الأرض الإيطاليـة تمكنـت «رومـا» من هزيمته في معركة «زامـا» سنة (٢٠٢ ق.م.) الحاسمة في جنوب غربي «قرطاجة».

وفي سنـة (١٩٦ ق.م.) هـرب إلى «صور» ومـن هناك اتصل بـ «أنطيوخـس» ملك سورية واشترك معه فـي الحرب ضـد الرومان، غير أنه كُسر نهائيّاً. ولما لـم يعد له أمل بالهرب، انتحر في آسية الصغرى في سنة (١٨٣ ق.م.) وهو يقول: «إن هذا سيوفر على الرومان قلقهم في انتظار موت رجل مسن مكروه».

نهاية قرطاجة

قامت ثلاثة حـروب بونيَّة بيـن «قرطاجة» و«رومـا» دامـت قرابـة المئة سنة فـي حروب متقطعة.

وفي نهايـة المطاف قرر أصحـاب النفوذ فـي «روما» هـدم «قرطاجة»، وتُركـت المدينة طُعْمَة للنيران لمدة سبعـة عشر يوماً في سنة (١٤٦ ق.م.) حتـى اخفـت موقعهـا كومة من الرماد، ثم أعملوا المحراث فيها ولعنوا أرضها بتغيير معالمها.

النفوذ التجاري القرطاجي

امتـد نفـوذ القرطاجييـن الفينيقيين على كامل ساحل أفريقية الشمالية: «ليبيا» و«تونس» و«المغرب».

وأسس القرطاجيون مراكز عديدة لهم في «إسبانيـة»، وتجاوزوا «أعمـدة هرقل» (مضيق جبـل طـارق) لاستكشـاف الساحـل الأفريقي الغربـي حيث كان لهم عـدد كبير من المراكز التجارية.

وتوغـل القرطاجيـون في أوروبـا الشمالية سعيـاً وراء مصـادر المعـادن، كالقصديـر والفضة.

وكانت سفنهم تتوجَّه من البحر الأحمر في رحـلات دوريـة إلـى «أوفيـر» للحصـول على

المعادن الثمينة والعاج وغير ذلك من المواد النادرة.

وكانت العمليات التجارية تتم بالبيع والشراء عن طريق المقايضة، وقد روى «هيرودتس» ذلك بقوله: «إن الملاحين القرطاجيين على ساحل أفريقية الغربي كانوا يُنزلون بضائعهم على الشاطئ ويوقدون النار إشارة للسكان، ثم ينسحبون إلى سفنهم. وكان السكان المحليون البدائيون يأتون حين ينظرون الدخان ويضعون ما يقابل تلك البضائع من الذهب وينسحبون. ويعود القرطاجيون فينزلون في البر، فإذا رأوا أن الذهب يعادل ثمن البضاعة يأخذونه وينصرفون وإلا فإنهم ينتظرون من جديد في سفنهم لكي يقوم السكان بمحاولة جديدة في هذه المساومة الخرساء». ويضيف قائلاً: إنه «لم يعمد أيٌّ من الفريقين إلى أن يغش الآخر».

علاقة قرطاجة بالسفر إلى أميركا

يظن المؤرخ النمساوي البروفسور «لودوفيكو شونهاغن» أن الفينيقيين أمَّنوا العلاقات التجارية بين «فينيقية» و«البرازيل» مدة (٨٠٠) سنة تقريباً، أي إلى أن هدم الإسكندر المقدوني عاصمتهم الكبرى «صور» عام (٣٣٢ ق.م.).

أما فينيقيو «قرطاجة» فقد اشتركوا في هذه الأسفار إلى «البرازيل» منذ سنة (٧٠٠ق.م.) تقريباً، واستمرت بعثاتهم التجارية إلى «أميركا» حوالي (٥٥٠ سنة)، أي إلى أن هدم الرومان «قرطاجة» سنة (١٤٧ ق.م.).

انجازات مهمة للفينيقيين

كان الفينيقيون من أشهر شعوب العالم القديم في التجارة والملاحة، وقد سجل لهم التاريخ إنجازات مهمة أبرزها:

١ ـ أنهم قاموا بالدوران حول أفريقية قبل البرتغاليين بأكثر من ألف سنة، وقد قام الفينيقيون بهذا العمل بإشارة من الفرعون نخاو (٦٠٩ ـ ٥٩٣ ق.م.) من السلالة السادسة والعشرين. ويحكي «هيرودت»، المؤرخ الإغريقي، هذه القصة في المجلد الرابع من كتابه التاريخ، بينما يُنسب إلى الملاحين البرتغاليين أنهم أول من فعل ذلك في سنة (١٤٩٧م).

٢ ـ أنهم درسوا الملاحة درساً أصولياً. وقد كان لهم الفضل في اكتشاف فائدة النجم القطبي، وأصبحوا بعد ذلك أول من أتقن فن الملاحة ليلاً والمسير حسب النجوم. وأطلق الإغريق (اليونان) على النجم القطبي اسم «نجم الفينيقيين».

٣ ـ أنهم اكتشفوا المحيط الأطلسي.

٤ ـ أنهم وصلوا إلى أميركا قبل أن يكتشفها «كريستوف كولومبوس»، ومما يدل على ذلك أنه:

أ ـ عُثر قرب مصب «واتوما»، وهو أحد أنهر ولاية «الأمازون»، على نقوش قديمة جداً على صخرة كبيرة، واعتقد «برنردو راموس» وغيره من المؤرخين وعلماء الآثار أنها تمثِّل رمزين للإلهين الفينيقيين الممثَّلين بالشمس والقمر، وبينهما السفينة الفينيقية، إضافة إلى وجود رسوم كثيرة حيث استوطن الفينيقيون أو مكثوا ردحاً من الزمن. (كتاب برنردو راموس، ج١، ص٣٠٣، لوحة ١٤).

ب ـ عُثر على شاطئ النهر المذكور على بناء كبير شُيِّد قديماً من الحجر، وحتى الآن لم يهدم بكامله. وقال بعض علماء الآثار إنه هيكل فينيقي نظراً للآثار التي اكتشفت هناك، وهي تشبه إلى حد بعيد «بيت إيل» الفينيقي.

جـ ـ ورد في كتاب «الفينيقيون في جزيرة هايتي وعلى القارة الأميركية» للفيكونت «أونفروا دي تورون»: إن سكان هايتي الأصليين أخبروا المرسَلين الإسبان الذين أمُّوا العالَم الجديد، بعد اكتشاف كريستوف كولمبس، أنه منذ قرون عدَّة أتى بحّارة من جهة البحر الشرقية واحتلُّوا الجزيرة واستوطنوها مدة طويلة. ثم غدرهم مرة جيش «الكاراييب» فانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً وأبادهم. ويقول «دي تورون»: إن نجاحي كان كاملاً لأن لغة «التينو»، أي اللغة الشريفة المقدسة في جزيرة «هايتي»، هي مشتقة من اللغة الفينيقية، بل هي لهجة فينيقية. وحتى كلمة «تتينا» نفسها هي مؤنث «تتين» الفينيقية، أي «الحية المفترسة». وقام «دي تورون» بدراسة لغوية لمئة كلمة من لغة «تينو» الهايتية المذكورة، وبيَّن، حسب اعتقاده، أن هذه المئة كلمة هي من أصل فينيقي. وحتى صيغة الجمع في لغة «التينو» كصيغة الجمع عند الفينيقيين، تنتهي أغلب الأحيان بالحرفين «وم».

د ـ تبيَّن للمؤرخين أن سكان جزيرة «هايتي» الأصليين كانوا يعبدون الشمس، باسم «شمين»، وجمعه «شمينوم»، أي التماثيل المنحوتة والرموز التي تمثِّل الشمس. ويعتقد الفيكونت «أونفروا دي تورون» أنهم أخذوا عبادتهم هذه عن الفينيقيين. فـ«شيمون» هو إله الشمس الذي يسمُّونه أحياناً «بعل شمون»، وجمعه «شمونيم».

٥ ـ أنهم أعطوا البشَريَّة «الأبجدية» التي نقلها عنهم الإغريق (اليونان) غالباً بين سنتي (٨٥٠ ـ ٧٥٠ ق.م.). وكان العلماء في الماضي يعتقدون أن الفينيقيين قد ابتكروا أبجديتهم من دون تأثير من أية جهة، إلا أن الاكتشافات الأثرية أشارت إلى أنهم أخذوها من كتابات سابقة. وتتكون الأبجدية الفينيقية من ٢٢ حرفاً صامتاً (حرفاً ساكناً)، ولما أخذ الإغريق (اليونان) الأبجدية الفينيقية وضعوا خمسة رموز لأصوات ليست في لغتهم (كالعين والحاء.. إلخ.) لإعطاء «الصوائت»، أي الحركات وحروف المد. وقد حافظ اليونان على الأسماء السّاميَّة للحروف وعلى شكلها العام وترتيبها. وكانت الحروف تكتب في أقدم الكتابات الأثرية الإغريقية (اليونانية) من اليمين إلى الشمال، كما في الكتابة الفينيقية، ثم تطورت الأبجدية الرومانية وكل الأبجديات الغربية عن الإغريقية (اليونانية).

اللغة

تُعدُّ اللغة «الفينيقية» إحدى اللغات السَّاميَّة التي تحدث بها الفينيقيون، وهي قريبة جدّاً من اللغة «العربية»، وتَبعُد نسبيّاً عن اللغة «الآرامية» واللغات السّاميَّة في وادي الرافدين كاللغتين «الأشورية» و«البابلية».

واللغة الفينيقية هي لغة ساميَّة تنتسب إلى المجموعة الكنعانية. ويرى بعض اللغويين أنها تشكِّل اللغة الكنعانية في وسط البلاد، بينما

تشكل اللهجة التي عُثر على وثائق مكتوبة بها في «تل العمارنة» اللغة الكنعانية الجنوبية، كما أن اللهجة «الأوغاريتية» هي الكنعانية الشمالية.

ومع بداية التاريخ الميلادي أصبحت الآرامية هي اللغة المتداولة في فينيقية، بينما بقيت اللغة الفينيقية لغة التحادث عند القرطاجيين ومن حولهم مِن أهل شمال أفريقية، حتى القرن السادس الميلادي، بلهجة تُعرف بـ «البونية».

وقد مرَّت اللغة الفينيقية في ثلاث مراحل يمكن إيجازها في الرئيسيات التالية:

أ ـ مرحلة اللغة الفينيقية القديمة: تمتد هذه المرحلة حتى القرن التاسع قبل الميلاد، وتُنسب إلى هذه المرحلة كتابات «أحيرام» و«أزرو بعل»، والكتابة الموجودة على سن الرمح في «الرُّويسة» حوالي سنة (١٠٠٠ ق.م.)، وكذلك كتابات «أبي بعل» و«يهيملكو»، و«إيل بعل» و«شفاط بعل» العائدة إلى الحقبة ما بين سنتي (٩٥٠ ـ ٨٨٠ ق.م.)، وتعود كذلك إلى القرن التاسع قبل الميلاد نصوص الملك الآرامي «كيلامو» في «زنجرلي» (سورية العليا)، ولا ريب أن اللغة الفينيقية كانت تشكل اللغة الأدبية لدى الآراميين في ذلك الوقت.

ب ـ مرحلة اللغة الفينيقية المتوسطة: تمتد هذه المرحلة من القرن الثامن إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وتعود إلى هذه المرحلة نصوص مقتضبة لم يعثر عليها بصورة رئيسية في فينيقية بل في مواقع كان قد وصل إليها الفينيقيون (مصر، سردينية، صقلية، مالطة، إلخ.)، وأهم هذه النصوص تعود إلى «يهيملكو» و«أشمون عزر» و«بوعشتروت».

جـ ـ مرحلة اللغة الفينيقية الحديثة: تمتد هذه المرحلة من القرن الخامس قبل الميلاد إلى مطلع التاريخ الميلادي وما يليه. وتُعرف هذه اللغة بما وصل منها على مسلة «أثينا» في القرن الرابع قبل الميلاد، وكذلك نص «معصوب» الذي يدل على مقاومة اللغة الفينيقية للغة الإغريقية بعد فتوحات الإسكندر. وأسهم توجه الانتشار الفينيقي نحو الغرب في الحفاظ على طابع خاص للغة الفينيقية لم يكن من نصيب سائر لهجات «فلسطين» أمام الانتشار الآرامي، فهنالك كتابة في «بيبلوس» (جبيل) يُمكن إرجاعها إلى القرن الثاني الميلادي.

وترتبط الفينيقية على الصعيد اللغوي باللغة العبرية، فإن نظام حروف الصوامت واحد في اللغتين

الديانة

عبد الفينيقيون عدداً من الآلهة شأن الشعوب القديمة المحيطة بهم، وألَّهوا قوى الطبيعة بعنصريها المؤنث والمذكر حسب زعمهم. وتمثَّل العنصر المؤنث بـ «عشتار» (عشتروت) إلهة الإنجاب و«عترعاته» إلهة الخصب، وتمثَّل العنصر المذكر بـ «حدد» الرجل الكهل حامل الصاعقة و«أدونيس» الشاب حبيب «عشتار» (عشتروت).

وعُرفت «عشتروت» عند الإغريق (اليونان) بـ «أفروديت»، وعند الرومان بِـ«فينوس». ومن الطريف ذكره أن قصة «عشتروت» وموت محبوبها «أدونيس» بأنياب خنزير بري وانتحابها عليه، تناقلها الأدب الإغريقي فاللاتيني فالإنكليزي.

وكان لكل مدينة فينيقية إله مفضَّل لديها أو إلهة، وكانت مراكز العبادة تقام في بعض القمم الجبلية أو الأنهار، أو الأشجار المقدسة، أو بعض الأحجار المخروطية الشكل (بتيل) التي كانت تعتبر مقرّاً للآلهة.

واشتهرت كل مدينة بحامي لها ممثل بـ«بعل» (إله) المدينة، وربما حمل اسماً خاصّاً به، ومن ذلك على سبيل المثال الإله «ملقارت» (بعل صور) الذي عبده أهل «صور»، وكان الكهنة يلبسون بُرداً كتانية ويحلقون رؤوسهم.

وكانت تقام على القمم الجبلية ذبائح تهدف إلى استرضاء الآلهة، يُضحى فيها بالأطفال الصغار. وقد استمرت هذه التضحيات حتى القرن الثالث الميلادي، وكانت تجري في المناسبات الخطيرة وَفْقَ تقليد اختص به «السّاميُّون» وانتقل معهم إلى «قرطاجة».

ونشر الفينيقيون الطقوس العبادية معهم حيث انتشروا، ومن ذلك أن طقوس عبادة «بعل» في مدينة «طرسوس» الفينيقية في «كيليكية» (في آسية الصغرى في تركية حاليّاً) كانت تشبه تقريباً الطقوس المتبعة في «صور» و«قرطاجة».

ومن الأعياد الدينية الفينيقية النموذجية في فخامتها عيد «أدونيس»، وكان يقام في قرية «أفقا» صيفاً، ويأتيه الناس من «جبيل» (بيبلوس) ومن جميع بلاد فينيقية، فتتقدم مواكب الناس نحو جبال لبنان، وتقف مواقف عديدة في الطريق تقابل مراحل الصيد التي نزل فيها «أدونيس». وهذا الوصف مستمد من تفسير «رينان» للرسم المحفور الباقي اليوم عند «الغينة» الواقعة على مسافة يسيرة من قرية «أفقا»، وهو رسم محفور من النوع الريفي يصور الإله «أدونيس» وقد هاجمه خنزير وحشي، والإلهة «عشتروت» إلى جانبه تنوح عليه.

الدفن

كان الفينيقيون يدفنون موتاهم بوضع الجثمان في تابوت، وكانت قبورهم على شكل أفران كالتي وجدت في «كفر جرة» في ضواحي صيدا، ويمكن إرجاعها إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وأحياناً كان الموتى يوضعون في توابيت فوق طبقة من الحصباء وتوضع حولهم أدوات من الحلي والفخار. ثم من عاداتهم أن يحنطوا الجثمان إذا كان الميت شخصية ذات منصب كبير. وذلك حوالي القرن الخامس قبل الميلاد. ولا شك في أنهم تأثروا في ذلك بالمصريين ولا سيما في «بيبلوس» (جبيل)، فقد كان الفينيقيون يقلدون المصريين في أشياء كثيرة حتى في توابيتهم. كما وجدت مقابر واسعة منحوتة في الصخر، يُبلغ إلى أقبيتها بوساطة السلالم. وكان الأثاث الجنائزي غنيّاً وغزيراً. وكان الجثمان المحنَّط يوضع في نواميس (قبور حجرية) هي على الغالب ذات حجم كبير.

العمائر

اشتهر الفينيقيون بأعمالهم البحرية، وقاموا ببناء المرافئ لرسو سفنهم، ولا تزال

هنـاك آثـار لأرصفـة مرفـأ «صـور» الفينيقي كنموذج على ذلك في المكتشفات الأثرية التي قامت بها المديرية العامة للآثار في لبنان.

ولتأميـن دفاعاتهـم العسكريـة قـام الفينيقيون ببناء الأبراج لمراقبة الخطر الذي قد يتعرضون له من جهة البر أو البحر.

وحينمـا جـاء الرومـان تأثـر الفينيقيـون بالمدنية الهلنستية خصوصاً في مجال الهندسة.

وكانت الحجارة هي المادة الأكثر استعمالاً في البنـاء، كما أن المنازل الأكثـر ثراءً كانت تحتوي على طابق علوي وآبار وحمامات.

وكانـت المعابد، أمثـال معبـد «أوغاريت» (رأس شمـرة)، تتألف من فنائَيـن مستطيلَي الشكل محاطَين بالجـدران، ومن غرف يمكن الوصـول إليهـا عن طريـق أروقـة، وكان أحد الفنائَيـن يحتوي علـى مذبح مُـدرَّجٍ مُقام في الهواء الطلق.

وكانت حركـة البناء نامية، والمدن محمية بأسوار عريضـة، كما كانت المدن تحتوي على أقنية عديدة للمياه وعلى طرق متقاطعة بزوايا قائمة في الأحياء.

وكان الفينيقيـون فـي ترحالهـم يقيمـون البيوت السكنية بشيء من البساطة، وعُثر على بعض هـذه البيوت فـي آثار مدينـة «صبراتة» التاريخيـة، التي تقـع على بعـد ٦٧ كلم غرب العاصمـة الليبيـة (طرابلـس)، علـى ساحـل البحر الأبيـض المتوسط، حيـث عُثر في تلك الآثـار على آثـار فينيقية تتمثل فـي مصاطب رمليـة كان الفينيقيـون يقيمون فوقهـا أكواخاً مؤقتـة لفترة قصيرة من السَّنَة، وعُثر في تلك الأكـواخ علـى جِـرار بونيـة، تعـود للقرنيـن السادس والخامس قبل الميلاد.

السلع التجارية

كانـت السفـن الفينيقية تصـدر الأخشاب والنحاس وتأتي بدلاً عنها بالذهب من «أوفير» والعطـور والتوابـل مـن سائـر جهـات شبـه الجزيرة العربية.

ولم يكن الفينيقيون أول أمة بحرية فحسب، بـل كانوا أول أمـة في التاريخ تاجـرت في البر والبحـر. وكانت محطاتهم التجارية في الداخل تضـم «أديسـا» وربما «نصيبيـن»، بحيث تصل موانئهـم علـى البحـر الأبيـض المتوسـط بمراكزهم على الخليج الفارسي. ونظراً لأهمية التجـارة الفينيقيـة وانتصارهـا، فقـد ذُكـرت تجـارة أهل «صـور»، وأنـواع السلع التـي كانوا يتاجـرون فيهـا، فـي العهـد القديم فـي سفر «حزقيال»، الإصحاح السابع والعشرين، الأعداد (١٢ ـ ٢٤): «ترشيـش تاجرتـك بكثرة كل غنىً بالفضة والحديـد والقصدير والرصاص أقاموا أسواقـك. ياوان وتوبـال وماشِك هـم تجارك. بنفوس الناس وبآنية النحاس أقامـوا تجارتك. ومن بيـت توجرمـة بالخيل والفرسـان والبغال أقاموا أسواقك. بنو ددان تجارك. جزائر كثيرة تجـار يـدك. أدَّوا هديَّتـك قرونـاً مـن العـاج والآبنوس. أرام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا فـي أسواقـك بالبهرمـان والأرجـوان والمطرز والمرجان والياقوت. يهوذا وأرض إسرائيل هم تجـارك. تاجـروا فـي سوقـك بحنطـة منِّيـت وحلاوى وعسل وزيت وبلسـان. دمشق تاجرتك بكثـرة صنائعك وكثـرة كل غنىً بخمـر حلبون والصوف الأبيض. ودان وياوان قدَّموا غزلاً في أسواقـك. حديـد مشغـول وسَليخـةٌ وقصـب الذَّريـرة كانـت فـي سوقـك. ددان تاجرتـك بطنافس للركوب. العرب وكل رؤساء قيدار هم

تجار يدك بالخرفان والكباش والأعتدة. في هذه كانوا تجارك. تجار شَبَا ورعْمة هم تجارك. بأفخر أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك. حرّان وكنَّة وعدن تجار شَبا وأشور وكِلْمَد تجارك. هؤلاء تجارك بنفائس بأردية أسمانجونية ومطرزة وأصونة مُبْرَم معكومة بالحبال مصنوعة من الأَرْز بين بضائعك».

الصناعة

اشتهر الفينيقيون بالعديد من الصناعات، ولعل أبرزها:

١ ـ **صناعة السفن**: اشتهر الفينيقيون بصناعة السفن منذ القدم وساعدهم في ذلك أخشاب الأرْز الموجودة في الجبال المحيطة بهم من جهة، ووجود البحر على ساحل مدنهم الذي كان عوناً لتجارتهم البحرية في المناطق المختلفة من جهة أخرى. وظهرت السفن الفينيقية حوالي سنة (١٤٠٠ ق.م.) مرسومة على المباني الأثرية المصرية بشكل هلال ولها مؤخرة ومقدمة مرتفعتان ومجذافان يستعملان كدفة للسفينة، وفي أعلى الصاري شراع واحد مربع على امتداد يردتين.

وكانت سفنهم القديمة تُسَيَّر بوساطة شراع ومجاذيف، وكانت السفن عريضة في وسطها بحيث كانت حمولتها كبيرة بدون أن تكون طويلة.

وتظهر السفن الفينيقية التجارية والحربية على الآثار الأشورية بمؤخرة مرتفعة ومِدَكٍّ مُروَّسٍ في المقدمة يمكن استخدامه في القتال وطابقين.

وبناة السفن الفينيقيون هم الذين بدأوا عادة وضع مُجَذِّفين أو أكثر، الواحد فوق الآخر. وكان الطابق الأسفل من السفينة عادة يضم صفين، كل منهما بأربعة أو خمسة مجاذيف، بحيث كان عدد المجذفين كلهم بين ستة عشر وعشرين، وفي العصور المتأخرة بلغ عدد المجذِّفين خمسين مجذِّفاً. وكان الركاب يقيمون في الطابق الأعلى.

وكان الفينيقيون يستعملون عوداً واحداً للشراع الذي كان يُنشر عندما ترسو السفن أو حين يكون الطقس رديئاً. وهذا النوع من السفن هو الذي اقتبسه الإغريق (اليونان) الأقدمون، كما يتضح من الرسوم على الأواني. وعن مراكب «قرطاجة» نقلت «روما» نماذج مراكبها فيما بعد.

٢ ـ **صناعة الأرجوان**: اشتهرت المدن الفينيقية بصباغة الأرجوان، إلا أن أكثرها جودة وشهرة كانت مدينتا «صيدا» و«صور»، ولما كانت صباغة الأرجوان تُحدثُ روائح تُسببها أعمال الصباغة، فإن إنشاء أماكن العمل هذه كانت تتم بعيداً عن المدن.

٣ ـ **صناعات فينيقية مختلفة**: كان أهل «فينيقية» يعملون في صناعة النبيذ، والزيوت، والغار، وخشب الأرز، والمنسوجات من الصوف والكتان، ومصبوغات أخرى غير الأرجوان.

وتعلَّم الصناع الفينيقيون من المصريين عدداً من الصناعات، فعرفوا السَّبك (الصَّب)، والطَّرْق، وحفر المعادن كالذهب والفضة، ونحتوا عدة أشياء من العاج منها قطع الأثاث.

كما برع الفينيقيون بصناعة الزُّجاج التي تعلموها من المصريين، وتفننوا في هذه

الصناعة حتى غدا الزجاج شفّافاً بين أيديهم، فنوَّعوا في أصنافه، وتفننوا في تلوينه، فصنعوا منه الكؤوس وقوارير الطِّيب إلخ...، كما برعوا في إدخال صناعته إلى الحلي وأدوات الزينة من الأقراط والأساور والخواتم والعقود.

وبرع الفينيقيون أيضاً في تصنيع العاج الذي جلبوه من الهند، فصنعوا منه صناديق صغيرة، وتماثيل وزخرفوها. ووُجدت أعداد ضخمة من مصنوعات العاج في النَّواويس والمقابر، لأنَّها كانت تودَع مع الميت، ومعظمها موجود اليوم في المتحف البريطاني.

العلوم الفينيقية

لم تقف براعة الفينيقيين على الملاحة والتجارة، بل إنهم برعوا أيضاً في عدد من العلوم التي إما قاموا بها بأنفسهم أو أخذوها عن الأمم الأخرى، ومن ذلك:

١ ـ الأختام والخط المسماري: تأثرت «فينيقية» القديمة بالحضارة البابلية، فخلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد كان أمراء «فينيقية» يكتبون بالخط المسماري، وتعلم الفينيقيون ختم مستنداتهم بأختام بابلية.

كذلك تعلم الفينيقيون من البابليين الكثير من قصصهم الأسطورية عن بداية العالم، ومولد آلهتهم، وخلق البشر. ويرى بعض العلماء أن «فينيقية» كانت الممر الذي عبرت من خلاله الأساطير البابلية التي تحكي عن الخلق وعن الطوفان، إلى العبرانيين في الجنوب وإلى الإغريق.

٢ ـ الإنجازات العلمية: اشتهر «الفينيقيون» وبخاصَّة «الصُّوريُّون» و«الأوغاريتيون»، بالعلوم، لا سيَّما عِلْمَي «الفلك» و«الحساب» الضَّروريَّين في الملاحة والتجارة.

وكان «القرطاجيُّون» أوَّل من أصدر أوراق النَّقد على جلود الحيوانات، واستنبطوا خطوط الطُّول ودوائر العرض ووضعوها على خرائطهم لتحديد مواقع مستعمراتهم ومحطاتهم التِّجاريَّة، واكتشفوا النَّجم القطبي الشمالي لتحديد الجهات. كما ساهم «القرطاجيون» أيضاً في تطوُّر علم الجغرافية نتيجة رحلاتهم الاستكشافية في البحار والمحيطات حول «أفريقية» بعد عبورهم مضيق «جبل طارق» (أعمدة هرقل)، التي أكسبتهم معرفة بأحوال القارَّة الأفريقية من حيث المناخ، والنَّبات، والسُّكان، وأنماط معيشة السكان وعاداتهم وتقاليدهم.

ووصل «الفينيقيون» إلى القارَّة الأميركيَّة قبل أن يكتشفها «كريستوف كولومبوس» كما تثبت لوحة «پارايبا» التي عُثر عليها في البرازيل «نقش بارايبا» (Paraiba) أو (Parahyba).

الفنون الجميلة

ينقسم تاريخ الفن الفينيقي إلى عصرين:

ـ الأول: يبدأ من الألف الثالث قبل الميلاد وحتى الألف الأول قبل الميلاد، وكانت مرحلة ازدهاره في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، ويبدو الفن الفينيقي في هذه المرحلة محاكياً ومحتضناً لفنون «مصر» و«إيجة» والبلاد الأجنبية عن «فينيقية» بوجه عام.

ـ الثاني: يبدأ من الألف الأول قبل الميلاد حتى أواخر العصر الإغريقي (اليوناني) الروماني، ولم يقتصر الفن الفينيقي في هذه المرحلة على المحاكاة بل

كان يؤلف بين ما ينقله ويتمثله، وحدة فنية كاملة متسقة.

وتدل حفريات «أوغاريت» (رأس شمرة) على أن هذا الفن قد تأثر بشدة بفنون «بلاد ما بين النهرين»، و«مصر» و«متّاني» و«المنطقة الحثيَّة»، وحتى بفن «كريت» (إقريطش). وأكسبت المهارة في تكييف هذه العناصر المتفاوتة الفن الفينيقي أصالة حقيقية.

ولم يخلِّف فن «النحت» إلا عدداً ضئيلاً من المنجزات، أمثال التماثيل الضخمة في بيبلوس» (جبيل)، لكن النحت النافر كان وفيراً. وكشفت حفريات «أوغاريت» (رأس شمرة) عن مسلات منحوت على إحداها، الموجودة في متحف «اللوفر» في باريس، إله يلبس وزرة قصيرة، وتظهر عيناه ولحيته بزاوية جانبية.

واستعمل فن «النحت» أيضاً على النواويس، وأجمل ما وصل منه رسم نافر على ناووس «أحيرام» (١٢٤٠ ق.م.)، مزخرف بصور نائحات وبأزهار اللوتس.

وقد خلَّف الفينيقيون قِطَعاً برونزية جميلة اشتهرت في الشرق كافة، وأجملها صُنع في «أوغاريت» (رأس شمرة)، كما خلَّفوا أيضاً منحوتات عاجية كالتي عثر عليها في «أرسلان تاش».

ورسم الفينيقيون على الخزف والخشب والمعادن، واهتموا بأدوات الزِّينة التي شملت الحلي المطعَّمة بالعاج والذَّهب والفضَّة والحجارة الكريمة.

واهتم الفينيقيون أيضاً بالغناء والموسيقى واستعملوها في الطقوس الدِّينيَّة، وكان العود إحدى آلاتهم الموسيقية التي استعملتها شعوبٌ كثيرة.

المصادر والمراجع

- إدة، إميل: **الفينيقيون واكتشاف أميركا**، دار النهار للنشر، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٩م.
- حتّي، د. فيليب: **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، (بتصرف)، ترجمة د. جورج حداد، ترجمة عبد الكريم رافق، أشرف على مراجعته وتحريره د. جبرائيل جبور، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ١٩٥٨م.
- عبودي، هنري س.: **معجم الحضارات السامية**، جروس برس، ط ٢، طرابلس ـ لبنان، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م.
- كونتنو، ج.: **الحضارة الفينيقية**، ص١٦٧، ترجمة د. محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعة د. طه حسين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ مصر، ١٩٩٧م.
- **الموسوعة العربية العالمية**.



الحضارة القرطاجية

(القرطاجيّون)

أ. د. جمعة شيخة



الأصل

القرطاجيُّون نسبة إلى قرطاج عاصمة الفينيقيِّين في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسِّط.

والفينيقيُّون أمَّة ساميَّة، موطنهم الأصلي الساحل الممتد من شمال سيناء إلى حدود آسيا الصغرى، ويشمل الساحل الفلسطيني واللبناني والسوري، وخاصة الساحل اللبناني ما بين جبل لبنان والبحر.

عُرفت دولة الفينيقيِّين ـ وكبرى حواضرها مدينة صور ـ بمملكة البحار، لاستعمالها البحر وسيلة لنشر تجارتها باعتبارها العمود الفقري لاقتصادها، هذا وقد دفع ضيق المجالين البرِّي والبحري وضغوطات بعض الشعوب المجاورة شرقاً الفينيقيِّين، وخاصة تجار صور، إلى البحث عن مجال حيوي آخر غرباً، فرنت أبصارهم إلى إسبانيا، وسعوا للوصول إلى مناجم الفضَّة والقصدير والذهب بجنوبها، خاصة وأن السكان الأصليين، لجهلهم، كانوا لا يُحسنون استغلال هذه المعادن واستعمالها.

بدأ انتشارهم في نهاية القرن ١٢ ق.م، فأسَّسوا مصرفين تجاريين سنة ١١١٠ ق.م في قادس Gades بجنوب إسبانيا وليكسوس Lixus على الساحل الأطلسي للمغرب الأقصى، ومصرفاً ثالثاً سنة ١١٠١ ق.م، هو أوتيكا Utica، على الساحل الغربي لخليج تونس.

وتوالى انتشار الفينيقيِّين هذا إلى القرن السابع ق.م، واتخذوا من سواحل الشمال الغربي لأفريقيا مرافئ لسفنهم، ومصارف لمعاملاتهم، ومن جزر البحر المتوسط محطات لضمان استمرار تجارتهم، ومثَّل الساحل التونسي، شمالاً وجنوباً، المجال الحيوي لإنشاء مرافئهم ومصارفهم، وكانت قرطاج أهمَّ مستوطناتهم لموقعها الاستراتيجي المتميِّز، والنائي الذي جعلها بمعزل عن الامبراطوريات الأجنبية ومؤثراتها.

التسمية

قرطاج، من حيث التسمية، هي تحريف لكلمتين فينيقيَّتين «قرت» و«حدشت» أي القرية الحديثة. وإذا كانت أوتيكا قرية لوبيَّة، تسميةً وأصلاً، حلَّ بها الفينيقيون مجاورين للسكان الأصليين ومتعايشين معهم، فإنَّ قرطاج هي مستوطنة فينيقية قلباً وقالباً، نشأةً وتسمية. وللتفريق بين الفينيقيين في الشرق وعاصمتهم صور، والفينيقيين في الغرب وعاصمتهم قرطاج، أطلق الرومان اسم «البونيِّين» أو «البونيقيِّين» على أهالي قرطاج وما كان يدور في فلكها من مستوطنات.

التأسيس

هذا ويمتزج التاريخ بالأسطورة في خصوص تأسيس قرطاج، ويرجع هذا إلى أنَّ جُلَّ المدن الكبرى القديمة، كأثينا وروما وقرطاج، نسج الخيال حول نشوئها أساطير ترمز ـ بدون شك ـ إلى حقائق تاريخية ثابتة. وبالنسبة إلى قرطاج يُذكر أنها تأسست على يد الأميرة الفينيقيَّة «عليسة» حوالي سنة ٨١٤ ق.م. لقد اضطرَّت هذه الأميرة، للخروج من صور، بعد أن قَتل أخوها بغماليون زوجَها الكاهن أكرباس وانفرد بالحكم من دونها، مخالفاً وصيَّة أبيه، وخوفاً من أن يكون مصيرها كمصير زوجها؛ واصطحبت معها

أعياناً من كبار التجار بثرواتهم وبعض رؤساء البحار بسفنهم، واتجهت غرباً، فكانت محطتها الأولى قبرص. ويبدو أنَّ حملتها كان ينقصها العنصر النسائي، فأخذت من قبرص ٨٠ امرأة من الأسيرات. ولتأمين الجانب الرُّوحي لحملتها رافقها كاهن من كهنة الإله عشترت. وأبحرت عليسة نحو الغرب لتحطَّ رحالها في هذه المرة بخليج تونس بين مصبَّي وادي مجردة ومليان.

لم يأخذ نزول عليسة ومَن معها على الساحل التونسي الشمالي الغربي مظهر الغزو، بل كانوا محلَّ ترحاب من الأهالي، فقد رأى هؤلاء في وصول الفينيقيِّين فتحاً لكثير من أبواب الرِّزق وخاصة في المجال التجاري. ويبدو المظهر السلمي لحملة عليسة ـ كما ترمز إليه الأسطورة ـ في عدم استعمال القوة للاستيلاء على أرض هي مُلك لأصحابها، بل قامت عليسة بشراء قطعة صغيرة منهم، لكنها استعملت الحيلة لتجعل من القطعة تمتد على أكبر مساحة ممكنة؛ فقد جاء في الأسطورة أنها اشترت قطعة أرض مساحتها جلد ثور، ولكنها قطَّعت هذا الجلد بكيفية مكَّنتها من امتلاك أرض قادرة على إيواء مَن اصطحبها من الرجال والنساء، وملاصقة للبحر لتجد سفنها مكاناً آمناً لرسوِّها.

النشأة

كانت قرطاج أول الأمر مرفأً فينيقيّاً كجلِّ المرافئ التي امتدَّت على الساحل الشمالي لأفريقيا، ولكنها استطاعت أن تتفوَّق على كلِّ هذه المرافئ وتتميَّز عن كلِّ المستوطنات الفينيقيَّة البريَّة بفضل نشاطها التجاري المكثَّف والمتنوِّع الذي انعكس إيجاباً على قوَّتها العسكرية المتنامية.

وما لبثت قرطاج أن أصبحت عاصمة لدولة قوية هي الامبراطورية القرطاجيَّة أو البونيَّة، فبسطت نفوذها على المستعمرات الفينيقيَّة القريبة منها، وجعلت النائية عنها تدور في فلكها الاقتصادي، كما أسَّست مستعمرات جديدة في إسبانيا وجزر البليار (الجزائر الشرقية)، ولم تتوانَ في الدفاع عن المستعمرات الفينيقيَّة بجزيرة صقلية، وتصدَّت لأعمال القرصنة المهدِّدة لنشاطها التجاري، ووقفت موقف الندِّ للندِّ في مواجهة المناوئين لها من اليونان والرومان في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

مع كلِّ هذا التفوُّق حافظت على علاقتها بصور المدينة الأم، فكانت تبعث لها بالهدايا في المناسبات الدينيَّة والانتصارات العسكرية، وتمدُّ لها يد المساعدة في الأوقات الحرجة إلى أن سقطت صور سنة ٣٣٢ ق.م على يد إسكندر المقدوني.

وصفها

كانت قرطاج نموذجاً للمدينة الفينيقيَّة الأصلية، فهي لا تختلف في تصميمها عن المدن الفينيقيَّة العريقة، وهو تصميم نشأ على الأرجح في بلاد الرافدين منذ الألف الثالث ق.م، ومنها تسرَّب إلى أرض كنعان في الشام وفلسطين، ثم انتشرت في مختلف ربوع البحر الأبيض المتوسط.

وقرطاج، شأنها شأن الحواضر الكبرى، كانت محاطة بسور طوله ٣٤كلم وارتفاعه ١٣

متـراً وسمكه ٩ أمتـار، محصَّن بأبـراج يبعد الواحـد منهـا عـن الآخـر ٥٩ متـراً، ولمزيد التحصين كان السـور مكوَّناً من ثلاثة جدران بينها قسائم لإقامة الجنود وحفظ العتاد.

ويبدو أنَّ أبواب السُّور تتزايد بتطور الحياة الاقتصاديـة داخل المدينة لاحتياج الناس إلى الدخـول إليها والخـروج منها بكثـرة، ويسمى البـاب المتأخِّر فتحه «شعر حـدش» أي الباب الجديد.

وتُعرف المدينة البونية بساحتها العمومية، وهـي فـي قرطـاج تمتـد مـا بيـن المرفأين، العسكري والتجاري، وهضبة صلامبو الحالية، ومنها تتفرَّع ثلاثة شوارع رئيسة تقود إلى معبد أشمـون في الهضبـة، وعلى جوانبهـا تصطفُّ بيوت قرطاج ذات الطوابق المتعدِّدة.

والبيـت القرطاجي، وخاصـة السفلي منه، بيـت مشرقي ما تـزال له نماذج فـي المدينة العتيقـة بتونـس والقيـروان وفـاس ومراكـش وتلمسان وطرابلـس، ولهذا البيت عتبة تفصله عـن الشـارع تمنـع عنـه كلَّ مـا هو مـؤذٍ من حشـرات ضـارَّة وأتربـة متسخة وميـاه آسنة، وباجتياز العتبة من الخارج نجد دهليزاً طويلاً ضيِّقاً يفضـي إلى فناء فضـاؤه مفتوح لدخول الهـواء والنـور لـكل الغـرف المتواجـدة فـي محيطـه، وفـي ركـن منه نجـد بئـراً، كما هو الحـال بمدينـة كركـوان، أو صهريجـاً لجمـع الماء، كما هو الحال في مدينة قرطاج.

وللمنزل غرفة استحمـام فيها حوض على شـكل حذاء، ويصل إليه المـاء في أنابيب من رصـاص، ويخـرج المـاء المستعمَل فـي قناة جانبيـة تمـرُّ مـن الدهليز إلـى أسفـل العتبة فينسـاب في قنـاة رئيسة تشق الشـارع ليصل إلى مصب تنحدر إليه المياه المستعمَلة ومياه الأمطار.

ونجـد خارج السُّـور، في المدينـة البونية، الحِرَف الملوِّثة كأفران الفخار وتنانير الجصِّ ومعامل الصباغة.

ويرجع المؤرخون بلوغ قرطاج أوج عظمتها وازدهارها وإشعاعها إلى عوامل رئيسة أربعة: نظام ديمقراطي متين، واقتصاد قوي ومتنوِّع، ومجتمع أصيل ومنفتح، وقوة عسكرية ضاربة.

١ ـ النظام السياسي

لقرطاج دستور نوَّه بـه الفيلسوف اليوناني أرسطـو، وبـه تنتظـم الحيـاة السياسيـة بالانتخاب، والحياة الإدارية بالقانون، والحياة الاجتماعيـة بسلطـات تشريعيـة وقضائيـة وتنفيذية. ويقوم هذا الدستـور على مؤسسات لـم تكن لهـا سلطـات مستمرَّة ومحـدَّدة عبر تاريخ قرطاج، بـل كانت لها سلطـات متفاوتة عبر الزمان. وأهمُّ هذه المؤسسات:

أ ـ **مجلس الشعب**: ويُعرف باللغة الفينيقيَّة بـ«عم قرت حدشت». ولكل مواطن حقُّ الدخول فيـه حسـب شـروط مضبوطـة. ومهـامُّ هـذا المجلـس لم تصل إلينـا تاريخيّاً محدَّدة، فقد تتقلَّـص في فتـرة وتزداد في أخـرى. والثابت أنـه كان ينتخـب القـوّاد والسبطيـن (أو الشفطين)، ويقوم بدور الحكم إذا جدَّ خلاف بين (السبطين) ومجلس الشيوخ.

ب ـ **مجلس الشيوخ**: ينتخبه الشعب ويلعب فيـه المـال والجـاه والدعايـة الـدور الكبيـر للوصول إلـى عضويته، شأنه في ذلك شأن كلِّ المجالـس النيابيـة منـذ القديـم إلـى اليوم، ويسمى العضـو فيه «بعل قرطـاج»، لذا يُعرف

المجلس ببعول قرطاج، وعددهم أكثر من ٣٠٠ عضو.

ولهذا المجلس مهام تشريعية بسَن القوانين بالداخل ومهام أمنية في الخارج، كإعلان الحرب وعقد معاهدات السِّلم، وثالثة قضائية بمحاكمة كبار رجال الدولة عند زيغهم واستغلالهم نفوذهم.

جـ- الأسباطية (الأشفاطيَّة): وهي السلطة التنفيذية العليا الموكول لها تطبيق قرارات المجلسين السابقين، وتتكوَّن من سبطين، أو شفطين، يشترط فيهما الكفاءة والوجاهة والمعرفة، ولهما النظر في كلّ ما يتعلق بالقضاء وسير المحاكم مباشرة أو بالاستعانة بغيرهما، وكذلك في كل ما يتعلق بإدارة الدولة.

والسبطان (أو الشفطان) منتخبان من مجلس الشعب لسنة واحدة قد تتجدَّد، ولهما علاقة مباشرة ومتينة بما يُعرف في هذا النظام بالقابض: وهو المتصرِّف في خزينة الدولة، وهو منصب لا يقل قيمة عن منصبهما.

د- مجلس المائة: هذا المجلس هو بمثابة محكمة عليا أعضاؤها دائمون وتنظر في كل ما يتعلق بأمن الدولة والتصرُّف في أموالها، لذا يخشاها كبار المسؤولين والقادة. وفي عهد هنيبعل تمَّ حلُّ هذه المحكمة.

هـ- محكمة المائة والأربعة: قد تكون هذه المحكمة هي نفسها المجلس السابق، لكن هناك اتفاقاً في الصلاحيات واختلافاً في كيفية الوصول إلى عضويتها. فهذه المحكمة منتخبَة من هيئة (أو هيئات) تضم خمسة أعضاء، لذا أُطلق عليها اسم «الهيئات الخماسية»، وبرزت في القرن ٥ ق.م، وعند انتهاء مهامِّهم يُسند إليهم لقب «حاكم» من أجل تمتعهم بالحصانة. فهل هذان المجلسان محكمة واحدة أو هما محكمتان؟

ونظراً إلى تطوُّر قرطاج وتشعُّب الحياة فيها كانت الإدارة في هذا النظام السياسي محتاجة، لتسيير شؤون الناس في حياتهم اليومية، إلى لجان خاصَّة من أعوان مختصِّين في جمع الضرائب وضرب السكَّة، ومحتسبين مكلَّفين بالمراقبة الأخلاقية حفظاً لعادات المجتمع، كما تشير المصادر إلى جمعيات شبيهة بما يُعرف اليوم بالنوادي والنقابات المهنية.

٢- الاقتصاد القرطاجي

اعتمد الاقتصاد القرطاجي على ثلاثة عناصر أساسية يمكن ترتيبها حسب أهميتها كالتالي: تجارة رائجة، وإنتاج زراعي وافر، وصناعة جيدة ومزدهرة.

أ- التجارة: لقد انبنت قوَّة الفينيقيين شرقاً وغرباً على مهارتهم في صنع السُّفن وعلى إتقانهم صناعة تجهيزاتها، وبهما كوَّنوا أسطولاً ذا طابعين: الأول تجاري، والثاني عسكري، ولهذا كانت المستعمرات التي أنشؤوها والمستوطنات التي أقاموا بها هي في الوقت نفسه مرفأ لرسوِّ السفن، ومصرفاً لتسهيل المعاملات التجارية للسفُن القادمة بحراً وللقوافل الواصلة برّاً.

وإذا أخذنا مدينة قرطاج البونية نموذجاً نجد أن بحيرتها تضمُّ حوضين: حوض مستطيل ترسو فيه السُّفن التجارية، وآخر دائري ترسو فيه السُّفن العسكرية. وتميَّز الأسطول القرطاجي البوني بسعة الحمولة وسرعة الحركة ومهارة النوتية، لهذا لا

نستغرب من إشارة بعض المصادر التاريخية إلى أنَّ قرطاج جهَّزت بهذا الأسطول رحلتين خارج البحر الأبيض المتوسط: الأولى إلى شمال أوروبا بحثاً عن القصدير في سواحل الجزر البريطانية، ورحلة ثانية إلى الجنوب على الساحل الأطلسي، بدءاً من سواحل المغرب الأقصى إلى سواحل غرب أفريقيا الوسطى، بحثاً عن الذهب.

ورغم ازدهار تجارة قرطاج مع مستعمراتها القريبة منها والنائية وتنوُّع الإنتاج عرضاً وطلباً، كانت تعتمد في البيع والشراء على المقايضة نظراً إلى بدائية الشعوب التي كانت تتعامل معها، لذا لم تضرب قرطاج نقودها البرونزيَّة الأولى إلا في النصف الثاني من القرن ٤ ق.م، وظهرت النقود الفضية فيها في القرن ٣ ق.م، وأكيد أنَّ الزراعة والصناعة كانتا توفران لها البضاعة اللازمة لترويجها في حوض البحر المتوسط ساحلاً وجزراً.

ب ـ الزراعة: لئن كان البحر ذا أهمية كبرى بالنسبة إلى القرطاجيين، باعتباره ممرّاً لعبور تجارتهم، وباعتباره مورد رزق بثرواته، فإنه لم يجعلهم يستغنون عن زراعة الأرض المحيطة بمدينتهم، أو التي عُرفت بخصبها في الوطن القبلي والساحل التونسي في الشمال والوسط والجنوب، والإنتاج الزراعي، زيادة عن كونه مصدراً للغذاء في الداخل، يعتبر بضاعة للترويج بالخارج كالزيت الجيِّد والخمر الرَّفيع.

ومنذ القرن ٥ ق.م تمكنت قرطاج، إثر حروب متعدِّدة مع سكان البلاد الأصليين، من توسيع منطقة نفوذها المباشر على الأرض الممتدَّة من حدود ليبيا الحالية جنوباً إلى حدود الجزائر الحالية شمالاً، واستطاعت الأرستقراطيَّة من أصحاب العقارات استغلال مساحات شاسعة خصبة بطريقة ناجعة مكَّنتها من التفوُّق والتميُّز في هذا المجال على بقية شعوب المتوسِّط.

ولقد تجلى اعتناء القرطاجيين بالزراعة في نقوش منحوتة في مواقع أثرية متعددة، وفي مؤلفات حفظ لنا منها الزمن موسوعة العالم الزراعي القرطاجي ماغون، وتشتمل على ٢٨ سفراً تتعلق كلها بالاقتصاد الريفي من حيث الأشجار وغراستها، والحيوانات وتربيتها، والأرض وصلاحيتها للزراعة، والأسمدة وتنوُّعها، والأجواء المناخية وتقلُّباتها.

ولم تكن معلومات هذه الموسوعة العلمية نظرية مجرَّدة، بل كانت مستمدَّة من تجارب ميدانية في زراعة الخضر بأنواعها، وزراعة الأشجار بأصنافها، وخاصة الزيتون والتين واللوز والرمان والكروم، وفي تربية الخيل والبغال والأبقار والأغنام والمعز والدَّواجن والنحل بعسله وشمعه الذي اشتهرت به قرطاج البونية.

ولم يكتفِ ماغون بإسداء النصائح حول الزراعة وتربية الماشية، بل قدَّم ضبطاً دقيقاً لقواعد إدارة الأملاك الريفية، وقال قولته المشهورة: «إذا اشتريت ضيعة فعليك أن تبيع بيتك في المدينة».

ونظراً إلى أهمية هذه الموسوعة، لم يكتف الرومان بالاحتفاظ بها بعد حرقهم للمكتبات والوثائق الرسمية القرطاجية، إثر انتصارهم النهائي على قرطاج، بل قاموا بترجمتها إلى اللاتينية، ثم تُرجمت إلى الإغريقية.

لقد أشار المؤرخـون للحملات العسكرية الصقلية على قرطاج بعد نقل المعركة إلى الساحل الإفريقي، إلى فظاعة ما ارتكبه الجنود من إتلاف لمزارع شاسعة وإفساد لجنان بثمارها يانعة، وتخريب لمنازل ريفية رائعة، واستيلاء على ماشية وافرة، والحقيقة أنَّ تجارة النخاسة، لكثرة الأسرى من السكان والعبيد والعملة، أصبحت مزدهرة ورائجة.

جـ ـ الصناعة: يذهب بعض المؤرِّخين الغربيين إلى أنَّ الصناعة لدى القرطاجيين لم تكن بالأهمية نفسها مقارنة بالمجالين التجاري والزراعي، وهذا الرأي يمكن أن نعتبره ـ نسبيّاً ـ صحيحاً، إلا أنَّ الذهاب إلى أنَّ الصناعة البونية لم تعرف الابتكار، فهذا حكم يتناقض مع ما وصلنا من مصنوعات دقيقة وتحف فنية في مقابرهم وغرفهم الجنائزية، كما أنَّ مهارتهم في صنع السفن وآلات الموانئ والأدوات الزراعية حقيقة لا يمكن طمسها أو إنكارها، وما سعيهم للوصول إلى فضَّة إسبانيا وذهب أفريقيا ونحاس المغرب الأقصى وقصدير إنكلترا إلا دليل على أرضية محترمة لصناعة قائمة في المجتمع البوني.

وفعلاً طوَّع القرطاجيُّون الحديد أسلحة وآلات، ونشروا الخشب سفناً وأدوات، وصاغوا من الذهب والفضة والخرز والعجلات زينة وحلياً، وصنعوا من العاج والبلَّور أوعية تجميل وتطرية (Maquillage)، وجعلوا من الأواني الخزفية المتقنة الصنع والمطلية والمزخرفة زينة في منازلهم، أما البسيطة منها فقد استغلُّوها في حياتهم اليومية لحاجاتهم، خاصة في الحمام والمطبخ. وبصفة عامة امتاز القرطاجيون في المجال الصناعي بالصياغة والحياكة والدِّباغة.

٣ ـ المجتمع القرطاجي

عناصره: المجتمع البوني مجتمع حضري بالدرجة الأولى، يسكن المدن والقرى والدساكر، وإذا أخذنا المجتمع القرطاجي نموذجاً، فإننا نجده يتركب من العناصر التالية:

أ ـ العنصر الأول، القرطاجيُّون الأحرار: وهم سكان المدينة الساهرون على تسييرها سياسيّاً وإداريّاً، اقتصاديّاً ودينيّاً، كلٌّ حسب مَلكاته ومُمتلكاته، وحسب كفاءته وقدرته. ويأتي في الطبقة الأولى منهم الأثرياء من ذوي النفوذ والجاه والمال، وكبار التجار وأصحاب العقارات في المدينة والريف، ثم يليهم الحرفيون أصحاب الصناعات الكبرى والصناعات الفاخرة استهلاكاً في الداخل وتصديراً إلى الخارج. وكانت الحضارة في قرطاج وغيرها من المدن، مثل كركوان في الوطن القبلي، تقاس بدرجة تطوُّر هذه الصناعات وخاصة في مجالَي الصاغة والفخار، ثم تأتي طبقة العَمَلة، وهم الأكثر عدداً والأقل حظّاً في تقاسم الثروة، ويعملون أُجراء لدى الطبقة الأولى والثانية في البحر والمزارع والمصانع.

ب ـ العنصر الثاني، الأجانب: كان المجتمع القرطاجي في المدينة يضمُّ جاليات أجنبية تأتي من ريف البلاد أو من خارجها طلباً للعمل أو نزوحاً قسريّاً من بلدانهم، شبيهاً بما أصبح معروفاً اليوم باللجوء السياسي، وقد يطول

مقام هذا العنصر فينصهر في إحدى طبقات العنصر الأوّل.

جـ ـ العنصر الثالث، العبيد: اعتمد المجتمع القرطاجي على نظام الرقّ، شأنه في ذلك شأن المجتمعات القديمة الأخرى، لكن هذا النظام لم ينزع عن العبد حقوقه في الكسب والزواج، ويمكن أن ينال حريته بكدّ يمينه.

تقاليده: المجتمع القرطاجي أصيل ومنفتح، فقد بقي متمسّكاً بتقاليده الشرقية العريقة، ولكنه لم يرفض بعض تقاليد المجتمعات المتوسطية الغربية، وحافظ على لغته الفينيقية مع دخول بعض التغييرات عليها، هي في نظر علماء اللغة تحريف، ومع تمسُّكه بلغته الأمّ كان المجتمع القرطاجي يُحسن لغات عدة جعلته قادراً على التعامل بسهولة مع شعوب ضفّتَي البحر الأبيض المتوسط.

وهو محافظ على لباسه الشرقي، كالجبّة الطويلة الواسعة الأكمام والقلنسوة غطاء للرأس، لكنهم لم يرفضوا اللباس المغربي كالكدرون والبرنس.

وتمسّكت النساء بكثرة استعمال التطرية (Maquillage) وكثرة لباس الحلي إبرازاً لجمالهنَّ.

وكان الرجال والنساء يحملون خرصاناً في أنوفهم، ويبدو أنهم تخلَّوا عن عادة الختان الشرقية، وعن تعدُّد الزوجات، ولكنهم استمروا في السجود لعظمائهم والإحجام عن أكل لحم الخنزير.

ديانته: إنَّ تأثير الشرق في الديانة البونيَّة واضح جليٌّ، فقد أخذت قرطاج عن صور آلهتها، فهي إذن ديانة وثنية تقوم على عبادة آلهة عدة خوفاً منها لا حبّاً فيها، وعلى رأس هذه الآلهة الإله بعل حمون، رمز الحماية والرخاء، وزوجته تانيت، رمز الحنان والخصب، وأشمون، رمز الصحة والعافية، وعشتروت، رمز الحب والخصب وحماية الموتى، وكان لها معبد قرب مدينة الكاف الحالية، و«صدّا» ابن تانيت، إله الصيَّادين برّاً وبحراً.

لم تكن الديانة القرطاجيَّة متأثرة بديانة صور فقط، بل تأثرت كذلك بالديانة المصرية الفرعونية، فكان أهل قرطاج يعبدون الإله أوزيريس Osiris، وهو من آلهة مصر القديمة. وعثر في قبور قرطاج على تمائم مصرية الأصل. وكان لليونان تأثير في الحياة الدينية بقرطاج ابتداء من القرن ٤ ق.م، ولنا فيما كُتب على الأنصبة الفينيقية، وما بقي من آثار بونية في قرطاج والكاف بتونس وقسنطينة بالجزائر ووُليلي بالمغرب، ما يمثل خير مصدر للدِّيانة البونية، أما ما كتبه الإغريق والرُّومان حول هذه الدِّيانة فيجب اعتماده بكثير من الحذر والحيطة.

ويسمَّى المعبد في اللغة الفينيقية «قدسا» أو «مقدّسا» وهو على نوعين:

أ ـ معبد مشيَّد: كمعبد كركوان في الوطن القبلي بالبلاد التونسية، وهو يتكوَّن من مدخل له عمودان على جانبيه ويفضي إلى فناء تتوسطه غرفة ـ هي الحرم ـ وفيها صورة المعبود أو تمثاله، وأمامها مائدة هي المذبح تقدَّم عليها النذور والقرابين للإله. وقد توجد في المعبد غرفٌ أخرى لرجال الدين، وفيه كذلك بئر أو صهريج للتزوُّد بالماء. وفي معبد

كركوان معمل لصناعة الدُّمى، تعرض للبيع - بعد صنعها - للزائرين وتقدَّم هديَّة للإله.

ب- معبد غير مشيَّد: وهو عبارة عن فضاء مسيَّج، لا بناء فيه سوى المذبح. وقد يوجد هذا النوع من المعابد بمغاور في سفوح الجبال، كمغارة الإله تانيت. ومنها معبد «توفاة» بقرطاج دفنت فيه قوارير تحتوي على رماد رفات أطفال صغار ماتوا، أو قدِّموا قرابين للآلهة، وكان للأطفال الصغار طقوس جنائزية خاصة بهم في قرطاج.

وأبرزت حفريات حديثة معبدين:

الأول: بقرطاج، على شاطئ صلامبو الحالية، وعُثر فيه على كثير من الأنصاب وشتى القوارير المحتوية على عظام الأطفال المقدَّمين قرابين للآلهة.

الثاني: بسوسة، وهو معبد لئن صعب على الباحثين تصوُّر شكله، فإنه عُثر فيه - مثل معبد قرطاج - على أنصاب وأجاجين (جرار فخارية)، تحتوي على عظام بشرية محروقة.

ومن هذه المعابد المشيَّدة تشير المصادر إلى معبدين بقرطاج:

الأول: معبد أشمون، على ربوة بيرصة، وقد نوَّه المؤرِّخون والأدباء بعظمته المعماريَّة، وهو إله العافية، يحمي المدينة من الأخطار الظاهرة (العدو) والخفية (الأمراض)، وفي رحابه يجتمع بعول قرطاج وشيوخها، وخاصة زمن الحرب لضبط خطط الدفاع عن المدينة.

الثاني: معبد الإله أبولو، وكانت جدرانه مطلية بالذهب ما دفع بالجنود الرومان لاقتلاعه عند سقوط قرطاج وحرقها، وقد يكون هو نفسه الإله بعل القرطاجي.

وأهمُّ شعيرة دينية يقوم بها القرطاجيون هي تقديم القرابين، وتتمُّ حسب لائحة سمَّوها «تعريفة قرطاج»، ضبطت فيها المعالم الموظفة على كل نوع من أنواع القرابين. ومن هذه الشعائر الاحتفال بالبغاء المقدَّس، وهم يعتقدون أنه يضمن الخصب للعباد والحيوان والأرض.

وبالنسبة إلى القرابين البشرية المقدَّمة للآلهة يمكن للعائلة أن تقدِّم عجلاً أو جزءاً من عجل عوض طفلها، أما ما أورده المؤرِّخ بلوتارك من أنَّ أغنياء المجتمع القرطاجي كانوا يشترون أبناء الفقراء أو صغار الرقيق ويقدِّمونهم قرابين عوضاً عن أبنائهم، ففيه شبهة التنديد والتشويه بالعدوِّ يجب الحذر منها.

ولئن كانت الشعائر الدينية يقوم بها زوار المعبد بإشراف كهنة في لباس رسميٍّ مهيب ونظام محكم، فإن العلاقة بين المتعبِّد والكهنة يشرف عليها موظفون منتخَبون مدنيُّون لهم معرفة جيِّدة بقطاع الضرائب. أليس هذا ضرباً من فصل السياسة عن الدين قبل بعثة المسيح عليه السلام بقرون؟

الحياة بعد الموت: إن الاعتقاد السائد لديهم بالنسبة إلى الحياة الأخرى، وحسب غرفة جنائزيَّة عُثر عليها بمدينة كركوان ترجع إلى القرن ٤ ق.م، أنَّ الرُّوح عند الموت تنفصل عن الجسد وتتمثل في صورة ديك، يدخل هذا الطائر إلى الضريح لتتصل الروح ثانية بالجسد وليحاسَب المرء على أفعاله، ثم تخرج الروح من الضريح في صورتها الأولى، أي على شكل ديك، ولكن في هذه المرة من دون ذَيْل وعُرف، ما يدل على أنَّ الروح تطهَّرت من أدرانها، خاصة الغرور

والكبرياء، لتدخل مدينة الأموات وتخلَّد فيها بسكينة وسلام.

ومقابر البونيين قد توجد داخل سور المدينة، مثل قرطاج، أو خارج السور، مثل مدينة كركوان، وهي على أربعة أنواع: صروحية فوق الأرض، وأخرى جبابية، وثالثة مدرَّجة تحت الأرض، وهذه قبور الأغنياء وعليها زخارف تجمع بين الزينة والتعبير عن شواغل دينية من صميم معتقداتهم الروحية. أما النوع الرابع فهي قبور جماعية في شكل خنادق وهذه خاصة بالطبقة الفقيرة والأطفال.

ثقافته: إنّ أساس الثقافة هي اللغة، وقد انتشرت لغة الفينيقيين القادمين من الشرق في كامل البلاد التي استوطنوها بسواحل أفريقيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط، وبقيت اللغة اللوبية فقط في المناطق الريفية والقرى الداخلية. وتدلّ كثرة النقوش في ربوع المغرب العربي إلى حدود الصحراء على مدى انتشار تعليم اللغة القرطاجية في تلك الربوع، قراءة وكتابة، وخاصة في البلاد التونسية.

ويتمُّ التعليم في المجتمع البوني بمدارس نظامية وفي المعابد، ويقوم أساساً على المعرفة العلمية والتربية الأخلاقية والطقوس الدينية. ويمكن أن نأخذ تربية هنيبعل نموذجاً للتربية في قرطاج، فهي تربية تؤصِّل الإنسان في جذوره وتجعله محبّاً لوطنه، فقد كان هنيبعل قرطاجيّاً من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، وكان مع ذلك يجيد لغة الإغريق ومطَّلعاً على فلسفة أرسطو.

ومما يدلُّ على مدى ثقافة المجتمع البوني كثرة المكتبات بقرطاج. وكانت دار الكتب الرسمية تقع ـ ترجيحاً لا يقيناً ـ على ربوة بيرصة الحالية قرب معبد أشمون إله الطب، وعلى أنقاضه بُني معبد إله الطب الروماني أسقولبيوس، وكانت المعابد الدينية هي الأخرى تحتفظ بمكتبات في رحابها، كما كان للطبقة الغنية من الأرستقراطية القرطاجية مكتبات خاصة في قصورهم، ويؤمُّ هذه المكتبات رجال السياسة والدين والقانون، يقصدها العلماء والأدباء والمثقفون من أطباء ومؤرِّخين ومهندسين ومختصين في الزراعة والصناعة والمعمار والفنون الجميلة، وهي معارف كان لها انعكاس تطبيقي في الحياة اليومية للمجتمع البوني، وخاصة في المدن الكبرى كقرطاج وكركوان.

ولئن اتُّهم بعض المؤرخين الغربيين قديماً وحديثاً المجتمع البوني بنقائص، فلم يروا فيه إلا مجتمعاً يسعى إلى الكسب المادي، فإنَّ ما بقي لنا من أدبه قصة وأسطورة وإن كان قليلاً، ومن فنه تحفاً وحلياً وصوراً وتماثيل يدحض هذا الاتهام؛ إنَّ قصة الأخوين «فيلن» تعتبر نموذجاً أدبيّاً رائعاً لما فيها من خيال خصب وسرد ممتع ووصف دقيق، ومن تربية أخلاقية عالية تجعل من التضحية بالنفس في سبيل الوطن قيمة ثابتة عبر العصور.

ويضاف إلى هذه القصة أو الأسطورة أدب الرحلات عند القرطاجيين، فهو أدب المغامرة والخيال واكتشاف المجهول ووصف العجائب من بحور متلاطمة زرقاء كلون السماء، وصحار مترامية الأطراف برمالها الصفراء كلون التِّبر.

ولا شك أنَّ رسالة الفيلسوف القرطاجي عزربعل، المهاجر إلى أثينا، في رثاء قرطاج بعد أن أحرقها الرومان، نموذج ثالث من

الأدب البوني الرائع، ومع ذلك يجب الإقرار بأنَّ ما وصلنا من الأدب البوني قليل، لكن هذه القلَّة لا تؤدي إلى إنكار وجوده كما توهَّم بعض المؤرِّخين الغربيِّين.

وللمجتمع البوني فنٌّ أصيل تعدَّدت مظاهره في النحت والتجارة والصناعة والرسم، تجلَّت فيه منابعه الشرقية الساميَّة، وتفاعلت عناصره مع الثقافة الإغريقية والفرعونية من جهة، والمتوسطية الغربية من جهة أخرى، فلم يكن فنّاً منغلقاً ولكن انفتاحه لم يُفقده أصالته وتجذُّره في محيطه نباتاً وأشجاراً، آلاتٍ وأدواتٍ، حيواناً وعمارة.

٤ـ قوّة عسكرية ضاربة

لم تكن مهارة البونيين في التجارة بمانعة لهم من أن يكون لهم جيش نظامي على رأسه قادة محنَّكون، ومتكوِّن من جنود بواسل ومعتمد على مرتزقة شجعان. وأكيد أنَّ ما جنته قرطاج من أرباح من التجارة ساعدها على إنشاء أسطول عسكري من شأنه أن يحفظ مصالحها التجاريَّة في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي، كما ساعدها في ذلك ما ورثته عن الفينيقيين من مهارة في صنع سفن عسكرية تتميز بالسرعة وسعة الحمولة.

كان العنصر البشري الأساسي في هذا الجيش من المواطنين القرطاجيين. فالقادة منهم محنَّكون، والجذافون مهرة، والخيالة فرسان، لكن كلَّ هذا لم يمنع قرطاج من الاعتماد على فِرَق من المرتزقة لمعاضدة توسُّعها برّاً وبحراً، ولقمع فتنة داخلية قد تصبح أحياناً ثورات ضدها.

إنَّ العنصرين السابقين، الماديّ والبشري، في جيش قرطاج تدعَّما بعنصر حيواني تمثَّل في استعمالهم الفِيَلة في حروبهم، وهي فِيَلَة متوحِّشة تمَّ اصطيادها من جبال الأطلس ودرَّبها على الحرب مروِّضون هنود، وكان لها إصطبلات قريبة من أسوار المدينة، وكان هذا العنصر الحيواني مروِّعاً للعدوِّ الروماني وحاسماً في بعض المعارك الكبرى.

وبهذا الجيش خاضت قرطاج حروباً عدة مع اليونان والرومان.

١ ـ **الحرب القرطاجيَّة اليونانية:** أقام اليونانيون مستعمرات عدة في جنوب إيطاليا وفي جزيرة صقلية، وقد تطوَّرت هذه المستعمرات لتصبح مدناً مزدهرة، لكن سرعان ما دبَّ الخلاف بينها، وطمع بعضها في بعض بدافع حب السيطرة والتوسُّع، وكان لبعض هذه المدن علاقات تحالف مع قرطاج قوامها مصالح اقتصادية تجارية، فاندلعت الحروب القرطاجية اليونانية ومرَّت بمرحلتين:

المرحلة الأولى (٤٨٠ ـ ٤١٠ ق.م): دارت فيها رحى معركة كبيرة هي معركة هيميرة، وسببها المباشر هو قيام حاكم «أكراغاس» في جنوب صقلية بطرد حاكم مدينة هيميرة سنة ٤٨٣ ق.م، مستعيناً بحاكمَي «سرقسطة» و«جيلا»، وكانت هيميرة مدينة في شمال صقلية قرب مسِّينا.

لم يطل تردُّد قرطاج كثيراً عندما استنجد بها حاكم هيميرة، حفاظاً على مصالحها التجارية في شمال صقلية، فجهَّزت أسطولاً كبيراً وجيشاً ضخماً بالغ المؤرِّخون الغربيُّون في تعداد وحداته وأفراده، وانتهت المعركة بين الطرفين بهزيمة ساحقة لقرطاج إثر

كميـن نُصـب لجيشها فأحـرق الأسطول وقتل العديـد من الجنود ما أجبـر قرطاج على دفع غرامة مالية هامَّـة للمنتصرين من أجل عقد معاهدة سلم معهم.

وكان من نتيجة هذه المعركة تغيير قرطاج استراتيجيتها الحربيَّة، وذلك بتوجيه اهتمامها إلى المجال البرِّي من دون أن يكون ذلك على حساب نشاطها البحري.

المرحلة الثانية (٤١٠ ـ ٢٧٥ ق.م): لم تدم معاهدة السلـم بين القرطاجيين واليونانيين سـوى سبعين سنة، إذ قامـت مدينة سيلينونتا بجنـوب غرب صقليـة وحليفتهـا سرقوسة في شرقها بالهجوم على مدينة سيجاستا بغربها، فاستنجـدت هذه الأخيـرة بحليفتهـا قرطاج، فوجدت العاصمة البونية الفرصة سانحة للثأر مـن هزيمتهـا السابقـة، فقـام هنيبعـل قائد قواتها بتدميـر مدينة سيلينونتا وأعاد لقرطاج هيبتها المهدورة في معركة هيميرة، وأبعد إلى حيـن الخطـر اليوناني عـن المجـال الحيوي لقرطاج.

عاد الصراع بين القرطاجيين واليونانيين بعد اعتلاء ديونيسـوس العرش بسرقوسة سنة ٤٠٦ ق.م، ومـن دهائـه أنـه أسرع إلـى إبرام معاهـدة سلـم مـع قرطـاج، وذلـك ليستعـدَّ استعـداداً كامـلاً لحربها، وفعـلاً شنَّ الحرب عليها سنة ٣٩٨ ق.م، لكن لم تدُر بين الطرفين معركة حاسمـة، وكانت الحرب بينهما سجالاً، وبقيت قرطاج مسيطرة على الجهة الغربية من جزيرة صقلية.

ولما اعتلـى عـرش سرقوسـة أغاتوقلاس أخضـع كلَّ المـدن اليونانية بصقليـة لنفوذه، كما استولى على الجهة الغربية منها الخاضعة لقرطاج، فـكان ردُّ فعل هذه الأخيرة محاصرة سرقوسة سنة ٣١١ ق.م.

وأمعن حاكـم سرقوسة في تحدِّيه لقرطاج عندما قام بنقل عملياته العسكرية من صقلية إلـى أفريقيـا ونـزل فـي منتصـف شهـر آب ٣١٠ ق.م بالهواريـة علـى الساحـل الشمالـي للوطـن القبلـي. وهكذا وجدت قرطـاج نفسها فجـأة في حال دفاع، ومع ذلـك فشلت، بسبب عنصر المفاجأة، في التصدِّي للجيش الغازي الـذي واصل زحفـه إلى مدن بونيـة أخرى في وسط الساحـل البوني وشمالـه، لكنه اضطر، في نهاية المطاف، للرجوع إلى صقلية لتخفيف الحصـار عن سرقوسـة، وهو الحصـار الذي ضربتـه قرطـاج عليهـا، وكان النصـر حليف قرطاج على سرقوسة سنة ٣٠٦ ق.م، وتمَّ عقد معاهدة سلم بين الطرفين استرجعت بموجبها قرطـاج أملاكهـا ومناطق نفوذها فـي صقلية وتخلَّت عن حصار سرقوسة.

ودخل في هذا الصـراع، بصقلية وبجنوب إيطاليا ووسطها، طرف ثالـث هو برُّوس ملك الإيبيروس القادم مـن شبه الجزيرة الإيبيريَّة (إسبانيـا) وهو، لئـن انتصر فـي البداية في المناطـق الثـلاث، فقـد هزمتـه قرطـاج في عرض البحر وهزمته روما بأرض إيطاليا.

٢ ـ الصراع القرطاجي الرُّوماني: تأسست روما سنة ٧٥٣ ق.م، أي بعد نصف قرن تقريباً من تأسيس قرطـاج، وقام بها نظام ملكي إلى سنـة ٥٠٨ ق.م، ثم تحوَّل إلـى نظام جمهوري برئاسـة قنصليـن منتخبين لمـدة سنة، وفي هذا شبه كبير بنظام السبطين (أو الشفطين) بقرطاج.

اتجهت روما في بداية الأمـر إلى التوسُّع

في وسط إيطاليا وفي جنوبها، وكان اقتصادها يقوم على النشاط الزراعي، لكن بعد الاستيلاء على جنوب إيطاليا اتجهت إلى النشاط البحري، فبدأت مخاوف قرطاج من جارتها روما، وتوجَّست روما من جارتها قرطاج، فاتفق الطرفان ظاهريّاً على إبرام معاهدة سنة ٣٤٨ ق.م لضبط المجال البحري القرطاجي، ثمّ تحالفا ضدَّ برُّوس سنة ٢٧٩ ق.م، فلما هُزم هذا الأخير اتضح سوء نيَّة الطرفين من عقد هذا الحلف، وهكذا بدأ الصراع بينهما، واندلعت حروب عُرفت بالحروب البونية ومرَّت بالمراحل التالية:

١ ـ **الحرب البونيقية الأولى**، من ٢٦٤ ق.م إلى ٢٤١ ق.م، ودامت ٢٣ سنة: كانت المصالح التجارية السبب الرئيس لهذه الحرب، أما سببها المباشر فهو استنجاد مدينة مسِّينا اليونانية بقرطاج، فهبَّت لنجدتها سنة ٢٦٤ ق.م، وهكذا اندلعت الحرب البونية الأولى. دارت بين روما وقرطاج معركتان بحريَّتان كان الانتصار فيهما حليف روما، ودعَّمته بانتصار ثالث في معركة بحرية أخرى في جنوب صقلية، عندما اعترض الأسطول القرطاجي الأسطول الرُّوماني المتجه لغزو قرطاج في عقر دارها بأفريقيا.

تعزَّزت ثقة الرومان بأنفسهم بعد هذه الانتصارات البحرية الثلاثة، وكان ذلك باستعمال طرق جديدة في مهاجمة السفن القرطاجية. وهكذا تيقن الرومان أنَّ قرطاج لم تعد سيِّدة البحار بمفردها، فعمدوا إلى تحدِّيها ونقل المعركة إلى أراضيها، فاتجه الأسطول الروماني ونزل بالوطن القبلي وخرَّب مدينة كركوان البونية، وأسر العديد من السكان، لكن قرطاج استطاعت أن تسترجع هيبتها بتحقيق انتصار ساحق على الجيش الروماني في معركة فاصلة دارت رحاها في الفضاء الفاصل بين تونس وقرطاج سنة ٢٥٥ ق.م.

وتحوَّلت الحرب ثانية إلى صقلية، لكن كانت نهايتها انتصار روما سنة ٢٤١ ق.م، وأُجبرت قرطاج على إبرام معاهدة سلم لا تخلو من إذلال، فقد تخلَّت عن نفوذها بصقلية ودفعت غرامة مالية باهظة، كما أُجبرت على الخروج من سردانيا سنة ٢٣٨ ق.م، ومن كورسيكا سنة ٢٣٦ ق.م، وكان المرتزقة في جيشها، العائدون من هذه الجزر، السبب المباشر لاندلاع ثورة داخلية لتأخُّر رواتبهم بسبب فراغ الخزينة.

تمكن القائد القرطاجي عبد ملقرت من إخماد هذه الثورة سنة ٢٣٨ ق.م بعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر من اندلاعها، فحصل على ثقة الشعب بقرطاج الذي عيَّنه حاكماً للبلاد وقائداً للجيش. وسعى عبد ملقرت إلى إعادة النظام الديمقراطي بقرطاج، وبذلك نجح في إعادة الهيبة لقرطاج باستتباب الأمن الداخلي وبالتوسُّع في جنوب إسبانيا لاستغلال مناجم الفضة والذهب بتلك الربوع. واستمرَّ صهره عزربعل في هذا التوجُّه التوسُّعي بإسبانيا بعد وفاة عبد ملقرت سنة ٢٢٩ ق.م، وعزَّزه خلفه هنيبعل بعد وفاة عزربعل سنة ٢٢١ ق.م، واعتبرت روما أنَّ ما قام به هنيبعل من حصار صاغونتة الإسبانية هو خرق للمعاهدة المبرَمة بين الطرفين سنة ٢٢٦ ق.م فاندلعت الحروب البونيَّة الثانية.

٢ ـ الحرب البونيقية الثانية (من ٢١٨ ق.م إلى ٢٠١ ق.م): توجَّست روما خيفة من توسُّع قرطاج في الساحل الشرقي لشبه الجزيرة الإيبيرية، فنشبت الحرب بينهما، فاجتاز هنيبعل على رأس جيشه جبال البرتات الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، ثم جبال الألب الفاصلة بين جنوب فرنسا وشمال إيطاليا، وتمكن بعد مسيرة حوالي ١٥٠٠ كلم من تحقيق انتصارات على الجيش الروماني في عقر داره، وهي انتصارات أبهرت العسكريين قديماً وحديثاً، وأصبحت استراتيجية هنيبعل تدرَّس في أكاديميات حربية أوروبية إلى اليوم، وخاصة معركة كانة ومعركة بحيرة تراسمنوس، ورغم هذا الانتصار الباهر لم يهاجم هنيبعل روما، فهل كان ذلك هفوة منه أدَّت إلى إفراغ هذا الانتصار من كل أبعاده السياسية والعسكرية؟

كان هنيبعل قائداً عسكريّاً خطَّط للمعركة ولم يكن سياسيّاً ليخطط إلى ما بعد المعركة، إنه يعرف كيف ينتصر ولكنه لا يعرف كيف يستثمر انتصاراته. وهكذا سرعان ما استعادت روما شيئاً فشيئاً قوتها، وعلى العكس من ذلك بدأ الضعف يدبُّ في الجيش القرطاجي. وعادت المدن بصقلية وجنوب إيطاليا إلى مؤازرة روما ما شجَّعها على نقل المعركة من الأراضي الإيطالية إلى أفريقيا، فنزل الجيش الروماني القادم من غرب صقلية بقيادة سيبيون في أوتيكا المستعمرة الفينيقية الأولى في أفريقيا، ثم انتقل إلى المكان الذي توجد فيه مدينة قلعة الأندلس، ما بين تونس وبنزرت، وهزم فيه الجيش النوميدي بقيادة سيفكس حليف قرطاج، ثم اتجه إلى المكان الذي توجد به تونس حاليّاً، وكان النوميديون قد انتقلوا بعد هذه الهزيمة إلى صفوف الرومان بقيادة مسَّنيا حليف روما.

وأسرعت قرطاج، أمام هذا الخطر الداهم، إلى استدعاء هنيبعل من جنوب إيطاليا. والتقى الجيش القرطاجي بقيادة هنيبعل بالجيش الروماني بقيادة سبيون في معركة «جامة» زاما، الواقعة على بُعد ٨كلم من مدينة سليانة الحالية، وهُزم جيش قرطاج هزيمة ساحقة بسبب الدور الذي لعبه الجيش النوميدي الحليف لروما والمعادي لقرطاج. وتمَّ إثر هذه الهزيمة إبرام معاهدة بين الطرفين سنة ٢٠١ ق.م، ثبَّتت تفوُّق روما، وشلَّت القدرات العسكرية لقرطاج وخاصة البحرية منها، واقتصر نفوذها على المجال الترابي بعد أن استولى مسَّنيا قائد الجيش النوميدي على قسم كبير منها.

حاول هنيبعل، بعد هزيمة «جامة»، أن يُصلح ما فسد من النظام الإداري والسياسي بقرطاج وخاصة الشؤون المالية والقضائية، لكن الطبقة الأرستقراطية لم يرقها هذا الإصلاح لأنه مسَّ مصالحها، فتواطأت مع روما للتخلُّص منه سنة ١٩٥ ق.م، فاضطرَّ هنيبعل للجوء إلى أرخبيل قرقنة، ومن مرفأ تسرسينا خرج ليلاً متجهاً إلى صور. وبعد مناورات قام بها الرومان لإفساد سمعته لدى مَن حلَّ في بلاطاتهم من ملوك آسيا الصغرى قرر هنيبعل أن ينتحر حتى لا يقع في قبضة الرومان، وكان ذلك سنة ١٨٣ ق.م، وعمره ٦٣ سنة.

٣ ـ الحرب البونيقية الثالثة (من ١٥٠ ق.م إلى ١٤٦ ق.م): رغم ما تعرَّضت له قرطاج من هزائم عسكرية أضعفت الدولة البونية عسكريّاً

وسياسيّاً واقتصاديّاً، فقد استطاعت أن تعود إلى ازدهارها بدليل أنها عرضت على روما دفع الغرامة المالية المفروضة عليها بموجب معاهدة ٢٠١ ق.م جملة، بعد انتهاء الحرب بـ١٠ سنوات، ولئن رفضت روما هذا العرض فلأن هذا الازدهار الاقتصادي أثار عقدة الخوف من قرطاج في أعماقها، وأرادت أن تبقى قرطاج تشعر بالمذلَّة لمدة ٥٠ سنة وهي تدفع الغرامة أقساطاً.

لقد كانت روما منذ ١٥٣ ق.م تتحيَّن الفرصة للهجوم على قرطاج، لذا اتخذت من إعلان قرطاج الحرب على مسَّنيا، الذي أزعجها مرات متعددة بالاعتداء على ما تبقى من أملاكها في أفريقيا، ذريعة لشَن الحرب عليها بدعوى عدم احترام معاهدة سنة ٢٠١ ق.م، والتي تنصُّ على استشارة قرطاج روما قبل الدخول في أي حرب.

وكان لنداء كاتون الأكبر إثر عودته من قرطاج إلى روما، بوجوب تدمير العاصمة البونية، أثره في الطبقة الحاكمة بروما، فاتُّخذ قرار الحرب على قرطاج سرّاً سنة ١٥٣ ق.م ثمَّ نفَّذت روما هذا القرار سنة ١٥٠ ق.م، وكانت التينة التي جلبها كاتون الأكبر من قرطاج إلى روما، وبقيت سليمة لم تتعفن، رمزاً لقرب المسافة بين قرطاج وروما وبالتالي استمرار خطر العاصمة البونية عليها.

ومما شجَّع روما على الإسراع بالاستيلاء على قرطاج هو خوفها من أن يسبقها إليها حليفها مسَّنيا حاكم نوميديا القويّ. لقد أصبحت دولته تمتد من حدود المغرب الأقصى إلى شمال غرب ليبيا بالمفهوم الجيوسياسي الحالي.

ويمكنُ أن نضيف إلى كل ذلك عقلية حكام روما بعد أن أصبحت دولة الأثرياء وأقوى امبراطورية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وهي عقلية لا تقبل المنافسة خاصة إذا أصبح لهذا المنافس أيديولوجية على طرفَي نقيض من أيديولوجيتها، إذ كانت قرطاج تمثِّل في ذلك الوقت أيديولوجية ثورية بكلِّ أبعادها الشعبية.

استعدَّت قرطاج بكل شرائح المجتمع البوني للحرب بعد أن اتضحت نوايا روما العدوانية، وأصبحت عبارة «لا بدَّ من تدمير قرطاج Delenda est Carthaga» من المسلَّمات لدى حكامها.

لكنَّ هذا الاستعداد لم يُجدِ نفعاً، فقد كان ميزان القوى لصالح روما، فقد تمكَّن جيشها، بقيادة سيبيون الإيميلي، حفيد سيبيون الإفريقي بالتبنِّي، من اقتحام المدينة وحرقها، وبقيت المدينة تحترق لمدة عشرة أيام. ولهول المصيبة ألقت زوجة عزربعل ـ حاكم قرطاج ـ نفسها، وقد احتضنت ابنيها، في النار غضباً من استسلام زوجها للرُّومان. وهكذا بدأت قرطاج بانتحار أليسار عندما رفضت الزواج من برباص ملك السكان الأصليين للبلاد من المكسيِّين Maxitani، وانتهت بانتحار امرأة هي زوجة عزربعل، اعتزازاً بالوطن وحفظاً لكرامته.

لكن، لئن انتهت قرطاج دولة وجيشاً ونظاماً فقد بقيت حضارة أشعَّت على كامل تراب ما يُعرف اليوم بالمغرب العربي، وما بقي من آثارها، ديناً وعلماً وعمارة وفنّاً، دليل ساطع على تفوُّقها وازدهارها.

المصادر والمراجع

- جوليان، شارل أندري: **تاريخ أفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي وبشير بن سلامة، ط. تونس ١٩٦٩.
- الحبيب، محمد: **لبّ التاريخ**، ط١، تونس ١٣٤٥.
- فنطر، محمد حسين: **الحرف والصورة في عالم قرطاج**، تونس ١٩٩٠.
- مجموعة من الباحثين: **تونس عبر التاريخ، العصور القديمة**، ط. تونس ٢٠٠٥.
- Decret, François: **Carthage ou l'empire de la mer**, Paris 1977.
- Fantar, M.H.: **Carthage, les lettres et les arts**, Tunis 1992.
  Carthage, la cité Punique, Tunis 1995.
- Gsell, S.: **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord**, vol I-IV,1913-1920.
- Moscati, Sabatino: **L'Epopée des Phénicien**, Paris, 1965.
- Nénichou-Safar, Hélène: **Les tombes puniques de Carthage**, Paris, 1982.
- Picart (G.Ch) et Colette Picard: **Vie et mort de Carthage**, Paris 1970.
- Warmington, B.H.: **Histoire et civilisation de Carthage**, Paris 1961.



الحضارة الكريتية[1]

أ. د. محمد سهيل طقوش

---

(١) انظر أيضاً الحضارة الإيجية.



موقع كريت وجغرافيتها

قامت في كريت، إحدى أكبر جزر الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، الحضارة الكريتية، وتتميز هذه الجزيرة بوقوعها في منتصف الطريق بين فينيقيا وإيطاليا وبين مصر وبلاد اليونان ما أتاح لها الاتصال بالشرق والجنوب والشمال وتلاقت فيها التيارات الحضارية الآتية من هذه الجهات، وقد مكّنها ذلك من تأسيس امبراطورية لها في بحر إيجة، هذا بالإضافة إلى وجود بعض السهول في ربوعها ما نشّط الأعمال الزراعية، وعلى الرغم من جودة مناخها فإن الإنسان لم يظهر فيها إلا بعد ظهوره في مناطق الشرق الأدنى الأخرى بزمن طويل، لذلك لم تبرز الجزيرة إلا في النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد أي في عام (٢٥٠٠ ق.م).

الكريتيون عبر تاريخهم

شكّلت الحضارة الكريتية، المسماة بالحضارة المينوية نسبة إلى مينوس، وهو اسم أحد ملوك كريت القدماء أو لقب يحمله ملوك الجزيرة؛ حضارة مستقلة ذات طابع خاص على الرغم من التأثير الخارجي الواضح في ثناياها، ابتدعها سكان كريت الذين لا ينتمون إلى الأسرة الأوروبية ولا يمتّون بصلة إلى العناصر الكبرى المعروفة، ويبدو أنهم وفدوا إلى الجزيرة من جنوب غربي آسيا الصغرى في العصر النيوليثي الذي انتهى في الجزيرة عام (٢٥٠٠ ق.م)، واستقروا في جنوبها.

تتمتع جزيرة كريت بمركز وسطي ممتاز يُتيح لها الاتصال بالشرق والجنوب والشمال، لذلك تلاقت فيها التيارات الحضارية القادمة من هذه الجهات، كما ذكرنا، وبخاصة من الشرق الأدنى، وتتوزع حضارتها على ثلاثة عصور هي:

- العصر المينوي القديم، ويمثل عهد البرونز (٢٤٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق.م).
- العصر المينوي الوسيط (٢٠٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م).
- العصر المينوي الحديث (١٦٠٠ ـ ١٤٠٠ ق.م).

لم تكن كريت في العصر المينوي القديم قد اكتسبت بعد طابعاً حضارياً موحداً بفعل أنها تضم ثلاثة تجمعات متفرقة في الشرق والوسط والجنوب، لكن ثمة حقيقة مهمة عن هذا العصر وهي تقدُّم الحياة المدنية، فقد قامت بعض المدن في الداخل مثل: بلايكاسترو وموخلوس وأبسيْرا وجورنيا، وعمل السكان بالزراعة والرعي ومارسوا القنص والصيد، واشتهروا بالتجارة البحرية مع جزر السيكلايد وسواحل آسيا الصغرى وفينيقيا وبلاد اليونان، وربما مع مصر وبلاد الرافدين، بدليل أن الفن الكريتي تأثّر بالتيارات الوافدة من هذه المناطق، إلا أنه كان على أي حال فنّاً أصيلاً مستقلّاً.

وبنى الكريتيون المنازل من طبقة واحدة فسيحة ومرتفعة، مستطيلة الشكل، مسطحة الأسقف، وكان هيكل البناء من الخشب، ويُطلى المنزل بالجص، ولما كانت الحجرات تضاف أحياناً على غير نظام، فقد نشأت الحاجة إلى الأفنية ومنافذ للنور والهواء، وهي إحدى الخصائص الملفتة في قصور هذه المرحلة. وكانت جثث الموتى تُدفن في لحود مستديرة

مثل لحود سهل مسًّارا التي ظلت مستعملة أجيالاً عدة.

وتظهر أقدم القصور في الطور الأول من العصر المينوي الوسيط (٢٠٠٠ ـ ١٩٠٠ ق.م)، فأقام أمراء كنوسوس وفستوس وماليا لأنفسهم مساكن مترفة متعددة الحجرات، ومخازن واسعة، وحوانيت متخصصة، ومذابح وهياكل ومجاري، وصنعوا الفخار بألوان كثيرة برّاقة، وزيّنوا الجدران بمقرنصات جميلة، وطوَّروا الكتابة التصويرية إلى نوع من الكتابة الحرفية.

وحلَّت بالبلاد كارثة في نهاية الطور الثاني من العصر المينوي الوسيط هدَّمت قصر كنوسوس، ولعل ذلك حدث بسبب زلزال مُدمِّر أو غزو خارجي قامت به فستوس التي ظل قصرها سليماً، واستمر مدة إضافية من الزمن قبل أن يناله الخراب مع قصور أخرى.

وشكَّل الطور الثالث من العصر المينوي الوسيط مرحلة ركود نسبي، وقد يكون هو الطور الذي اضطربت فيه أوضاع البلاد الواقعة في جنوبي البحر الأبيض المتوسط على أثر غزو الهكسوس لمصر، ودام اضطرابها زمناً طويلاً.

وبلغت الحضارة الكريتية أوجها في كنوسوس أثناء الطورين المينويين الوسيط الأول والوسيط الثاني (١٩٠٠ ـ ١٧٥٠ ق.م)، وتُسمى مرحلة الازدهار الأولى، حيث تحوَّلت القرى إلى مدن، واكتسبت الحضارة طابعاً مدنيّاً، ونشأت مراكز عمرانية كثيرة في وسط الجزيرة، وتمتَّعت كريت بالأمن بعد أن قام ملوك كنوسوس بتطهير البحر من القراصنة، وسادها الرخاء، وارتقى الفن، وتُسمَّى هذه المرحلة أحياناً بعصر كماريس، نسبة إلى كهف كماريس الواقع في جنوبي أيدا، الذي عُثر فيه على أوانٍ فخارية مزينة بزخارف متعددة الألوان وبعض آثار شرقية، كالأختام الأسطوانية من بابل، وتحف فنية من مصر، ويدل ذلك على قيام علاقات بين كريت وهذه الأقطار.

وتبدأ الحياة من جديد في العصر المينوي الحديث بعد أن أفاقت كريت من الصدمة التي دمَّرت القصور والمراكز العمرانية، حيث بلغت حضارتها المينوية أوجها وبخاصة في كنوسوس التي أُعيد بناء قصرها الفسيح الفاخر، وتركَّزت الزعامة في يد ملكها مينوس على أمراء المدن الأخرى، كما بُنيت القصور في فستوس وتلنيسوس وغيرهما، وبلغ الفن المينوي ذروته، وهو فن يستمد عناصره الأساسية من الطبيعة الخلابة التي اشتهرت بها الجزيرة، وبخاصة فن الرسوم الجدرانية «الأفرسك» الزاهية الألوان. وكثرت المباني ذات الطبقات الخمس، وشاعت دور التمثيل في أفنية القصور وحلبات المصارعة، وتضاعفت حاجات السكان، ورقَّت أذواقهم، وازدهرت الآداب، ونشأت الصناعات الكثيرة، ونحت الفنّانون التماثيل، ورسموا الصور، واستمع كبار الموظفين إلى القضايا المستأنفة أحكامها إليهم، واجتمع الأمراء والأميرات حول المائدة الملكية متحلِّين بالجواهر، واحتلت المرأة مكانة مرموقة في المجتمع، وكان لها دور كبير في مجال الدين المرتبط بالطبيعة، ويوحي ذلك بأن أوضاع البلاد قد بلغت حدّاً من الثراء لم تعرفه من قبل. لقد كان القرنان السادس عشر والخامس عشر قبل الميلاد هما الطور الذي بلغت فيه الحضارة الكريتية ذروة مجدها، وعصرها الذهبي القديم.

وتوسَّعت في هذا الطور علاقات الجزيرة مع أقطار الشرق الأدنى، لكن علاقتها ببلاد اليونان تبقى ذات أهمية بالغة تاريخياً، وقد توثَّقت بعد ذلك حتى بلغت ذروتها في القرن السادس عشر قبل الميلاد.

والحقيقة أن بلاد اليونان وقعت تحت تأثير الحضارة المينوية ولا سيما في حقول الفن والدين والحِرَف الصناعية وطريقة الكتابة، لكن لا يعني ذلك بالضرورة أن كنوسوس قد احتلَّت بعض أجزاء من شبه الجزيرة اليونانية أو فرضت سيطرتها السياسية عليها، كما توحي بذلك أسطورة ثيسيوس والمينوطور، وهو مسخ مينوس الذي توجَّب على الأثينيين أن يُقدموا له كل سنة أُضحية بشرية، كما لا يعني أيضاً أن تأثير هذه العلاقة قد تجاوز الجوانب المادية.

لقد اقتبس الآخيون واليونانيون من جيرانهم المينويين أشياء كثيرة، من بينها وسائل الترف والرفاهية والتأنُّق، لكن الحضارة المينوية، على الرغم من وفرة كنوزها الثمينة، لم تقهر نفوس اليونانيين ولم تُغيِّر روح الحضارة الميسينية تغيُّراً يُذكر، ولم تلبث كريت أن وقعت في أيدي الآخيين في عام (١٤٠٠ ق.م)، فقد ظهرت في فخار كنوسوس في منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد خصائص فنية تدلُّ على أن بلاد اليونان قد بدأت تطبع حضارة كريت المادية بمؤثراتها الخاصة، بدليل أن الكتابة على الألواح الطينية التي تعود إلى زمن تدمير قصر كنوسوس، مكتوبة بصورة قديمة من اللغة اليونانية، ما يدعو إلى الاعتقاد أن حكام كنوسوس كانوا في ذلك الوقت من الآخيين، وأن كنوسوس قد وقعت تحت تأثير أو سيطرة يونانيي ميسيني. ويشير بناء حجرة العرش في قصر كنوسوس خلال هذه المدة إلى بداية قيام نظام حكم جديد في كريت، وهي ظاهرة لا نصادفها في قصور كريت الأخرى، وتتضمن الألواح الطينية قوائم رجال بعتادهم المكوَّن من عجلات عسكرية وخيول ودروع، وهذا دليل ينمُّ عن روح عسكرية جديدة على المجتمع المينوي، كما كُشف النقاب في كريت عن مقابر خاصة بالمحاربين، وهي من طراز الغرف المستديرة الميسينية الشائعة في بلاد اليونان. وتتضح مهنة الجندية، وهي مهنة غير مينوية، من السيوف والخناجر ورؤوس الحراب المدفونة مع الجثث. وتحتوي إحدى هذه المدافن على خوذ برونزية مطابقة في شكلها لخوذات ميسيني. هذا ولا نجد من خلال الأساطير سنداً للرأي القائل بقيام ميسيني بهجوم عسكري مباغت على كريت، لكن جرى تنافس تجاري شديد بينهما رافقه توتر سياسي.

ومهما يكن من أمر فقد انطفأ، منذ ذلك الوقت، بريق الحضارة المينوية، وورثت ميسيني مركز كريت في البحر الإيجي بل في عالم البحر الأبيض المتوسط.

الكريتيون عبر نظمهم

النظام السياسي: لا توجد بين أيدينا مستندات حول الملكية المينوية إلا النزر اليسير، فتعدُّد القصور في النصف الأول من الألف الثاني يدفعنا إلى الاعتقاد بتعدُّد الممالك، ومع ذلك لم تُسوَّر المدن، ولم تظهر القصور بمظهر الحصون إلا لمدة وجيزة، ما يدل على أن الجزيرة لم تكن ساحة صراع

سياسي بين أطماع متنافسة، لكن كنوسوس ضمنت لنفسها السيطرة على الجزيرة، كما يشهد بذلك الازدهار الذي انتهت إليه، ويدل الغنى المادي الذي اتصفت به الحضارة المينوية على هذه الملكية التي سعت إلى تحقيق نوع من المركزية، بدليل أن القصر يحتوي على المصانع والمخازن والعمال والخدم، غير أنه يتعذَّر علينا معرفة الأساليب الإدارية المتَّبعة.

ويستند سلطان الملك على القوة التي تصاحب الحكم الفردي، وعلى الدين والقانون، إذ للملك صفة دينية، فهو يتخذ الفأس ذات الحدَّين أو الرأسين وزهرة الزنبق رمزاً لسلطانه، ويشكل هذا الفأس عند بعض شعوب آسيا الغربية، شعاراً دينيّاً وخاصة من خاصيات بعض الآلهة مثل تيشوب الحوري وحدد السوري؛ ما يؤكد العلاقة بين هذه الملكية والديانة. وتبين الرسوم التي تُزيِّن قاعة العرش في كنوسوس، الملك وهو يقبض على صولجان، وتحيط به بعض الرموز، منها الفأس المزدوجة الرأس وزهرة الزنبق.

ويستغل الملك الآلهة ويستخدمها لمصلحته ليجبر الناس على طاعته، ويُلقِّن كهنته الناس أنه من نسل ڤلكانوس، وأنه تلقَّى من هذا الإله القوانين التي يصدرها، ويخلع هؤلاء الكهنة عليه السلطة الإلهية.

وينظر الملك في القضايا التي تُرفع إليه من واقع سلطته الملكية، فيقضي وهو جالس على عرشه في القصر، وقد بلغت شهرته في أحكامه حدّاً بحيث أصبح بعد وفاته قاضي الموتى، الذين لا بد أن يعرضوا قضاياهم عليه، لكن هل يجوز لنا، إذ جعل اليونان من مينوس قاضياً للموتى، أن نستنتج أن سلالته من بعده قد اشتهرت بتقشُّف خاص؟

ويستخدم الملك طائفة من الوزراء وموظفي الدواوين والكتبة، وهو يجبي الضرائب عيناً، ويختزن موارده من الحبوب والزيت والخمر في جرار ضخمة ويؤدي منها رواتب رجاله عيناً.

النظام الاجتماعي: توزع المجتمع الكريتي على أُسر صغيرة، فقد عُثر على بعض المنازل القديمة والوضيعة مقسَّمة إلى غرف متعددة حتى العشرين تقريباً، في حين أن المنازل العادية مخصصة لأسرة واحدة، ولكن الغموض لا يزال يكتنف حقيقة تعليل هذه المساكن الجماعية. وقد وُجدت في كنوسوس نقوش من العصر المينوي الوسيط تصوِّر بيوتاً من طابقين وحتى خمسة طوابق أحياناً، في أعلاها حجرة مفردة أو برج صغير يُصعَد إليها بدرج. وللطوابق العليا نوافذ ذات ألواح حمراء، ولحجرات الطوابق السفلية أبواب ذات مصراعين يدوران على قوائم لعلها من خشب السرو، وتوصل إلى فناء ظليل. وتُضاء المنازل في الليل بمصابيح زيتية مصنوعة من الصلصال أو حجر الصابون أو الجبس أو الرخام أو البرونز، وفقاً لثروة أصحابها.

ويقع على عاتق الطبقات الاجتماعية الدنيا القيام بالأعمال الزراعية والصناعية والنقل التجاري، ويدلُّ تراكم المنازل التي تتدرج المنحدرات على وجود الفقراء في كريت وكانوا في الغالب حفاة الأقدام، وينتعل أفراد الطبقات العليا أحذية بيضاء من الجلد، وهي عند النساء مزركشة في أطرافها ومزينة بسيور من الخرز.

وإذا تجاوزنا المساكن الصغيرة، فإن المساكن الكبيرة والقصور تزخر بحياة نابضة فخمة، وقد وفَّرت المعادن من الذهب والفضة والبرونز، وكذلك الحجارة النادرة؛ المادة الضرورية للحياة الناعمة والمترفة، مثل الحلي والخواتم والفصوص التي جمعت الذوق الناعم اللطيف وجودة الصنع.

تمتعت المرأة في المجتمع الكريتي بمركز متقدم وبحرية لم تعرفها بقية الشعوب القديمة آنذاك. وتكاد النساء أن يكنَّ صاحبات السلطان الأعلى في الحياة الكريتية، فمعظم الآلهة من الإناث، وللكاهنات دورٌ مهم في الاحتفالات، ولم ترضَ المرأة الكريتية بحياة العزلة التي كانت تسود الشرق الأدنى، ولم تكن تطيق الحجاب أو البقاء في المنزل، وكثيراً ما تظهر في الرسوم وهي خارج بيتها في الساحات العامة والمسرح وحلبة الملعب.

وتعمل المرأة الكريتية في البيت، فتقوم بأعمال المنزل اليومية، وتنسج الأقمشة، وتضفر السلال، وتطحن الحَب، وتخبز الخبز، ولكنها فوق ذلك تعمل مع الرجل في الحقل وتصنع معه الفخار، وتختلط بالرجال في الأسواق، وتجلس النساء في المقاعد الأمامية في دور التمثيل وفي حلبات الألعاب، وكان سلطانها عظيماً.

وشاع في المجتمع الكريتي زي نسائي شبيه بالتنانير الناقوسية ذات الإطار والصدر، والذي يكشف العنق والكتفين مع أكمام فضفاضة. ويرسل النساء والرجال شعورهم بعضه معقوص فوق رؤوسهم وأعناقهم، وبعضه في حلقات فوق جباههم، وبعضه الآخر في غدائر تقوم على أكتافهم أو صدورهم، وتضيف النساء إلى ذلك أشرطة في غدائرهن.

ويصطحب الرجال معهم في قبورهم طائفة من شفرات الحلاقة ليحتفظوا بوجوههم حليقة ونظيفة، ولا يضع الرجال شيئاً على رؤوسهم في الغالب وإذا فعلوا ذلك فإنهم يضعون عمائم أو قبعات عريضة، وتضع النساء قبعات فخمة. ويلبس الرجال تنانير قصيرة في أوساطهم أو مناطق تكون أحياناً منتفخة من الأمام تأدُّباً واحتشاماً، وقد تكون التنورة مفتوحة من الجانبين عند العمال، أما عند الطبقات العليا وفي الحفلات؛ فكانت تطول حتى تصل إلى الأرض عند الرجال والنساء على السواء، كما يلبس الرجال السراويل أحياناً، ويلبسون في فصل الشتاء رداءً خارجيّاً طويلاً يُتخذ من الصوف أو الجلد. وكانت الملابس تُربط بشكل محكم في وسط الجسم. وحرص الرجال والنساء على أن تكون أوساطهم نحيلة. وحاولت النساء في العهود المتأخرة أن تنافس الرجال في ضيق أوساطهن، فاستعملن المشدّات القوية التي تجمع تنوراتهن حول أعجازهن وترفع أثداءهن العارية إلى ضوء الشمس، والمعروف أن من عادات الكريتيات أن تبقى صدورهن عارية أو تكشفها قمصان شفّافة، ولا يتحرجن من ذلك. وتزدان التنورات بالثنايا والألوان الزاهية. وتتميز ملابس الكريتيات بشكل عام بتناسق الألوان وجمال الشكل ورقة في الذوق تنم عن حضارة غنية راقية ازدهرت فيها الفنون وارتقت أساليب الحياة. فقد كشفت الآثار في كريت عن حلي كثيرة مختلفة الأنواع من دبابيس للشعر ذهبية ونحاسية، ومشابك منقوشة بالذهب وعصائب من المعادن النفيسة، مربوطة بأقراط أو قلادات مدلاة من الآذان وخرز وعقود على

الصدر وأساور في الأذرع وخواتم في الأصابع من فضة وعقيق وجزع وذهب، ويتحلى الرجال ببعضها.

ويشغل الكريتي وقته داخل البيت بلعبة شبيهة بلعبة الشطرنج، ففي خرائب كنوسوس لوحة لعب فخمة ذات إطار من العاج وعليها مربعات من الذهب والفضة واثنتين وسبعين قطعة، ويمارس هواية الصيد وهو خارج المنزل. وصوَّر الكريتي على مزهرياته، في نقوش بارزة، أنواعاً مختلفة من الألعاب مثل الملاكمة.

وأكثر ما يثير حماس الكريتي الذهاب إلى المدرج في أيام الأعياد ليشاهد رجالاً ونساءً وهم يواجهون الموت أمام هجمات الثيران الهائجة، وكثيراً ما يُصوِّر هذا الصراع الوحشي الشديد، فقد عُثر في كبدوشيا على أسطوانة من الصلصال يعود تاريخها إلى عام (٢٤٠٠ ق.م) تمثل صراع ثور شديد الخطورة.

الحياة الاقتصادية: ازدهرت الزراعة في كريت بفضل ما يتخللها من سهول، واستفاد الكريتي من الموارد الطبيعية، وقد أثاره العمل الزراعي المنظَّم في الأودية النهرية في الشرق. ويبدو أن إنتاج الحبوب لم يكن يكفي لسَد حاجة السكان في الوقت الذي كان فيه إنتاج الأشجار المثمرة والزيتون والكرمة يفيض عن الحاجة، ويُصدَّر بعضه.

وقامت إلى جانب الزراعة، تربية المواشي، وعُرف الحمار منذ زمن بعيد، ثم ظهر الحصان قبل الألف الثاني، غير أن استخدامه اقتصر على الأغنياء. ونشط الصيد البحري واستهدف بالإضافة إلى سد حاجة من حاجات التغذية، الحصول على صدف الموركس الثمين الذي يُستخرج منه الأرجوان.

وازدهرت الصناعة في كريت بدليل ما اكتُشف من المعامل الملحقة بالقصور، ومدينة أصحاب الحِرَف، وكانت تقنيات الإنتاج على جانب كبير من الكمال. ويُستدل من دقة صنع الأواني الخزفية، أن الكريتيين استعملوا مخرطة سريعة الدوران، وبرعوا في حقل التعدين. ونافست الصياغة وصناعة الأسلحة البرونزية والمعادن الثمينة، الصناعات في مصر وبلاد ما بين النهرين، من حيث الجودة. وقد ساهمت الصناعة في رواج التجارة وبخاصة بعد توفر شبكة من الطرق المرصوفة بالألواح الحجرية والمعدَّة أساساً للحيوانات والعربات، واعتمدت التجارة البحرية على المراكب. ولا يمكن إدراك تطور هذه التجارة البحرية إلا من خلال جهاز قضائي يراعي الظروف الخاصة بها.

وتطلبت الصناعة استيراد الخامات غير المتوفرة في الجزيرة وتصريف إنتاجها في الخارج، وقد أمَّن النقل البحري هذه المهمة المزدوجة. وقد عُثر على بعض المصنوعات الكريتية في كل من مصر وقبرص وفينيقيا وشواطىء آسيا الصغرى واليونان وجزر السيكلايد حيث كانت جزيرة ميلوس فرعاً اقتصاديّاً تابعاً لكريت.

واستعمل الكريتيون الموازين والمكاييل، فكانت هناك سبائك نحاسية وأسطوانات معدنية تسهِّل المقايضات، وقد وُسمت أحياناً بعلامات خاصة للدلالة على قانونيتها.

وتبرز مع الحضارة الكريتية حياة اقتصادية قائمة على التجارة البحرية، وتضفي عليها

ميزة خاصة، وذلك بحكم الواقع في جزيرة فرضت الطبيعة فيها على الإنسان ظروفاً حياتية تختلف عن تلك التي فرضتها في وادي النيل والفرات، وقد أعدَّها موقعها للقيام بدور مُسهِّل للاتصالات والمقايضات المتنوعة من خلال استبدال الطرق بأخرى أقصر منها وأكثر قرباً من مواطن الحضارة الكبرى في الشرق الأدنى، تمر في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط وتلتقي عند قبرص، وتوازي الشواطئ الآسيوية المعروفة والمستخدمة منذ زمن بعيد، كما تشهد على ذلك علاقات مصر مع جبيل، والمعروف أن الاتصال التجاري بين أوروبا وآسيا كان يمر قبل ذلك عبر المضائق التي تهيمن عليها طروادة.

الدين: اتسم الكريتي بالتديُّن، لكن إسهامه في النظريات الدينية التي سادت الحضارات الشرقية المعاصرة له لم يكن شاملاً، لكن يمكننا أن نحاول انطلاقاً من هذا الإسهام تعليل وفرة الكائنات التي عبدها الكريتيون مثل: الجبال، المغاور، الأشجار، الأعمدة، المعز، الأفاعي، اليمام، والثيران، بالإضافة إلى الكائنات الوهمية الشيطانية، وما المينوطور في الأساطير اليونانية على الأرجح سوى أثر من آثار هذه الكائنات المسخية، هذا في الوقت الذي انتفت فيه عبادة الأجرام السماوية. وما يثير العجب أنه لا وجود لإله البحر عند الكريتيين بالمقارنة مع دور البحر في الحياة الكريتية.

ويبدو أن الكريتيين أخذوا بمبدأ التشبيه في عباداتهم، والغالب أن الأسلحة، مثل الترس والفأس المزدوجة الحدَّين، والطيور والحية والثور، لم تكن سوى خاصيات أو رموزاً، واللافت تمثيل الشجرة في الاحتفالات الدينية وعلى المذابح ما يحملنا على الاعتقاد بأنها كانت موضوع عبادة مباشرة، وهذا من رواسب الوثنية البدائية. والراجح أن الكريتيين اتجهوا إلى تمجيد خصب الأرض المغذية، فوفرة الرسوم النسائية والميل الملموس إلى تعرية الثديين بوضع اليدين متشابكتين عليهما وإشراك هذه الرسوم برسم الشجرة والحية، يدل على وجود عبادة ما يسمى بالأم الكبيرة وأعني بها آلهة الأرض والإخصاب، ويُرمَز إليها بالفأس المزدوجة المرتبطة أصلاً بذبح الأضاحي، وقد ساد الاعتقاد بأنها تبسط حمايتها على البيوت وغيرها من الأشياء. ويرى الكريتيون في هذه الإلهة الأم حقيقة أساسية من حقائق الطبيعة، وهي أن الموت عدو الإنسان ولا تغلبه إلا قدرة الأم على التناسل والتكاثر، وهم لذلك يؤلِّهون هذه القدرة المتمثلة بالأم والتي تمثل بدورها مصدر الحياة في الإنسان والنبات والحيوان، وصوَّروها أحياناً تضم بين ذراعيها طفلاً قدسيّاً هو ڤلكانوس ولدته في مغارة جبلية، ويُشعرنا ذلك بوحدة ثقافات الشرق القديم واتصال الآراء والرموز الدينية في عالم البحر الأبيض المتوسط بعضها ببعض، وذلك من خلال إيزيس وحورس وغيرها من القصص الدينية.

وڤلكانوس هو زيوس يتمثل فيه المطر والخصب والرطوبة التي هي أساس كل شيء ليكون رمزاً للنبات المجدد للحياة، وهو بوصفه إلهاً للخصب يُصوَّر أحياناً كأنه حلَّ في جسم الثور المقدس، وهو بهذه الصفة يضاجع باسفيا زوجة مينوس في الأساطير الكريتية فتلد له ثورمينوس الرهيب أو المينوطور.

ويمارس الكريتيون طقوساً لا حصر لها لإرضاء الآلهة مثل الصلوات والتضحيات والاحتفالات، يقيمها عادة كاهنات من النساء، وأحياناً موظفون من رجال الدولة، ويطردون الشياطين ويتقون أذاها بحرق البخور، ويستثيرون الإله الغافل بالنفخ في صدفة بحر مزدوجة، وبالقيثارة أو الناي، وينشدون الأناشيد الجماعية تعبُّداً وخشوعاً، ويصاحب إرواء الحقول والأشجار لإنمائها مراسم دينية.

لم يتعبَّد الكريتيون داخل معابد خاصة بسكن الإله، إذ لا وجود لمثل هذه المعابد في كريت، وعليه فإن العلاقة مع الشرق لم تُفضِ إلى اعتماد الأبنية المخصصة لسكن الإله، وكانوا يتعبدون غالباً في محاريب على قمم الجبال مثل المحراب فوق جبل يوكتاس حيث دُفن زيوس، وغار كارماريس فوق جبل إيدا حيث وُلد، وغار بسيخرو فوق جبل دكتي.

وزيَّن الكريتيون الأماكن المقدسة بأن وضعوا فيها مناضد تُصب عليها السوائل قرباناً للأرباب، وأصناماً مختلفة الأشكال، وقروناً مقدسة ترمز إلى الثور المقدس، ولوحظ أن المحاريب الصغيرة في المنازل، تتوسطها منضدة مستديرة مثلثة الأرجل توضع فوقها القرابين، كما كان يوجد في الخلف، بجوار الحائط، مقعد ربما لوضع الأصنام عليه، وفأس مزدوج الحدَّين بين قرنين مقدسين. وعُثر في قصر مينوس على محراب فيه صورة جميلة من القاشاني تمثل الربة الأفعى، وتظهر فيها الكاهنة وهي ممسكة بيديها بثعابين وحولها صور مختلفة من الملابس وأصداف ملونة وثلاثة حمامات وصليب رخامي وحوض للتطهير وتصاوير عنزة وبقرة وصغارهما، والمعروف أن الأفعى كانت في نظر الكريتيين بمثابة حارسة للبيت وجالبة للحظ السعيد.

ولا تتفق الآراء حول الموت في كريت إلا جزئيّاً، ولا تسمو عبادة الموتى إلى مصاف عبادة الآلهة. واعتاد الكريتيون أن يدفنوا موتاهم في توابيت من الصلصال أو في جرار ضخمة حتى لا يعودوا إلى الحياة الدنيا، ويعملون على أن يظلُّوا راضين وقانعين بمكانهم تحت الأرض، وذلك بأن يضعوا معهم أدواتهم المألوفة، أي كل ما قد يحتاجون إليه في المداومة على حياة لا يضع الموت حدّاً لها. وتُخصَّص للجثة التقديمات الغذائية وأدوات الزينة ودمى صغيرة من الصلصال في صورة نساء يقمن على خدمتها، وقد يعمدون إلى الخداع اقتصاداً فيستبدلون بالطعام الحقيقي حيوانات من الصلصال يضعونها إلى جانب الميت، ويضع الأغنياء مع موتاهم بعض الصحاف الثمينة أو الحلي الخاصة بصاحب الجثة، وأدوات الشطرنج مع اللاعب الماهر، ومجموعة من الآلات الموسيقية مع الموسيقي وقارباً مع مَن كان مولعاً بالصيد البحري. ويزور الكريتيون القبر في مواسم معينة ليقدِّموا للموتى قرباناً من الطعام يحفظ عليهم حياتهم.

وهكذا، فإن الحياة الثانية قد يرافقها شيء على الأقل مما يدنيها من العالم الإلهي، إذ إن ناووس الثالوث المقدس المغشَّى بالرسوم المصورة يرينا الميت منتصباً أمام قبره وهو ينظر إلى حاملي القربان وهم يتقدَّمون نحوه، ويرينا أيضاً عربة مربوطة بالأحصنة من جهة والعنقاوات من جهة أخرى، فهل تنقل هذه العربة الميت إلى العالم الإلهي؟

والأعياد في كريت أكثر تشابهاً بالعادات الشرقية، فهي تُظهر المراحل الكبرى للحياة الزراعية، ولا سيما الحصاد وجني الثمار، وتتخللها الرقصات المقدسة على أنغام الموسيقى وتكون سافرة أحياناً. ويتخلل الاحتفالات الدينية مشاهد الملاكمة والمصارعة وسباق الثيران بنوع خاص، وذلك لإبراز فقط مهارة اللاعبين وخفَّتهم من دون تعرُّضهم للموت، ولم تتردد بعض النساء في الاشتراك في هذه الألعاب.

الثقافة: اقتصر الكريتيون، منذ أقدم العصور، على الرموز التصويرية في لغتهم، واختصروها في حوالي عام (١٨٠٠ ق.م) إلى نحو تسعين علامة مقطعية، ثم استنبطوا، بعد حوالي مائتي عام من ذلك الوقت، نوعاً آخر من الكتابة تشبه علاماته الحروف الهجائية الفينيقية، وينطق الشاعر الكريتي بما توحي إليه شاعريته وينقش أشعاره على جدران حاجيا تريادا.

وكان الكريتيون على معرفة بشيء من علم الفلك لأنهم اشتهروا بأنهم ملاَّحون ماهرون، ويدين المصريون لهم ببعض الوصفات الطبية، وأخذ عنهم اليونان بعض الأعشاب العطرية والطبية، كالنعناع، وعقاراً آخر يشفي من البدانة من دون الاقتصاد في الطعام، ولا تزال آدابهم كتاباً مغلقاً.

وبنى الكريتيون حوالي عام (٢٠٠٠ ق.م) دوراً للتمثيل تتضمن عشرة صفوف من المقاعد الحجرية، تمتد حوالي ثمانين قدماً، وذلك بجوار حائط ترفرف عليه أعلام، كما أقاموا في كنوسوس ثمانية عشر صفّاً من المقاعد الحجرية أيضاً طولها ثلاثة وثلاثون قدماً، وتتسع لعدد من المشاهدين يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة شخص، ولا نعرف ما كان يجري في هذه الدور وماهية المنظر الذي يشاهدونه، لأن الكريتي الذي برع في تصوير حركات الفرد حين حدوثها وعلى طبيعتها، صوَّر النظارة وهم يشاهدون منظراً ما، والراجح أنه خليط من الموسيقى والرقص. وثمة تصاوير عدَّة تُمثل راقصين وراقصات يتماسكون بالأيدي على صوت القيثارة ذات السبعة أوتار. وتقاسيم شاعر من رجال الدين، وعلى بعض الحلي نقش يُمثل امرأة تنفخ في بوق مصنوع من صدفة ضخمة، ما يبعث النضارة والفرح والخفة والبهجة في النفس.

والواقع أن الفن مع التجارة البحرية هو النطاق الذي أثبتت فيه الحضارة الكريتية صفاتها المميزة وأحرزت أكمل نجاحاتها التي ليست بحاجة إلى توضيح بقراءة النصوص، لأن صفة الجمال فيها تسحر كل مَن يشاهدها، على الرغم من أن الفن الكريتي لم ينهض بأي شيء عظيم وتحاشى الموضوعات الكبيرة، ولكنه استعاض عن ذلك بشعور حادٍّ تجاه الحياة وملاحظة الواقع مع الاعتناء بالناحية التزيينية، وبذوق سليم مكتمل حيال الألوان والأشكال، وعليه فإن الفنان الكريتي «لم يرَ ما هو عظيم، بل رأى ما هو جميل».

وبرع الكريتي في صناعة الأواني الفخارية التي تأثرت بفن الأفرسك في زخرفة الجدران، وصنع من البرونز طاسات وأباريق وخناجر وسيوفاً مزدانة بصور النبات والحيوان ومرصَّعة بالذهب والفضة والعاج والحجارة النادرة، ولم يترك شكلاً من أشكال الفخار إلا صنعه، وكان يقنع في العصر المينوي الأول

بتشكيل هذه الآنية بيده، يطليها بطبقة زجاجية سمراء أو سوداء، ويترك النار تلونها بما تشاء من الظلال، ثم عرف في العهد المينوي الأوسط استخدام عجلة الفخراني ليبلغ بها الذروة في المهارة، وهو يطلي الأواني بطبقة زجاجية تماثل في تناسقها ورقتها طلاء الخزف، وينشر عليها الألوان المختلفة في غير نظام، وقد برهن عن المزيد من الجرأة في معالجة الألوان التي تجنَّب منها الباهت، ولجأ إلى الجارح من دون أن يعبأ بالألوان الثانوية التكميلية أو بالألوان الواقعية، وهو يُرقِّق الصلصال إلى حد الكمال في الآنية الجميلة الزاهية الألوان والرقيقة الجدران.

بلغت صناعة الفخار في كريت ذروة مجدها بين عامَي (٢١٠٠ ـ ١٩٥٠ ق.م) وكان الصانع يُوقِّع اسمه على الآنية المصنوعة، وطبَّق، في أواخر العصر المينوي المتأخر، أصول الفن إلى أقصى حد، على صناعة الفخار الرقيق، فصنع من عجينة الفخار ألواحاً ومزهريات زرقاء فيروزية، وآلهات متعددة الألوان، ونقوشاً لحيوانات بحرية تكاد تكون حقيقية، ويُحتمل أنه استوحى من العالم البحري الذي يعرفه تمام المعرفة، بفضل وجوده في جزيرة ضيقة، أكثر من نصف الحيوانات التي صوَّرها.

إن أرقَّ الأزهار أوراقاً وأجمل النباتات شكلاً نراهما في مزهرية الملاكمين ومزهرية الحصادين. يُصور الكريتي في الأولى القسوة بجميع أشكالها ومواقفها، ويضيف إليها صوراً من حياة مصارعي الثيران. ويتتبع في الثانية، بمنتهى الدقة، موكباً لعله موكب الفلاحين، غير أن تقاليد الفخار الكريتي ما لبثت أن تراجعت، وتخلى الصنّاع عن تحفُّظهم وذوقهم، وحلَّ الإهمال والتراخي محل الدقة والصقل، ما يدل على بداية النهاية.

ويُعدُّ فن النحت من الفنون الصغرى في كريت قلَّما يرقى إلى أكثر من صنع التماثيل الصغيرة التي صُنعت على غير مثال تحتذيه، منها: تمثال من العاج يُمثل لاعباً رياضيّاً في الوقت الذي يقفز فيه في الهواء، ورأس جميل ضاع جسمه، ولعل أجمل هذه التماثيل وأغربها إلهة الأفاعي، وهي تمثال من العاج نصفها أنثى ونصفها أفعى.

وأكثر ما يُلفت النظر في كريت زخرفة جدران القصور برسوم الأفرسك الزاهية الألوان والنابضة بالحركة الزاخرة بالخيال، وهي ضرب من الرسم بالفرشاة على الجدار قبل أن يجف الملاط ما يقتضي من الفنان أن ينجزه على وجه السرعة. واستطاع الفنانون بمهارتهم أن ينقلوا إلى القصور جمال الحقول بأزهارها ونباتاتها وحيواناتها البرية والبحرية ما يكشف عن ولع عجيب بالطبيعة.

وكثرت الطلبات على النقوش في العصر المينوي المتأخر من قِبَل الملوك والنبلاء والأثرياء، وشُغل الفنان الذي وصل إلى ذروة مجده بها، ما أثَّر سلباً على الكمال الذي توقف عن الارتقاء من واقع تكرار رسوم الأزهار وتصوير الرجال بصورة وهمية لا وجود لها في الحياة الواقعية، وقنع الفنان برسم الخطوط الخارجية.

ومن أجمل الأمثلة على رسوم الأفرسك، منظر قطف الزعفران من حوض مليء بالنبات، وصورة لطائر أزرق وسط الصخور والورود، وصورة نابضة بالحياة تمثل قطة تزحف لتصيد ديكاً بريّاً غافلاً، وغيرها.

وتتضافر جهود الكريتيين على بناء القصور بما تحويه من حجرات ملكية ومكاتب إدارية وملاهٍ وحلبات ألعاب لتكون محور الحياة الكريتية، ولعل أبرز تغيير تميز به مطلع العصر المينوي الوسيط هو وحدة حضارته المتمثلة بذلك التشابه بين طراز المعمار والأنماط الزخرفية وطرق دفن الموتى في جرار ضخمة. ويُمثل قصر مينوس في كنوسوس أرقى درجة بلغتها الحضارة المينوية، وهو بناء ضخم يشغل مساحة تزيد على خمسة أفدنة ونصف، مُشيَّد على منحدر إحدى التلال، ويشتمل في بعض أنحائه على طوابق عدة وقد خلا من الوسائل الدفاعية باستثناء برج وحصن جانبي في شماله ما يحمل على الاعتقاد بأن ملوك كنوسوس لم يكن يساورهم الخوف من ثورات داخلية أو غزوات خارجية.

وللقصر مدخلان أحدهما صغير في شماله والآخر مُدرَّج، وله سقيفة مزخرفة بقرنين مقوسين في جنوبه، ويحوي خانات وفندقاً مجهزاً بحمام بسيط مزخرف برسوم جدرانية زاهية تمثل طيوراً كالهدهد وحيوانات كالجمل.

والملاحظ أن البنائين كانت تنقصهم مواد البناء، فالمعادن قليلة في كريت، ومن أجل ذلك، استعملوا حجر الجير والجبس في البناء، واستخدموا الخشب في إنشاء السقوف المقامة على الأعمدة، والملفت أن هذه الأعمدة دقيقة في الأسفل ثم تتدرَّج بالسماكة في أعاليها لتحمل السقف على تيجان ملساء مستديرة. ويقص البنّاؤون الكتل الحجرية قطعاً محددة وبدقة يستطيعون أن يضعوها في أماكنها من غير ملاط.

ووضع البناؤون في داخل هذا القصر مقعداً حجرياً مستنداً إلى جدار جميل النقش وهو منحوت نحتاً بسيطاً، وسمَّوه عرش مينوس. وجهَّزوا البناء بنظام لصرف مائه وفضلاته في نظام راقٍ نسبيّاً، حيث تُنقل الفضلات في أنابيب من الصلصال المحروق مزوَّد بشرك لحجز الرواسب.

وزيَّن الفنانون حجرات القصر بوسائل التزيين، فجمَّلوا بعض الحجرات بالمزهريات والتماثيل الصغيرة، وبعضها الآخر بالصور الملونة أو النقوش البارزة وبعضها بالقوارير الحجرية أو الآنية الضخمة، وبعضها بتحف من العاج أو الخزف أو البرونز. ونقشوا على الجدران صوراً مختلفة، منها: صورة تمثل صراعاً بين رجل وثور تجلَّت فيه دقائق الصراع بوضوح، وصورة سيدات في ثياب زرقاء في إحدى حُجَر الاستقبال، وصور حقول من اللازورد والنيلوفر وغصون الزيتون، وسيدات في دار التمثيل، ودلافين تسبح من غير حركة، وصورة الساقي المنتصب القامة يحمل دهاناً في وعاء أزرق، وقد تدلَّى شعره في غديرة سميكة على كتفيه، وزُيِّن ثوبه ببعض الأزهار الجميلة، وفي محراب القصر صورة جميلة من القاشاني تمثل الربَّة الأفعى وتظهر فيها الكاهنة وهي ممسكة في يديها بثعابين وحولها صور ملابس مختلفة وأصداف ملونة وثلاثة حمامات ونجمة رخامية وحوض للتطهير، ولوحات أخرى من القاشاني عليها تصاوير عنزة وبقرة وصغارهما.

التأثيرات المتبادلة بين الحضارة الكريتية والحضارات المجاورة

يبدو التشابه الحضاري واضحاً في ثنايا الحضارة الكريتية والحضارات المجاورة

لجزيرة كريت في عصر البرونز. فالكريتيون يبدون شديدي الصلة بالشعوب التي تسكن آسيا الصغرى بدليل:

- الاستخدام المشترك لألواح الصلصال للكتابة.
- وحدة الموازين المتمثلة بالشاقل.
- وحدة العبادة المتمثلة في زيوس ذي الفأس المزدوجة، بالإضافة إلى الأعمدة والثور واليمامة.
- الشبه الكبير بين الإلهة سيبيل في فريجيا والإلهة الأم في كريت.

وللكريتيين صلة مع مصر من واقع:

- تشابه الثقافتين في أول عهديهما، وقد دفع ذلك العلماء إلى الظن بأن موجة من الهجرة حدثت من مصر إلى كريت أيام الاضطراب الذي حدث في عهد الملك مينا.
- إن الآنية الحجرية التي كُشفت في الجزيرة، وكذلك الأسلحة الباقية من الطور القديم للعصر المينوي، تشبه إلى حد كبير ما وُجد في مقابر الأسرة المصرية الأولى.
- ظهور الفأس المزدوجة في مصر على شكل تميمة.
- تشابه شكل الموازين في البلدين.
- تشابه الأساليب المستخدمة في النقش على الحجارة الكريمة وفي فن الخزف والتصوير.

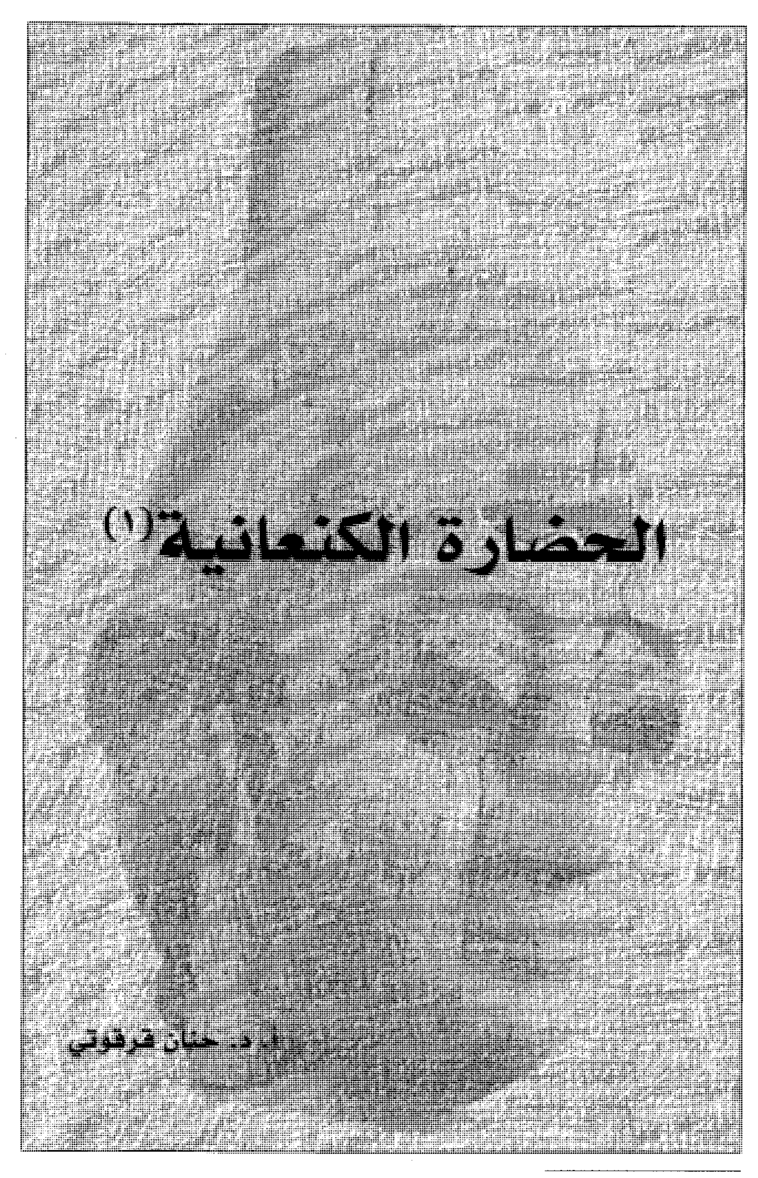
ومع ذلك، لا يمكننا أن نتجاوز فردية الأجزاء في تلك الحضارات. فالصفة الكريتية واضحة في مفارقها ومميزة في دقائق الفن والرشاقة المركزة.

وبناءً عليه، يمكن وصف الحضارة الكريتية بأنها آسيوية في نشأتها، مصرية في كثير من فنونها، غير أنها تبقىً فذَّة في جوهرها، وربما كانت تنتمي إلى خليط معقَّد من الحضارات، شأن جميع البلدان الواقعة في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.

وكما تأثَّرت هذه الحضارة الكريتية بالخارج، فقد أثَّرت بدورها في بعض الحضارات القديمة. فقد استقرت مصنوعاتها وفنونها في جزائر السيكلايد، وعمَّت قبرص، ووصلت إلى كاريا في آسيا الصغرى، وفلسطين، وبلغت طروادة، واجتازت إلى إيطاليا وصقلية ووصلت إلى إسبانيا وعمَّت بشكل خاص بلاد اليونان.

المصادر والمراجع

- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة**، المجلد الثاني، الجزء الأول، ترجمة محمد بدران، القاهرة.
- علي، عبداللطيف أحمد: **التاريخ اليوناني**، الجزء الثاني، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م.
- Evans, Sir Arther: **Palas of Minos**. London 1921.
- Glotz, G: **Ancient Greece**. N.Y 1926.
- Nilson, M: **History of Greek Religion**. Oxford 1926.
- Ridgway, Sir W.M. : **Early Age of Greece**. Cambridge 1901.
- Saymour, T.D.: **life in the Hameric Age**. N.Y. 1907.



(١) انظر أيضاً الحضارة الفينيقية.



الموقع

الكنعانيون من الشعوب السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية إثر الجفاف الذي حلَّ بها، وذلك في حوالي (٢٥٠٠ ق.م) وهم فرع من العموريين (الأموريين)، وحلّوا في بلاد الشام (سورية ـ لبنان ـ فلسطين ـ الأردن) والفرات الأوسط في حدود أواخر الألف الرابع ق.م، واتخذوا مدينة «شكيم» (مدينة كنعانية قديمة تقع شرق نابلس) من أرض فلسطين عاصمة لهم.

التسمية

إن اسم بلاد «كنعان» يعني «الأرض المنخفضة» لاختلافها عن مرتفعات لبنان. وقد أُطلق اسم «كنعان» في أول الأمر على الساحل السوري وغربي فلسطين، ثم أصبح الاسم الجغرافي المتعارف عليه لفلسطين وقسم كبير من سورية، ومنهم أخذت «فلسطين» اسمها فصارت تُعرف باسم «أرض كنعان». وسكن الكنعانيون فلسطين نحو عام (٢٥٠٠ ق.م)، قبل دخول العبرانيين إليها حوالي عام (١١٨٩ ق.م)، وفي التوراة نصوص تدلُّ على أن فلسطين كانت آهلة بالكنعانيين عندما دخلها اليهود. وقد بنى اليبوسيون، وهم بطن من الكنعانيين أسلاف العرب الساميين، مدينة القدس وسموها أور ـ سالم، أي مدينة السلام.

وبقيت سيادة الكنعانيين في فلسطين بين حوالي (٢٥٠٠ ـ ١٠٠٠ ق.م)، وفي أثناء هذه السيادة، هاجر إبراهيم الخليل عليه السلام من العراق إلى الشام واستقر في «شكيم»، ثم انتقل إلى «بئر السبع» في أقصى جنوب فلسطين حيث وُلد له «إسماعيل» عليه السلام، ثم نزح إلى مكة وعاد منها إلى فلسطين حيث رُزق بولده الثاني «إسحاق».

وقد عرف اليونانيون هؤلاء الكنعانيين في وقت لاحق باسم «الفينيقيين»، لاشتهارهم بصناعة الصباغ الأرجواني في القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد. وكلمة «فينيقية» مشتقة من اللغة اليونانية وتعني الصباغ الأحمر الأرجواني، وبعد أن أطلق اليونانيون هذا الاسم على الكنعانيين الذين تاجروا معهم، فإن كلمة «فينيقي» أصبحت بعد حوالي (١٢٠٠ ق.م) مرادفة لكلمة «كنعاني».

وأسَّس الفينيقيون العديد من المدن، بما فيها جزيرتان، هما: صور (أي صور البحرية)، وأرواد، وفيهما معابد تشبه المعابد الفينيقية في لبنان.

اختلاف حول تسمية الكنعانيين بالساميين من جهة اليهود

أوجد كَتَبَةُ التوراة اختلافاً حول أصل الكنعانيين لوجود حروب دائمة بين اليهود والكنعانيين، ويقول بروكلمان في ذلك: «إن العبرانيين (اليهود) كانوا قد تعمَّدوا إقصاء الكنعانيين من جدول أبناء سام بسبب العداء الذي كان بينهم وبين الكنعانيين، والذي يتمثل في قصص الحروب التي نشبت بين الطرفين ودُوِّنت أخبارها في أسفار التوراة، فحملهم عداؤهم وحقدهم عليهم على التنصُّل منهم، وعلى التبرؤ من إلحاق نسبهم بشجرة أنساب سام بن نوح».

وجاء في سفر التكوين في العهد القديم ما يلي: «وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرَّى داخل خبائه.

فأبصر حام، أبو كنعان، عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء. فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان. عبد العبيد يكون لإخوته. وقال: مبارك الرَّب إله سام. وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام. وليكن كنعان عبداً لهم».

واعتبرت التوراة أن الكنعانيين من الأقوام الهندو-أوروبية، ويبدو أن التقليد التوراتي كان يحاول بخس الدور الذي لعبه الكنعانيون الساميون في تقدم الحضارة الإنسانية. حيث جاء في التوراة عن نسل كنعان بقبائلهم وأراضيهم وأممهم ما يلي: «وكنعان ولد صيدون بِكْرَه وحِثّا. واليبوسي والأموري والجرجاشي. والحوّي والعَرْقي والسيني والأروادي والصّمَاري والحماتي. وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني. وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيءُ جَرار إلى غزة وحينما تجيءُ نحو سدوم وعمورة وأدْمةَ وصبوييم إلى لاشع. هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم وأممهم».

هذا، وقد سار الباحثون على التقليد التوراتي ونسجوا على منواله، ولم يبحثوا في الحضارة الكنعانية إلا بصورة عرضية، في حين أن الكنعانيين كان لهم أكبر دور في تطور الثقافة العالمية، فهم مخترعو الحروف الأبجدية قبل حوالي أربعة آلاف سنة.

والذي يُثبت أن الكنعانيين هم من سكان الجزيرة العربية هو أن أنثروبولوجية الساميين، التي تبينت من خلال دراسة وتحليل التصاوير التي تركها الساميون، ومن فحص جماجمهم ومقايسة ذلك بالأحياء منهم، وبالرغم من وجود اختلافات بسيطة، أنثروبولوجية أو فنية أو لغوية، فإن مواصفاتهم تنطبق على الأكّاديين والبابليين والأشوريين والأراميين والكنعانيين والعرب الذين لهم، بصورة عامة، رؤوس طويلة وأوجه رفيعة وبروز في مؤخرة الرأس فوق الرقبة، ولهم أنوف قليلة الانحناء ولهم أجسام رشيقة، وأنهم يتكلمون لهجات سامية.

بلاد كنعان

شملت بلاد «كنعان» منطقة في آسيا الغربية يحدُّها البحر الأبيض المتوسط غرباً ونهر الأردن شرقاً، وتمتد من «ترسوس» و«أدنة» شمالاً حتى «غزة» جنوباً، وكانت هذه المنطقة تضم فينيقيا وفلسطين.

وذُكِرَ الكنعانيون في النصوص المكتشفة في «إيبلا»، والتي تُعرف حالياً بـ«تل مريدخ» في سورية، ويعود تاريخ النصوص المكتشفة فيها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.

وأسَّس الكنعانيون عدداً من المدن دلَّت أسماؤها الكنعانية عليها، ومن هذه المدن: «تعنك» (منطقة كنعانية في الجليل بالقرب من «مجدو» كشفت فيها التنقيبات عن آثار تَرقى إلى الألف الثاني ق.م، وهي عبارة عن ألواح مسمارية وأشياء تتعلق بشعائر العبادة وتماثيل وأدوات فخّارية) و«مجدو» (حصن يقع على بُعد ٣٣ كلم جنوبي حيفاء واسمه الحالي «تل المتسلم». وكان هذا الحصن يُشرف على الطريق المؤدية من مصر إلى سورية، وتعرَّض لعدة هجمات في التاريخ) و«بيت شأن»

(مدينة كنعانية تقع غربي نهر الأردن، واسمها الحالي «تل الحصن» بالقرب من بيسان، واسمها القديم «أفراتة») و«جازر» (مدينة كنعانية قديمة، واسمها الحالي «تل الجزر»، تقع في شمالي غرب «القدس الشريف»، وعلى بُعد قرابة ٣٠كلم منها) و«أريحا»، وكلها تعود إلى ما قبل عام (٣٠٠٠ ق.م). وتعرضت هذه المدن لهجمات كثيرة من شعوب مختلفة بما فيها الإسرائيليون، وظلت هذه المدن تقاوم الاحتلال الإسرائيلي مدة طويلة، ومن الجدير بالذكر أن مدينة «القدس الشريف» (أورشليم) لم تؤخذ إلا نحو عام (١٠٠٠ ق.م) أيام الملك داود عليه السلام.

وهناك مدن كنعانية أخرى تعود في تاريخها حسب الكتابات الأثرية إلى النصف الأول للألف الثاني قبل الميلاد، مثل: «عكا» و«صور» و«صيدا» و«جُبلة» و«أركة» و«سيميرا» و«بيت حورون».

وكانت بلاد «كنعان» تتألف من دويلات في شكل مدن صغيرة محصَّنة لصد هجوم القبائل الغازية، وكانت هذه المدن في نزاع مستمر فيما بينها. وتمكنت «مصر» من بسط نفوذها على دويلات «كنعان» في حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد وعقدت معها اتفاقيات.

وكان الموقع الاستراتيجي لبلاد «كنعان»، بين مراكز الدول الكبرى التي قامت في وادي النيل ووادي الدجلة وآسية الصغرى، يجعلها في مطمع البلاد المجاورة، ولم يستطع الكنعانيون إزاء ذلك أن ينجحوا في تأسيس دولة قوية موحَّدة، وبدلاً من ذلك «كانوا ينتظمون في جماعات صغيرة على رأس كل منها ملك وصل إلى الحكم غالباً بعد أن كان ينتسب إلى طبقة الأشراف الملاّكين. وكانت كل جماعة تتجمع حول مدينة محصَّنة بأسوار ذات شرفات وأبراج للدفاع، ويمكن لسكان الريف المجاورين أن يلتجئوا إليها في وقت الخطر، وأن يقصدوها في وقت السلم، فتكون لهم سوقاً ومركزاً اجتماعيّاً.

ومثل هذه المدن كانت تشكل مكان الدفاع الرئيسي ضد غزوات الجيران الأقوياء أو غارات البدو الرُّحَّل. غير أن انقسام البلاد إلى ممالك مدن صغرى، في حالة حرب بعضها مع بعض في كثير من الأحيان، وينقصها الاستقرار الداخلي بسبب نزاع النبلاء الطامعين بالسيادة المحلية، هذه العوامل جعلت البلاد كلها تحت رحمة الدول المجاورة الميّالة إلى الاعتداء».

وقد برهن «الكنعانيون» خلال تاريخهم الطويل أنهم كانوا يحبون السلم ولا يميلون إلى الأعمال الحربية، وكانوا يوجهون اهتمامهم إلى نواحي التجارة والصناعة والديانة وليس إلى الحرب. وكانت مدنهم عادة تحني رأسها أمام حوادث الفتح الموجهة من «مصر» و«بابل» وبلاد «الحثيين» و«فارس» و«مقدونيا»، وكانوا يدفعون الجزية ليضمنوا عدم التدخل في شؤونهم، ويأملون أن يكافأوا ولو جزئيّاً بتوسيع أسواقهم في البلاد الداخلية.

الدفاعات العسكرية

رغم أن الكنعانيين كانوا يميلون إلى السلم وليس إلى الأعمال الحربية، إلا أنهم استطاعوا أن يُعِدُّوا دفاعات تحميهم من هجمات المغيرين، ومن ذلك أنهم بنوا أسواراً ضخمة

حول مدنهم شأن المدن الأخرى في العصور الماضية، كسور مدينة «جازر» الضخم الذي كشفت عنه الحفريات الحديثة، وقد بلغ سمكه ستة عشر قدماً، وكذلك سور مدينة «أريحا» الذي بلغ ارتفاعه واحداً وعشرين قدماً.

وكانت بعض المدن، مثل «أرواد» وصيدا» و«صور»، تتمتع بخط دفاع مزدوج، وكان مواطنوها يحتلون موقعين: أحدهما في البر والآخر في جزر صغيرة مجاورة يلجأون إليها كلما استدعت الدفاعات الحربية ذلك. فالأرواديون مثلاً كانوا يتجمعون في جزيرتهم الصخرية، وقد ظهرت براعتهم في ضمان التزود بالمياه داخل الجزيرة، فكانوا يخزنون مياه المطر الآتية من سطوح المنازل في صهاريج وتضاف إليها مياه ينبوع تحت البحر يحصلون عليها بوضع قمع ضخم مقلوب على الينبوع بحيث يتصل القمع بأنبوب جلدي، وربما كان هذا أقدم ما سجله التاريخ من وجود نبع مياه عذبة تحت البحر.

وعرف الكنعانيون المركبات الحربية في دفاعاتهم بعد أن «أُدخل الحصان في أيام الهكسوس تقريباً حوالي (١٧٥٠ ق.م)، وأما سائر أسلحة الهجوم فكانت تضم القوس والسهام برأس برونزي أو صواني، وخنجراً قصيراً وسكيناً معقوفاً، وقد وجدت آثار من جميع هذه الأسلحة، ونبُّوتاً (عصا غليظة طويلة) ثقيلاً من الخشب القاسي».

اللغة الكنعانية

تعتبر اللغة الكنعانية إحدى لغات المجموعة السامية الغربية، وموطنها بلاد الشام. وكان تعبير «لغة كنعان» يطلق بصورة عامة على «لغة فلسطين». وبدأت اللغة الكنعانية بالظهور حوالي مطلع الألف الثاني ق.م، وكانت تضم «الأوغاريتية» و«الفينيقية» و«العبرية» و«المؤابية».

وبالرغم من انتشار «اللغة الكنعانية» إلا أن ما يُعرف عنها قليل، ويعود إلى عدد من أسماء الأعلام التي تعود إلى زمن حمورابي وإلى رسائل تل العمارنة في مصر. وبالرغم من أنهم هم الذين أوجدوا الأبجدية فإن النصوص الكنعانية قليلة، نظراً إلى كتابتها على أوراق البردي الشديدة العطب في مناخ بلاد «كنعان» الرطب. أما النصوص التي كُتبت على ألواح من الفخار في «أوغاريت» فقد حُفظت، وفيها معلومات مهمة عن آداب بلاد «كنعان» والديانة فيها، وتعود إلى القرنين الرابع عشر، والثالث عشر قبل الميلاد.

كما عثرت الحفريات الأثرية في موقع «إيبلا» على آلاف الألواح المحتوية على كتابات بالحرف المسماري والقلم السومري، وكُتبت هذه الألواح بلغة سامية غربية قريبة من الكنعانية أُطلق عليها اسم «الإبلية»، وربما تكون هذه اللغة مشتقة من اللغة الكنعانية، وتحتوي الألواح على نصوص اقتصادية، وإدارية، ودبلوماسية، وأدبية.

الأبجدية

كان الفينيقيون الكنعانيون هم أول مَن وضع الحروف الهجائية في التاريخ، وهم الذين أعطوا هذه الحروف قِيَماً عددية حسب نظام عُشري مجزّأ وغير مكتمل.

ويعود هذا الاختراع إلى حوالي نهاية القرن السابع عشر قبل الميلاد حينما قرَّر



رأس من العاج عُثر عليه في أوغاريت
يرجع إلى القرن الرابع عشر ق.م

أحد الأسرى الكنعانيين، وكان يعمل في منجم في سيناء، أن يتجاهل الرموز الهيروغليفية المصرية لعدم تمكنه من إتقان ما فيها من تعقيد، وأن يستعمل العلامات الساكنة، بعد أن أعطاها أسماء سامية، واستخدم فكرة الأبجدية الموجودة في العلامات الساكنة المصرية، وشكَّل مجموعة بسيطة من العلامات التي يمكن أن تنتهي بها الكلمات.

وطوَّر فينيقيو «أوغاريت» أبجديتهم وكتبوها بقلم على ألواح الطين، واتخذت شكل علامات مسمارية أو إسفينية.

وتتألف الأبجدية الفينيقية من اثنين وعشرين حرفاً صامتاً، وهي بذلك تشكِّل انفصاماً عن طرق الكتابة المعقدة السابقة لها، وتعتبر اكتشافاً رئيسيّاً تبنَّته الغالبية الساحقة من اللغات المكتوبة حاليّاً بفضل «الصُّوريين» و«الصيدونيِّين». وسهَّل الاختراع الجديد العمليات التجارية الفينيقية، وبفضلهم تمَّ نشر الكتابة بين الأمم.

الديانة الكنعانية

عرفت المدن الكنعانية تعدُّد الآلهة شأن الشعوب القديمة، وبدأت «الديانة الكنعانية» بالظهور حوالي مطلع الألف الثاني ق.م، وكان لكل مدينة إله مفضَّل لديها أو إلهة، وأشهر الآلهة الكنعانية: الإله «إيل» وهو اسم عام لفكرة الألوهية، «بعل»، «أشمون»، «ملقارت»، «بعل شميم»، و«عشتار» (عشتروت) إلهة الإنجاب، و«عثرعاتة» إلهة الخصب، و«حدد» الرجل الكهل حامل الصاعقة، و«أدونيس» إله الخصب والذي عبده سكان مدينة «بيبلوس» (جبيل).

وكانت المعابد الكنعانية تقوم في المرتفعات وفي أماكن مكشوفة، وتحتوي على مذبح ونُصُبٍ حجرية. وكانت تُقام ذبائح لاسترضاء الآلهة يُضحَّى فيها بالأطفال الصغار، ويُدفنون في جرار ضيقة في نهايتها، وتوضع الجرار تحت أرضية المنازل، واستمرت هذه العادة حتى القرن الثالث الميلادي.

وتعود أقدم المعابد الكنعانية المكتشفة إلى مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت

في «أريحا» و«مجدو»، وبوساطة هذه المعابد كان يتم الاتصال بين الآلهة والبشر. وأهم صفات المعابد كان «المذبح الصخري»، و«النصب المقدس»، و«العمود المقدس»، و«الغرف تحت الأرض».

ومن المعابد الكنعانية المكتشفة أيضاً معبد كنعاني في مدينة «شكيم» (نابلس)، ذو جدران سميكة للإله «بعل-بريت» يرقى إلى القرن الثامن عشر ق.م.

وكذلك كان المعبد في «رأس شمرة» (أوغاريت) يتألف من فناءَيْن مستطيلَيْ الشكل مُحاطَيْن بالجدران، ومن غرف يمكن الوصول إليها عن طريق أروقة، وكان أحد الفناءين يحتوي على مذبح مدرَّج مقام في الهواء الطلق.

العمارة الكنعانية

كشفت الحفائر في «أوغاريت» عن قصور ملكية مبنية على نمط نظائرها في أرض الرافدين، وكانت الحجارة هي المادة الأكثر استعمالاً في البناء، وكانت منازل الأثرياء تحتوي على طابق علوي وآبار وحمّامات، وتتوسط هذا النمط من المنازل باحة ومن حولها عدد من الغرف، وبعض البيوت كانت تزوَّد بعنبر للقمح وصهريج خاص، بينما كانت منازل الفقراء هزيلة في بنائها وغير منتظمة، وصغيرة الحجم ومزدحمة بعضها بجانب بعض.

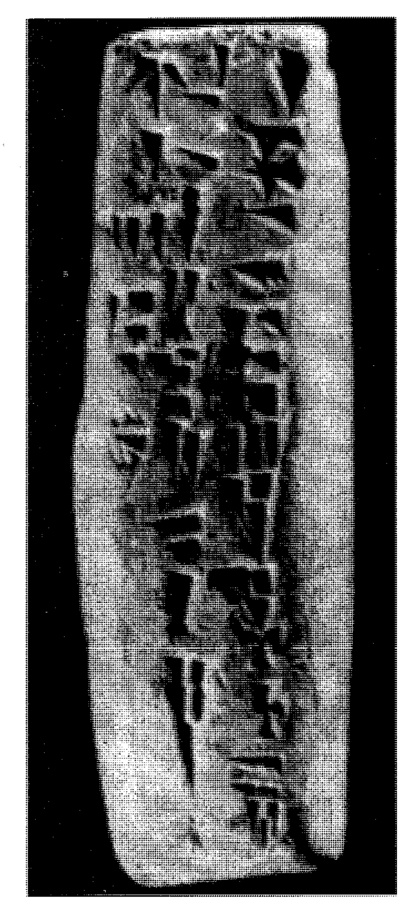
وكانت المدن الكنعانية محميَّة بأسوار عريضة، وتحتوي على أقنية عديدة للماء، وعلى طرق متقاطعة بزوايا قائمة في الأحياء الجديدة.

النحت

لم يخلِّف فن النحت في المدن الكنعانية إلا عدداً ضئيلاً من المنجزات، أمثال التماثيل الضخمة في «بيبلوس» (جبيل)، ويبدو أن النحت النافر كان وفيراً. وأظهرت الحفريات الأثرية في «أوغاريت» مِسَلاَّتٍ يَظهر النحت في إحداها، وهي موجودة اليوم في متحف «اللوفر»، وتُظهر إلهاً يلبس وزرة قصيرة. وأجمل ما تمَّ اكتشافه في هذا المجال رسم نافر على ناموس «أحيرام» ملك «صور» (١٢٤٠ ق.م)، مزخرف بصور نائحات وبأزهار اللوتس.

الزراعة

اهتم الكنعانيون بالزراعة شأن غيرهم من الشعوب، وكان البذار يتم باليد في أول الأمر ثم توسَّع أكثر عندما أُدخل المحراث من بلاد «بابل»، وربما دخل إلى جنوبي البلاد من «مصر». واكتُشف فأس من البرونز في «رأس شمرة» (أوغاريت). وكانوا يحصدون بمنجل أسنانه من الصوان، وتتصل الأسنان بقبضة من العظم أو الخشب بواسطة المِلاط، واستُعملت هذه الآلة حتى حوالي عام (١٠٠٠ ق.م) حين حلَّ المنجل الحديدي محلها. والمحاصيل نفسها لم تختلف كثيراً عن محاصيل هذه الأيام، كالقمح والشوفان والشعير والفاصوليا والجلبانة (البازلّاء) والعنب والزيتون والتين والرمّان والجوز. وفي المناطق الجبلية عمد السكان إلى تحويل المنحدرات إلى سطوح متفاوتة الارتفاع (جُلول) ببناء جدران يبعد الواحد بضع ياردات عن الآخر لتوسيع رقعة الأرض المزروعة وحماية التربة من التآكل،



لوحة فخارية تضم الأبجدية المعروفة
(بأبجدية رأس شمرا)

وهذه الجُلول كانت أكثر ملاءمة للحدائق والكروم والبساتين منها للزراعة الحقلية الواسعة، كما تفنَّن الكنعانيون في وسائل رَي الأراضي الزراعية.

الصناعة

اكتشف «الكنعانيون» النحاس ومزجوه بالقصدير لإنتاج البرونز الذي كان شائعاً منذ حوالي (٢٥٠٠ ق.م)، وكان من أهم صناعاتهم تطعيم العاج وصنع العربات والسيوف، والتماثيل التي صنعوها من خشب الأبنوس. كما اشتهر «الكنعانيون الفينيقيون» الذين سكنوا السواحل بصناعة السفن مستفيدين من أخشاب الأشجار التي كانت متوفرة في غابات لبنان، كما تفوَّقوا في صناعة الزجاج والنسيج والصوف والقطن، وفي صناعة الأصباغ.

التجارة والنشاط البحري

اشتهر أهل السواحل من «الكنعانيين» المعروفون بـ«الفينيقيين» بالملاحة البحرية، وأقاموا علاقات تجارية مع «مصر» منذ الألف الثالث ق.م، فكانوا يصدِّرون إليها الأخشاب من الأرْز والصنوبر، والتوابل والزيت والراتنج.

ووسَّعت «فينيقية» تدريجيّاً مجال نشاطها التجاري البحري، وأقام الفينيقيون عدة مراكز تجارية في الشواطىء البعيدة، فكانت لهم مراكز في «قبرص» و«مالطا» و«غوزو» و«بانتاليريا» ينطلقون منها في تجارتهم مع «أفريقية» في القرن التاسع ق.م، وفي «سردينية» و«إيبيسا»، ينطلقون منها إلى «إسبانية» (بلاد ترشيش) حيث كانوا يحمِّلون سفنهم بالفضة والقصدير الوارِدَيْنِ من شمالي «إسبانية» أو من «جزر كاسِّيتيريد»، وكانوا في عودتهم يسلكون المياه القريبة من الشواطئ الأفريقية عن طريق مستعمراتهم القديمة أمثال «هبُّو» و«ديار هيتسوس» و«عتيق» (١١٠٠ ق.م) و«قرطاجة» (٨١٤ـ٨١٣ ق.م).

المصادر والمراجع

- حتّـي، د. فيليـب: **تاريخ سورية ولبنـان وفلسطين**، ج١، ص٨٦، ترجمة د. جورج حـداد، عبد الكريم رافق، أشرف على مراجعته د. جبرائيل جبُّور، دار الثقافة، بيروت ـ لبنان، ١٩٥٨م.
- الحوراني، يوسف: **لبنان في قيم تاريخه**، ص٤٦، بيروت ـ لبنان، ١٩٩٢م.
- الذنون، عبد الحكيم: **بدايات الحضارة** (بتصرف).
- سليم، أحمد أمين: **دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم**، القاهرة ـ مصر، ١٩٩١م.
- سوسة، د. أحمد: **تاريخ حضارة وادي الرافدين**.
- عبودي، هنري س.: **معجم الحضارات السامية**، جروس برس، طرابلس ـ لبنان، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- علي، أحمد علي إسماعيل: **تاريخ بلاد الشام القديم**.
- **الموسوعـة العربية العالميـة**: المترجم أحمد عبد اللطيف أحمد وآخـرون، التحرير والمراجعة محمد عبد الخالـق محمد فضـل وآخرون، مؤسسة أعمـال الموسوعة للنشـر والتوزيـع، ط٢، الرياض ـ المملكة العربية السعودية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

الحضارة الكوشية

(الكوشيون = الكوتيون)

أ. د. جمال البدري



مـن الأقـوام الجبلية القديمـة؛ نزحوا من جبال زاغـروس بين إيـران القديمـة والعراق القديـم؛ وأسسـوا إمارتهم في شمـال العراق لمدة قرن، ما بين عامَي (٢٢١١ ـ ٢١٢٠ ق.م)، وتمكنوا مـن القضاء على الدولـة الأكادية في سنـة (٢٢١٢ ق.م) مـا يـدلُّ علـى قوتهـم العسكريـة وقدراتهم الحربيـة المتفوقة. ولمّا كانوا مـن بدو الجبـال فلم تكن لهـم حضارة ومدنيـة؛ لكنهـم تآلفـوا مـع الحضارتيـن السومريـة والأكاديـة؛ وأخـذوا اللغـة الأكادية التـي كانـت اللغـة الأوسع فـي ذلـك الزمان؛ وسجَّلـوا أخبارهـم وانتصاراتهـم بهـا، ويكاد يتفـق معظـم المؤرخيـن أنَّ الكوشييـن، أو (الكوتييـن) هـم أسـلاف الجنـس الكـردي الموجـود حاليّـاً فـي العـراق وسوريـة وتركيا وإيران أكثر من الميديين الآريين.

لـم يدم حكـم الكوتييـن طويـلاً؛ فقد ثار عليهـم الأميـر السومري (أوتو هيـكال)، وهو أمير مدينة أروك؛ وتمكن من الانتصار عليهم؛ وأعـاد الحكم السومري مـن جديد فيما سمي بعهد الانبعاث السومري الأخير.

لم تُذكر لهم إنجازات مهمة في الحضارة القديمـة؛ بعدمـا اعتمـدوا علـى منجـزات الحضارتيـن السومريـة والأكاديـة وسكنـوا مدنهم القائمة، ثم نزحوا إلى مناطق الجبال في العـراق وتركيا وإيران بعـد نهاية دولتهم؛ وهنـاك اعتمـدوا نظـام الإمـارات القبليـة الداخلية فيمـا بينهم، وثمـة جماعة أخرى لا علاقـة لها بالكوشيين تحمـل اسمهم الكوشي نفسـه؛ لكنها تنتسب إلى كـوش بكر حام، أبو نمـرود؛ وسكنوا جنـوب مصر ضمـن منطقة النوبة الحالية؛ وهم الذين تزوج بامرأة منهم سيدنا موسى عليه السـلام، وقد ورد ذكرهم بالتوراة، ولا علاقة لهؤلاء بالكوشيين الكوتيين فـي شمـال العـراق، ولهـذا نجـد المؤرخين يميلـون إلـى إطلاق تسميـة الكوتييـن عليهم وليـس الكوشييـن لمنـع الاختـلاط والتوهُّـم بالأسماء.

المصادر والمراجع

- خصباك، شاكر: **الأكراد**؛ مطبعة شفيق؛ بغداد؛ بلا.
- العزب، محمد: **موسى.. مصرياً**؛ المكتبة الثقافية؛ دار الكاتب العربي؛ القاهرة ١٩٦٩.
- مورتكات، أنطوان: **تاريخ الشرق الأدنى القديم**؛ ترجمة توفيق سليمان وعلي أبو عساف وقاسم طوير؛ دمشق ١٩٦٧.



الحضارة الليدية

أ. د. محمد سهيل طقوش   أ. د. جمال البدري



الموقع والجغرافيا

تقع منطقة ليديا إلى غرب هضبة الأناضول قبالة سواحل بحر إيجة، وامتدت لاحقاً بمحاذاة بحر مرمرة... فهي أقرب إلى مواجهة حضارة اليونان من حضارات المناطق الأخرى. والليديون من الأقوام (الهندو-أوروبية) الأناضولية، وكذلك لغتهم التي كانت تحمل الكثير من المفردات اليونانية؛ ومن هذا الموقع الخاص تميزت حياة وحضارة ومظاهر سكان ليديا. ومن جهة أخرى صار هذا الموقع الجغرافي كالجسر الرابط بين العالم اليوناني (الأوروبي) والأناضولي (الآسيوي)، وهذا رتَّب على الليديين تحمُّل تبعات الصراع الحضاري والسياسي بين العالمين القديمين في الشرق والغرب. وتعتبر مدينة (سرديس) أو (ساردیس) عاصمة ليديا أهم المدن لديهم؛ وهي تقع بالقرب من مدينة أزمير التركية الحالية؛ وما زالت الآثار الليدية شاخصة كأطلال تدل على تلك المدنية والحضارة القديمة.

الحضارة الليدية

دخلت الامبراطورية الحثية في طور التضعضع في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وبخاصة بفعل تأثير عامل قدوم جماعات هندو-أوروبية من تراقيا عبر المضائق. وظهرت في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد قوة جديدة في آسيا الصغرى ورثت بقايا الحضارة الحثية وشكَّلت حلقة اتصال بينها وبين بلاد اليونان، ودعت الإلياذة أصحابَها باسم الفريجيين، وأول ملوكهم هو جورديوس وعاصمتهم غورديون (أنقرة)، غير أنهم لم يُشكِّلوا دولة مركزية، وأقاموا علاقات تجارية مع جيرانهم، ونازعوا أشور ومصر السيادة على الشرق الأدنى، ولكن على مدى زمني قصير، ومصدر ثروتهم الزراعة وتربية المواشي، وتأثروا بتيارات مختلفة في مجال الفن والصناعة الخزفية منها حثية، كالنقش على الصخور، وقبرصية، فقد استوردوا العُرى التي تصل أجزاء الثوب والأواني من قبرص، وأخذوا عن اليونان الألفباء ومبادئ التزيين. وتُدعى آلهتهم باسم «ما» ثم سمَّوها «سيبيل»، وقد اشتقوا هذا الاسم من جبال سيبيل حيث كانت تعيش فيها وعبدوها على أنها روح الأرض غير المزروعة ورمز جميع القوى المنتجة، وأخذوا عن سكان البلاد طريقة خدمة الإلهة بالدعارة المقدسة، وكانت أمراً طبيعيّاً للفتيات الفريجيات، وضمَّنوا أساطيرهم الشعبية قصة حب سيبيل والإله الشاب أتيس الذي ولدته الإلهة العذراء نانا بمعجزة، وأرغمته على أن يخصي نفسه تكريماً لها، ومن ثم كان كهنة الأم العظيمة يُضحُّون لها برجوليتهم حين يدخلون في خدمة هياكلها وأشهرها هيكل بسِّينوت. وافتتن اليونانيون بهذه النظم الدينية وأدخلوها في أساطيرهم وأدبهم، كما أدخل الرومان الإلهة سيبيل رسميّاً في دينهم.

انتهى سلطان الفريجيين في آسيا الصغرى بقيام مملكة ليديا، التي أسسها الملك جيجيس حوالي عام ٦٩٠ ق.م، واتخذ سرديس عاصمة لها، ويبدو أن هذا الاسم لم يظهر إلا في وقت متأخر، فقد كان يسكن المنطقة المينويون وفق ما ذكرته الإلياذة، وقد ربطت التقاليد اليونانية تغيير الاسم من

الفريجيين إلى الليديين مع اغتصاب العرش على يد جيجيس في أوائل القرن السابع قبل الميلاد، وأشارت النصوص الأشورية في الوقت نفسه إلى اللودو وملكهم غوغو.

حقَّقت السلطة الملكية في عهده تقدماً محسوساً، وتُظهره التقاليد حاكماً مستبدّاً، ثم حكم أليتيس مدة أربعين عاماً بلغت خلالها المملكة الليدية درجة عالية من الرخاء والقوة، وعندما توفي، ساهمت الجاريات، بالاشتراك مع رجال الصناعة والتجارة بمبلغ كبير من المال لتشييد قبره. وورث كروسس المملكة الليدية (٥٧٠ ـ ٥٤٦ ق.م) وأوصلها إلى درجة التكامل، ووسَّع أراضيها بما فتحه من أقاليم جديدة، فشملت آسيا الصغرى الغربية بكاملها، وضمَّ إليها الدويلات المحيطة بها، وبخاصة تلك الواقعة على السواحل الإيجية بما فيها المدن اليونانية، واستطاع أن يُهدِّئ غضب شعوبها بما كان يُقدمه من ضحايا كثيرة قرباناً إلى آلهتها المحلية وبإقناعها بأنه حبيب هذه الآلهة.

دام حكم الليديين حوالي قرن ونصف وسقطوا تحت ضربات قورش الفارسي الذي دخل العاصمة سرديس وقبض على الملك كروسس وأخذه معه إلى فارس وجعله من مستشاريه المقرَّبين.

اشتهر الملوك الليديون بثرواتهم الطائلة التي كانت تُغذيها هبات كثيرة، بالإضافة إلى استثمار أملاك الدولة والضرائب التي تؤديها الجماعات المحلية، وكذلك الضرائب على التجارة. وكثر المعدن الثمين في ليديا، واستخرجه الليديون من مناجم بعض الجبال ومن شواطئ نهر هاليس، وشجَّعوا الحركة التجارية، وبنوا الخانات على الطرق التجارية، وكثُر التبادل التجاري مع مدن الساحل اليوناني، وقد استلزم التعامل بالنقود المعدنية، فسكَّ الملك كروسس نقوداً ذهبية وفضية ذات شكل بديع وضَمِن قيمتها الاسمية، وهو أول مَن سكَّ نقوداً ذهبية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ويُعدُّ ذلك إصلاحاً مُهمّاً ساعد على انتشار التجارة في بلاد البحر الأبيض المتوسط ويسَّر السُبُل لانتقال السلع من المنتجين إلى المستهلكين، ما زاد في ثروة البلاد.

وتُفسِّر العلاقات مع العالم اليوناني تشابك الحضارتين الليدية واليونانية، واحتفظت الأولى بمظاهر شرقية. وتأنَّق الليديون في حياتهم، فارتدوا غلائل طويلة من قماش زاهٍ، ووضعوا القلائد، والأقراط في آذانهم وتطيَّبوا بشكل مفرط حتى فاح المسك والطيب من أجسادهم، وفضَّلوا الطعام اللذيذ والحلويات، ولعبوا بالزهر وبالكرة وغيرهما من الألعاب التي ترمز إلى اللهو.

وتفتَّحت الحضارة الليدية على العناصر اليونانية بفعل إطلال ليديا على بحر إيجة، واتخذ الملوك الليديون لأنفسهم لقب «محبو اليونان»، واستشاروا العرَّافين اليونانيين، وأظهروا احتراماً فائقاً للإله أبولون في مدينة دلفي، وأكثروا العطايا للهياكل والمدن اليونانية، وعهدوا إلى صاغة يونانيين في بعض أعمالهم، وَوُجدت أواني خزفية في ليديا من صنع يوناني.

وكان اليونانيون قد أسسوا مستعمرة لهم في سرديس، ونهلوا من الحضارة الليدية

واستغواهم الذهب، وأخذوا الكثير من الكنوز، إذ عُدَّت هـذه البلاد، وهي قريبـة من مدنهم الآسيوية، إحدى الطـرق، بل الطريق الرئيس، التـي أتاحت لهـم الاحتكاك مـع الشرق الذي اقتبسوا منه الطرق التقنية الصناعية والفنية والعقائد والعبادات الدينية والمعلومات العلمية والأمثال الدينية.

لـم يصـل إلينـا شـيء يُذكـر مـن الأدب الليدي، كذلك لـم يبقَ شيء مـن المزهريات الجميلـة المصنوعـة مـن الذهـب والفضـة والحديد التي تقرَّب بها كروسس للآلهة. وتدل المزهريـات التي وُجـدت في مقابـر الليديين على تزايـد التأثير اليونانـي، ولا تمتاز عادات الليديين العامة عن عادات سكان بلاد اليونان.

المصادر والمراجع

- إيمـار، أندريـه وجانيـن أوبوايه: **تاريـخ الحضـارات العـام**. الجـزء الأول، **الشـرق واليونـان القديمة**. منشورات عويدات، بيروت ـ باريس.
- ديورانـت، ويل: **قصة الحضـارة**. المجلد الأول الجزء الثاني. ترجمة محمـد بدران. الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة.
- سوسة، أحمد: **اليهود والعرب في التاريخ**، وزارة الأعلام العراقية، بغداد، ١٩٨١.
- Herdotus: **History of Hirodotus**. Translated by Rowlinson, London 1862.



الحضارة المانيّة

(المانيُّون)

أ. د. جمال البدري



المانيــون مــن الشعــوب القديمــة التــي استوطنــت الأراضــي التــي تُعــرف حاليّــاً بأذربيجــان (الإيرانيــة) في الفتــرة ما بين القرن العاشــر قبل الميلاد والقــرن السابع قبل الميلاد، وقــد ذُكر اسمهم في الكتابات القديمة في سجلات الآشوريين.

والمانيون من سكان جبال زاغروس بين تركيــا الحاليــة والعــراق الحالــي؛ ومن هنا يعتبــرون نــواة الشعــب الكــردي فــي هــذه المنطقة ذات التضاريــس الوعرة والمنعزلة عما حولها. ويعتبرهم بعــض المؤرخين من الأقوام المستقرة؛ بخلاف الميديين، الأصل الثاني للكرد، باعتبارهم من الأقوام الجوّالة خارج إقليم جبال زاغروس. والمانيون أقوام من القبائــل الهندو ـ أوروبيــة الأصل. وأهم القبائل التــي شكلت هذه الجماعــة العرقية هي:

١ ـ لولو.
٢ ـ كوتي.
٣ ـ كورتي.
٤ ـ جوتي.
٥ ـ جودي.
٦ ـ كاساي.
٧ ـ سوباري.
٨ ـ خالدي.
٩ ـ نايري.

وكانت عاصمة الميديين مدينة (زرتا)، وذلك فــي القرن العاشر قبــل الميلاد، وقد وصلــوا إلــى أوج قوتهــم بيــن عامَــي (٧٢٥ و٧٢٠) قبــل الميــلاد، ولكــن الصــراع بــدأ بالظهــور فيمــا بينهــم وبيــن الآشورييــن، واستطــاع الملــك الآشوري سرجــون الثالث القضــاء علــى حكمهــم فــي عــام ٧١٦ قبل الميلاد.

لم تُذكر للمانييــن حضارة متميزة سوى شهرتهم بالزراعة الجبلية وتربية المواشي؛ والقدرات الحربية؛ كشأن سكان الجبال في مختلف المناطق بالعالم القديم. ويبدو أنهم اعتمــدوا الغــارات المباغتــة علــى المناطق المجاوزة الأكثر حضارة منهم كالآشوريين؛ ما دفع بهؤلاء إلى محاربتهم والقضاء عليهم عسكريّــاً، وسرعــان مــا انتهــت إمارتهــم؛ كوجود سياســي؛ من دون أن تترك منجزات حضاريــة مشهودة... وأبرز مــا تركوه بعض الصناعــات الخزفية والفخاريــة والنسيجية والأسلحة.

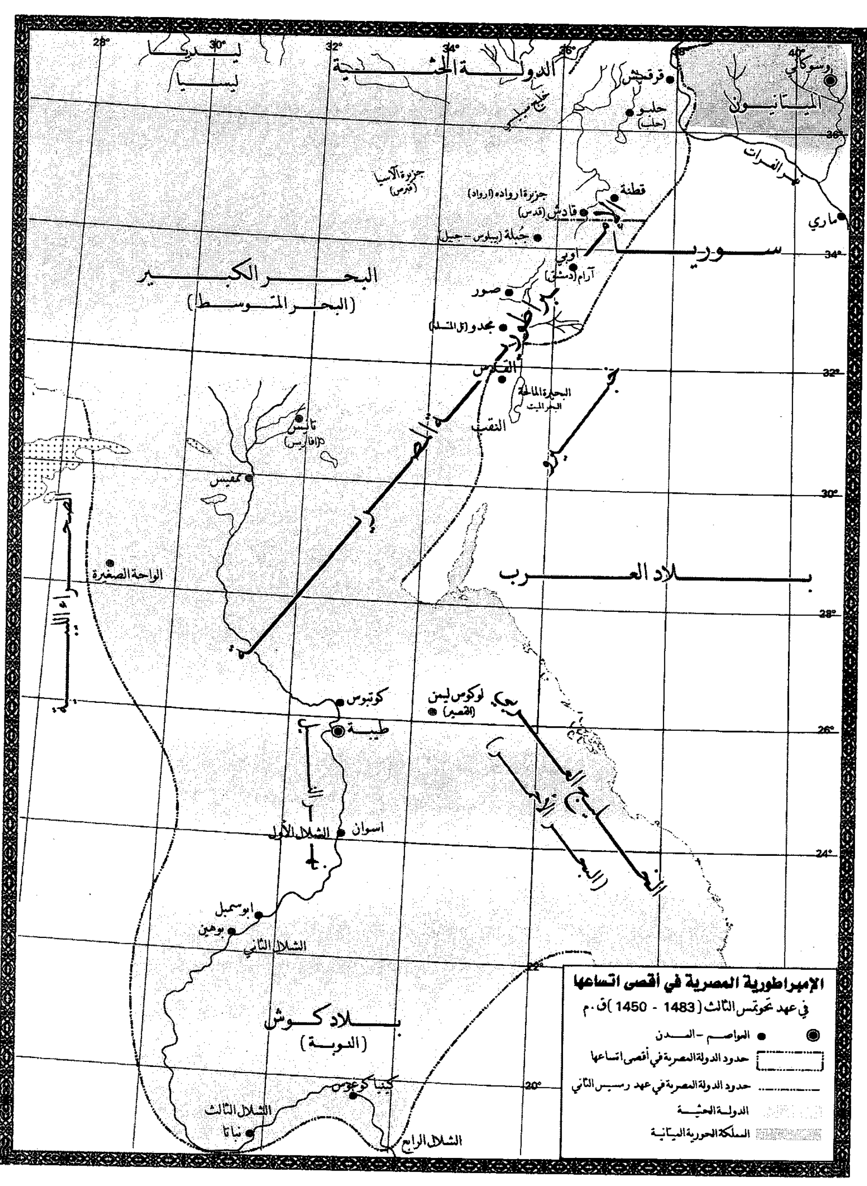
المصادر والمراجع

- باقر، طه: **ديانة البابليين والآشوريين**؛ دورية سومر العدد ٢؛ مديرية الآثار العامة، بغداد ١٩٤٦.
- خصباك، شاكر: **الأكراد**؛ مطبعة شقيق؛ بغداد (بلا تاريخ).
- رازي، عبد الله: **تاريخ إيران**؛ طهران؛ ١٣١٧.
- زكي، محمد أمين: **خلاصة تاريخ الكورد وكوردستان** ج١ (من المقدمة) عن الموسوعة الحرة (ويكيبيديا).



الحضارة المصرية

د. عدنان مامو



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

لقد قامت الحضارة المصرية في الرقعة الممتدة من سواحل البحر المتوسط شمالاً وحتى مدينة أسوان جنوباً، ومن شبه جزيرة سيناء شرقاً إلى واحة سيوة غرباً، وفي بعض الأحيان كانت الحدود الجنوبية تمتد حتى جبل البرقل في السودان جنوباً، وخاصة في عصر الدولة الحديثة.

ولم تقتصر هذه الحضارة على مصر بحدودها الجغرافية، وإنما وصلت تأثيراتها إلى سوريا وفلسطين ولبنان وجزر اليونان، وخاصة جزيرة كريت والسودان.

المقدمة

ظهر الإنسان في وادي النيل مع بداية عصر البليوستوسين قبل ٣٠٠٠٠٠ سنة قبل الميلاد؛ فقد عُثر على الأدوات الحجرية التي صنعها الإنسان القديم في عدد من المواقع بين القاهرة والخرطوم. وفي موقع تل الترمسا - على مقربة من دندرة في جنوب مصر - اكتُشف هيكل عظمي لطفل، في حالة سيئة جداً من الحفظ، تشبه صفاته الفيزيولوجية صفات الإنسان الحديث الذي ظهر في آخر العصر الحجري القديم في شمال أفريقيا، يعود تاريخ هذا الطفل إلى ٥٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد، ويمكن اعتباره أقدم إنسان مصري معروف حتى الآن.

أولاً - مصادر دراسة الحضارة المصرية

نقصد بالحضارة المصرية المنجزات الثقافية التي حققها المصريون في الفترة الممتدة ما بين عصر الأسرة الأولى، حوالي ٣١٠٠ قبل الميلاد، وحتى سقوط مصر في أيدي إسكندر المقدوني عام ٣٣٢ قبل الميلاد.

يمكن تقسيم مصادر دراسة الحضارة المصرية إلى:

١ - الآثار التي خلَّفها المصريون القدماء: حيث توجد في مصر حاليّاً ثلث الآثار الموجودة في العالم. فقد ساعد مناخ مصر الجاف على حفظ الكثير من الآثار وخاصة في مناطق الصعيد، في حين ضاعت معظم الآثار المصرية في مناطق الدلتا بسبب الرطوبة العالية وتسرب المياه الجوفية. وقد تعرضت الآثار المصرية لعملية نهب طويلة منذ أيام الفراعنة، حيث عرف في تاريخ مصر القديم لصوص المقابر والمعابد حيث كان اللصوص ينهبون الأثاث الجنائزي للمقابر، وقد ذكرت البرديات المصرية الكثير من المغامرين والتجار الأوروبيين... بهدف البحث والتنقيب عن الآثار المصرية والمتاجرة بها. ونرى اليوم في المتاحف الأوروبية والأمريكية مجموعات ضخمة من الآثار المصرية وصلت معظمها إلى هذه المتاحف بطرق غير شرعية.

بالإضافة إلى التجار والمغامرين، وصل مصر مجموعة من العلماء الأجلاء الذين أسهموا في الكشف عن الحضارة المصرية، ويأتي في مقدمتهم العالم الفرنسي جان فرانسوا شامبليون الذي نجح في فك رموز اللغة الهيروغليفية، وغيره الكثير من العلماء الذين أنفقوا سنوات طويلة من عمرهم في دراسة الحضارة المصرية ولا يتسع المقام لذكرهم.

٢ - الكتابات والنقوش القديمة: وصلتنا مجموعة من النقوش والكتابات القديمة منها:

- متون الأهرام ترجع إلى عصر الأسرة الخامسة وتتحدث هذه المتون عن التعاويذ والسحر والبعث ورحلة الميت في العالم الآخر... وغيره من المواضيع.
- حجر بالرمو-بالرمو مدينة في جزيرة صقلية-قطعة من حجر الديوريت الأسود نقشت على وجهيه حوليات عدد من الحكام والملوك المصريين يعود تاريخه إلى ٢٥٠٠ ق.م.
- نقش معبد الكرنك، نُقش في عهد تحوتمس الثالث ١٤٩٠-١٤٣٨ ق.م.، نقل إلى متحف اللوفر في باريس. يحوي هذا النقش قائمة بأسماء واحد وستين ملكاً من أسلاف تحوتمس الثالث، وعلى غراره توجد قائمة أبيدوس من عهد رعمسيس الثاني.
- بردية تورين مكتوبة على ورق البردي بالخط الهيراطيقي تعود إلى عهد رعمسيس الثاني، وتتألف البردية من خمسين قطعة تم تجميعها في قائمة واحدة تحوي معلومات سياسية وإدارية قيمة.
- رسائل تل العمارنة: عُثر على ٣٧٧ رسالة مكتوبة باللغة البابلية وبالخط المسماري وهي رسائل تبادلها ملوك ميتاني وبابل وقبرص مع ملوك مصر.

٣ - كتابات المؤرخين القدماء، منهم:

أ - مانتيون السمنودي ألف كتاباً سماه Aegyptika باللغة اليونانية وقدّمه إلى الملك بطليموس الثاني (٢٨٣-٢٤٥ ق.م) وقد ضاع هذا الكتاب ووصلتنا شذرات منه في كتب المؤلفين الإغريق والرومان.

ب - هيكاتيوس الميتليني توفي ٥١٠ ق.م، وضع كتاباً أسماه تخطيط الأرض، تحدث فيه عن نهر النيل والدلتا والفيضان والزراعة في مصر.

جـ - هيرودوت ٤٩٠-٤٢٥ ق.م، زار مصر وتجول فيها وخصص الجزء الثاني من كتابه التواريخ للحديث عن مصر.

د - هيكاتيوس الإيدري، زار مصر حوالي ٣٢٠ ق.م ووضع كتاباً عن مصر تناول فيه العقائد والأساطير الدينية.

هـ - ديودر الصقلي، زار مصر سنة ٥٩ ق.م، خصص الجزء الأول من كتابه التاريخ العام للحديث عن العمران والزراعة والحيوان في مصر.

و - بلوتارخ ٥٠-١٢٠م، ألف كتاباً عن أسطورة أوزيريس وإيزيس.

ثانياً: النظم السياسية والإدارية

أطلق المصريون القدماء على بلادهم اسم كمت التي تعني باللغة اليهروغليفية الأسود أو الأسمر، في إشارة إلى الأرض الغنية بطمي نهر النيل. أما الإغريق فقد أطلقوا على مصر اسم Aigyptes، واشتق منها فيما بعد اسم مصر في اللغات الأوروبية الحديثة. واشتق اسم مصر الحالي من الكلمة المصرية القديمة مجر، أو مشر التي تعني المحصن أو المكنون، في إشارة إلى حدود مصر الطبيعية التي حمتها وحصّنتها إلى حد كبير من هجمات المعتدين، وعليه فإن مصر تعني المحمية أو المكنونة، فهي كنانة الله في أرضه. لقد انقسمت مصر في تاريخها إلى إقليمين واضحين: أحدهما في


رأس الملكة نفرتيتي ملكة مصر في الدولة الحديثة

الشمال، وهو مصر السفلى أو الوجه البحري أو الدلتا، ويمتد من القاهرة الحالية جنوباً إلى شواطئ البحر المتوسط شمالاً؛ ومصر العليا أو الوجه القبلي أو الصعيد، ويمتد من القاهرة شمالاً حتى حدود مصر مع السودان جنوباً.

حكمت مصر إحدى وثلاثون أسرة حاكمة في الفترة الممتدة بين بداية العصور التاريخية المصرية ٣١٠٠ ق.م وحتى غزو الإسكندر المقدوني لمصر ٣٣٢ ق.م. وقد قسم الباحثون تاريخ مصر إلى ثلاثة عصور رئيسية، تتخللها فترات انتقالية وفق ما يلي:

١ـ العصر العتيق، أو بداية الأسرات ٣١٠٠ـ ٢٦٨٦ ق.م، وتتضمن الأسرتين (١ ـ ٢).
٢ـ عصر الدولة القديمة ٢٦٨٦ ـ ٢١٨١ ق.م (٣ـ٦).
٣ـ عصر الانتقال الأول ٢١٨١ ـ ٢٠٥٥ ق.م (٧ـ ١٠).
٤ـ عصر الدولة الوسطى ٢٠٥٥ ـ ١٧٩٥ ق.م (١١ـ ١٢).
٥ـ عصر الانتقال الثاني ١٧٩٥ ـ ١٥٥٠ ق.م (١٣ـ ١٧).
٦ـ عصر الدولة الحديثة ١٥٥٠ ـ ١٠٦٩ ق.م (١٨ ـ ٢٠).
٧ـ عصر الانتقال الثالث ١٠٦٩ ـ ٦٥٦ ق.م (٢١ـ ٢٥).
٨ـ العصر الصاوي ٦٥٦ ـ ٥٢٥ ق.م (٢٦).
٩ـ العصر المتأخر ٥٢٥ ـ ٣٣٢ ق.م (٢٧ ـ ٣١).

النظام السياسي: كان نظاماً ثيوقراطيّاً قائماً بأكمله على الملك. إن صياغة نظرية سياسية كانت محل اهتمام المصريين الدائم، وقد حاولوا أن يوفقوا بين الدين والسياسة، ويبدو ذلك جليّاً من ألقاب الملك والتي تجعل من الملك (حورساً) يحكم على الأرض تماماً كما يحكم الإله حورس في السماء، وينتسب إلى الربتين نخبت وواجيت، اللتين تحميان وتؤسسان سلطة من الناحية القانونية. إنه ملك الوجهين القبلي والبحري. إنه حورس الذهبي..

وفي الأسرة الخامسة، أضاف الملوك إلى صفاتهم لقباً جديداً هو ابن رع إله الشمس الذي خلق العالم بأسره والذي يسبغ نِعَمه على الكون بأكمله، ومن ثم فهو وريثه الشرعي. وفي عصر الدولة الحديثة نرى أن الملوك يؤلفون قصصاً عن ولادتهم الإلهية. فالملكة حتشبسوت والملك رعمسيس الثاني والملك أمنحوتب الثالث تركوا لنا قصصاً عن الزواج المقدس بين الملكة الأم والإله آمون، ثم

الولادة الإلهية للملك لاعتباره ابناً للإله آمون ووريثاً شرعيّاً للسلطة.

وفي عصر الانتقال الأول خسر الملك جانباً من سلطاته لصالح الأمراء وكبار الموظفين، ومع هذا ظلَّ هو الوسيط الوحيد بين الآلهة وبين البشر وبقيت سلطته بغير مساس، ولكنه لم يعد ذلك الكائن المطلق الذي لا يمكن مجادلته كما كان في العهود السابقة.

أدت الانتصارات التي تحققت في عصر الدولة الحديثة إلى تحويل كثير من ملوك الدولة الحديثة إلى رجال خارقين. بعد نموذج الملك الحكيم الذي شاع في الدولة الوسطى جاء نموذج الملك البطل في الدولة الحديثة، وأصبح الملك بطل الإلهة ماعت - إلهة العدالة والنظام - والظاهر أنه قد بُدئ، في ظل حكم تحوتمس الثالث، استعمال اسم القصر (بر عا) بمعنى ساكن البيت الكبير للدلالة على الفرعون، وأصبحت هذه التسمية تستخدم جنباً لجنب مع الأسماء الأخرى الدالة على الملك، وبقي هذا اللقب هو المتداول بين الناس إلى عصرنا الحالي.

لقد تمتع بعض الملوك بمعاملة استثنائية أدت إلى تأليههم، ومن بين ملوك الدولة القديمة إله سنفرو، وفي الدولة الوسطى إله سنوسرت الثالث وأمنمحات الثالث، وفي الدولة الحديثة إله أمنحوتب الأول ورعمسيس الثاني وأمنحوتب الثالث.

وعندما آل حكم مصر إلى الأجانب، من كوشيين وليبيين وفرس وإغريق ورومان، حمل هؤلاء الحكام الأجانب ألقاب الفراعنة وتقلدوا رموزهم وشاراتهم.

كان الملك بمفرده هو الدولة، وهو الذي يضمن أمام الآلهة تحقيق المهام الأساسية للدولة. إن الإشارات الدالة على المباشرة المادية للسلطة الملكية السياسية - إذا استبعدنا منها الجانب العقائدي - كانت غير مباشرة، وخاصة في كل ما يتعلق بإدارة البلاد بمعنى الكلمة. فالبرنامج اليومي للملك يتضمن العديد من الاحتفالات التشريفية، بعضها يرتبط بشخصه المقدس، مثل زيارات متابعة سير الأعمال في الأبنية التي كان يأمر ببنائها، وبعضها الآخر يتضمن الظهور وإقامة الشعائر العادية أو الاستثنائية والمقابلات ومنح النياشين، وكذلك ممارسة العديد من الألعاب الرياضية، بالإضافة إلى ممارسة مختلف أنواع التسلية والترفيه. وتشير الشواهد التاريخية إلى أن السياسة الخارجية كانت تحظى بعناية أكبر من السياسة الداخلية.

ولقد اشتهر عدد من الملوك كمصلحين ومشرعين مما جعلهم أصحاب الفضل في إقامة مختلف مؤسسات الدولة، وكانوا أيضاً يتدخلون في اختيار كبار الموظفين من المدنيين والعسكريين والكهنة في الدولة.

النظم الإدارية: كانت مدينة منف، عاصمة مصر خلال عصر الدولة القديمة، تضم الوزارات والقصور، وكانت تشمل، بالإضافة إلى مقر الملك الذي كان يدعى (البيت الكبير) مبنى أو أكثر للاحتفالات الرسمية مثل (الجناح الملكي) ومقر إدارة البلاد ومقر أملاك التاج (الخاصة الملكية)، وفيما بعد انتقلت هذه الإدارات إلى العواصم الجديدة، (إيث تاوي) اللشت في الدولة الوسطى و(طيبة) الأُقْصُر في الدولة الحديثة. كان لكل فئة من فئات

القصور، المشار إليها آنفاً، مجموعة من المستخدمين المخصصين لها. كانت للبيت الكبير خدمات إدارية خاصة به، وكان يضم أفراداً ملحقين بشخص الملك مثل الأطباء ومصففي الشعر وحالقي الذقون ومسوّي الأظافر وغيرهم، بالإضافة إلى الحرس الخاص. وكان يعمل في الخاصة الملكية مدنيون ورجال دين، وكانت المناصب الإدارية والدينية المرتبطة بجناح الملك قليلة العدد وغير محددة تحديداً واضحاً، وكان للذين يعملون في المقر نفسه دور اقتصادي ذو شأن كبير يرتبط بمصالح الملك ويمتد أثره إلى إدارة الموارد في كل أنحاء البلاد.

أجهزة الدولة

١ ـ **السلطة التشريعية**: كان الملك هو المشرِّع الوحيد، مع ذلك وُجدت بعض الاستثناءات في ظروف غامضة، مثل المرسوم الذي أصدرته الأم الملكة أيعحوتب لصالح موظف القصر (كرس).

القوانين: تشير الكثير من النصوص إلى أنه كانت توجد مجموعات قانونية تشمل القوانين القديمة والقوانين الجديدة ولكن لم يصلنا أيٌّ منها. لقد أشار الملك حور محب (الأسرة ١٨) إلى وجود تسجيل يومي للقوانين التي كان يصدرها، ويمكن أن نرى هنا ما يشبه (الجريدة الرسمية) التي لا بد وأن ترجع إلى نوع من المدونة التشريعية وإن كانت غير منتظمة.

المراسيم والأوامر الملكية: تتضمن قرارات تعيين أو ترقية أو عزل، وإخطارات بمكافآت ممنوحة، وأوامر بمأموريات... لقد جاءت الأمور الملكية في شكل نصوص منقوشة على الحجر، وتمثل نوعاً من الإعلان الدائم عن الإرادة الملكية في المكان الذي يفترض تطبيقها فيه.

٢ ـ **السلطة التنفيذية**: كان الملك يعهد بالأمور التنفيذية إلى عدد متغير من المعاونين، ويقوم بتغييرهم من حيث المبدأ، ويختارهم من بين أفراد عائلته أو من رجال القصر تبعاً للظروف، وإذا قام الوزير في بعض الأحيان بتعيين بعض المرؤوسين فإنه يتصرف باسم الملك باعتباره ممثلاً له.

كان الوزير في الدولة القديمة مسؤولاً عن القضاء والإدارة والزراعة والمالية، وأُضيفت للوزير، خلال عصر الدولة الحديثة، بعض السلطات الملكية المدنية والعسكرية، ومع هذا توجد دلائل عديدة على وجود موظفين كبار آخرين كانوا يخضعون مباشرة للملك من دون الرجوع إلى وزيرهم.

كان منصب الوزير يُعهد به إلى أحد أبناء الملك أو أحد أفراد أسرته، واعتباراً من عهد الملك منكاو رع (الأسرة الرابعة) وصل إلى منصب الوزارة رجال لم تكن تربطهم بالملك علاقة قرابة. وبدءاً من عهد الملك جدكا رع (الأسرة الخامسة) تم تعيين وزراء آخرين في الأقاليم، ولا نعرف حتى الآن كيفية توزيع مسؤولية كل منهم، ولا يوجد في ألقابهم ما يؤكد افتراض التقسيم الجغرافي لسلطاتهم. ومع هذا فإنه توجد دلائل كثيرة تثبت أن الإدارة المصرية كانت تعطي أهمية خاصة لإدارة الوجه القبلي (الصعيد)، في حين بقيت الدلتا خاضعة للسلطة في منف، واعتباراً من عصر الدولة الوسطى تم تعيين وزيرين أحدهما للدلتا والآخر للصعيد.

الهيئات التنفيذية في العاصمة

١ ـ الساحات الست الكبرى: ظهر لقب مدير الساحات الست الكبرى في عصر الأسرة الخامسة، والساحات الست الكبرى أجهزة قضائية كانت متواجدة في جميع الأوساط ـ ملكية أو إقليمية، مدنية أو دينية ـ وكان الوزير هو مدير الساحات الست الكبرى.

٢ ـ أعمال الملك: ظهرت هذه الإدارة في نهاية عصر الأسرة الثالثة، وكان يرأس هذه الإدارة أحد أعضاء الأسرة الملكية أو الوزير. كانت هذه الإدارة تختص بإدارة الأعمال الضخمة، مثل الأهرامات والمعابد والقصور والتماثيل والمراكب والمحاجر والقنوات.

٣ ـ مخزن الغلال المزدوج: ظهرت هذه الإدارة في عصر الأسرة الرابعة، ويرأس هذه الإدارة مدير مخزن الغلال المزدوج. كانت مهمة هذه الإدارة تزويد المعابد الجنائزية للملوك بالتموين.

٤ ـ الخزانة المزدوجة: ظهرت لأول مرة في الأسرة الرابعة ويرأسها مدير. كانت مهمة هذه الإدارة حفظ المعادن النفيسة ومنسوجات الكتان وعدد من المنتجات المصنعة أو غير المصنعة المخصصة للمعابد الجنائزية الملكية ولمقابر الأفراد.

٥ ـ إدارة الوثائق الملكية: يرأسها الوزير. كانت هذه الإدارة ترأس وتشرف وتسجل نشاطات كل الإدارات الأخرى، وترتبط بهذه الإدارة مصالح أخرى تختص بالوثائق والمكتبات.

إدارة الأقاليم: قُسمت مصر إلى منطقتين جغرافيتين: مصر العليا ومصر السفلى. تضمنت مصر العليا ٢٢ إقليماً، في حين اشتملت مصر السفلى على ١٧ إقليماً. وقد كان حكام الأقاليم، من حيث المبدأ، موظفين مثل غيرهم من الموظفين يتم تعيينهم بمعرفة السلطة المركزية. وكان يحدث أحياناً أن يجمع بعضهم بين حكم أكثر من إقليم، وكان الإقليم إما يخضع لسطوة الحكومة أو يحتفظ باستقلاله الذاتي. وكانت سلطات الحكام تشمل الإشراف على استغلال الأراضي وتحصيل الضرائب وحفر وتنظيف قنوات الري، وحفظ النظام والأمن في الإقليم والإشراف على الحصون والمدن.

ثالثاً ـ الحياة الدينية

لعب الدين دوراً كبيراً في حياة الشعب المصري القديم وفي التقدم الذي حققته الحضارة المصرية، فلولا إيمان المصري بحياة ما بعد الموت لما قام ببناء هذه الأهرامات الضخمة وهذه المعابد الرائعة التي استغرق بناء بعضها عشرات السنين، إلى جانب المقابر المنحوتة في الصخر التي امتد عمق بعضها إلى أكثر من مئة متر في باطن الأرض.

الآلهة: يمكن تقسيم الآلهة إلى آلهة كونية وآلهة محلية.

انتشرت عبادة الآلهة الكونية في كافة أرجاء مصر، كالإله رع إله الشمس والإله أوزيريس... مثلت الآلهة العامة في صورة إنسانية وحيوانية، فإله الشمس مثل في صورة إنسان برأس صقر وإلهة السماء ظهرت في هيئة بقرة. ويبدو أن هذه الآلهة وغيرها من الآلهة التي تمثل قوى الطبيعة قد عبدت في بادئ الأمر من دون أن يكون لها معابد يلجأ

الناس إليها... أي ظل الكون مقرّاً لها، ثم اتخذ المصريون معابد لعبادة الآلهة المحلية، وقد اقتصرت عبادتها على المناطق التي ظهرت فيها واتخذت رموزاً لها من حيوانات وطيور وزواحف.

وكان ملك مصر الممثل الأرضي لإله الشمس، فهو ابنه وتجسده الفعلي. وكان الإله الصقر القديم حورس، وهو صورة من إله الشمس، هو المعبود الراعي للسلطة الملكية، وكان يشار إلى الملك كأنه حورس، وكان الملك نفسه من الآلهة وكان يسمى بالإله الطيب خلال حياته، ويصبح الإله العظيم بعد موته. وحين يولد الملك كان يظن أن إله الشمس يظهر لأمه في صورة زوج لها، وعلى ذلك فإن الطفل الذي تحمل به كان كله إلهيّاً. وفي عصر الدولة الوسطى والحديثة أصبح إله طيبة آمون له مركز الصدارة بين الآلهة خاصة بعد أن قرنه الكهنة بإله الشمس القديم، ومن هنا عرف باسم آمون ـ رع.



تمثال رمسيس الثاني محفوظ في متحف ممفيس الخاص

وقد عبد المصري القديم الكائنات الحية، كالتماسيح والثعابين والعقارب والنسور، كما عبد قوى الطبيعة كالشمس والقمر. وتشير ظواهر الأمور إلى أن المصري القديم لم يعبد هذه الموجودات لذاتها، وإنما على اعتبار أن القوى الخفية التي يدركها متمثلة فيها، وبكلمة أخرى فإن الموجودات التي عبدها المصري القديم هي بمثابة رموز أرضية لهذه القوى الخفية التي لا تعيش معه على الأرض، والدليل على أن المصري لم يعبد هذه الموجودات لذاتها أنه كان يذبح البقرة ويقتل التمساح والثعبان وكلها تمثل رموزاً لمعبودات عبدها على مر العصور.

وصنع المصريون تماثيل من الصلصال أو الخشب أو الحجر أو المعدن للآلهة. وتعتبر آلهة المدن أقدم المعبودات في مصر، وكانت لها أعياد خاصة. وقد عبد المصري القديم على الأقل إلهين: الأول هو إله مدينته والآخر إله الدولة الرسمي. ولما كان مركز الآلهة مرتبطاً بالتطور السياسي، فقد أصبحت بعض آلهة المدن آلهة للأقاليم أو آلهة للدولة المصرية، كما حدث للإله آمون الذي كان إلهاً لطيبة.

ربط المصريون بين بعض المعبودات المتجاورة ليكوِّنوا منها أسراً إلهية، فمنها ما كان يؤلف ثالوثاً من الأب والأم والابن، كثالوث منف المكون من الإله بتاح والإلهة سخمت وابنهما نفرتوم، وثالوث طيبة المكون من الإله آمون وزوجته موت وابنهما خونسو.

وقد مثل المصريون أكثر آلهتهم بجسم إنسان ورأس حيوان، وفي بعض الأحيان بهيئة

إنسان كامل، وقد يحمل على رأسه أو في يده ما يدل على أصله. أما الإله رع (الشمس) فقد صوره المصريون في صور شتى، فتارة على شكل إله تحيط به بعض الآلهة وهو يعبر السماء بسفينته، وأخرى في صورة جعل (الخنفسة) ذي جناحين أو إنسان برأس صقر، أو صقر يعلو رأسه قرص الشمس. كما عرف المصريون تأليه البشر، فقد أُلِّه الوزير والمهندس إيمحوتب (عصر الأسرة الثالثة) وأصبح إلهاً للطب، يضاف إلى ذلك تأليه عدد من الملوك أمثال أمنحوتب الأول ورعمسيس الثاني.

وقد حاول الملك أمنحوتب الرابع (أخناتون) ـ الأسرة الثامنة عشرة ـ فرض ديانة جديدة تقوم على مفهوم توحيدي حقيقي مع إنهاء دور كل الآلهة الأخرى وعقائدها المقدسة.

دعت الديانة الجديدة إلى عبادة آتون باعتباره جوهر سمائي في شكل قرص الشمس تخرج منه الأشعة منتهية بأيدي بشرية، تحمل كل يد منها العلامة الهيروغليفية (عنخ) بمعنى الحياة. وقد وقف كهنة الإله آمون ضد الديانة الجديدة، فقام أخناتون باضطهاد كهنة آمون ومنع عبادة آمون وبقية الآلهة وأزال معابدها، في حين أقيمت الهياكل المقدسة لآتون في مختلف مدن مصر، وبذلك أضحى آتون الإله الأوحد وليس مجرد إله متفرد بين الآلهة.

وقد انتقل أخناتون إلى عاصمة جديدة هي آخت آتون (تل العمارنة)، وبنى في عاصمته معبداً كبيراً للإله آتون وشيد مذبحاً للقرابين في الهواء الطلق، وقد اعتنق أتباع الملك الديانة الجديدة، أما العامة والطبقات الدنيا من الشعب فإن السمو الفكري لمبادئ الديانة الجديدة عزلتهم عنها وزادتهم التصاقاً بمعتقداتهم القديمة.

وكانت وفاة أخناتون ـ بعد حكم استمر سبعة عشر عاماً ـ بمثابة بداية النهاية للديانة الجديدة، وتحول خليفته الملك توت عنخ آتون إلى الديانة القديمة وغيَّر اسمه إلى توت عنخ آمون ونقل العاصمة إلى مدينة طيبة من جديد.

نظريات خلق العالم عند المصري القديم

تعددت نظريات خلق الكون عند المصريين القدماء، وقد اختلفت التصورات باختلاف البيئات التي ظهرت فيها، فكان كل مجموعة من كهنة إلهٍ معين يدعون أن إلههم هو أصل الوجود وخالق الكون والحياة، ولهذا خلَّف لنا المصريون القدماء عدة نظريات عن نشوء الحياة. من أهم هذه النظريات:

١ ـ **نظرية عين شمس:** وتعتبر من أقدم النظريات المصرية. يرى أصحاب هذه النظرية أن العالم كان في الأصل محيطاً أزليّاً سموه (نون)، ومن نون برز إله الشمس رع ـ آتوم فوق ربوة، وكانت هذه الربوة في منطقة عين شمس (حي المطرية بالقاهرة حاليّاً). برز الإله على الربوة ووقف على حجر ذي شكل هرمي، وهو الذي أصبح رمزاً مقدساً لإله الشمس، واستوحى منه المصريون الشكل الهرمي لمقابرهم في الدولتين القديمة والوسطى، واتخذت قمة المسلة في الدولة الحديثة الشكل الهرمي نفسه تمجيداً للإله رع. بعد بروز الإله رع عطس فخلق الإلهين شو

وتفنوت، وهما يمثلان الهواء والرطوبة، وأنجبا بدورهما الإلهين جب، إله الأرض، ونوت، إلهة السماء، ثم تزوج جب من نوت لينجبا أربعة أبناء هم: أوزيريس وإيزيس، وست ونفتيس.

٢ - **نظرية منف**: يرى أصحاب هذه النظرية أن خلق الكون يرجع إلى قدرة مفكرة حكيمة تمثلت في الإله بتاح الذي خلق نفسه بنفسه وأنه صاحب الإبداع في الكون ومخلوقاته، وأن سبيله إلى الخلق كان القلب واللسان أو العقل والكلمة، أي فكرة تدبَّرها في عقله ونطق بها على لسانه، وكانت بمثابة أمر لخلق الكون. وتختلف هذه النظرية عن النظريات الأخرى، في أنه لم يتجه إلى التجسيد والمادية وإنما اتجه إلى الفكر والغيبيات.

ومثَّل المصريون الروح على هيئة كائن بجسم طائر ورأس إنسان، ورأوا أن القرين (كا) صورة لصاحبه يولد معه ويموت معه، ويحمل فوق رأسه علامة تمثل ذراعين ويلازمه بعد الموت.

البعث والخلود: اعتقد المصريون بالحياة بعد الموت، وأن الإنسان سيُبعث من جديد، وقد تصور المصري المقبرة على أنها مدخل للمنطقة التي يسكنها الموتى في أسفل الأرض والتي تضيئها الشمس ليلاً.

وكان المتوفى يمثل أمام محكمة إلهية في العالم الآخر برئاسة الإله أوزيريس، وكانت هيئة المحكمة تتخذ لها ميزاناً لوزن القلب في كفة في مقابل رمز العدالة ماعت، فإن رجحت كفة القلب فهذا يعني أن صاحب القلب شرير، فيسلم إلى كائن مفترس يسمى عمعم، فيقطع جسده إرباً إرباً ويأكل قلبه، وبذلك يفقد الميت الأمل نهائيّاً في حياة جديدة في العالم الآخر. أما إذا رجحت كفة العدالة فإن هذا يعني أن المتوفى كان رجلاً طيباً صالحاً في حياته، وبهذا ينتقل إلى جنة مليئة بالفاكهة والخضراوات والأنهار ليعيش حياة أبدية خالدة.

رابعاً - الحياة الاجتماعية

١ - **الطبقات الاجتماعية**: انقسم المجتمع المصري إلى عدة طبقات اجتماعية هي:

- **طبقة النبلاء**: وتضم الملك وأفراد عائلته وكبار الموظفين والوزراء وقادة الجيش والشرطة.

- **طبقة الكهنة**: كانت هذه الطبقة مستقلة بأمورها وكانت تتمتع برعاية الملوك وحكام الأقاليم، وازداد نفوذ الكهنة في الدولة الحديثة حتى وصلوا إلى سدة الحكم في الأسرة الحادية والعشرين.

- **طبقة الكتّاب**: حدث في نهاية عصر الأسرة الثانية الكثير من التطوير في الخط الهيروغليفي ما يدل على اهتمام المصريين بالكلمة المسجلة وإدراكهم لتأثيرها على عقول الناس، ومنذ ذلك الوقت أخذ الكاتب المصري يحتل مكانة هامة في المجتمع المصري، حتى أن كبار رجال الدولة حملوا لقب كاتب، وصوروا أنفسهم على جدران مقابرهم على هيئة الكاتب الجالس وفي حجره لوح الكتابة وأمامه أدوات الكتابة. فمثلاً صُوِّر الوزير حسي رع (وزير الملك زوسر في عصر الأسرة الثالثة) وهو يحمل أدوات الكتابة مع لقب كبير كتّاب الملك.

- **طبقة الفلاحين**: كانت طبقة الفلاحين تشمل غالبية السكان في كل العصور

الفرعونية، وكان حظها من الحياة تافهاً خلال عصر الدولة الحديثة، ترى الأرض كلها ـ باستثناء أملاك المعابد ـ ملكاً للملك من الناحية النظرية وهي تؤجر إلى ملاك مختلفين أو تستبقى لاستغلالها.

وكان الفلاحون يدينون بالولاء للموظف الذي يرأسهم، وكانوا مسؤولين عن زراعة الأرض التي كان يسمح لهم بالعيش عليها والاستفادة من جزء من إنتاجها وكان هذا هو أجرهم، ذلك لأن الأجور في كل الحرف كانت تُدفع عيناً، لأن العملة المعدنية لم تكن قد عرفت بعد.

- **طبقة العمال**: لقد وصلتنا مجموعة مستندات قانونية وسجلات مكتوبة على البردي أو شظايا الحجر الجيري، منها نستطيع أن نعرف أن الدولة كانت تستخدم العمال وأن أجورهم لم تكن سوى تعيينات يأمر بصرفها الفرعون بواسطة الوزير، وتشمل حبوباً وأسماكاً وخضراً وزيتاً وأقمشة، وحين بدأت الإدارة تضعف نرى هذه الإمدادات تنضب ما دعا العمال إلى الإضراب، كما حدث في عهد رعمسيس الثالث.

وكانت أشق صور العمل التي شغلت بها طبقات العمال هي بناء الأهرامات والمعابد الضخمة ونحت المسلات وجرها من محاجر أسوان إلى طيبة، ونحت المقابر الصخرية وزخرفتها في وادي الملوك، وخاصة مقبرة ستي الأول ـ الأسرة التاسعة عشرة ـ، فهذه المقبرة تمتد ٢٣٠ قدماً في الصخر الصلب عن طريق ممرات وسراديب تغطي جدرانها النقوش الملونة والكتابات.

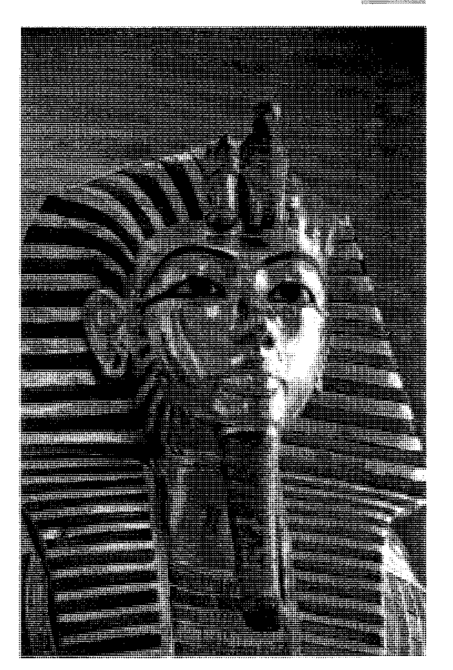
- **طبقة الخدم**: كانت مهمتها العمل في بيوت ومزارع طبقة النبلاء، وكانت غالبيتهم من أسرى الحروب ومن النوبيين.

٢ ـ الأسرة: يقول الحكيم المصري بتاح ـ حوتب (الدولة القديمة) لابنه: إذا كنتَ عاقلاً فأسِّسْ لنفسك بيتاً.

كان العرف السائد في مصر أن يتزوج الشاب من نفس قريته، ولم يكن الأهل يحبذون الزواج من الغرباء، ويبدو أن العرف كان يسمح بالزواج من أقرب الأقارب، إذ كان الزواج بين أبناء العمومة وبين أولاد الخؤولة معروفاً، ولكن الذي قد يُعَدُّ شاذّاً، وإن لم يُستنكر آنذاك، هو زواج الفتاة من عمها أو خالها. أما زواج الإخوة فكان معروفاً في الأسر المالكة ولم ينتشر بين أفراد الشعب. وتعدد الزوجات كان شائعاً في الأسرة المالكة منذ أقدم العصور، كما كان معروفاً بين الأشراف والأغنياء وبين عامة الشعب أحياناً، وقد ذكر ديودورس الصقلي أن رجال الدين فقط هم الذين ساروا على نظام الزوجة الواحدة، أما بقية الشعب فكان يمارس تعدد الزوجات.

ومما وصلنا من وثائق، يبدو أن المصري القديم كان في أول الأمر لا يميل إلى التعدد ولكنه مع مرور الزمن أصبح يتخذ أكثر من زوجة واحدة؛ ففي عصر الدولة الوسطى تزوج (آخي حتب) من خمس نساء إلى جانب عدد كبير من المحظيات، وقد صورت الزوجات كلهن وكذلك بعض المحظيات وقد جلسن في خشوع أمام آخي حتب على جدران مقبرته.

اختلف الباحثون حول طريقة عقد الزواج في مصر قبل عصر الأسرة الثانية والعشرين،


قناع توت عنخ آمون محفوظ في متحف القاهرة

وذلك لعدم العثور على عقود من هذا العصر أو مصادر أخرى تصف كيفية عقد الزواج. وبدأت تظهر عقود في عصر الأسرة الثانية والعشرين مكتوبة على أوراق البردي، وقد عُقد العقد بين طرفين؛ الطرف الأول الزوج والطرف الثاني والد العروس، ويُحدد في العقد المهر فضة وحنطة وتعهد الزوج بأن يدفع لزوجته المهر المسمى في العقد إذا ما طلقها بغير خطيئة منها، أو عند الزواج بأخرى.

وكان الطلاق في مصر القديمة هو حل رباط الزوجية بحيث يبتعد كل من الزوجين عن الآخر حرّاً في ممارسة حياته، وبحيث يستأنف حياة زوجية أخرى، مع من يختار لنفسه إذا شاء. وكان الطلاق يقع بعبارة صريحة تفيد ذلك من الزوج لزوجته، وهذا المضمون لا يختلف عن مضمون الطلاق في الشريعة الإسلامية.

وقد عبَّر المصري القديم عن الطلاق باصطلاح أو عبارة صريحة استعملت طوال التاريخ الفرعوني وترجمتها هجر الزوجة.

كان الطلاق يتم بإرادة الزوج، وكان الزوج ـ أحياناً ـ يعطي زوجته حق تطليق نفسها منه، وهو ما يعرف في الشريعة الإسلامة بالتفويض. كان يتم ذلك في مصر القديمة بأن تُحرَّر وثيقة بعد عقد الزواج يثبت فيها أنها تزوجت وأن لها الحق في أن تهجر زوجها، أي تطلق منه، وعلى الزوجة في هذه الحالة أن ترد له نصف قيمة المهر وتتنازل عن حقها في أملاك الزوج. ومنذ عصر الأسرة الثلاثين ثبت حق تفويض الزوجة في تطليق نفسها ـ إذا أُعطيت هذا الحق ـ في نفس عقد الزواج في فقرة خاصة جاء فيها على لسان الزوج: «إذا هجرتني وتركتني زوجاً، فعليك أن تردي إليَّ نصف المهر الذي أعطيتك إياه والمسمى أعلاه». وعند حدوث الطلاق كان الرجل يسلم طليقته وثيقة طلاق مكتوبة. إن أقدم وثائق الطلاق التي وصلتنا إنما ترجع إلى عصر الملك أحمس الثاني ـ الأسرة السادسة والعشرين ـ جاء في هذه الوثيقة: «قال فلان للمرأة فلانة: لقد هجرتك بصفتك زوجة... اتخذي لنفسك زوجاً آخر... ولن يكون لي الحق في أن أقول إنك زوجتي إذا وجدتك مع أي رجل آخر، فمنذ الآن ليست لي أي مطالب عندك بصفتك زوجة، ولن أتخذ أي إجراء ضدك».

ومما تجدر ملاحظته أن عدد الموقعين من الشهود على وثيقة الطلاق كانوا أربعة فقط، على خلاف عقود الزواج التي يوقع

عليها ستة عشر شاهداً، وعلى ذلك يظهر أن إعلان الزواج كان مستحباً بعكس الطلاق.

٣ ـ **التعليم**: ورد في تعاليم الكاتب آني ـ الأسرة التاسعة عشرة ـ : «أمك كانت توصلك إلى المدرسة عندما بلغت سن تمييز الحروف، ثم تنتظرك في البيت وقد أعدت لك الخبز والجعة». والمدرسة، في هذه الفقرة، لا تعني أكثر من الكتَّاب، لا المدرسة بمعناها الحقيقي. وهو بهذا الشكل معروف منذ عصر الأسرة العاشرة، لكن الدراسة الجادة لم تكن تبدأ في سن مبكرة، والمنوعات تشير إلى أن سن الطلبة كان يتراوح بين ١٣ ـ ١٩ سنة عند بدء التدريب الجاد «أحضر لفافة البردي التي تخصك كل يوم وحافظ عليها، ولا تكن كسولاً، اكتب بيديك، سمِّع بفمك، اقبل النصيحة، لا تتململ، لا تضيِّع يومك في الكسل وإلا ترهل جسمك. تعمق في أساليب مدربك، وأطع تعاليمه، كن كاتباً».

كان التعليم في مصر القديمة في الأساس مهنياً، يتخذ شكل التدريب لإتقان حرفة أو صنعة أو تجارة، وغالباً ما كان يتتلمذ على يد معلم يتميز بالمهارة. وتظهر النصوص المتوفرة والنقوش أن نظام التبني المهني كان غالباً أسرياً، بحيث يرث الولد عمل أبيه من بعده، وفي ذلك حفظ لأسرار الحِرَف، وهذا النظام يحقق ولا شك استمرارية الحرف والصناعات، ولكنه لا ينطوي على تنمية أية مهارات فكرية أو إبداعية، والنوع الوحيد الذي كان التدريب فيه يصاحبه شيء من التثقيف والتعليم بأسلوب مدرسي كان مدارس الكتبة (الكتاتيب).

توجد مواضيع إنشائية مدرسية قديمة وضعت في مجموعة أُطلق عليها اسم المنوعات، وهي مجموعة من المواضيع المتفرقة ليست ملتزمة بموضوع معين.

استخدم المعلمون المنوعات كتمرينات لتدريب الطلاب على الكتابة، ولعل القطاعات الرسمية في الدولة كانت لها مدارسها الخاصة التي تدرِّب فيها من تتوسم فيهم النجابة على الأعمال التي سوف تناط بهم. ويبدو أن المعابد الكبرى أيضاً كانت لها مدارسها، بل إن التدريب في مدارس المعابد كان يبدو أكثر تشعباً لتعدد أغراضه: عقائد، خدمة كهنوتية، حسابات... إلخ. وكانت عملية محاسبة موارد ومصروفات المعابد صعبة جداً لأن ممتلكات المعابد الكبرى كانت ممتدة بطول البلاد، من الدلتا حتى أسوان.

لقد كُتبت هذه المنوعات على ورق البردي الفاخر، وهي خامة لم تكن متوفرة في الظروف العادية، لذلك لم تكن متاحة للكتبة المبتدئين الذين كانوا يسجلون تمريناتهم على الحجر الجيري أو قطع الفخار (الاستراكا)، وفي أحسن الأحوال كانوا يكتبون على قصاصات صغيرة من البردي العادي. كان المبتدئون يتدربون على نماذج من النصوص الأدبية الكلاسيكية، مثل قصة سنوحي وتعاليم الملك أمنمحات الأول، وكان الحفظ والاستظهار هو صلب التعليم الرسمي مصحوباً بالتسميع الجماعي، أما التدوين فكان عبارة عن إملاء يمليها على التلاميذ أحد المعلمين.

وكان من الشائع استخدام ألواح للكتابة من حجر الإردواز للتدريب، فكان التلاميذ

يكتبــون على الألواح ما يُملى عليهم ثم يعيدون نسخه على هــذه الألــواح، وكان يصل حجمها أحيانــاً إلى ٣٨ × ٣٥ سم. وهناك ألواح صُنعت من خشب الجميــز وطُليت بطبقة من الجص، وانتشــرت في مدينــة طيبة (الأقصــر) ألواح مصنوعة من الحجر الجيري. أما القلم فكان عبارة عن قصبة رفيعــة يتحول طرفها إلى ما يشبه الفرشاة عن طريق الضغط (التنسيل)، مثل أعواد السواك فــي عصرنا الحالي. وكان الحبر الذي يستعمله الكتاب من لونين الأسود والأحمر. وكان الأسود يصنع من السناج، وهو الحبــر الــذي يستعمل فــي الكتابة، أمــا اللون الأحمر فيكتب بــه فقرات خاصة مثل العناوين أو الكلمات الأولى في الفصول أو أسماء الآلهة الهامــة. وكانــت عــدة الكاتب لوحتــه وأقلامه ومحبرة صغيرة من المــاء يخلط فيها الحبر. وكانت اللوحة تصنع عادة من الخشب أو العاج لها شكل مستطيل في أحد طرفيه ثقبان لحفظ الحبر، ويوجد أسفل اللوح تجويف طويل توضع فيه الأقلام، ويحفر على اللوح اسم صاحبه.

وكان النظــام فــي المدرســة المصريــة القديمــة صارمــاً، فيقــول أحــد المعلميــن لتلاميذه: «اكتب بيدك وأقــرأ بفمك، لا تتراخ ولا تقضِ يومك في تكاسل وإلا خربت».

كان فــي مصر مراحــل تعليميــة متتابعة ومدارس مختلفة:

١ ـ مرحلــة تعليم أوليــة، كان التلميذ يتلقاها في مدرسة ملحقة بالمعبد.
٢ ـ مرحلــة جماعيــة متقدمــة فــي مــدارس نظامية.
٣ ـ مرحلة تطبيقية كان التلاميذ يحضرونها في مكاتب الإدارات الحكومية المختلفة.
٤ ـ مدارس خاصة ملحقة بقصــور الفراعنة يــدرس فيهــا الأمــراء وأبناء كبــار رجال البلاط.
٥ ـ معاهد عليا تسمى دور الحياة.
٦ ـ مدارس دينية متخصصة للمعابد الكبرى مثل معبد أونو (عين شمس).

ظلــت مراكــز المعابد الكبــرى مهبط أهل الفكــر والمتطلعيــن إلــى التعرف علــى أسرار الحضارة المصرية، وقد وفد إلى هذه المراكز العلمية الكثيــر من علماء الإغريــق ونهلوا من علوم هــذه المراكز، مثل طاليــس وفيثاغورس وأفلاطون.

كما عرفــت مصــر القديمــة دور الكتب والمخطوطات، وكانت أغلب المعابد الكبرى لها دار كتــب أشبه بأرشيــف للمخطوطات. واحتفظت نصوص معبد الطود بقائمة فيها أسمــاء ستــة وثلاثيــن كتابــاً، تنوعــت هذه الكتب فــي مواضيــع شتى وإن غلبــت عليها المواضيــع الدينية والسحريــة. كان البردي ينمو فــي مستنقعــات الدلتا بكثــرة في أيام الفراعنــة، وكان المصريــون ينزعــون عــن ساق النبــات قشرته الخارجية ثم يُقطع إلى شرائــح أخــرى فــوق الشرائــح السابقة في شــكل عمــودي، ثــم تلصــق الطبقتــان معاً وتضغطان حتــى تجفا. ويمكن لصق القطعة المصنوعــة بهــذا الشــكل بقطعــة أخــرى بواسطة الصمغ، وهكذا يمكن الحصول على ملف بالطول المطلوب.

خامساً ـ الحياة الاقتصادية

١ ـ الزراعــة: تدلنــا المناظــر المصورة على جــدران المقابــر، منذ الدولــة القديمة

وحتى الدولة الحديثة، أن النشاط الزراعي من الموضوعات المحببة في الزخرفة. وكانت الموضوعات المستخدمة هي إنتاج المحاصيل الرئيسية من حبوب وكتان. الأولى يصنع منها الخبز والجعة والثانية يصنع منها اللباس. وهناك الكثير من المناظر التي تظهر الفلاحين وهم يعملون في الحقول.

كانت مشكلة الزراعة الرئيسية هي الري، وذلك لأن سقوط الأمطار أمر نادر جدّاً في مصر العليا، ولا تفي بالأغراض الزراعية في مصر السفلى، ولولا النيل لتحولت مصر إلى صحراء قاحلة، فكل عام يرتفع منسوب نهر النيل في شهر حزيران ويفيض في شهر تشرين الثاني ويخلف على الأرض المحيطة طبقة من الطمي الخصب. وللاستفادة من الفيضان بقدر المستطاع كانت الحاجة تتطلب تنظيم طريقة محكمة للري يوزع بها الماء على الحقول أو يرفع من مستوى إلى آخر، فإن لم يرتفع النهر إلى المستوى اللازم فإن البلاد تواجه كارثة وتتفشى المجاعة. وحسن إدارة الأراضي يعتبر إحدى منجزات المصريين القدماء العظيمة، وتوجد شواهد نستدل منها على وجود كوادر إدارية في مصر مخصصة لأعمال صيانة شاطئ نهر النيل والقنوات والسواقي، والإشراف المنظم على قسمة الأراضي.

كانت الدورة الزراعية في مصر تنقسم إلى ثلاثة مواسم كل منها أربعة أشهر: موسم الفيضان (آخت) وفيه تكون الأرض مغمورة بالماء والنشاط الزراعي معطل، ثم يأتي موسم الزراعة (برت) ويتم فيه بذر الحبوب، وأخيراً موسم الحصاد (شمو). في موسم الحصاد، تُجمع الحبوب في سلال كبيرة وتنقل إلى أرض البيدر، ثم تطأ الثيران الحبوب ثم تذرى. وتتم عملية التذرية بقذف الحبوب في الهواء بواسطة مذراة خشبية ثم تكوَّم الحبوب وتُكال وتُحمل الحبوب بعد ذلك إلى الشونة، وهو بناء مخروطي مبني من اللبن تفرغ فيه الحبوب من ناحية الفوهة، وكانوا يصعدون إليها عن طريق درج. وحين يراد أخذ كمية منه كانت تسحب من باب عند القاع. وفي فترة نمو الزرع ينصرف الفلاحون إلى صيد السمك والطيور والحيوانات، كما كانوا يُستدعون للعمل كسخرة في مشاريع البناء الحكومية.

٢ ـ **الصناعة**: أظهر المصريون براعة واضحة في التزجيج، فقد اكتشفوا قبل الأسرة الأولى طريقة تزجيج الأحجار، ثم نجحوا في التقدُّم بهذه العملية حتى أصبحت لهم شهرة خاصة في تزجيج المركبات التي نعرفها تحت اسم القاشاني، والمكونة من مادة رملية صوانية تربط جزيئاتها مادة صمغية من نوع ما وتغطى بطبقة زجاجية لامعة ملونة. وأجمل ألوان التزجيج التي وصلتنا هي الأزرق والأخضر، كما هي الحال في هرم زوسر حيث توجد غرفة غُطيت جدرانها بألواح القاشاني الأزرق، وعثر في تل العمارنة على صور فاكهة وزهور وجعالين مصنوعة من حجر السيتاتيت، وتماثيل صغيرة تسمى الأوشابتي (تعني المجيب، أي ذلك الذي يستجيب لدعوة الميت).

وجد العلماء ثلاث طرق مسجلة في الدولة القديمة لغزل الخيوط: المغزل يُمسك ويُدار

باليد، أو يلف على الفخذ، أو يعلق كي يدور حرّاً. وفي الأسرة الثامنة عشرة استخدم مغزل معدَّل بحيث أصبح من الممكن تعليق مغزلٍ أو أكثر، وينسب إلى نفس الفترة التقدم الكبير في صناعة النسيج، فحتى الدولة الوسطى كان يستخدم نول أرضي أفقي، وفي الأسرة الثامنة عشرة استبدل به النول الرأسي، ولا يوجد ما يدل على استخدام المشط قبل العصر الروماني. وكان نسيج الأقمشة المصرية سادة في الغالب حتى الدولة الوسطى عندما بدأ استخدام أنواع من تقنيات الوبر والعقدة، وفي عصر الدولة الوسطى بدأ إدخال أنماط معقدة من الأنسجة التي استقدمت من سوريا غالباً، ومنها نسيج الدثار والقماش المزركش، وظهرت أقمشة موشاة أو مطرزة. استخدمت ألياف النخيل والحلفا وغيرها من الأعشاب والشجيرات والكتان والبوص في صناعة السلال، كما استخدم البوص في صناعة الحصر، واستخدم البردي في صناعة الحبال وشباك صيد السمك. وكان الحصير ينسج على نول أفقي أرضي، أو عن طريق وصل الألياف بشريط لف أو خيوط مجدولة، وكانت الحقائب تصنع من المواد المجدولة أو المبرومة. وكل السلال المصرية كانت تُصنع بأسلوب اللف، حيث تستخدم حزمة من الألياف مثل حبل غير ملفوف، تلف فوق بعضها حلزونيّاً وتدمج وتُخاط مع بعضها بدوبارة خياطة.

كانت للبردي استخدامات كثيرة مثل القوارب الخفيفة والصنادل والحبال الغليظة وبعض قطع الأثاث، كالكراسي والحوامل تصنع من قشرته الخارجية، ولكن قيمته الحقيقية كانت تكمن في استعماله كورق للكتابة. ومنذ الأسرة الأولى صنعت أفرخ رقيقة بيضاء اللون بوضع شرائط من اللب الداخلي بعضها بجوار بعض، ثم يوضع غيرها بالتقاطع، وتطرق معاً وتقوم العصارة الطبيعية مقام المادة اللاصقة. وكانت هذه الأفرخ متعددة الأحجام ولكن نادراً ما كانت أكبر من ١٧ بوصة، وتلصق مع بعضها في لفات بلغ أطول ما عرف منها ٤٥ ياردة. أما صناعة الجلود، فقد نشأت في وقت مبكر، وكانت أبسط طرق إعداد فراء وجلود الحيوانات هي التجفيف والتدخين والتمليح أو معالجتها بتراب المغرة أو تطريتها بالدهون وأمخاخ الحيوانات أو فضلاتها. واستعمل المصريون مواد مختلفة في الدباغة، منها الزيوت والأملاح والشبة وقرون السنط، كما استعملوا الصبغات النباتية والخضاب لتلوين الجلود وبخاصة الألوان الأحمر والأخضر والأصفر. جاءت أفضل المنتجات الجلدية من الدولة الحديثة، ومنها ما كان مزخرفاً أو محزقاً أو مؤبلكاً (الزخرفة بخياطة الرسوم أو إلصاقها) أو مجدولاً، كما كانت منها المآزر الشبكية المصنوعة من قطعة واحدة من الجلد، وبها صفوف من الثقوب تتقاطع مع بعضها.

وبلغت مهارة المصريين حدّاً فائقاً في قطع الأحجار شبه الكريمة سواء كانت قطعاً منفصلة أم بقصد استخدامها في التطعيم. وكان أكثر الأحجار استعمالاً هي العقيق واليشب والزمرد واللازورد والفيروز، فصنعوا منها العقود والتيجان، ومن أهم القطع الفنية تابوت الملك توت عنخ آمون المصنوع من

الذهب في سمك يتراوح ما بين ٢،٥ ـ ٣،٥ ملم، وقد صُنع بحيث يمثل الملك في صورة أوزيريس وعلى رأسه غطاء الرأس الملكي من القماش المخطط الذي يبرز منه رمز الملك: العقاب والصل، وفي يديه المعقودتين على صدره يمسك بعصا الراعي والسوط رمز السلطان الملكي. ونقش في الجزء السفلي من التابوت الإلهتان إيزيس ونفتيس مجنحتين. ولعل أعجب ما فيه هو الزخرفة المضافة إلى الميناء ذات الفواصل، وهي تمثل الإلهتين نخبت وأتو في هيئة عقابين يلفان الملك بأجنحتهما المنشورة، وهما مطعمتان بالحجارة شبه الكريمة. والتابوت قطعة من الفن الرائع الذي يمثل دقة الصناعة عند الصائغ وصانع الحلي.

ولسوء الحظ، فإن المناطق الصناعية في مصر القديمة، التي شملتها الكشوف الأثرية الحديثة، قليلة لا تدلنا على التنظيم الداخلي للورش، ففي معظم الحالات طُمست آثار الأنشطة الصناعية بين التخريب والهدم والبناء فوقها، ووجدت آثار لورش في تل العمارنة قدَّمت لنا معلومات إلى جانب صور ونقوش المقابر عن بعض الصناعات. وقد كان صَهْر النحاس واستخراج الذهب من مناجمه بأسلوب السحق والتنقية من الشوائب عمليتين تتمان في مناطق تنجيمهما، ولم يكن أسلوب استخراج الفيروز ومعالجته يختلف كثيراً عن تنجيم الذهب، وكان يقوم بمهمة التعدين في المناجم جحافل العمال الذين يشرف عليهم ضباط حملات التعدين بأسلوب شبه حربي.

كانت حرفة النجارة، أو صناعة الأثاث، متطورة، واستخدم فيها التطعيم والتكسية والنقوش الزخرفية بالحفر، وكذلك استخدموا القشرة الزخرفية والطعوم الصدفية في إنتاج قطع جميلة من الأثاث والصناديق والعلب. وبسبب عدم توافر أشجار الصنوبر والسنديان في مصر ظهر نوع عجيب من ترقيع أخشاب الأشجار المحلية، مثل الأكاسيا (شجر السنط) والجميز والطرفاء التي لا تعطي ألواحاً غليظة (مورينة) أو ألواحاً ذات أحجام مناسبة، حيث كانت القطع الخشبية الصغيرة غير المنتظمة توصل مع بعضها عن طريق أوتاد أو كلابات أو أسافين، أو باستعمال أربطة من الجلد أو وصلة اللسان والثلم والعاشق والمعشوق.

وكانت الوصلات توتد ثم تربط، أما الشقوق والفلوج فتعالج باستعمال الأسافين أو الرقع، وكانت الأسطح غير المستوية تشطب بالجبس المغرى ثم تطلى، وأحياناً كانت القشرة الخشبية والتطعيم والحشو والتبطين والتطعيم بخشب الأبنوس والعاج تستخدم لإخفاء عيوب الخشب أو الزخرفة، ولم تستعمل المسامير أو الدبابيس في النجارة حتى الأسرة الثامنة عشرة، كما لم تصنع مفاصل معدنية قبل هذا العصر. وكانت أدوات النجار المصري بسيطة مثل القدوم والبلطة والمثقاب القوسي ونوعين من الأزاميل والمطارق، ومحكات من الحجر الرملي والمناشير. وكانت الأنصال القاطعة تصنع من النحاس ثم من البرونز، وعُرفت المثاقب الأنبوبية المصنوعة من النحاس منذ الأسرة الأولى ولكنها استخدمت للمواد الأقل صلابة مثل الألابستر، ثم استُخدم في تفريغ الأواني مثقاب ثقيل الوزن له عدة رؤوس قاطعة.

وقد وجد في مقبرة توت عنخ آمون الكثير من القطع التي تدل على علو كعب النجارين في حرفتهم، ونخص بالذكر صندوقاً خشبيّاً مزخرفاً بقشرة من قطع متبادلة من العاج والأبنوس، مطعمة بمستطيلات صغيرة من العاج والأبنوس، وغطيت مسامير الربط بطريقة ذكية بدوائر ذهبية، وقد قدَّر هوارد كارتر ـ مكتشف مقبرة توت عنخ آمون ـ عدد القطع التي زخرف بها الصندوق بحوالي ٣٣ ألف قطعة.

استعملت عجلة الفخار في عصر الأسرة الرابعة، وقد بدأت صناعة الفخار تنحطُّ منذ إدخالها، في حين بدأت صناعة الأواني الحجرية تزداد جمالاً وإتقاناً. وفي عصر الدولة القديمة صُنعت أواني مرمرية جميلة، وأواني فخارية حمراء داكنة في عصر الأسرتين الرابعة والسادسة. صنعت أكواب وأواني حمراء في عصر الأسرة الثامنة عشرة، وزينت بصفوف من أوراق اللوتس الزرقاء، وكذلك القدور التي اتخذت هيئة الحيوان أو رؤوس الإلهة حتحور واستخدمت في الولائم والمناسبات الخاصة بالاحتفالات. وتراجع الفخار في آخر عصر الدولة الحديثة.

كانت أحوال العمال المعيشية صعبة، باستثناء عمال ورش معبد الإله آمون، حيث كانت مكانة الحرفي الماهر تكاد تتساوى مع الموظفين المدنيين الرسميين، وكان يحق للحرفي الحصول على مسكن في أحياء خاصة.

٣ ـ **التجارة**: لم يعرف المصريون العملة طوال تاريخهم الفرعوني، ولم تسك النقود في مصر قبل الأسرة الثلاثين (٣٨٠ ـ ٣٤٣ ق.م.)، والأكثر من ذلك أن العملات الأجنبية المسكوكة لم يقبل المصريون على استخدامها بل كان يتاجر فيها مثل السبائك لما تحتويه من المعدن.

كان أساس التبادل السلعي في مصر، قبل استعمال النقود، هو المقايضة العينية. كان المصري البسيط في الريف يحصل بطريقة المقايضة على ضروريات حياته اليومية، ومعظم الصفقات الصغيرة كانت تتم بالمساومة المباشرة بين الطرفين، وفي المدن الكبيرة كان البيع والشراء أكثر تعقيداً من جهة وأكثر بساطة من جهة أخرى: فالتعقيد سببه الأساسي شح المعروض أحياناً، أما البساطة فمصدرها أن حركة السوق في المدينة أكثر انتظاماً وضماناً.

وقد ورد ذكر التجار في أحد موضوعات المنوعات «التجار يجرون مع التيار وعكس التيار مشغولين كالنحل حاملين السلع من مدينة إلى أخرى، يبيعون لمن يحتاج».

والعبارة تدل على حرية التجار وتنقلهم بين مصر العليا والسفلى عبر نهر النيل.

التجارة الخارجية كانت من الاحتكارات الملكية، لذلك كانوا يخضعون في الاستيراد لإشراف الخزانة العامة، وفي التوزيع الداخلي لإشراف الوزير والسلطات المحلية والمعابد الكبرى. ويوجد بالمتحف المصري بالقاهرة قائمة لبعض السلع وكمياتها معظمها من اللحوم التي سلمت للتجار وأسماؤهم جميعاً مسجلة، ويحتوي النص أيضاً على الأنصبة وقيمتها بدقة موزعة حسب الفصل والشهر ولم تحدد السنة. كان النقل النهري هو

الأساس في التجارة الداخلية، وتدل الشواهد أن النقل النهري كانت تشرف عليه الدولة التي كانت تؤجر طاقم البحارة لكل مركب، لكن التجار المحليين كان لهم قدر من الحرية والاستقلالية لتحكّمهم في عملية تداول السلع.

ويوجد في مقبرة (قن آمون)، حاكم طيبة وأمين مخازن غلال آمون، مشهد لسوق المرفأ، والمشهد الرئيسي يظهر وصول مراكب التجار من آسيا وتفريغها في ميناء طيبة أثناء حكم أمنحوتب الثالث (١٤٠٣ ـ ١٣٦٥ ق.م)، فنرى كل البضائع قد أفرغت: مواشي، نبيذ، زيت، أوانٍ مصنوعة من المعادن النفيسة، وقد عُرضت هذه البضائع على قن آمون للتفتيش، كما نرى في الصورة ثلاثة من صغار التجار أقاموا لأنفسهم ثلاثة شوادر وتحتها بضائعهم ملقاة على طاولات منخفضة أو مدلاة من عوارض في أسقف الشوادر. كانت البضائع المعروضة متماثلة: صنادل، ثياب، أطعمة متنوعة، أغلبها خبز وكعك. اثنان من الشوادر يديرهما رجلان والثالث تديره امرأة.

كما صوَّر المصريون مناظر على المعابد والمقابر تمثل بعثات التجارة الخارجية إلى بلاد بونت (ربما الصومال) وإلى جزيرة كريت وسوريا وجبيل.

سادساً: الحياة الفكرية والعلمية

١ ـ التقويم: كان المصريون أول مَن توصَّل إلى حساب السنة على أساس ٣٦٥,٢٥ يوماً، كما أنهم أول الذين تخلوا عن التقويم القمري غير العملي ـ استخدم المصري القديم أول الأمر التقويم القمري ـ. لاحظ المصري أن نهر النيل يمنحه ساعة فصلية عملاقة، متمثلة في الفيضان الذي يغمر شاطئه، ثم ينخفض بعد ذلك وينسحب بالتدريج حتى يعود الفيضان التالي ويبدأ دورة جديدة. أخذ الفلاح المصري يتابع الشهور القمرية، انتظاراً لارتفاع النهر ومجيء الفيضان، فيفلح الأرض ويبذر البذور عندما تظهر الأرض مرة أخرى، ويزرع ويروي حقله عندما يهبط مستوى الفيضان بالتدريج خلال عدة شهور قمرية، وأخيراً يحصد محصوله ثم ينتظر مرة أخرى ولعدة شهور يكون فيها الماء منخفضاً، فربط المصري القديم الفيضان بفصل من أربعة شهور وفصل ثانٍ من أربعة شهور لزرع المحاصيل ونموها، ثم فصل ثالث من أربعة شهور للحصاد.

استنبط المصري القديم تقويماً جديداً في عهد الملك زوسر ـ الأسرة الثالثة ـ. جاء هذا التقويم نتيجة لمتابعة حركة نجم الشعرى، أو نجم الكلب الأكبر (سيريوس). فهذا النجم يتغيَّر مكانه في السماء أثناء الليل عندما تدور الأرض حول الشمس فيتغيَّر مكان ظهوره، وفي وقت معين تكون الأرض والشمس والنجم على خط واحد تقريباً، فيبتلع وهج الشمس الضوء الصادر من النجم فلا يمكن رؤية النجم لمدة وجدها المصريون تعادل سبعين يوماً، ثم يظهر هذا النجم مرة أخرى قبل الفجر مباشرة، ولو للحظات قصيرة، في الأفق الشرقي، كظاهرة فلكية تسمى البزوغ الشمسي. وكان هذا البزوغ الشمسي يحدث عادة قرب نهاية فترة انخفاض مياه النهر، وبذلك فإن ظهور نجم الشعرى يبشِّر ببداية فصل الفيضان. اعتبر المصريون سايريوس إلهاً وسمَّوه سوبدت وسمَّوا الفصول:

١ـ آخت (الفيضان).
٢ـ برت (البذر).
٣ـ شمو (الحصاد).

أما أسماء الأشهر فسُمِّيت باسم الأعياد التي تحدث في كل منها. وسُمِّي عيد ظهور سوبدت وب رنبت (فاتح السنة)، وسمي به الشهر الرابع من الفصل الثالث، أي آخر شهر في السنة.

لقد أُعدَّ التقويم بحيث يأتي ظهور النجم في الشهر المسمى باسمه. نتيجة تراكم الخبرة، عرف المصريون أن اثني عشر شهراً قمريّاً تعادل ٣٥٤ يوماً في المتوسط، أي أقل من السنة الشمسية بأحد عشر يوماً، وعندما يظهر سوبدت، خلال الأحد عشر يوماً الأخيرة من شهر وب رنبت، فإن الشهر التالي كان لا يُعتبر الشهر الأول في السنة الجديدة، بل يعتبر شهراً زائداً (كبيساً)، وتصبح السنة الجديدة سنة عظيمة مكوَّنة من ثلاثة عشر شهراً، أي ٣٨٤ يوماً. ولقد كان هذا هو أول تقويم مصري مسجَّل، وهو عبارة عن سنة عادية تتألف من ثلاثة فصول، في كل فصل أربعة شهور، وشهر إضافي كل ثلاث سنوات، ونادراً ما يكون كل سنتين. وهكذا كان التقويم قمريّاً نجميّاً.

مع مرور الزمن شعر المصريون أن هذا التقويم يشكل عائقاً إداريّاً بسبب تفاوت عدد الأشهر من سنة إلى أخرى، فقام المصريون باختراع تقويم جديد، ابتكروا فيه سنة قمرية معدَّلَة، والطريقة الأكثر احتمالاً هي حساب الأيام بين بزوغين للنجم سوبدت على أساس أن هذا النجم كان هو ما اعتمد عليه هذا التقويم، على أن يوضع في الاعتبار السماح ببعض الخطأ في استطلاع النجم وما يمكن أن يصاحب ذلك من صعوبات، وكانت عدة سنوات كافية للوصول إلى الرقم ٣٦٥ واعتباره العدد الصحيح لأيام السنة. وعلى هذا أصبحت السنة التقويمية الجديدة التي يمكن تسميتها بالسنة المدنية تتكون من ثلاثة فصول، كل فصل يتكون من أربعة أشهر، وكل شهر يتكون من ثلاثين يوماً، أما الأيام الخمسة الزائدة فسميت (أيام فوق السنة) واعتُبرت أعياداً للآلهة الكبرى، واعتُبر هذا الإنجاز التقويم الذكي الوحيد الذي وجد في تاريخ البشرية، وقسِّم كل شهر إلى أسابيع، كل أسبوع عشرة أيام، وكل يوم ٢٤ ساعة. وعلى الرغم من أن طول السنة المدنية كان يُحدَّد غالباً عن طريق النجم سوبدت فإننا يجب أن ندرك أنها لم تكن مرتبطة ببزوغه كما كانت السنة القمرية. فبعد أن تمَّ الأخذ بهذا التقويم، وهو ما حدث ما بين عام ٢٩٣٧ ق.م وعام ٢٨٢١ ق.م، كانت السنة المدنية تسير جنباً إلى جنب مع السنة القمرية ولكنها كانت تختص بالأمور الإدارية والاقتصادية بينما استمرت السنة القمرية تحدد تواريخ أنشطة المعابد والاحتفالات الدينية.

٢ـ علم الرياضيات: تعتمد معلوماتنا عن علم الرياضيات المصري بشكل أساسي على وثيقتين من الدولة الوسطى، وهما بردية موسكو وبردية رند، وكلا الوثيقتين عبارة عن كُتَيِّبين للاستعمال اليومي للكاتب المصري، تقدمان أمثلة لكيفية التعامل مع عمليات كان يقابلها الكاتب في مهماته اليومية.

الرياضيات كانت من اختصاص الكاتب المصري، وكان يمارسها لأغراض عملية، مثل حساب مساحات الأراضي وأحجام المباني

وحساب الأجور وقياس الزوايا والارتفاعات والأبعاد. من المؤكد أن التقنية التي أبرزتها الوثيقتان قد عُرفت قبل هذا الوقت بمدة طويلة. النظام الرقمي عند المصريين هو نظام عشري، حيث هناك رمز لكل من الأرقام ١ ـ ١٠ ـ ١٠٠ وهكذا، وعند كتابة رقم ما تتكرر كل علامة بقدر المطلوب فمثلاً الرقم: ٣٢٢٤٣.

ثلاث	أربعون	مائتان	ألفان	ثلاثون ألفاً

وعرف المصريون نوعاً واحداً من الكسور هو الكسر الأحادي، أي الذي يكون البسط فيه ١، وكان هذا يُعرف بكتابة الرمز (‾) فوق الرقم المعتاد، فالنصف ٢‾، والثلث ٣‾، والربع ٤‾، وهكذا. الكسر الوحيد المذكور في الكتابات المصرية، وليس من الكسور الأحادية، هو ٢/٣، ويبدو أن هذا الكسر كان مهمّاً للمصريين في نشاطهم اليومي، مثل النصف أو الربع، أما الكسور الأخرى فكان يعبَّر عنها بتجميع الكسور الأحادية. فمثلاً ٣/٤ تصبح ٤‾ ٢‾ (ربع + نصف) أما ٥/٦ فتصبح ٢‾ ٣‾ (نصف + ثلث).

تتميز الحسابات المصرية بعمليات الجمع والطرح وهما أمر سهل، أما الضرب والقسمة فلم يكونا سوى عملية جمع.

مثال عن عملية الضرب: ١٧ × ١٣

١٧	١	√
٣٤	٢	
٦٨	٤	√
١٣٦	٨	√
٢٢١٠	المجموع	

نلاحظ أن الرقم المضروب تتكرر مضاعفته (جمع الرقم مع نفسه) عدة مرات، ويؤشر على الأرقام المضروب فيها التي تجمع ١٣، وتجمع الأرقام المقابلة.

أما القسمة فكانت تتم بأسلوب مشابه للضرب. فعملية قسمة ٢٢١ على ١٧ تبدو تماماً مثل ١٧ × ١٣، والفرق يكمن في أن الكاتب كان يبدأ بتحديد أي رقم يؤدي ٢٢١، ثم يجمع أعداد المضروب فيه وهي ١٣، وتوصف العملية في الوثائق كالآتي:

(عد ١٧ لكي تحصل على ٢٢١)

وكثيراً ما يكون ناتج القسمة رقماً غير صحيح ـ أي به كسور ـ ولهذا يحتاج الحل إلى تكملة فمثلاً ١٧ ÷ ٨:

٨	١	
١٦	٢ √	
٤	٢‾	نصف
٢	٤‾	ربع
١	٨‾ √	ثمن
٢ ٨‾	الناتج	٢ ١/٨

فالكاتب يضاعف حتى يصل إلى الرقم ١٦، وهو أقل من المطلوب بـ ١، ثم يكرر التنصيف حتى يصل إلى ١.

أما علم الهندسة المصرية، وهي توصف بالهندسة لأنها تختص بقياس الأرض. ويهتم هذا الفرع بتحديد مساحات الأرض والأحجام المكعبة للكتل، واستخدمت فيه معادلات هندسية مثل معادلة مساحة المستطيل ومساحة المثلث ومساحة المعيَّن.

أمـا مساحـة الدائـرة فقـد حُسبـت وفق المعادلة التالية: م = (ط ـ ق)^{٢}.

حيـث م = المساحـة، ق = القطر، ط = ٣,١٦. وهذه الدقة لم يصلوا إليها بالبراهين الرياضيـة، ولكن هي بلا شـك دليل على دقة نظـم القيـاس المصريـة. كما حسبـوا حجم الهرم الناقـص، كما جاء في برديـة موسكو، وفق المعادلة التالية:

ح = ع/٣ (أ + ب^{٢} + أب).

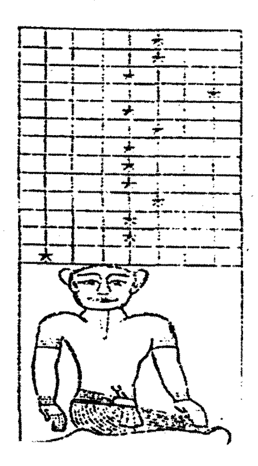
حيـث ح = الحجـم، ع = الارتفـاع، أ، ب ضلعا القاعدة والقمة.

الاستنتاجـات الرياضيـة الصحيحـة لهـذه المعادلـة وحسـاب حجـم الهرم الكامـل، تعني تطبيق حسـاب التفاضـل والتكامـل اللانهائي، وهو مجال متقدم جدّاً عن باقي علم الرياضيات المصريـة. ولكن ليس من المستغـرب أن تكون الخبـرة الطويلة التـي اكتسبهـا المصريون من بناء الأهرام قد مكنتهم مـن الوصول إلى صِيَغٍ تجريبية لقياس حجم الهرم أو أجزاء منه.

لـم تـأتِ وثائـق الرياضيـات المصرية في صورة بحوث أو رسائل، ولكن وصلتنا على هيئة مسائـل معهـا حلولهـا، وهـي تختلـف عـن الرياضيات البابليـة التي بعض أنواعها لا يمكن مقابلتهـا فـي القياسـات العمليـة. كان الهدف منها هو النسق الجبري المتَّبع، فهي تُعتبر نوعاً من الرياضيات البحتة، وإن ما يميز الرياضيات البابليـة التطـور المنتظـم لطرقهـا الجبريـة المعقـدة التي ندركها في أسلـوب حل المسائل. لم يتـم الوصول إلى هذه الطـرق بالتجريب بل بالبرهان الذي لا يتوافر في المصادر المصرية.

لقد كان لعلم الرياضيات المصري أثر مهم علـى الحضـارات التاليـة، فقـد كان استخدام الكسـور الأحاديـة شائعـاً جـدّاً فـي العالـم الإغريقـي واستمر حتى العصـور الوسطى، ولا يمكن أن نشك في الأصل المصري.

٣ ـ الفلـك: ابتـدع المصريون فـي الدولة الحديثة وسيلة لقياس الوقت بواسطة النجوم، وتوجـد أمثلة لها فـي مقابر رعمسيـس الرابع والسابـع والتاسـع، وهـي تتكـون مـن أربعـة وعشرين جدولاً بحيث يكـون هنـاك جدول لكل نصف شهـر. وتظهر لكل جدول صورة لمخلوق جالس، وتوجد فوق هذا المخلوق شبكة مربعات من تسعة خطوط طويلة تتقاطع مع أربعة عشر خطّاً أفقيّـاً، والسبعة خطوط الرأسية الوسطى تقترن، مـن اليسار إلى اليمين، بالكتف الأيسر ثـم الأذن اليسرى ثم العيـن اليسرى ثم القلب فالعيـن اليمنى فالأذن اليمنـى، وأخيراً الكتف الأيمن بالترتيب. وعند بـدء الليل، وعند نهاية كل ساعـة حتى الساعـة الثانية عشـرة، تحدَّد إحـدى النجوم وتوصـف بأنها: مقابـل القلب، على العين اليسرى، أو فـي أي موضع آخر من المواضـع التي سبـق أن ذكرناهـا وتحدد على الجدول في مكانها المناسب.



ومن الواضح أن ما لدينا هنا هو قائمة من المـرورات (Transits)، ولنـا أن نفتـرض أن الخط الأوسـط مقابل القلب يمثل الزوال، وأن الخطوط الأخـرى تمثل خطوط الطـول شرقاً وغربـاً، كما تظهر لشخص جالـس أمام شكل المخلـوق وهو يقابل الجنـوب. وقد يكون شكل المخلوق مثلاً لدميـة مثبتة في بقعة معينة، أو لرجـل آخـر يأخـذ موضعـاً جنـوب الشخص الجالـس الـذي يقـوم بالرصـد، وفـي كلتـا الحالتيـن فإن الوسيلـة ركيكة، فـأي تغير في وضع عين الراصد قد يؤدي إلى فرق كبير في قـراءة الوقـت. ولعـل سبـب استعمـال سبعة خطـوط للطول، بدلاً من خـط زوال واحد، هو العدد المحـدود من النجوم التـي تتبع أبراجاً معينة ويمكن التعرف عليها ويمكن أن تستخدم كأدلة للوقت خـلال السنة، ويبدو أن الساعات كانـت تقـاس فـي الأصـل بواسطـة وسيلـة ميكانيكية ـ الوسيلة الوحيدة التي استعملت في مصر في هذا الوقت هي الساعة المائية ـ.

وكانت المرورات التي تحدد نهاية الساعات تُراقـب ثـم تُحـدد، وإذا لم يمر أحـد النجوم بخط الـزوال في نهاية ساعة، كان يُختار نجم قريب من الزوال وتُحدد مسافته شرقاً أو غرباً على صورة المخلوق، كما سبق أن وصفنا.

إن المصرييـن لـم يؤسسـوا علمـاً فلكيّـاً نظريّاً ولكن نظمهم كانـت تدل على معرفتهم بـأن هنـاك نظامـاً موحـداً لـدوران الأجرام السماوية، والدورة السنوية للظواهر المرتبطة ببزوغ النجوم..

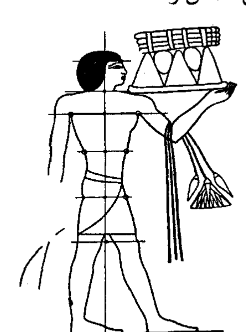
لقـد أخـذ علـم الفلـك الإغريقـي بعـض الخبـرات من المصرييـن. فالسنة بطول ٣٦٥ يومـاً استخدمـت لحساب الوقـت الفلكي، كما كان عـدم تغيـر طول السنـة ضروريّـاً لإعداد الجداول الفلكيـة. وإن تقسيم اليـوم إلى أربع وعشريـن ساعـة ظهـر فـي مصـر أول مرة، وقسمـوا الليل إلى اثنتي عشـرة ساعة والنهار إلـى عشر ساعات وتضاف قبلها ساعة السحر وساعة الغسق بعدهـا، فيصبح المجموع أربعاً وعشرين ساعة، غير متساوية في الطول. ولكن بحلول عام ١٣٠٠ ق.م. أصبحت ساعات اليوم متساويـة، وطبَّـق الفلكيـون الإغريـق هـذا المفهوم، وهو المستخدم حتى اليوم.

٤ ـ الفـن: أوجـد المصريـون القواعـد والقوانين الخاصة بالتناسـب المستخدمة في الفنـون التشكيليـة، والتي انتشـرت من مصر إلـى أوروبـا واستمـرت في الفـن الغربي حتى القرن السادس عشر.

لقد وضـع المصريـون القدمـاء أول نظرية حقيقية للنسب البشرية وتطـورت حتى أصبحت قانونـاً فنيّاً يحـدد التناسب بين أجـزاء الجسم المختلفـة. لم تخرج هـذه النظريـة لهدف فني ولكن لغرض القيـاس. وتعتمد هذه النظرية على ما لاحظه المصريـون القدماء، قبـل أن يضعوا هـذه القوانيـن الفنيـة بمـدة طويلـة، أن هناك حقيقـة فيسيولوجيـة تشيـر إلـى أن العلاقـات المتبادلة لأجزاء الجسم البشري المختلفة، هي علاقـات ثابتة لا تتغير فـي كل الأشخاص، مهما تغيـرت أحجامهـم أو أطوالهـم، وقـد اكتشـف المصريـون القدمـاء هـذه الحقيقـة ووضعـوا المعاييـر الصحيحـة لهذه النسب فـي عصر ما قبـل الأسـرات، بدليل أنهـم استخدمـوا الذراع الصغيـر كأساس لقيـاس الأطـوال، وكان نظام القيـاس المصـري قبل ظهـور النظـام العشري يعتمد على وحدات تناظـر الأجزاء المختلفة من

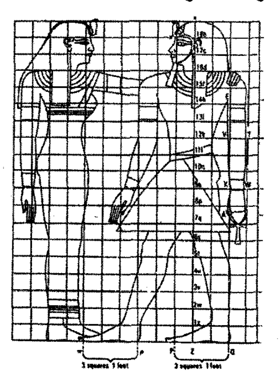
الجسـم، وكانـت كوحـدات قيـاس تحتفـظ بالعلاقـات المتبادلـة لنسبها الطبيعيـة. وكانت الوحدة الأساسية هي طول الساعد (الذراع) من الكوع إلى طرف الإبهـام. ووفقاً للنسب الطبيعية قسم الذراع إلى ٦ كفوف أو عرض الكف (راحة اليد)، والكف يقاس على ظهر اليد عند البراجم (أو اتصـال الأصابـع بالكـف)، والكـف يساوي أربعة أصابع، وكان الإبهام في القياس المصري يعـادل إصبعـاً وثلـث، وكان الكـف الكامـل أو القبضة عبارة عن أربعة أصابع زائد الإبهام، أي خمسة أصابع وثلث، أو كف وثلث عاديين، وكانت المسافة من الكوع (المرفق) إلـى الرسغ تعادل أربع كفـوف أو ثلثـي ذراع، وكانت هـذه الوحدة تسمى في مصر (الثلثين) وكانت القامة (الباع) تتكون من أربعة أذرع.

كانت الرسوم في بدايـة الأمر تُرسم بشكل حر وبغيـر ضابط، ثم اختـرع الفنان المصري القديـم الخطـوط المرشـدة التـي تتألـف من خطوط رأسية تقطعها نقط أو خطوط أفقية في عـدة مستويـات، تحـدد مـكان أجـزاء الجسم المختلفة، وكانت قامة الشخـص الواقف عادة بطول سـت وحـدات، وطـول القـدم المتقدمة وحـدة واحـدة، أمـا قامـة الشخـص الجالس فكانت من خمس وحدات.



وعندما واجـه المصريون إشكالية القواعد الفنيـة وكيفية تقدير أجـزاء الجسم المختلفة فـي الفنـون التشكيليـة، اختـار المصريون ما اعتقـدوا أنـه الحـل الطبيعـي الوحيـد، وهـو استخدام الصفات والقياسـات الأنثروبولوجية كقوانين فنية للنسب. ومن الناحية العملية كان لهـذا الحل العبقـري ميزة كبرى، فـكل صورة أصبحت تتفق مع نظريـة النسب، لأن كل جزء منها يحتفظ بعلاقاته العددية مع باقي الأجزاء تبعاً لقياس الوحدات الطويلة. وعلى هذا كانت الصـور تتوافق دائمـاً مع القانـون ومع بعضها بعضاً بصرف النظر عن اختلافها في الأبعاد، فهي دائماً تعكس النسب الطبيعية للجسم.

ولكـي يضمـن المصـري سلامـة تطبيـق النسب عمليّـاً في الأشـكال الفنيـة المختلفة، اختـرع طريقة فعالة وهي شبكة المربعات التي تمثل مسقطـاً هندسيّاً لقواعـد النسب. وحتى فـي الكتـل المستطيلة المستخدمـة في النحت ثلاثـي الأبعاد كانت المربعـات تُرسم أو تُحفر على الجانبين على الأقـل. أما الأسطح المعدَّة للصور ثنائية الأبعـاد فكانت تُقسم بآلات ذات حـواف مستقيمة، أو تُعلَّم بواسطة خيط يُغمس في المغرة الحمراء.



وكانت العلاقة بين الجسم وشبكة المربعات تحدَّد على المحور الأمامي للأشكال، وهو المحور الذي كان يمر في حالة النحت ثلاثي الأبعاد بالعينين ثم حافة الأنف ثم السرَّة، وأخيراً بنقطة بين القدمين؛ فينقسم الجسم إلى نصفين متماثلين. أما في الصور ثنائية الأبعاد، مثل النقوش والرسم، فيمثلها الشكل، وهو يبين شبكة المربعات الأصلية، حيث يمر المحور بالأُذن والرقبة والصدر من A إلى Z، ونرى أن أجزاء الجسم المختلفة تدور حول ما يُرى أمام المحور، يمثل الجزء الأمامي من الجسم، وما يُرى خلفه يمثل الظهر، وذلك إذا استثنينا جزء الصدر بين 16d, 14h الذي يبدو من الأمام وينقسم إلى نصفين، الأمامي منه أكبر من الخلفي بربع مربع لسبب غامض، ونلاحظ أن الجزء الذي خلف المحور يبدو من الجانب، أما ما هو أمام المحور فيبدو جزئيّاً من الجانب (حلمة ثدي) وجزئيّاً من الأمام (السرَّة).

إن لفَّ أجزاء الجسم المختلفة بحيث تسترجع وضعها الطبيعي بالنسبة للخط z-a، يجعل الشكل يستعيد وضعه الأصلي من الناحية الأمامية (الجبهية)، ويصبح هذا الخط في مكانه الصحيح كمحور جبهي للشكل ثلاثي الأبعاد. وتعتبر معرفة هذه الخاصية لهذا المحور ذات أهمية كبرى لتفهُّم الفرق بين الصور ثنائية الأبعاد وثلاثية الأبعاد للجسم البشري في الفن المصري. فهي تُظهر بوضوح كبير الأسس المتَّبعة، وهي تثبت أن الأُولى مجرد إسقاط هندسي للأخرى، ولا تترك جزءاً مهمّاً من الجسم من دون أخذه في الاعتبار، وهي تمثل الحل المصري للمشكلة الأزلية في تحديد جسم ثلاثي الأبعاد في مستوى ثنائي الأبعاد. وكانت الصعوبات التقنية الخاصة بإنشاء شبكة المربعات وعلاقتها النظرية بنظام التناسب محل مناقشات واختلافات كثيرة، ولكن عندما وضعنا في الاعتبار أنها كانت في الأصل بغرض القياس وجدت هذه الخلافات حلّاً بسيطاً وطبيعيّاً. فقد عرفنا أن ارتفاع الجسم من القدمين إلى خط الشعر هو الوحدة المعروفة بالقامة أو الباع، وبما أنها تُقسم إلى ١٨ مربعاً، فإن ضلع كل مربع يجب أن يساوي وحدة قياس طولها = ١٨/١ من القامة، وهذه الوحدة هي كف كامل، أي أربعة أصابع زائد إبهام. فالعضو التشريحي الوحيد الذي يقابل دائماً طول ضلع المربع، وهو الكف أو عرض اليد المبسوطة أو المقبوضة، ولهذا فهي الوحدة التشريحية المستخدمة في إنشاء شبكة المربعات. ويمكن أن نجعل العلاقات بين علمَي التشريح والقياس وشبكة المربعات في الجدول التالي:

العضو التشريحي	القيمة القياسية	عدد المربعات
الكف الكامل، ٤ أصابع + إبهام	١/٣ ١ كف	١
الذراع من الكوع إلى الرسغ، القدم	وحدة الثلثين أو أربع كفوف	٣
الذراع من الكوع إلى طرف الإبهام	الذراع أو ٦ كفوف	١/٢ ٤
الذراع من الكوع إلى طرف الإصبع الأوسط	الذراع الملكي: ٧ كفوف	١/٤ ٥
الارتفاع من القدم إلى خط الشعر		
المسافة من طرف إبهام إلى طرف الإبهام الآخر	القامة: ٤ أذرع: ٢٤ كف	١٨

وهكذا إذا انتصب المحور z-a بحيث تكون القدمان على الخط الأسفل لشبكة المربعات والشعر عند الخط العلوي ١٨، يصبح أوتوماتيكيّاً الرسم الصحيح للشكل الواقف من دون المساس بالنسب المختلفة مراعياً للقانون في كل تفاصيله. وطبِّقت الطريقة نفسها في بناء كافة الصور، وكانت أية إيماءة أو حركة أو وضع، مهما كان نمطها أو تعقيدها، تأتي متوافقة مع قانون النسب، وكانت النتيجة أن تطور الأمر إلى دستور ضخم يشمل كل ضروب الفن المصري. خلال كل العصور القديمة كانت الأعمال المصرية الفنية الأصلية تُستجلب وتُقتنى في جميع أنحاء حوض البحر المتوسط، وكانت بعض المعالم المعمارية، مثل الأعمدة والكرانيش المزخرفة بقرص الشمس المجنَّح، قد اقتُبست عن مصر، واستمر التأثير المصري في الفنون الأجنبية، خارج كريت والنوبة واليونان، مقتصراً على الأدوات الخزفية وأدوات الزينة وغيرها من العناصر الفنية البسيطة. وكانت محاولات تقليد النحت المصري في العصور القديمة وحتى الحديثة محاولات فاشلة تنتهي بصور ممسوخة بدائية، وكان ذلك لسبب بسيط هو عدم معرفة الأجانب قوانين وأحكام النسب، وهي صعبة ومربكة ولا يمكن تعلُّمها إلا في مصر، وكان المصريون يحفظونها كأسرار مهنية تقتصر على الخاصة.

كانت شبكة المربعات تُستخدم لتحقيق هدفين أو وظيفتين مختلفتين: الوظيفة الأولى هي تحديد نسب الأجزاء التي يتكون منها الشكل، والوظيفة الثانية هي استخدامها كدليل أو نموذج للتكبير عند تنفيذ الرسم على نطاق أكبر أو مساحة أوسع.

وكانت طريقة نحت التماثيل هي تشكيل الأحجار الصلبة بدقها وتشظيتها بوساطة المدقّات الخشبية والمعاول والمناكيش، وكانت أحياناً تُقطع بالمناشير المعدنية والمثاقب المزودة بمواد كاشطة (مثل رمل الكوارتز). استعملت الأزاميل والقواديم ذات الأنصال النحاسية والبرونزية فيما بعد، في نحت الحجر الجيري وما شابهه، وكانت الطريقة الأساسية تتلخص في العمل في جانب التمثال وفي مقدمته في وقت واحد، بعد أن تُرسم (اسكتشات) على جهتين من الكتلة المكعبة، ثم تصغَّر الكتلة بنقر وزعزعة طبقات من الحجر من كل الجهات حتى يأخذ التمثال شكلاً معيناً، وفي المرحلة الأخيرة تشكَّل التفاصيل.

٥ ـ **الطب**: ذكر المؤرخ المصري مانيتون ـ القرن الثالث قبل الميلاد ـ أن الملك جر، من الأسرة الأولى، مارس الطب وكتب كتباً في التشريح ظلت باقية حتى القرن الثالث ق.م.، ويخبرنا التاريخ أن الحكيم إمحوتب، الذي كان وزيراً ومهندساً للملك زوسر ـ الأسرة الثالثة ـ كان أيضاً طبيباً ماهراً وعُبد فيما بعد وأُلّه. ومهما كانت القيمة التاريخية لهذه المعتقدات، فإن عدد الأطباء الذين عُرفت أسماؤهم يعطي انطباعاً قويّاً بأن الطب في عهد الدولة القديمة في مصر كان علماً مزدهراً، ويُعتقد أن كثيراً من البرديات الطبية الباقية، والتي تعود أقدمها إلى عصر الدولة الوسطى، أخذت من تصانيف كتبت في عصر الدولة القديمة. وفي عهد أمنحتب الثاني عالج طبيب البلاط أميراً سوريّاً، كما أرسل طبيب خبير لعلاج الأميرة باختان. وألمح هوميروس إلى التأثير المدهش للعقاقير الطبية المصرية.

ويُعتقد أن طاليس الميلتي، مؤسس المدرسة الطبية الأيونية، قد تعلم على أيدي الكهنة المصريين. وفي القرن السادس ق.م كان داريوس الفارسي محاطاً بالأطباء المصريين. ويذكر كلمنت السكندري أنه كان في مصر ستة كتب مخصصة لمواضيع طبية معينة: فالأول يختص بالتشريح، والثاني بالأمراض، والثالث بالآلات الجراحية، والرابع بالعقاقير الطبية، والخامس بأمراض العين، والسادس بأمراض النساء.

وبردية إدوين سميث الجراحية، وعدد من الوثائق الأخرى الأقصر منها التي تشرح أمراض النساء والولادة وأمراض الشرج والشكاوى من العضلات، تشكل مؤلفات منظمة لها نسق واحد، ويمكن أن تكون قد نسخت من كتب تغطي هذه الموضوعات، أما أجزاء المخطوطات المتنوعة مثل بردية أبريس، فكانت تتناول أمراض العين ومشاكل المعدة وأنواع الأورام المختلفة وخصائص نبات زيت الخروع.

كان في مصر تمييز بين الطب التجريبي والكهنوتي والسحري، وكان اللجوء إلى الصلوات والرُّقى يحدث عندما يثبت عدم جدوى الطب.

من السمات المميزة لمؤلفات الطب المصري احتواؤها العديد من العقاقير واستعمالاتها، وقد اقتبس اليهود والسوريون والفرس والعرب هذه العقاقير ودوَّنوها في كتبهم واستعملوها في الفترة نفسها، كما انتشر في أعمال المؤلفين الكلاسيكيين أمثال ثيوفراتوس وبليني وجالينوس وأبقراط.

من أمثلة هذه النباتات الطبية التي كان المصريون أول مَن استعملها: الحنظل، الكزبرة، الكمون، الشبت، الجالينجال، التين، البصل، الرمان التي استُخدمت كمواد قابضة وطاردة لديدان الأمعاء، كما عرفوا خواص زيت الخروع وعسل النحل وبعض الراتنجات، وكان قرن الغزال وصدفة الترسة من بين وصفات العقاقير الحيوانية. يبدأ العلاج في البرديات المصرية بإشارة إلى المرض المراد علاجه، وفي حال بديل يكتب علاج آخر، وتنتهي الوصفات بالتأكيد على فعاليتها، فيكتب أنها مجربة أو أنها (مجربة ووجدت صحيحة تماماً).

تحوي بردية إبريس مجموعة من طرق علاج سقوط الرحم، وهي حالة ظهرت في المومياءات المصرية.

وفي مجال الولادة تشير مقتطفات البرديات المصرية المختلفة ـ بردية برلين الطبية، بردية كالرسبرج ـ إلى ثلاثة أهداف مترابطة تحدد الخصوبة وتشخيص الحمل ومعرفة نوع الجنين. وكانت أبسط الطرق تعتمد على الفحص الظاهري والجس وهيئة العين ولون وقوام الجلد والثديين.

والأهم من ذلك كله معرفة النتائج عن طريق تناول مواد معينة بالفم أو استعمال تحاميل مهبلية أو إدخال أبخرة عن طريق المهبل، أو رصد تأثير بول المرأة الحامل في إنبات الحبوب وغيرها من المواد، وتستخدم البصلة كتحميلة وعون من البراز للتبخير داخل المهبل، وقد استمر استعمال هذه الطرق في الطب الشعبي في الأناضول ومصر إلى الوقت الحاضر، لم يكن هدف هذه الاختبارات تشخيص الحمل فقط وإنما أيضاً معرفة أي من الزوجين عقيم.

لقد ميَّز المصريون أجزاء كثيرة من الجسم، ومن بينها الأعضاء الداخلية الهامة. كانت مصطلحاتهم التشريحية سديدة إلى درجة كبيرة وهم الأصل في ترتيب أجزاء الجسم من الرأس إلى القدم، وهو الأسلوب الذي اتبع بعد ذلك. ومع هذا فهم لم يعرفوا أهمية بعض الأعضاء التي أعطوها أسماء مثل المخ، ولم يتمكنوا من فهم الجهازين العضلي والعصبي، ولا تحتوي بردية إدوين سميث إلا القليل من العمليات الجراحية، وهي البردية التي خُصصت للجروح، وربما كان الهدف منها أن تكون كتيباً يستخدم في إصابات الحروب. ومن بين ما ذكر من وصفات، جاء الكثير من الكسور والخلوع ومنها طريقة تصليح خلع الفك السفلي وعلاج كسر الترقوة.

ونشأت في مصر عملية الختان، فذكر هيرودوت أن المصريين هم أول مَن أجرى عملية الختان، وذكر سترابون أن عملية الختان كانت تتم للبنات أيضاً ولا زالت قائمة في بعض الطبقات الفقيرة في مصر حتى الآن.

ويجمع علماء المصريات معلومات مفيدة من الموميات الملكية، مثل العلاقات الأسرية، والعمر الذي مات عنده الملوك، والكيفية التي ماتوا بها، كما تقابلهم مشاكل يصعب حلها. فمثلاً لماذا يموت الملك توت غنج آمون ـ الأسرة ١٨ ـ في حالة من الألم أدت إلى الإسراع بتحنيطه، وما هي الملهاة الأسرية التي انتهت بضرب فتاة صغيرة حامل في شهرها السادس ـ من الأسرة ٢٦ ـ ضرباً مبرحاً أدى إلى موتها. كما عرف الكثير عن الطرق والمواد التي استخدمها المصريون في تحنيط موتاهم وفي تعاملهم مع أجساد الحيوانات. وقدمت مومياوات الحيوانات معلومات وافرة لعلماء الحيوان. أما أكبر المكاسب فقد كانت في ميدان الباثِولوجية القديمة حيث قدمت المومياوات شهادة حقيقية عن نسب انتشار الأمراض والحالات التي لم يكن من الممكن أن نحصل عليها من البرديات أو الأعمال الفنية التي يصعب فهمها في كثير من الحالات. وفي حالة نادرة حنَّط المصريون إنساناً مصاباً بعيب خلقي لم يتم فيه تكوُّن الدماغ، وقد تمَّ تحنيطه ودفنه بالطريقة نفسها التي عوملت بها القردة المقدسة.

ويُعدُّ التحنيط من أهم إنجازات المصريين الطبية، وتتم عملية التحنيط وفق الخطوات التالية:

١ ـ تنقل الجثة إلى مخبر التحنيط وتنزع الملابس وتوضع على طاولة خاصة بالتحنيط.

٢ ـ يُستخرج المخ عن طريق الأنف بكسر العظمة المصفاوية، وكان المخ يهشم تهشيماً لضخامة حجمه وضآلة فتحة إخراجه، والعملية شاقة ولكنها ضرورية لأن المخ يتعفن بسرعة بعد الوفاة، وكان يستعان على إخراج المخ بقضبان معقوفة.

٣ ـ تستخرج الأحشاء الباطنية عن طريق شق البطن، ويعمل هذا الشق عادة بالخاصرة اليسرى. يتم استخراج الأمعاء ثم الكبد والطحال، أما الكليتان فتتركان عادة في مكانهما، ثم يشق الحجاب الحاجز لاستخراج الرئتين، أما القلب وأوعيته الكبيرة فتترك في مكانها.

٤ ـ يُغسل تجويفا البطن والصدر بنبيذ البلح والتوابل.

٥ ـ تُعالج الأحشاء بعد ذلك بالنطرون والشحوم والعطور والراتنج، وتقسم الأحشاء إلى أربعة أقسام، وتوضع داخل أربع أواني.

٦ ـ توضع الجثة داخل كومة من النطرون الجاف أو ملح الطعام الجاف، على طاولة مائلة السطح ذات مجرى صغير ينتهي بخزان تتجمع فيه المياه الخارجة من الجثة نتيجة لعملية الانتضاح.

٧ ـ تُستخرج الجثة بعد ذلك من النطرون وتغسل بالماء وتجفف.

٨ ـ يحشى تجويف الجمجمة بالراتنج أو بالكتان المشبع بالراتنج، ويحشى تجويفا الصدر والبطن بمواد مثل الآنيسون والمر ومواد عطرية أخرى.

٩ ـ تُدهن الجثة بزيت القادروس (الشربيني) ودهون أخرى.

١٠ ـ يحشى الفم بالكتان المغمور بالراتنج.

١١ ـ تعالج الجثة كلها بالراتنج المصهور لإكساب الجثة صلابة، ولسد مسامها لئلا يدخل الهواء.

١٢ ـ تُكسى الجثة بالألوان فوق طبقة الراتنج ثم تُغلَّف باللفائف بإتقان، وتُلصق اللفائف ببعضها بوساطة الصمغ أو الراتنج.

وقد تـمَّ الكشف عن مجموعة كبيرة من مومياوات الملوك والأمراء المصريين لا زالت في حالة جيدة من الحفظ.

٦ ـ اللغة والكتابة: لا نعرف على وجه التحديد متى اخترع المصري القديم الكتابة، ويعتقد الباحثون أن هناك شواهد تؤكد اختراع الكتابة قبل عصر بداية الأسرات بحوالي قرنين من الزمان.

إن الكتابة المصرية كانت الوحيدة بين كتابات الشرق الأدنى القديم التي لا يوجد بها سوى الحروف الساكنة، وعلى هذا فقد تأثر مبتكر الأبجدية الكنعانية بالمثال المصري، كما أن الكتابة المصرية هي وحدها التي تمتلك رموزاً ترمز لحروف ساكنة، مع أنها خليط من الكتابة التصويرية والكتابة الصوتية، وبمعنى آخر كانت للكتابة المصرية رموز يمكن اعتبارها أبجدية. وقد أثبت آلن جاردنر أن الأبجدية السيناوية ـ التي تعود بتاريخه إلى ١٨٠٠ ق.م ـ هي صلة الوصل بين الكتابة الهيروغليفية والأبجدية الأغاريتية.

يعود الفضل الأكبر في معرفتنا باللغة المصرية القديمة إلى حجر رشيد، الذي عثر عليه أحد الضباط الفرنسيين في مدينة رشيد أثناء حملة نابليون بونابرت على مصر سنة ١٧٩٩. يتضمن هذا الحجر مرسوماً من قِبَل الكهنة المصريين في مدينة منف، يشكرون فيه الملك بطليموس الخامس لقيامه بوقف الأوقاف على المعابد وإعفاء الكهنة من الضرائب، وقد سجِّل هذا المرسوم بخطوط ثلاثة هي: الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية، وقد وصل حجر رشيد إلى المتحف البريطاني سنة ١٨٠٢ بموجب اتفاقية بين فرنسا وبريطانيا.

وقد بذل العلماء توماس يونج وسلفستر دي ساسي وأكربلاد جهوداً كبيرة في محاولة فك رموز اللغة المصرية ولم يحالفهم الحظ، واستكمل جان فرانسوا شامبليون جهود هؤلاء العلماء وتمكن من قراءة حجر رشيد بخطوطه الثلاثة. فقد أعلن شامبليون سنة ١٨٢٢ عن تمكنه من فك رموز اللغة المصرية، وأن بنية الكلمة في اللغة المصرية لا تقوم على الأبجدية

وإنمـا على علامـات تعطـي القيمـة الصوتية لحرف واحـد وأخـرى لحرفين وثالثـة لثلاثة حروف، وأكد استخدام المخصصات في نهاية المفردات لتحديد معنى الكلمة.

وقد كتب المصريون القدمـاء لغتهم بأربعة خطوط هي: الهيروغليفيـة (الكتابة المقدسة) والهيراطيقية (كهنوتي) والديموطيقية (شعبي) والقبطيـة. وقد كُتبـت اللغة المصريـة القديمة فـي خطهـا الهيروغليفـي أفقيّـاً وعموديّـاً من اليميـن إلـى اليسار، كمـا أن التنسيـق والشكل الجمالي تطلَّب في بعض الأحيان أن تكتب بعض النصـوص مـن اليسـار إلـى اليميـن. أمـا الهيراطيقيـة والديموطيقية فكانتا تكتبان دائماً من اليميـن إلى اليسـار. ويمكن تحديـد اتجاه النـص بالنسبـة للكتابـة الهيروغليفيـة حسب اتجـاه العلامـات ذات الوجـه والظهـر، مثـل الحيوان والطيور والزواحف.

٧ـ **الأدب:** وصلتنـا مجموعـة كبيـرة مـن نصـوص الأدب المصـري القديـم. فمن بين حوالـي سبعين عمـلاً مختلفاً، أمكـن التعرُّف عليهـا حتـى الآن، لا نجد سـوى حوالي خمسة عشـر عمـلاً كامـلاً وفي حالـة جيـدة، ومنها أعمـال لا توجد إلا في مخطوط واحد في حين أن النسـخ الجيـدة لبعـض الأعمـال الأخـرى وصلتنـا وقد تلفت أجزاء منهـا. ولدينا حوالي خمسة وعشرين عملاً في حالـة مدمرة تماماً بحيث يصعب ترميمها أو التعرف على طبيعتها أو قيمتها أو حبكتها، وبعض المؤلفين الموثوق بهـم لا نعـرف سـوى أسمائهم، ولـم يبقَ من أعمالهم سوى عناوينهـا، وليس لدينا شك في أن إنتاجهم كان عظيماً.

إن النصـوص الأدبيـة المدرسيـة تحتـل مكانة خاصة مميزة. فعلـى مدار القرون تعلَّم التلاميـذ الكتابة عن طريق نسـخ نفس الكتب علـى الألـواح والأوسـتـراكا (قطـع الفخـار وشقفـات الحجـار) وأحيانـاً كانـت أمثلة من نفس النصـوص المكتوبة على البردي وتخص المعلميـن والأدبـاء تضـاف إلـى التمرين في داخـل الفصل. ولكي نعطي فكرة عن حجم ما تمثلـه هـذه النسـخ، فلنأخذ الكتـاب المسمى كميـت كمثـال: فقـد كُتـب فـي حوالـي عـام ٢٠٠٠ ق.م، ونُسـخ حسـب علمنا أكثـر من أي كتاب آخر ووصلتنا منه حوالي ٤٠٠ نسخة غير كاملـة. وهناك أعمـال أدبية كبرى يبـدو أنها كانت جـزءاً من المنهج الدراسـي مثل: قصة سنوحي وتعاليم أمنمحات الأول ونبوءة نفرتي، وقـد وصلتنـا منهـا أعـداد كبيرة مـن النسخ المطابقـة. ويلي هذه المجموعـة المفضلة في التعليم أعمال أخرى كانت تتمتع بمنزلة خاصة بيـن المتعلمين والمستنيريـن المحبين للفنون مـع أنها كانت لا تستعمل في المدارس إلا على نطاق ضيق، أو لا تستخدم فيها إطلاقاً، وعدد نسـخ هذه الأعمال أقل ولكنهـا بقيت في حالة أفضل من نسـخ المدارس. ولعل أفضل الأمثلة البرديـة تلـك التـي تحتـوي شـكاوى الفـلاح الفصيـح وتعاليم بتاح حوتـب وتعاليم مري كا رع. كلمـا كان العمـل قصيراً وأقـل شهرة زاد احتمـال تعرضـه للتلـف، ويمكـن أن تقلـب الصدفة المحضة كل الاحتمالات. فقد حفظت لنـا إحـدى البرديـات جـزءاً كبيراً مـن عمل غامـض، هـو حـوار بيـن رجـل سئـم الحياة وروحه، في حين لا نملك إلا قصاصات صغيرة من تعاليم حار دجـدف، وهي واحدة من أبدع الأعمال الأدبية المصرية.

ازدهر في عصر الدولة القديمة أدب الحكمة، وكان أول الحكماء المعروفين هو إمحتب الشهير مستشار الملك زوسر (الأسرة الثالثة)، وهو الذي عُبد في العصر المتأخر، ولم يصلنا شيء من أعماله ومواعظه، ومن المحتمل أن الكتّاب المتأخرين اقتبسوا أعمال إمحتب من دون ذكر المصدر لأن المصريين كانت لهم عادة سيئة، هي عدم ذكر مصادرهم مع علمهم التام بها.

وقد وصلتنا قصاصات من تعاليم الأمير حار دجدف بن خوفو في صورة نسخ مدرسية كتبت بعد ١٥٠٠ سنة من وفاته، وفيها نقرأ أن الرجل العاقل يجب أن يتخذ مسكناً وأن يبني بيتاً لابنه، وأن يتذكر أن يجعل قبره ممتازاً وأن يمتلك ضيعة، ورعاية مقبرته يستحق أن توقف له أفضل الحقول لأنه (أفضل لك من وريثك) ففي النهاية (الموت هو جنة كل البشر).

والكتاب الوحيد الذي وصلنا سليماً من عصر الدولة القديمة هو تعاليم بتاح حوتب - كان وزيراً في الأسرة الخامسة - وكان بتاح حوتب يخاطب ابنه الذي كان يعدُّه لخلافته. وكانت التعاليم في حقيقتها لتوجيه الكوادر العليا في الدولة، ولهذا وجَّه جزءاً كبيراً من العظات إلى قواعد وآداب الرسميات (الإتيكيت) والطاعة والإخلاص للرؤساء وأسلوب معاملة المرؤوسين وكيفية إعطاء الأوامر، وكيفية الحكم على الأمور.

كما شملت التعاليم الحياة الخاصة والزوجة والابن والأصدقاء، فالهدف هو النجاح في المهنة وفي الحياة والتمتع بالتقدير والاحترام. وفي هذا الصدد كان للدين دور بسيط، وعند الكلام عن الإله كان الملك هو المعني بالدرجة الأولى، ولكن الانتهازية لا تتعارض مع حسن الخلق، فكثير من الحِكَم لا تخلو من النبل. ففي البداية يعلن بتاح حوتب أن (قمة المهارة لا يمكن الوصول إليها) كما يرفع من أولوية الحق والعدل (ماعت).

وكان جميع المؤلفين، الذي نعرفهم من الدولة القديمة، من أنصار الأدب التعليمي الوعظي، ولكن الوضع تغيَّر مع انهيار الدولة القديمة. فقد جاء عصر الانتقال الأول وجاء معه البؤس وعدم الأمن، وسادت الاضطرابات والصراعات المجتمع المصري، وانعكس ذلك في الأدب، فزادت أنواع الأدب، فنلمح ظهور الخطب السياسية والاجتماعية اللاذعة، والمناقشات الفلسفية في صورة حوارات، ومقالات شاكية وناقدة، ووصايا ملكية ونبوءات وغير ذلك، وكانت النغمة السائدة هي الكآبة والشكوى، ولم يصلنا من هذه الحصيلة الغنية إلا القليل الذي حفظته ونسخته الأجيال التالية.

تعود مرثيات الحكيم إيبو ور إلى هذه الفترة. فالحكيم يبكي من الفوضى السياسية وزوال السلطة السياسية، ونهب الممتلكات الشخصية والعامة (انظروا إذن فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات، ومَن كان يتعذر عليه أن يصنع لنفسه زوج نعال يملك منها أكواماً). وكُتب في هذه الفترة أيضاً حوار بين رجل سئم الحياة وروحه، فالرجل محبط قد سئم الحياة ويرغب في وضع نهاية لوجوده، ويخشى أن تهجره روحه، وهو يترك لروحه الكلمة الأخيرة في المناقشة. وأثناء هذه المناقشة يسهب الرجل في كلامه وينفِّس عن

شكواه في مقاطع شعرية فائقة الجمال. وكان العدل هو موضوع شكاوى الفلاح الفصيح، وهي قصة فلاح من الواحات سُلبت منه ممتلكاته وجاء إلى الملك ليعيد إليه حقه. ويقدم الفلاح تسعة التماسات إلى الملك مليئة بالأناقة البلاغية والفصاحة بكل تعبيراتها المجازية، ويتميز نص الفلاح الفصيح بالمزج بين الأسلوب السردي والمنولوجات.

أما تعاليم الملك خيتي الثالث ـ الأسرة التاسعة ـ إلى ولي عهده مري كا رع فهي من أروع الأعمال التي أنتجتها مصر. والنص عبارة عن وصية تحوي مضامين تاريخية، وتصف مواقف سياسية وتشرح كيفية معاملة الرعية، الكبار والصغار، المدنيين والعسكريين (أقم العدالة ما دمت تعيش على الأرض، هدِّئ من روع مَن ينتحب، لا تقهر الأرملة، لا تطرد إنساناً من ممتلكات أبيه، لا توقع ضرراً بالعظماء وهم يمارسون وظائفهم... لا تفضل ابن إنسان ثري على ابن إنسان فقير، قرِّب منك الرجل حسب أفعاله)، وقضايا أخلاقية ودينية ونظرية فريدة في نشأة الكون تجعل الإنسان هدف الخلق. وفي النهاية يأتي المفهوم الجوهري للمحاكمة بعد الموت بوضوح غير مسبوق، حيث لا يستطيع الملك ذاته أن ينجو بنفسه. وتشغل مسألة التكفير عن الذنوب بال الكاتب الذي يلوم نفسه على ما ارتكب من أخطاء، وتأتي نصيحته مشوبة بالتشاؤم والإذعان، وتؤكد باستمرار على ضرورة نقاء الوجدان وممارسة العدل، وقضاء حياة ورعة يُقتدى بها.

وكان المصريون القدماء قد تمكنوا من الأسلوب الأدبي الذي تُسرد فيه قصص منفصلة في رواية واحدة تجمع بينها، وتعطي الهدف من وراء حكاياتها ـ وهو الأسلوب الذي اشتهر في ألف ليلة وليلة وغيرها من الأعمال ـ. ففي بردية وستكار يطلب الملك خوفو من أبنائه أن يحكوا له حكايات عن أعمال السحرة، فاستجاب الأمراء بدورهم، وحكوا سلسلة من القصص القصيرة. تعود بردية وستكار إلى عصر الهكسوس، ويمكن الحكم من لغة النص أنه كتب من فترة ليست طويلة، مع أن القصص التي يحكيها قد حدثت في الدولة القديمة قبل ذلك بحوالي ألف سنة، وبالرغم من طول هذه الفترة فإن النص لا يخلو من قيمة تاريخية. ظهر في الدولة الحديثة نصَّان مخصَّصان لمدرسة مسؤولي الدولة لكي يغرس فيهم الإحساس بالمسؤولية، وقد استمر استخدام هذين النصَّين لأكثر من ألف سنة، ونحن لا نملك سوى نسخهما المتأخرة.

وصلنا من عصر الدولة الوسطى نصّان من أدب الحكمة: النص الأول يسمى كميت، ونجد فيه مجموعة من الرسائل وبعض النصائح عن ممارسة ضبط النفس والعمل الجاد في الدراسة لمَن يريد أن يصبح موظفاً جيداً في الحكومة المركزية.

النص الثاني هو هجائية الحرف، وهو من تأليف الكاتب خيتي، يوجه تعاليمه إلى ابنه التلميذ الذي سيلحق بالمدرسة المركزية للكتبة. ويبدأ النص باقتباس من الكميت مع تعليق عليه وتطوير له، وخلاصة الفكرة أن مهنة الكاتب لا نظير لها. ولكي يوضح خيتي ذلك يذكر عدة مهن وعيوبها والحالة البائسة التي يعاني منها الذين يعملون بها. وهكذا يصف خيتي سبعة عشر حرفة منها: الفخراني،

الحجار، النساج، الحلاق، صياد السمك، الفلاح، بعد ذلك يذكر بعض النصائح والآراء عن مزايا التعلُّم.

وظهرت في بداية الدولة الوسطى «نبوءة نفرتي»، وكان الهدف من كتابتها تبرير اغتصاب أمنمحات الأول للعرش وتأسيس الأسرة الثانية عشرة. وصف الكاتب المصائب التي كانت تنتظر مصر بعد الدولة القديمة، ورسم إيحاءات من الأدب التشاؤمي، ثم أعلن عن العصر الذهبي مع وصول أمنمحات إلى العرش، ولا نعتقد أن هناك شعباً آخر عرف هذا الأسلوب الفني الماهر ـ الأدب التنبؤي ـ في مثل هذا الوقت المبكر.

إن هذا النص ذو مقصد سياسي، فقد اتخذ وجهة دعائية لتثبيت حكم الأسرة الثانية عشرة. أما تعاليم أمنمحات الأول فهي تقدم صوراً إنسانية للفرعون المصري وهو ينصح ابنه سنوسرت في أسلوب يلائم قواعد أدب الحكمة. ويعتقد أن سنوسرت، بعد مقتل والده أمنمحات الأول، عهد إلى خيتي، مؤلف هجائية الحرف، بكتابة وثيقة سياسية باسم الفرعون المتوفى لتدعيم حكم سنوسرت.

أما قصة سنوحي فيمكن أن نصفها برواية، تلعب طبائع النفس والمغامرة والعاطفة أدوارها في قصة خادم الملكة الذي يهرب من مصر بعد اغتيال الملك أمنمحات الأول إلى سوريا، وينتصر سنوحي بالمبارزة على البطل السوري فيستقبل الملك سنوسرت سنوحي في القصر الملكي.

وقد وصلتنا أيضاً قصة بحار السفينة الغارقة كاملة، حيث يسرد البحار مغامرة مدهشة حدثت له خلال رحلة في البحر الأحمر، حيث تحطمت سفينته في عاصفة وألقت به الأمواج على جزيرة ساحرة يحكمها ثعبان ضخم. واستقبل الثعبان البحار الذي بلغ الشاطئ وعامله بعطف وأرسله إلى مصر مصحوباً بهدايا ثمينة، واختفت الجزيرة بعد ذلك. وهذه القصة مثال قديم لقصة خيالية من مغامرات البحار. ويعود المخطوط إلى القرن التاسع عشر ق.م، وهو مأخوذ عن نص أقدم منقول هو الآخر بالتواتر الشفهي. وتتسم القصة بخصائص القصص الشعبية، ببساطة الأسلوب والميل للتكرار.

في عصر الدولة الحديثة ظهر نمط أدبي جديد هو قصائد الحب، ولدينا مجموعتان منها مكتوبتان على البردي، وبعض القصاصات بها عدد من أوجه الشبه، فهي نوع متطور من الشعر لها عالمها الخاص من النغمات والخيال، وهي تصف لوعة الحب ولحظة الفراق، وهناك البطل القدوة الأمير ميحي الذي كان بشهرة (دون جوان) في عصره.

نذكر، على سبيل المثال، أغنية حب من بردية شيستر بيتي ١، تقول بعض مقاطعها:

ساحرة هي نظرات عينيها
رقيقة هي كلمات شفتيها
اللتين لا تقولان أبداً حديثاً عقيماً
جيدها طويل ونهداها نضيران
شعرها من اللازورد الخالص
وساعداها أجمل من الذهب وأناملها أشبه ببراعم اللوتس
وساقاها تعلنان عن جمالها

وبالرغم مما في هذا الشعر من عيوب فإن قيمته لا تقدَّر بالنسبة لرصيد العالم من

قصائد الشعر الغنائي. إنه فن مترفع وثمين، خالٍ تماماً من الشهوانية ويتناغم فعلاً مع الذوق الرفيع للدولة الحديثة، وتمثل الولائم التي كانت تقام بكثرة مناسبة مثالية لإلقاء أغاني الحب والغرام، مع التمثيل أو بمصاحبة الموسيقى.

قصة الأخوين عبارة عن دراما إنسانية تحدث في محيط الفلاحين وتصف حياتهم وعاداتهم بواقعية لا يلعب فيها الخيال إلا دوراً بسيطاً. وتحكي القصة محاولة امرأة شريرة مراودة شقيق زوجها عن نفسه، وعندما يأبى الأخ تتهمه زوراً أمام زوجها. ومن المهم أن نلاحظ أن الراوي لا يعلّق، في أية مرحلة، على سلوك شخصياته، ولا يبدي رأياً حتى بالنسبة لمَن لا يتعاطف معه أحد. فلهجة القصة في مصر حيادية - وهذه قاعدة - ويُترك الحُكم على الطيب والشرير من أبطال الرواية لأعمالهم وتعليقاتهم.



توت عنخ آمون وقد وقفت الملكة أمامه والشمس المقدسة ترسل أشعتها عليهما، محفوظ في متحف القاهرة

وفي الصراع بين حورس وست، يتناول موضوعاً دينيّاً. فالصراع يحتدم بين مطالبين مقدسين بعرش مصر. وهناك محاكمة لا نهاية لها أمام التاسوع المقدس المجتمع برئاسة رع. وهذه القصة لا تخلو من القيمة الأخلاقية، فالحق ينتصر على القوة، ويكسب حورس قضيته في النهاية ويتسلم ميراث والده أوزير.

أما قصة ون آمون فهي قصة مبعوث من طيبة إلى بيبلوس لجلب أخشاب لصنع مركب مقدَّس للإله آمون. وكان نفوذ مصر قد اضمحل في سوريا ما جعل المهمة صعبة وخطيرة.

حفلت القصة بالسرقة والمطاردات البحرية ومحاولات القتل والحوارات والمساومات الطويلة في مراحل الرحلة المختلفة، حيث تنقَّل ون آمون من ميناء إلى آخر حتى وصل إلى آلاشيا (قبرص) وينتهي المخطوط عند هذا الحد. وهذه القصة نوع من الأوديسة الصغيرة بدون العناصر الخرافية.

كان النوعان الأدبيان المستخدمان في كل حقب تاريخ مصر، واللذان أعطيا الأدب

المصري طابعه المميز، هما القصة ونصوص الحكمة، وفي هذين المجالين قدمت مصر أكبر إسهاماتها في الأدب العالمي.

تُعتبر أسطورة أوزيريس وإيزيس من أشهر الأساطير المصرية، وأول نسخة كاملة معروفة في الوقت الحاضر هي ما كتبه بلوتارخ في كتابه إيزيس وأوزيريس، وهي وإن اختلفت في بعض التفاصيل إلا أنها تتفق في كل المواقف المهمة مع الأجزاء التي وصلتنا في النصوص المصرية. وملخص الأسطورة: كان أوزيريس ـ الابن الأكبر لإله الأرض جب وإلهة السماء نوت ـ ملكاً عادلاً يحكم الأرض كلها وعلَّم الناس مختلف الفنون والحِرَف. قام شقيقه ست بقتله بدافع الحسد، ووضع جثته في تابوت ورماها في نهر النيل، ثم قذفته الأمواج إلى شاطئ مدينة جبيل في لبنان. عند سماع إيزيس بمقتل زوجها راحت تبحث عن جثمانه حتى عثرت عليه في جبيل، وأحضرته إلى مدينة خميس في الدلتا، وهناك خبأت إيزيس التابوت وأخذت تنتظر ولادة ولدها حورس. عثر ست على تابوت أوزيريس عندما خرج في أحد الأيام للصيد، فأخرج الجثة وقطعها إلى أربع عشرة أو ست عشرة قطعة وبعثر هذه القطع في مدن مصر المختلفة. فخرجت إيزيس للمرة الثانية للبحث عن جثة أوزيريس ودفنت كل قطعة وجدتها، وكان عضو التذكير هو الجزء الوحيد الذي لم تعثر عليه، لأن ست ألقى به في النهر فابتلعته سمكة الأقنومة.

٨ ـ **العمارة**: كان أسلوب استخراج الحجر يختلف باختلاف الأحجار، فعند اقتلاع الأحجار الأقل صلابة (الحجر الجيري والحجر الرملي والألابستر) تحفر قطاعات رأسية ثم تفصل الكتل من أسفل بدق عدد من الأسافين. أما في حالة الصخور الصلبة (الجرانيت والكوارتز والبازلت) فكان يتم فصل الكتل عن طريق دق الأسافين، وربما استخدمت أسافين خشبية تبلل بالماء فتتمدد، وكانت الفجوات تعد للأسافين بواسطة معاول يدوية، أو بدق قنوات بواسطة مطارق حجرية.

ونظراً لعدم وجود نظم للروافع أو البكر أو الكابلات أو أدوات رفع الكتل، اعتمد المصريون اعتماداً كاملاً على القوى البشرية بمساعدة روافع خشبية بسيطة، وكانوا يعرفون طريقة المرقاة، وربما استخدموا أيضاً ما يعرف حاليّاً (المرفاع الإسباني) وأسطوانات الدحرجة والمزاليج.

وفي مواقع العمل بنيت الطرق الصاعدة (المنحدرات) والأرصفة من الطوب والتراب والسقالات. وهناك أدلة على استعمال المصريين نوعاً من أنواع صناديق الرمل التي وصفها بليني في بناء معبد إفسس (Pliny XX21, 96) وتستخدم في عصرنا في إنزال السفن الحربية. ووصفت طريقة بناء المباني الضخمة بهذه الطريقة في بردية ترجع للأسرة التاسعة عشرة، التي جاءت فيها مسائل حول بناء منحدر وتحريك مسلة وتفريغ الرمل من أجزاء من مستودع تحتها. وباختصار، كانت عبقرية المصريين تتجلى في استعمالهم الماهر لأبسط الوسائل وقدرتهم الفعّالة في تشغيل القوى البشرية وتنظيمها في أعداد غير محدودة، ولعب التمسك بروتين العمل دوراً هامّاً في إنجازاتهم.

وتمثّل الأهرامات آية العمارة المصرية، ويبلغ عددها في مصر حوالي ٨٢ هرماً، وسنتعرض لهرم خوفو باعتباره أكمل الأهرامات المصرية.

ابتداءً من عصر الأسرات، تغلب الملوك والنبلاء على ما عساه أن يصيب قبورهم من تحطيم بسبب العوامل الطبيعية، وذلك بإقامة بناء فوق حفرة الدفن، وكان هذا البناء من الطوب اللبن المجفف تحت الشمس، وأصبح هذا النوع من المقابر معروفاً في العصور الحديثة باسم المصطبة، وهي كلمة عربية تعني المقعد الطويل، ومن أشهر المصاطب مصطبة الملك عحا.

في عهد الملك زوسر، قام المهندس إيمحوتب ببناء هرم مدرج في سقارة، وكان شكل الهرم المدرج عبارة عن كتلة من البناء ترتفع في ست طبقات غير متساوية في الحجم إلى ارتفاع ٢٠٤ أقدام.

أقام زوسر في أول الأمر مصطبة بنيت من الأحجار ارتفاعها ٢٦ قدماً وطولها ٢٠٧ أقدام، ثم أضيفت طبقة ثانية وثالثة.. حتى أصبحت ست طبقات. ويتكون البناء السفلي للهرم المدرج من بئر عميق يفضي إلى عدد كبير من الممرات والحجرات.

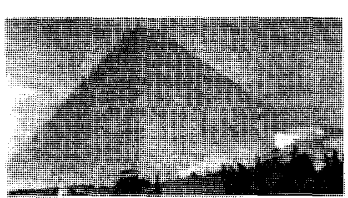


قبل أن يُبنى أول هرم هندسي كامل صممت على الأقل أربع مقابر هرمية الشكل زيادة على هرم زوسر، ونجد اثنتين من هذه المقابر في منطقة زاوية العريان بالقرب من الجيزة، ويُعرف أقدمها بالهرم ذي الطبقات، ويبدو أنه كان مبنيّاً ليكون هرماً مدرَّجاً والآن هو متهدم ولا يمكن تحديد شكله الأصلي، أما الهرم الثاني فقد توقف العمل فيه ويسمى الهرم الناقص، وتحمل بعض أحجاره اسم الفرعون نب كا.

وبُني الهرم الثالث في دهشور، ومع أنه صُمِّم ليكون هرماً كاملاً إلا أنه لم يتم على هذا الشكل، وغيَّروا فجأة زاوية الميل عند منتصفه لذلك سمي بالهرم المنحني أو الهرم منكسر الزاوية. وزاوية الميل في جزئه الأسفل ٥٤° ١٤َ، ولكن بعد الوصول إلى نقطة معينة تتغير الزاوية فتصبح ٤٢° ٥٩َ وتستمر كذلك إلى القمة. وقدِّمت عدة تفاسير لتغير زاوية الهرم، والتفسير الأرجح أنهم لو استمروا بزاوية ميل ٥٤° ١٤َ فإن ارتفاع الهرم سيكون شاهقاً وقد يؤدي إلى انهياره.

آخر الأهرامات السابقة للهرم الكامل بني في ميدوم، إلى الجنوب من دهشور بمسافة ثمانية وعشرين ميلاً تقريباً.

لقد بُني الهرم على شكل ثمان درجات ثم ملئت الدرجات بالأحجار المحلية، ثم غطي محل البناء بواجهة ناعمة من الحجر الجيري المجلوب من محاجر طره شمال حلوان. وبهذه الطريقة تحول هذا البناء إلى هرم هندسي كامل.



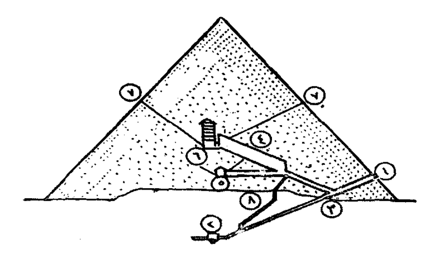
وهـرم خوفـو، أو الهـرم الأكبر ـ على بُعد خمسـة أميال غـرب الجيزة ـ يمثـل أعظم ما وصـل إليـه بنـاء الأهرام مـن حيـث الحجم والدقـة. وقد قـدَّر بعض الباحثيـن أنه عندما كان كاملاً كان يحـوي ٢٣٠٠٠٠٠ كتلة حجرية تقريبـاً، تزن كل منها ٢,٥ طـن في المتوسط تقريبـاً، ويصل وزن بعضها إلـى ١٥ طنّاً، ولم يحـظَ أثر في مصر بما حظي به الهرم الأكبر مـن رسـوم ومقاييـس وفحـص، وظهـر فـي السنـوات الأخيـرة عدد مـن النظريـات التي تفترض بأن لزواياه وأبعاده معاني خفية.

أبعـاد الهـرم الشمالـي ٧٥٥,٤٣ قدمـاً، والجنوبي ٧٥٦,٠٨ قدمـاً، والشرقي ٧٥٥,٨٨ قدمـاً، والغربـي ٧٥٥,٧٧ قدماً، وفـي الوقت الذي لا يتفـق فيه جانبان في الطـول نجد أن الفـرق بين أطولهـا وأقصرهـا لا يتعدى ٧,٩ بوصات، واتجـاه كل جانب مـن جوانب الهرم يـكاد يكـون مضبوطـاً علـى خطـوط الشمال والجنوب والشرق والغرب الحقيقية.

عندمـا كان الهـرم كامـلاً كان ارتفاعـه ٤٨١,٤ قدماً ونقـص الآن ٣١ قدماً من قمته، فمـن المحتمـل أنـه كان ينتهـي بهريـم مـن الجرانيـت في قمتـه، قد أزيل مـن قمته، كما نُزعت من جوانبـه كل أحجار الكسوة الجيرية باستثناء بعض الأحجار عند القاعدة.

وتميـل جوانـب الهـرم بزاويـة مقدارهـا ٥٢ـ٥١° تقريبـاً نحـو الأرض، وتغطي قاعدته مساحة قدرها ١٣,١ فدان.

نرى تحـت المدخـل الأصلي فـي الواجهة الشماليـة فتحة كبيـرة قدَّت بـدون عناية في قلب البناء، وبناء على بعض الأخبار المتواترة مـن العصر الإسلامي فـإن تاريخ هذه الفتحة يرجـع إلى الجـزء الأخير من القـرن التاسع، وأنهـا فُتحـت بأمـر مـن الخليفـة العباسـي المأمون، وذلك تحت تأثيـر الاعتقاد الخاطئ بأن الهرم يحوي كنزاً مخبوءاً. فقد بقي الهرم حتى عهـد المأمـون سليم البنـاء بالرغم من نهب محتوياتـه، وبعد ذلك العهد أصبح الهرم الأكبر محجـراً ميسوراً لا ينضـب معينه، يمد مَن يشاء بالأحجار اللازمة.



يقع مدخل الهرم فـي الواجهة الشمالية، على ارتفاع نحو ٥٥ قدماً فوق مستوى الأرض (الشـكل ١ ـ ١). وينحـدر مـن المدخل ممر عرضـه ٣ أقـدام و٥ بوصـات، وارتفاعـه ٣ أقدام و١١ بوصة تدريجيّاً بزاوية قدرها ٢٦° ٣١َ ٢٣ً، يسير أولاً في قلب بناء الهرم ويستمر بعد ذلك في الصخر، وبعد مسافة ٣٤٥ قدماً يصبـح الممر مستوياً ويستمـر أفقيّاً لمسافة ٢٩ قدماً وينتهي بحجرة (الشكل ١ ـ ٢)، وفي الجـدار الجنوبي لهـذه الحجـرة فتحة تؤدي إلى ممر مقفل. أبعاد هذه الغرفة: الطول ٤٦ قدماً، والعرض ٢٧ قدماً، والارتفاع ١١ قدماً. كانـت هـذه الحجـرة مقـرراً لهـا أن تصبح غرفة دفن، وعندما قرر المهندسون استبدال حجرة الدفن السفليـة المنحوتة في الصخر بأخـرى ضمـن بنـاء الهـرم كانـت المباني العلويـة للهرم قـد وصلت إلى ارتفـاع بضعة

أقدام، ولهذا عملوا ثقباً في بناء سقف الممر المنحدر السابق عند نقطة تبعد حوالي ٦٠ قدماً من المدخل، ثم نحتوا ممرّاً جديداً صاعداً إلى الأعلى في قلب البناء (الشكل ١ ـ ٣)، وملئت فوهة هذا الممر بعد الدفن بكتلة واحدة من الحجر الجيري. وفي أثناء تشييد الممر الصاعد، ربما كان قصد البنّائين أن تحتل حجرة الدفن مكاناً في وسط الهرم في الجزء العلوي منه من دون أن ترتفع كثيراً فوق مستوى الأرض. وقد بنوا تلك الحجرة فعلاً في نهاية ممر يبدأ من أعلى الممر الصاعد (الشكل ١ ـ ٥)، وسمّاها العرب حجرة الملكة. وتقع هذه الحجرة في وسط الهرم تماماً بين جانبَي الهرم الشمالي والجنوبي، وأبعادها ١٨ × ١٧ قدماً وارتفاعها ٢٠ قدماً. وفي الجدارين الشمالي والجنوبي نجد فتحات صغيرة مستطيلة يتفرع منها منافذ تمتد أفقيّاً ثم تنحرف (الشكل ١ ـ ٦).

وأدى تغيير تصميم الهرم وعدم الانتهاء من تشييد حجرة الملكة إلى بناء عملين من أشهر الأعمال الهندسية، وهما الدهليز الكبير وحجرة الملك. فقد بُني الدهليز الكبيرالشكل (١ ـ ٤) كاستمرار للممر الصاعد، ويبلغ طوله ١٥٣ قدماً وارتفاعه ٢٨ قدماً، وترتفع جدرانه المبنية بالحجر الجيري المصقول رأسيّاً إلى ارتفاع ٧ أقدام و٣ بوصات، ثم تبتدىء المداميك الباقية ـ عددها سبعة ـ يميل كل منها إلى الداخل أكثر من المدماك الذي يرتكز عليه بمقدار ٣ بوصات، فيتكوَّن من ذلك سقف متداخل ذو أبعاد أعظم من أي سقف آخر من هذا النوع.

وفي أول الدهليز فتحة تؤدي إلى بئر تهبط تارة عمودية وتارة أخرى تميل أولاً في قلب بناء الهرم ثم في الصخر حتى تنفذ في الجدار الغربي للممر النازل (الشكل ١ ـ ٨). وكان الهدف من البئر هو تأمين مخرج للعمال بعد سد الطرف العلوي للممر الصاعد. ونزل العمال عبر البئر إلى الممر النازل، وبعد أن وصل آخر عامل إلى قاع البئر غطيت الفتحة، التي هي في الجدار الغربي من الممر النازل، بكتلة من الحجر وبذلك لا يمكن تمييزها عن باقي الممر.

وتؤدي درجة سلم مرتفعة في الطرف العلوي من الدهليز الكبير إلى ممر ضيق منخفض يفضي إلى حجرة الملك التي بنيت من حجر الغرانيت، وتبلغ أبعادها ٣٤ × ١٧ قدماً وارتفاعها ١٩ قدماً. ويوجد في الجدارين الشمالي والجنوبي ـ على ارتفاع ٣ أقدام من الأرضية ـ فتحتان مستطيلتان لمنفذين يخترقان بناء الهرم وينفذان إلى سطحه الخارجي (الشكل ١ ـ ٧). ويقوم بالقرب من الجدار الغربي تابوت مستطيل من الجرانيت بدون غطاء، كانت فيه يوماً ما جثة الملك خوفو.

يتكون سقف حجرة الملك من تسع كتل حجرية تزن في مجموعها ٤٠٠ طن. أقيمت فوق حجرة الملك خمس حجرات منفصلة، سقف الأربع الأولى منها مسطح، أما سقف الحجرة الخامسة فمقبَّب، وكان الغرض من بناء هذه الحجرات تخفيف الضغط عن حجرة الملك، وكان للهرم الكبير باب متحرك يسقط من أعلى إلى الأسفل، وهو مكوَّن من كتلة حجرية واحدة مثبتة في عقبين في الجزء العلوي من جانبَي المدخل.

خلال السنوات الماضية طُرح الكثير من النظريات عن طريقة بناء الهرم ولم تثبت نظرية حتى الآن.

لقد قامت في مصر حضارة لا نستطيع أن نلمَّ بجميع جوانبها في عددٍ من الصفحات. فمثلاً، العمارة وحدها تحتاج إلى مجلدات لعرض ودراسة المعابد المصرية وخاصة معابد الدولة الحديثة، مثل معبد أبو سمبل المحفور في الصخر على عمق ٤٧ متراً، والمقابر المحفورة في بطن وادي الملوك بنقوشها وألوانها وممراتها، لذلك اقتصرتُ على الجوانب المهمة من هذه الحضارة، حتى يتعرف الأبناء على تراث الأجداد.

ولم تقتصر الحضارة المصرية على حدود مصر، وإنما امتد تأثير هذه الحضارة إلى البلدان المجاورة، كسوريا ولبنان وجزر اليونان وليبيا والسودان وشبه الجزيرة العربية والعراق والأناضول.

المصادر والمراجع

- أدواردز، أ.س.: **أهرام مصر**، ترجمة مصطفى أحمد عثمان، مكتبة الأسرة ١٩٩٩.
- إفرسن، أريك: **القوانين الفنية التقليدية**، في: ج. هاريس ـ **تراث مصر**.
- بوزنر. ج: **(الأدب)** في ج. هاريس ـ **تراث مصر**.
- بيك، وليم. هـ: **فن الرسم عند قدماء المصريين**، ترجمة مختار السويقي، هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٧.
- تشرني ج.: **(اللغة والكتابة)** في ج. هاريس ـ **تراث مصر**.
- تشرني، ياروسلان: **الديانة المصرية القديمة**، ترجمة أحمد قدري، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة، ١٩٨٧.
- تومر، ج.: **(علم الرياضيات وعلم الفلك)** في ج. هاريس ـ **تراث مصر**، ترجمة صالح بدير، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة ٢٠٠٤.
- جيمنر، ت.ج.: **الحياة أيام الفراعنة**.
- حندوسة، تحفة: **الزواج والطلاق في مصر القديمة**، المجلس الأعلى للآثار، القاهرة ١٩٩٨.
- حواس، زاهي: **معجزة الهرم الأكبر**، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٣.
- دوما، فرانسوا: **حضارة مصر الفرعونية**، ترجمة ماهر جويجاتي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ١٩٩٨.
- رينيس، بياتريكس ميدان: **عصور ما قبل التاريخ في مصر**، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ٢٠٠١.
- شكري، محمد أنور: **الفن المصري القديم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨.
- شوزتر، آلن: **الحياة اليومية**، ترجمة نجيب ميخائيل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- صالح، عبد العزيز: **التربية والتعليم في مصر القديمة**، الدار القومية للنشر، القاهرة ١٩٦٦.
- قره، عبود: **الهرم الأكبر وأبعاده الكونية**، دار رسلان، دمشق ٢٠٠٨.

- القمني، سيد: **أوزيريس وعقيدة الخلود في مصر القديمة**، دار الفكر، القاهرة ١٩٨٨.
- كمال، حسن: **الطب المصري القديم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨.
- لالويت، كلير: **نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة**، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٦، ج١، ص٢٩٢.
- ليشتنبرج، روجيه، فرانسوا دونان: **المومياوات المصرية، جزءان**، ترجمة ماهر جويجاتي، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٧.
- ماكولاي، دافيد: **كيف بني الهرم**، ترجمة طاهر عبد الحكيم، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٣.
- نور الدين، عبد الحليم: **اللغة المصرية القديمة**، القاهرة ١٩٨٩.
- هاريس، ج.: **(التكنولوجيا والمواد)** في ج. هاريس ـ **تراث مصر**.
- هوسون، جونيفييف ودومينيك فالبيل: **الدولة والمؤسسات في مصر**، ترجمة فؤاد دهان، دار الفكر، القاهرة ١٩٩٥.

- Caminos. R.A., Late Egyptian Miscellanies, Oxford 1954.
- Gardiner, A.: Egyptian Grammer, Oxford 3rd. Ed. 1957.
- Gardiner, A.: Egyptian Hieratic Texts, 1, Leipzig 1911.
- Gardiner, A. Late Egyptian Miscellanies, Bruxelles 1937.
- Lucas, A., Ancient Egyptian Materials and Industries, London, 1962.
- Panofsky, D.: (The History of the Theory of Human Proportions of a Reflection of the History of Styles) in Meaning in the Visual Arts, New York, 1955.
- Parker, R., The Calendars of Ancient Egypt, Chicago 1950.
- Smith, E. and Dawson, W.R., Egyptian Mummies, London 1924.



الحضارة المعينية

أ. د. محمد سهيل طقوش



نشأت أقدم الدول العربية في اليمن (انظر اسم اليمن وموقعه في بحث الحضارة الحِميرية.) بفعل موقعها الجغرافي على طريق القوافل التجارية، ووفرة مواردها الاقتصادية، والظروف السياسية التي أحاطت بها، وتعدُّ الدولة المعينية أقدمها، وقد بلغتنا أخبارها عبر الكتابات المدوَّنة بالمسند والكتب اليونانية والرومانية، ولم يرد ذكر لها في المصادر العربية، ثم إن ما ذكرته المصادر المشار إليها عن بلدتَي معين وبراقش لا يتجاوز كونهما موضعين بالجوف بين نجران وحضرموت، أو محفدين (منطقتين أو مركزين) من بين محافد اليمن وقصورها القديمة.

ورد اسم معين في المصادر اليونانية والرومانية وعاصمتها مدينة قرنا، وظلَّت حضارة المعينيين مجهولة حتى كشف أحد العلماء الغربيين وهو جوزيف هاليفي عن آثارها في عام ١٨٧٤م، والواقع أنه على الرغم من كثرة النقوش التي وُجدت عن هذه الدولة، فإن معظمها لا يحوي أكثر من أسماء ملوك وأشخاص، وتسجيل بعض الأحداث الشخصية أو الخاصة، ما ترتَّب عليه اختلاف الباحثين في تحديد تاريخ بداية هذه الدولة وتاريخ انتهائها، والتواريخ المقترحة تتراوح بين القرن الخامس عشر قبل الميلاد والقرن الأول الميلادي، وحدَّد بعضهم تاريخ الدولة المعينية بين سنتَي (١٣٠٠ و٦٥٠ ق.م).

قامت الدولة المعينية في الجوف شرقي صنعاء، بين نجران وحضرموت، وهي أرض خصبة ذات مياه كثيرة، اشتغل أهلها بالزراعة والتجارة، وكانت الظروف الدولية مؤاتية لها. ففي مصر لم يتمكَّن ملوك الأسرة الحادية والعشرين الضعفاء من التدخل في شؤون الجزيرة العربية، وكان يحكم بابل ملوك ضعاف، وفي آشور كان تغلث فلاسر منهمكاً في حروبه في شمالي العراق، وقد ساعدت هذه الظروف المعينيين على تثبيت مُلكهم ومَد نفوذهم التجاري في الشرق الأدنى بعد أن سيطروا على الطرق التجارية بين الشمال والجنوب.

كان نظام الحكم في هذه الدولة ملكيّاً وراثيّاً من الأب إلى الابن، وقد يشترك الاثنان معاً في الحكم، كما قد يشترك أكثر من ملك في اسم واحد، لكن يتميز بعضهم عن بعض بالألقاب مثل: المنقذ أو المخلِّص، والصديق أو الصادق، والعادل والفخور والسامي. ولُقِّب الملوك في بداية عهد الدولة بلقب مزواد، ولعل هذا اللقب يتضمن معنى الكهانة فضلاً عن الحكومة، فيكون المراد بقولهم مزواد معين، حاكم معين وكاهنها.

لعل أول الملوك المعينيين كان «اليفع وقه» وقد عُثر على اسمه مكتوباً في النقوش المعينية في مدينة نشان وفي براقش، وقد خلفه في الحكم ابنه «وقه إيل صدق» الذي ذُكر اسمه مع اسم والده، كما ذُكر مع اسمه اسم ابن آخر له هو «أبو كرب يثع». ومن بين الملوك الذين ذُكر اسمهم في نقوش معينية الملك «أب يدع يثع»، وقد جرى في عهده ترميم أسوار قرنا (معين) وخنادقها، وقد نشبت في عهده حروب بين اليمن وبين إحدى دول الشمال.

ومن ملوك المعينيين «وقه إيل روام» و«يثع

إيل صدق» وقد بنى هذا الأخير حصن يشبوم. وقد أشارت بعض النقوش إلى سوء الحالة السياسية في عهدَي «يثع إيل ريم» وابنه «تبع كرب»، وهما من الملوك المتأخرين، ما أدى إلى خضوع معين لسلطان سبأ بدليل إشارة النقوش إلى اعتراف معين بسلطان وآلهة وملوك وشعب سبأ.

وعرفت مدن هذه الدولة ما يمكن أن يُسمَّى بنظام الحكم المحلي، فكانت لهم مجالس تدير شؤونهم في السلم والحرب تسمَّى مزود، وكأنها حكومات محلية، ما يحملنا على الاعتقاد بأن حكومة معين هي حكومات مدن. تتألف مملكة معين من مقاطعات، على رأس كل مقاطعة ممثل عن الملك يُعرف بـ«كبر» أي الكبير، ويرد اسمه في النصوص بعد اسم الملك، يُنتخب لمدة سنة قابلة للتجديد ويعاونه مجلس من المشايخ. ويبدو أنه كانت لهؤلاء الممثلين مكانة سامية، إذ كانت تُدوَّن أسماؤهم في سجلات المدينة أو المعبد، ويذكرهم المؤرخون في وثائقهم حتى أن بعض الملوك كانوا يؤرِّخون توليتهم ويُحددونها بذكر اسم الملك الذي كان حاكماً آنذاك.

تنوَّعت الضرائب في معين، فهي على ثلاثة أنواع:

- ضرائب تعود جبايتها إلى خزانة الملك.
- ضرائب تؤول جبايتها إلى المعابد.
- ضرائب تذهب إلى خزائن مشايخ القبائل والحكام.

وتُجبى الضرائب من التجار والمزارعين وسائر طبقات الشعب الأخرى، يجمعها مشايخ القبائل والحكام والكبراء بوصفهم الهيئات الحكومية العليا، وبعد إخراج حصصهم يُقدِّمون ما عليهم للملك، أما الواردات من المصادر الأخرى، مثل تأجير أملاك الدولة، فتكون باتفاق خاص مع المستغل وبعقد يتفق عليه. ومن الضرائب: كتابات العقود والديون وضريبة دُعيت بفرعم، أي فرع، وأخرى عُرفت بعشرم، أي عشر، تؤخذ من الحاصل.

وكان للمعابد جبايات خاصة من النذور والهبات ومن أراضي واسعة تستغلها، فكانت على شيء واسع من الثراء، ويُعبَّر عن النذور والهبات التي تُقدَّم للمعابد بلفظتَي كبودت، وأكرب، أقرب، أي ما يُتقرَّب به إلى الآلهة.

ويتعهَّد الكبراء ورؤساء القبائل والحكام بإنشاء الأبنية العامة الحكومية وأسوار المدن وبناء الحصون والأبراج والمعابد وغيرها، مقابل ما هو مفروض عليهم من ضرائب وواجبات أو تفويض التصرف في الأراضي العامة، فإذا تمت الموافقة عُقد عقدٌ بين الطرفين من أجل ذلك.

وتعهد المعابد أيضاً لرؤساء القبائل والحكام، القيام بالأعمال التي تريد القيام بها مثل إنشاء المعابد في المدن وصيانتها وترميمها والعناية بأملاكها وباستغلالها من خلال زرعها واستثمارها نيابة عنها. وكان على المعابد أداء بعض الخدمات العامة للشعب مثل إنشاء مبانٍ عامة أو تحصين المدن ومساعدة الحكومة في التخفيف عن كاهلها وذلك مقابل إعفائها من الضرائب.

تعامل المعينيون القدماء بالمقايضة العينية، وهو النظام الذي كان سائداً آنذاك، فدفعوا بها للحكومة وللمعابد ما عليهم من

حقوق وكذلك أجور الموظفين والمستخدَمين والعمال والفلاحين، واستمرت هذه العادة حتى الأيام التي ظهرت فيها النقود. وقد عرف المعينيون النقود وضربوها في بلادهم حوالي عام ٣٤٣ ق.م، فقد عُثِر على قطعة نقد معينية عليها صورة ملك جالس على عرشه وقد وضع رجليه على عتبة وهو حليق الذقن متدلٍّ شعره ضفائر، وقد أمسك بيده اليمنى وردة أو طيراً، وأمسك بيده اليسرى عصا طويلة وطبع اسمه خلفه وهو «أب يثع»، وأمامه الحروف الأولى من اسمه، وهي تقليد للنقود التي ضربها الإسكندر المقدوني الكبير مع فارق أن عملة «أب يثع» قد استُبدلت فيها الكتابة اليونانية بكتابة اسم الملك، والمعروف أن نقود الإسكندر والنقود التي ضربها خلفاؤه من بعده كانت مطلوبة ومرغوبة في منطقة الشرق الأدنى، وقد دخلت إلى بلاد العرب مع التجار ورجال الحملة الذين أرسلهم لاحتلال بلاد العرب، فتلقَّفها التجار هناك وتعاملوا بها، وأقبلت عليها الحكومات ثم أقدمت على ضربها في بلادها.

كان في كل مدينة معبدها الخاص الذي يحوي إلهاً أو أكثر ويسمى باسمه وتُنذَر له النذور، ويشرف رجال الدين على إدارته ويقومون بالشعائر الدينية. ويُعرف الكاهن بـ«شوع». ونذكر من آلهة معين: عثتر ويرمز إلى الزهرة ويُلقَّب غالباً بـ«ذ قبضم» فيقال «عثتر ذ قبضم»، كما ورد «عثتر ذ يهرق» ويهرق اسم مدينة من مدن معين. وود، الذي يرمز إلى القمر، ونكرح، الذي يرمز إلى الشمس، وهي عبادة كواكب ستنتشر في العربية الجنوبية بعد المعينيين، وتتمثل بالثالوث: القمر والشمس والزهرة.

امتدَّ نفوذ المعينيين إبان قوة دولتهم إلى شواطئ البحر الأحمر والخليج العربي وبحر العرب، أي أنه شمل معظم أجزاء الجزيرة العربية، ومع ذلك لا يبدو أن الدولة المعينية كانت دولة عسكرية غازية بقدر ما كانت دولة تجارية. وامتد هذا النفوذ السياسي إلى شمالي الحجاز فشمل معان، وريدان، والعلا، ومدين، واتخذها المعينيون مستوطنات لهم وزوَّدوها بحاميات عسكرية وجاليات جنوبية من الأوساط التجارية. والمعروف أن الطريق التجاري البري الذي يربط اليمن والشام ومصر ويمر غربي تيماء، كان تحت سيطرة المعينيين خلال مراحل تاريخهم.

أدَّى توسُّع المعينيين باتجاه الشمال إلى احتكاكهم بأشور وفينيقيا ومصر، وكان حكام أشور في سوريا يتعاملون مع المقيمين في الواحات. وتحتَّم على المعينيين، من واقع ممارستهم التجارة، أن يتعلَّموا القراءة والكتابة لتدوين الحسابات التجارية، فاقتبسوا الأبجدية الفينيقية التي كانت شائعة آنذاك، ودوَّنوا لغتهم بها، وقد عُثر على كتابات معينية في الجيزة بمصر، وجزيرة ديلوس اليونانية، ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وكذلك في أور والوركاء في بلاد ما بين النهرين، وتشير هذه الكتابات إلى أن المعينيين، حتى بعد سقوط دولتهم، ظلُّوا يحتفظون بكيانهم الاجتماعي وتقاليدهم التجارية.

قضى السبئيون على الدولة المعينية،

وكانوا قد بدأوا حياتهم السياسية كإمارة صغيرة، أخذت تتوسع تدريجاً حتى سيطرت على كامل اليمن، إلا أن المعينيين ظلوا يتمتعون بحكم بلادهم الداخلي ويمارسون نشاطهم التجاري، ويبدو أن انتقال السيادة هذا ظهر في الوقت الذي عجزت فيه معين عن حماية قوافلها التجارية، وضعف حكامها المقيمون في المراكز التجارية التي تمر بها طرق القوافل؛ عن مواجهة القبائل المعادية واللصوص الذين كانوا يهاجمون القوافل التجارية، وربما دبَّت الفوضى في المملكة بدليل وجود اثنين أو أكثر، كل منهما يُلقب بلقب ملك في وقت واحد.

خاتمة

ورثت الممالك العربية التي قامت في اليمن في أعقاب المعينيين نظم هؤلاء وبخاصة الاقتصادية، فقد عمل القتبانيون بالتجارة وحقَّقوا من وراء ذلك أرباحاً ضخمة، وأضحت لهم قوة عظيمة كان لها أثر كبير في إضعاف نفوذ المعينيين. وعندما قضى السبئيون على المملكة المعينية وأقاموا دولتهم على أنقاضها، ورثوا لغتها وديانتها وتقاليد شعبها وتجارتها، فنقلوا التجارة بين الهند والحبشة وبين الشام ومصر والعراق، وأضحوا في القرون الأولى قبل الميلاد أعظم وسطاء التجارة الشرقية.

المصادر والمراجع

- زيدان، جرجي: **العرب قبل الإسلام**. دار الهلال، القاهرة.
- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء الثاني، دار العلم للملايين، بيروت.
- موسل، لويس: **شمالي الحجاز**، تعريب عبدالمحسن الحسيني، الإسكندرية، ١٩٥٢م.
- نلسن، ديتليف: **بلاد العرب الجنوبية**، فصل في كتاب **التاريخ العربي القديم**، تعريب فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣م.
- Albright, W.F.: **The Chronology of the Minaen Kings of Arabia**. Bulletin of the American School of Oriental Research. New Haven 1953.
- Philby: **Background of Islam**. Alexandria 1947.

الحضارة الميدية

أ. د. جمال البدري



الميديـون سـت قبائـل هـي: (الفيلية، باريتـاك، ستروخات، آريـا، بودي، موغي)، ومن اجتماع هـؤلاء جاءت (الميدية) ومنها اشتقـت تسميـة الآريـين؛ وأول مَـن أطلـق عليهم هذه التسمية المؤرخ اليوناني القديم (هيرودوت)، وهم من سـكان هضبة إيران القديمـة؛ فـي أقاليـم الشمـال الغربي، أي كردسـتـان وآذربيجـان وكاردوخ. ورغـم غمـوض أصولهـم السلاليـة الأولـى لكنهم عُرفوا لأول مرة بشكل (سياسي) عام ٨٣٦ قبـل الميـلاد عندما دفعـوا الجزيـة لملك آشور شلمنصـر الثالث، ويُعتقد أنَّ أصولهم قـد هاجرت من منطقة نهـر الفولغا جنوب روسيا سنة ١٥٠٠ قبـل الميلاد إلى الشمال الغربـي الإيرانـي؛ وهناك أسسـوا مملكتين إحداهمـا في شمـال الإقليم هـي (ميديا) والثانية فـي الجنوب هي (باريسيس)، ومن الأخيرة اشتُقَّ اسم بلاد فارس؛ لكن هـاتين الإمارتيـن اتفقتـا علـى توحيـد شؤونهمـا وإطلاق اسـم (أرض الآريـين) على عموم بلاد إيران القديمة.

ويشيع البعض أنَّ للميديين علاقة بأصل الشعـب الكردي، ولعـلَّ ذلك راجـع إلى أنَّ الميديين تمكنوا في منتصف القرن السابع قبـل الميـلاد مـن تكويـن أول امبراطورية ميدية في مناطق جبال زاغروس بين إيران والعراق؛ حيث تسكن قبائل الأكراد؛ بزعامة الملك الميدي فرورتيش (٦٦٥ ـ ٦٣٣ ق.م)، وهو أول امبراطـور لهذه المملكة؛ وجاء من بعـده ابنـه الملـك (وخشتـره)، وفـي هذه المرحلة ظهرت (الأمة الكردية).

وفي القرن السـادس قبل الميلاد، تمكن الميديون والفُرس معاً من إنشاء امبراطورية ضخمة امتدت إلى ما يُعرف الآن بآذربيجان وآسيـا الوسطـى وأفغانستـان، واتـخـذوا الزرادشتية ديانة لهم. وهكذا نجح الميديون في توحيد أقـوام وشعوب عدة وتكوين جيش قوي، وتمكنوا في سنة ٦١٢ قبل الميلاد من تدميـر عاصمـة الأشوريين فـي نينوى على عهـد الامبراطـور المدعـو سياكسريـس (٦٢٥ ـ ٥٩٣ ق.م). هـذا الحدث أوقع خشية فـي قلوب البابليـيـن الذين بـادروا إلى عقد الصلـح مع الميديـين؛ وقام الملـك البابلي نبوخـذ نصَّـر بالزواج مـن ابنـة امبراطور الميديـين. واستمـر نفـوذ الميديـين فـي المنطقة إلى أنْ تمرَّد عليهم الملك الفارسي قورش الكبير؛ وحقق انتصاراً ساحقاً عليهم سنة ٥٥٣ قبل الميلاد، وبذلك انتهت مملكة ميديـا. وأهـم المنجـزات التـي حققهـا الميديون:

أ ـ صهـر الثقافات القديمـة في الشمال الغربـي الإيراني مـع مثيلاتها فـي الشمال الشرقـي العراقـي، وتكويـن امبراطوريـة بزعامـة الميديين الفُـرس؛ وتضـم أقواماً عـدة من أجنـاس مختلفة الأصـول واللغات لكنها مؤتلفة بقوة بعضها مع بعض.

ب ـ شهـد العمـران فـي عهدهـم تطـوراً وخاصـة المعابـد الزرادشتيـة التـي مـا زال بعضها شاخصاً في إيران.

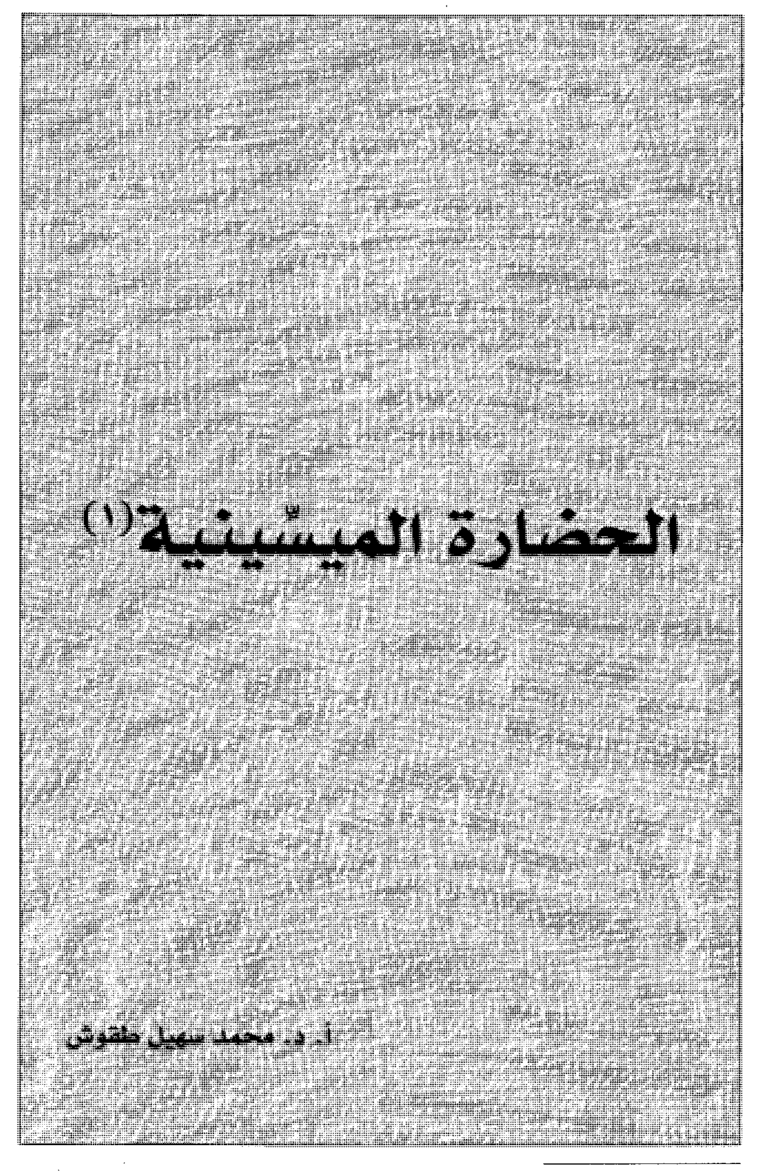
جـ ـ الجيـش؛ وقـد نعمـت المنطقة رغم تضاريسهـا الجبليـة الوعرة بالأمـن والرخاء التجـاري والزراعـي طوال عهدهـم السياسي بسبـب قدرتهم على بناء جيـش فعَّال لحماية منجزاتهم الحضارية.

د ـ ولعلَّ أبرز ما تركوه من بعدهم رواج تسمية إيران على عموم البلاد؛ بعدما صبغوا إيران القديمة بالثقافة الاجتماعية والسياسية الآرية.

وكانت نهايتهم بسبب المباغتة التي قام بها الملك قورش الكبير عليهم وإسقاطهم ككيان مستقل وضمهم إلى امبراطوريته العتيدة، وقد تقبَّل الميديون ذلك لاحقاً لصلة قورش بهم من جهة أمه، وهذا ساعد كثيراً على توحيد الدولة والمجتمع؛ وتشكيل اللغة القومية التي هي اللغة البهلوية (بالباء الفارسية)، وأقدم ما عُثر عليه من نقوش لهذه اللغة تعود للقرن الثالث قبل الميلاد؛ وقد عاشت هذه اللغة (١٢٠٠) سنة من بعد قورش؛ وكانت اللغة الرسمية للدولة الساسانية التي ورثت الدولة الأخمينية؛ ولم تتغلب عليها سوى اللغة العربية؛ بعد الفتح الإسلامي لبلاد فارس، واليوم تكاد تشكِّل اللغة البهلوية اللغة الفصحى في إيران، وهي لغة الثقافة إلى جانب اللغة الفارسية الدارجة.

المصادر والمراجع

- باقر، طه: **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة**؛ ج١؛ مديرية الآثار العامة؛ بغداد ١٩٥٥.
- بيرينا، حسن: **تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني**، ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم والسباعي محمد السباعي؛ القاهرة ١٩٧٩.
- سايكس، برسي: **نهضة الفرس الحربية والثقافية**: عن موسوعة **تاريخ العالم**؛ المجلد الرابع (جون هامرتن).
- سليم، أحمد أمين: **إيران منذ أقدم العصور**؛ دار النهضة العربية؛ بيروت ١٩٨٨.



(١) انظر أيضاً الحضارة الإيجية.



موقع بلاد اليونان وجغرافيتها

قامت الحضارة الهلّادية في بلاد اليونان في عصر البرونز (٢٥٠٠ـ١١٠٠ ق.م). والواقع أن بلاد اليونان بمفهومها الجغرافي كانت ذات أهمية بالغة من الناحية التاريخية، فهي بمثابة الحاجز الأمامي لأوروبا في مواجهة غزوات الشرقيين، وإذا نظرنا إليها من البر الآسيوي نجد أنها تقع على الطرف الغربي للعالم المتمدن، ولهذا تعرضت للمؤثرات الوافدة من أقطار الشرق الأدنى القديم. وتُعدُّ هذه البلاد مكشوفة من ناحيتَي الشرق والجنوب، فلا تعزلها عن وسط أوروبا أي عوائق طبيعية.

تنقسم بلاد اليونان إلى وحدات سياسية صغيرة تُعرف كل منها باسم بوليس، وتعني المدينة الحرة أو دولة المدينة، وذلك بفعل عوامل الجبال غير المنتظمة التي تقطع البلاد في الاتجاهات كلها وتقسمها إلى مرتفعات كثيرة وسهول قليلة، وتجعل الاتصال بين أجزائها صعباً إن لم يكن متعذراً، ويتوغل البحر فيها ويجعل سواحلها كثيرة التعاريج أو يقطعها إلى جزر وأشباه جزر، أو يقسم البلاد إلى قسمين كبيرين حال دون تحقيق وحدتها السياسية، وقد نشأ عن ذلك خليج عميق هو خليج كورنثة الذي فصل البلوبونيز عن وسط بلاد اليونان، وتسبَّب في ثنائية التاريخ اليوناني بين قوة أثينا في الشمال وقوة إسبارطة في الجنوب. وقد زاد من حدة هذا التقطُّع سلسلة جبال بِندوس التي تمتد على شكل قوس من البلقان الغربية إلى بلاد اليونان وجزر البحر الإيجي وغربي آسيا الصغرى، وتتفرع عنه شعاب عدة تكتنف الجانب الشرقي من البلاد. ولا يترك تلاصق الجبال سوى ممرات قصيرة بمحاذاة سلاسل الجبال، والأنهار قصيرة المجرى قليلة الماء لا تصلح للملاحة، ومعظم البحيرات لا مصارف لمياهها سوى المسالك والقنوات الجوفية. ولا تخلو بلاد اليونان من السهول، بعضها فسيح مثل سهول تساليا ومعظمها صغير ومحصور بالجبال أو مُطِل على البحر.

وتتباين الظروف المناخية والزراعية والاجتماعية بين الأقاليم، ما أدَّى إلى اختلاف الطباع وأساليب الحياة، وقويت الرغبة في الاستقلال السياسي والاكتفاء الاقتصادي.

الميسينيون عبر تاريخهم

اصطلح علماء الآثار على تسمية حضارة بلاد اليونان في عصر البرونز بالحضارة الهلّادية وقسموها إلى ثلاثة عصور هي:

العصر الهلّادي القديم ٢٥٠٠ـ١٩٠٠ ق.م.
العصر الهلّادي الوسيط ١٩٠٠ـ١٥٥٠ ق.م.
العصر الهلّادي الحديث ١٥٥٠ـ١١٠٠ ق.م.

لم تشهد شبه الجزيرة اليونانية قبل عصر البرونز (٢٥٠٠ ق.م) سوى حضارة فقيرة متدنية، وقد تعرَّضت منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، بفعل اتصالها بالمناطق البلقانية، لغزوات دورية متكررة قام بها الهنود الأوروبيون قادمين من جنوب غربي آسيا الصغرى، ويمتُّون بصلة عنصرية إلى السكان المعاصرين لهم في جزر السيكلايد وكريت، ونجحوا في الإقامة في البلاد. وتوصَّل هؤلاء المستوطنون إلى اعتلاء السلطة في منطقة أرغوليس في الشمال الشرقي من البلوبونيز، وأنشأوا المدن في

منطقتَي ميسِّيني وتيرنثوس، وفي أماكن أخرى، واختلطوا بالسلالات الأخرى الموجودة، وورثوا ثقافات متعددة، والراجح أنهم كانوا يمتُّون بصلة القرابة العنصرية للفريجيين والكاريين سكان آسيا الصغرى وللمينويين سكان كريت، وقد حملوا معهم تأثيرات ما بين النهرين بدليل أن للأسدين اللذين وُجدا في ميسِّيني وجهين شبيهين بأسود تلك البلاد. وتسمي الرواية التاريخية الميسينيين باسم البلاجسيين، وربما كان معنى ذلك أهل البحر، (بلاجوس)، ويصورونهم كأنهم آتون من تراقيا وتساليا إلى أتيكا والبلوبونيز منذ زمن بعيد، ما دفع اليونان إلى أن يطلقوا عليهم السكان الأصليين، لكن توجد دلائل كثيرة على وقوع غزوة تجارية ـ ثقافية، إن لم تكن سياسية ـ عسكرية انطلقت من كريت قام بها الكريتيون أنفسهم أو مهاجرون إلى الجزيرة، بدليل أن قصور ميسيني وتيرنثوس قد خُططت وزُينت على غرار القصور المينوية.

وأتاح موقع ميسيني على الطريق الممتد من خليج أرغوليس إلى مضيق كورنثوس لها أن تفرض إتاوات على التجار والقيام بغارات بحرية ضد السفن التجارية، لكن الميسينيين أدركوا بعد ذلك ما للتجارة من فوائد مادية فاقتدوا بالكريتيين، فهجروا القرصنة ومارسوا العمل التجاري. وما وافى عام (١٤٠٠ ق.م) حتى كان لأسطولهم التجاري من القوة ما مكّنه من الوقوف في وجه سلطان كريت البحري. ورفضت ميسيني أن تنقل بضائعها المصدَّرة إلى مصر عن طريق الجزيرة، وأرسلتها مباشرة إلى هذه البلدة، وقد يكون هذا التصرف سبباً أو نتيجة لحرب انتهت بتدمير القصور الكريتية.

تعرَّض الميسِّينيون في عام (١٣٠٠ ق.م) لضغط الآخيين، وهم شعب يتكلم اللغة اليونانية ويسكن في جنوبي تساليا، ولم يُعرفوا بهذا الاسم قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وقد أطلق هوميروس على حشودهم التي كانت تحاصر طروادة في أواخر القرن المذكور وأوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد هذا الاسم، ويصفهم المؤرخون والشعراء اليونان كما يصفون البلاسجيين بأنهم من أهل البلاد الأصليين، والمعروف أن الآداب اليونانية لا تذكر شيئاً عن غارة آخية على بلاد اليونان، وأضحوا في حوالي عام (١٢٥٠ ق.م) الطبقة الحاكمة في البلاد، وافترضوا أن ثقافتهم والثقافة الميسِّينية، ثقافة واحدة على الرغم من بعض الفوارق بينهما التي تشير إلى أنهم قدموا من الشمال، مثل:

- استعمل الآخيون الحديد الذي لم يعرفه الميسِّينيون.
- كان الآخيون يحرقون موتاهم في حين أن الميسِّينيين والتيرنثيين يدفنون موتاهم.
- إن الآلهة الآخية هي آلهة أولمبية، ولا أثر لذلك في الثقافة الميسِّينية.
- يستعمل الآخيون سيوفاً طويلة وتروساً مستديرة مجهزة بدبابيس لحماية الصدر، ولم يُعثر بين الآثار الميسِّينية على أدوات مشابهة لها.
- يختلف الشعبان في ملابسهما وفي طريقة تصفيف شعرهما.

والراجح أن الآخيين هم قبيلة يونانية انتشر أفرادها من تساليا إلى البلوبونيز نتيجة الزيادة الطبيعية في أعدادهم، وامتزجت دماؤهم بدماء الميسّينيين الذين كانوا في تلك البلاد، وفرضوا آلهتهم السماوية على الآلهة السفلية التي كان يعبدها السكان الذين سبقوهم، أما فيما عدا ذلك فليس ثمة فوارق واضحة بين الثقافتين. ويبدو أن أساليب الحياة عندهما قد انصهرت وأضحت واحدة، ثم زالت الحضارة الإيجية ببطء بعد هذا الامتزاج. وتُعدُّ الحضارة الآخية مرحلة انتقال من الحضارة الإيجية إلى الحضارة اليونانية، وقد قضى عليها الدوريون بعد حرب طروادة، وهم الذين اجتاحوا بلاد اليونان في عام (١١٠٤ ق.م) قادمين من الشمال، وقد توفر لهم الحديد الكافي لأن يصنعوا منه جميع أسلحتهم، فتغلبوا على أسلافهم المسلحين بالبرونز الذين بسطوا سيطرتهم على العالم الإيجي طيلة قرنين لتبدأ منذ ذلك التاريخ الحضارة اليونانية.

الميسّينيون عبر نظمهم

النظام السياسي: إن تعدُّد القصور والمدافن الكبرى يحملنا على الاعتقاد بتعدد الملكيات والأمراء، لذلك وجب القول بوجود إمارات مستقلة أشهرها ميسّيني وتيرنثوس، وهما موقعان غير بعيدين عن بعضهما في منطقة الأرغوليس، ولا تفرض شهرتهما الاعتقاد بعدم وجود غيرهما في مكان آخر. أما القول بأولوية معترف بها لأحد الأمراء بتولي القيادة في المشروعات الجماعية كما في الحرب ضد طروادة، فلا يستند إلا إلى الإلياذة، فقد كان ولاء المدن لميسّينية مطبَّقاً على الأقل في زمن الحرب، فكان متلاوس، ملك إسبارطة، حليفاً لأخيه أغاممنون، ملك ميسّيني، وكذلك كان نستور ملك بيلوس وبقية أمراء المدن، غير أننا نجهل مدى احتفاظ هؤلاء الملوك والأمراء بالعلاقات الودية فيما بينهم زمن السلم، ومع ذلك فإنه من غير المحتمل أن ميسّيني كانت تمارس أي سلطة مركزية على الأنحاء النائية حتى في البلوبونيز نفسها.

كان الحكم في ميسّيني وفي غيرها من المدن فرديّاً مطلقاً، والحكومة مركزية والنظام إقطاعيّاً، يهيمن فيه رجال الطبقة الحاكمة على الإدارة، ويملكون أنصبة من الأرض في مقابل دفع ضرائب نوعية من غلَّة الأرض وتأدية الخدمة العسكرية زمن الحرب، ويهيمن الملك على مرافق الإدارة بواسطة عدد كبير من الموظفين الذين يقومون بمهام كثيرة مثل: مسح الأراضي، مراقبة المقاييس والأوزان، جباية الضرائب، توزيع الأجور العينية، تسجيل البيانات وغير ذلك، وكان نظام الرق مألوفاً، ونظام ملكية الأرض معقداً جدّاً.

شكَّل الحكام طبقة صغيرة متميزة استأثرت بالامتيازات، وهي طبقة وراثية يعتز أفرادها بمكانتهم، ويتفاخرون بالأنساب، ويعيشون على الثروة الموروثة، ويتصفون بالشجاعة، ويتخذون من النبالة شعاراً لهم مع ما يقتضي مركزهم النبيل القيام بمساعدة المحتاجين وحمل السلاح في الحرب وتقدُّم الصفوف في المعركة. والمعروف أن الأمراء يهوون الحرب ويخوضون غمارها، ويمارسون الصيد خارج أوقاتها بهدف المحافظة على

سلامة أجسادهم وقوتها، وقد أحاطهم فنهم بمشاهد تنم عن نشاط عنيف قلَّما نرى مثيلاً له في الفن الكريتي، فالسلطة عندهم تتباهى بالقوة الفظة.

النظام الاجتماعي: كان القصر في ميسِّيني يهيمن على كل مرافق الحياة، ويتم عن طريقه توزيع الأجور والأقوات، وعرفت هذه المدينة والمدن الأخرى نوعين من أنواع الملكية، الخاصة التي يملكها الأفراد، والعامة التي تمتلكها الدولة، وتحديداً الملك وحاشيته من القادة المتنفذين، ويعكس هذان النوعان مجتمعاً ثنائيّاً وتمييزاً بين طبقتين: طبقة الحكام وطبقة العامة.

تتضمن طبقة الحكام الملك وأتباعه الذين يتميزون باقتران أسمائهم بأسماء آبائهم، ويُسند الملك إليهم مهامّاً عسكرية ومدنية خاصة، بالإضافة إلى ولاية المدن التابعة، ويُطلق عليهم أحياناً ملوك المدن.

وتتضمَّن طبقة العامة المهنيين وأصحاب الحرف، وهم يُقسمون إلى طوائف مهنية لكل طائفة اسم يميزها عن غيرها، ولها نصيب معين من القوت يوزَّع عليها وتخصُّص معروف في العمل مثل: النجارة، والبناء، وصناعة السفن، والفخار، والغزل، والنسيج، والعطور، والسباكة، وصياغة الذهب، والأطباء، والمنادين (الحجّاب). وهناك فئة العبيد بعضهم مملوك للأفراد وأغلبهم عبيد للآلهة، وهو اصطلاح ربما يدل معناه على وضع اجتماعي مختلف.

كان المجتمع في ميسِّيني خاضعاً لرقابة إدارية وتفتيش مستمر يتولاه عدد كبير من الموظفين يرفعون تقارير دورية إلى رؤسائهم ويُقدِّمون البيانات والإحصاءات إلى موظف خاص مقيم في القصر ليتولى قيدها في سجلاته.

كانت الحياة الاجتماعية في البلاط الميسِّيني أقل روعة منها في كريت على الرغم من رغبة الميسينيين الواضحة في التقليد، فقد قلَّدت النساء الميسِّينيات في ملابسهن وزينتهن نساء كنوسوس، ويظهر ذلك في أحد الرسوم الجدرانية في ميسِّيني، ولكنهن أهملن التمارين الرياضية ما أثَّر في قوامهن وحرية سلوكهن الخارجي.

ويُرجَّح أن الحياة داخل القصور الميسِّينية لم تشهد احتفالات على درجة عالية من اللطافة والأناقة، ولعل لذلك علاقة بطبيعة القوم التي تميل إلى القوة والجلفة، وأن الرجل بفضل دوره العسكري قد فرض نفسه على الحياة الاجتماعية، ويمكننا أن نعتقد، استناداً إلى بعض الخطوط المستعارة من المجتمعات الهوميروسية، بوجود جماعات من الحاشية تربطهم بالأمير صداقة شخصية، ويمكن القول نفسه عن العلاقة بين الطبقة الحاكمة والطبقة العاملة.

النظام الاقتصادي: عمل الميسِّينيون بالزراعة واشتغلوا بالصناعة ومارسوا التجارة لا سيما البحرية، وتوسَّع نشاطهم الاقتصادي بعد سقوط كنوسوس، فأنشأوا الطرق والمرافئ، وسيطروا على البحر، فحلَّت التجارة البحرية محل القرصنة، لكن النمو الاقتصادي كان بطيئاً لأن البحار كانت عُرضة لغارات القراصنة، وقد مارس الميسِّينيون أنفسهم القرصنة في بداية حياتهم السياسية، وعندما سيطروا على البحر حلَّت التجارة

البحرية محل القرصنة، وجابت المراكب الميسِّينية البحار القريبة. وتؤيد المصنوعات المميزة المكتشفة أهمية واتساع انتشار الإنتاج المعدني مثل المشابك المعدنية (الدبابيس) والخزفيات ذات الرسوم المبسَّطة التي تشبه الرسوم الهندسية، واستورد الميسينيون القصدير الغربي والقوقازي، غير أن الصناعة لم تكن متقدمة، إذ لا يوجد في أرض اليونان، في ذلك الوقت، مراكز صناعية. وأثْرت ميسِّيني من التجارة ومن وجود مناجم للنحاس في الجبال الواقعة وراءها.

وبُذلت جهود لتنمية الموارد الطبيعية، من بينها حفر الآبار وإنشاء نظام للري في سهل أرغوليس، وهي مشروعات ضرورية لتحقيق الرخاء الاقتصادي، وهناك القنوات والجسور والأنفاق المحفورة في الصخور، واستُصلحت أرض بحيرة كوبائيس لزيادة المساحات المزروعة.

الفنون الميسِّينية

المقابر: صاحَبَ بروز الآخيين ظهور عناصر حضارية جديدة تتمثل في المقابر والمنازل والأواني الفخارية. أما المقابر فهي لحود كالصناديق خالية من أي قرابين جنائزية، ويتبين من تصميم المنازل أنها كانت مقدِّمة لطراز الميغارون (البهو أو القاعة الكبيرة) المعماري الذي سينتشر استعماله بين عامَي (١٤٢٥ ـ ١١٥٠ ق.م)، وأما الأواني فمصنوعة من الفخار المنواسي، نسبة إلى منواس، وكان جدّاً لقوم يسكنون أصلاً في تساليا ثم هاجروا إلى بويوتيا حيث اتخذوا من بلدة أورخومينوس عاصمة لدولتهم، ويتميز بنعومة الملمس والدقة الفنية في الصنع ويحاكي شكله شكل الأواني المعدنية.

واشتد، بمرور الزمن، التأثير المينوي على الآخيين في بلاد اليونان، وقد أسهم، إلى جانب عوامل أخرى، في دفع هؤلاء إلى بلوغ أزهى مراحل تاريخهم. وكان الملوك الآخيون، في تلك الأثناء، يؤسسون ممالكهم في أورخومينوس وطيبة بإقليم بويوتيا، وفي أثينا بإقليم أتيكا، وفي ميسِّيني وتيرنثوس وأسيني بإقليم أرغوليس، وفي بيلوس غربي إقليم ميسيني وغيرها من المدن في البلوبونيز، وما وافى عام (١٥٥٠ ق.م) حتى كان الآخيون بعامة والميسِّينيون بخاصة أبرز ممثلي الحضارة الميسِّينية، وقد بلغوا درجة متقدمة من القوة والرخاء.

وقامت في ميسِّيني في ذلك الوقت أسرة حاكمة يُطلق عليها «أسرة المقابر العمودية أو البئرية» نسبة إلى طريقة دفن موتاها، وهذه المقابر هي عبارة عن حفرة عمودية مستطيلة الشكل منحوتة في الصخر يبلغ طولها ستة أمتار ونصف وعرضها أربعة أمتار ونصف، ويتراوح عمقها بين متر وخمسة أمتار، وجدرانها مكسورة بكسارة من الحجر، وترتكز على روافد عرضية تحمل سقفاً من الألواح الحجرية أو من غصون الشجر الممزوجة بالطين، والأرضية مغطاة بالحصى، ويُرقد الموتى ممدودي القامة ويُدفنون مع كامل أسلحتهم وتُزيَّن رؤوسهم ورقابهم وأذرعهم بحلي من الذهب، وتوضع أسلحتهم إلى جانبهم، ويوضع فوق القبر شاهد جنائزي من الحجر

مزخـرف في أكثـر الأحيـان بنقـوش بارزة قليـلاً، أو بأشـكال حلزونيـة مجـرَّدة، أو مصحوبـة بمنظـر وصفـي يمثـل معركـة أو صيـداً أو عملية عسكريـة. ويسترعي الانتباه جمـال الأقنعـة التـي تغطـي وجـه الميـت والمصنوعـة من صحائف ذهبيـة مطروقة. وتُعد المقابر الملكية مكاناً مقدَّساً، فأُحيطت بصفَّيـن مـن الألـواح الحجرية يـؤدي إليها مدخل يتناسب وفخامتها.

وَوُجـدت مقابر مشابهة فـي مدينة ليرنا في الأرغوليس وفي إليوسيـس في أتيكا وفي جزر السيكلايـد، وتختلف مقابـر إليوسيس في طرازهـا عن المقابـر البئريـة المألوفة وذلـك باحتوائها على حُفَـر جانبية متعامدة مـع القبـر الرئيـس تُستخـدم كمدخـل إلى القبـر، وذلك تسهيـلاً لعملية الدفـن التالية من دون إزاحة سقف المقبرة الرئيس، وهي خاصية سـوف تشكل في المقابر ذات القباء التي سرعـان ما حلَّ طرازها محـل المقابر البئرية في ميسِّيني.

وطرأ تغيير علـى شكل المقابر، وبخاصة الملكية منها، منـذ عام (١٥٠٠ ق.م) بحيث أضحت مستديرة يعلوها ما يشبه القبَّة، ولعل مـرد هذا التغيير يعود إمـا إلى مجيء أسرة جديـدة أو أنه اختلاف في الطراز المعماري فقط.

كانت المقابر المستديرة تُبنى في بادىء الأمـر علـى مستـوى سطـح الأرض وتُغطَّـى بالطين، ثم تحـول التوجُّه إلـى بنائها تحت الأرض فـي سفـح تـل منحـدر وتُغطـى قمة الغرفـة بالطين، ويتقدم المقبـرة ممر أفقي مسقـوف ومنحـوت في سفـح التـل، ويحف بجانبَي الممر كتل حجرية، يؤدي إلى مدخل يولج منـه إلى غرفـة مستديـرة مجوَّفة من أعلى وجوانبها مبطَّنة بكتل حجرية مصفوفة متدرجة، فيتكون نتيجة ذلك سقف في شكل حنيـة أو قبَّـة أشبـه مـا تكون فـي مظهرها بخلية النحل، ومـن أجل ذلك سُمِّيت بمقابر خلية النحل، والراجح أن هذا الطراز البنائي هو ابتـكار ذاتي مـن قِبَـل الميسينيين لحل مشكلـة كيفيـة بنـاء مقابـر ضخمـة يسهل دخولها لاستخدامها أو لصيانتها باستمرار.

الأوانـي الفخارية: اكتسبت بلاد اليونان في العهد الميسِّيني مظهراً مختلفاً، إذ حلَّت حضارة القصور محـل حضارة القرى، وهي جديـرة بالمقارنة مع حضارة كريت، والواقع أن كريت ظلت مصـدر إلهام مستمر لفنّاني بلاد اليونان. ونهج الميسِّينيون في الفن نهج الكريتييـن وقلَّدوهـم بأمانـة جعلـت علماء الآثار يظنون أنهم كانوا يأتون بكبار الفنانين من كريت، لكن الحقيقة أنه بعد أن اضمحلَّ الفن الكريتي ازدهر فـن التصوير في أرض اليونان.

واقتبـس الفنـان الميسِّينـي النمـاذج الزخرفيـة المينويـة ورسمهـا علـى الأواني الفخارية المنواسية الضاربـة إلى الصفرة، وهـذَّب الطـلاء المصقـول ونقَّحـه وأضفى عليه بعض ملامح محليـة جعله يفوق أحياناً الأصول المينوية، بـل إن أحد هذه النماذج، وهو الكأس الإفورائـي، نسبة إلى إفيرا وهي بلـدة قريبة مـن كورنثـة؛ مزخـرف بزهرة مينويـة الطابـع ومرسومـة بمهـارة وبساطة فائقتيـن، لـم يوفَّـق الفنـان الكريتـي فـي محاكاتهـا تمامـاً. وثمـة أشـكال أخرى من

الأوانـي المزخرفـة بلغـت حدّاً مـن التشابه يتعـذّر معـه معرفة مـا إذا كانـت مينوية أو ميسِّينية إلا بعد الفحص الدقيق.

شكَّلت الأواني الفخاريـة أوفر المنتجات والأدوات التـي وصلـت إلينـا مـن العصـر الميسِّيني، وكان الميسِّينيون يصنعون أعداداً هائلة منها، وأدَّى ذلك إلى نشأة طراز موحَّد قلَّما نجد فيه اختلافـات محلية، وهو يعكس التوجهـات العامـة فـي فـن ذلـك العصـر وثقافتـه، بالإضافـة إلى إقـدام ميلوس على استيرادها بشكلٍ متزايد.

وما حـدث منـذ عـام (١٤٢٥ ق.م) من زوال التأثيـر المينـوي أن أضحـت الزخرفة تقليديـة جامدة التزمـت نمطاً معينـاً تغلب عليـه الخطـوط الأفقيـة، وتحوَّلـت رسـوم المناظـر الطبيعية إلى رسـوم خطية لتكوين أشـكالٍ تجريديـة، وكان القـدح المنتفخ ذو العنـق الطويـل المسمـى بجرة الـركاب من أكثـر الأشـكال شيوعـاً وتمثيـلاً لـروح فـن صناعة الفخار في ميسِّيني.

ويُعـدُّ الفخـار الميسِّينـي، مـن ناحيـة الصناعة الفنية، مـن أجود الأصناف، طينه مصقول، وهو محروق في درجة حرارة عالية ما يُكسبه مزايا عملية وجمالية، ولهذا راجت تجارتـه في كل أنحاء شرقـي البحر الأبيض المتوسط.

النقش: ازدهـر فـن النقـش فـي بلاد اليونان في العهد الميسِّيني عقب اضمحلال الفـن الكريتـي، فالنقـوش التي تـزدان بها أطـراف الجـدران وحلياتها ترقـى فنيّاً إلى المرتبـة الأولـى، وتبقى نابضـة حتى عصر ازدهار الحضارة اليونانية. ويدل ما بقي من الجداريَّـات علـى إحسـاس قـوي بالحيـاة والنشـاط، مـن ذلـك نقـش النسـاء فـي قصورهـن وقـد صففـن شعرهـن وارتدين الملابـس الأنيقة. وهـذا النقش أقـرب إلى الحياة النابضة من نقش السيدات الراكبات في العربة اللائي خرجن للتنزه في الحقول، وقد تكلفن الجمود في ركوبهن، وكذلك نقش صيـد الخنازيـر البرية فـي تيرنثـوس على الرغـم مـن حقيقـة المطـاردة التـي أعيَت الخنزيـر حتـى وصـل إلـى درجـة اليـأس، والـكلاب تقفز في الهـواء بأقصى سرعتها، والرجـل واقـف فـي حـال التأهُّـب برمحـه القاتل.

يُستدل من هذه النماذج ما كان يتمتع به الميسِّينيون من حياة نشطة نابضة بالحياة، ومـن أجسـام قويـة، ومـا كان لنسائهم من جمال وأناقة، وما كان في قصورهم من زينة واضحة جميلة.

واشتهر الفـن الميسِّيني بالأناقة والتكلُّف لا سيمـا فـي زخرفـة الموائـد والمقاعـد والمسانـد، واستُعمـل العـاج فـي صنـع الصناديق المحفـورة، والمقابض المزخرفة للمرايا الكبيرة وأجزاء القيثارات، وفي نقش التماثيل أحياناً. وهناك مجموعة أنيقة تمثل امرأتيـن وولـداً عُثـر عليهـا فـي ميسينـي، وتتضمـن موضوعـات الحفـر العاجـي صور حيوانات خرافية ووحوش يُرجَّح أنها مقتبسة مـن الشرق. وهنـاك أشـكال زخرفية أخرى كورقة نبات اللبلاب على شكل القلب، والدرع على شكل رقم 8، وهـي أشكال كانت شائعة في كريت. ويلاحـظ الاقتباس من كريت في استعمال زهـرة اللوتس والخطوط الحلزونية

في الزخرفة والحفر الغائر ونقش الخواتم الذي يمثل أسداً يلتهم ثوراً، والمقاتل الذي يصارع أسداً والمبارزة حول محارب جريح وصيد الوعل والرنَّة تحت الشجرة وغرس الأيكة المقدسة والشياطين.

وتُصنع القدور والمصابيح أحياناً من الحجر المحفور، وهي خالية من الرسوم البارزة، غير أن النقش البارز كان لا يزال شائعاً في الأدوات الذهبية والفضية كما يتبين من الكأس الفضي الذي وُجد في ميديا بالأرغوليس، وهو مزخرف برأسَي ثورين.

ولعل أرقى فنون ميسِّيني ما كان من زخرفة المعادن، التي بلغت من الإبداع الفني ما بلغته في كريت، وتميزت بأشكالها الخاصة وزينتها الملفتة. فقد عُثر في ميسِّيني على حلي كثيرة الأنواع وأزرار ذات رؤوس جديرة بأن تكون في ملابس الملوك، وحجارة كريمة حُفرت عليها مناظر صيد أو حرب، ورأس بقرة من الفضة البرّاقة لها قرنان وجبهة من الفضة نُقش عليها ورود، يتوقع الناظر إليها أن تخور في أي لحظة.

وأجمل ما وُجد في ميسِّيني وتيرنثوس خنجران من البرونز مرصَّعان بمزيج من الذهب والفضة، ومصفَّحان بالذهب المجلو والمصقول، وعليهما نقوش تمثل قططاً برية تطارد بطّاً، وأسوداً تطارد فهوداً أو تهاجم الناس وتتصارع معهم.

وأشهر من ذلك، الأقنعة الذهبية التي تغطي وجوه الموتى من الملوك، ويشبه أحد الأقنعة وجه قطة، وقدحان من الذهب المطروق بسيطان في شكلهما عُثر عليهما في فأفيو بالقرب من إسبارطة، لكن الفنان اعتنى في صنعهما وبذل في ذلك كل ما يستطيع من الإتقان بصبر وأناة، وتشبه صناعتهما أجود الصناعة المينوية، وقد دفع ذلك بعض العلماء على أن يعزوهما إلى فنان كريتي.

وتتضمن النقوش على القدحين مشهد صيد ثور وترويضه، وهي من الموضوعات التي اختصت بها كريت، والمُلفت أن مثل هذا المشهد محفور على الخواتم والأختام الميسِّينية أو مُصوَّر على جدران القصور، وهو يشهد بأن مصارعة الثيران كانت منتشرة في أرض اليونان تماماً مثل انتشارها في كريت. وقد نقش على جانب أحد القدحين مشهد لثور وقد صيد في شبكة من الحبال السميكة فاتحاً فاه ومنخريه وهو لا يكاد يستطيع التنفُّس من فرط التعب وشدة الغضب، ونُقش على الجانب الآخر ثورٌ ثانٍ يقفز من الرعب والهلع، وثالث يهاجم أحد الرعاة وقد أمسكه من قرنَيْه. ونُقش على القدح الثاني الثور المصيد وهو يُساق. ولم تشهد الحضارة اليونانية مثل هذا الإبداع الفني إلا بعد قرون عديدة.

القصور والمنازل: اكتسبت بلاد اليونان في العهد الميسِّيني مظهراً مختلفاً، إذ حلَّت حضارة القصور محل حضارة القرى، وهي جديرة بمقارنتها بالحضارة المينوية. والواقع أن كريت ظلت مصدر إلهام لفناني بلاد اليونان. ويبدو التأثير المينوي واضحاً في الطراز المعماري على الرغم من أنه من العسير ملاحظة ذلك نظراً لأن القصور المهمة تهدَّمت وإن أُعيد بناؤها، لكن في وسعنا أن نستخلص من الأطلال، التي

اكتُشفت في المستويات الأرضية السفلى في ميسِّيني وفي غيرها من المدن، أن الميسِّينيين اقتبسوا كثيراً من خصائص الفن المعماري المينوي، من ذلك طريقة البناء بأحجار مقطوعة بعناية ومستوية تماماً، واستخدام الأعمدة كعنصر زخرفي، وطلاء المدخل وهيكل الباب بالجبس.

شيَّد الميسِّينيون القصور على شكل حصون في مواقع تسهل طبيعتها الدفاع عنها، وغالباً ما تكوِّن هذه المواقع مرتفعاً يشرف على السهل المحيط به. يُصعد إلى هذه الحصون بسلالم خارجية تتخللها المنحنيات والأبواب، وبسلالم محفورة في الصخر، وجدرانها سميكة وضخمة إذ تبلغ ستة أمتار، وقد وصفها اليونانيون من أجل ذلك بالسيكلوبية أي الضخمة، وأُنشئت في تيرنثوس سراديب معقدة في الجدران.

وأُدخلت على الهندسة المدنية بعض التجديدات تناولت المنزل بنوع خاص الذي كُيِّف وفقاً لمناخ البلاد، ففي حين كان مسطَّحاً في كريت غدا هنا ذا منحدرين تسيل عليه مياه الأمطار بسرعة، واعتُمد المسكن الواحد، والمعروف أن العائلة في كريت كانت تنتقل من مسكن إلى مسكن آخر حيث البرودة أقل شدة، فنشأ عن ذلك عنصر البيت الأساسي «الميغارون» الذي ظهر في العالم المتوسطي قبل الآخيين، فإننا نجده في طروادة الثانية التي ترقى إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وفي تساليا بويوتيا في الألف الثاني قبل الميلاد، ولعل مصدره شمالي آسيا الصغرى ثم انتقل منها إلى أوروبا عن طريق شمالي بحر إيجة، غير أن الميسِّينيين هم الذين وضعوا شكله النهائي وعمَّموا استعماله وطريقة بنائه.

والميغارون كلمة معناها القاعة الكبيرة أو البهو الرئيس المخصص لاجتماع الرجال في القصر الميسِّيني، وقد تعني أحياناً جناح الحريم، وقد عُثِر في كوراكو بالقرب من كورنتوس على منزل أنيق من طراز الميغارون يُعدُّ نموذجاً لسواه من المنازل، يتضح منه قوام هذا البناء، وهو غير فسيح ومستطيل الشكل تقريباً، يشتمل على ثلاثة أقسام: دهليز أمامي مزيَّن بأعمدة خشبية مرتكزة على قواعد حجرية، وحجرة رئيسة مفتوحة على الدهليز الأمامي مباشرة، وتقوم عند ارتكازها أعمدة تحمل السقف. ويوجد في وسط هذه الحجرة الرئيسة موقد مستدير يؤمِّن التدفئة تجتمع حوله الأسرة، وفي مؤخرة المنزل حجرة صغيرة تُستعمل لخزن المؤونة، وسقف المنزل مسطَّح.

لقد تأثَّر بناء القصر الميسِّيني بهذا الطراز، وكان مركزاً للنشاط الرئيس، يتقدمه دهليز ويتوسطه موقد. وكان الميغارون طرازاً تقليديّاً مألوفاً في بلاد اليونان منذ العصر الهلّادي الثالث (١٥٥٠ ـ ١١٥٠ ق.م).

الدين: يبدو أن ديانة الميسِّينيين لا تختلف كثيراً عن ديانة الكريتيين ما يوحي بأنها نشأت عنها أو كانت شديدة الصلة بها، لكن الميسِّينيين يولون عبادة الأموات اهتماماً أكبر شأناً، وقد أدى ذلك إلى تنمية هندسة مدفنية على قسط كبير من الجديَّة. فكان الأفراد من عامة الشعب يُدفنون في مقابر أُسرية جماعية كالغرف محفورة في

الصخر، أما مقابر الحكام فهي على شكل خلية النحل مبنية من الحجر، ولعل أفخمها تلك المعروفة باسم «خزانة أتريوس» في ميسِّيني، واقترن بها فخامة محتوياتها الملكية.

وأبدى أهل ميسِّيني اهتماماً كبيراً بالطقوس الجنائزية، فكان يودع مع الميت أدوات كالأواني الفخارية، وأدوات الزينة الشخصية والأسلحة والأوعية المعدنية الأخرى، وكان الأهل يشربون نخب توديعه عند باب المقبرة ثم يحطمون الأقداح، وقد تكون بعض الحيوانات، كالكلاب أو الخيول، قد نُحرت كقرابين عند دفن الملك أو الأمير، فقد عُثر في مراثون على هيكلين عظميين لجوادين راقدين خارج باب المقبرة، ولعله كانت تُقدَّم أحياناً ضحايا بشرية.

ويبدو أن هذه المقابر الملكية التي بُنيت في حياة أصحابها، كان هدفها على خلاف قبور الغرف الأُسرية، أن تكون نصباً تذكاريّاً لهؤلاء الزعماء، بدليل أنهم أنفقوا في تشييدها مالاً كثيراً واستغرقوا وقتاً طويلاً، ما يدعو إلى التساؤل عما إذا كانوا قد رُفعوا إلى مصاف الآلهة في حياتهم أو بعد مماتهم.

ويستمر الميت في الحياة بعد الموت، فقد اكتشفت في حفر الذبائح تحت السراديب عظام حيوانات، وتقدمات للميت، كما عُثر في المدافن البئرية على أقنعة ذهبية يظهر من خلالها وجه الميت ولحيته بالإضافة إلى أسلحته وجواهره وسكاكينه وأدواته الخاصة بالحلاقة.

انتشار الحضارة الميسّينية وانحسارها

انتشرت مظاهر الحضارة الميسّينية العامة داخل البلاد في مختلف مدن بلاد اليونان ومعظم جزر البحر الإيجي، وخارجها في جزر البحر الأيوني، جنوبي البحر الأدرياتيكي، وجنوبي إيطاليا وجزيرتَي صقلية ومالطة، إذ إن منشآت جميع هذه الأماكن من قصور وقبور وأواني فخارية متشابهة.

وامتدَّ نفوذ الميسِّينيين في الشرق إلى الساحلين الغربي والجنوبي لآسيا الصغرى، وساحل سوريا والساحل الفينيقي، وأقاموا علاقات تجارية مع جزيرة ميليتوس، فقد وُجدت فيها أوانٍ فخارية مستوردة من ميسِّيني، ومن المحتمل أنها كانت خاضعة للميسِّينيين، ووُجد في مدينة كولوفون مقبرة متهدمة من طراز مقابر خلية النحل ذات القباب، كما ترك الميسِّينيون بعض آثارهم في لسبوس.

وأقامت طروادة في طورها السادس (١٨٠٠ ـ ١١٨٤ ق.م) علاقة متميزة مع ميسِّيني، فقد عُثر فيها على فخار مستورد من ميسِّيني معظمه أواني الموائد، مثل كؤوس الشراب بالإضافة إلى فخار مصنوع محليّاً على الطراز الميسيني.

ووُجدت في طروادة السادسة أيضاً آثار مستوردة من بلاد الإغريق وجزر البحر الإيجي مثل: رؤوس الحراب، الخناجر البرونزية، مقابض السيوف المصنوعة من الرخام، الخزف المصنوع من العقيق أو المعجون الزجاجي، أدوات عاجية وأوانٍ فخارية. ويشبه فخار طروادة السادسة

الفخار المعروف بالمنواسي الذي كان شائعاً في ميسِّيني، كما اكتشفت فيها منازل من طراز الميغارون، ما يشير إلى قيام حضارة مشتركة بينها وبين بلاد الإغريق، وبخاصة ميسِّيني.

واكتُشفت آثار ميسِّينية الطابع في إقليم قيليقيا في جنوبي آسيا الصغرى حيث استقر الميسِّينيون في مراكز معينة اختاروها لأهميتها التجارية أو العسكرية. وامتد النفوذ الميسِّيني شرقاً حتى بلغ جزيرتَي قبرص ورودس والجزر القريبة منهما، وقد عُثر فيها على أوانٍ ميسِّينية الطابع مصنوعة محليّاً، ما يدل على قيام علاقات تجارية مستمرة بين هذه الجزر وبلاد اليونان. وأنزل الميسِّينيون جاليات منهم في جزيرة قبرص، لم تلبث أن أسَّست مستعمرات مستقلة، وشيَّدوا قصراً في العاصمة إنكومي شبيهاً بقصور أرغوليس، فامتد نفوذ الميسِّينيين، بفضل هذه السيطرة على الجزيرة، إلى الساحل الشمالي لسوريا حيث تقع أوغاريت (رأس شمرة)، وهي ميناء كان معروفاً من قبل المينويين، وشحنوها بمهاجرين آخيين من قبرص، فأضحت مخفراً أماميّاً للميسِّينيين على الساحل السوري.

وتغلغل نفوذ الميسِّينيين داخل سوريا، وظهرت لهم آثار في مملكة ألالاخ الواقعة في وادي نهر العاصي، وكانت أواني هذه المملكة قد تأثرت بالفن المينوي، ثم جاء الميسِّينيون وأسسوا فيها مستعمرة في مرفأ بوسيديون الذي كان متصلاً بالفرات وأعالي الرافدين. ونفذت إشعاعات الحضارة الميسِّينية إلى آسيا ومصر عن طريق قبرص، وشهدت تجارتهم رواجاً من جبيل إلى عكا، واكتُشفت أوانٍ فخارية ميسِّينية في عسقلان وتل العجول على مقربة من غزة.

كانت ميسِّيني تُصدِّر الأواني الفخارية إلى تلك البلاد أحياناً معبأة بالزيت أو بالعطور، وأحياناً فارغة كأوانٍ مطلوبة لذاتها، وتستورد منها سلعاً مثل النحاس من قبرص، الذهب من مصر، العاج من سوريا، النبيذ من فينيقيا، والأقمشة المرسومة التي انتقلت بواسطتها الأساليب الزخرفية من الفن الشرقي إلى الفن الميسِّيني.

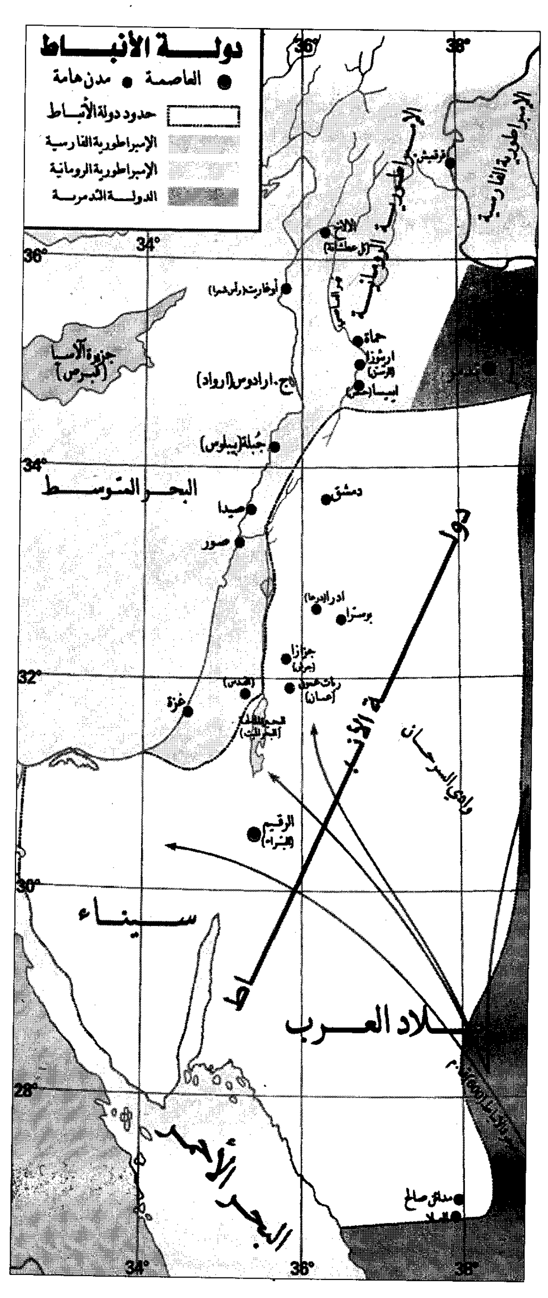
ارتبط انتشار الحضارة الميسِّينية بنشاط تجاري كبير في شرقي البحر الأبيض المتوسط، والواقع أن هذه الحضارة وصلت شرقاً إلى قبرص وسوريا، وجنوباً إلى مصر مارَّة بجزائر السيكلايد وغرباً إلى إسبانيا مارَّة بإيطاليا، وشمالاً إلى نهر الدانوب مخترقة بويوتيا وتساليا. واستحوذ الفن الميسِّيني على ثقافة كريت المحتضرة، ونشرت الطور الميسِّيني، وهو أحد أطوار حضارة حوض البحر الأبيض المتوسط، ثم تراجعت هذه الحضارة في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد بسبب الاضطراب السياسي في العالم الميسِّيني، وقد شكَّل ذلك أحد أسباب التدهور الميسِّيني. ونزع صانعو الأواني الميسِّينية في قبرص إلى الاستقلال عن فن بلاد اليونان، وغمرت منتجاتهم معظم الأسواق الشرقية بما فيها مصر، حيث كان أغلب الفخار في تلك الحقبة مستورداً من قبرص، ولا بد أن هذا يعني على الأقل، انكماش حجم التجارة الميسِّينية المباشرة مع بلاد اليونان.

المصادر والمراجع

- ديورانـت، ويـل: **قصة الحضـارة، حيـاة اليونـان**، المجلـد الثاني، الجـزء الأول، ترجمـة محمد بدران القاهرة.
- علي، عبد اللطيف أحمد: **التاريخ اليوناني**، الجزء الثاني، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٤م.
- Casky, J.L.: **Greece, Crete and the Agean Islands in Early Bronze Age**. Cambridge, Ancient History I.
- Gardiner, P.: - **New Chapters in Greek History Priciples of Greek**. Art, N.Y 1914.
- Glotz, G: **The Greek City**. London 1929.
- Hutchinson, R.W: **Prehistoric Crete**. Pelican Books 1962.
- Pausanias: **Description of Greece**. London, 1806.
- Pope, M: **Aegean wríting and Linear**. A 1964.
- Severyns: **Grece at Proche-Orient Avant Homere**. Bruxelles, 1960.

الحضارة النّبطية

أ. د. محمد سهيل طقوش



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع والجغرافيا

انتشر الأنباط في بادية شرقي الأردن وشمالي الحجاز، ونزلوا في المناطق التي كانت تحت سيطرة الكنعانيين والآراميين على طريق القوافل التجارية الذي يمتد بين الشام ومصر، وتوسَّعوا على حساب الأدوميين في شبه جزيرة سيناء وجنوبي فلسطين، وأنشأوا دولة عربية امتدت من نهر الفرات شرقاً إلى البحر الأحمر غرباً، يحدها من الغرب وادي عربة ومن الشرقِ بادية الشام ومن الشمال فلسطين ومن الجنوب بادية الحجاز.

تتميز بلاد الأنباط بأنها بلاد جبلية قفراء قليلة المياه والعشب، تكثر فيها المرتفعات الصخرية الوعرة والشُعب، وقد انعكست هذه الطبيعة على الأنباط فطبعتهم بطابعها، لذلك عُرفوا بشدة المراس، وساعدتهم هذه البيئة الصخرية على صد هجمات الأعداء، حيث صعب على هؤلاء قهرهم وإخضاعهم، ومن أجل ذلك سمَّى اليونانيون بلادهم باسم بلاد العرب الصخرية، كما سُميت عاصمتهم بالبتراء، أي الصخرة، لأنها منحوتة في الصخر، وعُرفت في المصادر العربية باسم الرقيم، كما أتاحت لهم هذه الطبيعة أن يمارسوا العمل التجاري.

الأنباط عبر تاريخهم

ارتبط قيام مملكة الأنباط بالنشاط التجاري في اليمن والحجاز، فقد كانت بادية الشام وجنوبي فلسطين مركزاً لهجرات قبلية متتابعة من جنوبي الجزيرة العربية منذ العصور القديمة، إلا أن استقرار قبائل عربية في بادية الشام يرجع إلى عصور سابقة للعصر الروماني، ومن أقدم الشعوب التي استقرت في جنوبي فلسطين شعب الأنباط.

ووسَّع الأنباط، خلال ازدهار قوتهم، أراضي دولتهم التي أنشأوها فشملت: دمشق وسهل البقاع وجبل عامل والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين وحوران وأدوم ومدين وديدان وسواحل البحر الأحمر، وربما وصل بعض روادهم إلى دلتا النيل الشرقية والمناطق الخصبة المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

بنى الأنباط المدن، وأنشأوا القرى واتخذوا من مدينة البتراء عاصمة لهم، كما ذكرنا، وتقع في جنوب غربي وادي موسى في شرقي الأردن على الخط التجاري الذي يصل جنوبي الجزيرة العربية بشمالها، وتحيط بها الجبال من كل الجهات بحيث يتعذر الدخول إليها إلا من الممر الضيق المعروف بالسيق.

بدأ ذكر الأنباط يظهر منذ أوائل القرن الرابع قبل الميلاد على أثر فتوح الإسكندر المقدوني في الشرق، ثم تفكُّك امبراطوريته بعد وفاته وتوزُّعها على قادته، والمعروف أن سلوقس بن أنطيوخوس حصل على سوريا وبلاد الرافدين، ونال بطليموس بن لاغوس مصر وأفريقيا، وكانت العلاقة بينهما عدائية بفعل طموح كل منهما في أراضي الآخر، فاستغل الأنباط ذلك ووسَّعوا حدود مملكتهم من غزة إلى أيلة، وأحكموا قبضتهم على الطريق التجاري البري ما أثار الطرفين معاً، فنهض كل طرف لاحتلال بلاد الأنباط وإرغام هؤلاء على التحالف معه وقطع طريق التجارة على خصمه، لكن المحاولة باءت بالفشل.

أنشأ الأنباط دولة منظمة، وولوا عليهم ملوكاً، وضربوا النقود، واستوزروا الوزراء،

وكان ملوكهم يُسمون في الغالب باسم الحارث (أرتياس)، أو عبادة (أوباداس)، أو مالك (ماليكوس).

تعاقب على حكم الأنباط ملوك عدة، أولهم الحارث الأول (١٦٩ـ١٤٦ ق.م.) وأشهرهم الحارث الثالث (٨٧ـ٦٢ ق.م.)، وآخرهم مالك الثالث (١٠١ـ١٠٦م).

أقام الأنباط، خلال مراحل تاريخهم، علاقات مع المكابيين اليهود في بيت المقدس تراوحت بين التعاون المثمر ضد السلوقيين والعداء بفعل طموح المكابيين للتوسع على حسابهم في الأردن والتوغل في مناطقهم، وتأسيس دولة تنافس دولتهم، الأمر الذي دفعهم إلى التصدي لهذا المشروع التوسعي.

وتوسَّع الأنباط في عهد الحارث الثالث على حساب السلوقيين في الشمال واليهود في الجنوب، وشهد عهده بداية التدخل الروماني في منطقة الشرق الأدنى في مقابل تراجع قوة السلوقيين في سوريا والبطالمة في مصر، فاستولى الرومان على آسيا الصغرى وسوريا ومصر، وانتزعوا ما بيد الحارث الثالث من أراضٍ في سوريا، ما وضع الأنباط وجهاً لوجه أمام هذه القوة الطاغية.

وأخيراً سقطت المملكة النبطية بيد الرومان في عام ١٠٦م، فضموها إلى الولاية العربية التي أسَّسوها لحماية أملاكهم وخطوط تجارتهم في الشرق، واتخذوا بصرى عاصمة لها وهي التي ورثت البتراء اقتصادياً وسياسيّاً، لكن سكانها ظلوا يمارسون التجارة وقيادة القوافل على الرغم من انصراف كثير منهم إلى العمل الزراعي.

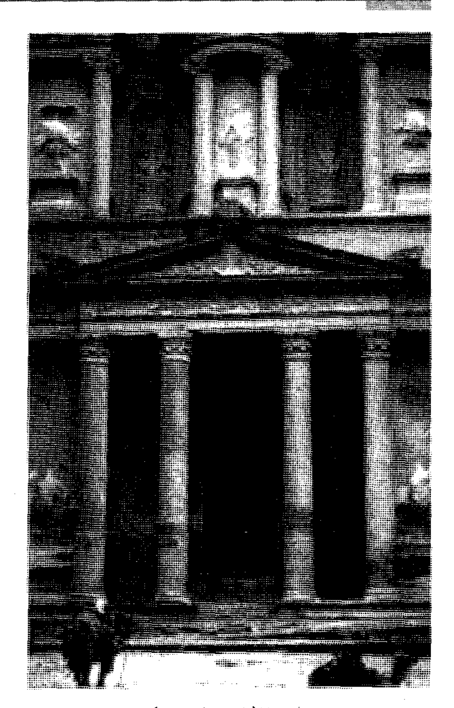
الأنباط عبر نظمهم

النظام السياسي: ظهر الأنباط على المسرح السياسي منذ القرن السادس قبل الميلاد، لكن المصادر التي بحثت في تاريخهم أرَّخت لأعمال ملوكهم الذين حكموا بين عامي (١٦٩ق.م. و١٠٦م)، وأهملت من سبقهم، ولعل السبب في ذلك أن الأنباط كانوا في بداية حياتهم السياسية تحت حكم البطالمة، ويعيشون كغيرهم من عرب البادية في ظل نظام قبلي مشيخي قبل أن يُطوروه، بعد أن استقروا، إلى نظام ملكي، والمعروف أن الانتقال من النظام القبلي إلى النظام الملكي، كان مألوفاً لدى العرب قبل الأنباط وبعدهم.

كان الملك هو رئيس الدولة ويتمتع بسلطات شبه مطلقة، فهو يُعين الوزراء والموظفين وقادة الجند ويوكل إليهم إدارة الأعمال المدنية والعسكرية، والتفَّت حوله طبقة من الأشراف احتكرت النظر في المسائل العليا للدولة وتقديم الاستشارات للملك، ويُقال للواحد منهم «أخو الملك»، وانحصرت بهم هذه الوظائف القيادية العامة كما انحصرت الملكية في الأسرة الحاكمة.

غير أن ملك الأنباط الذي كان يعيش في الترف وأبهة الملك ظل يحتفظ بكثير من خصائص شيخ القبيلة، فهو يخدم نفسه بنفسه كما يخدم ضيوفه، ويكشف لشعبه عن شؤونه الذاتية، وإذا قيل له «مرنا» أي سيدنا، فما ذلك إلا قياماً بواجب التعظيم والاحترام.

ويبدو أن ملوك الأنباط هم الوحيدون من بين الملوك العرب كانوا ينعتون أنفسهم بنعوت خاصة مثل «ملك رحيم عمه» أي الملك الرحيم



واجهة (قصر الخزنة)

بشعبه أو المحب لشعبه، إلى جانب النعت بـ«ملك نبطو» أي ملك النبط.

اللغة: إن حضارة الأنباط مركَّبة، فهي عربية في لغتها، وآرامية في كتابتها، وساميَّة في ديانتها، ويونانية ـ رومانية في فنها وهندستها المعمارية، ولكنها عربية في جوهرها.

فالأنباط من عرب شمالي الجزيرة العربية، ولعلهم أقرب الدول القديمة إلى عرب الحجاز، فأغلب الأسماء التي كانت شائعة في مجتمعهم هي الأسماء نفسها المستعملة في الحجاز واليمن عند ظهور الإسلام، مثل: حارثة، مالك، جذيمة، كليب، وائل، قصي، عدي، جميلة، هاجر، شقيلة وغيرها، كما أن تركيب لغتهم يشبه تركيب النحو العربي المعروف لدينا، واللغة النبطية هي لهجة عربية شمالية، وكثير من كلماتها وعباراتها الواردة في النقوش هي عربية مثل قبر.

استعمل الأنباط الخط الآرامي المشتق من الفينيقي واللغة الآرامية في الكتابة والمعاملات الرسمية والتجارية، نظراً لأن هذه اللغة كانت السائدة في منطقة المشرق آنذاك، فكأنه كانت لهم لغة خاصة بالتخاطب وأخرى للكتابة، لكنهم حوَّروا الخط الآرامي وصقلوه تدريجاً حتى أضحى خطّاً قائماً بذاته، وهو أصل الخط العربي الكوفي. وَوُجدت نقوش على شواهد القبور مزدوجة اللغة، آرامية وعربية، مثل نقش رقاش في الحِجر وفي أم الجمال وهو المعروف باسم «فهرو بن شلي معلم جذيمة، ملك تنوخ» وهو يعود إلى عام ٢٧٠م، حتى إذا وصلنا إلى نقش النمارة، الذي يرجع إلى عام ٣٨٢م، وجدنا الخط نبطيّاً واللغة عربية.

الحركة العمرانية: اشتهر الأنباط بعمائرهم المنحوتة في الصخر، ولا تزال آثار بعضها موجودة إلى اليوم وأهمها:

الخزنة: وهو بناء محفور في الصخر شأنه شأن بقية منشآت البتراء، مؤلف من طابقين، يتميز الطابق العلوي منه بوجود إفريز (آجر أو نحوه) مثلث الشكل يتوسطه جوسق (بيت كبير) مستدير، ويعلو الإفريز جرة كبيرة منحوتة من الصخر الأصم أُحدثت فيها كسور كثيرة نتيجة لتعرضها لرصاص البنادق، إذ كان الاعتقاد السائد أن بداخلها كنزاً من الذهب، ولهذا عُرف البناء كله بالخزنة. وتُوِّج

الطابق السفلي بإفريز ذي أشرطة بارزة تشكل مثلثاً على نحو نظام واجهات المعابد اليونانية، وتقوم الواجهة على أعمدة ضخمة، وتزدان بنقوش وكتابات نبطية، ويبدو أن الخزنة كانت معبداً، نظراً لكثرة ما فيها من تماثيل.

المسرح: الذي يُفضي إلى سهل فسيح تتناثر فيه الكهوف الطبيعية أو المحفورة في الصخر، ولبعضها واجهات منقوشة.

الدير: هو بناء ضخم يبلغ عرضه نحو خمسين متراً ويصل ارتفاعه حتى قمة الجرة، أي خمسة وأربعين متراً، ويزدان بواجهة من الطراز الهلِّيني، وبداخله قاعة فسيحة جدارها الخلفي مجوف، أقيم فيه نصب حجري يمثل الإله ذا شرى، ويرجع تاريخ بنائه إلى القرن الثالث الميلادي.

قصر البنت: أو قصر بنت فرعون، هو بناء مشيد غير محفور في الصخر.

ضريح الجرة: يزدان بواجهة تُعدُّ من أروع ما تبقّى من الآثار ذات الطابع الهلِّيني.

ضريح القصر أو ضريح سكستوس فلورنتينيوس المُشيَّد عام (١٤٠م).

الدين: كان الأنباط وثنيين، عبدوا عدداً من الآلهة وشاركوا سائر العرب في عبادتها، نذكر منها:

ذو الشرى: هو الإله الرئيس عند الأنباط، ولعل اسمه مشتق من الشراة، وهي منطقة جبلية حول البتراء، ويتمثل هذا الإله في صورة صخرة سوداء مستطيلة، وهو إله الشمس، إذ كان النبطيون يحتفلون بعيده سنويّاً، ويُعدُّ حامي الملوك.

اللات: هي إلهة القمر عند الأنباط.

العزى ومناة وهبل.

شيخ القوم: أي حامي القوم وهو إله القوافل.

ظلَّت عبادة ذي الشرى حتى ظهور الإسلام في شمالي الحجاز، وانتقلت عبادة بعض الآلهة إلى مكة على يدي عمرو بن لحي الخزاعي بعد عودته من البلقاء، ويدل ذلك على اعتقاد الناس بأثر الأنباط في عبادة المكيين عند ظهور الإسلام.

التجارة: نشأت البتراء، عاصمة دولة الأنباط، كمحطة تجارية على طريق القوافل الذي يربط الجنوب بالشمال في القرن السادس قبل الميلاد في شمالي الحجاز، في منطقة تغلب عليها الطبيعة الجبلية القاحلة، وما لبث أن نمت وازدهرت وأضحت عاصمة دولة الأنباط. وانعكست بيئة هذه الدولة وموقعها على سلوك أهلها، فاحترفوا التجارة التي غدت، مع ما ارتبط بها من خدمة القوافل وما خلقته من أشكال العمل الإنتاجي، المهنة الرئيسة للأنباط، والأساس الذي قامت عليه دولتهم؛ ذلك أن البتراء، بالإضافة إلى كونها محطة تجارية، كانت مركزاً لعدد من الصناعات، مثل العطور والأواني، وسوقاً تجارياً يُباع فيه ما ينتجه النساجون والنجارون والحدادون والمزارعون، كأعلاف الحيوانات وسروجها وألجمتها وأكسيتها وأخراجها، وأكياس البضائع وأسلحة الحرب، وغذاء التجار، وتتدفق عليه السلع والبضائع من الأقاليم المجاورة، وتجري فيه أعمال البيع والشراء، وتُعقد فيه الصفقات التجارية، وتُمنح القروض، ويجري تبادل العملات، وتلتقي فيه القوافل التي تعبر بادية الشام ما بين غزة وبصرى، وما بين دمشق وأيلة، وما بين اليمن

وبلاد الشام والعراق والخليج العربي. ووصل نشاط الأنباط التجاري إلى موانئ سوريا الشمالية والإسكندرية ورودس وملتوس وديلوس وسلوقية. وأهم السلع التي كانوا يقومون بالتجارة بها: العطور والطيوب اليمنية، والمنسوجات الحريرية من دمشق والصين، والحناء العسقلاني، واللآلئ من الخليج العربي، بالإضافة إلى بعض المنتجات المحلية كزيت السمسم والذهب والفضة.

وكان النبطيون يحملون الطيوب والمر والبخور والتوابل من اليمن وغيرها إلى مصر وشواطئ البحر الأبيض المتوسط، كما يحملون إلى مصر القار الذي يُستعمل في التحنيط. وفرضوا مكوساً على السلع الواردة إلى بلادهم أو الصادرة منها، وقدَّموا الحماية اللازمة للقوافل التجارية التي تمر في أراضيهم، ولذلك أنشأوا خانات ومحطات للتجار، وقلاعاً في وادي عربة لتكون مراكز للحاميات العسكرية النبطية.

واستخدم الأنباط في تجارتهم نقوداً خاصة بهم، وأول من ضرب النقود من ملوكهم الحارث الثالث، وقد اقتبسها عن النقود اليونانية أثناء حكمه لدمشق، ونقشوا عليها صور ملوكهم منذ أيام الملك عبادة الثالث (٣٠ - ٩ ق.م).

أدرك البطالمة أهمية بلاد الأنباط وأثرها في التجارة الخارجية لمصر، كما أدركوا صعوبة الاستيلاء عليها، لذلك اتجهوا إلى تنشيط تجارة البحر الأحمر بهدف تجاوز الطريق البري والاستغناء عنه، فأنشأوا على سواحله المصرية الموانئ والمحطات والطرق، كما مدُّوا نفوذهم إلى فلسطين والموانئ الفينيقية التي كانت تنتهي إليها القوافل النبطية، وأرسلوا حملة عسكرية احتلت أراضي اللحيانيين الواقعة في الطرف الشمالي من الحجاز، وأقاموا مستعمرات لهم عند أطراف بلاد الأنباط، فأحاطوا بهذه البلاد، وبسطوا نفوذهم وسيطرتهم على منافذ الطرق التجارية، الأمر الذي أدى إلى إضعاف التجارة البرية التي تمر ببلاد الأنباط، وقد أدرك هؤلاء هذا الخطر الذي يتهددهم، فقاموا ببعض النشاطات العسكرية المضادة وهاجموا السفن البطلمية في البحر الأحمر بهدف عرقلة تجارتهم، الأمر الذي دفع بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦ق.م) إلى إنشاء قوة بحرية لحراسة السفن التجارية البطلمية، كما هاجم الطرف الشمالي للبحر الأحمر ودخل خليج أيلة.

وما جرى في القرن الثاني قبل الميلاد من حروب بين البطالمة والسلوقيين استفاد منه الأنباط، فنشَّطوا تجارتهم مع سوريا، ووصل تجارهم إلى صور وجبيل حيث وُجدت آثار لهم هناك، وربما امتد نشاطهم إلى المدن السورية الأخرى.

وعندما ضعف السلوقيون، في القرن الأول قبل الميلاد، واضطربت أوضاع المنطقة بفعل الصراع بين البارثيين الفرس والرومان حيث تمكَّن البارثيون من احتلال العراق؛ فاستقلَّت إمارات متعددة في جنوبي بلاد الشام، وراحت تتنازع السيطرة والهيمنة ما عرقل التجارة المارة بالعراق، وأدَّى إلى أن تستعيد طرق التجارة في غربي الجزيرة العربية أهميتها فازدهرت البتراء.

وتحوَّل الأنباط، في عهد الحارث الرابع (٩ق.م - ٤٠م)، إلى الزراعة، وجاء هذا

التحول نتيجة سيطرة روما على الطرق التجارية وتحويل تجارتها إلى مرفأ لويكي ليمن في مصر المقابل لمرفأ لويكي كومي (المدينة البيضاء) في الحجاز، ومنه إلى كويتس، وهي مدينة في مصر العليا، ثم إلى الإسكندرية، ما أثّر سلباً على الوضع الاقتصادي للأنباط، لكن الحارث الرابع لم يتخلّ عن إيجاد طرق تجارية بديلة عن الطرق التقليدية، فازدهرت طريق برية أخرى لا تنافسها الطريق المصرية التي اعتمدها الرومان، وهي تسلك وادي السرحان من دومة الجندل إلى بصرى، إلا أن الاقتصاد النبطي أضحى على أي حال يعتمد أساساً على الزراعة التي اعتمدت بدورها على مياه الري في الإنتاج وعلى نظام متطور لحفظ مياه الأمطار وإيصالها إلى الحقول والبساتين.

الخلاصة

١ - عاش الأنباط، في بداية حياتهم السياسية، في ظل نظام مشيخي قبل أن يُطوِّروه بعد استقرارهم إلى نظام ملكي.

٢ - إن حضارة الأنباط مركَّبة، واستعملوا الخط الآرامي واللغة الآرامية في الكتابة بوصفها اللغة السائدة في المشرق آنذاك، إلا أنهم حوَّروا الخط الآرامي وصقلوه حتى أضحى خطّاً قائماً بذاته.

٣ - اشتهر الأنباط بعمائرهم المنحوتة في الصخر ولا تزال آثار بعضها موجودة إلى اليوم مثل الخزنة والمسرح والدير.

٤ - كان الأنباط، وثنيين، عبدوا عدداً من الآلهة، وشاركوا العرب في عبادتها مثل: ذو الشرى واللات والعزى ومناة وهبل.

٥ - مارس الأنباط، بفعل طبيعة بلادهم وموقعها الجغرافي، التجارة، واشتهرت عاصمتهم البتراء بعدد من أشكال العمل الإنتاجي المرتبط بها.

٦ - استخدم الأنباط في تجارتهم نقوداً خاصة بهم ضربوها على نمط النقود اليونانية.

٧ - تحوَّل الأنباط في عهد الحارث الرابع إلى الزراعة نتيجة سيطرة روما على الطرق التجارية.

المصادر والمراجع

- **الدليل الأثري والحضاري لمنطقة الخليج العربية**. مكتبة التربية العربي لدول الخليج بالرياض، ١٩٨٨م.
- زيدان، جرجي: **العرب قبل الإسلام**. دار الهلال، القاهرة.
- عباس، إحسان: **تاريخ دولة الأنباط**. دار الشروق، بيروت، ١٩٨٧.
- علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الجزء الثالث. دار العلم للملايين، بيروت.
- لانكستر، هاردنغ: **آثار الأردن**. تعريب سليمان موسى، عمان، ١٩٧١م.
- Bower Sock, G.W: **A Report on Arabia Provincia**. Journal of Roman Studies 61, 1971.
- Strabo: **The Geography of Strabo**. Trans. by H.L. Jones, Loeb Classical Library, London 1983.

الحضارة الهلّينية

أ. د. محمد سهيل طقوش



لمحة تاريخية وجغرافية

أطلق هوميــروس اسم هلَّاس على منطقة صغيرة متاخمة لمملكة أخيا في جنوب شرقي إقليم تساليـا في بلاد اليونــان، وعلى شعبها اســم الهلِّينيين، ولم يُعــرف اليونانيون بعامة باســم الهلينيين إلا منذ أوائــل القرن السابع قبل الميــلاد، وأُطلــق هذا الاســم في عصر الإسكندر وفي عصر خلفائـه على الشرقيين الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية.

وقــد شــكَّل العصــر الــذي تلــى وفــاة الإسكنــدر المقــدونــي فــي (١٣ حزيــران ٣٢٣ ق.م) والــذي يشغــل المــدة الزمنيــة بين عامَــي (٣٢٢ـ١٤٦ ق.م)، مرحلــة انفتــاح بين الشــرق والغرب توفَّرت فيه فــرص التداخل بين المقومــات الحضاريــة الشرقيــة والغربية، وقد اصطلــح الأوروبيــون الغربيون علــى تسمية هذا العصر الذي شكَّل حضارة جديدة باسم العصر الهلِّيني أو الهلنستي، وهي تسمية أطلقها المؤرخ الألمانــي يوهــان درويسن فــي أواخــر النصف الأول مــن القرن التاسع عشــر، ليميز الحضارة الجديدة عن الحضــارة اليونانيــة أو الإغريقية الكلاسيكية، علــى أساس أن الحضارة الجديدة منتسبــة إليهــا أو متأثــرة بهــا. وقــد كان اسم اليونــان تحريــف للفــظ أيونييــن، وكان إغريق ساحــل آسيا الصغرى الغربــي يُعرفون في اللغة الإغريقية المبكرة باسم ياؤنيين أو الإغريقيين. كمــا أطلق الرومــان على اليونان اســم الإغريق نسبــة إلــى الغرانييــن، وهم جماعــة تسكن في شرق إقليــم بويوتيا في بلاد اليونــان، كانوا قد اشتركــوا مــع أهل فالكيــس في تأسيــس مدينة كوماي. وتُستعمل في هذا البحث صفات يوناني وإغريقي وهلِّيني كلها بمعنى واحد.

والواقــع أنــه نشــأ عــن فتــوح الإسكنــدر المقدوني في الشــرق (٣٣٤ـ٣٢٧ ق.م) وعن قضائــه على الامبراطوريــة الفارسية؛ انتشار الإغريق في ربوعه حاملين معهم حضارتهم، وتبــع ذلــك تأسيس مــدن يونانية كانــت تُدار بأساليب يونانية، وانصهــار الإغريق فيها مع السكان المحليين.

لقــد غيَّــر الإسكنــدر المقدونــي الأوضاع السياسية القائمة في بلاد اليونان، فقد قضى على عهد دول المدن، وأنشأ نظاماً أوسع رقعة وأعظم استقــراراً، وأقــام حكمــاً استبداديّاً، وكان يستعين بالدين لفــرض السلم على أمم مختلفة الأجنــاس والألوان، وحطَّــم الحواجز القائمة بيــن اليونانيين وغيرهم من الشعوب، وشجَّــع مواطنيه المقدونيين علــى الزواج من النســاء الآسيويــات، وقد مارس هــو نفسه ما كان يحضُّ عليــه، فقــد تــزوج مــن أميرتين فارسيتين، وأنشــأ في بلاد الشرق مستعمرات يونانية وصلت فــي هذا الاتجاه إلى بكتريا في الهضبة الإيرانية، وجمع عالم البحر المتوسط الشرقــي في نظام تجاري موحَّد، ونقل الآداب والفلسفة والفنــون اليونانية إلــى آسيا ممهِّداً السبيل لعالمية العصر الهلِّيني.

والواقع أن امبراطورية الإسكندر لم تُعمَّر أكثر مــن عشــر سنــوات (٣٣٤ـ٣٢٤ ق.م)، حيث انهارت بعد وفاته من واقع تقسيمها بين قادتــه وأعوانــه إلــى ثــلاث دول كبــرى هــي: مقدونيا في أوروبا، وسلوقية في سوريا، وبابل وفــارس ومصــر البطلمية، وقــد عجز عن أن يجد رجلاً جديراً بأن يخلفه.

ووقع الجزء الأوروبي أو الأنتيغوني (نسبة إلــى القائــد أنتيغونــوس) مــن الامبراطورية

خلال مائة عام تقريباً في أيدي الرومان، وتفكّكت أوصال المملكة الآسيوية أو السلوقية (نسبة إلى القائد سلوقس) واستولى الرومان على قسمها الغربي في حين سيطر البارثيون الفرس على قسمها الشرقي، أما مصر البطلمية (نسبة إلى بطليموس بن لاغوس) فقد أضحت رومانية منذ عهد أغسطس قيصر في عام (٣١ ق.م)، غير أن الفتح المقدوني أحرز مزيداً من النجاح من حيث هو ناقل للمؤثرات اليونانية، فقد أخذت الحضارة اليونانية تصبُّ في آسيا، وأضحت اللغة اليونانية هي لغة الثقافة في كل مكان، وتطورت بسرعة فأصبحت اللغة الشائعة في التبادل التجاري.

وهكذا بدأ عِلم الإغريق وفلسفتهم وفنهم يؤثّر في الحضارات الشرقية القديمة، وتشهد الآثار الباقية من العملات والأواني والمباني والتماثيل والمؤثرات الأدبية؛ على هذا الغزو الثقافي. وفي المقابل مارس الشرق تأثيراً جديداً على الغرب، إذ يبدو أن ما استحوذ على خيال اليونانيين في ذلك الحين كان التنجيم البابلي، وقد دفع العصر الهلّيني إلى التوغُّل عميقاً في الخرافة على الرغم من كل ما فيه من توسُّع علمي وثقافي.

اتَّسم العصر الهلّيني بعدم الاستقرار السياسي، فكان غير منضبط ولا آمن، وكانت الجيوش المرتزقة التي تنتمي إلى الدول المتنازعة تعيث فساداً في المناطق الريفية من حين لآخر، وافتقرت المدن الجديدة التي بناها الإسكندر إلى الاستقرار الذي شهدته المستعمرات الأقدم عهداً، والتي كانت تجمعها روابط تقليدية بوطنها الأم. وكان الجو العام يفتقر إلى الشعور بالأمان، إذ كانت امبراطوريات كبيرة قد زالت، وكان خلفاؤها يتقاتلون على السيطرة في جو متقلب، فانتقل تقلُّب الأوضاع إلى نفوس الناس.

وانتشر التخصص الثقافي على نحو متزايد، ففي حين كان باستطاعة كبار العلماء في العصر اليوناني القديم، بوصفهم أفراداً في دولة المدينة، أن يتنقَّلوا بين موضوعات مختلفة وفق الظروف السائدة؛ فإن علماء العصر الهلّيني اقتصروا على ميدان واحد محدَّد، وانتقل مركز البحث العلمي من أثينا إلى الإسكندرية، وهي أنجح مدن الإسكندر الجديدة، وملتقى العلماء والكتَّاب من كل أرجاء العالم، فكان الجغرافي إراتوستنيس؛ خلال بعض الأوقات، أميناً عامّاً لمكتبتها الكبرى، كما كان أقليدس يُعلِّم الرياضيات، وكذلك فعل أبولونيوس، وتعلَّم أرخميدس هناك.

وتزعزعت الحياة الاجتماعية المستقرة بنمو عدد العبيد بين السكان، ولم يكن باستطاعة الأحرار أن ينافسوا العبيد بسهولة في الميادين التي اعتادوا العمل فيها، وأدَّت هذه الظاهرة إلى جنوحهم التدريجي نحو الارتزاق العسكري آملين أن يشتركوا في غزوة تتيح لهم الثراء عن طريق السلب والنهب.

وأدى الإحساس المتزايد بانعدام الأمان إلى الإقلال من الاهتمام بشؤون العامة وإلى وهن في الكيان العقلي والأخلاقي.

وبانتهاء العصر الذهبي لدول المدن، أصيب العالم اليوناني بهبوط عام في نضارته

وحيويته، ولم ينتشل العالم الهلِّيني من هذه الكبوة وتلك الفوضى سوى الفتح الروماني، وذلك بما عُرف عن الرومان من عبقرية التنظيم.

تراجع دولة المدينة

عُرفت الحضارة اليونانية القديمة بأنها حضارة مدن، أما الحضارة الهلِّينية فهي حضارة ملكية فرضتها القوة كإطار سياسي جديد، لكنه جاء متوافقاً مع تطور العلاقات والمفاهيم الاجتماعية. فقد تراجعت دولة المدينة على الرغم من محافظتها على استمراريتها، واضمحلَّت قوتها المطلقة وذلك بفعل ضيق أراضيها وقلَّة عدد سكانها ومواردها التي حدَّت التيارات الاقتصادية من مداخيلها في الوقت الذي استمرت فيه الحرب مع ما تتطلبه من نفقات مرتفعة، وفي مقابل ما أوجده توسُّع العالم اليوناني في الخارج، قنعت دول المدن بإقامة حاميات عسكرية جديدة في حصونها، ودفع الضرائب المفروضة عليها، وقيام مستبدِّين بحكمها. ونظراً لتقدم التقنية العسكرية واستخدام الفرسان والآليات والفِيَلة، ما جعل المتطوعين المدنيين عاجزين عن مقاومة الجيوش النظامية، فخفَّت حدة التضحية عند المواطنين بعد أن خيَّبت دولة المدينة آمالهم وحاجتهم إلى الأمن والطمأنينة، وشعروا بأن عبئاً ثقيلاً يرزح على كواهلهم، وكأن حقوق المواطنة قد أضحت مكروهة، وتزايد اللجوء إلى استخدام المرتزقة؛ ما دفع سكان المدن إلى إحاطة مدنهم بالأسوار وتحسين وسائل الدفاع عنها، كما أن قانون الحرب الصارم كان يضع المدينة المفتوحة تحت رحمة المنتصر. وعلى هذا الشكل قضت مقدونيا على المدن اليونانية، لكن الحرب التي نشبت بين خلفاء الإسكندر من أجل اقتسام ميراثه؛ أتاحت الفرصة لعدد من دول المدن كي تستعيد سيادتها، مثل رودس وإسبارطة، وسيزيكوس وهرقليا الواقعتين على ساحل آسيا الصغرى المُطِل على البحر الأسود، وحتى تستعيد الازدهار والهدوء المنشودين عمدت إلى اتباع نظام جديد قائم على دمج مدن عدة في اتحاد مستقل من دون اللجوء إلى النظام الملكي ليكون رابطة سياسية فيما بينها، واحتفاظ كل مدينة بقدر من حرية التحرك الذاتي والمساواة ضمن الاتحاد، فتتخلَّى عن جزء من استقلالها لصالح الحكومة المركزية، وتفرض الحياة المشتركة عليها حدّاً أدنى من التنسيق لا ينطوي على التزامات خطيرة، غير أن التخلي الحقيقي يتعلق بالشؤون الخارجية التي تصبح وقفاً على الحكومة المركزية المنوط بها أيضاً حَل الخلافات بين المدن المنضمة إلى الاتحاد، وتحديد العلاقات مع الأجانب وتنظيم الجيش الاتحادي وطريقة استخدامه، ونشأت نتيجة ذلك مدن أكثر سكاناً وأوسع رقعة، ويرجع الفضل في ظهور جزيرة رودس إلى ما قامت به من تدابير خاصة نتج عنها اندماج الدويلات الثلاث التي كانت تنقسم إليها الجزيرة من قبل، مُكوِّنة وحدة سياسية أتاحت لسكانها الاستفادة من المركز الممتاز لجزيرتهم بفعل توسُّع العالم الهلِّيني إلى شواطئ الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط حتى مصر، والمعروف أن الجزيرة

تتحكم في الطريقين البحريين اللذين يصلان ما بين الدردنيل ومقدونيا وما بين كورنثوس والإسكندرية.

وعمدت رودس أن تُشبع نهمها بتحقيق الأطماع السياسية التي كانت ترنو إليها، على الرغم مما ينطوي عليه ذلك من خطر إخضاع مواطنيها من جديد لعبوديتها التقليدية، غير أن عدداً قليلاً من دول المدن استطاعت أن تمضي في هذا السباق حتى النهاية، فقد انسحبت أثينا قبل الوصول إلى الهدف، وفشلت في محاولتها التصدي لمقدونيا في حرب عامَي (٢٦٣ - ٢٦٢ ق.م)، وعندما نجحت في عامَي (٢٢٩ - ٢٢٨ ق.م) في تحقيق هدفها بجلاء الحامية المقدونية مقابل مبلغ من المال، قنعت بأن تحيا حياة هادئة ومستقرة، واستفادت أثينا من توحيد كل منطقة أتيكا، ونذكر من بين الاتحادات التي قامت في بلاد اليونان اتحاد بويوتيا واتحاد آخيا.

انطلقت دول المدن الجديدة من المناطق التي لم تؤدِّ حتى ذلك الوقت إلا دوراً متواضعاً في السياسة اليونانية العامة، ولم تُسهم شعوبها إلا جزئيّاً في التطور العام للحضارة اليونانية، مثل المقدونيين قبل فيليب الثاني، وما إن تحققت الانتصارات المقدونية الأولى حتى تجاوزت الشعوب حدودها العنصرية، وارتضت بأن تنضم إليها مدن غريبة عنها ما فرض وجود هويتين: الأولى محلية تحدد المدينة التي ينتسبون إليها، والثانية اتحادية تتسمى باسم الشعب مؤسس الاتحاد، ومن بين المنظمات التي أخذت بمبدأ ازدواج المواطنة اتحاد أيتوليا واتحاد آخيا.

تتألف الحكومة المركزية، على غرار حكومة دولة المدينة، من جمعية شعبية اتحادية تلتئم في مواعيد محددة مرة إلى أربع مرات في السنة، وذلك بفعل بُعد المسافة بين المدن، والاجتماعات الطارئة نادرة، ومن أجل ذلك لا تبرز سيادة الجمعية إلا عرضاً، ولم يُقر النظام التمثيلي بفعل الأعراف الاستبدادية، أما الأجهزة الحكومية الأخرى فتتمتع بحرية عمل أوسع منها في دولة المدينة، مثل المجالس المحلية والقضاة، وقد يحدد القانون أو التقليد في بعض الحالات، توزيع المراكز في مجلس المدينة.

فشل الملكية الهلّينية في تحقيق الوفاق السياسي

عندما عاد الإسكندر من بابل في عام (٣٢٣ ق.م) بدا للوهلة الأولى أن العالم الهلّيني قد حقَّق وحدته السياسية، لكن الأمل في السلام والوفاق لم يلبث أن تبدَّد في العام المذكور، فقد ترك موت الإسكندر المفاجئ في ذلك العام أثراً سلبيّاً تمثَّل بانقسام العالم الهلّيني إلى شيع متناحرة، ولم يكن خلفاؤه يتمتعون بتوجهاته العالمية التي تربط بين أفراد المجتمع البشري، كما أنهم اعترضوا على رؤياه بتحقيق المشاركة الفعلية والمساواة بين المقدونيين المنتصرين والفرس المنهزمين، وكانت نظرتهم السياسية تقوم على سيادة العنصر الهلّيني، وسعوا حثيثاً لكي يقتطع كل واحد منهم لنفسه من إرثه، بحد السيف وبالدخول في نزاعات مع زملائه؛ أكبر مساحة ممكنة يختص بها لنفسه ويحتفظ بها.

لقد دارت حرب الوراثة إثر وفاة الإسكندر في ظل الاضطراب الـذي كان بمثابة التراث الحضاري الـذي آل إلـى الطبقـة المقدونية الغنية، وكانت مقدونيا ومصر البطلمية وآسيا السلوقيـة هـي الـدول الهلّينية الثـلاث التي ورثت امبراطورية الإسكندر.

والواقع أن فقدان دولـة المدينة لسيادتها لم يُمكّـن العالم الهلّيني مـن تحقيق الوحدة السياسية التـي كان بأمَس الحاجة إليها، ولم تتعـدَّ الانتصـارات السياسيـة التـي حقّقتها الحضـارة الهلّينية خـلال العصـر الذي تلا وفـاة الإسكندر، أمر قيام مدن محلية جديدة تتجـاوز أبعادها أبعـاد دول المدينة القديمة، غيـر أن ذلـك لـم يُعوّضهـا عن وحـدة بلاد اليونان التي حقّقها فيليب المقدوني.

وحرمـت طلبـات الإسكنـدر المتكـررة بالإمـدادات العسكرية لسَد النقـص الناشئ عن الخسارة فـي الأرواح التـي كانت تصيب حملته، فضلاً عن إقامة حاميات عسكرية في الأراضي الشاسعة التـي احتلها؛ مقدونيا من الاحتفاظ لنفسها بالقـوة التي تكفل لها دعم اتحـاد كورنثـة مـن جهـة، ونشـر الحضـارة الهلينيـة بين الشعـوب البربرية التـي ضمَّها فيليب إلى مُلكه.

ومـن بيـن الآثار التـي ترتبت علـى فتوح الإسكنـدر مـا حـدث فـي عـام (٢٧٩ ق.م) عندما اجتاح الغزاة البرابرة الغاليون أراضي مقدونيـا، وتمكّنـت جماعـة منهم مـن عبور الدردنيـل إلـى فريجيـا وأسسـت فيهـا مُلكاً دائمـاً، وذلـك مـن دون أن يتمكّـن خلفـاء الإسكنـدر مـن توحيـد كلمتهـم مـن أجـل طردهم.

واستطاعت أسرة سلوقس أن تقيم قواعد إطـار سياسي انتظمـت داخلـه مجموعة من المـدن الهلّينيـة الاستعماريـة الجديـدة غير المتمتعة بالسيـادة، ومن التوجهات السياسية التي قُـدِّر لها النجـاح تحقيق وحـدة منظمة لدول المدن عن طريق الجمع بينها في اتحاد «فيدرالـي» مـن دون الالتجـاء إلـى النظـام الملكي ليكون رابطة سياسية فيما بينها.

خصائص الملكية الهلّينية

لـم يستمـر النظـام الجمهوري فـي بلاد اليونـان القديمة، وسيطر النظـام الملكي في العصر الهلّيني، ونظر إليه اليونانيون بازدراء وعـدُّوه غريباً عـن حضارتهـم القائمـة على الديمقراطية ومبدأ المساواة بين المواطنين، والمعروف أن المبدأ الأسـاس للنظام الملكي هو السلطان القائم علـى الاستبداد. وأفرزت الحـروب قـادةً نظر النـاس إليهم علـى أنهم متفوقون، وأضفـى بعض كتّاب القـرن الرابع قبـل الميـلاد، بفعـل نزعتهـم المعاديـة للديمقراطيـة، عليهـم مسحـة مـن الألوهية، وعـزّزت الأحداث هذا المثل الأعلى من خلال بروز فيليب، ملك مقدونيا، المنتصر على دول المدينة اليونانية وابنه الإسكندر فاتح الشرق الذي حقّق إنجازات بدت وكأنها تفوق الطاقة البشريـة. واستنـدت هـذه الانتصـارات على حشـد جيـوش كثيفـة تختلـف بضخامتهـا وتكوينهـا وأنظمتهـا عـن جيـوش المـدن الجمهوريـة التـي تعجز عن القيـام بمثل هذه التعبئة. وإذا كان طمع الزعماء قد أفضى في هذه الحال إلى بقـاء الجيوش للمحافظة على المكتسبـات المنجـزة، فـإن ذلـك جعـل من

الملكية نظاماً محتوماً. وكان خلفاء الإسكندر جماعة مـن الزعماء المقدونيين تعوَّدوا منذ زمن بعيد أن يقيموا حكمهم بالسيف، ولم يكن للديمقراطية نصيب في تفكيرهم إلا في أوقات متفرقة يستشيرون فيها أعوانهم. ومن جهة أخرى، اشتمل إرث الإسكندر على أراضٍ شاسعة توزعت بين ملكيات كانت تزداد باستمرار فتّتت السلطة الحصرية، نذكر منها: الأنتيغونية، والسلوقية، والبطلمية، وملكيات أخرى ثانوية، كالأبيروس في شمالي اليونان وبيثينيا، والبونطس في آسيا الصغرى، تتمتع بدرجات مختلفة من الاستقلال، وقامت أحلاف واتحادات متشابكة للتعويض عن تراجع دول المدينة.

إذن، لم تنبثق الملكيات الهلّينية عن ملكيات شرقية، ولم تقتبس منها سوى النذر اليسير وارتبط قيامها بواقعها العسكري، وكانت النتيجة رجحان كفة النظام الملكي في أنحاء العالم الهليني كافة حتى الفتح الروماني.

وتتباين هذه الملكيات في خصائصها بين ملكية قومية، مثل الأبيروس ومقدونيا، حيث كان السكان يونانيين أو متأثرين بالحضارة اليونانية، ويسمى الملك بملك أبيروس أو ملك المقدونيين، وبين ملكية شخصية متأثرة بالشرق. فالملك السلوقي يطلق على نفسه أحياناً ملك بابل، والبطلمي يُلقب بفرعون وبهوروس ـ رع، وملك الجنوب والشمال، وملك مصر العليا والسفلى، وابن رع، وخضع، منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، لمراسم التتويج في منف، وتشير هذه التسميات إلى الصفة الشخصية في الملكية، وقد تسرَّب هذا المفهوم تدريجاً إلى الملكيات القومية.

والملك ذو حظوة عند الإله، يساعده في انتصاراته التي هي أفضل قياس لتفوقه، وهو قائد الجيش يسير على رأسه إلى الحرب، ويحيط نفسه بحاشية مؤلفة من أصدقاء ورفاق وجنود يساعدونه أمام التضحيات.

لقد برَّرت هذه النظرة إلى الملكية السياسية إلى اغتصاب السلطة وتجزئة الملكيات الكبيرة، وقد بنى القادة الثائرون حقهم في حمل لقب ملك على الانتصارات والاغتصاب، غير أن المسؤولين تداركوا أخطار هذه الفوضى المرافقة لهذه المثالية عن طريق مبدأ الشرعية، فحوَّلوا مفهوم الإنسان المتفوِّق الحائز على العطف الإلهي، لمصلحة الأسرة، فغدا الانتساب إلى الأسرة من الملوك المتعاقبين عنصراً طبيعيّاً من عناصر صفات الملك الشخصية، وينطوي المثال الملكي في هذه الحال على كل الصفات الحسنة والخيِّرة، فهو المحسن والنصير والمخلِّص والملجأ الأخير للمواطن الذي يواجه صعوبات الحياة وتعترضه تجاوزات المستبدين، كما درجت العادة على تلقيبه رسميّاً بإحدى هذه الألقاب. إذن، تبدَّل كل شيء، وانهار المبدأ الأساس للحضارة اليونانية «الكلاسيكية» المبني على المثل الأعلى للإنسان.

كانت النتيجة الطبيعية لهذه المثالية هي السلطة المطلقة، على الرغم من تقييد الملك بواجبات أدبية، لكنه لا يخضع لأي رقابة. وتنتقل السلطة إلى الابن البكر بين الذكور، ويقف خيار الملك أحياناً حاجزاً دون ذلك،

ويتقدم أحياناً الأبناء غير الشرعيين على الأبناء الشرعيين، واعتُمدت أحياناً الشراكة في الحكم، لكنها كانت نادرة بين الإخوة وأكثر حدوثاً بين الأب وابنه.

ولعل أغرب خصائص الملكية الهلينية اشتراك الأخ وأخته، المتحدين بالزواج، في الحكم، وهي ظاهرة مخالفة لأخلاق اليونانيين الذين يعدون الزواج بين الإخوة عمل زنى، ونشهد ذلك في مصر البطلمية بشكل خاص، ولا شك بأن تعليل هذه الظاهرة مرتبط بتأثير العادات المصرية التي لم تنكر الزواج بين الإخوة، غير أن الملكية السلوقية نفسها قد تأثرت بهذه الظاهرة التي انتقلت إليها من الإسكندرية، ومغزى ذلك الحرص على نقاوة الدم ومنع الطامعين من الأقرباء المطالبة بالسلطة.

سلطة الملكية الهلّينية

كان الملك الهلّيني رئيساً للدولة ويتمتع بسلطات مطلقة، وهو بهذه الصفة القائد الطبيعي للجيش، يعيِّن الوزراء والموظفين وقادة الجند، ويوكل إليهم إدارة الأعمال المدنية والعسكرية، ويقرر مقدار الضرائب، وهو أعلى سلطة قضائية، ولا يشذ عن ذلك سوى الحق المعترف به تقليديّاً للجمعية العمومية، والقضاء ليس مفصولاً بشكل تام عن الإدارة، لذلك فإن الملك يتلقى عرائض المتظلمين التي يقدمها الأفراد من الطبقات كافة للفصل فيها، ويختار معاونيه ويُسند إليهم الأعمال من دون اعتبار للثقافة والمراتب والأقدمية، ورضاه هو مقياس الثقة التي يوحي بها، غير أن سمعة الملك مرتبطة عادة بأهلية وأخلاق أفراد بطانته ومعاونيه، ويحتل بعضهم مراكز شخصية رفيعة تمنحهم نفوذاً كبيراً قد يقارب السلطة الملكية، فيضطر الملك عندئذ إلى القضاء عليهم.

ويؤدي الغلمان والخصيان والسراري دوراً سياسيّاً مهمّاً، وقد غدت الحكومة البطلمية، منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، ألعوبة في أيدي مثل هذه الجماعات. والمُلفت أن النسب والثروة لا يقرران الأوضاع الشخصية للبطانة الملكية على الرغم من أن لها بعض الأثر في ذلك. فالأولاد الملكيون المختارون في العائلات الكبيرة يُربون في القصر ويُخصَّصون لخدمة الملك، ولهم حق دخول الوظائف الإدارية والعسكرية، وإن حظهم بالتعيين مرتبط بمواهبهم من دون تمييز للمركز الاجتماعي أو الجغرافي أو العنصري، فالعالم الهلّيني يتخطى الحدود الجغرافية ويشكل وحدة بشرية كبرى.

يتمتع الملك الهلّيني مبدئيّاً بمواهب عالية، يتفانى في خدمة الشعب والدولة، يساعده معاونون يُسند إليهم الوظائف الحكومية الكبرى، ويؤمّنون غالباً وظائف بلاطية، ويحصلون على لقب يربطهم شخصيّاً بالملك ويتيح لهم التحدث معه بحرية. فهناك أهل الملك وآباؤه المربون ومهذبوه، وإخوته الرضع وتلاميذه، والمقصود بذلك ألقاب شرفية، وهناك خصوصاً الأصدقاء، وهم يتفاوتون في المكانة والتسلسل، منهم المكرمون، والأولون، والأولون المكرمون تكريماً خاصّاً، وتُمنح هذه الألقاب لقاء خدمات مع ما يقابلها من شارات أكثرها رواجاً المعطف الأرجواني،

ويتباهى الملك بعدد ووفاء أصدقائه وجنوده لأن ذلك يُكسبه نظريّاً سلطته كملك.

كان من الطبيعي أن يختار الملك من بين هؤلاء الأشخاص مَن يلمس فيهم الكفاءة لمعاونته، فالمشاورات مرغوب فيها ويتلقاها الملك ممن يريد وبالشكل الذي يوافقه، وهو غير مقيد بها. وفرضت الشؤون الإدارية، أي السياسة والحرب، بفعل تعقيدها، حدّاً أدنى من التخصص، لذلك نرى في كل ملكية تقريباً رئيس ديوان ورئيس قضاة ومفوض مالية، ويُشار بـ«المفوض في الشؤون» إلى الشخصية التي تُبدي نشاطاً مميزاً ومهارة فائقة ورأياً صائباً فيعينه الملك مستشاراً ويفوِّضه بالبتِّ في كثير من القضايا باسمه، ذلك هو الوزير الرئيس.

لم يُتح لسلطة الملك وإدارته أن تُثبِّتا وجودهما بشكل متكافئ وقوي، فقد اعترضتهما عقبات كثيرة قوامها التقاليد والتنازلات. ففي مناطق الحدود أمراء أقوياء يتولون إدارة أقاليمهم، ويكتفون بتأدية واجب الطاعة حين يمر الملك بأراضيهم، ويقنع الرسميون بالجزية التي يصفها الأمراء بالهدية. وهناك الأُسر السلالية التي تسيطر على مناطق أقل سكاناً وثروة، ولا يتجاسرون بإعلان أنفسهم ملوكاً عليها، وهناك بعض المعابد التي يدير كهنتها أملاكاً عقارية تؤلف دولاً ثيوقراطية، وهناك شعوب وقبائل محلية تخضع لشرائعها الخاصة وتعيِّن رؤساءها، أشهرها الشعب اليهودي، وهناك المدن وحكامها من ذوي الامتيازات وقد نزعوا إلى الاستقلال، لذلك وقفت الفوضى بالمرصاد للملكيات المتهالكة والتي عجَّلت في تفككها.

الإدارة في الملكية الهلّينية

كانت الشؤون الإدارية في المناطق أكثر استقراراً منها في الإدارة المركزية ولكن معرفتنا بها ضئيلة، ويبدو الاختلاف بين الملكيات في هذا النطاق كبيراً للغاية لأن كل ملكية مرغمة على تكييف أنظمتها وفقاً لمميزات وضعها الجغرافي ورعاياها. ففي مصر احتُفظ بالتقسيمات الإدارية المعروفة بالأقاليم مع بعض الفروقات الناتجة عن التطور الاقتصادي أو زيادة عدد السكان. وقد عُيِّن، في بادىء الأمر، في كل إقليم حاكم مصري وقائد عسكري يوناني، ثم توارى الحاكم تدريجاً وراء القائد حتى زال نهائيّاً. وتشتمل المراتب الدنيا على رؤساء الأقضية والقرى. وقضت المشكلات المالية بأن يُعيَّن موظف مختص مرتبط مباشرة بوزير المال، وهو ما يُعبر عنه بالكاتب، فكان هناك كاتب القرية، وكاتب القضاء، وكاتب الإقليم، والكاتب الملكي.

وحافظ السلوقيون، وهم الخلفاء الطبيعيون لملوك الفُرس، على واقع المرزبانات (المقاطعات، وهي تقسيمات إدارية فارسية) القديمة باستثناء تقسيم بعضها إلى اثنتين أحياناً، وتولى حكم كل مرزبانة قائد عسكري. وقسمت المرزبانة إلى أقضية، أما في الملكيات الأخرى، مثل الملكية المقدونية، فإن معرفتنا بتقسيماتها الإدارية ضئيلة جدّاً تصل أحياناً إلى حد العدم.

شغل الإغريق الوظائف الكبرى في الملكيات الشرقية، وكانت اليونانية اللغة الرسمية فأُقصي بالتالي الوطنيون، وعُدَّ المواطن الإغريقي، بفعل ثقافته الجيدة

واستعداده الفكري أوفر حظّاً وأدق تنظيماً وأكثر أمانة، لأن الواجب يقضي عليه بالتضامن مع الملك أمام رعايا يمارسون حضارة أخرى، فلم يُخيب حسن ظن الملك به، على الرغم من بعض الاستثناءات التي أفضت إلى الفتن والثورات، والشك في نزاهة بعض الموظفين.

تتطلب الإدارة الجيدة تأمين الطرق التي تربط الإدارة المركزية بالأقاليم بغية نقل الأوامر وممارسة الرقابة بسرعة، وعلى الرغم من أن هذه الخاصية قد تحققت إلى حد ما، إلا أنه شاب الإدارة المركزية التعقيد والبطء في إنجاز المعاملات بين الدوائر التي تداخلت صلاحياتها واختصاصاتها بحيث يتطلب إنجاز أي معاملة الكثير من الوقت قد يتجاوز مدة مفاعيلها.

مصادر الثروة في الملكية الهلّينية

تُعدُّ الثروة مع القوة العسكرية العنصرين المتلازمين والضروريين للملكية الهلّينية لإخضاع الشعوب وفرض الأمن، وتعدَّدت مصادر الثروة في الملكية الهلّينية، نذكر منها:

- استثمار المناطق الريفية التي كانت مُلكاً خاصّاً للملك، وكانت أهمية الممتلكات الملكية من العقارات والأحراج والمناجم والمصانع كبيرة جدّاً لا يُقلّل منها سوى الهبات التي يمنحها الملك للمتفانين في خدمته.

- موارد الملك المتمتع بالحق السامي الذي توليه إياه الفتوح وصفته كملك، وأعني بها الضرائب على أنواعها الكثيرة، وهي تختلف باختلاف الملكيات ضمن الملكية الواحدة، وأكثر الضرائب رواجاً وأعظمها دخلاً الجزية، رمز السيادة، وقد أخذها المقدونيون عن الفُرس واعتمدوها في بلادهم، والمقصود بها مبلغ من المال يُحدَّد إجمالاً لكل جماعة أو إقطاع أو قبيلة أو مدينة أو قرية في الريف، من هذه الضرائب: ضريبة الرؤوس والرسوم على المواشي والأشجار المثمرة، وهناك الضرائب غير المباشرة، مثل الجمارك والمكوس والرسوم على المبيعات وغيرها، وهناك المصادرات والسخرة.

حقّق الملوك الهلّينيون من هذه الضرائب ثروة كبيرة أذهلت إغريق اليونان القديمة الذين لم يعرفوا سوى الميزانيات الفقيرة، وقد دفعتهم إلى الهجرة للبحث عن العمل والمال الوفير.

وكانت نفقات الملكيات باهظة جدّاً على تنوعها، مثل النفقات المتوجبة للموظفين والبلاط، وسياسة السخاء، ونصرة الآداب والفنون، والهبات للمدن ولمعابد الآلهة.

مصادر القوة في الملكية الهلّينية

إن العالم الهلّيني عالم عسكري، وإن مثالية الملك نفسها تفسح للقوة مركزاً ممتازاً، وينبغي على كل ملك أن يكون قويّاً ليدافع عن نفسه ضد جيرانه والطامعين في مُلكه، ولإبقاء رعاياه الشرقيين تحت طاعته، لذلك احتاجت الملكيات إلى جيش دائم من أجل هذه الغاية انبثق عن المدن اليونانية القديمة، إنه الحرس الملكي والحاميات الموزعة على الحصون.

كان من نتائج قيام الملكيات الهلّينية الكبيرة أن تحسَّنت الوسائل المادية للحرب لكنها استنزفت جهداً أضناها، ولم تكن هذه الملكيات بحاجة إلى تجنيد عناصر قتالية لأن للملك الحق بتعبئة رعاياه، ولكنه لم يلجأ إلى هذه التعبئة على نطاق واسع بفعل النفقات الباهظة التي تتطلبها، وخشية من قيام مراكز قوى عسكرية محلية يمكن أن تقوم بالثورة على النظام، لذلك لم يُسمح للوطنيين إلا بالانخراط في فِرَق المشاة الخفيفة وبعض فِرَق الفرسان، ولم يُرقَّ بعضهم بالنقل إلى الوحدات اليونانية إلا نادراً وبصفة شخصية، ولم يثق الملوك إلا بالعناصر اليونانية، وبخاصة المقدونية الذين أثبتوا تفوقهم العسكري بالقضاء على المدن اليونانية والانتصار على الفرس، واحتوى كل جيش ملكي على كتيبته المقدونية وفرسانه المقدونيين، وفي حال عدم توفر العدد الكافي من المقدونيين، يجري تجنيد اليونانيين، غير أنهم يشكلون وحدات مساندة للوحدات المقدونية.

لم يُسبِّب تأمين الحصول على الجنود المقدونيين واليونانيين في الملكية المقدونية أية مشكلة، وظهرت الصعوبات في الملكيات الشرقية. فقد احتفظت هذه بكل ما أمكنها من جنود الإسكندر وجنود خلفائه المباشرين، وعملت على استقطاب المهاجرين، فشجَّعتهم على الإقامة في الشرق من خلال تأمين المأوى وسُبل العيش، ووفَّرت لأبنائهم التسهيلات التي ساعدتهم على الخدمة العسكرية، فأمَّنت بذلك معيناً عسكريّاً.

ويبدو أن ظاهرة تجنيد الإغريق قد تراجعت بعد ذلك بفعل انتقال الجنود من قائد إلى قائد وكثرة هجرة المقدونيين إلى الشرق، فعمد الملوك إلى تجنيد المرتزقة لسد النقص الحاصل في عديد القوات المسلحة، ويخدم هؤلاء في وحدات قتالية خاصة تُعرف باسمهم القومي، مثل الكريتيين النبَّالين. ويستغرق تعبئة الجنود قبل المعركة بضعة أشهر، كما أن تجنيد المرتزقة يتطلب نفقات باهظة ومرهقة، وقد أثَّرت بشكل طبيعي على النفقات الإدارية الأخرى مثل دفع الأجور، ثم إن تفوُّق روما العسكري، منذ القرن الثاني قبل الميلاد، سيتوطَّد بشكل جلي بفعل فقدان مرونة الفرق العسكرية الملكية لا سيما المقدونية التي عجزت عن المحافظة على تلاحمها في قتال غير متكافىء أمام الفرق الرومانية القوية.

وليس للملكيات الشرقية سوى عناصر مقدونيا ويونانية قليلة العدد انحدرت إلى مستوى سكان البلاد المحليين، والملاحظ أن الملوك الهلّينيين لم يبذلوا جهداً كافياً في تنظيم المتطوعين المحليين تنظيماً عسكريّاً، فبدلاً من أن يُعيِّنوا الجنود المتفوقين ضباطاً في الجيش للاستفادة من ميزاتهم، أبقوهم جنوداً في وحدات خاصة.

وهكذا أدَّت سياستهم، القائمة على كبرياء العنصر الإغريقي وتفرُّده في الحكم والإدارة، وطغيان سياستهم العسكرية؛ إلى الإخفاق.

الخلاصة

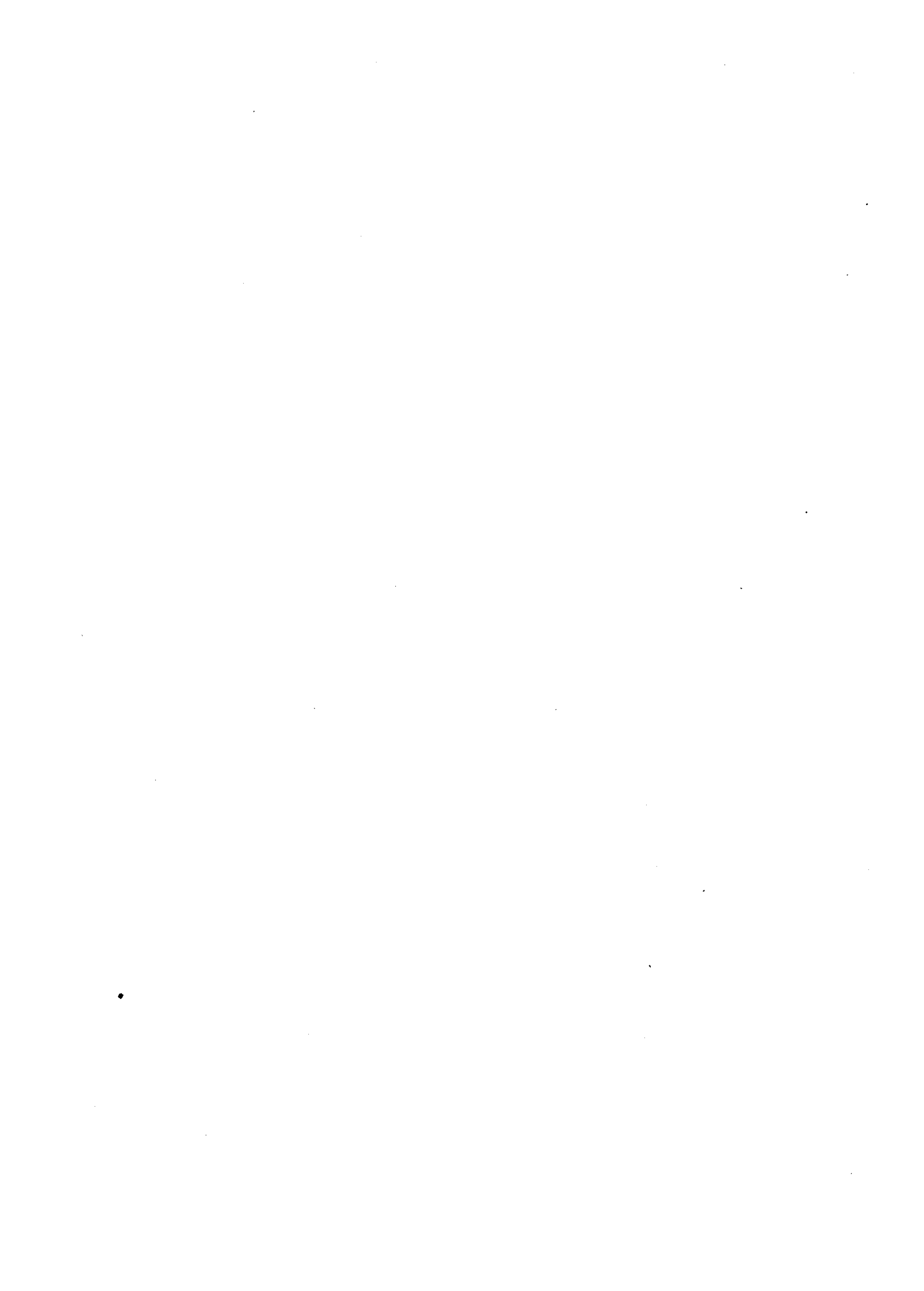
حاول الإغريق في العهد الهلّيني إنقاذ المثال الجمهوري من خلال تنظيم الاتحادات

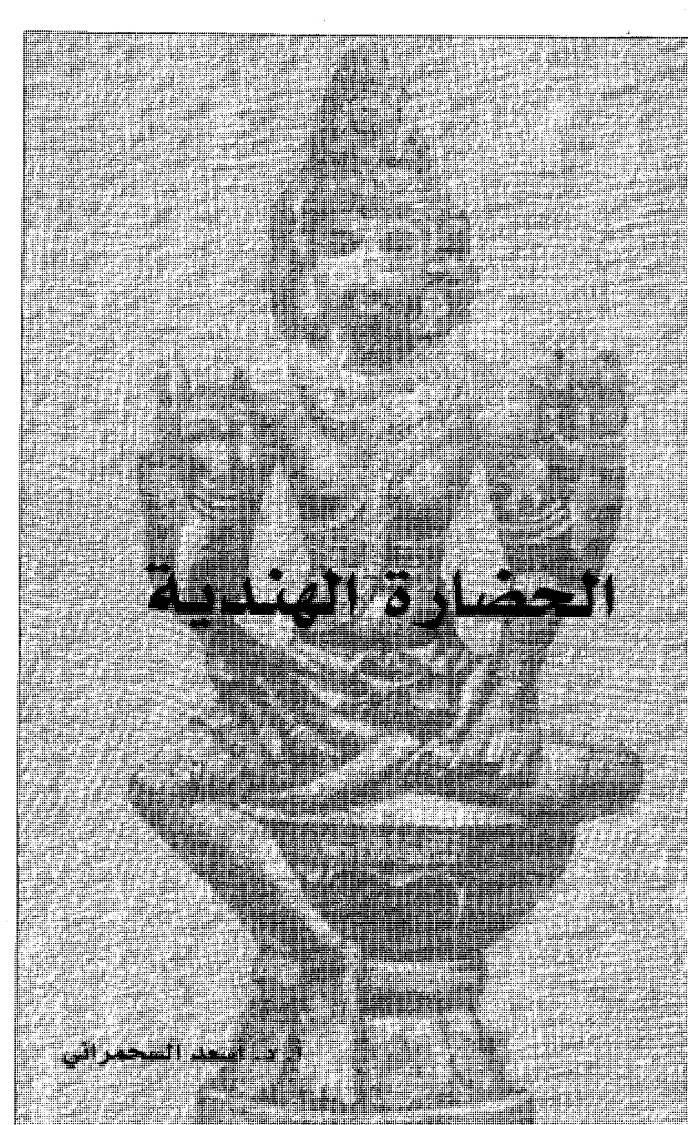
وتوسيعها، إلا أنهم فشلوا في ذلك، فكانت الملكية التي تنطبق على الظروف التي نشأت عن الفتوح، وقد وفّقت، في الشرق على الأقل، بين مثالية الإنسان المتفوق وبين نظرية الحق الأُسري في التملّك ما أمّن للسلطة المطلقة الحق الإلهي والبشري معاً من جهة، ولمبدأ الوراثة الذي يُجنّب الفوضى والكوارث من جهة أخرى. وتكوّن، انطلاقاً من هذه السلطة المطلقة، جهاز إداري ومالي وعسكري توّجه الحق الأُسري بهدف ضمان تنفيذ قرارات الملك، وجَمْع القوى السياسية والعسكرية بين يديه. وقد برهن اليونانيون عن إمكانات عقلية وتقنية عالية، غير أن الملكيات أخفقت في تحقيق الهدف المنشود، وبدأ الانحطاط يدب فيها منذ أوائل القرن الثاني قبل الميلاد، وبرز عجزها المادي في مقاومة روما التي ضمّتها جميعاً في تواريخ متعاقبة وفقاً لظروفها.

وقد تناولنا حضارات مناطق التقسيمات السياسية الهلّينية التي نشأت بعد وفاة الإسكندر الكبير، ونعني بذلك الحضارة البطلمية الهلّينية، والحضارة السلوقية الهلّينية وحضارة اليونان الهلّينية، وفق ورودها الأبجدي في هذه الموسوعة.

المصادر والمراجع

- إيمار، أندريه وجانين أوبوايه: **الشرق واليونان القديمة**، الجزء الأول من **موسوعة تاريخ الحضارات العام**. منشورات عويدات، بيروت ـ باريس.
- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة، حياة اليونان**، المجلد الثاني، الجزء الثالث. ترجمة محمد بدران، القاهرة.
- رسل، برتراند: **حكمة الغرب**. ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، العدد ٣٦٤، تموز، الكويت.
- Gardner, A.E.: **Ancient Athens**. N.Y. 1902.
- Rostovtze F.F., M: **The Social and Economic History of the Hellenistic World**. Oxford 1941.




الحضارة الهندية
أ. د. أسعد السحمراني

الموقع والتاريخ

الهند اليوم تمتد على مساحة هي ٢٤٠ ٢٨٧ ٣ كلم مربعاً، وسكانها، حسب إحصاءات العام ٢٠٠٨م، هم (٩٠٤ ٩٩٥ ١١٤٧ نسمة)، وبذلك تكون الدولة الثانية بعد الصين لجهة عدد السكان.

تقع الهند في القسم الجنوبي من قارة آسيا، ولها سواحل بحرية تمتد على أكثر من ٧٠٠٠ كلم، وتتمتع بموقع استراتيجي مهم، يضاف إلى ذلك ما تخزنه من ثروات حيوانية وزراعية وجمالية طبيعية تؤهلها للسياحة المتطورة.

كما أن الهند تتميز بعمق حضاري ضاربة جذوره في أعماق التاريخ، وكانت ممرّاً لطرق القوافل والتجارات مع العالم المعروف قديماً بقاراته الثلاث: آسيا وأفريقيا وأوروبا.

كانت تقوم قديماً على مساحة كبيرة عُرفت باسم: شبه القارة الهندية، وقد بلغ اتساعها مداه إبّان حكم آشوكا ڤارذانا الذي تولى الحكم عام ٢٧٣ ق.م. وكانت مع الهند أفغانستان وبلوشستان، والهند بقيت حتى العام ١٩٤٧م تضم مع الهند الحالية باكستان وأفغانستان.

تخترق الهند مجموعة أنهار كانت السبب في تمركز التجمعات السكانية، ومن ثمَّ بناء حضارة منذ آلاف السنين، بالإضافة إلى كهوف اكتُشفت وبداخلها نقوش من العصر الحجري، وفي العام ١٩٢٤م تمَّ اكتشاف مجموعة من أربع أو خمس مدن مطمورة على الضفة الغربية لنهر السند عند موهنجو-دارو، وهذه الأخيرة كانت قد عرفت مدنية وحضارة منذ العام ٢٩٠٠ ق.م.

يحتل نهر السند مكانة خاصة في حضارة الهند، وهو الذي يخترق مجراه الجزء الغربي من إقليم البنجاب، وطول النهر أكثر من ألف ميل. واسم النهر من اللغة الهندية القديمة: «سندو» ومعناها بالعربية: نهر. وعندما دخل الفُرس البلاد غازين لحنوا في الكلمة، وبدل سندو قالوا: هندو، وبعدها عُمِّم الاسم فقيل: هندوستان. هندو، معناها نهر، وستان: أي بلد، وبذلك يكون الاسم: بلد الأنهار.

وهناك نهر «جمنه» ومنه مياه العاصمة دلهي، والنهر الأهم الذي يحتل موقعاً دينيّاً، ويتصف عند الهنود بالقداسة، هو نهر «الغانج» ومجراه يمتد نحو عاصمتهم المقدسة «بنارس» ويروي معها «البنغال» و«كلكتا».

إن محيط الأنهار والمياه هو الذي عرف التجمعات السكانية والحضارات، ولم تخرج الهند عن هذه القاعدة، وقد عُرِف قدامى الهنود باسم الدراڤيديين Dravidians، وقد أثمرت التنقيبات والمتابعات من علماء الآثار بنتائج تفيد أن معالم حضارة قديمة لا تزال متوافرة. من ذلك أن مملكة موهنجو-دارو كانت على صلة مع ممالك سومر وبابل في بلاد ما بين النهرين منذ آلاف السنين، وكان بينهم ثمة مؤثرات متبادلة في الدين والفنون، هذا مع صلات تجارية واقتصادية، وقد تمَّ العثور على خاتم عليه رأسا ثعبانين، وذلك لأن قدماء بعض الدراڤيديين كانوا يقدِّسون الثعبان. ويفسِّر بعضهم ذلك أن القدماء عملوا لاكتشاف شراب أو دواء يضمن الخلود للإنسان، أو يطيل العمر، وكانت الفرضية أن هذا السائل الذي اصطلحوا على تسميته: الترياق أو الدرياق، قد يكون من سُمِّ الأفعى،

لهذا قدَّس قدماء الهند الدراڤيديون الأفعى (الثعبان)، وبعدها تمَّ التوافق على اعتمادها رمزاً لمهنتَي الطب والصيدلة.

يضاف إلى هذا الاكتشاف اكتشاف آخر في محيط مدينة بمباي يعود إلى الألف الرابع قبل الميلاد، ومن المكتشفات، نتيجة الحفريات والتنقيبات، آبار للمياه وحمّامات، ونظام متقَن للصرف الصحي، وبعض الأواني المنزلية وأدوات الزينة، وبعض المصنوعات الخزفية المطلية، وقطع نقدية، وأدوات للتسلية كالشطرنج والنرد (طاولة الزهر) وغير ذلك. إن هذه الآثار تبيِّن ما بلغته الهند القديمة من مستوى حضاري راقٍ قبل آلاف السنين من حضارة الإغريق (اليونان القدماء).

الجديد في تاريخ الهند كان حوالي العام ٢٠٠٠ ق.م عندما تحرك سكان شمالي بحر قزوين باتجاه الهند حيث احتلوا سهل الغانج وعُرف هؤلاء باسم: الآريين، وقسم من هؤلاء اتجه جنوباً ودخلوا أوروبا وبذلك باتوا هندو أوروبيين.

الآريون Arya أو Airya، باللغة السنسكريتية: الأشراف، وآريا: شريف. وتقول بعض المصادر إن سكان جنوب روسيا عبروا القفقاز إلى ضفاف قزوين، ومن هناك انتقلوا عبر منطقة وزيرستان الحالية في أفغانستان عبر وادي كابل إلى البنجاب حيث دمَّروا مدناً ومدنيات في موهنجو-دارو وهرابا، واستقروا في سهل الغانج، وقد أنجزوا عملية السيطرة هذه قرابة العام ١٥٠٠ ق.م.

كان الآريون يعتمدون النظام القبلي، وكان يتقدم كل قبيلة منهم راجا: شيخ القبيلة. وقد تعاملوا مع الدراڤيديين انطلاقاً من لون البشرة بشكل عنصري، فالدراڤيديون لهم بشرة سمراء داكنة وأنف أفطس، والآريون بشرتهم بيضاء مع أنف أقنى، وبسبب ذلك كان الادعاء الآري بالتمايز، وقد تسلَّط الآريون على الهند حتى أنهم اعتمدوا التزاوج فيما بينهم كي لا يذوبوا في الأكثرية الدراڤيدية، وقد كانوا أقلية في البداية.

أقام الآريون، بداية، بين نهرَي الغانج والسند (الهندوس) واستعبدوا الدراڤيديين، وبعدها بقرون، وتحديداً قرابة القرن السادس قبل الميلاد، اتجهوا شرقاً ليتوسَّعوا في إقامة الممالك والمدن في دلهي وفي مدهيديشا (في بلاد الوسط)، وفي منطقة أوده (كوشالا، ونيدها)، وفي منطقة البهرا الجنوبي (مفدها)، كما توسَّعوا جنوباً حتى جبال (فندها، وملكت)، وكانت مدن: كوسمي على اليمونا، وكاسي (بنارس) على الغرنافتي.

هذا المسار التاريخي ليس له بداية محددة بسبب عدم توافر الوثائق والمدونات، فكل ما خلَّفه الهنود القدماء بقي شفويّاً حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، لكن ما يدلُّ على عراقة الهند تاريخيّاً اكتشاف كهوف على صخورها رسومات ونقوش تعود إلى العصر الحجري، وقد تمَّ اكتشاف ذلك في بيمبتكا Bhimbetka، وهناك كشوفات لمساكن ومناطق استيطان تعود إلى العام ٩٠٠٠ ق.م.

الهند عرفت أقدم الحضارات وأعرقها؛ والسؤال في أي المجالات والميادين ظهرت هذه الحضارة؟ وما الذي ضمن لها الخلود والاستمرارية في الكثير من وجوهها إلى يومنا هذا؟



تمثال يصور الإله الهندي (براهما)

محطات سياسية من تاريخ الهند القديم

كان الدراڤيديـون سـكان الهنـد الأصليين بواصلون مسارهـم الحضـاري آلاف السنين، وكانـت لهـم إنجازاتهـم إلـى أن غـزا بلدهم الآريون في حوالي العام ٢٠٠٠ ق.م، وبعد هذا التاريخ، وعندمـا استقر الآريـون وتحوَّلوا من القرصنـة والسَّلـب إلـى العمـل فـي الزراعة وتربيـة المواشـي، واكتسبوا الكثيـر من تراث الدراڤيديـيـن فـي العمـران وسائـر ميادين الحضـارة، بـدأت حِقبة جديـدة عُرفت باسم عصر الڤيـدا، أو الحضـارة الڤيدية، حتى أن تاريـخ الهنـد فـي الألـف الثاني قبـل الميلاد ومعظم الألـف الأخير قبل الميـلاد، وتحديداً إلـى حوالـي العـام ٢٠٠ ق.م، كان مصـدره النصـوص الأدبيـة المعروفـة باسـم «ڤيـدا» «Veda»، وكان المصـدر الأساسـي لنصـوص الڤيـدا مـا حملـه الآريـون معهـم مـن أفكار ومفاهيم، وڤيدا تعني المعرفة.

عرفت الهند محطـة تاريخية جديدة حين غزاها الإسكندر المقدونـي في سنة ٣٢٧ قبل الميـلاد، وقد عبر إليها جبـال هندوكوش من بلاد فارس، وبدأ غزوه في الشمال الغربي من الهنـد، وكانـت منطقـة مـن أكبـر أجـزاء الامبراطوريـة الفارسيـة، وبعدهـا عبـر نهـر السنـد أوائل العـام ٣٢٦ ق.م ليوسِّع سيطرته، وقاتل حتى انتصر بصعوبـة، محتلّاً «تاكْسِلا» و«روالپنـدي» متجهـاً نحـو الجنـوب والشـرق خاصـة بعـد أن استسلـم له ملك تلـك البلاد پورس.

بعد أقـل من خمس سنـوات، وحين ضعف جيش الإسكندر، ولم يستجب الجيش مع قائده فـي مواصلـة الغـزو انـدحـر المحتـل، وقامت حركـة نهضة جديـدة حوالي العـام ٣٢٣ ق.م قادهـا تشاندرا جوپتا، وهو مـن طبقة الأمراء المقاتليـن المسمـاة: كشاتريـا؛ وإلـى جانبـه مستشـار كَفِـيٌّ هـو كوتيـلا تشاناكيـا. وطهَّر تشانـدرا جوپتا البلد مـن بقايـا المقدونيين، وأقـام امبراطورية «موريان» نسبـة إلى أسرته الحاكمـة موريان التي استمرت في حكم الهند كلها مـع أفغانستـان قرابة أربعة عشـر قرناً، وقد عاش شاندرا حياة بذخ وترف وكان عاكفاً على شؤون مملكته، ولم يشغله شيء عن ذلك، وكان يساعده في أعماله وزيره كوتيلا تشاناكيا الـذي أعطى صـورة عن العمـل اليومي للملك

شاندرا تدل على ما بلغته الإدارة السياسية عندهم من دقة التنظيم، وسلامة توظيف الوقت. ونترك الرواية كما جاءت عند «ديورانت» وهي:

«فيومه (شاندرا چوبتا) ينقسم ستة عشر جزءاً، طول الجزء منها تسعون دقيقة، فكان يستيقظ في الجزء الأول من يومه فيعدُّ نفسه بشيء من التأمُّل، وفي الثاني يقرأ التقارير التي يرفعها إليه موظفوه، ويُصدر فيها تعليمات سرية، وفي الثالث يجتمع بمستشاريه في قاعة المقابلات الخاصة، وفي الرابع يبحث في أمور المالية والدفاع القومي، وفي الخامس يصغي إلى شكاوى رعيته وقضاياها، وفي السادس يستحم ويتناول غداءه ويقرأ شيئاً من كتب الدين، وفي السابع يتقبل الضرائب والجزية ويضرب المواعيد الرسمية، وفي الثامن يلتقي بمستشاريه مرة ثانية ويستمع إلى ما يقرِّره له الجواسيس الذين كان يرصدهم، وبين هؤلاء عاهرات استخدمهن لهذه الغاية، وخصَّص الجزء التاسع من يومه للاستحمام والصلاة، والعاشر والحادي عشر للشؤون العسكرية، والثاني عشر للتقارير السرية مرة أخرى، والثالث عشر لحمّام المساء ووجبته، والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر للنوم».

إنه غير مجدٍ أن يدخل البحث في نسبة هذا النص ومحتواه، وهل هو فعلاً سرد لوقائع البرنامج اليومي للملك «تشاندرا چوبتا» أم أنه من فكر وزيره «كوتيلا»، بل المهم أن يكون مثل هذا التنظيم الدقيق في الإدارة السياسية، وفي توزيع ساعات العمل اليومي للحاكم، أي حاكم، محل نظر واعتبار، وأن تكون فيه استفادة لكل قائد سياسي.

بعد المؤسس انتقل الحكم إلى ابنه «بندوسارا»، ومن ثمَّ كانت السلطة لابنه «آشوكا ڤارذانا» سنة ٢٧٣ قبل الميلاد، وكانت انطلاقة جديدة للامبراطورية مع آشوكا. بدأ آشوكا عهده بالقسوة والظلم، ولكنه لم يلبث طويلاً حتى تبدلَّت قناعاته واعتنق البوذية معتقداً بما تدعو إليه من تسامح وزهد ومسالمة، وأمر بنقش تعاليم البوذية على الصخور في أرجاء الهند ليتيسر لكل مَن يجيد القراءة الاطِّلاع عليها، ولا تزال بعض هذه الأعمدة والصخور موجودة بين الآثار الهندية القديمة. وقد أسهمت هذه الثقافة في ترسيخ سلوك الزهد والامتناع عن أكل اللحوم وشرب المسكرات، وعزَّزت نشر فكرة «الأهِمسا» (الإماتة وملاشاة البدن والمسالمة وعدم الإقدام على قتل الحيوانات ولا ذبحها لتناول لحومها).

وكان بين النصوص التي نُقشت على الأعمدة: «إن قانون التقوى شيء جميل، لكن مِمَّ يتكون قانون التقوى؟ يتكون من هذه الأشياء: الأفعال الخيِّرة، والرحمة، والإحسان، والصدق، والصفاء».

وقد أسهم «آشوكا» ببعث البوذية وسعة انتشارها في الهند وخارج الهند، وبذلك عرفت البوذية في عهده عصرها الذهبي، ومما عزَّز ذلك ما كان يقدمه من هدايا وأُعطيات ودعم. بعده ضعفت المملكة وبدأت بالتفكك لكن ما خلَّفه من آثار، خاصة نشر البوذية، لا يزال قائماً إلى يومنا هذا.

وتأتي محطة أخرى في تاريخ الهند تكتسي أهمية هي امبراطورية الچوبتاس التي شرع بتأسيسها تشاندرا چوبتا الأول، وهو غير تشاندرا چوبتا السابق الذكر، وكان بعده بحوالي ستة قرون (٣٧٥م) وبعده استلم الحكم «سامُدْرا جوبتا» الذي استمر حكمه خمسين عاماً، وقد أسَّس دولة وحركة عمرانية وأدبية وفنِّية تركت في سجل الهند الحضاري بصمات مميَّزة، وواصل ذلك الخلف «ڤِكرا مادتيا» والاسم معناه بالعربية: شمس القوة، وقد أنجز هذا الأخير غزوات وتوسعت الامبراطورية في عهده، كما أنه وفَّر مناخاً للشعر والأدب والفلسفة والفنون، وبذلك أعاد هذا الحاكم ما كان في عهد آشوكا، وعرفت الهند حالة من التقدم غير مسبوقة.

لكن تجدر الملاحظة أن ملوك امبراطورية الجوبتاس ذهبوا مذهباً مختلفاً عن آشوكا من الناحية الدينية، حيث اعتقدوا أن الهندوسية أو البرهمية هي الديانة القومية الهندية، لذلك أعادوا لها الاعتبار وعزَّزوها على حساب البوذية التي كانت قد ازدهرت في عهد آشوكا، لكن ذلك لم يدفعهم إلى التضييق على البوذية بل كان الكثير من العمارة الدينية البوذية زمن الچوبتاس.

والمميَّز في عهدهم السعي إلى نشر اللغة السنسكريتية التي كان قد اعتمدها الآريون واعتنوا بها، وكان في عهد الچوبتاس إنجاز حضاري نوعي هو كتابة الملحمتين الشهيرتين لبلاد الهند وهما: «ماهابهاراتا» و«رامايانا»، لكن حضارة الهند ابتُليت بغزو الهون الذي قاده «ميهيراجولا» حيث خلَّف الدمار والخراب في الكثير من عمران الهند وإنجازاتها، وحاول بعدها الچوبتاس إقامة مملكتهم مع «هارشا ـ ڤاردانا» لكن الأمور لم تستتب، وباتت الانقسامات هي السائدة، ولم تكن إنجازات حضارية تُذكر سوى في الجنوب الهندي وفي منطقة «الدكن» خاصة، وقد قادت حركة النهضة قبيلة «شاليوكا» التي حققت إنجازات مهمة في الهند الوسطى وفرضت نفسها سياسيّاً، وكانت في عهدها حالة ازدهار حضاري مشهورة.

هذه أبرز المحطات التي سبقت الفتح الإسلامي للهند في مرحلة يصح تسميتها: حضارة الهند القديمة.

الدين في حضارة الهند القديمة

إن الدراسة الجادَّة لحضارة الهند القديمة لا يمكنها أن تتجاوز العامل الديني، لأن هذا العامل كان له أبلغ الأثر في الهوية الثقافية الهندية ماضياً وحاضراً، وكان له الأثر نفسه في الحركة الحضارية وما أنجزته فكراً وسلوكاً ونظاماً اجتماعيّاً وعمراناً... إلخ.

بلاد الهند منذ أقدم العصور عرفت قسوة العيش مع الكثير من الأوضاع المأزومة اجتماعيّاً وسياسيّاً، لذلك جاءت المعتقدات ـ وهي صناعة بشرية ـ تعالج هذه الأوضاع، وكان على أساس من ذلك النظام الطبقي والجانب العقدي مع الطقوس، وبشكل خاص نظام الزهد والتقشف الذي أنتج نظام الرهبنة الذي اشتهرت به الهند. أما أبرز العقائد والديانات الوضعية التي تركت بصماتها بقوة في حضارة الهند القديمة فهي:

١ ـ الهندوسية L'Hindouisme

تُعد الهندوسية مرتكزاً أساسيّاً في التكوين التاريخي والحضاري للشخصية القومية الهندية، حتى أن الدستور المعاصر في الهند عندما يذكر مكونات المجتمع الهندي ينص: تتكون الهند من الهنود والبوذيين والسيخ والمسلمين والمسيحيين.

والهندوسية لا تُنسب لشخص مؤسس، وإنما هي تراكم ثقافي تواصل عبر مئات السنين لا بل آلاف السنين، وقد تناقل الهنود هذا التراث الديني والأدبي شفويّاً، وكان تدوينه بعد القرن الحادي عشر قبل الميلاد مع تطور اللغة السنسكريتية التي كان بها التدوين، وهذه النصوص مجتمعة جمعها عنوان كبير هو: ڤيدا: المعرفة، وتنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ سمهتا Samhita، أو «مجموعة»، وتحوي أناشيد دينية ونصوص الصلوات وعبارات يستخدمونها في طقوسهم.

٢ ـ برهمانا Brahmana، أو «شروح»، وهي تعليقات وتفاصيل حول نصوص السمهتا.

٣ ـ يوبانشاد Upanishad، أو «دروس»، وتتمتع عندهم بقدر من السِّرِّية.

يضاف إلى هذه النصوص الڤيدانتا Vedanta أو ملحق الڤيدا، وهي نصوص تخبر عن التقاليد والأعراف، والإضافة لها متواصلة إلى يومنا هذا.

أسفار الڤيدا الباقية والمتداولة تتوزع في أربعة أسفار:

١ ـ سفر رج، أو معرفة ترانيم الثناء.

٢ ـ سفر ساما، أو معرفة الأنغام.

٣ ـ سفر ياجور، أو معرفة الصيغ الخاصة بالقرابين.

٤ ـ سفر أتارڤا، أو معرفة الرقى السحرية.

وكل سفر من هذه الأسفار الأربعة من الڤيدات ينقسم إلى أربعة أقسام هي:

١ ـ مانترا: الترانيم.

٢ ـ براهمانا: قواعد الطقوس والدعاء والرقى ووضع البرامج التفصيلية لأعمال الكهنة.

٣ ـ أرانياكا: نصوص الغابة، وهي خاصة بالرهبان الذين يعتزلون في الجبال والغابات ويعيشون حياة التقشف والزهد بغرض ملاشاة البدن لتحرير النفس من نيره.

٤ ـ يوبانشاد: مرَّ ذكرها، وهي محاورات يرغبون ببقائها سرية وطيِّ الكتمان.

وهذه الأخيرة يتكون الاسم فيها من مقطعين: يوبانِ «Upani»: قرب. وشاد «Shad» جلس؛ وهي عندهم تعني أنها تتحصل معرفتها بمجالسة المعلم كي يستمد التلامذة والأتباع معرفتهم بها من المعلم، وهي نصوص تمتزج فيها الفلسفة بالعقيدة الدينية.

لعل الدافع وراء ذلك هو أن قدامى الهنود أوْلوا الفلسفة عناية كبرى، ولم تصل درجة اهتمام أي شعب بالفلسفة إلى ما كانوا عليه. ومما حوته نصوص «يوبانشاد» أن ملك الڤيديين كان يخصص يوماً من كل أسبوع لمجالسة الفلاسفة ومناقشتهم، وتصنيف ذلك أنه جزء من الاحتفالات الدينية، وكان الفلاسفة يطمعون بما يقدمه الملك لهم من مكافآت تصل إلى ألف بقرة معها مائة قطعة من الذهب. واللافت أن فلاسفة الهند القدماء كانوا يتحدثون ولا يكتبون، لذلك جاءت نظرياتهم ممزوجة مع نظريات سواهم، وحوتها النصوص الڤيدية.

والملاحظة الواجب تدوينها هي أن فلاسفة الهند لم يضعوا النظريات التي تفتح آفاقاً للسيطرة على ما في الحياة الدنيا من مطالب ومكاسب وحاجات، وإنما تمحورت أفكارهم حول الخلاص من هذه الدنيا، وبالتالي التحرُّر من الآلام التي تصيب الإنسان فيها.

لهذا تأصَّل النظام الرهباني عند الهندوس، وفي الهنود عموماً، ومعه رياضة فيها قسوة على البدن مع تعويد النفس على الصبر والثبات، وقد عُرِف ذلك باسم: «يوغا»، والكلمة سنسكريتية معناها النير؛ ويقصدون أن فلسفة الحياة القاسية تؤدي إلى خلاص النفس من نير البدن، يضاف إلى ذلك أن فلسفة الهنود الخلاصية هي التي أنتجت طقس إحراق البدن بعد الموت لتحويله رماداً يُلقى في نهر الغانج المقدس، وذلك للتأكيد على نظرتهم اللامبالية بهذا البدن. إن هذه المفاهيم كان لها أبلغ الأثر في الشخصية الثقافية الهندية فرداً وجماعة، ولا تزال مفاعيلها قوية إلى هذه الأيام.

يرتبط بالديني الهندوسي جانب مشترك مع الاجتماعي هو التراتبية الطبقية، فالمجتمع الهندوسي، وبفرضية مرافقة للخلق، يتوزع في أربع طبقات، يلعب لون البشرة دوراً فيها حيث يسمون طبقات المجتمع: بَرنُ؛ أي الألوان، ويسمونها من جهة النسب: جَاتَك؛ أي المواليد، ويدل ذلك على أن هذا التقسيم قد حصل بعد الغزو الآري للهند حيث نتج عن هذا الغزو وضع الدراڤيديين سكان البلد الأصليين في الطبقة الدنيا من مجتمعهم. والطبقات حسب الديني- الاجتماعي ووفق معتقدهم تترتب، حسب أبي الريحان البيروني، على الشكل التالي:

«علياها البراهمة، قد ذُكر في كتبهم أنَّ خِلقتهم من رأس براهم، وأن هذا الاسم كناية عن القوة المسماة: طبيعة، والرأس علاوة الحيوان، فالبراهمة نقاوة الجنس، ولذلك صاروا عندهم خير الإنس. والطبقة التي تتلوهم كَشَتَر، خلقوا، بزعمهم، من مناكب براهم ويديه، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جدّاً، ودونهم بيش خُلقوا من رجلَي براهم، وهاتان المرتبتان متقاربتان، وعلى تمايزهم، تجمع المدن والقرى أربعتهم مختلطي المساكن والدور. ثمَّ أصحاب المهن دون هؤلاء غير معدودين في طبقة غير الصناعة، ويسمَّون: انْتَزُ، وهم ثمانية أصناف بالحرف، ويتمازجون بما يشابهها من الحرف الأُخر سوى القصّار والإسكاف واللعّاب ونسّاج الزنابيل والأترسة والسفّان وصيّاد السمك وقنّاص الوحوش والطيور والحائك، فلا يساكنهم الطبقات الأربع في بلدة، وإنما يأوون إلى مساكن تقربها وتكون خارجها، وأما هادي ودوم وچندال وتدهنو فليسوا معدودين في شيء، وإنما يشتغلون برذالات الأعمال من تنظيف القرى وخدمتها، وكلهم جنس واحد يميَّزون بالعمل كولد الزنا، فقد ذكر أنهم يرجعون إلى أب شودر وأم برهمن خرجوا منها بالسفاح فهم منفيون منحطون».

طبقات المجتمع الهندوسي أربع:

١ ـ البراهمة: الكهنة والمرجعية الدينية.
٢ ـ الكشاتريا: الأمراء والسياسيون والجنود.
٣ ـ الويشاش: الفايساس: المزارعون والحرفيون والمهرة والتجار... إلخ.
٤ ـ شودر: الخدم والعبيد والمنبوذون.

والهندوسية تقول بنظام الطبقات المغلقة التي لا يحق في ظلها لأي شخص أن يترك طبقته إلى سواها.

أما مصدر الشريعة للهندوسي، وواجبه تجاهه، فقد ذكروه في كتابهم المعتمد دينيّاً «مَنُّوسَمَرتي»، ومما قالوه:

- «على كل إنسان أن يعمل بما أُمر به بعد أن يتبصر فيه بعين العلم.
- إن كل مَن يعمل بالأحكام المشروعة والقانون المقدس ينال شهرة عظيمة في دنياه وسعادة وبركة غير متناهيتين بعد موته.
- إن علم القانون المقدس خليق بمَن لا يود ابتغاء المال من وراثة ولا هو تابع لأهوائه».

٢ - البوذية Le Bouddhisme

برزت في القرن السادس قبل الميلاد مع مؤسسها غوتاما سيدهارثا (Gautama Siddhartha)، المولود في «نيبال» شرقي الهند عام ٥٨٤ ق.م، والمتوفى عام ٤٨٣ ق.م.

كان بوذا ينتمي إلى طبقة «الكشاتريا»، وكان يحيا حياة بذخ ككل أهل السلطة، إلا أن محيطه الاجتماعي الهندي بما فيه من معاناة اجتماعية ومعيشية ومن فقر وتخلُّف دفعه إلى التمرد على أبناء طبقته، فغادر قصره لينضم إلى رهبان الهند متقشفاً زاهداً هائماً في البراري، واستمر في حياته هذه مع حياة الانعزال أحياناً متأمِّلاً مفكراً، واستقرَّ تحت شجرة مدة من الزمن على حاله هذه، وانتهى الأمر به إلى موقف قال فيه: «أخيراً وجدت مفتاح الحكمة. إنه أول قانون للحياة... من الخير يجب أن يأتي الخير»، وأيقن عندها أنه قد وصل إلى الحكمة فأصبح البوذا: «المستنير» (Buddha).

نزعت البوذية إلى رفض النظام الطبقي الهندوسي، وكانت في جوهرها فلسفة أخلاقية بكل ما للكلمة من معنى، ولم يطرح بوذا طقوساً وشعائر ولا برزت عنده اهتمامات بالألوهة، وكل ما هو من هذا القبيل عند البوذيين إنما هو من نتاج الأتباع الذين تعاقبوا في مراحل لاحقة على بوذا.

والتأثير الأساسي للبوذية كان بعد طرد الغزاة الإغريق الذين غزوا الهند بقيادة الإسكندر من قبل الأمير شاندرا چوبتا عام ٣٢١ ق.م، حيث جاء من سلالته آشوكا (Asoka) الذي استلم السلطة عام ٢٧٣ ق.م، وقد انتشرت البوذية في عهده - وبفعل اهتمامه - خارج الهند، وبذلك انتقلت هذه البوذية مصحوبة بالكثير من الفكر الحضاري الهندي، وبذلك تعاظم دور الحضارة الهندية القديمة، وكان للعامل الديني أبعد الأثر في ذلك من خلال آشوكا (Asoka).

إن البوذية التي خالفت الهندوسية في الكثير من الوجوه، وجاءت تدحضها، لم تخرج عن السمة العامة للاجتماع البشري الهندي، وهي نظام الرهبنة الذي كان ولا يزال سمة أصيلة في مجتمع الهند وحضارتها.

ورد في إنجيل بوذا: «إن الذين يعيشون لمسرَّاتهم، ويهتمون بما يأكلون ويشربون، قد قيَّدهم مارا (الشيطان) بقيوده وجعلهم يتلاعب بهم تلاعب الريح بالشجرة الضعيفة التي لا تصمد فتسقط. إن الذين لا يهتمون بما للجسد من أكل وشرب، فهم كصخرة

ثابتة في أصل جبل لا تقوى الرياح على زعزعتها».

تدور البوذية حول الوضع الاجتماعي بشكل رئيسي، فهي ذات بُعد إنساني، ولم تكن مهتمة بالبُعد المادي - وهذا من خصائص حضارة الهند القديمة -، وقد جاء في «إنجيل بوذا»: «ضمِّدوا جراحكم أيها المجروحون. اشبعوا أيها الجائعون. استريحوا أيها المتعبون. أطفئوا عطشكم أيها العطشى. ارفعوا عيونكم نحو النور أيها الجالسون في الظلمات. استعيدوا شجاعكم الحسنة أيها المنبوذون» (شودر).

وتركز البوذية على سلوك شخصي أساسه التخلي عن الأنا وملاشاة الجسد كي تتحرَّر النفس منه، وهذا لا يكون إلا بنظام الرهبنة. قالوا في إنجيل بوذا: «تلاشي الأنا هو الخلاص، إزالة الأنا هي شرط الاستنارة، محو الأنا هو النيرڤانا (الاتحاد بالروح الكلية بعد التحرر من البدن). سعيد مَن ينقطع في حياته عن الملذات، ويستريح في الحقيقة. حقّاً، فإن هدوءه وطمأنينة روحه هما مكافأته العليا».

إن البوذية تدعو للتخلي عن الدنيا، وأخذ العبرة من حالات الألم، ومن حقيقة الموت التي تصيب كل إنسان. قال البوذيون في هذا: «أصبح في حالة اختُطفت فيها روحه إلى الأعالي. فرأى بعينه العقلية كل ما يحتويه العالم من بؤس وألم وعذابات اللذّة والحقيقة المشؤومة للموت الذي يضع كل ثقله على كل الكائنات. وبالرغم من ذلك فإن الناس لم يكونوا بعد مستيقظين لتلقي الحقيقة. واجتاحت قلبه رحمة عميقة».

٣ - الجانيتية Le Jaïnisme

ماهاڤيرا Mahavira (٥٩٩ - ٥٢٧ ق.م) من قبيلة «لِشاڤي». ولد ماهاڤيرا في ضاحية ڤابشالي (بهار الحالية). أسس مدرسة زهد غالت في الزهد اتباعاً لسلوك ماهاڤيرا الذي سماه أتباعه: «جِنا» (قاهر)، وفاهاڤيرا أي البطل العظيم. أما اسم الطائفة فهو الجانيتية، ووصل الغلو به إلى درجة فرض العزوبة وعدم الزواج على أتباعه، فأسَّس لنظام رهباني فعال، وعند وفاته كان أتباعه أربعة عشر ألفاً.

قاهر هو الاسم الذي أطلقوه على مؤسس هذه النحلة، وفي هذا دلالة على أنهم كانوا يجاهدون لإضعاف البدن وإماتة الشهوات والغرائز، وإشباع حاجات البدن بحدِّها الأدنى. والجانيتية كانت على طريق سلوك سائد في الهند عند الجميع يقود إلى الرهبانية، وإن كانت الجانيتية قد تجاوزت الجميع من هندوس وبوذيين، لكن هذا الاتجاه المبالغ في الزهد قاد مجتمع الهند إلى مصطلح الإماتة والاستسلام وإضعاف قوى البدن وتعطيل كل مقاومة أو إيذاء لأي كائن حي، وقد تداولوا لذلك مصطلح (الأهمسا L'Ahimsa).

لم تبحث الجانيتية موضوع الألوهة ومسألة الخلق، وتجاوزت ذلك إلى التركيز على الإنسان الفرد بتحريره من نير الغرائز، وأنه هو مقياس لواقع أو حقيقة أدركها ولا توجد حقيقة متوافق عليها، فكل إنسان يدرك ما اطَّلع عليه وأدركه بذاته.

الشَّكُّ في الحياة والحقيقة أساس في الجانيتية، وقد تنكروا للمكاسب الفردية، ولم

يجيزوا للإنسان الاستفادة من تسخير أي كائن آخر، وحقُّه يتمركز في قتل نفسه (الانتحار) فقط.

وإذا كان الهندوس قد قدَّسوا الأبقار وحرَّموا ذبحها وأكل لحومها، فإن الجانيتيين حرَّموا تناول لحوم أية مواشٍ أو طيور، وذبح أي كائن حي، لا بل حرَّموا حراثة الأرض للزراعة خوف أن تُقتل أثناء ذلك بعض الحشرات، وطلبوا من أتباعهم كنس الطرقات قبل السير عليها كي لا يدوسوا على حشرة أو بعوضة قد تكونان عليها، وكانوا يصفُّون المياه قبل شربها خشية أن تكون فيها كائنات حية.

حدث للجانيتيين انشقاق مع أواخر القرن الأول للميلاد كان موضوعه ارتداء الملابس أو التعرِّي. قسم منهم: «شويتامْبَارا» كانوا يرتدون ملابس بيضاء، والفريق الآخر: «ديجامبارا»؛ يرون أن السماء هي غطاؤهم ويتجركون بأجساد عارية.

هذه المبالغات لم تحمل الكثير من الهنود على اعتناق هذا المذهب، فأتباع الجانيتية قلائل ولا يقاسون مع الهندوس والبوذيين، لكن ما دعوا إليه كان ولا يزال له وقع وأثر في مفاهيم تظهر مع هذا أو ذاك من الهنود.

العلوم والمعارف عند قدامى الهنود

إن الفكر والإنجاز العلمي في الحضارة الهندية القديمة يرتكز بشكل رئيس على الديانات والمذاهب الشائعة عندهم التي حركت التفكير والبحث باتجاه خدمة عقائدهم. هذه القاعدة جعلت الفلسفة في رأس قائمة العمل الفكري الهندي، وكانت المحور الأكثر حضوراً في بلاطات الأمراء



تمثال يصور الإله الهندي (آجني)

وفي مختلف المستويات الاجتماعية، ذلك لأن الفكر الفلسفي جاء يخدم مفاهيمهم الدينية التي تؤسس لنظريات تنير درب الهروب من متطلبات الحياة الدنيا، ورسم مناهج السلوك القائم على الغلو في التقشف والتزهُّد الذي يحقق ثمرة مرجوة هي: الخلاص من الحياة الدنيوية، وكل مدارس الزهد والرهبانية والتصوف التي كانت بعد الهنود كان فيها مؤثرات منهم.

تأتي بين هذه المفاهيم وأنماط السلوك مسألة النظرة إلى الجسد عند الموت، حيث المراسم الجنائزية التي تُظهر مدى احتقارهم

للجسد وللحياة نفسها. فالميت تُجرى له أعمال التنظيف والتعطير ومن ثمَّ يلقونه على كومة من الحطب المشتعل ليحرقوه، وتكون بقرب المكان الزوجة التي لا تلبث إلا قليلاً، ومن ثمَّ يلقونها فوقه لتحترق معه، أو أنها كانت تقبل لنفسها الزواج من شقيق الزوج المتوفى، وأحياناً يلقون فوق الحطب المشتعل بقرة، زيادة في قداسة المراسم؛ عند انتهاء العملية يأخذون الرماد ويلقونه في مياه نهر الغانج المقدس عندهم. التأمُّل في هذا الطقس يؤكد فلسفتهم السائدة في الهروب من الحياة الدنيا.

من الفلسفة والدين انتقل اهتمامهم إلى الفلك لفهم نظام الكون وكواكبه، وكان الهنود القدماء يرون في الشمس التي يرسمونها على شكل عجلة (دولاب) القوة الفاعلة في سائر الكواكب، فهي التي تنير القمر وتضيء نهاراً لتنشر النور في أرجاء المعمورة فتكون من ذلك التقسيمات الزمنية، من تعاقب النهار والليل إلى حساب التقويمات التي اعتمدتها الشعوب في الشهور والسنة، كما أن الشمس هي التي تشكِّل الأساس ونقطة الارتكاز للتوازن في حركة الكواكب. وتناولوا في علم الفلك بحوثاً حول الأرض وسائر الكواكب السيَّارة، والغيوم، والأمطار والبرق والرعد، وبشكل عام يمكن القول: إن علم الفلك عرف تقدماً بدرجة ما في الحضارة الهندية القديمة، وكان بعضه إرضاء للفضول المعرفي أو خدمة للمعتقد الديني، والنظرة إلى الحياة، ولم يخلُ اهتمامهم هذا من عناية بالتنجيم، كما كان الأمر عند شعوب أخرى.

يلي الفلسفة والفلك في الاهتمام عند قدامى الهنود الحساب حيث ينتسب النظام العشري في الحساب إلى حضارتهم، وكذلك رسم الأرقام بالشكل المعروف عالمياً وهو على هيئتين:

أ ـ الأرقام المسماة هوائية وهي: (9ـ8ـ7ـ6ـ5ـ4ـ3ـ2ـ1).

ب ـ الأرقام المسماة غبارية وهي: (١ـ٢ـ٣ـ٤ـ٥ـ٦ـ٧ـ٨ـ٩).

الأولى كانت أرقاماً يتم تداولها مخاطبة يرسمها المتداولون بأصبعهم في الهواء، والثانية يرسمونها على رمال مجموعة ضمن إطار، أو ينقشونها.

وأيّاً تكن النظريات حول أصل استخدام الأرقام بشكليها، وهل أن أحدها عربي الأصل أو هندي؟ فإن الفضل الأساسي في الحساب العشري والعمليات الحسابية يعود إلى الحضارة الهندية، وعنها نقل العرب وقبلهم الإغريق (اليونان القدماء)، مع الإشارة إلى أن الهنود لم يعيروا اهتماماً مماثلاً لعلم الهندسة، فعرفت الهندسة تطورها مع اليونان، وتبقى الإشارة إلى أن استخدام الصفر لم يكن معلوماً قبل العرب حيث قال باستخدامه مؤسس علم الجبر محمد بن موسى الخوارزمي (ت ٨٥٠ م).

إن الإقرار بفضل الهنود في علم الحساب له حضوره إلى أيامنا هذه، والدليل أن كاتب هذه السطور وُلد ونشأ في قرية من لبنان الشمالي، وكان كبار السن ممَّن عايشهم، أواسط القرن العشرين للميلاد، يتناقلون عبارة هي: «فلان ماهر في الهندي»، والقصد عندهم أنه متفوق في دقته بإجراء العمليات الحسابية، وبذلك يشكل مرجعية لتدقيق

الحسابات لهم أو تقسيم بعض الثروات المشتركة الملكية.

وقد جاءت بعض الآثار الهندية تؤكد ذلك، حيث عثر المنقبون على حجارة نُقِشت عليها الأرقام بشكلها المتداول حالياً تعود إلى العام ٢٥٦ ق.م، وهو عهد الحاكم المجدد في البوذية، الذي سبق الحديث عنه: «آشوكا».

أما الطِّب، وهو العناية بسلامة الأبدان وعلاج ما يطرأ عليها من خلل، وهذا أمر طبيعي، شأن الهنود فيه كشأن أي شعب آخر. والعلاج عندهم اتخذ أسلوبين هما:

أ ـ التداوي بالأعشاب، والهند بلد غني بأنواع النباتات والأشجار والتوابل.

ب ـ التداوي بالسحر والتمائم، وهذا أسلوب عرفته شعوب كثيرة.

لكن قدامى الهنود كانوا يميِّزون بين الأسلوبين ويجنح معظمهم إلى الأسلوب الأول؛ أي التداوي بالأعشاب، ويؤكد ذلك أن كتاب «رج ـ ڤيدا»، وهو من أدبياتهم القديمة، قد حوى أسماء أكثر من ألف نوع من الأعشاب المستخدمة في العلاج الطبي. وكان أطباؤهم يظنُّون أن المرض يحدث نتيجة خلل في العناصر الأربعة المكونة للجسد وهي: الدم، والبلغم، والماء، والهواء، وكان هؤلاء الأطباء يركزون على العلاج بالماء، وهذا أسلوب أعيد بعثه من جديد تحت مسمَّى: الصوم الطبِّي. وكان الطبيب يحرص على السكن في دار تحيط بها حديقة تُستنبَت فيها النباتات والأشجار لزوم الاستخدام في العلاج.

وعرف الطِّبُّ الهندي القديم تطوراً في فهم تركيب جسد الإنسان وتكوينه، فدرسوا وظائف الأعضاء (فيزيولوجيا)، وخصائص الأربطة العضلية، ورتق العظام، والأوعية الدموية، ودرسوا عملية الهضم بدقَّة، وعصارات المعدة، وكانوا يوجهون إلى فحص الذكورة عند الرجال قبل الزواج، وحذَّروا من تزويج المصابين بأمراض قد تنتقل بالوراثة فتؤدي إلى مواليد مشوَّهين، من هذه الأمراض السل والصرع والبرص... إلخ.

أما حركة العمران والبناء فإنها أقل حضوراً في تراث الهند لأنهم كانوا يستخدمون الأخشاب في بناء المساكن، ولم يتبقَّ سوى بعض الآثار الحجرية من عهد آشوكا الذي بدأ حكمه سنة ٢٧٣ ق.م، ومن ذلك عمود بات رمز البوذية وهو عجلة (دولاب) عليها تمثال أسد. وبسبب النقص في اعتماد المباني الحجرية واستخدام الأخشاب كانوا يستخدمون بعض الكهوف والمغاور، بعد تأهيلها، بيوت عبادة.

عرف الهنود بعض المعابد المبنية والتماثيل في القرون الثلاثة الأخيرة قبل الميلاد، وبذلك تكون العمارة عندهم قد ارتبطت كذلك بالعامل الديني، وهكذا الفنون الملحقة بها كالنحت.

ويدخل في باب الفنون والآداب عندهم موضوع الشعر الذي سيطر على أساليب التعبير كلها. فالنصوص الدينية كانت تصاغ شعراً كما العلوم اللغوية والطبية والقانونية، وكل أشكال الإبداع عندهم صاغوها في أشعار.

كما عرف الهنود القدماء فنون الموسيقى والغناء والرقص، وإن كان الأساس فيها كما يظنون طقوساً لها علاقة بعباداتهم ومعابدهم.

والسماع له عندهم موقعان للتذوق هما:

الأذن والـروح، وكان عندهـم سلَّـم موسيقي. وإذا كان السلَّم المعتمد من اثنتي عشرة نغمة فـإن السلـم الهنـدي كان يزيد لتبلـغ درجاته اثنتيـن وعشرين نغمـة. وموسيقاهـم لم تكن مدوَّنـة وإنما كانت تنتقل عبـر الأجيال سماعاً وبالأذن وحدها.

وقـد استخدمـوا آلات موسيقيـة منهـا الطبـول، وأحدها كانـوا يسمُّونـه: مريدانجا، وهو شبيـه ببرميل صغير، فـي كل من طرفيه غشـاء جلدي رقيـق يمكن تغييـر درجة صوته المبعـوث بجذبـه أو بإرخائـه بواسطة مفاتيح صغيرة من الجلد.

واستخدمـوا آلة أخرى اسمها: ڤينا، مكونة مـن أوتـار مشـدودة فـوق عارضـة رقيقة من المعـدن، فـي إحـدى طرفيهـا طبلـة خشبية يغطيها غشاء مـن الجلد، وفـي طرفها الآخر قرعة جوفاء تردد الأصداء، وكانت تلك الأوتار دائمـة الذبذبـة بواسطـة مضـرب فـي يمين العازف، بينما جعلـت يسراه تغيِّر في النغمات بأصابـع تتحرك فـي براعة من وتـر إلى وتر، وهي كالعود أو الكمان.

الإنتاج والاقتصاد

الهند بلـد متسـع الأرجاء، غنـي بمياهه، وتربته خصبة، تتوزع فيها غابات ونباتات يقل نظيرهـا، وهـذا مـا جعـل الصيـد والزراعة كأساليب معاش ملازمـة للإنسان، منذ بداية عهده في الحياة علـى الأرض، أنماطاً معتمدة في الهند حتى سنوات قليلة. وقد عرف الهنود نظام توزيع الأراضي على شكل ملكيات خاصة منـذ عهـد امبراطوريـة الجوبتـاس السابقـة الذكر، وأقامـوا سدوداً مائية بقي أحدها حتى سنـة ١٥٠م، كمـا أن بقايا قنوات الـري وجَر الميـاه لا تزال مـن الآثـار الباقية مـن الهند القديمـة. أمـا الصيـد أو قتـل الحيوانـات المفترسـة الضاريـة والأفاعـي فقـد أمَّـن له قدامى الهنـود الأسلحة الممكنـة التي توزعت من القـوس والنبال إلـى الفـؤوس النحاسية، إضافـة إلـى الأفخـاخ والحفـر المموَّهـة، والشبـاك، فالحفر للحيوانات الكبيرة كالفِيَلة، والشِبَـاك للعصافيـر، كمـا أنهـم استخدموا كلاب الصيـد لاكتشاف ما يجـب صيده، كما استخدمـوا الخيـول لملاحقـة أهدافهـم من الصيد. لم يكتفِ الهنـود القدماء بالصيد بل دجَّنـوا الحيوانـات الممكن تدجينهـا، فاقتنوا قطعـان الماعـز والأغنـام والأبقـار الحلوبة، وجعلـوا معها كلاب الحراسة لإبعاد الحيوانات المفترسـة عـن هـذه القطعـان. وقـد حظيت البقرة منذ القدم بشيء من التقديس عندهم فحرَّمـوا أكل لحومها، واستفـادوا من حليبها، ومن روثها كسماد للأرض الزراعية، كما أنهم استخدمـوا الثيـران للحراثـة وجـرِّ العربات، واستخدموا الخيول للغرض نفسه.

كمـا أن الهنـود عرفـوا النسيـج مـن شعر الماعـز، وكانـوا أول مَن مـارس زراعة القطن الـذي سمّـاه بعـض القدمـاء صـوف الشجر، وصنعـوا الفـرش. كمـا أن الحرفييـن مـن النجارين صنعوا الآلات الزراعية والعربات مع عجلاتهـا، وعمـل الحـدّادون فـي التعديـن مستخدمين، لصناعة الآلات، الحديد والنحاس والبرونـز، واختصَّ الدبَّاغـون بالصناعـة الجلدية. وكان قدامى الهنود أول مَن استخرج الذهب بوصفه معدناً ثميناً، ومَن تداول الذهب من القدمـاء كان يستورده مـن الهند، وعرفوا

كذلك الرصاص والقصدير والزنك، وتجدر الإشارة إلى أن التعدين، استخراجاً وتصنيعاً وتداولاً، قد عرفه الهنود قرابة العام ١٥٠٠ قبل الميلاد.

وكانت لهم آثار مهمة من هذا القبيل، منها عمود معدني حديدي في دلهي يعود إلى عام ٣٨٠ بعد الميلاد لا يزال موجوداً لم ينل منه الصدأ، بل حافظ على بريق هو محل حيرة عند أهل الاختصاص الذين لم يتوصلوا إلى السبب الذي أبقى هذا البريق بهذا المستوى.

وإذا كانت الصين قد اكتشفت طريقة حَلّ الحرير من دودة القزّ في الألف الثالث قبل الميلاد، ولقيمة النسيج الحريري سميت طرق التجارة من الصين باتجاه قزوين إلى بلاد العرب والفرس والهند وجوارها درب الحرير، فإن الهنود استطاعوا سرقة هذه الصناعة حوالي القرن السابع قبل الميلاد، وتفنَّنوا فيها حتى اشتهر عند العرب باسم الحرير الهندي.

أما بالنسبة للتجارة الداخلية أو عملية التصدير إلى بلاد أخرى، فإن الهند عرفت ذلك منذ أقدم العصور، حيث صدَّرت إلى دول أخرى الذهب والمعادن والنسيج وبشكل خاص التوابل، كالقرنفل والقرفة وجوز الهند وغير ذلك كثير. وقد قامت التجارة عندهم على المقايضة ومن ثمَّ كان النقد هو البقرة، وبعدها حلية كانوا يسمونها نيكشا Niksha وهي مصوغة من الذهب أو الفضة، وقد عرف نظامهم القروض، ومَن لم يكن يسدِّد قروضاً مترتبة عليه كان يتعرض لعقاب صارم. وكانوا ينتقدون الجشع والتعامل بالربا.

وقد أقام الهنود منشآت تسهل أعمال التجارة أساسها طرقات للعربات تنتشر عليها مساكن لإيواء المسافرين وما يجر عرباتهم من خيول أو ثيران، وهي على شكل استراحات أو فنادق باللغة المعاصرة، وهذا يدل على مدى عنايتهم بالتجارة.

يصح القول ختاماً: إن الهند عرفت في بعض العهود ثراء يضرب به المثل، مثل عهد «شاندرا جوبتاموريا» الذي سبق الحديث عنه في المادة التاريخية.

المجتمع الهندي والأُسرة

إن مجتمع الهند كان مليئاً بالأعراف والتقاليد التي حكمت مساره، وأبرزها تلك الآتية من المفاهيم الدينية أو من عملية الغزو الآري حوالي العام ٢٠٠٠ ق.م. فالغزو الآري كرَّس تفوق الآريين، بفعل اللون والسلطة، على الدراڤيديين سكان البلاد الأصليين، وعاش الكهنوت، وهم طبقة البراهمة، حياة استعلاء وفي موقع لا يدانيه أحد، وتقاربت طبقتا الكشاتريا، وهم الحكام والجند، مع طبقة الويشاش، وهم العاملون في مختلف قطاعات الإنتاج، وفي أدنى السلَّم الاجتماعي كان الشودار، وهم المهمشون المنبوذون الذين تُسند إليهم بعض الأعمال الخدمية الوضيعة، وهم أشبه ما يكون بالعبيد الأرقَّاء.

لقد تبلورت المفاهيم الاجتماعية التي كانت على شكل أعراف وتقاليد، وباتت قوانين عندهم جلُّها هندوسي المصدر لأنها عُرفت باسم «قوانين منُّو أو شرع منُّو»، وهو المعروف حاليّاً باسم: «مَنُّو سمرتي».

أما «منُّو» عند الهندوس فهو إله الزمان لأن اعتقادهم أن هناك دورات زمنية ولكل

دور «منُّو»، وكانوا يخاطبونه باسم: مَنُّوجي؛ وجي بالهندية لفظة تقال للاحترام وبالتالي تعريبها يكون «منُّوجي»: «سيدي الإله المحترم».

أما الإنسان الأول حسب «مَنُّو سمرتي»، فهو رجل وامرأة من مصدر واحد، والأصل جسد «بْرَهْما» الإله الخالق، والنص: «ثم إن بْرَهْما شطر جسمه وخلق شطراً في صورة رجل، وشطراً في صورة امرأة، وخلق من تزاوجهما رجلاً عظيماً يدعى بْرَاتْ».

والمرأة في شرع مَنُّو تابعة للرجل، وعند الزواج لا حقَّ لها أن تقوم بأي عمل مستقل يكون القرار فيه لها. النصوص هي:

«بل يجب أن تكون في صغرها تابعة لأبيها وفي صباها لزوجها، وإذا مات زوجها فلابنها، ولا تكون مطلقة الحرية قط».

«ليس على المرأة أن تقوم، مستقلة عن زوجها، بعمل تقدمة، ولا أن تنذر نذراً ولا أن تصوم لأن المرأة المطيعة تنال الفردوس الأعلى بإطاعتها فقط».

الأُسرة وهي خلية المجتمع النواة تخضع لسلطة رب المنزل، وله الحق بالتصرف بشؤونها من تزويج الأولاد، ذكوراً وإناثاً، إلى التأديب إلى غير ذلك. والهنود كانوا ولا يزالون مع الزواج في سنٍّ مبكرة، والأم عندهم هي التي تزوج ابنتها وتقوم بتجهيزها. فالعروس تحمل معها إلى دار العريس جهازاً، وهذا شكَّل، ولا يزال، مشكلة للأُسرة التي تكثر فيها الولادات من الإناث بسبب عبء التجهيز، ما دفع بعضهم إلى التخلص من المولود الأنثى أحياناً، وبالمقابل كانوا يحتفلون بالمولود الذكر لأيام، وكانوا يتحدثون بحسرة وأسى عن البنات اللواتي ليس لهن إخوة ذكور.

عندما يبلغ المولود الثالثة عشرة يقيمون احتفالاً بقَص شعره لأول مرة، وعند السادسة عشرة يكررون الأمر بحلق لحيته للمرة الأولى.

وبالنسبة للإنجاب، فقد احتل مكانة عندهم، والمرأة التي لم تنجب من زوج متوفى تنتقل إلى شقيق زوجها ليُنجب منها، وبشكل خاص ليُنجب منها ذكوراً.

يلتقي يهود مع الهندوس في نقطتين هما:

أ ـ سنُّ البلوغ للذكر عند يهود هو الثالثة عشرة ويحتفلون به، وهو نفسه العمر الذي يحتفل الهندوس به عند قَص شعر الفتى لأول مرة.

ب ـ انتقال زوجة المتوفى عنها زوجها إلى شقيقه، وهذا معتمد عند يهود.

وتوجد عندهم بعض التشريعات التي تتعلق بالمرأة متوافقة مع الدين الحق ومع مقتضيات الوقاية الطبية، من ذلك توجيه الرجل بأن يتجنب زوجته عند ظهور دم الحيض، ويشنِّعون على مَن يفعل ذلك، ويتوعدونه بسوء العاقبة. قالوا في ذلك: «وعليه (أي الرجل) ألاّ يقترب من زوجته عند ظهور دم الحيض مهما غلبت عليه شهوته، وألاّ ينام معها في فراش واحد. إن وطء الحائض يُذهب العقل والنشاط والقوة والجمال، وبالاختصار إنه يضيع الحياة كلها، واجتنابها، وهي في حالة الحيض، يزيد العقل والنشاط والقوة والعمر».

إن مثل هذا التوجيه يبيِّن مقدار تطور الطب عندهم، ويؤكد رقي حضارة الهنود القدماء.

ومجتمع الهند القديم عرف آداباً عامة تؤكد عمق التجربة الاجتماعية مع المستوى

القيمي الذي التزمه هذا المجتمع. نصَّ شرع مَنُّو على إكرام الوالدين والأساتذة، ومثَّل ذلك قيمة اجتماعية سامية تصاحب التقدم. ورد في النص: «ليس بالمستطاع مكافأة الأبوين، حتى ولا بمئة سنة، على ما يقاسيانه من العذاب في نسل الأولاد...، يفوز المرء في هذا العالم بقيامه على خدمة أمه، وفي العالم الثاني بقيامه على خدمة أبيه، وفي العالم الثالث بقيامه على خدمة أستاذه».

وإذا انتقلنا إلى البوذية فإننا نجد عندها الموقف السلبي نفسه الذي وقفته الهندوسية من المرأة، فعند الهندوسية في «منُّوسمرتي»: «قد فطر النساء على إغراء الرجال، فعلى العقلاء أن يحذروهن. إن في استطاعة النساء استهواء حتى العلماء من الرجال وجعلهم عبيد الهوى والغضب بله الجهلاء منهم».

أما البوذية فقد جاء عندهم في إنجيل بوذا:

«جاء الرهبان إلى بهاغاڤات وسألوه:

أيها التاثاغاتا سيدنا ومعلمنا، كيف يجب أن يكون سلوكنا تجاه الراهبات اللواتي رفضن العالم؟

قال المغبوط: احترسوا من النظر إلى المرأة.

إذا رأيتم امرأة تصرَّفوا كأنكم لا ترونها، ولا تتحادثوا معها».

وفي نص آخر من إنجيل بوذا:

«المرأة في العالم حريصة على إظهار وجهها وقدِّها أكانت سائرة أو واقفة أو جالسة أو نائمة. هي تستعمل الدهان والتخطيط والوشي لتأسر الرجال بمباهج جمالها، ولتختلس منهم صلابة قلوبهم وعزيمتهم».

بقي الحديث عن خصلة تسود بقوة في المجتمع الهندي بكل أطيافه ومعتقداته، إنها الرهبانية، حيث ينتشر عند أقدام جبال همالايا بين الغابات أكبر عدد من الرهبان المنتمين إلى الهندوسية والبوذية والجانيتية، هذا السلوك القائم على التقشف والزهد والقسوة مع البدن، وتعمُّد حرمان البدن من بعض حاجاته، والذي بات أصيلاً في المجتمع الهندي منذ آلاف السنين.

إنَّ دراسة موضوع الزهد والرهبانية عند المسيحيين، أو التصوُّف عند المسلمين، يبيِّن أن ثمة مؤثرات هندية قد تركت بصماتها عليه بفعل أسبقية نمط العيش هذا عند الهنود القدماء.

قبل أن نختم هذا المبحث يفيد أن يتمَّ ذكر ما جاء في إنجيل بوذا حول بعض التوجيهات الأخلاقية.

«قال البوذا: عشرة أشياء تجعل أعمال الكائنات الحيَّة رديئة، وتصبح أعمال الناس صالحة عندما يتجنبون هذه الأشياء العشرة، وهي ثلاث خطايا في الجسد، وأربع خطايا في اللسان، وثلاث خطايا في الفكر.

١ - خطايا الجسد الثلاث هي: القتل والسرقة والزنا.

٢ - خطايا اللسان الأربع هي: الكذب، والافتراء، والشتم، والكلام الباطل.

٣ - خطايا الفكر الثلاث هي: الطمع، والبغض والضلال».

ومما جاء في إنجيل بوذا:

«١ - لا تقتلوا أبداً ولكن راعوا جانب الحياة.

٢ ـ لا تسرقوا أبداً ولا تنشلوا ولا تخفوا، لكن ساعدوا كل إنسان على امتلاك ثمار عمله.

٣ ـ تجنَّبوا كل نجاسة وعيشوا حياة طاهرة.

٤ ـ لا تكذبوا أبداً ولكن كونوا صادقين في القول، وقولوا الحقيقة برصانة وبلا خوف، وبقلب مملوء بالمحبة.

٥ ـ لا تختلقوا أبداً حكايات خبيثة ولا تردِّدوها. لا تتخاصموا ولا تتقاتلوا أبداً، لكن انظروا إلى الجوانب الصالحة عند إخوانكم بطريقة تمكِّنكم من الدفاع عنها بإخلاص ضد أعدائهم.

٦ ـ لا تحلفوا أبداً لكن تكلموا بأدب وحشمة ولياقة وبعظمة وشرف ووقار.

٧ ـ لا تهدروا وقتكم أبداً بالكلمات الخالية من أي معنى، لكن تكلموا كلاماً في محله وفي وقته، وبنية طيِّبة، أو التزموا الصمت.

٨ ـ لا تطمعوا ولا تحسدوا ولا تغاروا، لكن افرحوا لسعادة الآخرين ويُمنهم!».

هذا قليل من كثير من التشريعات البوذية ومثلها كثير في الهندوسية، وكل ذلك تمت صياغته وطرحه في القرن السادس قبل الميلاد، ومع ذلك نجد بأن هذه القواعد الاجتماعية متطابقة مع ما حملته رسالات السماء الخالدة، وبشكل خاص المسيحية والإسلام في هذا الباب.

إن فكراً اجتماعيّاً يحوي هذه المنظومة من القِيَم يعدُّ فكراً راقياً، ويصلح إلى يومنا هذا من أجل مجتمع أكثر استقراراً وتقدماً، كما أن هذه النصوص من الحضارة الهندية في بُعدها الديني الهندوسي والبوذي تصلح قاعدة للحوار على المستوى الاجتماعي العالمي بين أتباع الديانات والمعتقدات.

خلاصات حول حضارة الهند القديمة

إن العرض السابق لتجليات ووجوه من حضارة الهند القديمة يؤدي إلى الخلاصات التالية:

١ ـ إن مسألة التقليد أصيلة في مجتمع الهند منذ آلاف السنين، كذلك الأمر بالنسبة للتمسك بالتقاليد والأعراف، مما جعل شخصية الهند الثقافية تتمتع بالاستمرارية حيث يجد المتابع أن أموراً كثيرة لها حضورها عند الهنود إلى هذه الأيام، وهي من خصائص القومية الهندية، وقد لا تكون هذه الحالة قائمة إلا في أمم قليلة.

٢ ـ لقد تميزت الحضارة الهندية القديمة ببُعدين بارزين:

أ ـ البُعد الديني، حيث يصعب أن يدرس الإنسان أي جانب من جوانب مجتمع الهند، سياسةً واقتصاداً وعادات ومفاهيم وسوى ذلك، إلا ويجد العامل الديني عاملاً حاسماً وأساسيّاً.

ب ـ البُعد الإنساني بمقابل حضارات كاليونانية كانت تؤسس مشروعها الفكري ومسارها على العامل المادي. فالإنسان من الولادة إلى التربية إلى المجتمع فالزواج فالإنجاب إلى ما بعد الموت كان حاضراً بقوة في الثقافة الهندية ولا يزال.

٣ ـ قدَّمت الهند للأمم والشعوب عطاءات وإنجازات أبرزها علم الحساب، ومعه فلسفات حول الإنسان والنفس، وأنماط في الاقتصاد الزراعي والتجاري، وإنتاج في النسيج من القطن والحرير، وقد أمَّنت كل هذه الإنجازات الحضارية مكانة للهند وموقعاً.

٤ ـ إن الرهبانية التي شكّلت حالة ظاهرة في مجتمع الهند منذ القدم كانت للهند من خلالها مؤثرات على المسيحيين في الرهبنة، وعلى المسلمين في التصوُّف، فهناك مشتركات لا تخفى على الدارس المتابع لمسار الزهّاد عند الشعوب.

٥ ـ إن النظرة الدونية للمرأة اجتماعيّاً لا تزال حاضرة بقوة في السلوك الأُسري الهندي، والعرف في أن العروس يجب أن تحمل جهازاً إلى بيت عريسها، وهذا يشكل عبئاً على أسرة تكثر فيها الفتيات، قد يكون أحد العوامل، بالإضافة إلى نصوصهم في قوانين مَنُّو وإنجيل بوذا ودعوة الجانيتية المؤدية إلى عدم الزواج.

٦ ـ إن ثقافة تدريب الذات على التحمُّل وحياة التقشف، وهي حالة أصيلة في الاجتماع البشري الهندي، ومعها ما تتمتع به بلاد الهند من ثراء طبيعي، شجراً ونباتاً وحيوانات ومعادن، تؤهل الهند التي بدأ مارد التنمية فيها يخرج من قمقمه لكي تكون في مستقبل قريب بين أكثر الدول تقدماً وازدهاراً، وحضوراً على الصعيد الدَّولي.

المصادر والمراجع

- **إنجيل بوذا**، ترجمة سامي سليمان شيّا، بيروت، دار الحداثة، ط١، ١٩٩١.
- إيمار، أندريه، وأوبوايه، جامين، **تاريخ الحضارة القديمة**، م١، نقله إلى العربية فريد داغر، وفؤاد أبو ريحان، بيروت، دار عويدات، ط١، سنة ٢٠٠٣.
- البيروني، أبو الريحان، **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة**، حيدر آباد الدكن ـ الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف، سنة ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م، نسخة مصورة من قبل: عالم الكتب، بيروت.
- توينبي، أرنولد، **تاريخ البشرية**، عرَّبه د. نقولا زيادة، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ط٣، سنة ١٩٨٥.
- توينبي، أرنولد، **مختصر لدراسة التاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، مراجعة أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، ط١، سنة ١٩٦٠.
- ديورانت، ويل، **قصة الحضارة**، ج٣، ترجمة د. زكي نجيب محمود، بيروت، دار الجيل، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- السحمراني، أسعد، **من قاموس الأديان (الهندوسية ـ البوذية ـ السيخية)**، بيروت، دار النفائس، ط٢، سنة ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.
- منُّوسمرتي، عرَّبه وشرحه د. إحسان حقّي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، سنة ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.
- Lénoir, Fréderic, et Masquelier, Ysé, **Encyclopédie des réligions**, Éditions Bayard, l'année 1997.

الحضارة اليابانية
(القديمة)

أ. د. أسعد السحمراني



اليابان بلد له حضوره في الذهن البشري بقوة منذ العام ١٩٤٥، عندما تعرضت مدينتان من البلد للقصف بالقنابل الذرية الأمريكية هما: ناكازاكي وهيروشيما، إبّان الحرب العالمية الثانية، وفي العقود الأخيرة بات حضور اليابان قوياً في كل موقع في العالم من خلال الصناعات التي تصاعد تقدُّمها بشكل لم يستطع مجاراته أي بلد في العالم. ويكون السؤال التقليدي: هل الحضارة أصالة تاريخية في اليابان، أم أنها حالة معاصرة؟

الجغرافيا والموقع

في القسم الشرقي من آسيا، وفي أقصى موقع من العالم المأهول منذ آلاف السنين قبل الميلاد، تقع نيبون أو نيهون (اليابان). هُون: منبع أو أصل، وني: الشمس. ونيهون: مصدر الشمس أو مشرق الشمس.

اليابان أرخبيل يقع بين المحيط الهادي وبحر اليابان وشبه الجزيرة الكورية على مساحة هي ٣٧٧٨٣٥ كلم مربعاً. وتتكون اليابان من حوالي ثلاثة آلاف جزيرة أكبرها أربع جزر هي: هوكايدو، وهونشو، وشيكوكو، وكيوشو.

يبلغ طول السواحل اليابانية ٢٩٧٥١ كلم، واليابان بلد يمتاز بالوعورة، حيث تحتل المناطق الجبلية ٧٣ بالمئة من مساحته الكلية ما جعل فيه اكتظاظاً في المساحات غير الجبلية حيث المدن، وبالمقابل تَمَّ الاهتمام باستصلاح أراضٍ في المرتفعات وزراعتها وربما شمل ذلك عدداً من التلال والأراضي الجبلية.

تُعد اليابان منطقة براكين كان لها ظهورها بين وقت وآخر، وتُعرف باسم «حلقة المحيط الهادي النارية» وقد جعل ذلك فيها عدداً من ينابيع المياه الحارَّة التي يتمُّ استثمارها سياحيّاً. إن أعلى قمم اليابان هي جبل فوجي وارتفاعه ٣٧٧٦م؛ والنقطة الأكثر انخفاضاً هي هاشيروغاتا التي تقع بمستوى أقل من سطح البحر بأربعة أمتار.

التاريخ القديم

لم يكن التدوين محل عناية قدامى اليابان، لذلك ضاع الكثير من محطات التاريخ الياباني، ومعه ما يمكن أن يكونوا قد أنجزوه، ولا يعثر المتابع لتاريخ اليابان أو حضارتهم القديمة على صيد ثمين في هذا الباب بخلاف ما كان عند قدامى الصين وقدامى الهند.

إن التدوين الأول كان مع نهايات القرن الخامس الميلادي عندما استورد اليابانيون نظام الكتابة من جارتهم الصين، وأول مدونة وصلت عن تاريخ اليابان كتاب «كوجيكي»، وهو كتاب «وقائع الأشياء القديمة» وقد ظهر هذا الكتاب في العام ٧١٢ للميلاد، وقد اختلط فيه الديني بالأسطوري بالتاريخي بالحضاري، وكان بعده كتاب «نيهون شوكي» أي مدونات بلاد اليابان، والذي ظهر إلى الوجود عام ٧٢٠ للميلاد.

عاشت اليابان حالة انزواء دامت عشرات آلاف السنين، وقد كان بسبب ذلك غموض لفَّ اليابان القديمة، وإذا كان قد استقر عدد من المجموعات البشرية على أرض اليابان قبل الألف الثامن قبل الميلاد في العصر الباليوليثي (العصر الحجري القديم)، فإن شيئاً لم يعرف عن تلك الحقبة سوى أن مَن

سكنوا اليابان في تلك المرحلة وفدوا إليها من مواقع آسيوية مجاورة.

لكن المرحلة المعلومة من تاريخ اليابان هي عصر جومون Jomon Periode، التي تمتد من عام ٥٠٠٠ ق.م إلى ٣٠٠ ق.م، ويسمونه عصر نيوليتي، وقد اعتمد اليابانيون في معاشهم أثناءه الصيد البري والبحري، وبعض الثمار التي يجنونها من الغابات. أما أصل الاسم جومون فهو استخدام الخزف أو السيراميك الذي وفد إليهم من كوريا ومنشوريا وسيبيريا، والكلمة في لغتهم (مون: ديكور، وجو: حبل)؛ أي ديكور الحبل، ومصدر الاسم أنهم كانوا يزينون هذا الخزف البدائي برسوم الحبال على عجين غير صلب، ومن هذا المصدر كان الاسم: جومون؛ أي ديكور الحبل أو صورة الحبل.

الحقبة الثالثة كانت عصر يايوي Yayoi (٣٠٠ ق.م-٣٠٠م.) وقد عرف هذا العصر اتصالاً بقدر ما مع الصين في عهد أسرة هان، واستقدم اليابانيون بعض أساليب المعاش، وبذلك تجاوزوا الصيد وتحصيل الثمار من الغابات إلى زراعة الأرز، وإجادة بعض الصناعات من البرونز والحديد والفخار، وانطلاقاً من الاكتشافات الأثرية يظهر أن حضارة عصر يايوي قامت في شمال جزيرة كيوشو، وفي منطقة ياموتو من جزيرة هونشو الوسطى.

يمتد التاريخ القديم لليابان إلى ما بعد المراحل المذكورة سابقاً، بخلاف الحال في الحضارات الأخرى، حيث بعد عصر يايوي عصر كوفون (Kofun) (٣٠٠م-٦٠٠م) وقد وسَّع حكام ياموتو نفوذهم أثناءه، وأثناء هذه المرحلة حصل حدثان مهمان هما: دخول الكتابة من الصين عبر كوريا عام ٤٠٥م، ووصول الديانة البوذية إلى اليابان عام ٥٥٢م.

بقي أن نذكر في هذا السياق أن اليوم الوطني الياباني المعتمد هو ١١ شباط/ فبراير، وكان للمرة الأولى في العام ٦٦٠ قبل الميلاد.

حضارة اليابان القديمة

لم تظهر عند قدامى اليابان حضارة مميزة، ولم تكن لهم عطاءات باهرة كما كان الأمر عند الهنود والصينيين، وقد أقرَّ بذلك المؤرخون اليابانيون الذين قالوا: كل ما في اليابان من منجزات الحضارة وافد، لكن اليابان استطاعت أن تكيِّفه مع واقعها بحيث اتخذ هوية يابانية.

ويوم كانت البلدان المجاورة تعرف نظم الكتابة، وفنون الزراعة، وأنواع الصناعات، وهذا عصر جومون في اليابان بعد الألف الخامس قبل الميلاد، لم يكن اليابانيون قد عرفوا بعد الرعي وتدجين الحيوان والطير ولا الزراعة، وإنما عاشوا على الصيد وما يقطفونه من أشجار الغابات، وأقصى ما فعلوه هو تدجين الكلاب للصيد، أو اقتناء بعض الأقواس المتقنة لزوم الصيد البري، وفي أواخر هذا العصر استخدموا الحصان بعد استيراده من الجوار؛ ومساكنهم في عصر جومون كانت حفائر يغطونها بما يتوافر من الأغصان وأوراق الشجر كسقوف لها، وأكثر ما أتقنوه، أواخر عصر جومون، بناء المساكن من حجارة مسطحة.

وعصر جومون عرف صناعة الخزف

الوافدة إلى اليابان وبأشكال متنوعة، وتوصلوا إلى نحت بعض التماثيل الحجرية، وكان العاملُ الديني الدافعَ لصناعة هذه التماثيل ومنها ما استخدموه لدفع شر أو بلاء أو للمرضى والمعوقين أو للإخصاب.

أما عصر يايوئي (يايوى) الذي استمر أكثر من ستة قرون من (٣٠٠ ق.م ـ ٣٠٠م) وعاصر حكم أسرة هان في الصين، فإنه، وبتأثيرِ الانفتاح على الجوار والصين خاصة وبعدها كوريا، قد عرف أنماطاً جديدة من المعاش ووسائل تأمين الحاجات، وغاب الصيد لتكون الزراعة، خاصة زراعة الأرز الذي احتلَّ مكانة في أقوات اليابانيين وزراعتهم واقتصادهم ولا يزال إلى يومنا هذا.

ودخلت إلى حضارتهم صناعة النسيج، والأدوات والأسلحة التقليدية كالسيوف والفؤوس المصنوعة من الحديد والبرونز، وقد أخلت الأدوات الحجرية والخشبية الساحة لهذه الصناعات المعدنية وأتقنوا صناعة نوع من الأجراس عُرف باسم «دوتاك».

وقد استعمل يابانيو عصر «يايوئي» الجرار الفخارية لدفن الموتى، والمصنوعات البرونزية لما يستخدمونه من متاع الموتى من دون أن يغيب عن البال أن صناعة الخزف (السيراميك) المستوردة في عصر جومون من كوريا والصين، والتي كانت صناعة بدائية خشنة، قد تطورت تطوراً لافتاً في هذا العصر.

إلا أن التطور اللافت في حضارة اليابان القديمة كان بدءاً من أوائل القرن الرابع الميلادي إلى نهايات القرن السادس. وقد شهد هذا العصر المسمى «عصر المدافن الكبرى وتوحيد اليابان»: دخول البوذية إلى اليابان، وانتشار الزراعة فوق جميع الأراضي ما دفع القبائل والولايات المتشددة إلى السعي إلى صياغة وحدة يابانية تُنتج بلداً موحَّداً وقوة اقتصادية نامية، وبفعل ذلك نشأ مجتمع إقطاعي فيه الأغنياء مُلاَّك الأرض أو الإقطاعيون، وفيه الفلاحون، وقد طغى التمييز على كل وجوه الحياة بما في ذلك المدافن التي خصصت الكبرى منها للإقطاعيين والأغنياء.

وقد انتهى الأمر إلى توحيد البلد تحت حكم الامبراطور سوجين، وسمي الامبراطور ميماكي: حاكم البلاد لأول مرة، وأغلب الدراسات تفيد أنه من منطقة شمالي كيوشو، وجاء في كتاب «كوجيكي» حول هذه الواقعة التاريخية المهمة ما يلي: «الامبراطور ميماكي الأول الذي وحَّد جميع سلطات البلاد. انطلق جلالة الأمير الكبير إلى إقليم كوشي حسب أوامر الامبراطور السابق، ثمَّ التقى الشيخ تاكيه نُتاكاوا المبعوث إلى الشرق في أيزُ، لذلك سمِّي هذا المكان أيزُ (مكان اللقاء). هكذا أعاد كل واحد منهما السلام إلى الإقليم الذي أوكل إليه ورجع إلى عند الامبراطور كي يقدم تقريراً عن الأمر. هُدِّئت البلاد تماماً وازدهرت أحوال الشعب وأصبح الناس أغنياء. والحالة هذه، قام الامبراطور لأول مرة بفرض ضريبة على كل طريدة يصطادها الرجال بالسهام، وفرض ضريبة على الأقمشة التي تنسجها النساء. وفي هذا العهد أيضاً أقيمت بحيرة يوسامي وبحيرة كا ـ أُوري بـ كار». عاش هذا الامبراطور ١٦٨ عاماً (توفي في كانون الأول/ ديسمبر سنة ٣١٨ م)؛ ويعد سوجين أو

ميماكي جدُّ العائلة الامبراطورية الحاكمة في اليابان إلى اليوم، ويكون عهد حكم هذه الأسرة الامبراطورية الأطول بين حكم الأُسر المالكة في العالم.

وإذا كان سوجين قد أجرى بعض التنظيمات في اليابان كالضرائب وسواها، فإن كل ذلك مستفاد من الوافد الحضاري الصيني، حتى أن الاسم نفسه «اليابان» أصله صيني، ومعناه: بلد الشمس الطالعة أو منبع الشمس، وهو بالصينية جي- بن Je-Pen، وهو أصل كلمة جابون أو يابان أو نيبون Nippon حسب النطق الياباني.

نختم بخلاصة قالها فرنان بروديل: «يبدو أن قدر اليابان هو أن يتطور عمليّاً وسيتطور لاحقاً تحت وقع الغزوات والتجديد الأجنبي. لقد تشكل اليابان أو أعاد تشكُّل نفسه على شاكلة الآخر على الدوام».

المجتمع الياباني القديم (الديني والاجتماعي)

تقوم ثقافة الاجتماع البشري الياباني على تقديس الشمس، فهي كبيرة الآلهة (أماتيراسُ)، وعبادة الشمس هي الأساس في ديانة الشنتو السائدة في اليابان، والشنتوية كالهندوسية في الهند عنصر أساس في الثقافة اليابانية أكثر منها ديانة فحسب.

هناك أسطورة سائدة حواها كتاب «كوجيكي» تبيِّن النظرة الاستعلائية عند اليابانيين الذين جَذرهم من مصدر إلهي، وأنهم أول مَن كان موجوداً في هذا الكون.

جاء في «كوجيكي»: «عند نشأة السماء والأرض وُلد آلهة في مدِّ السماء الأعلى، هم: الإله المولى مركز السماء المهيب، ثم إله الإنتاج الأعلى المهيب، وأخيراً إله الولادات الإلهية، ثمَّ، وبينما كانت الأرض المولودة تشبه بقعة زيت عائمة، ولد من الأشياء إلهان: الإله الأمير الرضيُّ، والإله المقيم أبداً في السماء... الآلهة الخمسة أعلاه، هم آلهة سماويون متميِّزون عن الآلهة السماويين المتعددين الآخرين.

والآلهة الذين ولدوا عقب ذلك هم: الإله المقيم أبداً في الأرض، ثم الإله حقل الغيوم الوافرة... والآلهة الذين ولدوا بعد ذلك، هم: إله الطين وزوجته إلهة السيف».

«فجاء أمر الآلهة السماويين جميعاً إلى الإلهين إيزاناكي نوميكونو، وإيزانامي نوميكوتو، أن: رمِّما ووطِّدا هذه الأرض الجارية. وإذ أوكلوا إليهما الأمر، قدَّموا لهما فأساً سماوية مزخرفة، وبينما كان هذان الإلهان يقفان على جسر السماء العائم، غطَّسا الفأس الإلهية وحركاها بشكل دائري في ملوحة البحر، ثمَّ سحباها سحباً يسبِّب بقبقة المياه، آنئذٍ، تطابقت القطرات المالحة التي سقطت من الفأس وأصبحت جزراً».

هكذا تكون جزر اليابان من مصدر سماوي، وهي مصدر الشمس، وقد كان لذلك تأثيره عندهم حيث ظنوا أنهم مميَّزون من دون سائر الناس. وتسود اليابان قناعة أن العائلة الامبراطورية مصدرها إلهي، لذلك كانت محل تقديس بعد آلهة الشمس (أماتيراسُ) وأضيف إليهما تقديس السلف (الأجداد والآباء) على طريقة بعض قدامى الصين.

إن اليابانيين المعاصرين مزيج تبلورت شخصيته، وهم ٩٩ بالمئة من السكان، لكن

الأصوَل العرقية هي من الآينــوس أو الأينوين الذين وفدوا منــذ آلاف السنين عبر نهر أمور إلــى اليابــان، وهــم قساة الطبــاع خشنــون، وبعدهــا كانــت هجرات أخــرى من الجــوار أو عبــره؛ أي مــن الصين وكوريا، وهــذا الخليط شكَّل مجتمعاً له لغة واحدة، وحضارة واحدة.

وقد دامت الحياة بدائية في اليابان وتأخر ظهور حياة متحضــرة. فبعض الصينيين ذكر أن اليابانييــن قصيــرو القامــة، يزخرفــون أنوفهــم بالوشــم الــذي يشيــر إلــى مستواهم الاجتماعــي، ويلبسون ثوباً مــن قطعة واحدة، ولديهــم حراب ورمــاح في رؤوسهــا حجارة أو حديــد ولا يلبســون أحذيــة. وإذا صدقت هذه الروايــة، وهي من القرن الرابــع بعد الميلاد، تكون الحضارة قد تأخر ظهورها في اليابان.

كان النظام السائد قديمــاً عند اليابانيين نظامــاً إقطاعيّــاً، فــالأرض يسيطــر عليهــا الأغنيــاء، والفلاحــون يعملــون وهــم أشبه ما يكونــون بالعبيــد، وكان النظــام الاجتماعــي نظامــاً قبليّاً، وسلطة الدولــة المركزية بدائية وشبه شكلية، وكانت في القرن الثاني الميلادي طبقــات مــن المحاربيــن (الفرســان أو السيَّافــون) وأخرى مــن المزارعين وثالثة من الحرفييــن، ورابعــة مــن التجــار، وفــي أسفل السلَّم الاجتماعي جماهير عريضة من الشعب فــي مرتبــة العبيــد المسترقيــن تُسنــد إليهم أعمال وضيعــة غير تلك التي يقــوم بها أفراد الطبقات الأربع المتقدمة عليهم.

واللافــت فــي التراتــب الطبقــي اليابانــي القديــم إعطاء المرتبة الأولــى لرجال الحرب والفرسان، والثانية للمزارعين، وكان في ذلك إشــارة إلى أهميــة الأمن والحمايــة العسكرية من جهــة، وللأمــن الغذائي والقــوت من جهة أخرى.

كان المجتمــع الياباني القديــم، كغيره من مجاوريه، مجتمعاً ذكوريّاً، وينظر للمرأة نظرة دونية، وقــد ألحق فــي هذا الأمــر الاجتماعي بالديني. وعند الحوار بين الآلهة كان في كتاب «كوجيكي» الحــوار التالي: «وبينما كانا يدوران تكلمــت إيزانامــي نوميكوتــو أولاً: آه! يا للرجل الفاتن. فتابع إيزاناكي نوميكونو: آه! يا للمرأة الفاتنــة. بعــد أن لفــظ كل منهما قولــه هذا، أردف إيزاناكي نوميكونو قائلاً: ليس حسناً أن المــرأة تكلمــت أولاً ومــع ذلــك اقترنــا فــي حجرتهمــا... تأمل الإلهــان الإثنان معاً: جميع الأطفال الذين وضعــن لحد الآن غير كاملين. ويبــدو أنــه ينبغــي إعــلام الآلهــة السماويين بذلك. صعــدا إلى السمــاء واستفســرا الآلهة السماوييــن عــن أوامرهــم. فأجــاب الآلهــة السماويون بعد مزاولة الكهانة والتنجيم بحرق عظم كتف أيِّل مخلوط بالخشب: لم يكن حسناً أن تتكلم المرأة أولاً. ارجعا. اهبطا وأعيدا كل شيء».

ويظهــر من قصــة زواج أحــد الأمراء، في نص من كتاب كوجيكي، أن الياباني كان يطلب في المرأة صفتين جاء بهما النص، وفيه:

«وعندما سمع بفتاة حكيمة
وعندما سمع بفتاة جميلة
في إقليم كوشي
البعيد جدّاً جدّاً
صار غالباً ما يذهب إلى هناك
كي يغازلها قبل الزواج»

والرجــل عندهــم كانــت لــه السلطــة فــي الــزواج، وكان لــه القــرار فــي اختيــار التــي

يريدها، وله أن يُعدد نساءه، أما المرأة فمسلوبة الإرادة. وفي نص من كتاب «كوجيكي»:

«لأنك رجل سوف تجد بسهولة
زوجة شبيهة بالأعشاب الفتية
في كل رأس من الجزر حيث سوف تمرُّ
وأنا، لأنني امرأة،
لا أستطيع أن أتخذ رجلاً، أي رجل، غيرك،
فسواك، لا أستطيع أي زوج»

وقد ورد في هذا النص أن الرجل بإمكانه أن يتزوج فتاة تشبه الأعشاب الفتية؛ أي أنهم كانوا يعتمدون الزواج المبكر للفتاة. كما أن التشبيه بالأعشاب يفيد وجهاً آخر هو موقع المزروعات والزراعة في الهند بعد أن عرفوها وافدة إليهم من الصين والجوار.

ويحتل الأرز الموقع الأبرز حيث تشمل الوليمة الرمزية عند الشنتو في معابدهم رشف قطرات من خمر الأرز (ميكي) المقدس.

ومن الابتهالات التي تشير إلى الأمر نفسه عندهم:

«أولاً، وقبل كل شيء، هناك في حقلك المقدس أيها الإله المهيمن،
ليت حبَّة الأرز الأخيرة التي سيحصدونها،
ليت الحبة الأخيرة من الأرز التي ستُحصد،
بحبّات العرق المتساقط من سواعدهم
وتُشدُّ مع الوحل العالق بالفخذين
ليت هذه الحبة تزدهر بفضلك
وتتفتح سنابل الأرز التي تتوق إليها الأيدي الكثيرة،
فتكون أولى الثمرات في الشراب وإعداد النبات».

ويؤكد اختلاط الديني بالاجتماعي بالاقتصادي والمعيشي عند اليابانيين هذه الأسطورة حول بعض الزراعات التي وردت في كتاب «كوجيكي».

«والحالة هذه، طلب هذا الأخير أغذية من الإلهة أميرة القوت. عندئذٍ، انبجست من أميرة القوت هذه جميع أنواع الأغذية، من أنفها، ومن فمها، ومن استها (مؤخرتها).... الأشياء التي ولدت من جسد هذه الإلهة المقتولة هي: من رأسها ولدت دودة القزِّ، ومن عينيها ولد بِذار الأرز، ومن أذنيْها ولدت الذرة البيضاء، ومن أنفها بذور الفاصولياء الحمراء، ومن فرجها ولدت الحنطة، ومن استها ولدت الفاصولياء، جميع هذه الأشياء لفظتها جلالة أمومة الولادات الإلهية واستخدمتها كبذار».

هذا النص يؤشر إلى أمر آخر هو أن صناعة الحرير من حلِّ دود القز ومعه الأرز إنما هما من مقومات الاقتصاد الصيني منذ آلاف السنين قبل أن يعرفهما اليابان، وهذا يؤكد مرة بعد أخرى كيف أن كل ما عند اليابان وافد من الصين والجوار.

ولا يختلف النص الجنائزي عن ذلك، فقدامى اليابانيين يعتقدون بارتباط الموتى بغلال البر والبحر، خاصة الأرز، ويعتقدون أن الأنفس نوعان: نوع يصعد علويّاً إلى السماء، ونوع شرير يغور في الأرض. والمفيد أن يُترك هذا الموضوع لوقائع أناشيد جنائزية أدَّتها عائلة أمير في ياماتو، بعد وفاة الأمير. جاء في نص كتاب «كوجيكي»:

«والحالة هذه، نزلت نساؤه وأطفاله الذين كانوا في ياماتو، نزلوا جميعاً إلى إقليم إيسيه

وبنـوا له ضريحاً هناك. بكـوا منطرحين على الأرض، مختلجيـن، متخبطين في حقول الأرز المجاورة وغنّوا:

شروع الإنيام
التي تلفُّ جذوع الرز وتعربش بها،
جذوع رزِّ الحقول المجاورة.

عندئـذ تحوَّل إلى طائر أبيـض كبير وطار في السماء، ثمَّ أخذ يطير باتجاه الشاطئ. أما نساؤه وأطفاله فقد تابعوه نائحين نادبين، ولم يشعروا بآلام أقدامهم التي تشقَّقت من جذوع الخيزران المكسَّرة النافرة من الأرض، آنذاك أنشدوا مغنين:

في غابة الخيزران الفتي
تتعب خواصرنا، ودون أن تذهب إلى السماء
سنذهب على الأقدام».

وهكـذا تواصلت أناشيدهـم فكانت أربعة، ويستفاد منها موضوع الربط بين تأبين الميت وخيرات الأرض والزراعة. هذا التداخل البارز في سلوكهم ومفاهيمهم ساعدت عليه ديانتهم الشنتويـة التـي لا تحتـاج لطقـوس معينة ولا شعائر مما يعطي لمتبعيها راحة في إلحاق كل مـا يريدونـه مـن منظومتهـم الاجتماعيـة أو الاقتصادية مع هذا العامل الديني.

لم يكن عنـد قدامى اليابانيين محرَّمات ولا ضوابط بل كانوا يسكرون ويتعاطون الفنون، وقد أطلقوا على محترف الفـن أو الشخصية الفنية قديماً: غييشا. وكان الفنانون قديماً من الرجال في الغالب وكانـوا يسمُّونهم: أوتوكو نوغيشا، ثم أخـذت النسـاء تدخل إلـى هذا الميـدان فغلب عليـه الطابـع النسائي، وبـدأن يمارسـن الغناء والرقـص والموسيقى يضـاف إلى ذلك محادثة الرجال ليجلبوا لهم المتعة والسعادة.

كمـا عـرف قدامـى اليابانييـن الرياضة القائمـة علـى فنون القتـال، ومنهـا «السومو» التـي ترتبط بطقـوس الديانـة الشنتوية وهي اختبار قـوة، وبعدها الجودو، وهـي من فنون القتال التي تعتمد على سرعة الحركة والأداء، كما عرفوا سواها من أنواع الرياضات لكن كل ذلك كان فـي عصور متأخرة نسبيّاً بالمقارنة مع حضارة عريقة وقديمة أخرى.

قدامى اليابانيين ومحيطهم

قدامـى اليابانييـن كانـوا منزويـن وأكثر الشعـوب انغلاقاً علـى أنفسهـم، وأقدم شعب سكن اليابان هم الآينوس الذين بقيت آثارهم في جـزر ريوكيـو، وبقاياهم اليوم فـي اليزو وسكالايـن، وعندما حصـل الانفتاح الأول كان باتجـاه الصيـن وكوريـا حيـث وفـد بعـض الآسيوييـن منهمـا أو عبرهمـا إلـى اليابـان. وبالنسبة للحضارة واللغـة والعلوم فإن الأصل فيها ما قاله أحد المؤرخين اليابانيين: «إن كلَّ ما يبدو يابانيّاً صميماً في حضارتنا هو آتٍ من الخارج».

لكـن كل وافـد، [مبـدأ دخيـل] كان عند اليابانيين قدرة فائقة في إعادة صياغته، حتى الديانـة البوذية التـي دخلت إلـى اليابان من الصيـن في القـرن السـادس الميـلادي تمَّت صياغتهـا علـى الطريقـة اليابانيـة، وبالتالي أصبحت بوذية جديدة غير الهندية أو الصينية أو سواها.

الكتابة أتت إلى اليابان من الصين، وفنون الصناعـة مـن البرونـز والحديد مـع صناعة النسيـج بالإضافـة إلـى الزراعة كلهـا وصلت اليابـان مع أواخـر القرن الرابع قبـل الميلاد

والقرن الثالث (٣٠٠ ق.م) وكان ذلك في عهد أسرة الهان.

أما الانفتاح السياسي فكان مع بدايات القرن السابع الميلادي، وكان أول مبعوث ياباني أو سفير إلى الصين عام ٦٠٧م. وكان الحكم في (٥٩٢م-٦٢٢م) للامبراطور شوتوكو كوصي على العرش، ومعه بدأت مرحلة الاستفادة الواسعة من الحضارة الصينية في كل المجالات. وفي عهده، سنة ٦٠٤م، كانت صياغة أول دستور ياباني.

خلاصة

وقفة لم يكن منها بدٌّ مع اليابان القديمة ليظهر من خلال البحث أن اليابان الحالية التي حققت قفزات كبيرة تدل على إرادة وتصميم وعبقرية يشهد بها ولها العالم كله، هذه اليابان الحالية كانت على النقيض منها اليابان القديمة التي بقيت عشرات ألوف السنين منزوية منطوية على ذاتها تعيش مجتمع بداوة يعتمد الصيد وجني ثمار الغابات، ولم تعرف أي تطوُّر زراعي أو صناعي أو علمي ولو فن الكتابة إلا عندما انفتحت على الصين، لكن ذلك لم يمنع نظرة الاستعلاء والقداسة للذات اليابانية عند أبناء هذا البلد. ونختم مع المؤرخ الياباني «تشيكافوزا كيتاباتاكا» الذي قال:

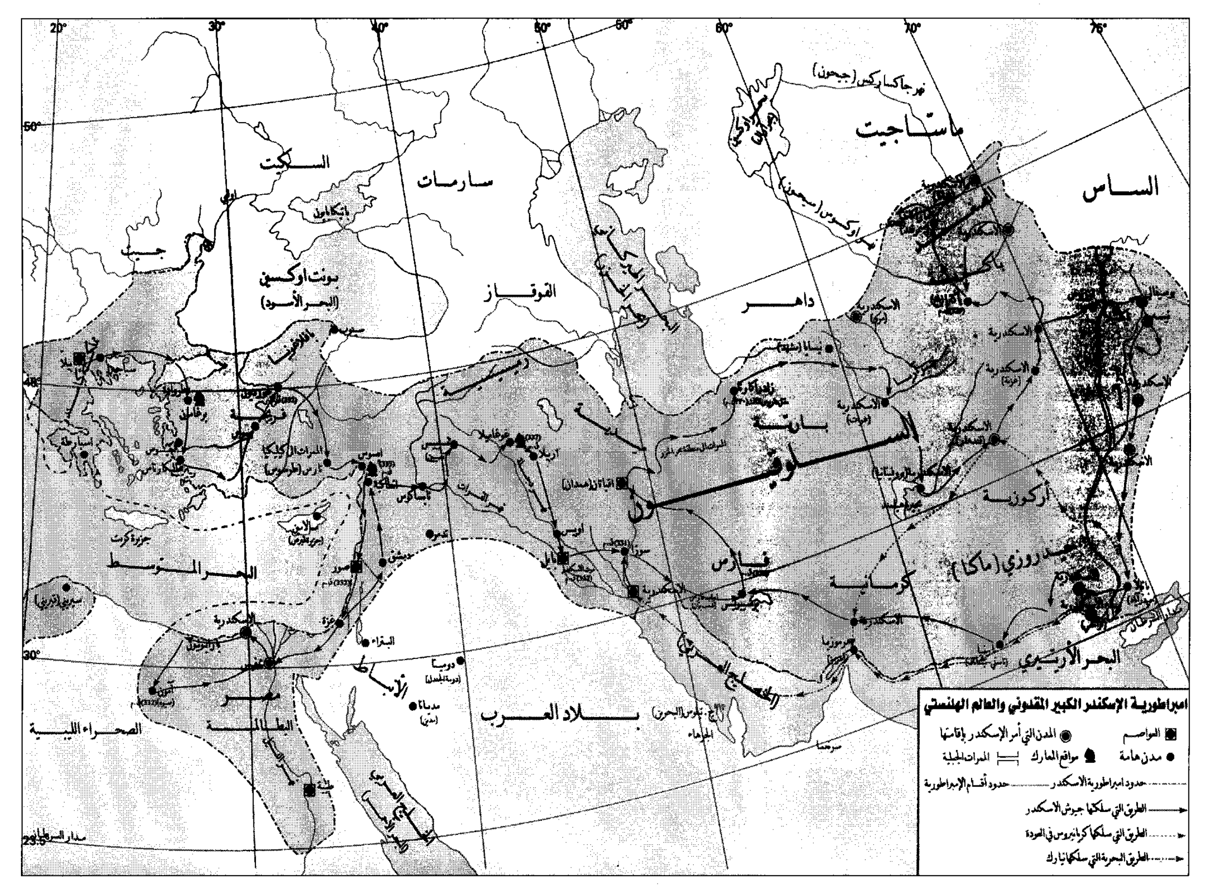
«إن ياماتو العظمى (يقصد عاصمة توحيد اليابان لأول مرة) قطر مقدس؛ إن بلادنا وحدها من دون سائر البلدان هي التي كان السلف الأقدس أول مَن وضع أساسها، إنها وحدها التي تعاورتها بعد إلهة الشمس سلسلة طويلة من سلالتها. إنك لن تجد من هذا القبيل شيئاً في الأقطار الأجنبية، ومن ثمَّ سميت بالأرض المقدَّسة».

المصادر والمراجع

- بروديل، فرنان، **قواعد لغة الحضارات**، ترجمة د. الهادي التيمومي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط١، سنة ٢٠٠٩.
- ديورانت، ويل، **قصة الحضارة**، ج٥، م ١، ترجمة زكي نجيب محمود، بيروت، دار الجيل، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.
- السحمراني، أسعد، **من قاموس الأديان: الشنتوية، الكنفوشية**، بيروت، دار النفائس، ط١، سنة ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.
- سميث، باتريك، **اليابان: رؤية جديدة**، ترجمة سعد زهران، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، نيسان/ أبريل ٢٠٠١، محرَّم ١٤٢٢هـ.
- **كوجيكي: وقائع الأشياء القديمة (الكتاب الياباني المقدَّس)**، ترجمة وتقديم محمد عضيمة، بيروت، دار الكنوز الأدبية، ط١، سنة ١٩٩٩.

الحضارة اليونانية
(الإغريقية)

أ. د. محمد سهيل طقوش



عن أطلس التاريخ القديم بإشراف إبراهيم حلمي الغوري وآخرين

الموقع والجغرافيا

انظـر، فيمـا يتعلَّـق بموقع بـلاد اليونان وجغرافيتها، «الحضارة المسِّينية».

اليونان عبر تاريخهم

تطـور النظـام السياسي: اجتاحت بلاد اليونـان حوالـي عـام (١١٠٤) قبـل الميلاد موجـة جديـدة مـن الغـزاة، أو المهاجرين، قادميـن مـن الشمـال، فاستولـوا عليهـا واستقـروا فيهـا حوالـي عـام (١٠٠٠) قبل الميـلاد وقضـوا علـى الحضـارة المسينية، هؤلاء هم الدوريون.

كانت نتيجة اندثار الحضارة المسِّينية أن دخلت بلاد اليونان فـي مرحلة مظلمة سادها التخلف والفقر والجدب، استمرت مدة قرنين من الزمان، أي حتى عـام (٨٠٠ق.م.)، لكن الخسـارة لـم تصـب كل شـيء، فقـد امتزج العنصـر الـدوري القديـم بالعنصـر الأيوني القديـم، نشأ عنه شعب مختلـف عن الشعوب التي كانت تعيش من قبل في تلك البلاد.

واتخذ المجتمع الجديد بفعل طبيعة البلاد الجغرافيـة نظامـاً جديداً عُـرف بنظام دولة المدينة الذي لا تشـكل فيه بلاد اليونان كياناً سياسيّـاً واحداً، وإنما تُصبـح فيه كل منطقة منـه كيانـاً مستقلّاً قائمـاً بذاته لـه مقومات الدولة، يكون محوره عادة مدينة واحدة تحيط بها رقعة من الأرض متفاوتة المساحة وتتناثر فيها مجموعة من الضواحي أو القرى.

وأتاحت الجغرافية الطبيعية لبلاد اليونان لدولة المدينة أن تتطور عبر نظامها السياسي، من نظـام الحكم الفـردي إلى نظـام الحكم الديمقراطي الشعبي الذي عرفته بلاد اليونان في عـدد كبيـر مـن أقسامها، بحيـث يصبح المجتمـع صاحب السلطة الفعلية في تصريف أمـوره. وكانـت الظـروف التاريخيـة، التـي أحاطت بالمجتمع اليونانـي خلال المدة التي شهدت ظهور هـذا النظام في القـرن الثامن قبـل الميـلاد؛ مؤاتيـة لتطـوره، فقـد شهـد القرنـان السابقان لتاريخ ظهـور هذا النظام، وهما القرنـان العاشر والتاسـع قبل الميلاد، حال تضعضع وتخلف نتيجة ما أصاب المجتمع من التدمير بسبب الغزوات الدورية، ولكن ما لبث أن استقر هذا الوضع المضطرب بعد أن امتزج العنصران الدوري والأيوني.

واستقـرت فـي مناطـق المجتمـع الجديد تجمعـات سكانية قبلية في تكوينها، تتألف من مجموعة من الملاَّك الكبار للأراضي الزراعية والرعوية، وهؤلاء إما أبطال حروب وإما أنسال هؤلاء الأبطال، وقد نعموا بثروة وفيرة.

ويـرأس المجتمـع القبلي من يملـك أكبر مساحة من الأراضي ويتخـذ لقب ملك، وكان هناك أصحـاب حرف لا شأن لهـم وتجار لم يصـل إلينا من أعمالهم شـيء. ويتمتع الملك بسلطات تشريعية وتنظيميـة وسياسية ودينية شبه مطلقـة، يعاونه مجلسـان أحدهما يضم الأعيان مـن رؤسـاء القبائـل والعشائر وآخر للعامة، ويشارك أعضاء المجلس الأول الملك في سلطاته لكن بصورة متفاوتة وفقاً لقوة كل منهـم وضعفه، ولم يكن للمجلـس الثاني أكثر مـن أخـذ العلـم بالأحـداث والموافقـة على قرارات الملك ومجلس الأعيان، على أن الدور الـذي قام بـه الملوك فـي محاولـة ربط هذه التجمعـات القبلية مهَّد الطريـق لقيام المدن التي اقتربت كثيراً من معنى النظام السياسي

الذي يُنظم المدينة ويحدد حقوق مواطنيها وواجباتهم.

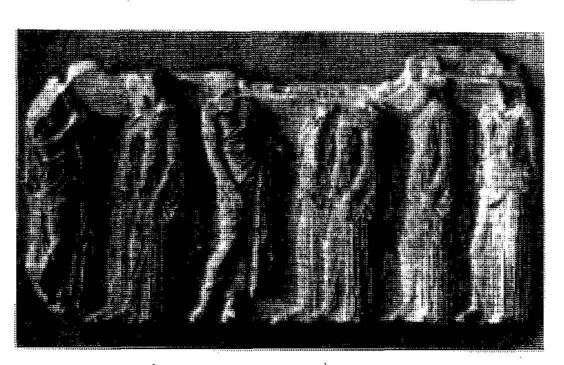
وفَقَدَ الحكم الملكي في القرن الثامن قبل الميلاد مبرر وجوده وحلَّ محله العامل الاقتصادي كدافع للتطور السياسي، وأضحى الملك واحداً من أفراد الطبقة الأرستقراطية وهي طبقة أشراف الناس، أو أريستوي التي اشتقت الكلمة منها، إنما يتميز بأنه صاحب أراضي زراعية ورعوية واسعة تشكل العامل الاقتصادي أو مورد الإنتاج الرئيس لمجتمع المدينة. وأخذ أفراد هذه الطبقة ينتزعون من الملك سلطاته الواحدة تلو الأخرى، حتى إذا حلَّ القرن السابع قبل الميلاد كانت الحكومات الملكية قد سقطت في أغلب المدن اليونانية لتحل محلها حكومات جماعية تتكوَّن من الطبقة الأرستقراطية، وقام الحكم الطبقي الأرستقراطي على ثلاث دعائم مكَّنت أفراده من السيطرة على دول المدن اليونانية حتى أواخر القرن السادس قبل الميلاد:

الأولى، الدعامة الاقتصادية: فالأرستقراطيون هم أصحاب الأرض التي تُغطي حاجات السكان في المجتمع اليوناني الذي لا يزال قليلاً في أعداده، وبسيطاً في متطلباته، فاستطاعوا من خلاله أن يسيطروا على مقدراته.

الثانية، الدعامة العسكرية: اقتضت ظروف بلاد اليونان أن يكون أفراد الطبقة الأرستقراطية هم أصحاب السيطرة على القوة العسكرية في البلاد، فأفراد القبيلة كانوا من الفرسان الذين يمتلكون الخيل الضرورية لخوض الحرب والدفاع عن أملاكهم الشاسعة من الأراضي، وكان المقاتل يتكفل بتسليح نفسه وأتباعه.

الثالثة، الدعامة القانونية: شكَّل الحكم الأرستقراطي بداية لظهور نظام جديد لدول المدينة في بلاد اليونان، ذلك أن الحكم الملكي الذي سبقه كان يقوم أساساً على الحق الإلهي ويخضع لإرادة الملك، أو على أساس من التكافؤ بين سلطته وسطوة الأعيان لكن بدرجات متفاوتة، أما بعد نجاح الطبقة الأرستقراطية في انتزاع السلطات من يد الملك، أضحى الأمر يقوم على أساس القانون الذي يُحدد حقوق المواطنين وواجباتهم، وأضحت الطبقة الأرستقراطية بمثابة سلطة تنفيذية ممثلة في هيئة تُنتخب سنويّاً من بين أفرادها، ففقدت بذلك الرابطة التنظيمية بين أفراد المجتمع ونقلتها إلى حكومة المدينة. وهكذا ألغت الحكومات الأرستقراطية في المدن اليونانية الصلاحيات العقابية التي كان يتمتع بها رؤساء الأسر، وحرَّمت الحروب الداخلية بين القبائل والعشائر لفض النزاعات التي كانت تنشب بينها ورفعتها إلى المحاكم، التي أضحت مكلَّفة بالفصل في الجرائم العامة وفرض العقوبات اللازمة في حال وقوعها، ووصلت القوانين التي وضعتها الطبقة الأرستقراطية الحاكمة في كل مدينة، مع بداية القرن السادس قبل الميلاد، إلى درجة استدعت تدوينها في تنظيم قانوني، وهكذا حلَّ القانون محل القوة في إقرار الأمور.

وبفعل نمو المجتمع اليوناني وزيادة عدد أفراده، وازدياد متطلباته بحيث لم تعد منتجات الأراضي الزراعية تكفي لسد حاجاته، يمَّم اليونان وجوههم نحو البحر للبحث عن موارد


تمثال الأميرات، وهو منحوت على صخرة كبيرة في قلعة أثينا عاصمة اليونان

جديدة تعوِّض مواردهم التي باتت قاصرة عن تغطية ضروراتهم المعيشية، وقد أدى ذلك إلى هجرة جديدة من بلاد اليونان إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط استمرت حتى أواسط القرن السادس قبل الميلاد، ومع بداية القرن الخامس قبل الميلاد كانت المستوطنات اليونانية متناثرة على شواطئ مقدونيا وتراقية والبحر الأسود وقورنية (برقة في ليبيا الحالية) والشواطئ الجنوبية لإيطالية وجزيرة صقلية.

شكَّلت هذه الحركة الاستيطانية مرحلة جديدة من مراحل تاريخ المجتمع اليوناني، مارس أفراده العمل التجاري وتعرَّفوا على أسواق التجارة العالمية آنذاك، واقتبسوا نتيجة احتكاكهم بشعوب الشرق الأدنى القديم كثيراً من علومهم ومعارفهم.

وظهرت نتيجة ممارسة النشاط التجاري طبقة التجار التي رأت، حفاظاً على مصالحها التجارية، أن تتحالف مع الطبقة الأرستقراطية القديمة ما أدَّى إلى ظهور نوع جديد من نظام الحكم عُرف باسم النظام الأوليغركي، أو نظام حكم الأقلية، ولكن هذا النظام حمل في طياته بذور انبثاق نظام جديد دفع مجتمع المدن اليونانية نحو استكمال المرحلة الأخيرة من تطور نظمها السياسية، من واقع تنامي طبقة التجار والعاملين في خدمة النشاط التجاري وإتاحة فرصة المساومة لهذه الشريحة الجديدة مع الطبقة الأرستقراطية، وقد نتج عن ذلك أن العامة بدأت تشعر بكيانها وبثقلها في مجتمعات المدن اليونانية، ومن ثمَّ ظهر المحرك البشري لتطور النظام السياسي في هذه المجتمعات، وهي الساخطة أصلاً على تحكُّم طبقة محدودة في المجتمع بأكمله من دافع استئثارها بالحقوق السياسية التي تكفل لها التفرد في تصريف الأمور، وهكذا قامت الثورات للإطاحة بالحكومات الاوليغركية.

وبرز من بين الفئات الشعبية، أشخاص استغلوا القوة الكافية في صفوفها للإطاحة بالحكومات الشعبية، والحلول محلها في مواقع السلطة، فظهر بذلك الحكم الفردي فيما عُرف بحكم الطغاة، لكن هذا النظام تعرَّض لثورات ذهب ضحيتها هؤلاء الحكام لتحل محل الحكم الفردي مرحلة جديدة من مراحل تطور النظام السياسي في بلاد اليونان هي مرحلة الديمقراطية، وذلك في أواخر القرن السادس قبل الميلاد، وهي المرحلة الأخيرة في تطور هذا النظام.

نهضة اثينا

إن أصعب ما يواجه مؤرخ الحضارة اليونانية أن يؤلف من الأعضاء المتناثرة في

جسم بلاد اليونان وحدة منسجمة الأجزاء، وعليه يتوجب أن يدرس أوضاع كل مدينة على حدة، وهذا ما نسعى إليه في هذا البحث. ونظراً لتعدد دول المدينة فإننا نتخذ مثالين لمسار تطور نظام الحكم الذي شهد ظهور نظام دولة المدينة في بلاد اليونان، وهما أثينا وإسبارطة، وقد اخترناهما بسبب وضوح مسار هذا التطور في تاريخهما وحضارتهما.

يمثل المجتمع الأثيني الاتجاه الرئيس لتطور النظام السياسي في دول المدينة، وقد تحقَّق له ذلك بفعل الظروف المحيطة بشبه جزيرة أتيكا، وهي المنطقة التي تضم أثينا وقراها، وتتلخَّص باعتمادها على موارد إنتاجية متعددة أتاحت تحقيق نوع من التوازن بين طبقات هذا المجتمع، وهيَّأت لتطور نظام الحكم حتى وصل إلى مرحلته النهائية التي ترعى مصالح الطبقات كلها.

ابتدأ المجتمع الأثيني بالظهور في عهد النظام الملكي داخل إطار سياسي موحَّد في عهد الملك ثيسيوس، الذي تحقَّقت في عهده آخر حلقات التوحيد بعد محاولات عدة في عهود أسلافه. وعندما انتقل الحكم إلى الطبقة الأرستقراطية توزَّعت الصلاحيات الإدارية، التي كانت مركزة في يد الملك، بين عدد من المناصب يشغلها أفراد من هذه الطبقة، فانتقلت الصلاحيات التنفيذية إلى:

- الحاكم، أو الأرخون، وهو رئيس الجهاز التنفيذي والمشرف على الشؤون العسكرية.
- ستة قضاة.
- رئيس الشؤون الدينية.

وكان هؤلاء يشغلون مناصبهم مدى الحياة في بادئ الأمر قبل أن تتقلَّص إلى سنة واحدة. وانتقلت الصلاحيات التشريعية إلى مجلس الأريدباغوس، الذي يتكوَّن أعضاؤه من أفراد هذه الطبقة، غير أن التسلط الذي اتصف به حكم الأرستقراطية، وانحراف أفرادها المتزايد في مجال القضاء بخاصة لخدمة مصالحهم؛ أدى إلى سخط الطبقات الأخرى اضطرت معه الطبقة الحاكمة بفعل إلحاح العامة إلى سن القوانين، وقد عُهد بهذه المهمة إلى المشرع دراكون في عام (٦٢١) قبل الميلاد، غير أن القوانين التي سنَّها كانت على قدر كبير من القسوة يكاد يكون الموت عقوبة لكل شيء تقريباً، كما أنها لم تكن شاملة واقتصرت على جوانب معينة من مشكلات المجتمع الأثيني، على الرغم من أنها شكَّلت تطوراً مهمّاً في حياة هذا المجتمع، فبرز دور القانون كأداة للتعامل داخل المجتمع الأثيني لأول مرة، كما أن إصدار هذه القوانين كان لصالح الطبقات المحكومة لأنها وقفت على حقوقها وواجباتها.

وظهر أثر عدم شموليتها بين أفراد طبقة العامة التي وصلت إلى درجة بالغة من السوء، إذ كان عدد كبير من الفلاحين يزرعون الأراضي في سفوح التلال ويلقون المشقة في تأمين ما يُقيم أودهم، وكان عليهم في سنوات الجدب أن يقترضوا ممن هم أكثر غنى ويُسر، ولكن طبيعة الاقتراض تغيرت بعد دخول العملة النقدية في التداول، فبدلاً من اقتراض كيس من الحنطة صار الفلاح يستدين ثمن المقدار الذي يحتاجه من الحنطة والحبوب الأخرى حتى موسم الحصاد، عندما تكون

الحبوب غالية الثمن، وكان عليه أن يبيع ما تنتجه الأرض من الحبوب بعد موسم الحصاد حيث الأسعار تكون متدنية وذلك لتسديد دينه، أو كان عليه أن يقترض مقداراً من النقود لقاء رباً فاحش. كانت النتيجة أن أخذ كثير من الفلاحين يخسرون أراضيهم، فقد رهنوها مقابل ما اقترضوا من أموال، فلما عجزوا عن تسديد الديون، بيعت أراضيهم، وخرجت من أيديهم. وفَقَدَ بعض الفلاحين حتى حرمتهم الشخصية، فقد كانت آخر وسيلة يلجأ إليها صاحب المال لاسترداد دينه من المدين المفلس أن يقبض عليه وعلى أفراد أسرته ويستعبدهم بالعمل عنده، في حين فرَّ بعضهم إلى خارج أتيكا في منفى اختياري حتى لا يقع في ربقة العبودية.

وأدى تزايد توجُّه الأثينيين نحو العمل التجاري إلى ظهور طبقة التجار، وكان من الطبيعي أن يسعى أفرادها للمحافظة على مكتسباتهم ومصالحهم، ولما كانوا يسيطرون على مورد أساس من موارد الانتاج، فقد دخلوا في مساومات مع الطبقة الأرستقراطية، على حقوقهم.

اتفق الأثينيون تجاه هذا الوضع المتفجر على منح سلطات مطلقة إلى رجل يحظى بثقة جميع الطبقات لعدالته وأمانته واستقامة أخلاقه، وكان ذلك الرجل، صولون، وهو رجل يتحدر من أسرة عريقة ولكنه كان متوسط الغنى، تاجراً، جال العالم وخبره، وشدَّ انتباه الناس إليه بقصائده التي تدين جشع الأغنياء، وبقصائده الوطنية التي ألهبت مشاعر الأثينيين في الحرب مع ميغارا التي انتزعوا منها جزيرة سلاميس.

تسلم صولون منصبه في سنة (٥٩٢ أو سنة ٥٩٤) قبل الميلاد، فقام بوضع قوانين تشريعية تهدف إلى التوفيق بين المصالح المتضاربة، وتنقسم إلى قسمين:

يتعلق القسم الأول بالتوفيق بين مصالح الطبقة الأرستقراطية وطبقة التجار، فربط في تشريعاته بين الثروة والحقوق، علماً بأن المجتمع الأثيني كان ينقسم آنذاك، استناداً إلى مقدار دخل الفرد، إلى أربع طبقات، ويُقاس هذا الدخل بمعايير عينية من الحبوب أو الزيت أو النبيذ.

ينتمي إلى الطبقة الأولى الأفراد الذين يساوي دخلهم السنوي خمسمائة معيار، ويُختار من بينهم أعضاء الهيئة التنفيذية التسعة.

وينتمي إلى الطبقة الثانية الأفراد الذين يساوي دخل كل منهم السنوي ثلاثمائة معيار، ويسمون الفرسان بفعل أن هذا المبلغ هو الحد الأدنى لتأمين الحصان وتجهيزاته، وتُعطى لأفرادها المراكز الأقل درجة.

وينتمي إلى الطبقة الثالثة الأفراد الذين لا يقل دخل الفرد السنوي منهم عن مائتي معيار، وتُسمى طبقة أصحاب النير، على أساس أن الأرض التي تُنتج هذا القدر من الدخل تحتاج لفلاحتها زوجاً من الماشية على الأقل يشدهما النير إلى المحراث.

وينتمي إلى الطبقة الرابعة الأجراء والحرفيون الذين يقل دخل الفرد منهم عن مائتي معيار.

وساهم صولون في وضع دستور أثينا، ويحتوي على المؤسسات والعناصر الأساسية في دولة المدينة، وهي:

- الهيئة التنفيذية المنتجة المؤلفة من تسعة أعضاء يُسمى كل واحد منهم أرخون.

- مجلس مؤلف من رجال الطبقة الأرستقراطية يُسمى «مجلس أشراف الناس» أو «مجلس الشيوخ». ولما كان هذا المجلس يجتمع عند الصخرة المسماة أريوباغوس فقد أطلق عليه مجلس الأريوباغوس، مهمته مناقشة جميع القضايا والمسائل العامة.

- مجلس العامة (الإكليزية) ويتكوَّن من المواطنين الأثينيين الأحرار كافة. ويجب أن يوافق هذا المجلس على القرارات المهمة لكي تصبح شرعية نافذة المفعول.

ويتعلق القسم الثاني من تشريعات صولون بمعالجة مشكلات العامة، فحرَّم استعباد أي أثيني حر بسبب عدم تسديده ديناً استحق عليه موعد دفعه، وألغى جميع الديون المتبقية في ذمة المدينين، ونظَّم عملية إعادة شراء جميع الأثينيين الذين بيعوا عبيداً في الخارج، وأناطت هذه التشريعات القضاء بالمحاكم الشعبية التي شكَّلت الهيئة القضائية العامة، وتتكون من أعداد كبيرة من المواطنين بمن فيهم أفراد الطبقة الاجتماعية الرابعة، ينظرون فيما يقدم أمامهم من شكاوى وتظلمات واتهامات، ويراقبون تصرفات أعضاء المجلس التنفيذي ويحاسبونهم.

وهكذا وضع صولون، من خلال تشريعاته، الأساس الدستوري لنظام الحكم الذي يقوم على الثروة وهو الحكم الأوليغركي أو حكم الأقلية التي تضم طبقة ملاَّك الأرض وطبقة التجار.

حاول صولون أن يُحقق العدل بين طبقات المجتمع الأثيني من خلال تشريعاته، لكنه لم يُرضِ عمله هذا أحداً باستثناء طبقة التجار إلى حد كبير، ولم يُحقق دستوره السلام بل إنه بمنحه حقوقاً للطبقات المتوسطة والفقيرة على حساب الطبقة الأرستقراطية التي نقصت امتيازاتها القديمة، قد أثار أفرادها، وأدخل إلى أثينا نوعاً جديداً من الصراع السياسي امتزجت فيه المناقشات القديمة بين الأسر الكبيرة بالصراع الطبقي الذي اتخذ شكل صراع فئات متنافسة وأحزاب متصارعة، وكانت المعارك الانتخابية تشتد بحيث كان يتعذَّر انتخاب أي أرخون.

أدَّى هذا الوضع المتفجر إلى انقسام المجتمع الأثيني إلى ثلاثة أحزاب اتخذت اسم الأماكن التي يقيم فيها سكان أتيكا، وهي:

- حزب الجبل، ويتألف من فقراء العامة من الرعاة.

- حزب السهل، ويتألف من المتشددين من الطبقة الأرستقراطية.

- حزب الساحل، ويتألف من التجار.

وانتهى هذا الانقسام إلى صراع بين الأحزاب الثلاثة تمخَّض عن انتصار حزب الجبل الذي كان يتزعمه جندي يُدعى بيزستراتوس، فاستغل هذا النصر ليُنصِّب نفسه حاكماً على أثينا حوالي عام (٥٤٥) قبل الميلاد، بعد أن تخلَّى صولون عن منصبه وسافر إلى الخارج.

انتهج بيزستراتوس حكماً فردياً، ولكنه لم يمارس سلطته المستبدة بشكل سافر إنما من خلال الواجهة الدستورية للحكم. لقد طبق دستور صولون، ولكنه حرص على أن تكون الوظائف الرئيسة في الدولة بأيدي أشخاص

من أنصاره مخلصين له ويثق بهم. وقام بعدد من المشاريع أدَّت إلى تدعيم حكمه وازدهار المجتمع الأثيني، نذكر منها:

- صادر بعض أراضي الطبقة الأرستقراطية ووزعها على المعدمين من بين أفراد طبقة العامة.

- فرض ضريبة على المنتجات الزراعية مقدارها عُشر المحصول، واستخدم هذه الضريبة في تقديم القروض لأنصاره فلاحي الحقول والبساتين في التلال بشروط سهلة، بهدف تزويد أنفسهم بمحاريث جيدة وثيران قوية تجرها، فازدادت بهذه الوسيلة المحاصيل الزراعية بشكل كبير.

- شجَّع التجارة من واقع إحكامه السيطرة على مداخل البحر الأسود التي كانت تتحكم بعبور السفن المحملة بالقمح الذي تحتاجه أثينا والآتي من شواطئ هذا البحر الشمالية.

- استولى على حصن سيغيون على الشاطئ الآسيوي لمضيق الدردنيل، ويقع ضمن نفوذ الامبراطورية الفارسية، وكذلك على شبه جزيرة خرسون التي تطل من الشمال على طريق السفن التجارية.

- أسَّس مستعمرة أثينية في سيستوس على الشاطئ الآسيوي المقابل لسيغيون.

- اعتنى بالنواحي الفنية والأدبية، وأُقيمت في عهده مجموعة كبيرة من المعابد، وشجَّع تدوين ملحمتي الإلياذة والأُوديسة.

توفي بيزستراتوس في عام (٥٢٧) قبل الميلاد، فخلفه ابنه هبياس، فانتهج نهجه في سياسة الدولة، فحقق العدل وكان عاقلاً في حكمه، وظلَّ كذلك مدة ثلاثة عشر عاماً انقلب بعدها إلى مستبدٍ بعد مقتل أخيه هيبارخوس، إثر مؤامرة مدبرة بسبب غروره وعتوه ما دفع الأثينيين إلى إضفاء لقب تيرانوس عليه، ومعناه الطاغية.

على أن حكم الطغيان الذي أضحى مكروهاً عند الأثينيين لم يستمر طويلاً. ففي عام (٥١١) قبل الميلاد قامت ثورة ضد حكم هبياس انتهت بطرده من المدينة، وعادت الأوضاع الدستورية إلى ما كانت عليه قبل عهد بيزستراتوس.

وكان يرأس الجهاز التنفيذي آنذاك شخص يُدعى كليسثنيس، رئيس أسرة الكميون وصديق هبياس، فأقدم على معالجة الأمور من خلال وضع دستور جديد يُهذِّب دستور صولون ويستكمله، ويحول دون عودة الحكم الفردي مرة أخرى، ويقضي على أسباب الشقاق والصراع الحزبي الذي أدَّى إلى ظهور هذا الحكم الفردي، وبدأ العمل به في عامي (٥٠٣ و٥٠٢) قبل الميلاد.

أعاد دستور كليسثنيس تقسيم المجتمع الأثيني على أساس الإقامة الدائمة في أتيكا، وكانت قضية حق المواطنة تشغل بال الحكومة والناس بما تدفق على أثينا من المهاجرين وبخاصة بعد الغزو الفارسي لأيونيا، فألغى بذلك القبائل الأيونية القديمة وأنشأ قبائل جديدة بدلاً منها، كما ألغى التقسيم القائم على صلات القرابة، فقسَّم أتيكا إلى عشر قبائل، كما قسَّم كل قبيلة إلى ثلاثة أقسام يُدعى الواحد منها الثلث، موزعة بين أجزاء أتيكا الطبيعية، الساحل والسهل والجبل، وكل من هذه الأثلاث مقسم بدوره إلى عدد من الأحياء تدعى كل منها ديموس، وجعل عضوية الحي أساساً للمواطنة وللحقوق

السياسية المترتبة عليها، كما جعل هذه الأحياء أساساً للتنظيم الإداري، ما أدى إلى القضاء على التكتل الطائفي الذي أدى إلى ظهور الأحزاب المتناحرة، وأُعيد تنظيم مجلس الشورى ليصبح عدد أعضائه خمسمائة بدلاً من أربعمائة، خمسين عن كل قبيلة من القبائل الجديدة، يُختارون بالاقتراع من بين الأحياء التي تنقسم إليها القبيلة، ويُقدم كل حي عددًا يتناسب مع مساحته وحجم سكانه، وحُدِّدت مدة العضوية بسنة واحدة، كما حُدِّد عدد المرات التي يمكن للأثيني أن يصبح عضواً في هذا المجلس بمرتين في حياته.

تنحصر مهام هذا المجلس، من الناحية التشريعية، بتحضير وتنظيم الاقتراحات ومشاريع القوانين وتقديمها إلى الجمعية العامة لتناقشها وتُصدر القوانين على أساسها. كما كانت للمجلس صلاحيات إدارية وحق إدارة الشؤون العامة للمدينة بمعاونة أعضاء السلطة التنفيذية.

وأعطى قانون كليستنيس الأثينيين، خلال دورات محددة من دورات المجلس، الحق في التصويت على نفي أي زعيم سياسي يرغبون في نفيه لسبب أو لآخر شرط أن يتقدم ستة من أعضاء المجلس باقتراح النفي السياسي حتى يصبح النظر بهذه المسألة قانونياً، وحُدِّدت مدة النفي بعشر سنوات.

وهكذا وضع كليستنيس، على الرغم من معارضة أقوى الأسر في أثينا، دستوراً ديمقراطياً ظل نافذاً مع بعض التعديلات الطفيفة إلى آخر عهود الحرية الأثينية، على أن هذه الديمقراطية لم تكن كاملة لأنها لم تكن تطبق إلا على الأحرار، غير أنها منحت جميع السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية إلى جمعية وإلى محكمة تتكونان من المواطنين، وإلى حكام تعينهم الجمعية ويكونون مسؤولين أمامها، وإلى مجلس يُختار أعضاؤه بأصوات اقتراع المواطنين.

نهضة إسبارطة

كانت إسبارطة دولة عسكرية منذ بداية تاريخها، وعرف مجتمعها نظام حكم متداخل أدّى إلى تكوين صفة خاصة له برزت من خلال ارتباطه بغزو الدوريين، الذين استقروا في بعض أجزاء شبه جزيرة البيلوبونيز (شبه جزيرة المورة حاليّاً)، وتحديداً في منطقة لاكونية، وأطلقوا على أنفسهم اسم اللاكيديمونيين، وقامت إسبارطة في هذا الوسط وأضحت حصناً للغزاة الذين شكّلوا كتلة متماسكة مغلقة، فلم يندمجوا بالسكان الأصليين، وسيطروا على المقيمين في لاكونية عن طريق القهر وحرموهم من الحقوق السياسية. وتوسع الإسبارطيون في منطقة ميسّينا الواقعة غربي لاكونية، في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد واتخذوا من سكانها عبيداً. وكانت نتيجة هذا التوسع على الصعيد السكاني أن أضحى الإسبارطيون أقلية وسط محيط من السكان الساخطين عليهم أو المعادين لهم، وقد فرض عليهم هذا الوضع أن يتبنوا نظاماً اجتماعيّاً وسياسيّاً من شأنه أن يمكّنهم من المحافظة على تماسكهم وسيطرتهم، ويُنسب هذا النظام إلى دستور وضعه شخص يحمل اسم ليقورغ.

يقوم النظام الاجتماعي على التنشئة

الخشنـة التـي من شأنهـا أن تجعـل المجتمع الإسبرطـي مجتمعاً عسكريّاً في المقام الأول، مستعـدّاً للقتال في أي لحظـة، وقمع أي تمرد قد يقـوم بـه السـكان المحيطـون أو العبيد. ويخضع الأطفال الإسبرطيون، من الجنسين، لإشراف الدولة منذ لحظة ولادتهم، فالأصحاء منهم يوضعون في رعايـة أمهاتهم أو مربيات من قِبل الدولة، ويُترك الضعفاء أو المشوهون في العراء حتى يموتوا أو يلتقطهم أحد العبيد. فإذا بلغ الطفل من الذكور السابعة من عمره، أخذته الدولة لتدخله ضمـن مجموعة يُشرف عليها أحـد الشباب الإسبرطييـن حيث يتلقى تدريبـاً عسكريّاً كجندي فـي الجيش الوطني، ويكـرس وقتـه للتدريـب العسكـري، وتتكفـل الدولة برعايـة شؤونه المادية وشـؤون أسرته عن طريـق منحـه مساحة كبيرة مـن الأرض الصالحة للزراعة، وتخصيصه بأسرة أو أكثر مـن العبيـد لفلاحتهـا والعمـل فيهـا مقابـل إعطائـه نصـف غلاَّتهـا، كمـا كان عليهم أن يقومـوا علـى خدمتـه هـو وأسرته سـواء في أوقـات السلم أو في ميـدان القتـال، ويُحظَّر عليه أن يمارس التجارة أو الصناعة.

وخضعت البنت أيضاً لقيود فرضتها الدولة وإن كانت تُترك لتربى في منزل والديها، فكان يُطلـب منهـا أن تقوم ببعـض الألعـاب الفنية كالجـري والمصارعـة ورمي القـرص وإطلاق السهـام من القـوس، لكي تصبح قويـة البنية صحيحـة الجسـم صالحـة للأمومـة الكاملة، وكان مركزها في إسبارطة بصفة عامة أفضل منه في أي مجتمع يوناني آخر.

وقـام نظام الحكم من الناحيـة السياسية علـى أربـع قواعد، تتمثـل في: ملكيـة ثنائية، ومجلـس للشيـوخ ومجلـس الشعـب وعدد من المشرفين.

ففيمـا يتعلق بالملكيـة الثنائية، فقد بقيت قائمة في دستـور المدينة حتى بعـد أن بلغت آخر مراحل تطورها، إلا أن سلطات الملك قد تقلَّصت، إلى حدٍّ كبير بسبب عاملين:

الأول: وجود ملكين على رأس الدولة بدلاً مـن ملـك واحـد، بحيـث توزعـت السلطـات بينهما، كمـا كان يراقب كل منهمـا الآخر ما حـال دون الانتقـال إلـى الحكـم الاستبدادي الذي يؤدي إلى التخلص من النظام الملكي.

الثانـي: التطور الطبيعـي في بلاد اليونان والذي شهد ازدياد قوة الطبقة الأرستقراطية التـي راحت تنتـزع تدريجاً سلطـات الملك أو صلاحياتـه المطلقـة، وبخاصـة العسكريـة والقضائية والدينية.

كان الملكان يقومان بتقديم القرابين التي يتطلبهـا ديـن الدولـة، ويرأسـان الهيئـة القضائيـة، ويقودان الجيش في الحرب، وكانا في كل أعمالهمـا خاضعين لمجلـس الشيوخ، وأخذا، بعد معركة بلاتية ضد الفرس في عام (٤٧٩) قبـل الميـلاد، يفقـدان سلطاتهمـا تدريجاً لصالح المشرفين.

وفيما يتعلق بمجلس الشيوخ، أو الجيروسيه ومعناها جماعة من الرجـال كبار السن، فقد كان يتكـوَّن مـن ثلاثيـن عضـواً مـن بينهـم الملـكان بحكم منصبهمـا، وباستثناء الملكين يتوجـب أن يتجاوز عمر العضـو الستين عاماً، وتمتـد عضويته مـدى الحياة، ويتـم انتخابهم عن طريـق الصياح أو التصفيق العام من قِبل مجلـس الشعـب، علـى أن يكونـوا مـن الأسر الأرستقراطية، ممن يتوسمـون فيهم الفضيلة

وحسن التصرف والتجربة الواسعة في الحياة، وتشمل صلاحياتهم، تحضير المسائل التي تُعرض أمام مجلس الشعب، كما كانت لهم صفة استشارية أعطتهم نفوذاً سياسيّاً كبيراً، كما كانوا يفصلون في القضايا الجنائية.

وفيما يتعلق بمجلس الشعب أو مجلس الأيلة، الذي يشكل العنصر الديمقراطي الذي ارتضته إسبارطة لحكومتها؛ تشمل عضويته كل إسبارطي فوق الثلاثين من عمره، ويجتمع مرة في الشهر عندما يكون القمر بدراً، وتُعرض عليه المسائل العامة ذات الأهمية الكبرى، ولا يسن قانون إلا إذا وافق عليه، ومن صلاحياته انتخاب أعضاء مجلس الشيوخ وهيئة المشرفين وأعضاء الجهاز التنفيذي، وتقرير المسائل المتعلقة بالسلم والحرب، والسياسة الخارجية، وحسم المشكلات الخاصة بوراثة عرش الملكين، وكان هذا المجلس من الوجهة النظرية مصدر السلطات وصاحب السيادة.

وفيما يتعلق بنظام المشرفين أو الإيغوريين، فهو يميز النظام الإسبارطي عن غيره من النظم السياسية في المدن اليونانية التي لم تكن تعرف هذا النظام. ويبدو أن بدايته حصلت عندما شعر الملوك بأن مهمة الإشراف على القضايا المدنية أخذت تتسع حتى فاقت قدرتهم، فاضطروا إلى تعيين خمسة مشرفين للنظر فيها، ونمت صلاحياتهم مع مرور الزمن، فلم يكد يمضي منتصف القرن السادس قبل الميلاد حتى أصبحت سلطتهم مساوية لسلطة الملكين، ثم أضحوا في واقع الأمر أصحاب السلطة العليا بعد الحرب اليونانية ـ الفارسية، بحيث طالت الأمور السياسية، مثل الرقابة على تصرفات الملوك، وتوجيه الاتهام إليهم، واستدعائهم للمثول أمامهم إذا بدا في تصرفاتهم ما يُبرر ذلك، كذلك كانوا مسؤولين عن المحافظة على النظام العام، وتطبيق القانون، وشكَّلوا الهيئة القضائية التي تنظر في قضايا السكان المحيطين بإسبرطة وفي القضايا المدنية بين المواطنين الإسبرطيين، كما كانوا يستقبلون السفراء ويفصلون في النزاعات القضائية ويقودون الجيوش ويُوجِّهون الملوك، وخرج نتيجة هذا التطور أمر تعيينهم من قِبل الملوك وأضحى يتم بطريقة الاقتراع العام.

ويبدو أن اتساع سلطاتهم جاء نتيجة الصراع الذي نشب في القرن السابع قبل الميلاد بين طبقة الأرستقراطية وبين طبقة الشعب، وتشكل صلاحياتهم المكتسبة نوعاً من التوازن الذي يحفظ ما حصل عليه الشعب من مكاسب خلال هذا الصراع، وبين ما استطاع الملوك والأرستقراطيون أن يبقوه في أيديهم من سلطات، وكان ذلك ضروريّاً في المجتمع الإسبرطي للمحافظة على تماسكه.

دام دستور ليقورغ مطبقاً زمناً طويلاً لأن أنظمة الحكم الثلاثة، الملكية والأرستقراطية والديمقراطية، قد اجتمعت كلها فيه بنسب تمنع طغيان أي عنصر منها على العنصرين الآخرين.

العلاقات الخارجية

الحروب مع الفرس

شهدت المدة الزمنية التي امتدت عبر القرن الخامس والقسم الأكبر من القرن

الرابع قبل الميلاد، مرحلة جديدة تخطت فيها المدن اليونانية إطارها الداخلي إلى إطار أكثر اتساعاً، ظهرت فيه ملامح جديدة في حياة المجتمع اليوناني الذي نحا باتجاه الصدام العسكري مع القوى في شرقي البحر المتوسط وغربه وفي شمالي البلقان.

كانت المدن اليونانية المنتشرة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى تخضع لمملكة ليدية، الواقعة في الجزء الغربي من وسط هذه البلاد، ولكنها احتفظت باستقلالها الداخلي، وما جرى في عام (٥٤٨ ق.م) من هجوم قام به الامبراطور الفارسي دارا ضد هذه المملكة لإخضاعها والسيطرة على المدن اليونانية في آسيا الصغرى لأسباب تجارية؛ فجَّر الموقف بين الفرس واليونان الأوروبيين.

وبفعل سخط المدن اليونانية الآسيوية على الحكم الفارسي بعد خمسين عاماً خضعت خلالها هذه المدن لهذا الحكم؛ أقامت حلفاً لمقاومته بزعامة ميليتوس الواقعة في وسط الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وكانت تشغل مركزاً تجاريّاً مهمّاً. والتمس أعضاء الحلف المساعدة من المدن اليونانية الأوروبية، فساندتهم أثينا وإريترية الواقعة في منطقة يوبوية، غير أن الفرس استطاعوا السيطرة على المدن الثائرة ودمروا ميليتوس وأعلنوا الحرب على المدن اليونانية الأوروبية التي ساندت الثوار، وبخاصة مدينة أثينا.

وبدأ الفرس بتنفيذ هدفهمْ في عام (٤٩٠ ق.م) حين أرسل الامبراطور الفارسي حملة كبيرة عبرت المضائق واجتازت تراقية ونزلت في سهل ماراثون على مقربة من أثينا، لتأديب هذه المدينة. وجرى صدام بين الطرفين انتهى بانتصار الأثينيين بقيادة ملتيادس، وانسحب الفرس بعد المعركة، ولم يتعرَّضوا لبلاد اليونان على مدى عشر سنوات بسبب الأوضاع الداخلية المضطربة التي مروا بها، وبخاصة ثورة المصريين ضد الحكم الفارسي.

وفي عام (٤٨٥ ق.م) توفي الامبراطور دارا وخلفه ابنه أحشويرش، وبعد أن ثبَّت أقدامه في الحكم انطلق في عام (٤٨٠ ق.م) باتجاه بلاد اليونان لتأديب اليونانيين. ونشبت جولة أخرى من الحروب بين الطرفين استمرت مدة سنتين، جرت خلالها أربع معارك برية وبحرية في:

- ترموبيلاي على الساحل الشرقي لبلاد اليونان في عام (٤٨٠ ق.م) انتهت لصالح الفرس الذين قضوا على قوة إسبرطة بقيادة ليونيداس وأبادوها.

- سلاميس (سلامين) قرب الشاطئ الشرقي للجزيرة التي تحمل هذا الاسم، في عام (٤٨٠ ق.م) انتصر فيها الأسطول الأثيني على الأسطول الفارسي.

- بلاتيه قرب حدود أتيكا في عام (٤٧٩ ق.م) حيث تحول اليونانيون من الدفاع إلى الهجوم بقيادة إسبرطة، وانتصروا على القوات الفارسية.

- ميكالى عند شواطئ جزيرة ساموس في عام (٤٧٩ ق.م) أسفرت عن انتصار اليونانيين.

كانت نتيجة المعركتين الأخيرتين أن ابتعد الخطر الفارسي عن بلاد اليونان الأوروبية.

الحروب مع قرطاجة

أثار الحروب بين اليونانيين والقرطاجيين عاملان:

الأول: اقتصادي علماً بأن قرطاجة كانت تسيطر على القسم الغربي للبحر الأبيض المتوسط والذي ينتهي شرقاً عند شواطئ جزيرة صقلية، وهو مجالها الحيوي الاقتصادي، ومحاولتها الدفاع عنه.

الثاني: التوسع اليوناني الاستيطاني في غربي البحر الأبيض المتوسط، الذي ابتدأ منذ النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، ووصل إلى أقصاه في النصف الأول من القرن السادس لتنتشر المدن اليونانية عبر هذه المدة الزمنية على شواطئ القسم الجنوبي من جزيرة صقلية باستثناء شواطئها الغربية.

ابتدأ الاحتكاك بين الطرفين خلال القرن السادس حين حاولت مدينة فوكاية اليونانية، الواقعة على الساحل الغربي لآسيا الصغرى، أن تقيم علاقات تجارية مع المدن الواقعة على الشواطئ الجنوبية الغربية لأسبانيا، فتصدَّى القرطاجيون لهذه المحاولات وأفشلوها، كما تصدوا لمستوطنة أقامتها هذه المدينة نفسها في جزيرة كورسيكا.

لكن الانفجار الكبير بين الطرفين حدث خلال العقود الأولى من القرن الخامس قبل الميلاد، واستتبعته ارتدادات امتدت عبر القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد دارت جميعها حول جزيرة صقلية.

حدث الأول في عام (٤٨٠ ق.م) بسبب النزاع بين جيلون حاكم سيراكوزة، كبرى مدن جزيرة صقلية، وبين مناوئيه من اليونانيين الذين التمسوا المساعدة من قرطاجة، فأرسلت جيشاً ضخماً إلى الجزيرة بقيادة هملكار، ويبدو من حجمه أنها استهدفت السيطرة الفعلية على المدينة، على أن المعركة انتهت لصالح جيلون الذي فرض على قرطاجة تعويضاً كبيراً.

وجرى الثاني في عام (٤٧٤ ق.م) بسبب النزاع بين الأثروريين في إيطاليا، حلفاء القرطاجيين، وبين سيراكوزة على عهد حاكمها هييرون الذي أحرز انتصاراً في معركة كوماي على الساحل الجنوبي الغربي لإيطاليا.

وتمَّ الثالث في عام (٤٠٩ ق.م) عندما تدخلت قرطاجة مرة أخرى في النزاع بين المدن اليونانية في صقلية، فسيطرت قواتها على المدن اليونانية الواقعة على الساحل الجنوبي للجزيرة، واضطر ديونيسيوس حاكم سيراكوزة، بعد أربع سنوات، إلى عقد صلح مع قرطاجة سيطرت بمقتضاه على القسم الأكبر من صقلية، غير أن ديونيسيوس استطاع، بعد محاولات عدة لاحقة، طرد القرطاجيين من الجزيرة باستثناء الطرف الجنوبي منها.

الواقع أن الصراع بين اليونانيين والقرطاجيين في صقلية لم يُسفر عن نتيجة إيجابية لليونانيين، وظل الوضع في غربي البحر الأبيض المتوسط على حاله كما كان قبل اندلاعه.

العلاقات الداخلية

حروب البيلوبونيز

انحسر الخطر الفارسي عن بلاد اليونان إثر الصدامات الناجحة ضد الفرس، لكن

المدن اليونانية المتناثرة على شواطئ آسيا الصغرى الغربية كانت لا تزال تحت السيطرة الفارسية، وراحت فكرة تحررها تراود أذهان زعمائها من جديد بعد هزيمة الفرس أمام المدن اليونانية الأوروبية، وتوافق ذلك مع طموح الأثينيين بالسيطرة على بلاد اليونان، وتزعم العالم اليوناني بعد انسحاب إسبرطة من الميدان العسكري لأسباب داخلية. ودليلاً على هذا التوجه انتزعت أثينا مدينة سيستوس من الفرس، وأقدمت على تكوين حلف في شتاء عام (٤٧٨-٤٧٧ ق.م) تحت زعامتها عُرف باسم حلف ديلوس، ضمَّ المدن اليونانية الآسيوية.

كانت النتيجة المباشرة لقيام الحلف نجاح أثينا في طرد الفرس من شواطئ آسيا الصغرى الغربية بعد سلسلة من المعارك، أهمها معركة نهر يوريميدون في بامفيليا في عام (٤٦٨ ق.م) تمَّ على أثرها تحرير كل القسم الجنوبي من المدن اليونانية وانضمامها إلى حلف ديلوس.

كانت زعامة أثينا آنذاك في يد إفيالتيس ثم انتقلت بعد وفاته في عام (٤٦٢ ق.م) إلى يد بركليس، وقد تدعَّمت سيطرة أثينا في عهده على مدن بحر إيجة. وشهد المجتمع الأثيني ازدهاراً اقتصاديّاً ملفتاً في شتى نواحي الحياة، وأضحت أثينا مركزاً لهذا النشاط الاقتصادي في بحر إيجة والشواطئ المطلة عليه. ومن جهة أخرى حاولت أثينا توسيع دائرة نفوذها بضم باقي المدن اليونانية بالقوة، فواجهت مقاومة من جانبها، والتمس بعضها مساعدة إسبرطة، القوة المقابلة لأثينا، وكانت تسيطر على الحلف البيلوبونيزي المكوَّن من الدويلات والمدن اليونانية الموجودة في شبه جزيرة البيلوبونيز، وتخشى على زعامتها من امتداد النفوذ الأثيني الذي يتعارض في جوهره الديمقراطي مع نظامها القائم على ملكية الأرض، بالإضافة إلى تشجيع أثينا لمدن البيلوبونيز ذات التوجه الديمقراطي للانتفاض على حكمها.

وحاولت أثينا توسيع مجالها التجاري بالتمدد نحو الغرب، ما يُهدِّد المصالح التجارية لمدن البيلوبونيز التي كانت تتاجر مع إيطاليا وجزيرة صقلية بنوع خاص، فحثَّت إسبرطة على الوقوف في وجهها علماً بأن الإسبرطيين لم يكن لديهم مصالح تجارية مع الغرب، كما لم يكونوا متحمسين للحرب بفعل قوة الأسطول الأثيني وشجاعة رجاله، إلا أن توجسهم من توسُّع النفوذ الأثيني السياسي والاقتصادي، بالإضافة إلى العنصرية القديمة بين الدوريين والأيونيين؛ دفعهم إلى مساندة هذه المدن، فنشبت الحرب، وقد أشعل شرارتها مسألة جزيرة كوركيرا الواقعة على الساحل الغربي لبلاد اليونان، وكانت تحت سيطرة كورنثة وتسيطر على الخط التجاري الرئيس في المياه الغربية، ولكن تضارباً حدث بين هذه الجزيرة وبين كورنثة دفع أهلها إلى التحالف مع أثينا، ومعنى ذلك قطع شريان الحياة بالنسبة لكورنثة.

دامت حروب البيلوبونيز مدة ثلاثة عقود، واتخذت مسرحاً لها ثلاث جهات عبر ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: ابتدأت هذه المرحلة في عام (٤٣١ ق.م) وكان مسرحها بلاد

اليونان، واستمرت عشر سنوات اجتاحت إسبارطة خلالها أراضي أتيكا، وردَّ الأسطول الأثيني بغارات تدميرية ضد السواحل البيلوبونيزية. وحاولت أثينا أن تقطع خطوط تجارة المدن البيلوبونيزية في الغرب للضغط عليها اقتصاديّاً، وذلك من واقع السيطرة على مناطق شمالي خليج كورنثة وجنوبها، ولكنها لم تنجح إلا في الاستيلاء على موقعين هما بيلوس وجزيرة كثيرا في الجنوب، ومن ثمَّ بقي الخليج مفتوحاً أمام تجارة هذه المدن.

والواقع أن الحرب لم تحقق أهداف أي من الطرفين إنما استنزفت قواهما ومواردهما ما دفعهما إلى عقد صلح نكياس في عام (٤٢١ ق.م) نسبة إلى الزعيم الأثيني الأوليغركي نكياس الذي مثَّل أثينا في توقيع الصلح. ولم تكتف المدن التجارية بأن تعلن انتهاء الحرب بل وقَّعت شروط حلف يستمر خمسين عاماً، وتعهَّدت أثينا أن تنهض لمساعدة إسبرطة إذا ما ثار عليها الهيلوتيون.

المرحلة الثانية: لم يدم السلم أكثر من ست سنوات، فاستؤنفت العمليات العسكرية عندما قرَّر الأثينيون الاستيلاء على المستعمرات الدورية في صقلية في الوقت الذي ضاقت فيه مدن حلف ديلوس ذرعاً بالتسلط الأثيني الواقع عليها، وحاولت التخلص منه، ما وضع أثينا في مأزق حرج لم تخرج منه إلا باستئناف الحرب، فأرسلت قوة عسكرية إلى جزيرة صقلية لإخضاع سيراكوزة الواقعة في جنوب شرقي الجزيرة والتي كانت تسيطر على الجزيرة وعلى المدن اليونانية المنتشرة على الشواطئ الإيطالية، وإدخالها في الامبراطورية الأثينية، معتقدة بأنها إذا نجحت في ذلك فإنها تحقق هدفها الرئيس بحصار مدن البيلوبونيز اقتصاديّاً، ولكن النزاعات الحزبية الداخلية في أثينا عرقلت نجاح الحملة، وفرَّ قائدها الكبياديس إلى إسبرطة، وانتهت المواجهة بتدمير القوات الأثينية البرية والبحرية في عام (٤١٣ ق.م).

المرحلة الثالثة: جرت أحداث هذه المرحلة بين عامي (٤٠٦-٤٠٤ ق.م) استعانت إسبرطة خلالها بالامبراطورية الفارسية التي أمدتها بأسطول بحري أرسلته إلى مداخل البحر الأسود التي تُموِّن أثينا بما تحتاجه من القمح، وذلك للاستيلاء عليها وقطع طريق التجارة على أثينا وخنقها. وقد انتصرت أثينا في بداية الحرب في عام (٤٠٦ ق.م) في معركة أرجينوساي، ولكنها هُزمت في المعركة التالية بعد سنتين في إيجوسيوتامي عند مداخل البحر الأسود، ودُمِّر أسطولها بالكامل واضطرت إلى الاستسلام وقبول الصلح الذي أملى عليها شروطه ليساندروس، والذي كان من أبرز نتائجه انفراط عقد الامبراطورية الأثينية.

سقوط بلاد اليونان

شكَّل الانتصار الحاسم على أثينا بداية سيطرة إسبرطة على كل المدن اليونانية التي كانت تُشكِّل الامبراطورية الأثينية إلى جانب المدن الأخرى، وبدا كأن بلاد اليونان مقبلة على وحدة من نوع ما تحت السيطرة الإسبرطية، وأن الاستقرار سيعمُّ بلاد

اليونـان، لكن شيئـاً من ذلك لـم يتحقَّق، بل دخلـت هذه البـلاد في مرحلـة فوضى انتهت بسقوط المدن اليونانيـة في عام (٣٣٨ ق.م) فـي أيـدي مقدونيـا المتوثبـة بقيـادة الملك فيليب، وذلك بفعل ثلاثة عوامل:

الأول: صـراع المـدن اليونانيـة من أجل الزعامة والسيطرة، ومحاولـة إسبرطة إنشاء امبراطورية على غرار الامبراطورية الأثينية، فهي لم تمنـح المدن التي كانـت خاضعة من قبل لأثينـا حريتها كمـا وعدتها، بـل فرضت عليهـا بدلاً مـن ذلك جزيـة سنويـة باهظة، وأقامت في كل منها حكماً أرستقراطيّاً يُشرف عليه حاكم لسدمونـي تسانده حامية عسكرية إسبرطية، ما كرَّس النزعـة الانفصالية، ولم تدخل سنة (٣٥٠ ق.م) حتى عادت كل مدينة يونانية إلى استقلالها وتشبَّثت به.

الثاني: تعـرُّض الحياة العامـة في المدن اليونانية إلى الاهتزاز بفعل تراجع الصادرات وتناقص الموارد الاقتصادية، علماً بأن بعض البلدان التي كانـت تُشكِّل سوقاً خارجيّاً لبلاد اليونـان راحت تُنمِّـي منتجاتهـا لدرجة تكفي حاجاتهـا من السلع التي كانـت تستوردها من المـدن اليونانيـة، وقـد أدى هـذا الوضـع الاقتصـادي المتدهـور إلـى دفـع اليونانييـن للعمـل كجنـود مرتزقة فـي الفـرق الفارسية بشكل خاص، بـل إن أثينا أضحـت تعتمد في بعض الأحيان على هذا النوع من الجنود.

الثالـث: تحـوُّل العلاقـات الداخليـة بين طبقـات المجتمع اليوناني إلـى صراع عضوي فـي سبيـل الحصـول علـى مكاسـب مؤقتـة وقصيرة المدى، مـن دون الارتباط بأي مبدأ سياسي مُحدَّد.

اليونان عبر حضارتهم

الحياة الثقافية

الكتابة: اختفت الكتابة المسِّينية في بلاد اليونـان ولـم يبق لها مـن أثر إلا فـي جزيرة قبـرص، حيث استمـر أسلوب الحيـاة القديم على البقاء بما فيـه الكتابة. وفي الوقت الذي دخلت فيـه بلاد اليونان فـي دور مظلم جرت سلسلة من التجارب تهـدف إلى إنتاج طريقة بسيطـة فـي الكتابـة، ثـم اقتبـس الأيونيـون وسـكان الجزر اليونانيـة الأبجديـة الفينيقية المؤلفة من اثنيـن وعشرين حرفاً، وقد جرت خطـوة متقدمة حيـن أدخلوا عليهـا تغييرات أساسيـة أهمهـا أنهـم أضافـوا إليهـا حروفاً صوتيـة للحركـة لـم تكـن موجـودة عنـد الساميين، فاستخدمـوا بعـض الحـروف الساميَّـة وحـروف التنفـس لتمثيـل الحركات التي تدل عليهـا أحرف العلـة، وأضافوا فيما بعد حـروف المد، وسمـوا حروفهم بالحروف الفينيقيـة، ثـم نسبوا، في عصـر لاحق، هذه الحـروف إلى قدمـوس الفينيقي الـذي نسبوا إليه تأسيس مدينة طيبة.

وانتشـرت معرفة الكتابة سريعـاً، وأخذت بضع أبجديات يونانيـة مختلفة يتنازع بعضها بعضاً حتـى تغلبت الحروف الهجائية الأيونية، ثـم خضعت كلها في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد إلى لهجة مشتركة انبعث معظمها من أثينا، وكانت تنطق بهـا الطبقات المثقفة كلها تقريباً في العالم اليوناني بأجمعه.

إن أولـى الأغـراض التـي استخدمت فيها الكتابـة فـي بـلاد اليونـان كانـت الأغـراض التجارية أو الدينية، ثم انقسمت إلى قسمين، أحدهمـا دقيـق منظـم للنقـوش والآخـر هو

الكتابة الدارجة التي تستخدم في الأغراض اليومية العادية. أما المواد التي تُكتب عليها فمتنوعة، مثل أوراق الأشجار أو لحائها، والحجارة والبرونز والرصاص وألواح الطين وألواح الخشب، وأوراق البردي، وألواح من الشمع كانوا يكتبون عليها بقلم معدني، واستخدوا قلماً من الغاب يُغمس بالحبر للكتابة على ورق البردي والرق.

لم يكن في بلاد اليونان، قبل القرن السابع قبل الميلاد، جمهور كبير من القارئين، كما لم يكن فيها دور كتب قبل أن يؤسس كل من بوليكراتس وبيزستراتس مكتبته في القرن السادس قبل الميلاد.

الأدب: زخرت بلاد اليونان بالأدب منذ ما قبل عصر بركليس، ويعكس الشعر الغنائي في القرن السادس قبل الميلاد صورة مجتمع أرستقراطي كانت فيه المشاعر والأفكار والأخلاق حرَّة ما دامت تُراعي قواعد الأدب وحسن التربية، وقد أخذ هذا الأسلوب من الشعر الحضري المعقول بنتشر تدريجاً في عهد الديمقراطية. كان مبنى الشعر متعدد الأوزان وقلَّما يقيد الشاعر نفسه بقيود القافية.

وفي الوقت الذي كان الشاعر الغنائي يتغنى بالحب والحرب، كان الشعراء الجوالون ينشدون، في مجالس الحكام وكبار القوم، الملاحم التي تصف ما قام به اليونان من أعمال بطولية، مثل حصار طروادة وطيبة وعودة المحاربين إلى أوطانهم.

وتُعدُّ القصائد الهومرية، نسبة إلى الشاعر هوميروس، أقدم الملاحم المعروفة في التاريخ، لكن جودتها وما تضمنته من إشارات كثيرة إلى شعراء سابقين لتوحي بأن هذه الملاحم الباقية هي الحلقة الأخيرة من سلسلة طويلة بدأت بالقصائد البسيطة القصيرة، ثم تطورت حتى وصلت إلى هذه الأغاني الطويلة.

وشُكِّلت في أثينا، في القرن السادس قبل الميلاد، لجنة حكومية، في عهد صولون او بيزستراتس، انتقت الإلياذة والأوديسة من بين الملاحم الأدبية الباقية من القرن الذي قبله، أو لعلها جمعتهما بعد مقابلة النسخ الموجودة منها آنذاك ثم نسبتهما إلى هوميروس ونشرتهما في صورتهما الحاضرة.

اتسمت الإلياذة بخصائص متباينة عديدة، فهي دون الغاية في مبناها وفي لغتها، وأن الصور الأيولية والأيونية تختلط فيها، وأن أوزان شعرها مأخوذ من لهجات عدة، وأفسد حبكتها كثرة ما فيها من تناقض، ويطغى على الحدث الأساس عشرات القصص والأحداث المأخوذة من قصائد أخرى أُدمجت في أجزاء مختلفة منها، لكن القصة في نواحيها الكبرى، قصيدة واحدة، ولغتها جزلة، قوية، حيَّة، والقصيدة في مجملها من أعظم ما أنتجه الفكر الإنساني.

وتختلف الأوديسة عن الإلياذة اختلافاً كبيراً حتى ليُظنّ للوهلة الأولى أن مؤلفها غير مؤلف الإلياذة. وتتفق الأوديسة مع الإلياذة في بعض العبارات القاسية، ويتكرر في الملحمة الثانية ذكر الحديد في حين تتحدث الأولى عن البرونز، وتضمَّنت عبارات خاصة بالكتابة وبملكية الأرض، والعبيد المحررين، وتحرير العبيد، بل إن الآلهة وأعمالها لتختلف في إحداهما عن الأخرى. ووزن القصيدتين

واحد لكن أسلوب الملحمة وروحها ومادتها تختلف عن نظائرها في الإلياذة، أما شخصياتها فأقل قوة ووضوحاً من شخصيات الإلياذة. وقد أضحت القصيدتان أثمن العناصر في تراث اليونان الأدبي كله.

وكان القرن الخامس أقل غنى من القرن السادس بسبب عدم وجود طبقة من الملوك والأشراف يُناصرون الأدب ويُشجعون الأدباء، ويُعدُّ بندار من طيبة أداة وصل بين العصرين، فقد ورث الصيغة الغنائية من العصر الذي قبله ولكنه ملأها بالفخامة والمسرحية، ولم يلبث الشعر من بعده أن تخطَّى حدوده التقليدية، وجمع في المسرحيات الديونيسية بين الدين والموسيقى والرقص. وأنشد بندار قصائد في مدح الأمراء والأثرياء كوفئ عليها بسخاء، وتتضمن قصائده مجد الحضارة اليونانية ومختارات من الأساطير اليونانية ومن نصائح خلقية، وكانت للآلهة عنده مكانة سامية.

واشتهر مسرح ديونيسيوس، الذي مُثِّلت عليه المآسي والتسليات الكبرى، وهو الذي ناضل في المعركة التي احتدمت بين الدين القديم وبين الفلسفة الحديثة التي ربطت أجزاء التاريخ الفكري لعصر بركليس.

واشتهر الشاعر الغنائي إسكلس في القرن الخامس في الأدب المسرحي، فأخرج في عام (٤٩٩ ق.م) مسرحيته الأولى، وقد كتب بين سبعين وتسعين مسرحية. وانتزع الشاعر سوفوكليس منه الجائزة الأولى للمأساة في عام (٤٦٨ ق.م)، ونال جائزة في المصارعة والموسيقى، وقد أتاحت له مهارته في لعب الكرة وفي العزف، أن يُقيم حفلات عامة في الفنين، وقد اختارته مدينة أثينا، بعد معركة سلاميس، ليقود شبانها في رقصة النصر ونشيدها، وكتب مائة وثلاث عشرة مسرحية، ونال الجائزة الأولى في الحفلات الديونيسية ثماني عشرة مرة، وظل يسيطر على المسرح الأثيني ثلاثين عاماً، وهو الذي زاد عدد الممثلين إلى ثلاثة، وتدور مسرحياته حول الأخلاق، ويكاد أن يكون حديث النزعة في إدراكه للأثر النفسي، ولكنه لا يحتفظ في مآسيه بالمركز الأول للآلهة، ويبقى القدر عنده في المقام الأول. وأشهر المسرحيات اليونانية، بأجمعها مسرحية أوديب الملك الذي قتل أباه وتزوَّج أمه، وهي مسرحية ثلاثية: أوديب تيزانس وأوديب في كولونس وأنتيغوني. وتتعمَّق نفسيته في مسرحيته الأخيرة في الاستقصاء، وتتنوَّع متدرجة من العنف الحاد إلى الرقة، ويُقدم الأشخاص عنده البراهين رغبة منهم في التعريف عن أنفسهم بشكل أكثر مرونة وفي إبعاد التهم الملصقة بهم.

ولا يتردد أوريبيد، الذي عاصر ثورة السفسطائيين، في الانتفاض على الاعتقادات القديمة وانتقاد التقاليد المنافية للأخلاق، وليست الأسطورة عنده سوى حجة فقط، وتقتصر الرواية المستندة إليها على مستوى الحياة العائلية. واصطبغت مآسيه بالبرجوازية والريفية أحياناً، ويحدث أحياناً أن يسمو أحقر الناس على الأبطال والبطلات الذين تُحركهم الأهواء البشرية والضعف البشري. ومن حيث هو صدى لزمانه يلم الشاعر بالمناقشات الفلسفية وببعض المسائل السياسية، ويضطر في هذه الحالة إلى إيقاف سير أحداث

الروايــة، ويُذكر أن سقــراط داوم على حضور تمثيلياته كلها.

ونعمت المهزلة التـي وُلدت، شأن المأساة من ظروف أعياد ديونيسيــوس، بحرية أوسع، واستهدفـت إثـارة الضحـك. وظهــرت فــي النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد مهزلة دورية في سيراكوزة، وكان أبيخـارموس ممثلهــا الرئيــس، استوحـت موضوعاتهـا من الحياة الشعبية والملاحظة اليومية.

وغطَّــى أرسطو فانــس نشاطـه المسرحي شطـراً من القــرن الخامس وآخـر من القرن الرابـع قبـل الميــلاد واتصفـت مسرحياتـه بالمداعبات البذيئــة، والازدراء بالآلهة الذين يصورهم في أوضاع مضحكة أحياناً. ويتناول فــي هزلياته الرجــال المشهوريــن فيصورهم فــي أوضــاع مضحكــة أحيانــاً. ويتنــاول فــي هزلياته الرجال المشهورين فيصورهم صوراً هزلية، ولم يسلم بركليس نفسه من هزلياته. ويظهر من خلال مسرحياتــه معارضاً للنظام الديمقراطــي، وينــادي بالســلام فــي خضــم الحــروب القوميــة، ولا يهتــم بالتناقــض ولا بالشطط، ولكن هــذه الغرابة غير المنضبطة يرافقها شعر بالغ الرقة وإحساس فائق اللطف بجمــال الطبيعة التــي يُعبِّر عنهــا بمهارة في السبك والإيقاع.

وصــل الأدب المسرحي في القــرن الرابع قبــل الميــلاد إلــى الــذروة، فعظمــت شعبية الممثليــن وازداد الإنتاج، وكثــر الشعراء، لكن المأساة هبطــت هبوطاً ذريعاً لن ترتفع بعده، على الرغم مــن محاولة دونيــس المستبد في سيراكــوزة إعــادة إحيائهــا. وتأثــر المؤلفون بمؤلفــات القرن السابق، فعمدوا إلى تقليدها، واستطاب النــاس تكرار التمثيليــات السابقة. واحتفظت المهزلة بحيويتها، لكنها ناءت بثقل الجــدل الكتابــي فبدت هرمة، بحيــث أضحى مــن الضــروري خلــق شــيء جديــد، اكتشفته المهزلــة المتوسطــة أولاً والمهزلــة الجديــدة ثانيــاً، وتجلَّــى ذلك فــي أسلــوب أبيخارموس وحتــى فــي أوريبيــد الباعــث الأول للمأســاة البرجوازيــة، وقــد استلهمتــا مــن الحيــاة الاجتماعية في عهدهما وخلقتا نوعاً جديداً.

البيان والخطابة: حظيت الفصاحة، شأن المســرح، بتقدير كبير فــي العهد الكلاسيكي، وأنتجــت روائــع مدهشــة. كان ميــل اليونــان للخطابة متأصلاً فيهــم، فالمثل الأعلى للبطل الهوميري الذي يُتقــن استعمال السلاح يوجب عليه إثبــات الخبرة نفسها في مجــال البيان، وقــد عمدت الأنظمة القديمــة إلى تعميم مبدأ المناقشــة فــي المجالس والجمعيــات، وجعلت الأنظمــة الديمقراطيــة مــن هــذه المناقشات عامــلاً حاسماً. وقد بلغت أهميــة الكلام شأناً كبيــراً سمــت بالفصاحــة إلــى مرتبــة الأنواع الأدبية، فالكمــال الفني يؤول فــي النهاية إلى تحويلها إلى بيــان. وتمتع تيموستوكلس بموهبة خطابيــة نــادرة، ولكنــه لــم ينشــر شيئــاً من خطاباته ولم يدوِّن أحد كلامه.

وتجلَّــت الرغبة في تنميــة الخطابة وزيادة فعاليتها عند السفسطائيين الذين جاء العديد منهــم من الغرب، بدءاً من غورغياس الصقلي الشهير، وكانوا أساتذة في علم الفصاحة، وقد انبثقت الثــورة الفكرية التي مهدوا لها الطريق مــن تعليمهم الخطابي الــذي نشروه في المدن المختلفة، وقد نمُّوا عقول تلاميذهم من خلال عرض كل قضية ببيان جلي وبرهان قوي.

وهكذا، فإن الروح النقدية التي تشك في كل شيء قد وُلدت من الحاجة العملية التي تطلبتها المجادلة أمام الجمعيات والمحاكم الشعبية.

وانكبَّ الأثينيون بأعداد كبيرة على دروس السفسطائيين، ولم يلبثوا أن أضحوا منذ أواخر القرن الخامس قبل الميلاد أساتذة في الفن الجديد، كما أضحت أثينا في القرن السابع قبل الميلاد مدينة مدارس البيان، في الوقت الذي كانت أيضاً مدينة مدارس الفلسفة، واحتلت الفصاحة فيها مركز الصدارة، فتدفَّق عليها الأساتذة والطلاب من كل حدب وصوب. نذكر من بين الخطباء الذين برزوا على مسرح الخطابة: ليزياس، وإيزيا، وديناخوس، وقد قدموا من سيراكوزة وخلقيس وكورنثة. اتصف الأولان من بينهم بالبساطة والوضوح في إنشائهما وبالحدة في إقامة البراهين، فكانا مثالين لما أُطلق عليه اسم الطريقة الأتيكية حيث تسمو الملاحظة الأخلاقية الدقيقة، والظرف اللطيف، والمرونة، إلى مرتبة الفن الذي يستهوي القارئ والسامع، ويُقنعهما، لذلك فإن مؤلفاتهما، بالإضافة إلى خطب ديموستينوس في المرافعات المدنية، هي تعبير حي عن مثل أدبي أعلى يستجيب لذوق سليم بالغ الدقة.

واستخدم إيزوقراط الفصاحة لتوجيه مصير اليونان، فقد دعا إلى المصالحة والتهدئة بين اليونانيين والتوحد لحرب الفرس، وتتضمن مؤلفاته مقاطع كثيرة تكشف لنا قدرته على التدقيق والفراسة في تحليل الآفات التي ألمَّت باليونان، وتحديد التوجه المؤدي إلى الخلاص، فالكلام عنده مزية الإنسان الأولى، وإن استخدامه بشكل كامل ضمانة لفكر كامل وفضيلة كاملة وحضارة كاملة، وإن إتقان الكلام يؤدي بالضرورة إلى إتقان التفكير لأنه يُرغم على البحث عن الأفكار الواضحة، وانتقاء المفردات وتنظيمها منطقيّاً وجماليّاً، فعلم البيان عنده، مفتاح التعاليم كلها.

وكان للفصاحة في أثينا، في القرن الرابع قبل الميلاد، رجالها ومؤلفاتها، فقد وجَّه بعض الخطباء سياسة المدينة تاركين للعسكر مهمة تنفيذها، ولعل أعظم خطيب من بين هؤلاء الخطباء، الذين أثروا مباشرة بكلامهم هو ديموستينوس، الذي برهن من خلال خطبه عن بُعد نظر ونزاهة، تمتلئ بالمنطق، وتُقنع القارئ بقوتها وعمقها النفسي ورصانتها، وتأخذ بمجامع قلبه. ووجَّه ديموستينوس صراع وطنه ضد مقدونيا، وجرع السم كي لا يقع في أيدي أعدائه المقدونيين، ويتحد موته ويتزامن مع هزيمة دولة المدينة وسقوطها في أيدي هؤلاء، وبالتالي سقوط الحضارة التي كانت هذه الدولة سنداً لها وإطاراً ومشجعاً.

الفلسفة: ظهرت أول مدرسة للفلاسفة العلماء في ميليتس، وهي مدينة تقع على ساحل أيونية، وكانت مركزاً للتبادل التجاري، وتتصل اتصالاً وثيقاً بإقليم ليدية في الشرق، واتصلت عن طريقه بامبراطوريات بلاد ما بين النهرين وثقافتها.

لقد نُسب إلى طاليس من ميليتس قوله إن مصدر الأشياء جميعاً هو الماء، وعلى هذا النحو بدأت الفلسفة كما بدأ العلم، وألمَّ بعلم الفلك والحساب اللذين اشتهر بهما كهان

بلاد ما بين النهرين، والراجح أنه كان مُطّلعاً على السجلات البابلية المتعلقة بذلك، بدليل أنه تنبأ بكسوف الشمس الذي حصل في ٢٥ أيار عام ٥٨٥ قبل الميلاد، وتمكّن من تطبيق القاعدة العملية التي استخدمها المصريون القدماء في قياس ارتفاع الهرم لكي يهتدي بواسطتها إلى تحديد المسافة التي تبعد بها السفن في البحر، بالإضافة إلى مسافة الأشياء الأخرى التي يستحيل الوصول إليها، وبالتالي كانت لديه فكرة عن إمكان تطبيق القواعد الهندسية على نطاق عام، ونُسب إلى طاليس قوله إن للمغناطيس نفساً لأنه يحرك الحديد.

وانتقد أنكسيمندر نظرية طاليس الكونية، فأطلق على المادة الأساسية اسم اللامحدود، أي أنها تجمُّع لانهائي للمادة يمتد في الاتجاهات كلها، ومن هذا الأصل نشأ العالم وإليه سيعود في آخر الأمر.

وتُعدُّ نظريات أناكسيمينيس، وهو آخر الفلاسفة الميليين، نسبة إلى ميليتس، المشهورين، خطوة إلى الوراء بالقياس إلى أنكسيمندر، لكن على الرغم من أن تفكيره كان أقل ميلاً إلى المغامرة فإن آراءه كانت أقدر على الاستمرار، ورأى هذا الفيلسوف في الهواء المادة الأساسية، إذ إن مصدر أشكال المادة التي تنشأ من حولنا هو الهواء عن طريق عمليتي التكاثف والتفرق والانتشار، والهواء قوام النفس، يحفظ حياتنا كما يحفظ للعالم حياته وسار هذا الفيلسوف في نظريته الكونية في طريق الخطأ.

واعتقد هيراقليط الأفسسي، وهو أيوني أيضاً، بأن النار هي العنصر الأول، وأضاف إلى نظريته هذه فكرتي الصراع الدائم والتطور المستمر.

وتقوم شهرة فيثاغورس على غِنى مذهبه، حيث رافق تعليمه حول النفس وتعاقب تجسدها ـ التقمص ـ علم أخلاقي، في حين كانت فلسفته في سعيها لاكتشاف سر الكون المتناسق؛ مثاراً للأبحاث العلمية. لقد جمع هذا الفيلسوف في نظريته عن العالم بين تعاليم الفلاسفة الميليين وبين نظرياته الخاصة في الأعداد، واعتقد أن الهواء اللامحدود هو الذي يحافظ على تميز الوحدات التي تجعل اللامحدود قابلاً للقياس، واللامحدود هو ذاته الظلمة والحد هو النار، وهذا تصور نابع من ملاحظة النجوم في السماء، واهتم الفيثاغوريون بالرياضيات، وأدّى هذا الاهتمام فيما بعد إلى ظهور نظرية المثُل أو الكليات.

وتابع فلاسفة القرن الخامس فلاسفة القرن السادس قبل الميلاد في البحث عن تفسير منطقي لطبيعة الأشياء، ولم يختلف أناكساغورس وليسبوس ديموقريتوس اختلافاً حقيقيّاً عن الأيونيين من حيث الطرق المعتمدة، التي كثيراً ما لجأت إلى المخيلة وإلى الأسطورة أحياناً بسبب افتقارها إلى وسائل البحث العلمي الصحيحة، ومن حيث صفة الحلول التي تبنوها، وتجادلوا، شأن الأيونيين، حول عدد وصفة العناصر الأساسية والقوى التي تؤلف وتفصل بينها لتتكون منها الأشياء وحركتها الدائمة، علماً بأن أناكساغورس، الأيوني المنشأ والمقيم في أثينا، قد أُقيمت عليه الدعوى لأنه علَّم أن الشمس كتلة متأججة نافياً عنها صفة

الألوهية. وقال ليسبوس بنظرية الذرات وتوسع فيها تلميذه ديموقريتوس، فالذرات في نظرهما صغيرة جدّاً ولا حصر لها، ولكنها متشابهة في تركيبها، وتختلف شكلاً ووزناً، ومن شأن الذرات الثقيلة منها أن تُسبب إذا سقطت، بفعل الصدامات وتفاعلها؛ حركة لانهائية تتولد منها الأشياء في مظاهرها المتنوعة.

الواقع أن السمات التي تشترك فيها كل النظريات، التي ذكرناها، أنها تبذل محاولة لتفسير العالم عن طريق مبدأ واحد، ولكن أحداً منها لم يتصدَّ لاختبار وجهة النظر العامة هذه بطريقة نقدية، وهذا ما قام به بارمنيدس، الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، وشكَّل مع أنبادوقليس ثنائيّاً وحيداً عرضا نظرياتهما بصورة شعرية، وعنوان قصيدة بارمنيدس «في الطبيعة» وتُقسم إلى قسمين «طريق الحق»، ويتضمن نظريته المنطقية، و«طريق الظن» الذي يعرض فيه مذهباً في الكون ذا طابع فيثاغوري في أساسه.

بدأ بارمنيدس من نقطة ضعف اشتركت فيها النظريات السابقة كلها، تلك هي التعارض بين الرأي القائل إن الأشياء جميعاً قوامها مادة أساسية ما، والقول، في الوقت نفسه، بوجود مكان فارغ، وتبيَّن له بأن الخطأ الذي وقع فيه الفلاسفة السابقون هو أنهم تحدثوا عما هو غير موجود وكأنه موجود، فأكَّد أنه موجود، لأن ما لا يوجد لا يمكن حتى التفكير فيه. وهذا يعني أن العالم مملوء بالمادة بقدر واحد وبالتساوي في الاتجاهات جميعها، ويستحيل أن يمتد إلى ما لا نهاية، إذ لو صحَّ ذلك لكان معناه أنه غير مكتمل، ثم إن هذا الوجود غير مخلوق، فهو أزلي، أما المكان الفارغ فغير موجود. وهكذا نصل إلى صورة للعالم على أنه كرة مادية ساكنة، متناهية ومتجانسة، بلا زمان ولا حركة ولا تغير.

إن نظرية بارمنيدس في صورتها اللغوية ترتد إلى القضية التالية: إنك حين تفكر أو تتكلم فأنت تفكر أو تتكلم عن شيء ما، ويترتب على ذلك بالضرورة وجود أشياء خارجية مستقلة تفكر فيها أو تتكلم عنها.

كان النقد الذي وجَّهه بارمنيدس يستدعي اتخاذ موقف جديد من مسألة تركيب العالم، وهذا ما قام به أنبادوقليس، من مدينة أكراغاس في النصف الأول من القرن الخامس قبل الميلاد، وقد أراد أن يوفِّق بين المذهب الإيلي وبين شهادة الحواس، فتبنى المواد كلها التي جعلها الفلاسفة من قبله أساسية، لكنه أضاف إليها مادة رابعة، وأطلق على هذه المواد اسم «جذور الأشياء» وهي نظرية العناصر الأربعة المشهورة: الماء والهواء والنار والتراب. وبنى مذهبه في الكون على سلسلة من الدورات يبدأ بها مسار العالم بحيث يكون النزاع في الخارج وتكون المحبة في الداخل، وتكون العناصر الأربعة، أي الجذور الأساسية، متماسكة، ويعمل النزاع على طرد المحبة حتى تتفرَّق العناصر المتعددة تفرقاً تامّاً وتصبح المحبة خارج العالم، ثم يحدث بعد ذلك العكس حتى نصل مرة أخرى إلى نقطة البداية، وترتبط نظرية الحياة عنده بهذه الدورة.

وحدث في النصف الثاني من القرن

الخامس قبل الميلاد أن قامت ثورة السفسطائيين الأخلاقية والفكرية، وهم الذين تجاوزوا إطار الفلسفة متناولين جميع نواحي المعرفة ومعتمدين فيها على طريقة واحدة وهي ثورية في جوهرها، ولم يهتموا بالموضوعات المجردة، وأعلنوا أن الإنسان هو مقياس كل شيء، واحتقروا التقاليد ومبدأ الذاتية على أساس استحالة أي معرفة موضوعية.

كان من شأن هذا التوجه أن ذهب بهم بعيداً، فلا سبيل لإثبات أو نفي وجود الآلهة، كما لا سبيل لاعتبار الشريعة، وهي الناموس الذي قامت عليه دولة المدينة، كواقع غير بشري ولا مأمن من التقلبات البشرية، ولا سبيل للوقوف على حق مطلق وعدل مطلق يسموان على ما هو مفيد، وهكذا أصيب كل شيء بهزة عميقة.

ارتبطت الشخصيات الثلاث الكبرى في الفلسفة اليونانية بمدينة أثينا، فقد كان سقراط وأفلاطون أثينيين بالمولد، ودرس أرسطو في أثينا ثم علَّم فيها، ويسيطر الأول على فلسفة القرن الرابع قبل الميلاد، وبغضّ النظر عن الشبه المطلق في انتسابهم الفكري فإنهم جميعاً يتشابهون في كونهم مؤسسين أو أساتذة مدارس.

إننا نستقي آراء سقراط من كتابات اثنين من تلاميذه هما كسينوفون، القائد العسكري وأفلاطون الفيلسوف، وهو أهم الاثنين. لقد استبق سقراط المدرستين الرواقية والكلبية اللتين عرفتهما الفلسفة اليونانية في العصر الهليني، فحرص، كما الرواقيون، على الفضيلة بوصفها الخير الأسمى، وشاركه الكلبيون بعدم اكتراثهم بمتع الدنيا.

اهتم سقراط بالبحث في الخير والأخلاق، والمهم في رأيه هو السعي لاكتساب المعرفة التي تُجنب الإنسان أن يرتكب الخطيئة، ولكي نصل إلى الخير لا بد لنا من اكتساب المعرفة، ومن ثم فالخير هو المعرفة. وعلى ذلك، حاول سقراط إلقاء الضوء على المشكلات الأخلاقية عن طريق المناقشة، ويُطلق عليها اسم الجدل أو الديالكتيك. واشتهر بتهكمه بحيث تجنَّبه الناس، واتهمه معارضوه بأنه يهدم ولا يبني، يرفض كل جواب ولا يجيب هو بشيء من عنده، فأفسد بذلك الأخلاق، وشلَّ التفكير، وأنه في كثير من الأحوال ترك الفكرة التي أراد أن يوضحها وهي أكثر غموضاً.

واتُّهم سقراط في أواخر حياته بالخروج على دين الدولة وبإفساد الشباب بتعاليمه، ولكن ذلك لم يكن إلا اتهاماً ظاهريّاً، أما المأخذ الحقيقي للحكومة عليه فكان ارتباطه بالحزب الأرستقراطي وقوله: إذا كانت المعرفة هي أسمى الفضائل، فإن الأرستقراطية هي خير أشكال الحكم، وإن الديمقراطية سخفاً وعبثاً. وادعى عليه ثلاثة أشخاص هم: السياسي الديمقراطي أنيتوس، وشاعر المأساة مليتوس، ومعلم البلاغة لوكون، فقضى شهراً في السجن بعد إدانته قبل أن يشرب السم.

لا يوجد في تاريخ الفلسفة اليونانية فيلسوف شغل حيزاً يعادل ذلك الذي شغله أفلاطون أو أرسطو، ومرد ذلك يعود إلى موقعهما الفريد في تاريخ الفلسفة. فقد ظهرا

بوصفهما وريثين للمدارس السابقة ولسقراط وألقيا الضوء على الكثير مما تركه المفكرون السابقون، وكان لهما تأثير هائل على التفكير البشري طوال العصور، ثم إن إسهامهما في الفلسفة أهم على الأرجح من إسهام أي فيلسوف آخر قبلهما أو بعدهما، إذ لا تكاد توجد مشكلة فلسفية لم يُعالجاها.

امتدت حياة أفلاطون، وهو من تلاميذ سقراط، طوال المدة الواقعة بين انهيار أثينا وصعود مقدونيا. فقد وُلد عام (٤٢٨ ق.م) وتوفي في عام (٣٤٨ ق.م)، فيكون بذلك قد نشأ وعاصر الحروب البيلوبونيزية. كان سقراط صديقاً لأسرته الأرستقراطية وقد عرفه أفلاطون منذ طفولته. وأسس مدرسة في أثينا في عام (٣٨٧ ق.م) في بستان يبعد مسافة قصيرة في اتجاه الشمال الغربي للمدينة، وكانت قطعة الأرض هذه مرتبطة باسم البطل الأسطوري أكاديموس ـ قدموس ـ ومن ثم أطلق على المدرسة اسم الأكاديمية، واستوحى تنظيمها من نموذج المدارس الفيثاغورية، وأهم المقررات الدراسية فيها هي: الحساب، هندسة المسطحات، المكعبات، الفلك والصوت أو التوافق.

إن آراء أفلاطون متنوعة، غنية وعميقة، فهو يحاول التوفيق بين العقل والعاطفة الدينية والمحبة التي هي النزعة الحارة نحو الجمال المطلق والقريبة من الخير المطلق، وتشكل في نظره معيار الفضيلة. ويكاد علم المعقولات يختلط عنده بالصوفية، ويجاور علم الفلك التنجيم، لذلك رأى بعضهم فيه المسؤول الأول عن الانهيار الذي كان سبباً في صرف الفكر اليوناني عن متابعة المجهود المنطقي. ليست ديانته، على أي حال، بالديانة التقليدية التي تزخر بالأساطير والتي حكم عليها بأنها غير معقولة، وإذا ما بقي وفيّاً لمذهب تعدد الآلهة، فإنه صحَّحه تدريجاً لينتهي عند القمة بإله واحد كامل لامتناهٍ يشكل إحكام التأمل فيه أسمى مكافأة، وهو يؤمن بخلود النفس والتقمص، وهي ذيول لازمة لنظريته حول المُثُل وعلم الأخلاق وهي جواهر الأشياء والتصورات، والخير فيها هو الإله المطلق الموجود في عالم سام، ولا يستطيع الإنسان أن يرى في العالم الأرضي المحسوس سوى انعكاساتها الغامضة، وقد عرفت نفسه قبل أن تتجسَّد فيه العالم السامي والمُثُل، وهي بالتالي وفقاً لصفته وبقوة متفاوتة تتذكر هذا العالم وهذه المُثُل وتحنُّ إليها، فتتقرَّب إليها بالفضيلة والمحبة عبر تجسدات متجددة متعاقبة من عالم الصور.

وشُغف أفلاطون بالعلوم، وبخاصة الرياضيات، ونظريته حول الأعداد المرتبطة بنظرية المُثُل تتوافق مع نظرته الاجتماعية السياسية، فهو يرى في الفضيلة وثبة نحو الألوهية، وأن النفس إذا ما انفصلت عن الجسد المحسوس والناقص تستطيع أن تجد في الموت وبفضله فرصة للسمو إلى عالم أعلى.

لم يتردد أرسطو، الذي وُلد في استاغيرا بإقليم تراقية نحو العام (٣٨٤ ق.م) وهو تلميذ أفلاطون؛ في انتقاد خطى معلمه، ونرى في أعماله محاولة للاستعاضة عن نظرية المُثُل بنظرية جديدة خاصة به تقوم على المادة والصورة، فهو يرى في المُثُل الحالَّة

فـي الأشياء والكائنات أنها تتحقَّق في المادة، وتتخذ شـكلاً يزداد تكامـلاً بازدياد مطابقته لعلتـه الغائبة، فالمادة والشـكل والغاية، إذن، ثلاثـة معطيـات لازمـة علـى تبايـن أهميتها بسبـب اختـلاف مراتبهـا، تستلـزم الـدرس لتُـدرك إدراكاً تامّـاً، والصورة عنـده تضفي على المادة خصائصهـا، وتُحولها بالعقل إلى شـيء أو جوهر، وهـي أهم، فـي نهاية الأمر، من المـادة لأنهـا هـي الخلَّاقة فـي حين أن المـادة مجـرد أسـاس خـام، أمـا الصـورة فجوهرية.

لا يحتفـظ أرسطـو بالـدور الأول للمحبـة والحـدس فـي سيـر الإنسـان نحـو الحق بل الاستدلال والمجهـود التجريدي، وهو لا يُوحِّد بيـن الله والخيـر بـل بيـن الله والإدراك الخالـص، وإذا كان كل شـيء يتطلع نحو الله بالارتفاع درجة في سلَّم الكمال والعلل الغائبة، فإن النفـس لا تدنو منـه إلا بانقيادها للعقل، وعلى العقل أن يرشـد بين نقيضين إلى الحد الوسـط الـذي هـو الفضيلـة، إذ إن مصيـر الإنسان يتحدَّد على الأرض، وبذلك تبرز الهوة التـي تفصله عن أفلاطـون، والخلاف بينهما جوهري في المنهجية والروحية.

ويرتكز المنطق «اللوغوس» الأرسطي على عـدد مـن المسلَّمـات المرتبطـة بمذهبـه الميتافيزيقـي، منهـا: أنـه يُسلِّـم مـن دون مناقشـة بـأن جميـع القضايـا تتخـذ شـكل الموضـوع والمحمول، وفي هـذا السياق تنشأ مشكلة الكليات، إذ تُقسم القضايا تبعاً لكونها تتحـدث عـن كليـات أو عـن أفـراد، وتبـدأ بالبرهـان من قضيـة واحدة أو أكثـر تسميها المقدمات، وتستنبط قضايـا أخرى تلزم عن هـذه المقدمات أو تكون نتائـج لها، والنموذج الأسـاس لكل برهـان هو ما يُسمـى بالقياس. فالقيـاس، إذن، هـو برهـان يشتمـل علـى مقدمتين لكل منهما موضوع ومحمول وبينهما واحد مشترك، ويختفي هذا الحد الأوسط في النتيجـة. والواقـع أن منطـق أرسطـو هو أول محاولة لعرض الصـورة العامة للغة والبرهان بطريقة منهجية.

وبفضل أفلاطون وأرسطو اللذين سيستمر أثرهمـا طويلاً، حافظت فلسفـة القرن الرابع قبل الميلاد علـى مستواها الـذي شهدته في القـرن الخامـس قبـل الميـلاد، بـل إن هذا النظـام الفكري أسهـم في ارتقـاء الحضارة اليونانية، وقد احتلَّت أثينا، على هذا الصعيد ومنذ ذلك الوقت؛ مركزاً لم تعرفه من قبل.

الألعـاب: حقَّقت الألعاب مـا عجزت عنه السياسـة، ومـا عجز عنـه الدين مـن توحيد بـلاد اليونان، ذلـك أن الناس كانـوا يذهبون إلـى أولمبيا ودلفـي وكورنثة ونميـا ليشاهدوا مباريـات البطولة بيـن الرياضييـن. وتنوعت الألعـاب الرياضية بين ألعـاب خاصة ومحلية وبلديـة ويونانيـة جامعـة، تشمـل المصارعة والملاكمـة والسباحـة ولعبـة الهوكـي وركوب الخيـل، العاريـة الظهـر، ورمـي القذائـف واتقاءها أثناء الركوب والصيد، وألعاب الكرة وسبـاق العربـات والمشاعـل والتجديـف، ومباريـات موسيقيـة في الغنـاء والعزف على القيثارة والمزمار والنـاي والرقص في بعض الأحيـان. ولعـل أهـم هـذه المباريـات هـي المباريات الخمس المحببة كثيراً إلى اليونان، وتشمـل المصارعـة وقـذف القـرص والرمح والقفـز والجـري مسافـة قصيـرة بأقصـى

سرعة، ومسافة طويلة تبلغ ميلين وثلث الميل، ولا يُعَدُّ اللاعب منتصراً إلا إذا فاز بثلاث منها.

بلغت الألعاب الرياضية في القرن السادس قبل الميلاد أعظم روعتها، وتغلغل حبها في قلوب اليونانيين. ففي عام (٥٨٢ ق.م) أنشأ الحلف الاثني عشري الألعاب الغيثية في دلفي تكريماً لأبولون، كما أنشأت كورنثة ألعاب البرزخ تكريماً لبوسيدون، وبعد ست سنوات أُنشئت الألعاب النيمية تكريماً لزيوس النيمي، وأضحت هذه المواسم أعياداً يحتفل بها اليونان، وكان أعظم ما يطمح إليه اليوناني الرياضي أن ينال أكاليل فيها جميعاً.

وأُضيفت إلى الألعاب الغيثية الجسدية مباريات في الموسيقى والشعر، وكان موضوع الشعر في بادئ الأمر أنشودة تخلد انتصار أبولو على الأفعى الدلفية، ثم أُضيفت في عام (٥٨٢ ق.م) مباريات في الغناء والعزف على القيثارة والنفخ في الناي.

وربط اليونان بين تنمية قدرة العازفين وبين ذوق الناس في وقت واحد، وطبَّقوا هذا المبدأ على الفنون كافة تقريباً، وبذلك أضحى للألعاب أثر كبير في الفنون والآداب بل وفي كتابة التاريخ، بفعل أن حساب السنوات في كتب التاريخ المتأخرة كانت تؤرخ بالدورات الأولمبية.

الحياة الفنية

تخطيط المدن: كان التخطيط الهندسي المنظم نادراً في المدن اليونانية حتى نهاية العصر الكلاسيكي في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، والشائع هو تطور غير منظم تمتد فيه المدينة أو تتزايد تفصيلاتها الداخلية وفق ما تقتضيه الظروف، من ذلك: أن الجدران التي تحيط بالمدينة لم تتخذ شكلاً هندسيّاً دائريّاً أو مضلعاً منظماً، وأن البوابات لم تكن تُقابل غالباً مداخل أو مخارج الطرق الرئيسة، ولم تُشكل ساحة المدينة في أثينا، التي هي العصب السياسي، سوى نسبة ١/٢٥ من الكيلومتر المربع، وكانت الطرق متعرجة وجوانبها مزدحمة بالمباني والتماثيل بشكل غير متناسق.

وعرفت بلاد اليونان، إلى جانب هذا التخطيط غير المنظم، تخطيطاً منظماً لكن نادراً، كما في مدينة أولينثوس الواقعة على الشاطئ الشمالي لبحر إيجة. ووُجد من بين المهندسين اليونان الذين ينتمون إلى العصر الكلاسيكي من تبنَّى فكرة التخطيط المنظم بشكل واضح، مثل هبوداموس من ميليتوس، ونرى بصماته الفنية المنتظمة في تخطيط ميناء بيرايوس، أهم موانئ أثينا، وكان ذلك فنّاً هندسيّاً جديداً على تصورات اليوناني.

ولعل أبرز أسباب هذا التوجه في التخطيط غير المنظم تكمن في ثلاثة:

أولاً: عسكرية، فتعرُّجات الطرق والتداخلات التي كانت سمة بارزة لها تجعل الأمر يختلط على الغزاة، سواء في اقتحام المدينة أو في محاولة الخروج منها بعد دخولها، وتدخل البوابات تحت هذه الصفة.

ثانياً: يتعلق بظهور دول المدينة، والمعروف أن كل مدينة كانت في الأصل عبارة عن تجمع قبائل أو تجمعات سكانية كل منها منفصل عن الآخر قبل أن يتحدوا أو يكوِّنوا كياناً سياسيّاً واحداً اتخذ شكل المدينة

الدولة، وكان لكل قبيلة أو تجمع سكاني طرقاته الخاصة من دون التنسيق مع القبائل أو التجمعات السكانية الأخرى.

ثالثاً: يغلب على أرض بلاد اليونان الطابع الصخري الوعر، وتُحدِّد هذه الوعورة بالضرورة مسارات الطرق، ومن ثمَّ جاءت غير مستقيمة تتبع حدود التكوينات الصخرية المتعرجة بطبيعتها.

العمارة: استعاد فن البناء ما خسره بسبب الغزو الدوري، وانتقلت أسس العمارة المسِّينية إلى بلاد اليونان خلال العهد السابق للعهد الكلاسيكي، فاحتفظت روائع الفن اليوناني بطراز البناء المستطيل القائم الزوايا، وباستخدام العمد في داخل البناء وخارجه، وبجسم العمود المستدير وتاجه المربع البسيط وبالأروقة ذات العمد والواجهات ذات التجويفات، غير أن العمارة المسينية كانت مدنية متخصصة في تشييد العقود والدور، أما العمارة اليونانية في عصرها الزاهي فكادت أن تكون كلها دينية.

شُيِّدت أقدم الهياكل اليونانية على طراز الميغارون المسيني المؤلف من سقف ذي منحدرين وأعمدة أمامه وقاعة في الوسط يوضع فيها التمثال، وهو مبني من الخشب واللبن، وعندما استُعمل الحجر في تشييد الهياكل منذ القرن السابع قبل الميلاد بقيت مظاهر العمارة كما كانت في عهد البناء بالخشب. وكثُر استعمال الحجارة بازدياد ثراء اليونانيين وكثرة أسفارهم، وكان حجر الجير المادة الشائعة الاستعمال في أنماط البناء قبل القرن السادس قبل الميلاد، ثم استُعمل الرخام منذ عام (٥٨٠ ق.م).

ونشأت في بلاد اليونان مراتب العمارة الدورية والأيونية ثم الكورنثية في القرن الرابع قبل الميلاد، وقد استخدمت العمد في تجميل الهيكل من خارجه لكنها بدت مفرطة في الثقل والسماكة بالنسبة إلى ارتفاعها مغرقة في القوة والصلابة، يقوم في أعلاها تاج بسيط يتكون من عنق أو رباط مستدير، وبروز دائري محدب يرتكز على التاج وهو غير جميل في منظره.

وفي الوقت الذي كان فيه طراز البناء يتطور على أيدي الدوريين ويتكيف مع أبهة العمد، كان اليونان الأيونيون يُبدلون هذا الشكل متأثرين بالأساليب الآسيوية، الحثية والأشورية، فنشأ من هذا التطور طراز أيوني يتصف بالانسجام والتوازن والرشاقة، يقوم العمود فيه على قاعدة خاصة؛ ويبدأ من أسفله كما ينتهي في أعلاه بطوق ضيق أكثر ارتفاعاً وأصغر قصراً من جسم العمود الدوري، وتجويفاته غائرة غير ضحلة كما في العمود الدوري، نصف دائرية، ويتكوَّن رأس العمود من وسادة محدبة ضيقة يعلوها تاج أضيق منها، ويمتد فوق رأس الأعمدة إفريز طويل يتسع للنقش، وأضحى العمود من عناصر الجمال، كما صار دعامة يستند إليها البناء.

ازدهر الطرازان المتنافسان في القرن السادس قبل الميلاد وبلغا ذروة الكمال في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد قسَّما بلاد اليونان من الناحية الجغرافية إلى قسمين، فانتشر الفن الأيوني في آسيا الصغرى اليونانية وفي بحر إيجة، وكان للفن الدوري السيادة في أرض اليونان الأوروبية وفي

غربها. وأعظم ما أبدعه الفن الأيوني معبد أرتميس في أفسس في القرن السادس قبل الميلاد، ومعبد هيرا في ساموس، في حين برز معبد زيوس الأولمبي الضخم في السهل الواقع عند أسفل الأكروبوليس في بلاد اليونان الأوروبية كأفضل مثال للطراز الدوري.

وما جرى من هجرة الفنانين الأيونيين إلى أتيكا بعد غزو الفرس لأيونيا في عام (٥٤٦ ق.م) أن أدخل هؤلاء طراز العمارة الأيونية إلى أثينا، فانتشر الطرازان معاً، ووضعوا بذلك الأسس الفنية لعصر بركليس، وظل المعبد يحافظ على المنظر العام الذي خلفه له العصر السابق مع بعض الخروقات الطفيفة.

وهناك معابد تؤلف بين الطرازين تأليفاً زاد في تنويعه ظهور عمود جديد، في القرن الخامس قبل الميلاد، هو العمود الكورنثي ذو التاج المليء بالنقوش، وقد صادف نجاحاً كبيراً.

وبذل المهندسون المعماريون جهداً حقيقيّاً في محاولة تحقيق التناسق العام والكمال في أدق أجزائه، وإذا ما حصل أن أُنجزت أبنية أكثر تأنقاً في جمال أجزائها الدقيقة، مثل البارثينون في أثينا، فإنه لا يوجد بناء أعظم منه جلالاً عقليّاً في المطابقة النسبية ولا أزهى في انتقاء المرمر، ولا أروع من نحت هذا المرمر وتنضيده، ولا أعمق درساً في تصحيح الأخطاء التي يسببها بُعد مرمى النظر أو تأثير النور الساطع.

النحت: كان من أثر استيطان اليونان غربي آسية وفتح أبواب مصر أمام التجارة اليونانية حوالي عام (٦٦٠ ق.م)، أن دخلت أشكال الشرق الأدنى ومصر وأساليبهما إلى أيونية وبلاد اليونان الأوروبية. ونشأت في عام (٥٨٠ ق.م) مدرسة للنحت في البيلوبونيز بفضل المثَّالين الكريتيين ديونيوس وأسكسيلوس. وكان لهذا الفن أهداف كثيرة منها تخليد الموتى بالأعمدة البسيطة ثم برؤوس تماثيل قائمة على قواعد، ثم بتماثيل كاملة أو لوحات جنائزية منقوشة، وتخليد الفائزين في الألعاب الرياضية، وقد شجَّع هذا الفن خيال اليونان الخصيب. وأسهم النحت مع الهندسة المعمارية في تزيين المعبد، فقد وضع الفن الأخير مساحات حجرية ينبغي تزيينها بالرسوم، وآثر الفنان اليوناني وضع تماثيل لا تُرى ظهورها أمام الجدار الداخلي للمعبد على النحت الناتئ.

كان الخشب هو المادة التي تصنع منها أكثر التحف في القرن السادس قبل الميلاد، ولنا في صندوق سبسيلوس، طاغية كورنثة، مثلاً على ذلك. ولما ازداد الثراء غطَّت المواد الثمينة التماثيل الخشبية، وبهذه الطريقة صنع فيدياس تماثيله الذهبية والعاجية لأثينا بارثنوس ولزيوس الأولمبي.

وترتبط صناعة التماثيل بالدين، لأن الموضوعات التي عالجتها تحمل طابع الديانة وتمثل الآلهة ومقدمي القرابين والحيوانات الرمزية، وقد تتلمذت في البدء على الفن الشرقي ولا سيما المصري، لكن الفنان اليوناني تحرَّر من الانقياد للتقليد من دون أن يتوغل في الحركة العنيفة، إذ حالت دونها الديانة وحسُّه المرهف بالنبل والتناسق. غير أن الجسم لم يخضع لقاعدة التناسب، وقد

فرضته التمارين الرياضية لإتاحة بروز العضلات تحت الجلد، ثم دبَّت الحياة في الوجه تدريجاً ما قضى على وقار التماثيل الدورية الأولى.

وكان يونان أيونيا أول من عرفوا فوائد جعل الثياب عنصراً من عناصر صناعة النحت، في الوقت الذي كان فنانو الشرق الأدنى ومصر يجعلون الثياب جامدة ملتصقة بالجسم، فأدخل المثَّالون اليونان في القرن السادس قبل الميلاد الثنايا في الأقمشة، واستخدموا الثياب للكشف عن مصدر الجمال وطرازه في الجسم البشري الصحيح السليم، غير أن أثر الآسيويين والمصريين ظل له من القوة ما جعل التماثيل، في كثير من آثار النحت اليونانية، ثقيلة وجامدة وخالية من الرشاقة. وسار اليونان على القاعدة التي جرى عليها المصريون في صنع تماثيلهم، وهي أن يصنعوها متجهة بوجوهها نحو الناظر إليها ومتناسية الجانبين.

وركَّز الفنان اليوناني جهوده على نمطين من التصوير هما: تصوير الشاب العاري «الكوروس» ذي اليدين المقبوضتين والوجه الهادئ الصارم، إنه يوناني بعريه، وتصوير العذراء «الكورا» المصففة الشعر ذات الوقفة والثياب المتواضعة، تمسك بثوبها بإحدى يديها وتُقرب القربان للآلهة باليد الأخرى، وتبرز الأنوثة بقوة ثم تعتدل حياء، كما في تماثيل الفتيات اللائي انتصبن في أثينا منذ القرن السادس قبل الميلاد.

وبقي التصوير غريباً على اليوناني، على الرغم من هذا التفوق، الذي كان يحب الشكل أكثر مما يحب اللون، وقد أولع منذ القرن الخامس قبل الميلاد بالنحت، واستمرت الديانة مصدر إلهامه الأكبر حتى ملأ هياكله وقبوره بتماثيل صغيرة من الطين المحروق، وعبد آلهة صوَّرها بالحجارة، وأقامَ على قبور موتاه ألواحاً منقوشة تُعدُّ من أكثر منتجات الفن اليوناني تأثيراً في النفس، وقد يكون الإلهام غير ديني أيضاً فيمثل شخصيات سياسية أو قادة عسكريين.

ويمثل النحت على النصب المدفني الميت في حياته اليومية، ويفرض تشبيه الآلهة بالبشر نقل الأمثلة الإلهية عن الدنيويات، ثم إن الموضوعات الدينية كثيرة ومتنوعة. واختار الفنان مشاهد من الأمثال والآلهة والحياة الدينية، والذبائح وعدتها، والتطوافات، والمباريات. وقد فرض المعبد الدوري النقش في لوحاته الرخامية كما فرضه المعبد الأيوني في إفريزه. وهكذا أُتيحت للنحات المزيد من الإمكانات المادية التي استثمرها بشكل واسع.

وخلَّف هذا العصر نقوشاً محفورة هي أرقى ما وُجد من نوعها، يُمثل إحداها أرفيوس يلقي نظرة وداع طويلة على يورديس التي استردها هرمس في العالم السفلي، ويمثل نقش آخر ديمتر تعطي ترنيوملوس الحية الذهبية التي تصبغ فن الزراعة في بلاد اليونان، وأجمل من هذين النقشين، مولد أفروديتي المحفور على أحد أوجه عرش قصر لدڤيزي على يد نحات مجهول، نرى فيه إلهتين ترفعان أفروديتي من البحر وثوبها الرقيق المبلل ملتصق بجسمها يُظهر كل ما فيه من روعة الأنوثة الناضجة، ونقش على جانب آخر من جوانب العرش صورة فتاة

عارية تعزف على القيثارة المزدوجة، وعلى جانب ثالث امرأة مقنعة تُعدُّ مصباحاً لتضيء به ظلمة المساء.

ولم يَعد المثَّالون في هذا القرن الخامس قبل الميلاد يُظهرون المنظر الأمامي، ويُمثل فن المنظور إليه الأشياء كأنها بارزة نحو الناظر إليها، وتحل فيه الحركة محل السكون، ويُعدُّ ذلك ثورة في فن النحت. واهتم المثَّال في عصر بركليس بكل عضو من أعضاء الجسم، ويُعبر أدق تعبير عن حركاته.

فن التصوير: وتفرَّع فن التصوير في بلاد اليونان من الرسم العادي، وبقي إلى آخر مراحله رسماً وتخطيطاً في أساسه وجوهره، واستخدم في تطوره ثلاث طرق: طريقة التصوير على الجص الطري، وطريقة الطلاء المائي أو التصوير على الأقمشة والألواح المبلَّلة بألوان ممزوجة بزلال البيض، وطريقة تثبيت الرسوم بالحرارة من خلال مزج الألوان بالشمع المذاب.

وتقدم فن التصوير في القرن الثامن قبل الميلاد بشكل لافت، ولاقى رواجاً في الأوساط الشعبية على الرغم من انتقاد النقاد له، والواقع أنه لم يكن يقل روعة عن فن العمارة والنحت. واشتهر بولغنوتس الثاسوسي في القرن الخامس قبل الميلاد، فقام بتزيين مبانٍ عامة عدة في أثينا في عام (٤٧٢ ق.م)، ورسم صوراً على جدرانها لعل أشهرها منظر نهب طروادة، ورسم في ردهة الاستراحة في دلفي صورة أوديسيوس في الجحيم وصورة أخرى لنهب طروادة، وكانت صوره كلها مظلَّلة وخالية من المناظر الطبيعية، وخلفياتها مزدحمة بصور الأشخاص.

وأقامت دلفي وكورنثة، بدءاً من عام (٤٧٠ ق.م)، مباريات دورية في التصوير تجري كل أربع سنوات، فتقدم هذا الفن وأتاح لبانينس أن يرسم صوراً لقادة أثينيين وفرس في معركة مراثون يمكن تمييز أشخاصهم فيها، إلا أنه لم يُمثل البُعد بتصغير حجم الأشخاص شيئاً فشيئاً، فجاء طول الأشخاص واحداً، كما لم يُنظم الضوء والظل، ومثَّلهما بالخطوط المنحنية.

وتقدم الفن في عام (٤٤٠ ق.م) خطوة مهمة حين اهتم أغاثاركس بالعلاقة بين الضوء والظل من جهة والبُعد من جهة أخرى. واشتهر في نهاية هذا القرن الخامس أبولودورس الأثيني بأنه مصور الظلال، فرسم صوراً فيها الضوء والظل، ورفع تلميذه زكسيس فن المنظور وتوزيع الضوء والظل ما جعله أعظم المصورين في القرن المذكور.

ولا يقل برهاسيوس عن أفسس عظمة، وكان يضع على رأسه تاجاً مذهباً ويلقِّب نفسه أمير المصورين، وقد بلغ من إتقانه صورة العدَّاء أن الناظرين إليها كانوا يتوقعون أن يروا العرق يتصبَّب من الصورة، والعداء نفسه يسقط من فرط الإعياء. وصوَّر (برهاسيوس) أهل أثينا على جدار بيَّن ما في طباعهم من تناقض، فمثَّلهم قساة ورحماء، متكبرين وأذلاء، متوحشين وجبناء، وأدى التنافس الشديد بينه وبين زكسيس إلى اشتراكهما في مباراة عامة.

صناعة الخزف: أثَّر الغزو الدوري لبلاد اليونان سلباً على صناعة الخزف التي فَقدت ما بقي من قواعد الفن المينوي المسِّيني التي كانت لها السيطرة على أقدم الفخار اليوناني

بعد العصر الهومري، ومحا فخار هذا العصر ما كانت تزدان بـه الآنية الكريتيـة من رسوم الأزهـار والنباتات والمناظـر الطبيعية، وخلت الجرار الضخمة من الجمال واقتصرت غايتها علـى حفـظ الخمر والزيـت والحبـوب، ويكاد نقشهـا يقتصـر على وحـدات من مثلثـات أو دوائر أو سلاسـل أو خطوط متقاطعة وصلبان وخطوط أفقية متوازية وبسيطة، وحتى الرسوم البشرية التي تتخلَّل هذه الأشكال كانت رسوماً هندسيـة، ولعل أهـم روائعه، الأوانـي الكبيرة العائدة إلى مقبرة ديبيلون في أثينا.

وتطـورت الصـور الحية التـي رسمت على الفخـار مع نهايـة القرن الثامن قبـل الميلاد، فاستبدل اليونان بالدوائر الخطوط المستقيمة، وظهـر على الصلصـال سعف النخـل والصور الحيوانيـة الواقعـي منهـا والخيالـي، وحلَّـت الزخـارف الشرقيـة محـل الطـراز الهندسي السـاذج، وقد ترافـق ذلك مع ازدهـار أيونية، فرُسِمـت بأشـكال أنيقـة، ومـا لبثـت رسـوم الأشخاص أن تسرَّبت إلى هذه الموضوعات.

واشتهـرت كورنثـة فـي هـذا العصـر بخزفياتهـا المزخرفة وبرسومهـا المستوحاة مـن الأساطيـر. واشتهـرت أثينـا فـي القرن السـادس قبـل الميـلاد بصناعـة الخـزف وزخرفتهـا وقـد نافسـت كورنثـة فـي هـذا المضمار. وتعود أبـرز أعمال الأثينيين الأولى «إناء فرنسوا» إلى عـام (٥٦٠ ق.م) وقد عثر عليـه فـي إتروريـا، ورُسـم عليه فـي عصابة دائريـة، يبلغ محيطها مترين وارتفاعها ستين سنتيمتراً، مائتـان وخمسون شخصاً ناشطون في أعمالهم وموزعون على مستويات مختلفة، والمناظـر مستمدة مـن الأساطيـر اليونانية.

وصـوَّروا علـى مزهرياتهـم صـوراً لحوانيـت الخزافين وعملهم. وألقى الخزافون الأثينيون عـن كواهلهـم التقليـد الشرقـي، وانتشـرت مصنوعاتهم ذات الرسوم السوداء في أسواق البحـر الأسـود وقبـرص ومصـر وإتروريـا وإسبانيا.

واستُخدمت منذ عـام (٥٣٠ ق.م) طريقة جديدة، فبدلاً مـن الأشكال السـوداء البارزة أمـام خلفية حمـراء، اعتُمد البرنيـق الأسود للخلفيـة، واللـون الأحمـر للرسـوم، وأضحت الموضوعات أكثر إنسانية، فظهرت إلى جانب الأساطيـر المشاهـد العائليـة ومشاهـد مـن الحياة اليومية في المنزل وخارجه.

الحياة الدينية

تبدو الديانـة كعنصر تفرقة بيـن اليونان المقسَّمين على مدن عديدة، كما كانت عاملاً فـي وحدتهم. فقد وُجدت من وراء عبادة آلهة الأولمـب العامـة عبـادة أقـوى منهـا للآلهـة والقـوى التي تديـن بالطاعة لزيـوس. وغذَّت النزعة الانفصالية القبلية والسياسية الشرك، وجعلت التوحيد مستحيـلاً، إذ كان لكل أسرة في أيام اليونـان القديمة إلهها الخاص، ولكل بطـن أو عشيـرة أو قبيلـة أو مدينـة إلههـا الخـاص بهـا، ولـكل معبـد إلهه الخـاص به المتميـز بأحـد الفـوارق أو النعـوت أو إحدى الأساطيـر. وقد رضـي المؤمن بهـذا التمييز البالـغ لأنـه يطلب عونـاً واضحاً ماديّـاً جدّاً. فكانت مدينة أثينا تعبد الإلهة أثينا، وإلوسيس تعبد دمتـر، وتعبد سامـوس هيـرا، وإفسوس أرتميز، وبوسودونيا بوسيدن. ويوجد في وسط المدينـة وفي أعلى مـكان فيها ضريـح الإله،

ويُعدُّ الاشتراك في عبادة إلهها رمز مواطنيها، فإذا ما خرجوا إلى الحرب حملوا معهم صور إلههم وشعاره، ويستشيرونه بسؤاله عما يخبئه الغيب لهم. ولم يقتصر النصر في الحرب على انتصار مدينة على أخرى فقط، بل كان يشمل إلهاً على إله. وتحتفظ الأسرة كما المدينة على الدوام بنار مقدسة موقدة عند مذبح عام في بهو المدينة، وأب الأسرة هو كاهنها، والملك هو كاهن المدينة.

وتنتسب آلهة اليونان المتعددة إلى مصادر مختلفة، فبعضها استورده الهندو أوروبيون مثل آلهة السماء ولا سيما زيوس، وتجمَّع بعضها الآخر من الإرث الإيجي مثل آلهة الأرض، أثينا ودمتر، وجاء بعضها من الخارج من آسيا، كأفروديت وأبولون، أو من تراقية، كأريس أو ديونيسيوس.

وحرَّر الاستقلال المحلي خيال اليونان من القيود، فأخرج للعالم مجموعة كبيرة من الآلهة، فكان لكل قوة أو نعمة أو صفة من صفات الإنسان، أو حرفة أو مهنة أو فن خاص إلهٌ، يتمثل في صورة بشرية.

وكان عند اليونان، فضلاً عن ذلك، شياطين بشعة المنظر وآلهات انتقام وجن وربات ذوات صوت شجيٍّ وحور عين في البحار..

ولكل إله أسطورة متصلة به تشرح سبب وجوده في حياة المدينة، وتفسر الطقوس والعبادات التي تُقام تكريماً له، نشأت تلقائيّاً بفعل المكان ومعارف الناس، أو كانت من وضع الشعراء الجوالين، وأضحت هذه الأساطير عقيدة اليونان قبل العصر الكلاسيكي.

ويمكن تصنيف هذا العدد الكبير من الآلهة في سبع مجموعات هي: آلهة السماء المتمثلة بزيوس، آلهة الأرض، آلهة الخصب، الآلهة الحيوانية المتمثلة بالنور أو الخنزير أو الأفعى، آلهة الأسلاف والأبطال، آلهة ما تحت الأرض، وآلهة الأولمب التي كانت في المرتبة الثانية من الشهرة بين آلهة اليونان، وإن لم تكن في المرتبة الثانية من التعظيم، وقد دخلت إلى البلاد مع الآخيين والدوريين، وعلى رأس هذا النظام الإلهي رب الأرباب زيوس العظيم، الذي قسَّم العالم مع إخوته فيما بينهم، فكانت السماء من نصيب زيوس، والبحر من نصيب بوسيدن، وكسب هيديز باطن الأرض.

لا تتضمن أساطير اليونان ذكراً لخلق العالم، فقد وُجدت الأرض قبل أن توجد الآلهة، ولم تخلق الآلهة الإنسان من حمأ، بل خلقته من تزاوج الذكور منها بالإناث، والإله ليس إلا والداً.

ليست الآلهة الأولمبية بقادرة على فعل كل شيء، كما لا تعلم كل شيء، ويعارض بعضها بعضاً، ويمكن أن تُخدع، غير أنها تقر بالسيادة لزيوس وتحتشد في مجلسه. ويبدأ زيوس بأن يكون إلهاً للسماء، والجبال، ومُنزِّل المطر، وللحرب، وحاكم الآلهة والبشر، وهو الهادئ، القوي الملتحي، الجالس فوق جبل أولمب، وهو رأس النظام الأخلاقي، لكن عيبه الوحيد أنه يتأثر سريعاً بانفعالات الحب، ويجد نفسه عاجزاً عن إغراءات النساء، ومن محبوباته: ديوني، وزوجته الأولى تيس، إلهة الكيل والعقل والحكمة التي ولدت أثينا، وثميس التي ولدت له الساعات الاثنتي عشرة، ويورنيوم التي ولدت له إلهات اللطف

الثلاث، دتموسيني والدة ربات الشعر التسع، وليتو والدة أبولـو وأرتميس (ديانا)، ثم أخته دمتر التي أنجب منهـا برسفوني وأخته هيرا إلهة البيـت، وقـد أجلسها ملكة علـى أولمب فولدت لـه هيبي وأريـس وهفستـوف الماهر الأعرج المعروف عنـد الرومان باسم ڤلكان، وإيلثيـا. ولـم يُقْبَل ديونيسيـوس بيـن آلهـة الأولمـب إلا في أواخـر أيامـه، وكان في أول أمـره مـن آلهـة تراقيـة، وهـو إلـه الشراب المعصـور مـن الشعيـر، فلما جـاء إلى بلاد اليونـان أصبـح إلـه الخمـر ومغـذي الكروم وحارسهـا، وانتهـى أمـره بأن صـار ابن الله الذي مـات لينجي البشـر، وكان أحـب أبناء زيوس إليه، ويجلس إلى جواره على عرشه في السماء، ولما حسدته هيرا على منزلته أغرت الجبابرة، فبدَّله زيوس بماعز ثم بثور ليخفيه عن الأنظار، لكن الجبابرة قبضوا عليه وقتلوه وأكلـوا لحمه، فأنقذت أثينـا قلبه وحملته إلى زيوس، فأعطاه إلى سميلـي فحملت به، وَوُلِد هـذا الإلـه مـرة أخـرى وسُمـي بعـد مولده ديونيسيوس، ورافق موتـه وبعثه حزن وسرور وطقوس دينية.

مرَّت الحيـاة الدينية عنـد اليونان بثلاث مراحـل زمنيـة، وتضمنـت ثلاثـة عناصـر مختلفة:

- مرحلة أرضية وعنصـر أرضي من أصل بلاسجـي - مسينـي، انتشـرت بيـن الفقراء، وسادت قبل العصر الهومري.

- مرحلة أولمبية وعنصر أولمبي من أصل آخـي - دوري، انتشرت بيـن الأغنياء، وسادت أثناء العهد الهومري.

- مرحلة صوفية وعنصر صوفي من أصل مصري - آسيوي، انتشرت بين أفراد الطبقة المتوسطـة الدنيـا، وسـادت بعـد العصـر الهومري.

ولـم يكـد يحل عصـر بركليـس حتى كان التخفـي أقـوى المظاهر في الديـن اليوناني، وكان يُمـارس من خلال احتفال سري يتضمَّن رمـوزاً مقدسة، وتُقـام فيه طقـوس رمزية لا يتعبَّد بها إلا المطلعون علـى أسرارها، وتُمثِّل عذاب إله من الآلهة، وموته وبعثه، وتشير إلى موضوعـات زراعيـة قديمة وإلـى ضروب من السحـر، وكانت تمارس فـي أماكن كثيرة من بلاد اليونان وبخاصة في إلوسيس.

ويتضمن عيد دمتر أسراراً صغرى وأخرى كبرى:

- تقام الأولى في فصل الربيع بالقرب من أثينـا، فيتطهر العبَّاد بأن يغمـروا أيديهم في مـاء إلوسيس، ثم يحجون سيـراً على الأقدام في وقار مسافة أربعة عشـر ميلاً في الطريق المقـدس إلـى إلوسيس، يحملون صـورة الإله الأرضي ياكوس فـوق رؤوسهم، حتى إذا وصل الموكـب إلـى إلوسيـس فـي ضـوء المشاعل، وُضعـت صورة الإله في الهيـكل وسط مراسم التعظيـم والإجلال، وقضوا مـا بقي من اليوم في الرقص والغناء والموسيقى.

- وتدوم طقوس الأسرار الثانية مدة أربعة أيـام أخـرى، تبـدأ بإدخـال من تطهَّـروا في الأسـرار الصغرى بالاستحمـام والصوم، أما الذيـن مارسـوا هـذه الطقـوس فـي العـام المنصرم فكانـوا يؤخذون إلى بهـو الاندماج فـي الجماعـة السرية حيـث يكـون الاحتفال سريّاً، ويتضمن علـى الأغلب زواجاً خفيّاً بين كاهـن يمثل زيـوس وكاهنـة تمثل دمتـر، ثم

يفطر المبدئون الصائمون بتناول عشاء رباني مقدس، ويُحرَّم علـى أي إنسان أن يبوح بهذه الأسرار وإلا تعرَّض للقتل.

ودخلت في عصر بيزستراتوس أسرار ديونيسيوس في الطقوس الإلوسية، والفكرة الرئيسة فيها هي نفسها، وجوهرها أن الموتى يمكن أن تتجدَّد حياتهم، كما أن البذرة تولد مرة ثانية.

ودخلت إلى بلاد اليونان، في القرن السابع قبل الميلاد، طقوس دينية صوفية من مصر وتراقية وتساليا، ويمثل أورفيوس التراقي هذه النزعة، وقد اشتهر بالثقافة والموسيقى والشعر، وأضحت أغانيه في القرن السادس قبل الميلاد ذات طابع مقدس، كما أضحت أساساً لطقوس دينية صوفية ذات صلة بطقوس ديونيسيوس ولكنها تتفوق عليها بما تتضمنه من عقائد دينية تدور حول عذاب ديونيسيوس زغريوس الابن المقدس وموته وبعثه، ويسودها الاعتقاد بأن الناس جميعاً سوف يُبعثون في المستقبل، ويثابون على أعمالهم أو يعاقبون عليها. وإذ كان الاعتقاد السائد أن الجبابرة الذين قتلوا ديونيسيوس وأكلوا لحمه هم الذين تناسل منهم البشر، فقد كانت البشرية كلها تحمل الخطيئة الأولى، وعقابها أن الروح تُسجن في الجسد. ويعتقد الأورفيون أيضاً أن الروح تذهب بعد الموت إلى الجحيم حيث يحاسبها إله العالم السفلي على أعمالها، فإذا حُكم على الميت بأنه مذنب عوقب عقاباً شديداً أبديّاً، وهو الذي أُخذت منه فكرة النار فيما بعد، أو أن روحه تتطهر من ذنوبها عن طريق التناسخ فيسمح لها عندئذ بالدخول إلى حياة النعيم الأبدية، أو أن العقاب الذي يلقاه الميت في الجحيم قد ينتهي إن كفَّر الإنسان عن ذنوبه قبل موته أو كفَّر عنه أصدقاؤه بعد موته، وقد نشأت عن هذه الطريقة عقيدة التطهير.

ويزخر الدين اليوناني بالسحر والخرافات والأباطيل، ولم تكن الطقوس الدينية تحتاج إلى كهنة يقومون بها، فقد كان الأب يقوم مقام الكاهن في الأسرة، ويقوم الملك مكان الكاهن في الدولة، ولم يكن الكهنة في حال وجودهم إلا موظفين صغاراً تهيمن الدولة عليهم.

ويتخلَّل العبادات موكب وأناشيد وقربان وأدعية، ويتقي العابدون غضب الإله أو كسب مساعدته بالتضحيات والصلوات.

لم يقض الدين على الحروب التي كانت تنشب بين اليونان، إنما خفَّف متاعب الحياة بما كان يقيمه من أعياد كثيرة. وكان التقويم الأثيني دينيّاً في جوهره، وتُسمَّى أشهر كثيرة بأسماء أعياد دينية، ولصحة المراسم والطقوس الدينية تأثير كبير على السلوك الأخلاقي ساعدت الدولة والشعب في أكثر الشؤون الأخلاقية حيوية، مثل مراسم التطهير التي ترمز إلى الأخلاق القويمة، وكانت الآلهة تحضُّ على الفضيلة وإن كان ذلك عابراً وغامضاً، من ذلك أنها كانت تغضب على الشرير، وتنتقم من المتكبِّر، وتحمي الغريب، وتستجيب لمن يتوسل إليها، وتحمي قدسية الإيمان. ويُضفي الدين القدسية والكرامة على أهم الأحداث في الحياة كالمولد والزواج والأسرة والعشيرة والدولة، وكانت عبادة الموتى وتكريمهم واجبة، وكذلك إنجاب الأطفال الذي اتخذ

صفة المقدس. وبهذه الوسائل استُخدم الدين لحماية المجتمع والشعب من أنانية الفرد.

النظام القضائي والإداري

التشريع: سيطر على معظم بلاد اليونان في عصر بركليس النظام القضائي الأثيني بفعل تراجع أيونيا وإسبارطة، وقد مرَّ التشريع في أثينا بثلاث مراحل زمنية تطورت القوانين خلالها من عادات مقدسة ارتضتها الآلهة إلى قوانين وضعية من قبل المشترعين، أمثال دراكون وصولون، ثم نمو الشرائع المطرد وتجميعها وتنسيقها، واستُغني في هذه المرحلة الأخيرة، بشكل عام، عن القوانين القديمة.

لم يُفرِّق التشريع الأثيني بين القانون المدني والقانون الجنائي، إلا أنه احتفظ للأريوباغوس بحق الفصل في جرائم القتل، وترك للمدعي في القضايا المدنية أن يتولى بنفسه تنفيذ قرار المحكمة، وتسانده الدولة في حال صادف مقاومة في هذا التنفيذ، وبقي القصاص المباشر، حتى القرن الخامس قبل الميلاد، مباحاً في أحوال خاصة، ولا يُقدَّم القاتل للقضاء إذا عفا القتيل عنه قبل موته.

ووُجدت في أثينا أربع محاكم تنظر في جرائم القتل تختلف باختلاف طبقة القتيل وأصله ونوع الجريمة. واتصف قانون الملكية بالصرامة، فالتعاقد واجب التنفيذ، وحق الوصية مقيد بقيود شديدة، وينتقل الملك من الأب إلى أبنائه الذكور ويحصل أكبرهم على نصيب أكبر، ولم يكن للأرملة أن ترث ملك زوجها لكن لها أن تسترد بائنتها. ويُعَدُّ التشريع اليوناني أساس التشريع الروماني والذي أصبح فيما بعد أساس قانون المجتمع الغربي.

القضاء: إن أول خطوة تُقدم عليها الديمقراطية عادة هي إصلاح القضاء، ولعل أعظم إصلاح قام به إفيلتيس وبركليس هو نقل الحقوق القضائية، التي كان يمارسها الأرخونون والأريوباغوس، إلى الهيلية أي المحاكم الشعبية، وهذا ما وهب أثينا ذلك النظام القضائي الذي أخذت عنه أوروبا نظام المحلفين.

تتألف المحاكم الشعبية من ستة آلاف محلف يُختارون بالقرعة من سجل المواطنين، ويُوزعون على عشرة سجلات، يحتوي كل سجل على خمسمائة اسم تقريباً، ويُترك الباقون كاحتياط في حال خلو أحد المناصب لظرف قاهر، ولا يبقى الواحد منهم في منصبه أكثر من سنة. ويفصل في القضايا ثلاثون محلفاً، أما القضايا المهمة، كقضية سقراط مثلاً، فكانت تنظر فيها محكمة ضخمة مؤلفة من ألف ومائتي محلف.

يعرض الطرفان المتنازعان نزاعهما ودفاعهما على أحد المحكمين، يُختار كالقضاة بطريق القرعة في اللحظة الأخيرة منعاً للارتشاء، ويؤدي كل طرف له أجراً زهيداً، فإذا عجز عن تحقيق الصلح بينهما فصل في النزاع بعد أن يحلف اليمين، ولكلا الطرفين أن يستأنف الحكم أمام المحاكم، وتُقدم إلى المحكمة الناظرة في هذه الحالة كل الأقوال والدفاعات مكتوبة، توضع في صندوق خاص وتُختم، ويُفتح الصندوق بعد وقت ما، فتُبحث القضية ويصدر الحكم فيها من قِبل هيئة تختار بالقرعة.

لم يكن عند الأثينيين مدعٍ عام، وتعتمد الحكومة على المواطنين أنْ يتهموا أمام المحاكم كلَّ من يرتكب جريمة خطيرة ضد الأخلاق العامة أو الدولة، فنشأت نتيجة ذلك طائفة النمامين، تخصَّص أفرادها في اتهام الناس، وقد تطورت مهنتهم حتى أضحت فنّاً في اغتصاب أموال الناس لكف الأذى عنهم.

تُغطى نفقات المحاكم من مصادر عدة أهمها: الغرامات التي تُفرض على المدانين. ويدافع كل طرف من المتقاضين بنفسه عن قضيته، فإذا تعقَّدت الإجراءات القضائية أو كان أحد المتقاضين فصيحاً يمكن أن يؤثر بفصاحته على القضاة، يمكن الاستعانة بخطيب أو رجل متضلع بالقانون ليدافع عن المدعي أو المدعى عليه، ونشأت من هؤلاء الفصحاء طائفة المحامين. وكانت المحاكم تستعين بهم لشرح القانون، بفعل أن الكثير من القضاة لم يكونوا على علم بتفسير نصوصه. وتُقدم الأدلة مكتوبة، ويحضر الشهود بأنفسهم ويُقسمون بأن ما يشهدون به صحيح، حيث يتلو كاتب الجلسة شهادتهم، ولم تكن شهادة النساء والقاصرين مقبولة إلا في جرائم القتل، ولم تكن تُقبل شهادة الأرقاء إلا إذا انتزعت منهم بالتعذيب.

وتتراوح العقوبات المقررة بين الضرب والحرمان من الحقوق السياسية والكي بالنار ومصادرة الأموال والنفي والإعدام، ويتاح للمحكوم عليه بهذه العقوبة الأخيرة أن يتجنبها بالنفي الاختياري وترك الأملاك، وقلَّما كان المدنيون يعاقبون بالسجن، ويعاقب العبد في جسده والحر في ماله.

هذا ما كان يجري في الامبراطورية الأثينية من تشريعات وإجراءات قضائية، أما خارج نطاق هذه الامبراطورية، فلم يكن لبلاد اليونان نظام قضائي واحد تخضع له جميعها.

الإدارة

يشترك الأرخون مع هيئات متعددة في تصريف شؤون المدينة الإدارية تحت إشراف الجمعية والمجلس والمحاكم. ويُقدر عدد الإداريين في أثينا بسبعمائة موظف يختارون سنويّاً بطريق القرعة، ولم يكن بوسع العضو أن يكون عضواً في لجنة بعينها إلا مرة واحدة.

وكانت المناصب العسكرية أكثر أهمية من المناصب المدنية، لذلك كان القادة العشرة يُنتخبون علناً في الجمعية، ولا يبقى الواحد منهم في منصبه إلا عاماً واحداً، وهم معرضون للعزل إذا ثبت أنهم ارتكبوا أخطاء. وازدادت مهمات هؤلاء بتوسع العلاقات الخارجية، فكانوا في القرن الخامس قبل الميلاد يفاوضون الدول الأجنبية ويُشرفون على إيرادات المدينة ونفقاتها إلى جانب اختصاصهم الرئيس، وهو الإشراف على شؤون الجيش والأسطول، ومن أجل هذا كان القائد العام المعروف باسم سترتيغوس، أقوى رجال الحكومة.

تلازمت الخدمة في الجيش مع حق الانتخاب، لكن الحياة في أثينا لم تكن حياة عسكرية، وبالتالي لم يكن هناك تدريب عسكري يستحق الذكر على عكس الحياة في إسبارطة. ويتألف الجيش عادة من:

ـ فرق المشاة الخفيفة، ويُشكل المواطنون

الفقراء عناصرها، يتسلحون بالرماح والمقاليع.

- فرق المشاة الثقيلة، وعناصر من المواطنين الأغنياء الذين يتمكّنون من تجهيز أنفسهم بالدروع والتروس والحراب.

- فرق الفرسان، ويتكوّن عناصرها من كبار الأغنياء، ذوي الدروع والخوذ وحملة الرماح والسيوف.

وتعدّدت مصادر النفقات المخصصة للجيش، نذكر منها: المكوس، عوائد المرافئ، ضريبة على الواردات والصادرات، مقدارها اثنان في المائة، ضريبة الفرضة، ومقدارها اثنتا عشرة درخمة على كل فرد من الأجانب، ونصف درخمة عن كل عبد مُحرَّر، ضريبة على العاهرات والبيوع والأملاك المصادرة، والجزية التي تؤديها الولايات، وضريبة على الرؤوس أثناء الأزمات، كذلك كان الأغنياء يُدعون لأداء بعض الخدمات العامة من أجل المجهود العسكري والمدني.

الحياة الاجتماعية

التربية والتعليم: شاعت في المجتمع الأثيني عادة التبني في حال لم يُنجب الزوج والزوجة أبناء، وحضّت الحكومة على الزواج وقاومت العقم بسبب نقص الرجال، لكن القانون أباح قتل الأطفال أحياناً للحد من زيادة النسل، ومنع تقسيم الأرض الزراعية على الورثة بشكل يؤدي إلى الفقر والعوز، وتقبّل المجتمع الأثيني هذا التوجُّه. وسُمح للأب أن يقتل طفله إذا شكَّ في نسبه إليه أو أنه كان ضعيفاً أو مشوهاً، ونادراً ما كان يُسمح لأولاد الأرقاء أن يعيشوا، والبنات أكثر تعرضاً للموت من الأبناء، لأن البنت بحاجة إلى تأمين بائنة، كما أنها تنتقل بالزواج إلى خدمة بيت لم يكن لأهله دور في تربيتها. والوسيلة المتبعة لتعريض الطفل للموت أن يوضع في إناء من الفخار ويُترك بجوار هيكل أو مكان آخر مكشوف بحيث يمكن إنقاذه إذا رغب أحد في تبنيه، وكان ذلك من بين الأسباب التي جعلت شعب اليونان بعامة، سليماً وقويّاً.

ويُقبل الطفل في دائرة الأسرة رسميّاً في اليوم العاشر من مولده أو قبل ذلك، في احتفال ديني خاص يُقام في البيت، ويمر الولد بأربع مراحل زمنية تتميز كل منها بنوع النشاط العقلي والجسدي هي: الطفولة والشباب والرجولة والكهولة.

وأنشأت أثينا ساحات للألعاب ومدارس للرياضة البدنية، لكنها أهملت إنشاء مدارس عامة أو جامعة تديرها الدولة، وظل التعليم في أيدي الأفراد، فكان المدرسون الخصوصيون يُنشئون مدارسهم الخاصة، يُرسل إليها أبناء الأحرار منذ السنة السادسة من العمر، ويبقى التلميذ في المدرسة حتى يبلغ الرابعة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، وإلى ما بعد السادسة عشرة إذا كان من أبناء الأغنياء. ولم يكن هناك أساتذة متخصصون، فالمدرس يُعلِّم المواد كلها، فيعتني بالأخلاق كما يعتني بالعقول. وينقسم المنهج الدراسي إلى ثلاثة أقسام هي: الكتابة، وتشمل القراءة والحساب، والموسيقى، والألعاب الرياضية، وأُضيف في أيام أرسطو الرسم والتصوير.

ويُدرَّس البنات في منازلهن، ويقتصر تعليمهن على الأعمال المنزلية، وكانت

أمهاتهن يعلمنهن القـراءة والكتابة والحساب والغزل والنسيـج والتطريز والرقـص والغناء والعزف على بعض الآلات الموسيقية.

ويتعلَّـم الرجـال تعليمـاً عالياً علـى أيدي علماء البلاغـة والسفسطائييـن، يتضمَّن فن الخطابة والعلوم الطبيعية والفلسفة والتاريخ، ثم ينخرطون فـي صفوف الشباب المجندين، ويدربون في هـذه المرحلة على أيدي مدربين يختارهـم لهـم زعمـاء قبائلهم، علـى القيام بالواجبات الوطنية والعسكريـة، ويُرسلون في التاسعة عشـرة من عمرهم لحمايـة المدينة ومناطق الحـدود من الاضطرابـات الداخلية والغزو الخارجي.

الملابـس والزينة: تتكوَّن ملابس اليوناني من قطعتيـن مربعتين من القمـاش ملفوفتين في غيـر إحكام حول الجسم، ونـادراً ما كانتا تُفصَّـلان لتوائمـا لابساً بعينـه، وتختلفان في بعض تفاصيلهما في المـدن المختلفة. ويلبس الرجـال القبـاء، والنسـاء المئـزر، وهمـا مصنوعان من الصوف، فـإذا كان الجو بارداً غُطيـا بعباءة، ولـون الملابـس عـادة أبيض، ويعمد الأغنياء والشبان المتأنقين والنساء إلى تلوينهـا، وتتمنطق النساء، في بعـض الأحيان بمناطق ملونة، ولم تكن القبعات مرغوباً فيها، ويُغطـى الـرأس في حـالات خاصـة، كالسفر والقتـال والعمل تحـت أشعة الشمـس الحارة، ويغطـي النسـاء رؤوسهـن أحيانـاً بمناديل أو عصابات ملونة، وتكـون الأحذية أخفافاً ونعالاً تُصنع عـادة من الجلد، سـوداء اللون للرجال وملونة للنساء. ويتزين الرجال بلبس الخواتم، ويتحلَّـى النساء بالأسـاور والقلائـد والأكاليل والجواهر والأقراط ودبابيـس الصدر والعقود والمشابك المطعمة بالجواهر، وأربطة محلاة بالجواهر حول أعقابهن أو سواعدهن.

الـزواج: تبـدو أثينا خلال مرحلـة ذروتها شرقية في أخلاق أهلها، وسكنها، وملابسها، وموسيقاها، وطقوسهـا الدينية. ففي الأخلاق يعترف الرجال والنساء صراحة بأن العلاقات الجنسيـة هي أسـاس الحب، ويطلـب الرجال مـن النساء المحترمـات أن يكن عفيفات قبل الزواج، ولم تكـن تُفرض على الرجال العزَّاب القيـود الجنسية إلا نادراً، ولـم يكن الأثينيون يرون في اتصال الشبـان بالشابات الخليلات مـن وقـت إلـى آخـر، مـن العـار، وبوسـع المتزوجيـن أن يشاركوا الخليـلات في العمل الجنسـي مـن دون أن ينالهم عقـاب أخلاقي سـوى تأنيـب زوجاتهـم. وكانت أثينـا تعترف بالبغاء وتفـرض ضريبة على البغايا، وأضحى العُهـر مهنـة فـي بـلاد اليونـان كلهـا، وشاع الانحـراف الجنسي إلى جانب البغـاء. وَوُجد فـي المجتمـع اليونانـي الحب الروائـي ولكنه نـادراً مـا يكـون سببـاً للـزواج. ويتفـق والد الزوجيـن فـي الـزواج الرسمـي، وعلـى والد الفتاة أن يُؤمِّن لابنته بائنة من المال، والثياب والجواهر والعبيد في بعض الأحيان. ولم يكن الشاب يُقـدم على الزواج لأنـه يحب ذلك بل ليحافـظ على نفسـه وعلى الدولـة عن طريق زوجـة جاءته ببائنـة مناسبـة وأبنـاء يردون الشر عن روحه، وكانت حرفية القانون تفرض عليـه أن يتزوج، وتُحرِّم عليـه أن يبقى عازباً، فإذا تـمَّ اختيار الزوجة واتفـق الطرفان على بائنتها تتـم خطبتها رسميّاً فـي بيت والدها، ويحضر الخطبة شهود، ولم يكن حضور الفتاة نفسها ضروريّـاً. ويُشكِّل العقد الخطوة الأولى

في مراسم الزواج، وتتمثَّل الخطوة الثانية في إقامة وليمة بهذه المناسبة في بيت الفتاة بعد أيام من الخطوبة، حيث يأكل الجميع كعكة العرس ويشربون الكثير من الخمر، ثم يأخذ العريس بيد عروسه ويسيران إلى عربة تقلهما إلى بيت والدته في احتفال تتخلله الموسيقى، وأناشيد الزواج، فإذا وصلا إلى البيت استقبلهما والدا الزوج، ثم يدخلانهما في دائرة الأسرة وفي عبادة آلهتها، ولم يكن للكاهن دور في مراسم الزواج كلها. وكان بوسع الرجل أن يتخذ خليلة فضلاً عن زوجته ويعاشرها معاشرة الأزواج. والطلاق سهل عند اليونان، فبوسع الزوج أن يطرد زوجته من بيته متى شاء من دون تبرير. وشكَّل العقم سبباً كافياً للطلاق لأن الهدف من الزواج هو إنجاب الأولاد، أما إذا كان الزوج عقيماً فله أن يستعين بأحد أقربائه في هذه المهمة، ويُنسب الطفل الذي يولد من هذا الاتصال الجنسي إلى الزوج، وللزوجة أن تطلب من الأرخون أن يطلقها من زوجها إذا قسا عليها، ويُباح الطلاق أيضاً إذا تراضى الزوجان ويبقى الأطفال مع والدهم.

المرأة: ازدهرت الحضارة اليونانية من غير أن يكون للنساء دور فيها، إذ كانت المرأة تُحبس في البيت وتعيش في عزلة، وهي عادة شرقية اقتبسها اليونان من المجتمعات الشرقية. وقامت في عهد بركليس حركة تهدف إلى تحرير المرأة، فخرجت تدريجاً من عزلتها المفروضة عليها، غير أن سلطانها الحقيقي على الرجل ظل قائماً، ذلك أن حاجة الرجل إلى المرأة أكثر من حاجتها إليه ما يكسبها ميزة كبيرة عليه.

الأسرة: تتكوَّن الأسرة اليونانية من الأب والأم وأبنائهما وبناتهما غير المتزوجات وعبيدهما وزوجات أبنائهما وأطفالهم وعبيدهم. وشكَّلت الأسرة اليونانية وحدة الإنتاج الاقتصادي، وأداته الزراعة والصناعة، وللأب سلطان واسع على أسرته.

المنزل: لم يكن البيت اليوناني على شيء من الفخامة. فقد بُني على سورٍ سميك، وهو خالٍ من الزينة، ومدخله ضيِّق، ومادة بنائه هي اللبن في معظم الأحيان، وتتجمع البيوت في شوارع ضيقة وترتفع في الغالب طابقين، وتكون أحياناً مساكن مستقلة لأسر عدة. ولكل مواطن أن يمتلك بيتاً مستقلاًّ، وتعوَّد الأثيني أن يقضي أكثر وقته في الهواء الطلق، ولبيت الأثيني الغني مدخل ذو عمد مواجه للشارع، والنوافذ نادرة إلا في الطابق الأعلى، وهي خالية من الألواح الزجاجية، وتُغلق بمصاريع خشبية أو تكون مُشبَّكة لتحجب أشعة الشمس. ولمدخل دور الأغنياء ممشى يؤدي إلى فناء مكشوف يُرصف عادة بالحجارة، ويحيط به أحياناً رواق وعمد، وفي وسطه مذبح أو حوض أو كلاهما مزدان أحياناً بالعمد، وأرضه مرصوفة بالفسيفساء، ويدخل أكثر الهواء والضوء إلى البيت من هذا الفناء. والحدائق نادرة في المدينة، وتقتصر على مساحات صغيرة في فناء البيت أو خلفه، والحدائق في الريف أكثر عدداً منها في المدينة. وتتصف بيوت الفقراء من الداخل بالبساطة، فأرضها مفروشة بالطين، فإذا زاد دخل هؤلاء غطوها بالحصباء أو رصفوها بحجارة مستوية أو بقطع صغيرة منها، ويغطونها بالجص أو البُسط، وتُطلى

الجـدران المقامـة مـن الآجـر بالجـص أو بالجيـر، ويُدفئـون أنفسهـم علـى مواقد من نحاس. وتكاد البيوت تكـون خالية من الزينة لا يزيـد أثاثها عـن بضعة كراسـي وصناديق ونُضـد وسُـرر، لكن كراسـي الأغنيـاء كانت تُزيَّـن بنقوش محفـورة أو تُطعَّـم بالذهب أو بأصـداف السلاحـف أو بالعـاج. وتُستخـدم الصناديق مكاناً لحفظ الأشياء ومقاعد معاً. وكانـت النضد صغيرة تقف عـادة على ثلاث أرجـل، والمطبـخ مجهَّـز بكثيـر مـن الأواني المختلفـة المصنوعـة من الحديـد والبرونز والخزف، ويُطهى الطعام فوق نار في العراء، وكانـت الوجبـة الأثينيـة بسيطـة، ويستخدم اليوناني الملاعق ويتناول الطعام باليد.

المصادر والمراجع

- إيمـار، أندريه وجانين أوبوايه: **الشرق واليونان القديمة، الجزء الأول من موسوعة تاريخ الحضارات العام**. تعريب فريد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس.
- بـرن، أندرو روبرت: **تاريخ اليونـان**، تعريب محمد توفيق حسين، وزارة التعليـم العالي والبحث العلمي، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٩م.
- ديورانـت، ويل: **قصـة الحضارة، حياة اليونان المجلد الثاني الأجـزاء ١ ـ ٢ و٣**، تعريب محمد بدران، القاهرة، ١٩٦٨م.
- يحيى، لطفي عبد الوهاب: **اليونان، مقدمة في التاريخ الحضاري**، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠١٠م.
- Cloché, P: **La Démocratic Athéniènne**, Paris 1952.
- Finley, M.I: **The World of Odysseus**, Pelican ed, 1965.
- Gardner, Perey: - **New Chapters in Greek History**, N.Y. 1892.
- **Principles of Greek Art**, N.Y. 1914.
- Grote, G: - **Aristotle**. London 1872.
- Glotz, G: - **The Greek City**. London 1924.
- **History of Greece** - Every man Library.
- **Plato and the Other Companions of Socrates**, London 1875.
- Haigh, A.E.: - **The Attic Theatre**, Oxford 1907.
- Hignett, C: - **History of the Athenian Constitusion.** Oxford 1953.
- Homer: Iliad. Tr. by W.C Bryant, Boston 1918.
- **Odyssey**. Text and Tr. by, A. T. - Murry Loeb Library.
- Murray, A.S: - **History of Greek** Sculpture, London 1980.
- **History of Ancient Greek Literature**, N. Y. 1927.



الحضارة اليونانية الهلّينية

أ. د. محمد سهيل طقوش



الموقع والتاريخ

انظـر فيمـا يتعلـق بموقـع بـلاد اليونان وجغرافيتها: الحضارة الميسّينية. وفيما يتعلق بتاريخ بـلاد اليونـان فـي العصـر الهلّيني: الحضارة الهلّينية.

النظام السياسي

(انظر الحضارة الهلّينية)

النظـام الاقتصـادي: لـم تكـن ظـروف الحياة الاقتصادية بأفضل من ظروف الحياة السياسية تغيُّـراً، واللافت هـو توسُّع النطاق الجغرافـي الـذي نتـج عـن فتـوح الإسكندر للشرق، وبدت بوادر تراجع الحياة الاقتصادية واضحـة منـذ منتصـف القـرن الرابـع قبل الميـلاد. فقـد أدَّت عوامـل التعريـة وقطـع الغابـات إلى اكتساح التربـة مساحات واسعة مـن الأراضـي الخصبـة، وجرفـت الأمطـار وفيضانـات الأنهـار كثيـراً مـن تربـة أتيـكا الخصبة علـى مَر الزمـن. وما وافـى القرن الثالـث قبـل الميـلاد حتـى كانـت مساحات واسعـة من هذه الأراضي قـد تعرَّت، واضطر أصحاب كثير من القرى القديمة إلى هجرها. وأخذت غابات بـلاد اليونان تختفـي تدريجاً حتـى اضطـر السكان إلـى استيـراد الخشب والطعام من الخارج، كذلك نضبت المناجم، وكان استيراد الفضة من إسبانيا أرخص من استخراجهـا مـن مناجـم البـلاد، وأضحت مناجـم الذهـب فـي تراقيـا تُغنـي خزائـن مقدونيا وعملتها، وارتفعت أسعار الحاصلات الزراعيـة والصناعية بسبـب تراجع العرض وازدياد الطلب ونمو التـداول النقدي ونشاط المضاربيـن الذي أظهر توجهـاً عارضاً عامّاً نحـو رفـع الأسعـار، غيـر أن عـودة الجنـود والمهاجريـن إلـى البـلاد أدَّى إلـى مرحلـة جديـدة مـن البحبوحـة دامـت حتـى عـام (٢٨٠ ق.م)، تاريخ استقـرار العالم الهليني، فقـام تـوازن اقتصـادي جديـد، وانتظمـت التيارات التجارية، وتدنَّت الأسعار، ودام هذا الوضـع حوالـي ثلاثيـن سنـة حيـث ارتفعت الأسعار مرة أخرى بعد منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

وواجهـت بـلاد اليونـان مشكلـة النقص الحـاد فـي الحبـوب وبخاصـة القمـح، وهو الإنتـاج الرئيس الـذي ارتفعت أسعـاره، ولم يكن لـدى الريفيين منه سـوى كميات فائضة قليلـة للبيع، فبرزت مشكلـة التموين في أكثر من مدينة، واتخذت الدولة إجراءات مناسبة حدَّت من تفاقمها إلا أنها لم تقضِ عليها.

وشهدت بـلاد اليونان، فـي مقابل تراجع إنتـاج القمـح، فائضـاً فـي إنتـاج الأشجـار المثمـرة، الكرمة وشجرة الزيتون، ولم يرتفع سعر الزيت بعد عام (٢٥٠ ق.م).

ولـم تكـن الصناعـة بأوسع ازدهـاراً من الزراعة، ويبدو أن اليونانيين لم ينفتحوا على الأسـواق الشرقيـة، لذلـك بقيـت صناعتهـم يدويـة. وانعـدم وجـود المصانـع الكبيـرة، وانتشـرت الصغيرة منها فـي أثينا وفي جميع المـدن الكبـرى فـي العالـم الهلّينـي، وكان عددهـا يتزايـد باستمـرار كمـا عـدد العبيد الذيـن يعملـون فيها. ولـم تستطـع الصناعة اليونانية منافسة الصناعة الشرقية المتطورة، وصدَّر الشرق إلـى اليونان بعض المصنوعات الكماليـة التي توفـرت له خاماتهـا، أو حصل عليها من الخارج.

وعمدت بعض الحكومات إلى تأميم عدد من الصناعات؛ فاستولت حكومة بيريه على مصانع الملح، وأمَّمت ميليتوس مصانع النسيج ورودس ونيدس مصانع الفخار.

وكسدت التجارة في المدن القديمة وراجت في المدن الحديثة، فازدهرت الثغور اليونانية في آسيا ومصر على حساب ثغر بيريه، واجتازت المبادلات الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، واستفادت خلقيس وكورنثة في أرض اليونان القارية من تيار التجارة الهلِّينية الزاخر، فكان التجار يتردَّدون على هذين البلدين، كما يترددون على أنطاكية وسلوقية ورودس والإسكندرية وسرقوسة، وكانوا ينشرون مع تجارتهم نزعتهم العالمية والمتشككة. وتضاعف عدد رجال المصارف وكانوا يقرضون المال للتجار وللحكومات. وكان في بعض المدن، مثل ديلوس وبيزنطية، مصارف عامة أو وطنية تودع فيها الحكومات أموالها ويديرها موظفون تعينهم الدولة. وفي عام (٣٢٤ ق.م) أنشأ أنتمنيس الرودسي أول نظام معروف للتأمين، وذلك بأن ضمن للملَّاك مقابل عشرة في المائة من إيرادهم ما عسى أن يصيبهم من الخسارة. وكانت نتيجة تدفق الأموال من بلاد فارس وسرعة انتقال وتداول رؤوس الأموال أن تراجع سعر الفائدة وهبط إلى ثمانية في المائة في القرن الثالث قبل الميلاد، وإلى سبعة في المائة في القرن الثاني، وانتشرت المضاربات، فتلاعب بعض المضاربين بالأسعار، فحدَّدوا الإنتاج لرفع الأسعار، وعمد بعضهم الآخر إلى تحديد مقدار الحاصلات الزراعية لتتلاءم مع قدرة المزارعين على الشراء. وكانت أسعار السلع مرتفعة، ولم تستطع الأجور مجاراة أثمان السلع نظراً لانخفاضها، ولم يكن العمل ميسَّراً للعمال على الدوام، وهاجر آلاف الرجال إلى الشرق ليعملوا كمرتزقة أو ليخفِّفوا من فقرهم، لكن تدفق رؤوس الأموال من الشرق يسَّر سبل التجارة ونشَّط الإنتاج فعادت الأثمان إلى مستواها العادي. وازدادت ثروة الأغنياء بشكل فاحش، وكثر العبيد، وعاد الازدهار إلى أثينا كما يتضح من ضرب النقود بكثرة على طراز جديد، وصدر «مرسوم دلفي» بأن تُقبل هذه النقود في كل مكان، لكن هذه النهضة النقدية بقيت محدودة، فالنقود الأثينية التي انتشرت في الشرق انتشاراً واسعاً في عهد الإسكندر تراجعت عمليّاً بعد ذلك. وحلَّت مرافئ أخرى محل مرفأ بيريه كما ذكرنا، مثل رودس في جنوبي بحر إيجة على طريق محورية تبدأ من البحر الأسود شمالاً إلى سوريا ومصر جنوباً، وقد برزت أهميتها منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، فصدَّرت الزيت والنبيذ في القوارير الرودسية، وقد اكتشفت حتى في هضبة إيران وفي قرطاجة، وخزَّنت في مستودعاتها منتجات العالم المتوسطي التي تولَّت توزيعها ما أتاح لها جني الأرباح الطائلة.

وبرزت جزيرة ديلوس بعد جزيرة رودس، وتقع في قلب جزر السيكلايد، لذلك عُدَّت مقدسة، وساد الاعتقاد بأن البضائع ورؤوس الأموال تكون فيها بمأمن من أعمال القرصنة والحرب، وغدت في العهد الروماني مركزاً تجاريّاً مهمّاً.

والواقع أن اليونان القديمة لم تُصدِّر فعليّاً سوى علوم أساتذتها في الفلسفة والبيان وروائع لغتها، ولم تكن أثينا ورودس بعد ذلك سوى مدن جامعات ومتاحف، وتاجرت الإسكندرية والمرافئ الآسيوية مباشرة مع روما.

وقد خلق نظام الحياة الهلِّينية الجديد، الذي أسفرت عنه الإصلاحات الثورية التي قام بها كل من فيليب وابنه الإسكندر؛ مجالات عديدة لنشوء حِرَف لم تكن معروفة في ظل أنظمة دول المدينة، فكان في وسع اليوناني أن يعمل بالتجارة والمهن والفنون الحرة في المدن الجديدة التي قامت في الشرق وفي مصر، وهو مطمئن إلى ضمان حريته الفردية.

النظام الاجتماعي

الطبقة الغنية: كان للظروف الاقتصادية التي عاشتها بلاد اليونان ردٌّ فعل على المجتمع اليوناني، فقد كثرت أعداد الأغنياء، ونمت الطبقة الوسطى التي تتميز بثراء مريح يسمح للشخص بأن يعيش مع عائلته حياة معتدلة مع بعض العبيد الذين يخدمون في المنزل. ويبدو أن مصدر هذا الثراء، المكاسب التجارية والنشاطات المثمرة في الشرق، ولا تُؤمِّن مهن الطب والمحاماة والتعليم سوى ثروة كافية للسمو بالعائلة إلى المجتمع الراقي، غير أنه من الواضح أن الازدهار الاقتصادي الذي تحقَّق في أوائل العهد الهلِّيني، ودخول رؤوس أموال من الشرق، والخدمة في الإدارات العامة والجيوش الملكية؛ كانت الأسباب الرئيسة لنمو هذه الطبقة، وعندما نضبت موارد الإثراء، اعتمد اليونانيون على فوائد أموالهم، وقد تمَّ ذلك بفعل توظيفها في المشروعات الزراعية والتجارية، وسكن أفراد هذه الطبقة المدينة وأداروا شؤونها، ولم يكن للمواطنين الفقراء في ذلك سوى دور ثانوي.

الطبقة الدنيا: استمرت الطبقة الاجتماعية الدنيا في عيشتها كما في الماضي في ظروف مادية قاسية. لقد تأثر الفلاحون والصناعيون سلباً بمنافسة حاصلات الشرق ومصنوعاته وهبطت الأجور، لذلك كان العمل أمراً واجباً على كل شخص في العائلة كي يؤمِّن قوت يومه، وعلى الرغم من تضافر هذه الجهود فإن البؤس كان في أغلب الأحيان شديد الخطورة. ولم تنضب مصادر الارتزاق اليونانية، فقد استمر الارتزاق في اليونان القديمة حتى القرن الثالث قبل الميلاد ظاهرة اجتماعية استفادت منها الملكيات الشرقية، لكن الارتزاق أخذ يتراجع بعد ذلك تدريجاً بفعل تراجع الطلب على تجنيد المرتزقة أو تراخي الروابط السياسية بين الملكيات واليونان أو منافسة البرابرة، وهم محاربون لا يكلفون كثيراً، أو بفعل افتقار الملكيات، ولم يكن احتلال الإسكندر للامبراطورية الفارسية، الذي أتاح لليونانيين الهجرة إلى الشرق بأعداد كبيرة، العلاج الشافي لهذا الداء لأنه لم يُصلح لمدة طويلة الحال الاقتصادية والاجتماعية في اليونان. وكان الأساس في النظام السياسي الذي تبنَّته أثينا بعد جلاء الحامية المقدونية عنها هو مساندة أصحاب المداخيل الثابتة وحماية حقوق الملكية.

طبقة العبيد: كان النشاط الاقتصادي في بلاد اليونان في تراجع مستمر، واستتبع ذلك نقص في الحاجة إلى الأيدي العاملة، ومما لا شك فيه أن العرض في أسواق الرق قد ازداد بشكل ملحوظ، واتسع نطاق التزود بهم بفعل الحرب والقرصنة، ولكن أسعار العبيد لم تتدنَّ.

كان العبيد في تزايد مستمر في المناطق الشمالية والشمالية الغربية، كالأبيروس بسبب حداثة عهد الحضارة المدنية فيها، أضف إلى ذلك أن العبيد الذين يمتلكهم أفراد الطبقة الوسطى الميسورة كانوا في غالبيتهم منزليين يُرهق استخدامهم أرباب رب العمل لكن يُخفف عن المرأة أعباء الأعمال العائلية التي كانت تنهض بها، لذلك ينبغي أن نُفرِّق بين حالتَي العبد العامل لحسابه الخاص والعبد المحرَّر.

الواقع أن التحرير الفردي أخذ يشق طريقه إلى أخلاق الإغريق، ويدل ذلك على نمو روح التساهل من جهة وعلى أن سيد العبد يستفيد من تحريره، إذ يحدث ذلك عادة مقابل مبلغ من المال. والراجح أنه قام اتفاق مسبق بين السيد وعبده، فالأول يرضى بثمن تحرير عبده ويستفيد منه، وينبغي للثاني الذي يتحرر أن يكون قد جمع بعض المال وتصرَّف في عمله المتفاوت بحرية أكبر تُدنيه من تحقيق الربح، فإن العُرف الذي سمح للعبد بأن يعيش على حدة، والذي طُبِّق في أثينا، قد عرف الانتشار والشمول، والمفروض في العبد حتى يرتبط بتعهدات ويقوم بتنفيذها أن يكون متأكداً بعد تحريره من أن يجد عملاً يدرُّ عليه ربحاً.

وكان وضع العبيد في أثينا قد أخذ في التحسُّن منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد، ويعود الفضل في ذلك إلى تحمُّل طبقة الأغنياء تكاليف صيانة الأسطول الأثيني، ودفع الضرائب المتنوعة ومنها المفروضة على رأس المال، ما أرهق أفرادها الذين اضطروا للتنازل عن بعض الترف وبخاصة الاحتفاظ بالعبيد من أجل الخدمة الخاصة في منازلهم، فيلتحق هؤلاء بعمل منتج مادياً ويتحولون إلى مصدر ربح بعد أن كانوا عبئاً ثقيلاً على ميزانيتهم.

وأدى انهيار النظام الاجتماعي في بلاد اليونان إلى تضرر ثلاث فئات على الأقل.

الأولى: فئة العبيد الذين يعملون بالزراعة والصناعة. ففي حين أن الغُنْم كان من نصيب العبيد الخصوصيين الذين يخدمون في المنازل، كان الغُرْم من نصيب العبيد الذين يعملون بالزراعة والصناعة. ولما كان الرق في جميع الأحوال نظاماً غير إنساني إلا أن ما يُخفِّف من بشاعته تلك العلاقة الشخصية التي تنشأ عادة بين السيد وعبده، وهذا هو السبب الذي وضع العبيد الخصوصيين في ظروف أفضل من العبيد الزراعيين والصناعيين، والذين تفاقم بؤسهم في العالم الهليني نتيجة لاتساع نطاق المعاملات التجارية بحيث باتت علاقاتهم بساداتهم غير شخصية وتتسم بالقطيعة والجفاء.

الثانية: الأيدي العاملة الزراعية في الملكيات الشرقية التي ضُمَّت إلى مجتمع العالم الهليني نتيجة لفتوح الإسكندر، ويُذكر أن أوضاع هؤلاء العمال، الذين كانوا أحراراً

مـن الوجهـة القانونيـة وعبيـداً مـن الوجهة العمليـة؛ لم تكـن في ظـل الحكـم الفارسي سيئة.

الثالثة: الفلاحون الأحرار الذين يقطنون الأقاليـم القديمـة مـن العالـم الهلّيني، ففي صقليـة بـات الفلاحون الأحـرار يشعرون في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد بأن أوضاعهم قـد أضحت أسوأ من أوضـاع الرقيق أنفسهم الذين يعملـون في المستعمرات الزراعية وفي المصانع.

وهكذا كان المستفيـدون من انهيار نظام دولة المدينة لا يمثلـون سوى أقلية ضئيلة في عالم هلّيني شغل رقعـة جغرافية واسعة، ومع ذلك فقـد كانـت هـذه الأقلية هـي الحاكمة والفاعلة، غير أن هـؤلاء كان عليهم أن يؤدوا ثمـن مكاسبهـم، فقد كانـت المطالـب التي فرضتها دولـة المدينـة على الأفـراد فادحة وزادت من حدة التوتر في الحياة الهلينية، إلا أن التخفيـف من هذا التوتـر قد سلب الحياة بعـض لذّاتهـا وقِيَمهـا، فقـد وجـد الأفـراد أنفسهم وقد تحرروا مـن قيود دولة المدينة، إلا أنهم لم يكونـوا قد أنشأوا بعد علاقة ولاء جديـدة تجـاه شـيء آخـر، وهكـذا كان ثمن التحرر من طغيان المدينـة الدولة هو الفتور في الإحساس بالغيرة والولاء.

الآفّات والاضطرابات الاجتماعية

كان الوضـع الاجتماعي في بـلاد اليونان علـى جانـب كبير مـن الخطورة، فقـد تدنى عدد السكان بفعل عزوف الرجال عن الزواج وعـن تربيـة الأولاد حبّاً بالمـال وحرصاً على الحفاظ على الثروة، وإذا مـا أنجبت الأسرة ولداً أو ولدين قضى عليهما الحرب والمرض، وهكـذا أقفرت بيـوت عديـدة. واتخذت مدن عـدة، من أجل زيـادة عدد مواطنيهـا، قراراً بقبـول الأجانب فـي مجتمعهـا وضمَّتهم إلى الطبقـة الوسطـى. وهناك خصيصـة أخرى هي أن اليونان كانت منطلقاً نحو الشرق الذي احتلـه وأداره ملـوك يونانيـون، وانتشـر فيـه واستثمـره الإغريـق من خلال هجـرة عارمة حرمتهـا من عناصـر فتية مـن أبنائها، وبدا ذلـك واضحاً في أوسـاط الطبقة المتوسطة، ذلـك أن الصعوبـات الاقتصاديـة المتزايدة التي شهدتهـا بلاد اليونان، لـم تبقَ من دون نتيجـة، فقـد ظهـر أثـر التأخـر الزراعـي والصناعـي والتجـاري فـي أوسـاط الطبقـة نفسهـا، وعندمـا نضبت المصـادر الطبيعية للإثراء وجـد هـؤلاء أنفسهـم مرغمين على عدم زيـادة عددهـم إن هـم أرادوا الحفاظ على مستـوى الغِنى الذي بلغـوه، أما الفقراء الذين لم ترافق مواردهم ارتفاع الأسعار فلم يتمكّنـوا مـن العيـش إلا فـي ظـل الحرمـان وبخاصـة إنجاب الأطفال. وهكـذا فإن نقص الرجـال قد زاد بدوره مـن انحطاط اقتصاد البـلاد، وذلك بتراجع طلب السـوق الإقليمية التي كانت من أفضل الوسائل لسَد حاجاتها.

وهنالـك آفة أخرى لا تقل خطورة عن آفة نقـص الرجـال، وأعنـي بهـا خطـر الثورات الاجتماعيـة التـي بـرزت بعـد هـدوء العهد الكلاسيكي، ولـم تحدث إلا فـي وقت متأخر مـن العهـد الهلينـي، متأثـرة بالثـورات التي اندلعت في صقلية وآسيا الصغرى بين عامَي (١٣٥ ـ ١٣٣ ق.م)، ولكـن الثـورات الخطيرة هـي التي قـام بهـا الأحـرار والعبيـد الذين

وحّدهم البؤس والحقد ضد الملاّكين، غير أن العمل الثوري لم يكن منظماً، ونادراً ما كان منسجماً وغير منقطع، لذلك تحطم على صخرة مقاومة الطبقة الوسطى الغنية والتدخل الأجنبي، ولنا في الثورة الاجتماعية التي اندلعت في إسبرطة والتي أفضت إلى اضطرابات عنيفة، في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد، خير مثل على ذلك، والواقع أنها اندلعت بسبب التناقض في الوضع الاجتماعي بين الطبقة الغنية والطبقات الدنيا والفقيرة.

والواقع أن المشكلة الاجتماعية في اليونان القديمة في العهد الهلّيني لم تكن منعزلة ومستقلة بل تداخلت مع عوامل سياسية داخلية في جوهرها، وخارجية وافدة، وهنا تكمن خطورتها، لأن الخوف من العدوى قد أدى دوره في العلاقات الدولية فاستفادت الدول الكبرى الأكثر اتصالاً بالشؤون اليونانية، أي مقدونيا وروما، من هذا الارتباك الذي خلقته هذه المشكلة، فساند الملوك المقدونيون هذه النزعة الثورية من دون تحفُّظ بهدف الاستفادة من المنافع الفورية واستقطاب الحلفاء، في حين أبدت روما نفوراً ظاهراً في أغلب الأحيان من محاولة تغيير النظام التقليدي، لكنها تورطت في بعض الأحيان في تسويات أملتها عليها انتهازيتها. واضطر الحكام اليونانيون الذين قاسوا من هذا الانقسام إلى الاختيار بين مخاطر الثورة الاجتماعية وبين السيطرة الأجنبية، ولكنهم لم يتمكّنوا من التخلُّص من هذا الاختيار إلى أن وقعوا تحت الحماية الرومانية.

الدين: عجَّل فشل نظام دولة المدينة في تراجع الالتزام بالمعتقدات القديمة، ذلك أن آلهة المدن قد ثبت عجزها عن حماية الناس والمدينة فتزعزع إيمان المواطنين بها، وما جرى من اختلاطهم بالتجار الأجانب الذين لم يكن لهم نصيب في حياة المدينة، المدنية والدينية؛ أدى إلى حدوث تغييرات مهمة في معتقداتهم وطقوسهم الدينية لم تعرفها الديانة اليونانية القديمة المتمثلة بآلهة الأولمب والمدن، وقد برزت عيوب هذه الديانة القديمة واضحة من خلال:

- عدم الاستجابة لاضطرابات قلب الإنسان وعقله.
- اقتصرت تعاليمها على الأخلاق الفردية البدائية متخذة في غالب الأحيان شكل صفقة تجارية يعقدها المؤمن مع الإله.
- تركت الفرد من دون سند ووعد وأمل أمام الموت.
- لم ترتبط ارتباطاً جديداً بمفهوم عام للكون وجوهره ونظامه.
- ضعف الإطار البشري الذي ارتبطت به والناتج عن ضعف المدينة.

وقد برهن إخفاقها السياسي أن الآلهة الذين التُمِست منهم الحماية لم يستطيعوا تأمين السلامة والسعادة لمواطنيهم، وقد شذَّ عن هذا الفتور الآلهة الأولمبيون الذين كانت رابطتهم بآلهة المدن أوثق، وبخاصة زيوس الذي بدا وكأنه لم يتأثر به، وكذلك ديونيسوس الذي تمتع بتعلق أشد قوة، ولعل السبب في ذلك أن أسماءهم قد استُخدمت لاستغراق آلهة شرقية. وبقيت أساطير الآلهة المحلية القديمة منتشرة بين الفلاحين

والسذّج من سكان المدن، وظلّ المثقفون يستخدمونها في الشعر والفن، وفي المقابل أخذ الذين تحرَّرت عقائدهم من سلطانها يهاجمونها بعنف، غير أن الطبقات العليا ظلّت تستمسك بها وتستعين بها على حفظ النظام ومقاومة الإلحاد الصريح.

وأدَّى قيام دولة اتحادية كبيرة إلى حدوث تجديدات متفاوتة الأهمية لإرضاء ميول البشر وعواطفهم، منها:

- توحيد الآلهة واندماجها.

- العبادة الملكية والسلالية التي تتوافق مع نظرية الإنسان المتفوق الذي يُمثّل بالألوهة التي يمتلك قوتها، لكن هذه العبادة لم تملأ، مع ذلك، الفراغ الروحي الذي كانت تعاني منه النفوس الهلّينية.

- عبادة إله الحظ الذي نقلته الديانة الشعبية عن الفلسفة، وتحديداً عن المدرسة المشائية، وقد مثّل خطّاً عامّاً ارتبط به مصير الإنسانية. وتأثّرت عبادة هذا الإله بالتأثيرات الشرقية عن طريق مفهوم الإله السامي الخاص بكل مدينة. وفي ظل الاضطراب السياسي الذي ساد بلاد اليونان بعد وفاة الإسكندر، راح الناس يبحثون عن الخلاص بقلق شديد بعد أن خيَّبت المدينة الدولة آمالهم بحصوله، وقد عبَّروا عن هذه النزعة بنظرية المُخلِّص الذي أُطلق آنذاك على الآلهة القدامى والجدد والكثير من الملوك المؤلّهين.

لقد ابتهل الهلّيني إلى الإله الشافي أسكليبيوس للتخلص من الآلام الجسدية، وإلى الآلهة المخلّصين والرحماء، أولئك الذين استطاعوا طمأنة الإنسان القلِق حيال أخطار الحياة الثانية بعد الموت، وذلك من خلال وقوف المؤمن على أسرارهم. وقد سبق للحضارة اليونانية التقليدية أن عرفت هذا الشكل من الحياة الدينية التي انتشرت بشكل لافت في معابد يونانية وشرقية، وقد وجد فيها الإنسان تهدئة لاضطرابه وقلقه، فإنه كان يحضر قيامة إله ميت فيقف بذلك على أسرار الموت والتجدد، ويمكنه بعد سلسلة من التطهيرات الجسدية والنفسية أن يتمثل بالإله ويشترك في طبيعته الإلهية، وكان يتعرض لحالات نفسية جديدة، مثل الضعف والهزال من كثرة الصوم والتعبُّد، ومحبة الإله المتألم ما يُدخل الذهول إلى قلوب الناس بمَن فيهم أصحاب الطباع الخشنة، كما كان يواجه مفهوماً جديداً لم تتعرض له العبادات اليونانية كمفهوم الخطيئة والطهارة الجسدية والأدبية، وقد وفَّر له كل ذلك بالإضافة إلى الوعود تنمية حياته الداخلية القلقة التي عُدَّت الآن مستنيرة ومستقرة.

واقتبس اليونانيون العبادات الشرقية، وهذا اعتراف ضمني بقصور معتقداتهم الخاصة، غير أنهم أخضعوها للعقل، مثل عبادة ديونيسوس في أثينا وعبادة إيزيس في بيريه. وتبدَّل الوضع بعد ذلك حين غزت الآلهة الشرقية بلاد اليونان على نطاق واسع ما أتاح لليونانيين تنمية نفوسهم وأرواحهم ودفعتهم إلى نزعة غريزية للبحث عن إله كلي القدرة يستجيب لصلوات الناس، وهكذا فُتحت الطريق، وإن بصورة غامضة، أمام التوحيد.

وحاول الفلاسفة أن يصوغوا للأدباء مذهب وحدة الوجود في صيغة لا تتعارض

تعارضاً صريحاً مع العقائد الثابتة القديمة، وهذا ما أقدم عليه أوفمروس أحد سكان مسينا في صقلية حوالي عام (٣٠٠ ق.م)، غير أن هذه الخطوة كانت السبب في نشر النزعة الإلحادية في بلاد اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد.

الواقع أن الإنسان لا يستريح للتشكك لأنه يترك قلبه وخياله فارغين ما يجذب إليه عقيدة جديدة. وقد مهّدت انتصارات الفلسفة والإسكندر السبيل إلى دخول العقائد الجديدة إلى بلاد اليونان. وسادت أثينا عقائد دينية غريبة تبشر بالجنة وتُنذر بالنار ما أثار الفيلسوف أبيقور فندَّد بالدين الذي رأى أنه يتعارض مع طمأنينة العقل ومتعة الحياة. وشُيِّدت المعابد الجديدة فيها لإيزيس وسرابيس وبنديس وأدونيس وغيرها من الأرباب الأجانب، وكانت تَعِد الناس، على اختلاف طبقاتهم، بالخلود في الدار الآخرة. وانتشرت الخرافات والأوهام في الوقت الذي بلغ فيه العلم أوجه، وانتعش علم التنجيم على أثر انتشار التجارة مع بابل، وكان من المسلَّم به أن النجوم آلهة تتصرَّف في مصير الإنسان والدول، فخلق الإنسان كان يحدده الكوكب الذي وُلد في مطلعه.

لقد قامت الحضارة اليونانية القديمة على الإخلاص لدولة المدينة، وكانت العقائد الخرافية من أقوى العوامل في تدعيم المبادىء الأخلاقية، ولكن المثقف اليوناني قد خسر عواطفه ووطنيته، ومحت الامبراطوريات الحدود المدنية، وأضحت المبادئ الخلقية والأحوال الشخصية والقوانين من الأمور الدنيوية.

الفنون: خضعت الفنون اليونانية لتجديد عميق الجذور نشأ عن التوجه الذي وفَّره المَيْل نحو إحساس جديد، فأُدخلت عليها معانٍ روحية وقدرة على التأثير الديني، فاصطبغت الوجوه والمشاهد الطبيعية بصبغة صوفية، وتحسَّنت الظروف المادية للحياة الفنية بشكل كبير، واستمرت نزعة تزيين المدن وتجميلها.

وأفضت طلبات البذخ المتزايدة للملوك وحاشياتهم ونمو الطبقة الوسطى الغنية؛ إلى ازدياد الطلب على البذخ الكمالي واللذة في الحياة الخاصة والعامة ما أدى إلى ارتفاع عدد الفنانين المهنيين.

عرفت هندسة العمارة الهلِّينية القوس والعقد والقبة المستعملة في الشرق، ولكنها لم تستخدمها إلا نادراً متمسكة بالأساليب التقليدية التي جهدت في إتقانها. ويبرز هذا التوجه في طراز المعابد، وقد أملته حال التقوى المنتشرة في المجتمع الهليني، ونلمس في تزيينها ما ينمُّ عن الغنى والتباهي. وأهمل الفنانون القياسات الضخمة، وبقيت الأبنية المستهجنة الطراز نادرة جدّاً، ولعل أبرز مثَل عليها هو معبد ديديموس، ولا يمكننا أمام هذا الخروج عن المألوف إلا أن نفكر بطراز المعابد الشرقية وبخاصة المصرية.

وبرز في المقابل طراز يوناني جديد غايته دينية، مثل المذبح الضخم لزيوس المخلِّص في برغاموس. لكن هندسة العمارة الهلينية لم تنفر مبدئيّاً من الإنجازات الضخمة وغير العادية بقياساتها وهي تتوافق مع الوقائع السياسية والجغرافية والمالية السائدة، ولنا في تمثال رودس الجبار خير

مثل على ذلـك، وهو يمثل إله الشمس هليوس إلـه المدينـة، وقـد صُنـع بواسطـة معـدات وقدرات ضخمة.

وشهد العالم الهلّيني نزعتان تجديديتان:

الأولى: هندسة تناولـت العمارة، وتمثّلت بالبيـوت، وكثرتهـا الغالبـة ضيقـة وفقيـرة ازدحمت فيها عائلات الطبقة الشعبية، وبرز إلـى جانبهـا طراز سكنـي جديد فيمـا سُمِّي بالبيـت الهلينـي تمييـزاً لـه عن بيـت العهد التقليـدي، وقد روَّجته الطبقة الوسطى الغنية لإدخـال البهجة على حياتهـا اليومية. ويشغل البيـت الهلينـي مساحة أكبـر، ويتمتع بحُسن التهويـة وهو مزيَّن أيضـاً تحيط به الحدائق، ورُصفـت أرضـه بالفسيفسـاء التـي اعتُمدت فيهـا الرسوم الهندسيـة وموضوعات تزيينية أخـرى، وأُلبس القسم السفلي مـن الجدران بالرخـام، ولـم يظهـر أي تغيير فـي عناصر المدينة التقليدية، واستمـر الملعب والمسرح وغيرهمـا، الإطـار المـادي لحيـاة الإغريـق الجماعية.

الثانية: تناولت مفهـوم المدينة ووحدتها ككائن مـادي، فجُمعت العناصر المستقلة كي تؤلـف وحدة في القيـاس، وقـد صُمِّمت وفقاً لمخطـط أخـذ بعيـن الاعتبـار توسُّعهـا في المستقبل، وأُحيطـت الساحات العامة بأروقة تتوافق مـع متطلبات المناخ الشرقي، وأُنشئت المجاري والأقنية لتأمين حاجات المدينة من الميـاه. وبـرز البـذخ فـي الأبنيـة الجديـدة والمعابـد والمذابـح والملاعـب والتماثيـل البرونزيـة والرخامية، وخُطِّطت الشوارع على الطـراز الرباعـي، وكان منها شـوارع رئيسة عريضة تتناسـب مع الخيـل والمركبات التي كانـت وسائـل النقل فـي تلك الأيـام. وكانت مدينـة أزميـر تزهـو بشوارعهـا المرصوفة، والراجـح أن معظـم شـوارع المـدن الهلينية كانت أرضاً معبَّدة.

وطرأ تغيير واضح على الفنون التصويرية مـردُّه إلـى الظـروف الماديـة مثـل تضخُّـم الثروة، التنافس بين الجماعات ومَيْل الأفراد إلـى التباهي؛ مـا أحـدث ازديـاداً مُلْفِتاً في الطلب على المصنوعـات الفنية، وكان لذلك أيضـاً أثـره الطيب فـي حيـاة الفنانين وفي مرتبتهم الاجتماعية، فارتفع عددهم، وزادت أوقـات عملهـم، وتحسَّـن إنتاجهـم، وظهرت تجارة المصنوعات الفنية.

والواضـح أن الفنـون التصويرية بما فيها النحـت خضعت لنزعات مشتركـة تتوافق مع ميـول مجتمـع متطور ماديّـاً وأدبيّـاً. وعبَّرت واقعية الصورة عن الفردية العامة التي تنظر إلـى الإنسان على أنه مثال مجـرد، مع الميل إلـى الجمال المفرط حتـى الإباحية، كما في تماثيل أفروديت. وفرضت نماذج أناقة تماثيل ديونيسوس طفلاً ويافعاً، وجلال تماثيل زيوس الملتحيـة، وعضـلات هرقـل القويـة؛ أمثلـة اصطلاحية.

وظهـر أثر الإيمان الديني جليّاً، وقد تميَّز بمزيد مـن العاطفـة الصوفيـة. واستمر إلى جانب هذا التجديـد، تقليد الماضي، وتراءت بعـض النزعات المحلية في هـذا الفيض من الإنتـاج، لكنها لـم ترقَ إلى مرتبـة المدارس الفنية.

تجلَّت هـذه الحال بوضوح فـي برغاموس من خلال النقوش التي جسَّدت النزاعات بين الملوك الإيطاليين وبيـن الغلاطيين الكلتيين

الذين غزوا شمالي بلاد اليونان وأقاموا في قلب الهضبة الأناضولية، وأشارت إليها إما بشكل مباشر أو بإشارة رمزية. ولعل الإنتاج الأعظم هو الإفريز الذي ازدان به أساس مذبح زيوس الضخم والذي يتمثَّل فيه العنف بحدِّه المفرط في المحاربين من خلال تشنُّج الأوجه، والعضلات المنكمشة. وتبرز براعة الفنانين في تنوُّع الأمثلة البشرية، والمشاهد الكثيرة مثل دقة رسم الأسلحة والملابس والأحذية في تمثال رودس الضخم. ويبدو أن تحريك العواطف قد بلغ أوجه في رودس، وأشهر الإنجازات فيها مجموعة اللاوكون والأجسام المتشنجة بفعل تأثير التفاف الثعابين عليها ونهشها. ومن الفنون التصويرية التي تُبرز معنى الحركة العنيفة والعواطف، تلك الفسيفساء التي تُمثل هجوم الإسكندر الصاعق على داريوس الثالث في معركة إيسوس.

وبلغت صناعة التماثيل في العصر الهلِّيني حدّاً لم تبلغه في أي عصر من العصور. فقد غصَّت الهياكل والقصور والدور والشوارع والحدائق والبساتين، بالتماثيل التي تصور نواحي الحياة البشرية كافة، وكثيراً من مظاهر العالم النباتي والحيواني. وخلَّدت تماثيل نصفية الموتى من الأبطال والمشهورين من الأحياء، وانتهى بأن نحتت من الحجارة تماثيل للمعاني المجردة كالحظ والسلام والنميمة والفرصة السانحة. لقد وضع يوتكيديز السكيوني تلميذ ليسبوس لمدينة أنطاكية تمثال الحظ جسَّد فيه روح المدينة وأملها. وواصل تماخوس تقاليد النحت الأثيني الظريفة. واشتهر دمغون المسيني في البيلوبونيز بمجموعته الضخمة والمكونة من الثلاثي دمت وبرسفوني وأرتميس.

ونشأت في جزيرة رودس في القرن الثالث قبل الميلاد مدرسة في النحت ذات طابع خاص. فقد كان في الجزيرة مائة تمثال ضخم انتشرت شهرتها في الآفاق، كان أعظمها تمثال من البرونز لهليوس إله الشمس صنعه خاريس اللندوسي حوالي عام (٢٨٠ ق.م) يعلو إلى ارتفاع مائة وخمسة أقدام، ويوحي هذا الحجم بأن ذوق أهل رودس كان يتجه نحو المظاهر الضخمة والفخمة. ولعل الرودسيين كانوا يستخدمونه منارة للسفن ورمزاً للحرية التي كانت تتمتع بها الجزيرة، وقد هدمه زلزال حدث بعد ستة وخمسين عاماً من إقامته.

ويضارع هذا التمثال في شهرته التاريخية مجموعة أخرى من صنع المدرسة الرودسية تُعرف باسم اللاوكون، وهو اسم كاهن طروادي نصح الطرواديين بألاّ يقبلوا الحصان الخشبي حين بعث به اليونان إليهم، وقد نحتها أجسندر وبوليدورس وأثينودورس من قطعتين كبيرتين في القرن الثالث أو الثاني قبل الميلاد.

وكان للدين والموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف في المعابد وفي تماثيل الآلهة.

وتقهقر في العهد الهلِّيني فن التصوير على الخزف بفعل ثلاثة عوامل هي:

الأول: كثرة إنشاء المصانع في العالم الهلِّيني في داخل بلاد اليونان وخارجها.

الثاني: استخدام يد عاملة أقل مهارة.

الثالث: تفضيل الناس الأواني المعدنية التي تدفقت على بلاد اليونان بفعل الحروب في الشرق.

ونُقشت على البرونز والفضة مشاهد ناتئة تُعبِّر عن ذكريات فكرية ودينية ومدنية. وتدنَّت دقة صنع التماثيل الصغيرة التي كانوا يصنعونها من التراب. واحتاج سبك المعادن ونقشها وتزيينها إلى مهارة وتقنية وفنانين بارعين، وتفوَّقت الإسكندرية على برغاموس ومدن فينيقيا في هذا الإنتاج الشرقي.

الحياة الثقافية

كان نشر الثقافة اليونانية جديّاً في أنحاء القسم الغربي من امبراطورية الإسكندر، وتقع على عاتق الإغريق أنفسهم مسؤولية حصر ذلك في بعض الفئات الاجتماعية، ولم يكن هناك بعد لغة يونانية موحدة بل لهجات يونانية متعددة، منها الدورية والأيونية بالإضافة إلى لغات كتابية عدة أخرى. وكانت اللغة الأتيكية أعظم لهجات الثقافة في العالم اليوناني، لذلك انتشرت تدريجاً في بلاد اليونان بعامة مُشكِّلة لغة مشتركة، ومن ثمَّ أضحت لغة الدواوين والإدارة، واستُعملت في المدن المجدَّدة والجديدة، وسهَّلت انتشار الحضارة في أوساط الشرقيين، لكنها لم تنتشر في الأرياف.

ويُشكل الانتشار الثقافي أحد ميزات العهد الهلِّيني الرئيسة، ولم تعد الثقافة وقفاً على جنس واحد، فقد شاركت المرأة الرجل في النشاط الثقافي، ويُعد العهد الهلِّيني بداية تحررها الفكري، وكانت لها إسهامات في الأدب والعلم والفلسفة والفن، مثل أرسطوداما الأزميرية التي أنشدت شعراً انتشر في أنحاء اليونان، وكانت تُقابَل، أينما حلَّت، بمظاهر التكريم. ولم يتردَّد بعض الفلاسفة كأبيقور في قبول النساء في مدارسهم. وضغطت هيبارخيا على والديها فتزوجت من الفيلسوف كراتيس، وعاشت مثله عيشة علنية، وقبلت الدعوات إلى الولائم، وناقشت الحضور في الفلسفة والآداب.

ومن حيث أن الثقافة لم تعد وقفاً على جنس واحد، فهي لم تعد بالتالي وقفاً على نخبة محدودة، ولعل لذلك علاقة بالواقع الاجتماعي الذي تمثَّل آنذاك بانتشار الطبقة الوسطى الغنية وتطور أذواق أفرادها واتساع أفق تفكيرهم وعلاقاتهم الاقتصادية، وقد اجتهدوا في أن يُنشِّئوا أولادهم على التربية الفكرية، فتعدَّدت نتيجة ذلك المدارس ووُضِع نظام مدرسي انتشر في أنحاء البلاد. وكان هذا التنظيم المزدوج أحد الإنجازات المهمة في العهد الهليني، باستثناء ما جرى في كريت وإسبارطة حيث عُهد بالتربية إلى المدينة من دون غيرها.

غير أن هذه الثقافة لم تكن إلا ثقافة متوسطة لكنها متخصصة، أما التقدم الفكري الحقيقي فقد تمَّ على مستويات أخرى بالبحث الخلَّاق الذي تعهدته نخبة معينة. واشتهرت مؤسستان ساهمتا في نشر وتطور الإنتاج الفكري، هما المتحف ودار الكتب وقد لاقتا تشجيعاً من جانب الملوك.

أما المتحف فهو معبد آلهات الفنون الحرة، وكان من الطبيعي أن تحظى بإكرام رجال الفكر، فخُصِّص لهن مذبح على الأقل في حدائق الأكاديمية (المجمع العلمي)

والليسيه (المدرسة) حيث علَّم أفلاطون وأرسطو في أثينا، وعمل تلامذتهما من بعدهما على ديمومة هذه المدارس التي كانت في الوقت نفسه معاهد أبحاث.

واستلزم جمع المخطوطات عملية تنسيق ومقارنة، وقد أدَّى إنشاء دار الكتب تسهيل هذه المهمة بحيث جعلتها في متناول اليد، وقام بهذا العمل رجال فكر من الطراز الأول أمثال كليماخوس وإيراتوسثينوس.

وقامت دراسات نظرية وعملية في علم البيان وعلم الصرف والنحو وفقه اللغة وعلم تاريخ الأزمنة الذي يبرز فيه أثر الروح العلمية.

واضطر العلماء بسبب افتقارهم إلى أدوات القياس والمجهر والمرقب إلى الاعتماد على حواسهم وعلى عقولهم لاستنباط النتائج العلمية، فقد لاحظوا حركة المد والجزر في البحار، فاكتشف بعضهم مثل بيتياس أنها مرتبطة بالقمر. وكانت كروية الأرض أمراً معترفاً به إنما سعوا لتحديد قياساتها. وبفضل هذا التقدم بُذلت الجهود في وضع الخرائط. فوضع إيراتوسثينوس بواسطة الإحداثيات الحسابية خريطة عامة للكون. ولا شك في أن علم الفلك استفاد من الملاحظات المتكدسة في المعابد البابلية.

وأخضع أوكليدس في الرياضيات، الجبر الهندسي لقواعد قياسية مترابطة ودائمة. وكانت لأرخميدس الصقلي اكتشافات في الرياضيات والطبيعيات، ووضع بصورة خاصة مبادىء حساب الكمية الصغرى وعلم توازن السوائل وضغطها.

واستفاد علماء النبات والحيوان الشرقيون من الاتصال بالعالم الغربي وبخاصة مدرسة أرسطو، فوضع ثيوفراستوس جغرافية النبات ومؤلَّفاً في علم النبات. وأقدَمَ علماء التشريح في الإسكندرية على تشريح جثث الموتى، ووقفوا على بعض الأمراض واستنبطوا علاجاً لها، ولم يتردد الجراحون في إجراء عمليات جراحية مهمة. واعتُمدت ثلاث مدارس طبية هي: طرائق الشفاء والصحة والاختبارية. وأهملت هذه الأخيرة التشريح والنظرية واكتفت بالبحث عن الأدوية، وتوصلت أحياناً إلى اكتشاف أدوية مهمة.

ولازم العلم اليوناني الفلسفة منذ نشأته، وبقيت أثينا المركز الرئيس للنشاط الفلسفي، ففيها قامت الأكاديمية الأفلاطونية والكلية المشائية المرتبطة بأرسطو، وألقى الفينيقي القبرصي زينون فيها دروسه في الأغوار تحت الرواق والذي أُطلق اسم الرواقية على تعاليمه ومذهبه، وفيها جمع الأثيني أبيقور تلاميذه في الحديقة التي ما زالت اسماً لمدرسته. غير أن النظريات الفلسفية فقدت الكثير من إخصابها بعد الازدهار الذي عرفته في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الثالث قبل الميلاد، ولم يبقَ سوى الحرارة الأولى التي استطاع العهد الهلِّيني بفضلها تنمية التراث الذي استلمه من العهد الكلاسيكي، ومع ذلك ظهر عدد من الحركات الجديدة ترتبط أولاها مباشرة بأنتيستنيس، وهو أحد تلامذة سقراط، ومن تعاليمه القول إن من المستحيل إصدار أحكام ذات معنى، ففقد بذلك ثقته بالفلسفة. وكان من تلاميذه ديوجين السينوبي الذي طبع الحركة بطابعه. وقد عاش حياة تماثل حياة الكلب في بدائيتها ما

أكسبه لقب الكلبي وأُطلق على مدرسته وتعاليمه اسم الكلبية. والواضح أن النزعات العامة لهذه الحركة هي انعكاس للظروف الجديدة. كان جوهر التعاليم الكلبية هو الانصراف عن المتَع الدنيوية والتركيز على الفضيلة بوصفها الشيء الوحيد الجدير بأن نمتلكه، وأن المثل الأعلى للإنسان الحكيم هو سر السعادة الحقيقية، وهي إحدى الأفكار الموروثة عن مذهب سقراط غير أنها تمثل في هذا العهد رد فعل سلبي على أحداث العالم.

تحوَّل المذهب الكلبي بعد ديوجين إلى تراث واسع الانتشار، وأضحى له في القرن الثالث قبل الميلاد تأييد شعبي في جميع أنحاء العالم الهلّيني وهو يُعبِّر بصدق عن الأوضاع الأخلاقية السائدة، غير أن الكلبية من حيث هي حركة فلسفية لم تتصف بالاستقلالية والتلقائية ما يكفي لاستمرارها فأُدمجت تعاليمها الأخلاقية في التعاليم الرواقية.

وشرعت المدرسة الارتيابية مع الشكَّاك الأول بيرون في الحث على دستور حياتي يستند على الخضوع للعادات وعلى اتزان الروح والصراع التحريري ضد الأشباح، وعدم الاضطراب وهناءة العيش. وأعلن الشكَّاكون بعده وبخاصة خلفه تيمون الغليوسي أن الحكم يُخطىء كما تُخطىء الحواس، وأن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها، لذلك ينبغي إرجاء الحكم والاعتصام بالصمت والبحث عن الطمأنينة لا عن الحقيقة، أمام نزاعات الفلاسفة الذين جعل منهم أضحوكة للناس باستهزائه برواد المتحف الإسكندري وبحروب الكلاميين العقدية، وكان ذلك هجوماً خطيراً على أتباع أرسطو بفعل أن التفسير الأرسطي للبرهان العلمي يرتكز على المبادئ الأولى.

لم يعد مذهب الشك مدرسة مستقلة بعد وفاة تيمون في عام (٢٣٥ ق.م)، بل اندمج في الأكاديمية التي ظلَّت تتمسك بطابع الشك قرابة مائتي عام، وكان ذلك بطبيعة الحال تشويهاً للتراث الأفلاطوني. وخلال القرن الأول قبل الميلاد، عاد مذهب الشك ليصبح مرة أخرى تراثاً مستقلّاً، وانتمى إليه المفكر الساخر لوسيان في القرن الثاني الميلادي.

إن المرء حين يقارن بين التأملات الفلسفية للعهد الهليني ونظائرها في التراث الأثيني وفي الفلسفات السابقة له، لا بد أن يلفت نظره موقف التراخي والعناء الذي يميز عهد التدهور. فقد أصبح الناس، في ذلك العهد الذي تهاوت فيه أركان المجتمع القديم، يلتمسون الأمان، وإذا لم يتيسر لهم الحصول عليه جعلوا من الصمود أمام الصعاب فضيلة، ويظهر ذلك بوضوح في المدرسة الفلسفية لأبيقور. كان الهدف الرئيس لمذهب أبيقور هو بلوغ حال من الطمأنينة لا يعكر صفوها شيء، وأن الخير الأسمى عنده هو اللذة الجسمية والعقلية معاً، والمعروف أنه عانى كثيراً من المرض وآلامه التي لم تفارقه طوال حياته. وإذا كان قد كوَّن رأياً في العالم وفي علم الطبيعة، فإنه لم يفعل ذلك إلا لتحرير الإنسان من خوفه الوهمي من الآلهة على الرغم من أنه لم يُنكر وجودها ودورها في شؤون الإنسان الحياتية. وهو يكره الدين، لأنه في رأيه يقوم

على الجهل، ويظلم الحياة بما يبثه في النفس من رهبة السماء والأقدار الصارمة القاسية، والعقـاب الذي لا يقـف عند حـد، وأناط كل شـيء بالمصادفـة، وعـدَّ الأجسـاد والأرواح مجرد كتل من الـذرّات تتحرك من أعلى إلى أسفل بفعـل الجاذبية. والواقـع أن هذا النوع مـن أخلاق الحـذر والفطنــة كان مطلوباً في عصـر يعاني من انعدام الاستقـرار واليقين. وأضحت كلمة الأبيقوري تُستخدم علامة على حيـاة التـرف والمتعـة، لكـن مقيـاس اللذة الحقيقية هو عدم الشهوة والألم.

ولعل أقوى الحـركات الفلسفية تأثيراً هي الرواقيــة التــي أسسهــا زينــون الفينيقــي القبرصــي وتبنَّــت التعاليـم الأخلاقيــة، وقد أثَّــرت فــي نفســه حيــاة الكلبييــن البسيطــة والصارمــة، فأخــذ عنهــم المبــادىء الأولية لنظامــه الأخلاقي، وأنشأ مدرستــه الفلسفية في عام (٣٠١ ق.م).

اتفـق الرواقيــون مــع الأبيقوريــيــن في أن المعرفــة تنشــأ عــن الحــواس، وأن المقياس النهائي للحقيقة هو المـدركات الحسية التي يضطـر العقل إلــى قبولها على أنــه ليس من الضروري أن تؤدي التجارب إلى المعرفة، لأن بيــن الحــواس والعقـل توجـد الانفعــالات أو العواطف وقـد تُشوِّه التجارب فتجعلها أخطاء كما تُشوِّه الرغبات فتجعلها رذائل. والعقل هو أسمــى ما أحرزه الإنسان، وهو بذرة من بذور العقـل الكلـي الـذي ينظـم العالـم ويحركه. والعالـم كالإنســان مــادي بأكملـه، والإنسان عالم صغيـر ينسجم مـع الكـون، مركَّب من جســد تغلغلت فيـه روح، ومــا أشبـه الإنسان والعالـم بالكـون الصغيـر في الكـون الكبير، والله فـي هـذا النظام هـو البدايـة والوسط والنهايــة. وكان الرواقيون يعترفــون بضرورة وجود الدين ليكون أساساً للأخلاق الفاضلة، ويقبلــون علــم التنجيــم الكلدانــي ويعتقدون بصحته في جوهره، ويــرون أن شؤون الأرض تنطبــق انطباقاً خفيــاً مستمــرّاً على حركات النجوم.

ومن المسائــل الرئيسة التــي ظلت تشغل الاهتمــام طوال عهـد الفلسفــة الرواقية هي مشكلــة وحريــة الإرادة، إنها مسألــة فلسفية ظلَّــت تحتفـظ بقـدر مــن الحيويــة جعلهــا موضوعــاً لاهتمــام الفلاسفــة عبــر العصور وحتى يومنا هذا. ففي رأي زينون أن الطبيعة خاضعــة بدقـة لحكـم القانــون، وأن المادة الأصليــة هي النــار ومنها تنفصـل العناصر الأخرى بمضــي الوقت، ويحدث فــي النهاية حريـق شامـل ويعـود كل شــيء إلــى النــار الأصليــة، وتبـدأ الأمــور كلهــا سيرتهــا مــن جديـد. وتصـدر القوانين التي يسيــر العالم علــى مجراها عن سلطة عليــا تحكم التاريخ بـكل تفاصيلـه، فكل شــيء يحدث مــن أجل هــدف معين علــى نحــو مقـدَّر مُقدَّمــاً، أما الفاعليــة الإلهية فلا تُعـدُّ شيئــاً خارجاً عن العالــم وإنمــا هــي تسـري فيه كالمــاء حين يتســرب فــي الرمــال، وهكـذا فـإن الله قوة كامنة يحيا جزء منها داخل كل كائن بشري، وأسمى خير هو الفضيلـة وقوامها العيش في وحدة مع العالم، أما النعيم الدنيوي فلا يُعد ذا قيمة كبيرة.

إن الرواقيــة هــي فلسفــة نبيلــة وعملية، وحَّدت جميــع عناصر الفكر اليوناني ووضعت نظاماً أخلاقيّاً ترتضيه الطبقات التي خرجت

على الديـن القديم، على أننا إذا نظرنا إليها مـن حيث هـي نظريـة أخلاقية تبـدو نظاماً صارماً وعقيدة شاذة تهدف إلى الكمال ولكن بأسلـوب قـاس يتطلب مـن أصحابـه اعتزال المجتمـع، غيـر أنهـا نجحـت مـن حيث هي مذهب في استقطاب عدد من الأتباع يفوق ما استقطبه مذهـب أفلاطـون وأرسطو، ولكنها في واقع الأمر، خلقت رجـالاً شجعاناً خيِّرين أمثـال كاتـو الأصغـر وأيكتنـس وماركـوس أوريليوس وتأثر بها الفقه الروماني.

وكان الأدب أقـل إنتاجـاً فـي الحركـة الفكرية لكنه كان فـي الحقيقة جديداً، باحثاً عن الجدَّة في النوع والوزن والعاطفة والطابع. ويبـدو الانحطـاط واضحـاً فـي النثـر، ولعل بوليـب هو الأشهر مـن الناحيـة الأدبية، فهو شيـخ المؤرخيـن، اهتـم بأسلوبـه وطريقتـه وموضوعـه، لـه ثلاثـة كتـب هـي: رسالة في الفنـون العسكريـة وحيـاة فيلوبيميـن وكتاب التواريـخ الضخـم. وبـرز علـم البيـان على حسـاب الفصاحـة، واقتصـر علـى الصيـغ النظريـة والمَيْل إلـى وضوح قـارَب الجفاف ببساطته كما عند ليزياس، واشتهر إيزقراط بتلـك الجملة الطويلـة المتناسقة كما اتصف ديموستنيـس بالقـوة الثابتـة. ومـارس بعض المؤلفيـن نوعـاً مـن القصـة مثـل كتـاب أفيميروس الذي تخيل فيه بلاداً أسطورية.

ويبـدو الشعـر أفضـل تمثيـلاً، فظهرت قصائـد فـي الشعـر التعليمـي المخصـص لعرض المعارف العلمية مثل الزراعة والطب والنبـات المُعَد لتحضيـر العقاقير والثعابين السامَّـة. ونشـر أراتـوس الكيليكـي مؤلفات هوميـروس وعلَّـق عليها، ولـه قصيدتان في علم الحـوادث الجويـة وفي علـم الظواهر، واختـص بعـض الشعـراء بالبـلاط، لعـل أطرفهم كليماخـوس وثيوكريت السيراكوزي في مصر.

وكان للمسرح شأن كبير في العهد الهلِّيني، وقـد حـاول الاختصاصيـون استعـادة أمجاد العهد الكلاسيكي من خلال تأليف التمثيليات الفاجعـة والمأساويـة الانتقاديـة كمـا عنـد كليماخـوس. وأعـادت الجمعيـات الديونيسية تمثيليـات أوريبيد على مسـرح البناء الضخم التي حرصـت كل مدينة علـى تشييده. ومثَّلت كاهنـات باخـوس فـي عـام (٥٣ ق.م) فـي أراتكسـا عاصمة أرمينيـا بمناسبة زفاف ابن ملك البارثيين وشقيقة الملك الأرمني بحضور الملكين.

وكانـت الملهاة، وهـي التمثيليـة الهزلية، أبعد من أن يُعاد تمثيلها، وذلك لأسباب منها:

- إن لـون المهزلـة لـم يكـن لينسجم مع مبـادئ العهـد لأن عنفهـا الجدلـي وهواهـا الجامـح يتنافيان مع اللطافة التـي تحلَّى بها مجتمع هذب ذوقه تقدُّم الثقافة والفن.
- إن المهزلة بحاجة إلى تفسير مستفيض لأنه من حيث هي انتقاد يتصف بالتلميح إلى الحوادث، يستحيل فهمها بدون ذلك.
- إن الملهـاة تفرض ديمقراطيـة وتتحلّى بقسـط من التساهـل وتوجه الانتقـاد اللاذع إلـى الزعمـاء، وقـد زالـت هـذه الظـروف السياسيـة وأضحـى مـن الواجـب أن تتطور الملهـاة حتى تستمـر. ونرى هـذا التطور مع ميناندرس الأثيني.

ومارسـت صقليـة وإيطاليـا اليونانية لوناً مسرحيّاً آخر يختلف من حيث قِصَر المشاهد

ولا ينطوي على عقدة ويتصف بالفظاظة. وهناك مهازل قصيرة تُعبِّر عن الحياة الشعبية تفيض بالكلام المبتذل وتتميز بمهارة الوصف، مثل الأم التي تطلب من معلم المدرسة أن يضرب ابنها الشقي.

الخلاصة

لقد دمَّرت بلاد اليونان الهلِّينية نفسها وانحلَّت حضارتها وذلك بفعل عوامل عدة نذكر منها:

- تراجع الحرية الديمقراطية باستبدال النظام الجمهوري أو نظام دولة المدينة بالنظام الملكي.

- تراجع الحياة الاقتصادية بفعل عوامل التعرية وقطع الغابات وانجراف التربة الخصبة، فهجر الناس مدنهم، وواجهت البلاد نقصاً في الحبوب، واضطر السكان إلى استيراد الطعام والخشب. ولم تكن ظروف الصناعة بأوسع ازدهاراً من الزراعة، فلم ينفتح اليونانيون على الأسواق الشرقية بسبب تدنِّي صناعاتهم، وكسدت التجارة في المدن القديمة وراجت في المدن الجديدة، في آسيا ومصر، لكن خلقيس وكورنثة في أرض اليونان استفادتا من تيار التجارة الهلِّينية ما أعاد الازدهار الاقتصادي إلى أثينا بشكل خاص. وأتاحت الإصلاحات التي قام بها كل من فيليب والإسكندر الفرص لظهور حِرَف جديدة لم تكن معروفة في دول المدينة.

- شكَّل النظام الاجتماعي الطبقي رد فعل للظروف الاقتصادية التي عاشتها بلاد اليونان، فقد كثر أعداد الأغنياء ونمت الطبقة الوسطى في الوقت الذي استمرت الطبقة الدنيا تعاني شظف العيش، لكن وضع العبيد أخذ يتحسَّن بفعل فتح باب التحرير الفردي. وتدنَّى عدد السكان بفعل عزوف الرجال عن الزواج وعن تربية الأولاد حبّاً بالمال وحرصاً على الحفاظ على الثروة. وساعدت الآفات والاضطرابات الاجتماعية على تردي الوضع الاجتماعي، فقد قضت الحروب والأمراض على العديد من السكان فأقفرت بيوت كثيرة واضطرت حكومات المدن إلى تلافي النقص الحاصل في السكان بقبول الأجانب في مجتمعاتها، وحرمت هجرة الأيدي العاملة اليونانية إلى الشرق البلاد من عناصر فتية.

- عجَّل فشل نظام دولة المدينة في تدهور الدين، ذلك أن آلهة المدن قد ثبت عجزها عن حماية الناس والمدينة، وأدى اختلاط السكان بالتجار الأجانب إلى حدوث تغييرات في معتقداتهم وطقوسهم الدينية، وأدَّى قيام دولة اتحادية إلى حدوث تجديدات متفاوتة الأهمية لإرضاء ميول البشر وعواطفهم، مثل توحيد الآلهة والعبادة الملكية الأُسرية. واقتبس اليونانيون العادات الشرقية، ويُعدُّ ذلك اعترافاً ضمنيّاً بقصور معتقداتهم الخاصة. وحاول الفلاسفة أن يصوغوا للأدباء مذهب وحدة الوجود في صيغة لا تتعارض مع العقائد القديمة، وانتشرت الخرافات والأوهام في الوقت الذي بلغ فيه العلم أوجه.

- خضعت الفنون اليونانية لتجديد عميق الجذور، فأُدخلت عليها معانٍ روحية وقدرة على التأثير الديني، وتحسَّنت الظروف

المادية للحياة الفنية، وبرز طراز يوناني جديد في العمارة غايته دينية مثل المذبح الضخم لزيوس في برغاموس، ويدل ذلك على أن هندسة العمارة الهلينية لم تنفر من الإنجازات الضخمة بقياساتها.

- شهد العالم الهلّيني نزعتين تجديديتين تناولتا هندسة العمارة، وتمثلتا ببناء البيوت ومفهوم المدينة ووحدتها ككائن مادي.

- لقد طرأ تغير واضح على الفنون التصويرية مردُّه إلى الظروف المادية، وقد خضعت لنزعات مشتركة تتوافق مع ميول مجتمع متطور ماديّاً وأدبيّاً، وظهر أثر الإيمان الديني واضحاً في صناعة التماثيل، وكان للدين والموت والفلسفة والأدب أثر في تصميم بعض الزخارف في المعابد وفي تماثيل الآلهة، وتقهقر فن التصوير على الخزف.

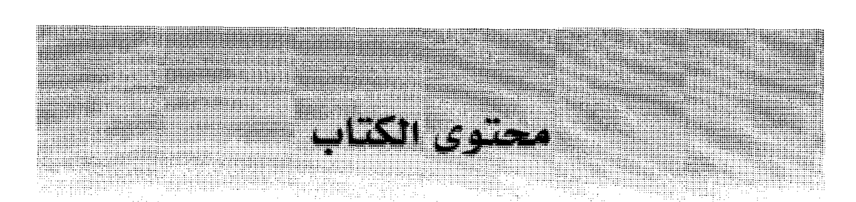
- شكَّل الانتشار الثقافي أحد ميزات العهد الهلّيني الرئيسة، فلم تعد الثقافة وقفاً على جنس ولا على نخبة محدودة، غير أن التقدم الفكري الحقيقي قد تمَّ على أيدي نخبة معينة. واشتهرت مؤسستان خارج بلاد اليونان ساهمتا في نشر وتطور الإنتاج الفكري هما المتحف والمكتبة. وتعددت المدارس العلمية والعملية ولازم العلم اليوناني الفلسفة وبقيت أثينا مركز النشاط الفلسفي، فقامت فيها الكلية المشائية والرواقية والكلبية والمذهب الشكّي والفلسفة الأبيقورية والرواقية.

- كان الأدب أقل إنتاجاً في الحركة الفكرية لكنه كان ذا موضوعات جديدة. ويبدو أن الانحطاط كان واضحاً في النثر، ويبدو الشعر أفضل تمثيلاً، وبرز علم البيان على حساب الفصاحة، وكان للمسرح شأن كبير في هذا العهد.

المصادر والمراجع

- إيمار، أندريه وجانين أوبوايه: **الشرق واليونان القديمة ـ الجزء الأول من تاريخ الحضارات العام**، منشورات عويدات، بيروت ـ باريس.
- ديورانت، ويل: **قصة الحضارة، حياة اليونان، المجلد الثاني الجزء الثالث**، ترجمة محمد بدران، القاهرة.
- رسل، برتراند: **حكمة الغرب**، ترجمة فؤاد زكريا، عالم المعرفة، العدد ٣٦٤، تموز، الكويت.
- Gardner, A.E.: **Ancient Athens**. N.Y. 1902.
- Rostoutzeff, M: **The Social and Economic History of the Hellenistic World**. Oxford 1941.
- Tarn, W.W.: **La Civilisation Hellenistique**, Paris 1936.





محتوى الكتاب

المكتبة التاريخية

- انتقال الطب العربي إلى الغرب
- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية
- التاريخ الإسلامي الوجيز
- تاريخ الخلفاء الراشدين
- تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة
- تاريخ الدولة الأموية
- تاريخ الدولة العباسية
- تاريخ الدولة العلية العثمانية
- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام
- تاريخ السلاجقة في بلاد الشام
- تاريخ سلاجقة الروم
- تاريخ العلاقات العثمانية الإيرانية
- تاريخ الفاطميين
- تاريخ فلسطين القديم
- تاريخ القدس وحاضرها
- تاريخ القوقاز
- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام
- تاريخ العثمانيين (من قيام الدولة إلى الانقلاب على الخلافة)
- تاريخ المسلمين في الأندلس
- تاريخ المغول العظام والإيلخانيين
- تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند
- تاريخ الإمارات العربية المتحدة
- تاريخ الدولة الصفوية
- تاريخ الطولونيين والاخشيديين والحمدانيين
- تاريخ العرب قبل الإسلام
- تاريخ ووثائق النصف الثاني من القرن العشرين
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين
- الحضارة الإسلامية في بغداد في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري
- حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران
- رحلة ابن بطوطة
- السلطة في بلاد الشام (في القرن الثامن عشر)
- سلسلة جهاد شعب الجزائر (١ ـ ١٥)
- سلسلة أعلام الحرب (١ ـ ٥)
- سلسلة مشاهير الخلفاء والأمراء (١ ـ ١٠)
- سلسلة مشاهير قادة الإسلام (١ ـ ١٥)
- سلسلة مشاهير قادة الحرب العالمية الثانية (١ ـ ٩)
- الفتنة ووقعة الجمل
- فجر الإسلام في مكة
- في رحاب العالم القديم الحديث
- القادسية
- القدس تاريخ وحضارة
- قضية البوسنة والهرسك
- محاسن الوسائل في معرفة الأوائل
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي
- المذاهب العسكرية في العالم
- المذهب العسكري الإسلامي
- من أوراق الانتداب

رقم: 539 – 11